ستاندال

صومعة پارما



النص كاملاً

النص كاملاً

زدني

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

ستاندال

صومعة پارما

مع ملف وملاحق

ترجمة
جوزف الياس

مراجعة
هنري زغيب

الطبعة الأولى ١٩٨٣

تقـــديم
بولــــموران

تقترع العقول المتفوقة، كل منها بـدوره وببطء في انتخاب سرّي، وتفرز أصواته بعد وقت طويل. وهذا ما يجعل لهذه المؤلفـات شهرتها.

بلزاك

تسافر الروائع فينا، ويكون لها مرة بعد أخرى، أن تصبح عـدّة كتب مختلفة في الـوقت نفسـه الـذي نغـدو نحن عـدة أشخاص. لا نطالع ستندال اليوم كما حين قرأناه يافعين. وإني اكتشفت عدة أديرة شارترية، بقيت خمسين سنة تائهة في ذاتي، وربما لم تنهِ دورتها بعد.

فتح أمامي السيد أرتور شوكي باب البيليّة (نسبة إلى هنري

بيل / ستندال) عام ١٩٠٨. كان صديقاً لأبي ولم أعرف إلاّ لاحقاً أنه كان نشر في بداية القرن مؤلفاً رائعاً عن ستندال، حافظ على روعته منذ ذلك الحين.

لما عدت من إنكلترا إلى فرنسا، في إجازة مدرسية، حملت معي مستنداً تاريخياً غير منشور، عن نابوليون، إلى المؤرخ أرتور شوكي، فتشت عنه، بناء على طلبه، بين مخطوطات المتحف البريطاني. ولمكافأتي متّنَ صداقتي بفابريس أو سان سيفيرينا. وكان يشرح لي أقدمية آل فارنيز أو روائع الكوريج.

«يا بنيّ، كان يبادرني وهو عضو المعهد العالي، أتظنّ هذه الرواية هي أولاً موسيقى ميتاستاز وفيردي؟ إنها موسيقى، كما رسم الكوريج سمفونية.

كان ستندال نفسه يقول: «تحملك ظلال الكوريج على أجنحة حلم لطيف؟ إنها الموسيقى تقريباً» وذلك في رسالة جوابية إلى بلزاك الذي كان أطرى الرواية. عندما يعدّد ستندال أسماء القصور الشهيرة أو قمم الألب بين الرين والدانوب، لا يفعل سوى عزف موسيقى الذكرى، موسيقى سنه العشرين.

في الوقت الذي كان شوكي، الطيب القلب بشاربيه الفوضويين وربطة عنقه ذات الدوائر، يطلعني على جمالات هذه الرواية لم أكن أطّلعت بعد على بحث بلزاك عن ستندال الذي

نشر في «المجلة الباريسية» يوم ٢٥ أيلول ١٨٤٠، إطراء عفوياً قضى على سرور هنري بيل المنفي في قنصليته، إلى تشيفيتا ـ فيكيا؟ «لا يمكن لرواية «صومعة بارما» أن تجد قراء إلاّ بين ألف أو ألف وخمسمائة شخص يقودون أوروبا». «ولا تندهش، كان يردف بلزاك، بلهجة انتقامية استفزازية، لو نشر هذا المؤلف المدهش قبل عشرة أعوام، لما كان صحافي واحد طالعه أو فهمه أو درسه أو أعلن عنه أو أثنى عليه أو حتى ألمح إليه. كل ما سأقوله هنا، أوجهه إلى القلوب الشريفة الطاهرة في كل بلاد، كرهط من الأدباء المغمورين».

هذه النخبة، هذه الضمة من القراء صارت اليوم ملايين. لم يعد من مؤلفات نادرة أو صعبة. يطلب مستمعو يوم الأحد في الراديو «الكونشرتو البراند بورجوا الثاني» كما كان يطلب آباؤهم «الدانوب الأزرق». وطبعة الكتاب هذه تثبت ذلك.

علمت أن ستندال يتمتع بساعات لهو كثيرة ولكن براتب ضئيل نسبة لجميع قناصل ذلك العهد. فكان يقوم بأبحاث أثرية، وينشىء شيئاً فشيئاً ما يسميه الأغنياء باحتقار «مجموعة قنصل»، ومرة أخرى يستكشف المخطوطات المحلية تفتيشاً عن مخطوطات قديمة.

وهكذا كان يشتري جميع حوليات النهضة الإيطالية التي كانت لا تزال ملتهبة بأهواء عمرها ثلاثة قرون. إن مؤلفي المسرحيات

والروايات من شكسبير إلى والتر سكوت، والشعراء وكتاب القصص من شيلي إلى ميريمه استقوا معلوماتهم من مؤرخي الأخبار القدماء، بدأ نبوغ بيل بتوسيعه هذه الرقوق إلى مقاييس «لوحة طولها خمسون قدماً وعلوها ثلاثون، تمّ تنفيذها بدقة هولندية» (بلزاك).

ولو أن ستندال لم يتدارك هذه الأخبار ويحركها بحبه البالغ للحياة، لما كانت سوى «قصص قطّاع طرق» تبعث السأم في النفس. «أشخاصه إيطاليون من القرن التاسع عشر يعيرهم انفعالات أبناء السادس عشر بحسب قول شوكي. يلبسهم درعاً ولكنه ينسى أن ينزع عن رؤوسهم قبعتهم العالية».

كان هذا الفارق يضايقني كثيراً في ذلك العهد. هؤلاء النبّالون الخارجون من «مذكرات تشليّني»، هذه الخناجر التي يعود عهدها إلى الكسندر فارنيز وتستغرب جدًّا مبارزة سيف مسرح جيليتي لستندال، هؤلاء الكرادلة الذين لم ترَ روما لهم مثيلاً منذ عهد بورجيا، هذا التعذيب المشدوه بأن يجد نفسه في عصر القانون المدني، هؤلاء الأساقفة ذوو الجوارب البنفسجية ويعشقون كما في بندللو، رغم تشدّد الحلف المقدس البالغ ذروته، كانت تبدو لي أخطاء تاريخية مضحكة. ولكن ما أن وضعتُ أنفي في الفصل الأوّل حتى كنت أدخل ذاهلاً، مسرعاً، فاقد الصواب، منتصراً إلى ميلانو وراء الجيش الفرنسي. نسيت

انتقاداتي البلهاء. وأصبح ذلك حقيقة أكثر من الحقيقة. لا شيء يبعث حيًا وكل شيء يحيا. كان ستندال شاباً يعيش حياته بصخب ويحدث فتوتي المتعطشة، من رجلي إلى رجل، ستندال بلحمه وعظمه، كما لو كنت التقيته في جادة الإيطاليين «بجبهته الحلوة وعينه النافذة وفمه الهازىء». (بلزاك). لم يكن «موسكا» الأمير لمكيافيلي ولا مترنيخ ولا الكونت سارو ولا دي تيّو بل كان الديبلوماسي الحقيقي، العميق، سيد أوروبا الذي يتمنى أن يكونه قنصل فرنسا المسكين، في تشيفيتا ـ فيكيو. كان جوليان سوريل، البعيد النظر، إلى جانب فابريس، يشبه عجوزاً مسكيناً. كان فابريس هو ستندال بنفسه، الملازم الفتي في الفوج السادس.

كانت بارما هي ميلانو سنيّه العشرين «يا لومبارديا العزيزة، حيث انقضت أجمل أيامي». كانت سنسفرينا وكليليا أيضاً بياترا غروا أو متيلد، كل غراميات المؤلف الميلانية. فيهن تحيا هذه البيئة الإيطالية الأليفة لجيش الاحتلال الفرنسي، الوطني والمتعاون معاً ويعبد نابوليون. إن رواية «صومعة بارما» هي كل حياة ستندال بما فيها من ذكريات، ومسرات ومغامرات عاطفية، وماضٍ رائع كان يجب نفض غبار النسيان عنه إذ هو لن يعود أبداً. أدرك بلزاك هذا الأمر تماماً عندما قال في الرواية: «هذا الأثر لا يستطيع تكوينه وتنفيذه سوى رجل بلغ الخمسين». إنها وصيّة ستندال أن يسقط صريع نوبة دماغية، قبل أن يتمكن من

تنقيح كتابه كما كان أشار عليه (ربما عن خطأ) بلزاك.

ذهبت لأقضي شهرين في تريميزو، على بحيرة كوم، حيث كان أهلي ينتظرون نهاية فصل الحرارة وأوان الرجوع إلى البندقية. وضعتني الصدفة وحدها، هذه المرة، وسط إطار «صومعة بارما». وجدتُ أمامي البحيرة الأوبالينية والتي ليست بحراً مثل ليمان أو مساحة ماء متماسكة كبحيرة غارد إنما سلسلة من الأحواض الصغيرة المغلقة تقريباً لا تنفتح إلا في النهاية عن ممرات متكسرة متعاقبة في روعة مشهدية لا متناهية.

هنا بلغت العشرين، وهنا أصبحتُ فابريس. كنت أجتاز كيلومتري البحيرة، حتى بيلاجيو، واصطاد السمك في مراكب ذات قناطر بواسطة خيوط صيد. كان فابريس يتفقد ليلاً «اللوحة المبطنة بالفلين يعلوها «قضيب جلّون» مرن مزوّد بجرس. كنت أرى الأولاد يلعبون عند مكسر الموج كالذين يقودهم بطلي «رئيس كل رحلات مزارعي غريانتا وكادينابيا». وحصل لي أن تقدمت ماشياً حتى لوغانو بين أشجار الكستناء ما سوى من أجل الاستمتاع باقتفاء خطى فابريس.

غريانتا، قصر المركيز دل دونغو. كم كان يستهويني آنذاك اكتشاف مكان أضع فيه كلمات الرواية كما لو كنت سائحاً أميركياً. أشعر اليوم بسرور أشد عمقاً في مواجهة الفراغ والتثبت من أن قصر غريانتا لم يوجد إلا في مخيلة ستندال. تبدأ القصيدة

حيث ينتهي دليل السفر. فضيلة الاسم وحدها تكفي للمرور من الاستذكار إلى التعزيم. غريانتا تُعرَف اليوم باسم غريانته. ما أن يترك جندل مناغيو الضفة ليصل إلى بيلاجيو عند آس البستوني الذي يكون قاعدة البحيرة. حتى ألمح انحدار أشجار الكستناء القديمة التي تعود إلى «عهد سفورزا»، دارة كارلوتا» يومئذ «سوماريفا» ذات اللون الأصفر الضائعة بين أشجار المانيوليا المدرّجة، وكلّ هذه المساكن نصف الاستوائية المهددة بتكتلات صخرية مائلة تكوّنها طبقات حجرية متدرجة، فوق الغابات على مستوى مراعي الصيف الصلعاء، شجرات السرو تخلصت هنا من كابوسها المزعج بألا تكون سوى شجيرات على مدفن؛ إنها أعمدة أحد هياكل السعادة. الدارات بلون أسماك الترويت الوردية الشهيرة في بحيرة كوم. لم أعد ألاحظ تآكل الضفاف التي عرفتها قبل نصف قرن ولا تزال تتمتع بمهابتها، وهي محاطة اليوم بصهاريج المازوت والمخيمات وملاعب الغولف الصغيرة، إن كنيسة القديس مرثينوس البيضاء الضائعة في كساء من الخضار ترفع برج جرسها المربع فوق قصر دل دونغو حيث سيعلم فابريس ما تسمّيه أسرته الرجعية «النبأ الرهيب»: إنزال نابوليون جيوشه إلى البر مما سيسمح له تحسين وضعه العسكري. لمح، في الفضاء نسراً رمزياً يتجه نحو سويسرا.

سويسرا! جنيف حيث ذهب فابريس ليرهن جواهر عمته، جنيف فندق الميازين حيث كان ينزل ستندال، سويسرا الباقية

قريباً من «هيلويز الجديدة». التي كان بيل مفتوناً بها؛ بحيرة ليمان حيث كاد يسقط جواده، ها هي سويسرا هنا وراء جدار ماجولا الصقت عليه عاصفة غربية سقطها المؤقت على الثلوج الخالدة أثناء الليل. وهذا هو جبل سان غوتار طريق باريس والحرية وواترلو.

(أما كان باستطاعة السمبلون حتى بدون نفق أو السان برنار، أن يقود فابريس بسرعة أكثر إلى بونتارلييه؟) باستمراري في السير أبعد من غريانتا، ألمح على شاطىء البحيرة، هذا الملجأ السويسري الأمين. هنا كان يضع ستندال جواسيسه النمسويين الذين يسخر منهم فابريس، إذ الحدود لم تعد تبعد سوى خطوتين. «سأنضمّ هذه الليلة إلى الامبراطور. سأمرّ عبر سويسرا». ويخضلّ انعكاس الجبال تكللها الثلوج في مياه البحيرة الخضراء الباهتة. إن حياة المغامرة الكبرى، انتقام للروائي من حياة المجالس أو حياة باريس. اختفت جادة الإيطاليين، الإيطاليين الاقحاح «القرب الأدنى من السعادة الكاملة» «القيام في كل آونة، بما يوفر أكبر قدر من البهجة». إنه نداء بيل/ فابريس للحرب. «نداء رائع، بديع، عاطفي، بلاد الجمال حيث يفضل العيش من استلام وظيفة في روما». صاح ستندال بإنكليزيته الغامضة. ما اسم هذه القرية الأخيرة إلى شمالي البحيرة عند حدود هذه البلاد الساحرة؟ فتشت عنه في خارطتي. إنه دونغوا إلى دونغو، السوق الأسبوعية في هذا اليوم، أواخر

تشرين الثاني، لمحت فجأة ضمن صناديق، آلاف العصافير ملزوزة بعضها إلى بعض كعصفور التين والخضيري والشكب والبابا والزرزور، هي ذاتها التي كان يسقطها فابريس مع القبرات التي كان يحب ستندال أن يصطادها وتبدو في ارتعاشها الساكن كبيضة فوق نافورة ماء.

كان فابريس يعود غالباً إلى الوراء على متن «مركبه الخاص» من دونغو إلى آخر أشجار الزيتون النحيلة المتجمدة، تحت أشجار الصفصاف تغسل شعورها في مياه البحيرة، حتى كوم. أرافقه هذا الصباح، عند بزوغ الفجر، عندما تهبط الشمس في قصر الكوب حيث ثوى المرفأ، إلى كوم، على جبل برونات. كوم التي تشبه أنّيسي القديمة ببيوتها ذات القناطر الربعة الغليظة وأبراجها المعدة للمراقبة على قمم الجبال، ومكسر الموج فيها حيث تنتظم المراكب البيضاء كالسجائر في علبتها، وتبرز خضرتها من تحت أشجار الأرز كالمسلات الصلبة والتماثيل المقطبة التي تنفتح على بساتين سرية تفتح بحواجز ضخمة من الحديد المطروق. هذه نهاية إيطاليا الخطرة، إيطاليا القرن الخامس عشر. إنه الدخول في منطقة أمان، لومبارديا القرن السادس عشر حيث حلّت القصور المحصنة مكان الشرّفات المزينة بالفسيفساء والدارات الفسيحة التي تجرؤ أن تفتح نوافذ على الطبيعة. هنا، تشمل العين أكثر مشاهد الرواية. من هذه القمة، يمتدّ النظر من سان موريتز حتى ميلانو، من المثالج حتى

هذا السهل اللومباردي الذي سيؤلف إطار «صومعة بارما».

لماذا اختار ستندال بارما بالذات، حيث تملك اليوم امرأة مسكينة كما يقول، امبراطورية فرنسية سابقة، مصابة بداء المفاصل، تتملكها شراهة الطعام وإغواء أسياد البلاط العظماء، ماري لويز المنصرفة إلى نسيان نابوليون الذي لم يكن ستندال يفكر إلا في إحيائه. يشرح المؤلف هذا الأمر بوضوح في جوابه إلى بلزاك: اختار بارما لأنه عام ١٨٣٨، كانت هذه الغراندوقية الصغيرة أقل خطراً بين كل البلدان تصلح لعمل روائي تجري أحداثه في إيطاليا. لم تكن ماري لويز شديدة الحساسية. وعهد ملكيتها ليس سوى مؤقت، إذ لم تنل بارما بالوراثة. وأن أصحاب الدوقية الحقيقيين هم بوربونيو إسبانيا الذين ما زالوا مرشحين لوراثة العرش. وكان بإمكان نييبرغ وحده أن يستاء لرؤية ستندال يقيم حكماً استبدادياً في بارما عام ١٨٣٨، غير أنه كان يثوي داخل قبره الفخم في شيكاتا. لم يكن مسموحاً لقنصل فرنسا في تشيفيتا فيكيا أن يدخل الأراضي النمسوية أي الضفة الأخرى من نهر البو. فهل سيجازف بخسارة صداقة البابا في اتخاذه روما إطاراً للأحداث؟ لم يكن باستطاعة «صومعة بارما» مهاجمة دولة كبرى.. بسبب التفاصيل الإدارية» كما يقول ستندال شارحاً لبلزاك (ماذا كان سيقول اليوم؟) كانت بارما توفر له كل المزايا بحيث يستطيع الروائي أن يعيد إلى العرش، دون مخاطرة آل فارنز، مشاهير قضوا (الأكثر شهرة بين من ماتوا).

زار ستندال بارما أربع أو خمس مرات منذ اجتيازه الأبنان عام ١٨٠١. وقصته أضفت عليها جمالاً فائقاً مع أنه يتكلم عليها كمدينة تافهة للغاية. وإن كان جعل لها مسرحاً واحداً بدلاً من اثنين، منحها قلعة وبرجاً مشؤوماً مرعباً ورحباً لآل فارنيز «على شكل ضريح أدريانوس». هذا البرج الاصطناعي حيث ينحصر فابريس، جعله ستندال يتمتّع بمشهد يمتدّ حتى الألب. وهذا ما يدلّ على تصرّفه جريئاً بالجغرافية. وأخيراً شاد بيل «على ميلٍ من المدينة» ديراً أصبح بفضله شهيراً كصومعة بافيا.

هذا الدير الذي يبذل السيّاح الفرنسيون، إذ تتملكتهم خيبة مريرة، كثيراً من الجهد للعثور عليه، لم يعد اليوم سوى اصلاحية وضيعة، في الشمال على طريق غواستلا. والمأسوف عليه هنري بيدو وصفه بتفصيل. كان يجده جميلاً وفاخراً ويستحق أن يكون إطاراً لتوبة فابريس، بينما دي امبرا قال في مجلة «بريد السيرا» يوم ٢٥ تشرين الأول ١٩٣١ أن لا أهمية للبناء (لنعطه الحق) بدّل ستندال مكان هذا الدير ليقرّبه من قصر ساكا، مسكن سنسفرينا. مع أنّ قرية اسمها ساكا بالقرب من سنغينيا، هي القصر الحقيقي لعمة فابريس. والقصر يبعد خمسة عشر كيلومتراً عن بارما، كولورنو إحدى ممتلكات آل فارنيز حيث كانت ماري لويز تحب أن تقيم، لا بارما التي كالخندق له، لون مياهها كلون الزيت الوسخ يقول لالند (الذي

كان كتابه «رحلة في إيطاليا» أحد مصادر ستندال): «نادراً ما يصطاد الأمير في هذا المكان خوفاً من أن تهرب الحيوانات من دولته». البستان مهمل؛ وعبثاً تفتش فيه عن أشجار البرتقال والحامض والكهوف؛ وأسكنت البلدية التقدمية، تحت روافد السقوف البوربونية أسراً كثيرة يبدو غسيلها الكتاني يجف في النوافذ. وبما يختص بالضفاف المجاورة لنهر البو، فإن فابريس ينط قافزاً من حدود ايطالية إلى أخرى، من نوفارا إلى رمانياتو أو إلى بولونيا كما من خلال دولاب، عدا الحدود الإيطالية ـ السويسرية الأكثر تعقيداً يجتازها البطل عابثاً ولم يعد يُرى فيها أيٌّ من تلك الأحراج والغابات الكثيفة التي نثرها ستندال في كل مكان. عندما ينصح موسكا سنسفرينا بشراء ساكا «وسط غابة تشرف على البو» كان يبالغ. فالبو هو السدود المستقيمة الموازية لضفتي النهر، والجزر المهجورة لنهر قريب الشبه باللوار بحصاه المدحرجة والمقتلعة من الألب، ورماله الرمادية بلون الجرافة الجبلية. ليس للبو من خضرة سوى الضفاف والدردار والحور، حيث كان فابريس يختبىء، هذا الحور اللومباردي الذي يفسد في الهواء، ويقسو جداً في الماء، حتى أن البندقيين يستعملونه كأوتاد ترتكز عليها بيوتهم في الماء.

البارحة، كاليوم. إنه الخريف «في ١٠ تشرين الثاني، يلاحظ ستندال، أن الأشجار لا تزال بروعة أوراقها كاملة ذات المشحة الحمراء والسمراء القاتمة، أشجار الكرمة تتصل في ما بينها

بغصونها المنحنية تحت ثقل ثمارها المخضبة». انتهى قطاف العنب. وما وضع تحت المعصر حتى بدأ العصير يختمر وتنتشر رائحته بين رائحة العنب والنبيذ. أعرف هذا السهل جيّداً بحقول درته الحزينة وتوته ودلبه الأبيض المختلفة اختلافاً كبيراً عن أشجارنا. كنت ضيف هذا السهل في قصر سورانيا إحدى أشهر الأسر البارمانية. وليست هذه المنطقة كلها اليوم سوى بلاد دون كاميليو.

كل بارما... البيوت «الأكثر اعتباراً والأشد فرحاً» التي تتحدث عنها هذه الرواية.

أفتش عنها عبثاً. أين قصور سان فيتال، بلافيتشيني، روسي ملاسبينا الرائعة التي كانت الدوقة سنسفرينا تمحوها بما تملك من مفاتن. يرتفع فندقي المتقن الجديد الذي يحمل اسم «جولي ستندال» الفريد (مزيج قبيح من الثقافة الفرنسية ونادي الروتاري) فوق خرائب بيلوتا الوردية والبيضاء، أي القصر الغراندوتي القديم. «كان اليوم شديد الطول»، «سويداء مرعبة تملأ نفسي» «كانت عربتي ضجرة». يقول ستندال وهو يكتب مذكراته عن رحلة بارما. احتفى بهذه المدينة دون أن يحبها. كان اسم بارما ما يزال متصلاً بالبحث عن السعادة في العواطف الرقيقة، ويخصها ستندال بهذا النشيد اللاأخلاقي الواله: «صومعة بارما». بارّيس. لم يجد بيل السعادة الحقيقية في ميلانو؛

وهو يتبرم في أي مكان آخر. ولا ينتظر سوى وفاة مترنيخ ليعود إليها مجدّداً. . بارما بأقواس قرميدها المحطّمة بنار السماء. بارما المحرومة من مسرح فارنيز لأربع مرات أكبر من مسرح فيسنس، حولته الطائرات الأميركية إلى رماد، لن يفيد فابريس بشيء. «إما بلاط أو أميركا. . . ولكن هنا ليس من أوبرا». كان يقول، قبل أن يختار طريق الله.

يجري البو سريعاً كنهر انحلّ جليده، وراء ردميات الصخور المكسرة، وحفريات الجرافة أو جذل أشجار الصفصاف المتآكلة. كان الله ينتظر فابريس الجموح داخل أحد الأديرة الواقعة بالقرب من البو كما الشبكة تنتظر السمكة. سيدخله حليق الرأس ليفتش فيه عن الهدوء. سيغفر له الله خطاياه العظيمة لأنها خطايا فردية. ولن يجد فبارسة اليوم سوى الاصلاحية، لأن خطاياهم من تلك الاجتماعية التي ليس لمثيلها غفران.

بول موران

تنبيه المؤلف

كُتِبَت هذه الرواية، خلال شتاء ١٨٣٠، على ثلاثمائة فرسخ من باريس ولهذا ليس فيها أي تلميح عن أحداث ١٨٣٩.

يوم كانت جيوشنا تجوب أوروبا قبل ١٨٣٠ بأعوام عدة، منحتني الصدفة بطاقة سكن في بيت أحد الكهنة. كان ذلك في بادوفا، إحدى مدن إيطاليا الرائعة؛ وطالت إقامتي فيها فغدوت والكاهن صديقين.

عند نهاية ١٨٣٠، لدى مروري ببادوفا، ركضت إلى بيت ذاك الكاهن الطيب. كان توفي. وكنت أعرف ذلك ولكني وجدت نفسي راغباً في رؤية غرفة الاستقبال، حيث قضينا أمسيات عديدة حلوة، أسفت لانقضائها شديداً. وجدت ابن

شقيق الكاهن وزوجته استقبلاني كصديق قـديم. انضمّ إلينا فجأة بعض الأشخاص ولم نفترق إلاّ بعد مضي وقت طويل. جلب لنا ابن شقيق الكاهن زمباجون من مقهى بدروتي. وما جعلنا نطيل السهر، قصة الدوقة سنسفرينا التي أشار إليها أحد الحضور وأراد ابن شقيق الكاهن أن يقصها كاملة، كرامة لي.

قلت لأصحابي:

ـ أذهب إلى بـلاد لن أعرف فيهـا أبداً سهـرات كهـذه. وسأجعل من قصتكم هذه رواية أكتبها كي أمضي ساعات الليل الطويلة.

في هذه الحال، قال ابن شقيق الكاهن سأعطيك حوليات عمي الكاهن الذي يذكر في مقال له عن بارما، بعض دسائس هذا البلاط، يوم كان للدوقة نفوذ واسع. ولكن أحذّرك: هذه الرواية ليست أخلاقية إطلاقاً، وأنتم تفاخرون اليوم، في فرنسا، بطهارة إنجيلية، فيمكنها أن تكسبك شهرة مجرم.

وإني اليوم أنشر هذه الحكاية دون أن أبدّل شيئاً عن مخطوطة ١٨٣٠. مما يمكن أن تكون له عقبتان:

الأولى للقراء: إن الأشخاص إيطاليون فقد يعيرونهم اهتماماً أقل. إن قلب هذه البلاد يختلف تماماً عن القلوب الفرنسية. الإيطاليون حاذقون وطيّبون وغير نفورين ولا يصابون بالزهو إلا عرضاً. وعندئذٍ يصبح انفعـالاً، ويأخـذ اسم الافتخار والفقـر

عندهم لا يثير أية سخرية.

العقبة الثانية تتعلق بالمؤلف.

وأعترف ان كانت لي الجسارة بأن أترك للأشخاص خشونة طباعهم، ولكن أصرح بالمقابل، عالياً، إني أصب اللوم على الكثير من مآثيهم. ما الفائدة من إعطائهم أخلاقاً سامية ورقة طباع الفرنسيين الذين يحبون المال فوق كل شيء، ولا يرتكبون الخطأ أبداً عن كره. ولا عن حبّ. إيطاليو هذه الرواية هم تقريباً النقيض. ومن ناحية أخرى يبدو لي، في كل مرة يتقدم فيها الشخص مائتي فرسخ من الجنوب إلى الشمال، ينفسح المجال عن منظر جديد كما لرواية جديدة. وكانت ابنة شقيق الكاهن عرفت الدوقة سنسفرينا وأحبتها، فَرَجتني ألاّ أبدّل شيئاً في مغامراتها المشبوهة.

٢٣ كانون الثاني ١٨٣٩



ليتوغرافيا من فانتين لاتور إلى ستندال

القسم الأول

١

ميلانو ١٧٩٦

دخل الجنرال بونابرت ميلانو، يوم ١٥ أيار ١٧٩٦، على رأس جيشه الفتي، وكان لم ينقض وقت طويل على اجتيازه جسر لودي، ليخبر العالم أن خليفة لقيصر والاسكندر وُلِدَ بعد أجيال طويلة. معجزات البطولة والنبوغ شهدتها إيطاليا في أشهر. أيقظت شعباً يرتع في الخمول. قبل وصول الفرنسيين بثمانية أيام، كان الميلانيون يرون فيهم لمامة من قطاع الطرق، معتادين على الفرار أمام الجيوش الامبراطورية والملكية التابعة لجلالته: وهذا ما كانت تردّده، ثلاث مرات، على الأقل أسبوعياً،

صحيفة كبيرة بحجم الكف، مطبوعة على ورق قذر.

برهن اللومبارديّون الجمهوريون، في القرون الوسطى، عن شجاعة شبيهة لشجاعة الفرنسيين فاستحقّوا أن يروا تقويض مدينتهم بكاملها من أباطرة ألمانيا. وأصبحت قضيتهم الكبرى، منذ غدوا رعايا أمناء، طبع سونيتات على مناديل صغيرة من التفتا الورديّ عندما يقترب ميعاد زواج فتاة تنتمي إلى أسرة شريفة أو ثرية. بعد سنتين أو ثلاثة على هذه الفترة الزوجية من حياتها، كانت الفتاة تتّخذ لها عشيقاً تختاره بعض المرات أسرة الزوج وغالباً ما كان يتّخذ مركزاً مرموقاً في عقد الزواج. كان البون شاسعاً بين هذه الطبائع المخنثة وبين الانفعالات العميقة التي أثارها الجيش الفرنسي بهجومه المفاجئ. نشأت سريعاً تقاليد جديدة ومتوقدة. وفي ١٥ أيار ١٧٩٦، أدرك شعب بكامله أن كل ما سبق ومحضه احترامه، مدعاة للسخرية وحتى للمقت. جلاء آخر فيلق نمسوي سجل انهيار الأفكار القديمة: أصبح تعريض الحياة للخطر زيّاً شائعاً. ورأى الناس أنهم، لكي يسعدوا، بعد أعوام من المشاعر المبتذلة، يجب عليهم حب الوطن حباً حقيقياً والسعي إلى الأعمال البطولية. كان الناس غارقين في ليل عميق نظراً لاستمرار طغيان شارلكان وفيليب الثاني، فقلبوا تماثيلهما ووجدوا أنفسهم فجأة مغمورين بالنور. ومع انتشار الانسيكلوبيديا وفولتير في فرنسا، مدى خمسين سنة، راح الرهبان يصيحون في آذان شعب ميلانو الطيب، أن تعلّم

القراءة أو أي شيء آخر في الدنيا، جهد باطل، وللتأكد من نيل مكان لائق في السماء، على الشعب أن يدفع العِشر للكاهن والاعتراف الكامل بكل الخطايا، حتى الصغيرة منها. ولإثارة هذا الشعب، الذي كان قديماً رهيباً، ومتعقلاً، باعته النمسا. بسعرٍ بخس امتياز عدم تجنيد الميلانيين في جيشها.

كان الجيش الميلاني يتألف عام ١٧٩٦ من أربعة وعشرين نذلاً يرتدون ثياباً حمراء، ويحرسون المدينة بالاتفاق مع أربعة أفواج رائعة من رماة الجيش المجري. كانت الحرية الأخلاقية منفلشة. أما العاطفة فنادرة الوجود. يقابلها من ناحية أخرى، وجوب إخبار الكاهن بكل شيء تحت طائلة الخراب حتى في هذا العالم. كان شعب ميلانو الطيّب لا يزال خاضعاً لبعض الموانع الملكية الصغرى المسببة للكدر. فالأشيدوق مثلاً، الذي كان مقيماً في ميلانو، ويحكمها باسم ابن عمه الامبراطور، أتته فكرة الاتجار بالقمح، - وهي فكرة مربحة - فمنع بالتالي المزارعين من بيع الحبوب قبل أن يكون سمّوه ملأ مخازنه.

في أيار ١٧٩٦، قبل دخول الفرنسيين بثلاثة أيام كان رسّام شاب، معتوه قليلاً، اسمه غرو، مشهور منذ ذلك الحين، أتى مع الجيش الفرنسي، بعدما سمع في مقهى سيرفي، الذي كان مقصوداً يومذاك، أخبار مآثر الأرشيدوق المعروف بسمنته، فأخذ لائحة المرطّبات، المطبوعة كإعلان على صحيفة من الورق

الأصفر الرخيص، ورسم الأرشيدوق السمين على قفا الصحيفة وأحد الجنود الفرنسيين يوجه حربة إلى بطنه، فتخرج منه عوضاً عن الدماء، كمية هائلة من القمح. لم تكن هذه الطريقة معروفة في بلد ذي حكم استبدادي، سواء دعي الرسم دعابة أو كاريكاتوراً. بدا الرسم الذي تركه غرو على طاولة المقهى معجزة من السماء. فحُفِر وطبع أثناء الليل وبيعت منه في اليوم التالي عشرون ألف نسخة.

في اليوم ذاته، أُلصِقَت إعلانات عن فرض ضريبة حرب بستة ملايين، لسدّ حاجات الجيش الفرنسي الذي ربح ست معارك واحتلّ عشرين ولاية، إنما كانت تنقصه أحذية وبناطل وثياب وقبعات.

كانت موجة السعادة والفرح، التي ظهرت في لومبارديا مع هؤلاء الفرنسيين الفقراء، بلغت حداً بعيداً حتى أن الكهنة وحدهم وبعض الأشراف تنبهوا إلى فداحة هذه الضريبة البالغة ستة ملايين، والتي تبعتها بعد وقت قصير ضرائب أخرى كثيرة سواها. كان هؤلاء الجنود الفرنسيون يضحكون ويغنون طيلة اليوم. وكان لا يبلغ عمر الواحد خمسة وعشرين وقائدهم الأعلى سبعة وعشرين ويعتبر المعمّر الأكبر في الجيش. هذا المرح، هذا الشباب، هذه اللامبالاة تتوافق، بطريقة مسلية، مع مواعظ الرهبان الساخطة الذين ما فتئوا منذ ستة أشهر يذيعون من أعلى

المنابر المقدسة أن الفرنسيين مسوخ مرغمون تحت طائلة الموت، أن يحرقوا كل شيء ويقطعوا رؤوس كل الناس ولهذه الغاية تمشي كل فرقة وأمامها المقصلة.

كان الناس في الأرياف يرون الجندي الفرنسي على أبواب الأكواخ يجهّز سرير طفل سيدة البيت باهتمام. وكان أحد ضاربي الطبل يعزف على الكمان، تقريباً كل مساء ويرتجل حفلة راقصة.

فيما الرقصات المخالفة تقنية جدًّا ومعقّدة، وهم يجهلونها جهلاً مطبقاً، يصعب معه على الجنود تلقينها لنساء البلاد اللواتي كن يعلّمن الجنود الفرنسيين المونفرين والقافزة وسواها من الرقصات الإيطالية.

أُسكِنَ الضباط قدرّ المستطاع عند أناس أثرياء، وكانوا بحاجة ملحّة للراحة من أجل استرداد قواهم. نال ملازم اسمه روبير بطاقة سكن، في قصر المركيزة دل دونغو. وهذا الضابط، طُلبَة شاب نشيط كفاية، كان يملك لدى دخوله القصر ريالاً قيمته ستة فرنكات تلقاه من بليزانس قبل قليل. بعد اجتياز جسر لودي، استولى من ضابط نمسوي، قتل بقذيفة، على بنطلون رائع جديد تماماً ولم يحصل أن لبس ثوباً مناسباً مثله هذه المرة. كانت كتافيات ثوب الضابط من الصوف، وقماشته مخاطة ببطانة الأكمام، لكي تتماسك جميع الأجزاء معاً. ولكن كان ظرف

أشد مدعاة للحزن: نعل حذائه كان مصنوعاً من قطع قبعة وجدها في إحدى ساحات القتال، وراء جسر لودي. ويبقى النعل المرتجل متصلاً بأعلى الحذاء بخيوط ظاهرة، حتى أنه لما حضر رئيس خدم القصر إلى غرفة الملازم روبير ليدعوه إلى تناول الطعام مع المركيزة غمرته حيرة قاتلة. فقضى والجنديّ الملحق بخدمته، الساعتين الفاصلتين بينهما وبين موعد الفطور المقدر، يجرّبان رتق البزة قدر الاستطاعة وصبغ الخيوط المهلهلة بالحبر الأسود. وأخيراً حلت اللحظة الفاجعة.

«لم أكن في حياتي متضايقاً مثلي في هذه الساعة، كان يقول الملازم روبير. هؤلاء النسوة يفكرن أني سأخيفهن، وها أنا أرتجف منهنّ. كنت أنظر إلى حذائي، ولا أعرف كيف أمشي بكياسة. وكان يضيف، أن المركيزة دل دونغو ظهرت في أبهى حلل جمالها، عرفتموها بعينيها الرائعتين بهذا الرونق الملائكي وشعرها الفاتن الأشقر الغامق يرسم بطريقة مثلى وجهها البيضاوي الرائع. كان عندي، في غرفتي «هيروديا» لليونار دي فنشي، وكأنها صورتها. وأراد الله أن يأسرني جمالها الخارق حتى نسيت بزتي. لم أكن أرى منذ سنتين سوى الأشياء القبيحة البائسة في جبال جين. تجرأت ووجهت إليها بضع كلمات عن إعجابي وافتتاني بها.

«ولكنني كنت أتمتع بقدر كاف من الإدراك كي أتوقف طويلاً

عند حدّ المجاملة. وفيما أنمق عباراتي، كنت أرى في غرفة الطعام الرخامية كلها، إثني عشر غلاماً وخادماً مرتدين ما بدا لي عندئذ ذروة الفخامة. تصوّروا أن هؤلاء الأخساء كانوا ليس فقط ينتعلون أحذية صالحة بل يضعون أيضاً أقراطاً فضية. وكنت ألحظ من طرف عيني كل هذه النظرات البلهاء المركزة على ثوبي وربما حذائي أيضاً، مما كان يدمي قلبي. كان بإمكاني أن أخيف كل هؤلاء الناس بكلمة واحدة. ولكن كيف أعيد الأمور إلى نصابها دون المجازفة بتنفير السيدات؟ المركيزة، لتوفر عنها بعض الشجاعة كما قالت لي مئة مرة منذ ذلك الحين، أرسلت تسدعي أخت زوجها من الدير، وهي طالبة داخلية في ذلك الوقت، وغدت من ثم الكونتيسة الرائعة بيترا نيرا، والتي لم يفقها أحد، أيام الرّخاء، مرحاً وروحاً أنيسة وشجاعة وهدوء نفس أيام الشدّة والبؤس.

«جينا التي يقدّر عمرها يومئذ بثلاثة عشر عاماً، كانت تبدو في الثامنة عشرة، فرحة وصادقة. كانت تخاف أن تضحك عند رؤية ثوبي، حتى لم تجرؤ على تناول الطعام. كانت المركيزة، على العكس ترهقني بالمجاملات المتكلفة، وترى بوضوح في عيني إشارات نفاد صبري. باختصار كنت أبدو كالأبله، وهذا أمر يستحيل على الفرنسي. كما يقولون. وأخيراً هبطت علي فكرة من السماء أنارت عقلي.

أخذت أقص على هؤلاء السيدات أخبار بؤسي وما قاسيناه

قبل سنتين في جبال جين حيث كـان يحتجزنـا عمُد مسنّـون أغبياء، كانوا يعطوننا حوالات حكومية غير سارية المفعول في البلاد وثلاث أوقيات خبز كل يوم! لم أكن تكلمت دقيقتين حتى دمعت عينا المركيزة الطيّبة. وكانت جينا اتخذت موقفاً رصيناً.

قالت لي هذه الأخيرة:

ـ ماذا، يا حضرة الملازم، ثلاث أوقيات خبز!.

ـ نعم، يا آنسة، وكان التوزيع بالمقابل ينقص ثلاث مرات في الأسبوع، وبما أن المزارعين الذين كنا نسكن عندهم أشد بؤساً منا، كنا نعطيهم قليلاً من حصتنا.

ولدى مغادرتنا المائدة، قدّمت ذراعي للمركيزة ورافقتها حتى باب غرفة الاستقبال، ثمّ عدت مسرعاً وأعطيت الخادم الذي تولى خدمتي على المائدة ريال الستة فرنكات الوحيد الذي كنت بنيت على استعماله كثيراً من الأحلام الواهية.

«ثمانية أيام بعد ذلك، تابع روبير، إذ تأكّد للنـاس، أن الفرنسيين لا يقطعون عنق أحد، عاد المركيز دل دونغو من قصر غريانتا، على بحيرة كوم، حيث كان لجأ عند اقتراب الجيوش الفرنسية، تاركاً زوجته الشابة التي كانت تتمتع بقسط وافر من الجمال، وأخته. كان الكره الذي يضمره لنا هذا المركيز يساوي خوفه، أي بدون حدود. وعند مجاملته إياي، كان وجهه الكبير، الممتقع والورع، مدعاة للضحك. وغداة يوم عودته من ميلانو،

تلقيت ثلاثة أذرع قماش ومائتي فرنك من أصل ضريبة الستة الملايين فرنك، فأثريت وغدوت مرافق هؤلاء السيدات، كان بدأ موسم إقامة الحفلات الراقصة».

وقصة الملازم روبير هي قصة جميع الفرنسيين تقريباً. فبدلاً من أن يسخروا لبؤس هؤلاء الجنود الطيّبين، أشفقوا عليهم، وأحبّوهم.

لم تدم هذه الفترة من السعادة الطارئة سوى سنتين قصيرتين. كان الجنون مفرطاً وشاملاً حتى ليتعذّر عليّ إعطاء فكرة عنه بغير هذه العبارة التاريخية العميقة: كان هذا الشعب سئماً منذ ماية عام.

سيطر الرفاه الطبيعي ماضياً على بلاد آل فسكونتي وآل سفورزا. الدوقة المشهورين في ميلانو. ولكن الإسبان كانوا استولوا على الميلاني، منذ ١٦٣٥، كأسياد مرتابين متعجرفين وخائفين من الثورة. فبارح الفرح قلوب الميلانيين. وعند تطبع الشعوب بأخلاق أسيادها، تنصرف إلى التفكير بالانتقام لأقل إهانة، بضربة خنجر، بدلاً من تستمتع بالوقت الراهن.

الفرح المجنون والجذل واللذة ونسيان كل المشاعر الكئيبة أو المعتدلة فقط، بولغ فيها إلى حد أنه منذ ١٥ أيار ١٧٩٦، يوم دخل الفرنسيون ميلانو، حتى ١٧٩٩ تاريخ طردهم منها إثر معركة كسانو، أمكن ذكر تجّار قدماء من أصحاب الملايين

ومرابين وكتّاب بالعدل قدماء، نسوا أن يكونوا مكتئبين وأن يكسبوا المال خلال هذه الفترة.

كان بالإمكان، على الأكثر، إحصاء بعض الأسر المنتمية إلى الطبقة الشريفة العليا، كانت اعتزلت في قصورها الريفية، مقاطعة البهجة العامة وانشراح جميع القلوب. هذه الأسر الشريفة والثرية كانت خُصّت بطريقة مؤسفة، في توزيع ضرائب الحرب المفروضة للجيش الفرنسي.

اغتاظ المركيز دل دونغو أن يرى هذا القدر من البهجة، فكان أول من اعتزل داخل قصره الفخم في غريانتا، الكائن أبعد من كوم حيث قادت النسوة الملازم روبير. هذا القصر كان موقعاً محصناً في مكان، فريد ربما في العالم، على هضبة تعلو مائة وخمسين قدماً هذه البحيرة المهيبة، ويشرف على قسم منها، وكانت بنته أسرة دل دونغو في القرن الخامس عشر، كما تشهد بذلك البلاطات التي تحمل شعائره، كانت فيه جسور متحركة وخنادق عميقة إنما دون ماء، ولكن هذا القصر الذي يبلغ علو جدرانه ثمانين قدماً وعرضها ستة أقدام، كان بمنجاة من أي هجوم مفاجىء، ولهذا كان عزيزاً على قلب المركيز الحذر. وكان أقلّ خوفاً فيه منه في ميلانو، إذ يحيط به من خمسة وعشرون إلى ثلاثين خادماً يفترض فيهم الإخلاص، ظاهرياً على الأقل، لأنه لم يكن يكلّمهم إلا والشتيمة على شفتيه.

لم يكن هذا الخوف دون سبب، إذ هو كان على اتصال نشيط بجاسوس نمسوي أرسلته النمسا إلى الحدود السويسرية، على ثلاثة فراسخ من غريانتا، لتهريب السجناء الأسرى في ساحة الحرب. وهذا ما كان بإمكان القادة الفرنسيين حمله محمل الجد..

كان المركيز ترك زوجته الفتية في ميلانو تدير شؤون الأسرة وكانت مكلفة بمجابهة تغطية الضرائب المفروضة على قصر دل دونغو، وتسعى لتخفيضها مما كان يفرض عليها مقابلة النبلاء الذين قبلوا الوظائف الحكومية وبعض العامة المتنفذين. وجرى فجأة في الأسرة حدث هام: كان المركيز أعدّ أمر زواج شقيقته من شخص ثريّ معروف، إلاّ أنه كان يتبرّج، فتستقبله جينا بالقهقهة والهزء..

وأخيراً اقترفت حماقة باقترانها من الكونت بيترا نيرا الذي كان شريفاً لائق المظهر لكنه مفلس أباً عن جد، وزاد في فقدان الحظوة، أنه نصير متحمس للأفكار الجديدة. وكان ملازماً في الفرقة الإيطالية مما أيأس المركيز.

بعد هاتين السنتين من الجنون والسعادة، انتحلت حكومة المديرين الخمسة، السلطة العليا، في باريس. وأظهرت كرهاً بالغاً لكل ما ليس وضيعاً.

والقادة الذين قادوا جيش إيطاليا فقدوا سلسلة من المعارك في

حقول فيرونا نفسها التي شاهدت معجزات اركول ولوناتو قبل ذلك بسنتين. اقترب النمسويون من ميلانو، أصبح الملازم روبير قائد كتيبة، وجرح في واقعة كسانو. أتى للمرة الأخيرة، عند صديقته المركيزة دل دونغو. كان الوداع حزيناً، وذهب روبير مع الكونت بترا نيرا الذي كان يتبع الفرنسيين في تراجعهم على النوفي. رفض شقيق الكونتيسة الفتية أن يدفع لها نصيبها من الإرث فاستقلّت عربة وتبعت الجيش.

عندئذ بدأ عهد التفاعل والعودة إلى الأفكار القديمة التي يسمّيها الميلانيون الأشهر الثلاثة عشر، لأن سعادتهم تطلبت هذه العودة إلى البلاهة، التي لم تدم سوى ثلاثة عشر شهراً حتى مارنغو. فكل ما كان قديماً ورعاً وكئيباً عاد فاحتلّ مقدمة القضايا وتسلّم إدارة المجتمع: الناس الذين ظلوا أمناء للمذاهب القديمة، نشروا في القرى خبراً مفاده أن نابوليون شنقه المماليك في مصر، لأكثر من سبب.

بين هؤلاء الذين كانوا ذهبوا حردين إلى أراضيهم، وعادوا متعطشين إلى الثأر، كان دل دونغو يتميّز عنهم بحنقه البالغ. حمله تطرفه طبيعياً إلى رئاسة الحزب! كان هؤلاء في منتهى النزاهة عندما لا يتولاهم الخوف، وكانوا خائفين وتوصلوا أن يخدعوا العماد النمسوي: وهو رجل على قدر من الطيبة، فاقتنع بأن القسوة من سمات السياسة العليا، فأمر بتوقيف مائة وخمسين

وطنياً. وهذا كان أفضل ما يوجد في إيطاليا.

لم يطل الوقت حتى نفوهم إلى «مداخل كتارو» ورموهم في كهوف تحت الأرض، حتى أن الرطوبة وخاصة فقدان الخبز أقاما عدلاً سريعاً وناجعاً مع هؤلاء الإنذال. حصل المركيز دل دونغو على مركز رفيع، وكان يجمع البخل الكريه إلى فضائل سامية، ويتباهى علانية بأنه لا يرسل ريالاً واحداً إلى شقيقته الكونتيسة بيترانيرا التي كانت لا تزال متيمة ولم تكن تريد أن تفترق عن زوجها رغم أنها تموت معه جوعاً في فرنسا. كانت المركيزة الطيّبة يائسة كل اليأس. وأخيراً وفّقت إلى سرقة بعض حجارة الماس الصغيرة من علبتها، كان المركيز يستردها منها كل مساء ليخبئها في صندوق حديدي، تحت سريره. بلغت قيمة البائنة التي جلبتها لزوجها مائة ألف فرنك، ولا تتلقى سوى ثمانين فرنك شهرياً كمصروف شخصيّ. وخلال الثلاثة عشر شهراً قضاها الفرنسيون خارج ميلانو، وجدت هذه المرأة الخجول، الذرائع كي لا تخلع عنها الثياب السوداء.

نعترف أننا بدأنا قصة بطلنا قبل ولادته بسنة على مثال كثير من المؤلفين الرصينين. هذه الشخصية الهامة ليست في الواقع سوى المركيز فابريس فلسيرا دل دونغو كما يقولون في ميلانو. تنازل وولد، عند طرد الفرنسيين، وشاءت صدف الولادة، أن يكون الابن الثاني للمركيز دل دونغو، المتنفذ الكبير، وتعرفون

منه الوجه الكبير الشاحب والبسمة المستعارة والكراهية اللامحدودة للأفكار الجديدة. كانت ثروة آل دونغو كلها أحيلت إلى الابن البكر اسكانيا دل دونغو، صورة خليقة بأبيه. كان عمره ثماني سنوات وفابريس عامين، عندما الجنرال بونابرت، الذي كان يعتقد الجميع أنه شنق، هبط من جبل سان برنار فجأة ودخل ميلانو تصوّروا شعباً بكامله مفتوناً حتى الجنون. انتصر نابوليون في معركة مارنغو بضعة أيام بعد ذلك. وكل ما تبقّى لا فائدة من قوله. ابتهاج الميلانيين بلغ الذروة؛ ولكن، هذه المرة، ممزوجاً بنوايا الثأر، كانوا عرفوا الكراهية. رأى الناس سريعاً عودة من بقي من الوطنيين المنفيين إلى «مداخل كتارو» واحتفلوا بعودتهم كما بعيد وطني. وجوههم الممتقعة، أعينهم الواسعة المندهشة، أطرافهم الهزيلة تباينت بشكل غريب مع الفرح المتفجّر من كل ناحية. وحولهم إشارة هرب الأسر الأكثر تورطاً.
وكان المركيز دل دونغو أول من هرب إلى قصره في غريانتا. كان رؤساء الأسر الكبرى ممتلئين كراهية وخوفاً. ولكن زوجاتهم وبناتهم كنّ يتذكرن مسرّات فترة إقامة الفرنسيين الأولى بينهن ويتأسفن على ميلانو وحفلات الرقص المرحة بعد مرنغو في كازا تنزي. القائد الفرنسي المكلف بحفظ الأمن في لومبارديا، أياماً قليلةٍ بعد النصر، أدرك أن جميع مزارعي الأشراف ونساء الريف القدامى، عوضاً من أن يفكروا بانتصار مرنغو المدهش بدّل مصائر إيطاليا واستعاد ثلاث عشرة قلعة في يوم واحد، كانوا لا

يهتمون إلا بنبوءة القديس جيوفيتا، أول شفيع لبريسيا. وبموجب هذا الكلام المقدّس سيتوقف نجاح الفرنسيين ونابوليون ثلاثة عشر أسبوعاً بعد مرنغو. وما يشفع قليلاً بالمركيز دل دونغو وجميع الأشراف مقاطعي الحملات، إنهم يؤمنون بالنبوءة دون مواربة إذ لم يطالعوا أربعة كتب في حياتهم؟ كانوا يستعدون علناً للعودة إلى ميلانو مع نهاية الأسابيع الثلاثة عشر، ولكن مع مرور الوقت كانت فرنسا تسجل انتصارات جديدة لصالحها. ولدى عودة نابوليون إلى باريس أنقذ الثورة الداخلية بقرارات حكيمة كما سبق له في مرنغو وأنقذها من الأغراب. عندئذ اكتشف الأشراف اللومبارديون اللاجئون إلى قصورهم إنهم أساؤوا فهم نبوءة القديس شفيع بريسيا: لم يكن الأمر يتعلق بثلاثة عشر أسبوعاً بل بشهر. وانقضت هذه الأشهر وبدا أن نجاح فرنسا كان يزداد كل يوم.

نختصر عشر سنوات من النجاح والسعادة من ١٨٠٠ إلى ١٨١٠ ونعود إلى فابريس الذي أمضى السنوات الأولى منها في قصر غريانتا يعطي ويتلقى لكمات كثيرة من مزارعي القرية الصغار. لم يتعلم شيئاً حتى ولا القراءة. أرسل بعدها إلى ثانوية اليسوعيين: أصرّ والده المركيز أن يتعلّم اللاتينية ليس في كتب المؤلفين القدماء يتكلمون دائماً على الجمهورية ولكن في مؤلف ممتاز ومزيّن بأكثر من مائة صورة رائعة لفنانين من القرن السابع عشر: هو سلسلة نسب آل فلسيرا، مركيز دو دونغو نشرها عام

١٦٥٠ باللاتينية، فابريس دل دونغو، أسقف بارما. ثروة آل فلسيرا عسكرية خاصة، كانت الرسوم تمثل كثيراً من المعارك وفيها دائماً أحد الأبطال يوجّه ضربات قوية من سيفه. خلب هذا الكتاب قلب فابريس الفتى. وكانت أمّة التي تعبده، تحصل أحياناً على إذن بالمجيء إلى ميلانو لرؤيته، ولكن قرينها لم يكن يقدّم لها أبداً المال لتغطية نفقات رحلاتها، فكانت ابنة عمها الكونتيسة بيترانيرا تدينها ما تحتاجه لهذه الغاية. بعد عودة الفرنسيين أصبحت الكونتيسة إحدى أشهر نساء بلاط الأمير أوجين نائب ملك إيطاليا.

بعدما تقدّم فابريس من مناولته الأولى، حصلت الكونتيسة من المركيز الذي كان لا يزال في الأسر الطوعي، على إذن بإخراج فابريس من ثانويته. وجدته غريب الأطوار، نبيهاً ورصيناً جداً إضافة إلى أنه ظريف يليق بصالون امرأة عصرية تعيش حسبما يقتضيه الذوق العصري، ولكنه جاهل إلى أقصى حدّ وله بالكاد إلمام بالكتابة.

كانت الكونتيسة، بطبعها المندفع، تؤثّر في كل الأشياء، ووعدت رئيس المؤسسة بحمايتها إذا كان ابن عمها يتقدّم محسوساً، ويحصل في نهاية السنة على جوائز كثيرة. ولكي تجعله يستحقها كانت تخرجه مساء كل سبت من المدرسة ولا تعيده إلى أساتذته إلا الأربعاء أو الخميس. ومع أن اليسوعيين كانوا

محبوبين من نائب الملك، طردوا من إيطاليا بقوانين المملكة. غير أن رئيس الثانوية، رجل فطن، أدرك كل الفائدة التي يتمكن أن يجنيها من علاقته بامرأة تتمتع بنفوذ واسع في البلاط، فاحترس أن يتذمّر من غيابات فابريس المتكررة، الذي نال في نهاية السنة خمس جوائز للمرتبة الأولى بالرغم من جهله الفاضح. والكونتيسة النضرة بيترانيرا ومعها زوجها قائد إحدى فرق الحرس وخمسة أو ستة شخصيات من بلاط نائب الملك، حضرت حفلة توزيع الجوائز في معهد الآباء اليسوعيين. وهنأ الرؤساء مدير المعهد..

كانت الكونتيسة تقود ابن أخيها لحضور جميع الأعياد الزاهية التي ميزت فترة حكم الأمير اللطيف أوجين القصيرة جدا. جعلت الكونتيسة بمجرد سلطتها فابريس ضابط خيالة، فكان يرتدي هذا الزي وهو ابن إثني عشر عاماً. كانت معجبة بقوامه الجميل، فطلبت له ذات يوم، من الأمير، وظيفة وصيف، وهذا معناه أن أسرة دل دونغو انضوت تحت لوائه. فاحتاجت في اليوم التالي، إلى كل نفوذها لدى نائب الملك كي يتجاهل هذا الطلب الذي لم يكن ينقصه سوى موافقة والد الوصيف العتيد والتي لو طُلبت لكانت رُفضت بعنف. وجد المركيز الحرد في أعقاب هذا العمل الأخرق الذي أغضبه، حجّةً لاستعادة فابريس إلى غريانتا. وكانت الكونتيسة تحتقر شقيقها غاية الاحتقار وتعتبره شبه أبله. ولكنها كانت تحبّ فابريس حباً جنونياً. وبعد عشر

سنوات من الصمت كتبت إلى المركيز رسالة تطالبه به، فبقيت دون جواب.

لدى عودة فابريس إلى هذا القصر الضخم، بناه أشد أجداده ميلاً إلى الحرب، لم يكن يتقن سوى التمارين الرياضية وركوب الخيل. كان الكونت بيترانيرا مولعاً بهذا الولد، كوالدته، وغالباً ما كان يصطحبه إلى حفلات الاستعراض.

عند وصول فابريس إلى قصر غريانتا، كانت عيناه لا تزالان حمراوين من الدموع ذرفها لدى مغادرته صالونات عمته الفخمة، ولم يجد سوى ملاطفات والدته وأخواته الشديدة..

كان المركيز محبوساً في غرفته مع ابنه البكر المركيز اسكانيو، يكتبان رسائل مرمّزة لها شرف الإرسال إلى فيينا. لم يكن الأب والابن يظهران إلا في مواعيد تناول الطعام. وكان الأب يردد بتصنع ظاهر، إنه يعلّم وريثه الشرعي محاسبة جميع أملاكه. وكان المركيز شديد المحافظة على سلطته ليتحدث هنا عن هذه الأشياء، إلى وريث ضروري لكل هذه الأراضي المستبدلة. كان يستخدمه لترميز رسائل من خمس عشرة إلى عشرين صفحة ترسل مرتين أو ثلاثة كل أسبوع إلى سويسرا لتأخذ طريقها من ثم إلى فيينا.

وكان المركيز يدّعي أنه يرفع تقريراً إلى ملوكه الشرعيين، عن حالة إيطاليا الداخلية التي لم يكن هو نفسه يعرف شيئاً عنها،

لكنّ رسائله كانت تحظى بالاعجاب: يكلّف المركيز أحدهم بعدّ كتيبة جنود فرنسية أو إيطالية على الطريق العام، لدى تبديل موقعها ويطلع بلاط فيينا على الأمر، بعد خفض ربع العدد، وكان لهذه الرسائل المثيرة للضحك، من ناحية ثانية، فضل تكذيب رسائل أخرى صحيحة، وبهذا كانت تنال الاعجاب. قبل وصول فابريس إلى القصر، بوقت قصير، حصل المركيز على وسام رفيع كان الخامس يزيّن ثوبه كحاجب للملك. وكان مغموماً إذ لا يجرؤ على ارتداء هذا الثوب خارج غرفته. ولكن لم يكن يسمح لنفسه أن يملي رسالة قبل أن يرتدي البزة المطرزة المحمّلة بكل هذه الأوسمة. وكان يظنّ من قلة الاحترام أن يتصرف غير هذا التصرف.

فتنت المركيزة بجمال ابنها. ولكنها احتفظت بعادة الكتابة مرتين أو ثلاثة في السنة إلى العميد القائد.. الاسم الحالي للملازم روبير. وكانت تكره أن تكذب على الناس الذين تحبهم؛ فسألت ابنها وهلعت لجهله المطبق.

قالت في نفسها: إذا كان يبدو لي أنا، الجاهلة ضعيف الثقافة، فسيجده روبير، وهو العالم، فاشلاً تمام الفشل.

والآن، البراعة ضرورية. وأدهشتها خصيصة أخرى: إن فابريس، كان يلتزم جدياً بجميع الأمور الدينية التي سبق وتعلمها عند اليسوعيين. ومع أنها هي نفسها تقية، أخافها

تعصب هذا الولد! إذا تمكن المركيز من اكتشاف طريقة التأثير هذه، فسوف يحرمني من ابني. بكت كثيراً، وازدادت عاطفتها لفابريس..

كانت الحياة كئيبة جداً في هذا القصر، يسكنه من ثلاثين إلى أربعين خادماً! وكان فابريس يقضي أيامه في الصيد أو بالتنزه في مركب على البحيرة. وسريعاً ما نشأت إلفة وثيقة بينه وبين الحوذيين ورجال الاسطبلات؟ كانوا كلهم من أنصار الفرنسيين المتحمسين ويسخرون علانية من الخدام الأتقياء الملتحقين بالمركيز أو بابنه البكر. وأهم موضوع هزء من هؤلاء الأشخاص الوقورين، أنهم كانوا يتبرجون على مثال أسيادهم.

٢

كان المركيز يجاهر بعداء شديد لحركة التنوير، وكان قال أن هذه الأفكار هي التي قضت على إيطاليا. لم يكن يعرف كيف يجمع بين مقته الشديد للتثقيف، ورغبته في أن يكمل ابنه فابريس دراسته التي بدأها بنجاح باهر عند اليسوعيين. ولكي يتعرض أقل للمجازفة، كلّف القس بلانيس، كاهن رعية غريانتا بتدريس فابريس اللاتينية. كان من المتوجب أن يتقن الكاهن نفسه هذه اللغة، موضوع احتقاره، لا أن تقتصر معارفه في هذا النطاق، على ترديد صلواته غيباً من كتاب القداس وكان

بامكانه شرح معانيها تقريباً لأبناء رعيته. ولكن هذا الكاهن كان محترماً ومرهوب الجانب في القضاء. كان قال دائماً أن نبوءة القديس جيوفيتا، شفيع بريسيا ـ الشهيرة، لن تتحقق بعد ثلاثة عشر أسبوعاً ولا حتى بعد ثلاثة عشر شهراً. وكان يضيف عندما يتكلم مع أصدقاء مخلصين ـ أنه يجب تأويل هذا العدد ثلاثة عشر بطريقة سوف تدهش الكثيرين لو كان مسموحاً قول كل شيء (١٨١٣).

يتمتع القس بلانيس، بنزاهة وفضيلة بدائيتين. وهو إضافة إلى ذلك، رجل فكر، كان يقضي لياليه في قبة كنيسته، كان مشغوفاً بعلم الفلك. بعد أن يقضي نهاراته في حساب اقتران الكواكب، ومواقع النجوم، يمضي أكبر قسم من لياليه بمتابعة مسارها في السماء. لم يكن يملك بسبب فقره، من الأدوات سوى منظار طويل، ذي أنبوب من الورق المقوّي. من هنا، يمكن إدراك الاحتقار يضمره لدراسة اللغات، رجل يزهق حياته في سبيل اكتشاف العصر الدقيق لسقوط الامبراطوريات والثورات التي تبدّل صفحة العالم. كان يقول لفابريس: ماذا أعرف أكثر عن الجواد منذ أن لقنت أن اسمه باللاتينية «ايكووس»؟.

كان المزارعون يخشون القس بلانيس كساحر عظيم. فهو يعتقد أن المزارعين يخشونه بسبب الفترات الطويلة التي يقضيها في قبة الكنيسة ممّا يدفعهم إلى الامتناع عن السرقة. وكان زملاؤه

كهنة الجوار يحسدونه على نفوذه، ويكرهونه. وكان المركيز دل دونغو يكرهه أيضاً لمجرّد أنه يحاجج كثيراً لرجل من طبقة حقيرة كطبقته. كان فابريس يحبه كثيراً. ولإرضائه كان يقضي بعض المرات سهرات بكاملها يجمع ويضرب أعداداً ضخمة، ثم يصعد إلى القبة. وهذه منة لم يسبق أن منحها القس بلانيس لأحد. ولكنه يحب هذا الولد لبساطته وسذاجته، ويقول له: «إن لم تصبح خبيثاً فربما ستصبح رجلاً».

كان فابريس جريئاً ومندفعاً في ألعابه، ولهذا يتعرض مرتين أو ثلاثة كل سنة للغرق في البحيرة. كان يتصدّر كل الرحلات الكبيرة لمزارعي غريانتا وكادينابيا الصغار. واستحصل هؤلاء على مفاتيح صغيرة. وعندما ينسدل الليل كانوا يجربون فتح أقفال السلاسل التي تربط السفن إلى حجر كبير أو إلى شجرة مجاورة للشاطىء. فتجارة الصيادين في بحيرة كوم تقوم على وضع خيوط الصيد على مسافة بعيدة من الساحل، ويربط الطرف الأعلى من الحبل بلوحة خشبية صغيرة مبطنة بالفلين وغصن شجرة بندق مرن جداً، مركّز على هذه اللوحة يحمل جريساً صغيراً يقرع عندما تعلّق السمكة بالخيط الذي يرتج.

هذه النزهات الليلية يقودها فابريس لاستفقاد خيوط الصيد المنصوبة، قبل أن يسمع الصيادون التنبيه الذي تصدره الجريسات الصغيرة. كانوا يختارون الأيام العاصفة، فيصعد الأولاد

صباحاً، ساعة قبل الفجر إلى السفن. وبصعودهم إليها كانوا يعتقدون أنهم يرتمون في أعظم المخاطر. وهنا تكمن الناحية الرائعة لعملهم. كانوا يصلّون على مثال والديهم، السلام الملائكي، بكل تقوى. وغالباً ما كان يهبط الوحي على فابريس، وقت الذهاب، وفي البرهة نفسها التي تلي تلاوة السلام الملائكي. هذه حصيلة الدروس الفلكية استخلصها من صديقه القس بلانيس، وهو لم يكن يؤمن قط بتنبؤات هذا الأخير. كان يطلّع على نجاح أو فشل المهمة، حسبما يوحي إليه خياله. وبما أنه كان أكثر حزماً من رفاقه، اعتادت الجماعة كلها شيئاً فشيئاً التنبؤ فإذا صادف ورأت وقت الإبحار كاهناً على الساحل أو غراباً يمر عن شمالها، كان أفرادها يسرعون بإعادة الأقفال إلى سلسلة السفينة وينصرف كل واحد ويستسلم للنوم. وهكذا لم يُلق القس بلانيس إلى فابريس بعلمه الذي على قدر من الصعوبة، إنما أوحى إليه، بدون علم منه، أن يثق ثقة عمياء بالاشارات التي قد تنبيء عن المستقبل.

كان المركيز يشعر أن أي حدث يحصل لمراسلاته المرموزة، يمكن أن يجعله تحت رحمة شقيقته. وهكذا كلّ سنة، في فترة عيد القمرية انجيلا شفيعة الكونتيسة بيترانيرا، كان فابريس يحصل على إذن بالذهاب إلى ميلانو لقضاء ثمانية أيام. وكان يقضي السنة أملاً باقتراب هذه الأيام الثمانية أو نادماً على مرورها. ولهذه المناسبة العظيمة يسلم المركيز لابنه أربع ريالات

ليقوم برحلته، ولا يعطي، حسب عادته، شيئاً لزوجته التي ترافق ابنها. ولكن أحد الطباخين وستة خدم وحوذياً مع جوادين، يذهبون إلى كوم عشية الرحلة، وكانت المركيزة تجد كل يوم تحت تصرفها، في ميلانو، عربة وغذاء لإثني عشر شخصاً.

نوع الحياة المنعزلة التي يعيشها المركيز دي دونغو، ضجرة ولكنه يُغني الأُسر التي كانت تنصرف إليه. كان المركيز يملك أكثر من مائتي ألف ليرة كإيراد لم يكن يصرف ربعها؛ كان يعيش على الآمال؛ خلال السنوات الثلاث عشرة (١٨٠٠ - ١٨١٣)، اعتقد باستمرار بأن سقوط نابوليون سيقع قبل مضي ستة أشهر. فلنتخيّل فرحته عندما علم في بدء ١٨١٣، بنكبة البريزينا! احتلال باريس وسقوط نابوليون كادا يفقدانه صوابه. سمح لنفسه بأن يتحدث عن زوجته وشقيقته بأشدّ الكلام إيلاماً. وأخيراً بعد أربعة عشر عاماً من الانتظار، توفر له هذا السرور الذي لا يمكن التعبير عنه، أن يرى الجيوش النمسوية تعود إلى ميلانو. وبحسب الأوامر الواردة من فيينا. استقبل الجنرال النمسوي المركيز دل دونغو بتقدير يقارب الاحترام. وعرض عليه بسرعة واحداً من أبرز المراكز في الحكومة فقبله كوفاء لدين له. ،نال ابنه البكر الملازمية في إحدى أفضل فرق الملكية. ولكن ثاني لم يقبل بالمركز الثانوي الذي قدم له. لكن هذا النصر الذي كان يتمتع به المركيز باعتداد نادر، لم يدم سوى أشهر

قليلة، تبعه فشل مذل. لم يمتلك أهلية تصريف الأعمال، أربعة عشر عاماً، قضاها في الريف بين خدمه والكاتب بالعدل وطبيبه، إضافة إلى نزوة الشيخوخة جعلت منه إنساناً عاجزاً كل العجز. كان من غير المستطاع والحالة هذه، أن يحتفظ إنسان بمركز هام في بلد نمسوي دون أن يكون حائزاً على الأهلية التي تتطلبها الإدارة البطيئة والمعقدة.. انما المعقولة جداً.

في ذلك النظام الملكي العتيق. كانت أخطاء دل دونغو تثير سخط الموظفين فتوقف سير الأعمال. وكانت أحاديثه الملكية المتطرفة تغضب السكّان الذين كان يراد غمرهم في بحر من الركود والإهمال. علم ذات يوم، أن سموه تنازل وقبل استقالته التي قدمها من وظيفته في الإدارة، وأنعم عليه في الوقت ذاته بمركز ثاني كبير الخدم لمملكة لومبارديا/ البندقية. غضب المركيز من الظلم الرهيب الذي سقط ضحيته. وكتب رسالة إلى صديق ونشرها هو الذي كان يكره حرية الصحافة، وأخيراً كتب إلى الامبراطور بخبره أن وزراءه يخونونه وأنهم لم يكونوا سوى يعقوبيين. بعد أن أتمّ كل ذلك، عاد كئيباً إلى قصر غريانتا. ونال تعزية، إذ، بعد الإطاحة بنابوليون، أرسل بعض الأشخاص النافذين في ميلانو فاغتالوا الكونت برينا في الشارع، وهو وزير سابق للملك إيطاليا ومن ذوي الاستحقاق الأول. عرض الكونت بترانيرا حياته للخطر كي يخلّص حياة الوزير الذي قُتِل بضربات مظلّة، ودام احتضاره خمس ساعات. كان

بإمكان الكاهن، معرّف المركيز دل دونغو أن يخلّص الكونت برينا ولكنه رفض بسخرية فتح بوابة كنيسة القديس جيوفاني التي كانوا يجرجرون أمامها الوزير التعس حتى تُرك لبرهة في الساقية، وسط الشارع.

بعد ذلك بستة أشهر سعد المركيز بحصوله للكاهن على ترقية رفيعة.

كان دل دونغو يكره صهره الكونت بترانيرا الذي لم يكن إيراده يزيد عن خمسين ليرة ذهباً، وكان يتجرأ ويظهر حبوره وأمانته لما أحبه طيلة حياته، وتواقح وبشّر بروح العدالة الشاملة دون استثناء أحد. وهذا ما كان يدعوه المركيز: اليعقوبية السافلة. وكان رفض الكونت العمل لحساب النمسا. استغل أعداؤه هذا الرفض. وبعد وفاة برينا ببضعة أشهر، حصل الأشخاص الذين دفعوا لاغتياله على وعد بأن الجنرال بترانيرا سيرمى في السجن.

وعلى هذا استحصلت الكونتيسة زوجته، على جواز سفر وطلبت جياداً للذهاب إلى فيينا وإطلاع الامبراطور على الحقيقة. خاض مغتالو برينا فجلب لها أحدهم، وهو ابن عم الكونتيسة، بترانيرا، عند منتصف الليل، ساعة قبل رحيلها إلى فيينا، أمراً بإطلاق حرية زوجها. وغداة ذلك اليوم استدعى الجنرال النمسوي الكونت بترانيرا واستقبله بكل التقدير الممكن وأكّد له

أن راتبه التقاعدي سوف يصفّى بالطريقة الأكثر نفعاً له. والجنرال يوبنا الطيب، الكريم، الباسل، رجل فكر وقلب، بدا خجولاً من اغتيال برينا وسجن الكونت.

بعد هذه العاصفة أحبطتها إرادة الكونتيسة الصلبة، عاش الزوجان، بين بين، بمعاش التقاعد الذي لم يتأخّر بفضل توصية الجنرال برينا. كانت الكونتيسة، منذ خمس أو ست سنوات، ترتبط بعلاقة صداقة متينة مع شابٍّ ثري جداً. وهو في الوقت نفسه صديق حميم لزوجها. لم يكن يتأخر أبداً عن وضع أجمل طاقم جياد إنكليزية تحت تصرّفها ومقصورته في مسرح سكالا وقصره الريفي في ميلانو. ولكن الكونت كان كريم النفس مدركاً لشجاعته. كان يغضب بسهولة وعندئذ يسمح لنفسه أن يتفوّه بأحاديث غريبة. كان يصطاد ذات يوم، مع شبان، سبق لأحدهم أن خدم تحت علم غير علمه، فأخذ يتكلم بسخرية على جنود جمهورية وراء الألب. فصفعه الكونت. وجرى عراك بين الفريقين قتل هذا الأخير فيها لأنه كان وحيداً بين هؤلاء الشبان. وتحدّث الناس طويلاً عن هذه المبارزة. وعزم الأشخاص، الذين وجدوا عند حصولها، على القيام برحلة إلى سويسرا.

هذه الشجاعة المثيرة للسخرية، تدّعي الخضوع، شجاعة أبله يستسلم فوراً لمقترحات الآخرين، كانت تكرهها الدوقة غاضبة

لموت زوجها، وترغب لو أن لامركاتي.

وقام هذا الشاب الثري، صديقها الحميم، برحلة إلى سويسرا لإطلاق النار على قاتل الكونت بيترا نيرا أو صفعه.

وجد ليماركاتي هذه الخطة مضحكة للغاية وشعرت الكونتيسة أن الاحتقار عندها قَتَل الحب. فتضاعف اهتمامها بليماركاتي، إذ كانت تهدف أن تبعث حبه لها، ثم تركه ودفعه لليأس. ولكي تحقق مخطط الانتقام هذا الذي لا يمكن فهمه في فرنسا، وسأقول أنه في ميلانو البعيدة جداً عن بلدنا، لا يزالون يستسلمون لليأس في الحب. كانت الكونتيسة، في ثياب حدادها تكسف من بعيد جميع غريماتها، تدللت على الشباب المتنفذين الذين يحتلون الصدارة، وكان أحدهم، الكونت ن. . . يقول باستمرار، أنّ استحقاق ليماركاتي، لامرأة تتمتع بهذا القدر من النباهة، ثقيل ومصطنع، وغدا كلفاً بالكونتيسة. فكتبت إلى ليماركاتي:

«أتريد أن تسلك مرة واحدة كرجل نباهة؟ تخيّل أنك لم تعرفني أبداً.

«إني مع قليل من الاحتقار ربما، خادمتك المتواضعة».

جينا بيترانيرا

ذهب ليماركاتي، لدى قراءة هذه الرسالة إلى أخد قصوره. هاج حبه وأصبح مجنوناً وتحدّث عن الانتحار، وهو أمر غير مألوف في البلدان التي تؤمن بوجود جحيم. ومنذ اليوم التالي

لوصوله إلى الريف، كتب إلى الكونتيسة يطلب يدها ويقدم لها مائتي ألف ليرة كإيراد سنوي. فأعادت إليه كتابه دون أن تفتحه، مع خادم الكونت ن.. ولهذا السبب قضى ليماركاتي ثلاث سنوات في أراضيه، وكان يعود إلى ميلانو مرة كل شهرين دون أن يمتلك أبداً الجرأة للبقاء فيها. وأضجر جميع أصدقائه بحبه الملهوف للكونتيسة وبروايته المفصلة عن العطف الذي كانت تكنّه له في الماضي. وكان بادىء الأمر يضيف، إنها كانت تضيع نفسها مع الكونت ن.. وأن مثل هذه العلاقة تحط من كرامتها.

لم تكن الكونتيسة، واقعاً، تشعر بأي نوع من الميل نحو الكونت ن... وهذا ما صرحت له به عندما تأكد لها يأس ليماركاتي. كان الكونت على معرفة بآداب السلوك الاجتماعية، فرجاها ألا تكشف عن هذه الحقيقة المرة التي أطلعته عليها سراً، وأضاف:

ربما أجد مركزاً لائقاً، إذا تكرمت وعاملتني بأقصى التسامح في استمرارك باستقبالي، مع كل الامتيازات الممنوحة للعشيق المفضل.

بعد هذا التصريح الجريء، رفضت الكونتيسة جياداً، ومقصورة من الكونت ن.. ولكنها كانت معتادة، منذ خمسة عشر عاماً على الحياة الأشد بذخاً: فكان عليها أن تجد حلاً لهذا

المشكل الصعب أو بتعبير أفضل المستحيل الحل: العيش في ميلانو بإيراد ألف وخمسماية فرنك. غادرت قصرها واستأجرت غرفتين في طابق خامس، وسرحت كل خدمها، وأبدلت وصيفتها بعجوز مسكينة تعمل كفرّاشة. وكانت هذه التضحية، في الواقع أقل شجاعة وأقل إيلاماً مما يبدوا فالفقر، في ميلانو، ليس مدعاة للسخرية ولا يبدو بالتالي للنفوس الهلعة كأسوأ الشرور. ووجدت نفسها محاصرة من كل النواحي برسائل ليماركاتي المتلاحقة. وكذلك من الكونت ن... الذي كان هو أيضاً يرغب في الاقتران بها. وحدث، أن المركيز دل دونغو، الذي يتصف بالبخل ـ المقيت ـ فكر أن أعداءه قد يفيدون من فقر شقيقته وينتصرون عليه. ماذا! سيدة من آل دونغو ترى نفسها مجبرة على العيش، بإيراد من بلاط فيينا، تعطيه لأرامل قادتها.

فكتب لها أن مسكناً ومرتباً لائقين ينتظرانها في قصر غريانتا. وبحماس، قبلت طباع الكونتيسة المتبدلة، هذا النوع الجديد من الحياة! منذ عشرين سنة لم يتيسر أن تعيش في هذا القصر المهيب يرتفع بوقار وسط أشجار الكستناء القديمة المغروسة منذ عهد سفورزا. كانت تقول في نفسها، هنا ساجد الراحة.. أو ليست هذه هي السعادة في مثل عمري؟.

(وبما أنها في الواحدة والثلاثين، ظنت نفسها أنها وصلت إلى

الشيخوخة). تنتظرني حياة سعيدة وهادئة على ضفاف هذه البحيرة المهيبة حيث ولدت.

لا أعرف إذا كانت تخدع نفسها؛ ولكن من المؤكد أن هذه النفس الكلفة، التي رفضت ثروتين ضخمتين، جلبت السعادة إلى قصر غريانتا. وطارت ابنتا شقيقها من الفرح.

ـ أعدتِ إلي أيام شبابي الحلوة، كانت تقول لها المركيزة، وهي تقبّلها، عشية مجيئك كان عمري مائة عام. وأخذت الكونتيسة برفقة فابريس تزور كل هذه الأماكن الساحرة، في جوار غريانتا والتي أثنى عليها الرحالة بقدر كبير: دارة ملزي في الناحية الأخرى من البحيرة قبالة القصر، فوق غابة سفوندراتا المقدسة والنتؤ الجبلي الشامخ الذي يفصل بين قسمي البحيرة: قسم كوم المترف، وقسم يتجه نحو ليكو، مليء بالجفوة: مظاهر لطيفة ومهيبة، كأشهر منظر في العالم: خليج نابولي الذي يساويه دون أن يفوقه روعة. استعادت الكونتيسة بانشداه ذكريات شبابها الأول وكانت تقارنها بمشاعرها الحالية. وتقول في نفسها، أن بحيرة كوم ليست محاطة كبحيرة جنيف بقطع كبيرة من الأرض المسورة تماماً والمحروثة بأفضل الطرائق، أشياء تذكر بالمال والمضاربات. هنا أرى من كل الجهات تلالاً، غير متساوية في علوها، واضمامات أشجار نبتت صدفة، ولم تفسدها يد الإنسان بعد، وأجبرتها على إعطاء مردود وسط هذه التلال،

ذات الأشكال الرائعة تتدحرج نحو البحيرة بسفوح فريدة، أستطيع أن أحتفظ بجميع أوهام التاس والآريوست. كل شيء سام ولطيف. كل شيء يحدث عن الحب. ولا شيء يذكر ببشاعات المدينة. الأشجار الكبرى تخفي القرى الكائنة عند منتصف المنحدر، رسوم قببها الهندسية الجميلة. إذا فصل، من وقت إلى آخر، حقل صغير ما، عرضه خمسون خطوة.

ضمامات أشجار الكستناء والكرز البري، تشاهد العين بارتياح نمو النباتات فيه أشد قوة وبهجة مما في أي مكان آخر. ترى العين مبهورة، وراء هذه التلال التي على قممها مناسك يشتهي الجميع سَكناها، شعاف الألب مغطاة بالثلوج الدائمة تذكره جفوتها القاسية بأرزاء الحياة لزيادة البهجة الحاضرة. ويتأثر الخيال برنين جرس قرية صغيرة محتجبة بين الأشجار: هذه الألحان تحملها المياه وتلطفها، تتلون بألوان الحنين والاستسلام، وتبدو كأنها تقول للإنسان: الحياة تهرّب، فلا تكن صعباً مع السعادة التي في متناولك، أسرع وتمتّع بحياتك. إن لغة هذه الأماكن الفاتنة التي ليس لها مثيل في العالم، أعادت إلى الكونتيسة فتوّة قلبها، يوم كان لها من العمر ستة عشر عاماً. لم تكن تدرك كيف أمكنها أن تقضي هذا القدر من السنين دون أن ترى البحيرة. كانت تقول في نفسها: عند بدء الشيخوخة. لجأت إليّ السعادة؟ اشترت مركباً، زيّنته مع فابريس والمركيزة إذ أنهم كانوا بحاجة إلى الدراهم لكل شيء، وسط حالة البيت

الأكثر بهاء؛ ومنذ فقد المركيز دل دونغو حظوته، كان ضاعف بذخه الارستقراطي: مثلاً لكسب عشر خطوات من الأرض على البحيرة، بالقرب من ممر الدلب الشهير، بجانب كادينابيا، شاد سداً ارتفعت تكاليفه إلى ثمانين ألف فرنك. كان يرى معبد يرتفع عند طرف السد بحسب رسوم كانيولا المشهور، المعبد مبنياً بكامله من كتل الغرانيت الضخمة. وفي المعبد كان مرشيزي النحات الذي ينتج أعمالاً تطابق الطراز الميلاني، يشيد له ضريحاً يحمل نقوشاً بارزة عديدة، تمثل أعمال أجداده المجيدة.

أراد المركيز اسكانيي، شقيق فابريس البكر، أن يشارك في نزهات السيدات، ولكن عمته كان تضع الماء على شعرها بعد أن تذرّ عليه البودرة. لديها كلّ يوم خدعة تواجه بها وقاره. أخيراً أنقذ من مظهر وجهه الباهت المجموعة المرحة التي لم تكن تجرؤ أن تضحك بحضوره. كانوا يفكرون أنه جاسوس لدى والده المركيز. وكان يجب إحسان معاملة هذا الظالم القاسي، الدائم السخط منذ استقالته القسرية.

أقسم اسكانيي على الانتقام من فابريس. هبّت عاصفة وتعرّضوا للأخطار ومع أنه لم يكن لديهم سوى قليل من المال، دفعوا للنوتيين بسخاء كي لا يخبرا شيئاً للمركيز الذي غضب لذهاب ابنتيه؛ وصادفوا عاصفة أخرى؛ (العواصف رهيبة

وطارئة فوق هذه البحيرة) تهب بغتة عصفات هواء من واديي جبلين يرتكزان في اتجاهين متعاكسين، وتتصارع فوق الماء. أرادت الكونتيسة أن تنزل إلى البر وسط الأعصار والرعود. وكانت تدعي أنها إذا وضعت على صخرة معزولة وسط البحيرة، وكبيرة ستتمتع بمنظر فريد. سترى نفسها محاصرة من كل الجهات بالأمواج الصاخبة؛ ولكنها وهي تقفز من المركب، سقطت في الماء. رمى فابريس نفسه وراءها ليخلصها فجرفهما التيار إلى بعيد. ليس جميلاً أن يغرق الإنسان. ولكن السأم، مدهوشاً، كان منفياً في القصر الاقطاعي. كانت الكونتيسة شغفت بعلم الفلك وبمزاج الأب بلانيس فاستعملت القليل من الدراهم التي بقيت معها، بعد حصولها على المركب، لشراء منظار تلسكوب بثمن بخس. كانت تذهب كل الأمسيات تقريباً مع ابنتي شقيقها وفابريس للاستقرار فوق مصطبة أحد أبراج القصر القوطية. كان فابريس عالم الجماعة وكانوا يقضون ساعات بابتهاج زائد، بعيداً عن أعين الجواسيس.

كانت تمر أيام لا تكلّم الكونتيسة خلالها أحداً، فكانت تتنزه، تحب أشجار الكستناء المرتفعة، غارقة في أحلامها السوداء؛ ولكنها كانت تتمتع بقدر كبير من النباهة، كي لا تشعر بالسأم في الامتناع عن تبادل الأفكار بعض المرات. ولكن في اليوم التالي، كانت تضحك كما في العشية. هذه كانت شكاوي المركيزة، زوجة شقيقها، إذ تحدث هذه التأثيرات

القائمة، على هذه النفس المعرضة طبيعياً للانفعال.

كانت المركيزة تصرخ.

- هل سنقضي ما تبقى لنا من أيام شبابنا، في هذا القصر الكالح؟.

لم تكن لها الشجاعة لتشعر بهذه الحسرة، قبل وصول الكونتيسة.

عاشوا هكذا خلال الشتاء من ١٨١٤ إلى ١٨١٥. أتت الكونتيسة مرتين إلى ميلانو رغم فقرها وقضت فيها بضعة أيام لحضور باليه رائع لفيغانو، على مسرح سكالا. ولم يكن المركيز يمنع زوجته من مرافقة ابنة أخيها. كانتا تذهبان لقبض المعاش التقاعدي، وكانت أرملة جنرال وراء الألب المسكينة، التي كانت تقرض دراهم إلى المركيزة دل دونغو الثرية جداً. كانت الحفلات رائعة؛ وكانوا يدعون إلى تناول طعام الغداء قدامى الأصدقاء ويتغّدون بالضحك من كل شيء، كالأولاد حقاً. هذا المرح الإيطالي مليء بالطلاقة والمفاجأة، وكان ينسي الحزن العميق الذي كانت تشيعه حولهم نظرات المركيز وابنه البكر في غريانتا. كان فابريس، البالغ ستة عشر عاماً يمثل تماماً دور رب البيت.

في ٧ آذار ١٨١٥، كانت السيدات تعدن منذ يومين من رحلة لطيفة إلى ميلانو، يتنزهن في ممر الدلب الجميل الذي أطيل حديثاً عند أقصى ضفة البحيرة. ظهر مركب آت من ناحية كوم، وصدرت عنه اشارات غريبة. قفز واحد من رجال

المركيز على السدّ: نزل نابوليون منذ قليل في خليج جوان: استغربت أوروبا بكل سذاجة هذا الحدث الذي لم يفاجىء المركيز دل دونغو، فكتب رسالة إلى ملكه مليئة بالانشراح ووضع تحت تصرفه مواهبه وعدة ملايين، وكان يردد على مسامعه أن وزراءه كانوا يعاقبة متفقين مع قادة باريس.

في ٨ آذار، السادسة صباحاً، وضع المركيز شاراته، وجعل ابنه البكر، يملي عليه مسودة رسالة سياسية ثالثة؛ كان مهتماً بنسخها بخطه الجميل المتقن، وفي وقار، على ورق يحمل رسم الملك موشى بالذهب. وفي الوقت نفسه، كان فابريس يطلب إبلاغ الكونتيسة بيترانيرا عن وصوله.

قال لها:

ـ أنا ذاهب لألتحق بالامبراطور الذي هو في الوقت نفسه ملك إيطاليا؛ كان يكنّ لزوجك صداقة كبرى. سأمر بسويسرا الليلة، في مناجيو، أعطاني صديقي فازي، بائع البارومترات، جواز سفره؛ أعطني الآن بعض النابوليونات إذ ليس لدى سوى اثنين، وإذا لزم الأمر سأذهب مشياً.

كانت الكونتيسة تبكي من الفرح والغم وهي تصيح ممسكة بيدي فابريس! يا إلهي! لماذا يجب أن تداخلك هذه الفكرة!.

نهضت وذهبت إلى خزانة الثياب حيث كانت أخفت هرة مزينة بالحجارة الكريمة وناولته إياها. كانت كل ما تملكه في العالم.

ـ قالت لفابريس: خذ ولكن، لا تعرض نفسك للموت، ماذا سيبقى لأمك التعسة إذا فقدتك! انتصار نابوليون، أمر مستحيل، يا صديقي المسكين، أسيادنا يعرفون تماماً كيف يقضون عليه. ألم تسمع منذ ثمانية أيام، في ميلانو، بقصة الثلاث والعشرين محاولة اغتيال، المحبكة جميعها تمام الحبك ولم ينج منها إلا بأعجوبة. كان يومئذ في أوج المجد. خبرت بنفسك، أن إرادة التخلص منه، لا تنقص أعداءنا. لم تعد فرنسا شيئاً بعد ذهابه.

كانت الكونتيسة تحدّث فابريس، بلهجة بالغة التأثر، عن مصير نابوليون. تقول: بسماحي لك أن تذهب وتنضمّ إليه، أضحي بأعز ما عندي في العالم. أغرورقت عينا فابريس بالدموع، وبكى وهو يقبل الكونتيسة، ولكن قراره بالذهاب لم يتزعزع. كان يشرح بدفق من العاطفة إلى هذه الصديقة العزيزة كل الأسباب الطريفة التي كانت تدفعه للرحيل:

ـ البارحة مساء، السادسة إلا سبع دقائق، كنا نتنزه، كما تعرف، على ضفة البحيرة، في ممر الدلب، تحت كازاسوماريغا، وكنا نسير باتجاه الجنوب. هنا، لاحظت للمرة الأولى، في البعد، مركباً آتياً من كوم، حاملاً خبر حدث هام. بينما كنت أنظر إلى هذا المركب دون أن أفكر بالامبراطور، حاسداً فقط حظ الذين يتمكنون من القيام برحلات، شعرت بتأثر بالغ، إذ اقترب المركب من اليابسة وكلم الموظف أبي بصوت منخفض، فتبدّل

لونه وأخذنا جانباً لاطلاعنا على الخبر الرهيب. استدرت نحو البحيرة، لأخبىء دموع الفرح ملأت عيني. فجأة، على علو شاهق، عن يميني رأيت نسراً، طائر نابوليون؛ كان يطير بعظمة متجهاً نحو سويسرا وبالتالي إلى باريس. وأنا أيضاً، قلت لنفسي، سأجتاز سويسرا بسرعة النسر وسأقدّم إلى هذا الرجل العظيم القليل كل ما بإمكاني أن أقدم، معونة ذراعي الضعيفة. أراد أن يعطينا وطناً، وأحب عمي. في الحال، وبينما كنت لا أزال أرى النسر، وبتأثير فريد، جفّت دموعي؛ ودليل أنّ هذه الفكرة تأتي من أعلى، إنني في اللحظة نفسها، اتخذت قراري ـ بدون مناقشة، ووضحت أمام عيني سبل تنفيذ رحلتي. وبطرفة عين، كما زالت بنفحة سماوية جميع الأحزان، التي تسمّم حياتي، كما تعرف، خاصة أيام الآحاد. رأيت هذا الرسم العظيم لإيطاليا تنهض من الوحل حيث يبقيها الألمان غارقة. كانت تمد ذراعيها المجرحتين والمثقلتين بالحديد نحو ملكها ومحررها. وقلت في نفسي، وأنا، ابن مجهول حتى الساعة، لهذه الأم التاعسة، سأبتعد لأموت أو أنتصر مع هذا الرجل الذي وسمه القدر والذي أراد يغسلنا من الاحتقار الذي يرمينا به أشد الناس استعباداً والأكثر حقارة بين شعوب أوروبا ـ أضاف بصوت خفيض وهو يقترب من الكونتيسة، مثبتاً فيها عينيه اللتين كان ينبعث الشرر منهما:

ـ تعرفين شجرة الكستناء، غرستها أمي خلال فصل الشتاء

الذي ولدت فيه، حدّ العين الكبيرة: في غابتنا، على فرسخين من هنا: قبل القيام بأي عمل، أردت أن أزورها. قلت في نفسي، الربيع ليس متقدماً كثيراً. إذا كانت شجرتي أورقت، فهذه إشارة لي. يجب أن أخرج أنا أيضاً من حالة الخمول في هذا القصر الحزين البارد. ألا تجدين هذه الجدران، المكفهرة، رمـز الطغيـان، الآن وفي الماضي صـورة حقيقية عن الشتـاء الحزين؟ إنها تمثل لي ما يمثله الشتاء لشجرتي.

أتصدقين يا جينا؟ الساعة السابعة والنصف مساء البـارحة وصلت إلى شجرة الكستناء كانت تحمل أوراقاً صغيرة وجميلة وعلى قدر كافٍ من الكبرا قبلتها دون أن ألحق بها أذى. ركشت الأرض باحترام حول شجرتي المحبوبة. امتلأت حالاً ببهجـة جديدة، اجتزت الجبل؛ ووصلت إلى ميناجو: كان يلزمني جواز سفر لأدخل سويسرا. كان الوقت ولّى، والساعة الواحدة صباحاً عندما رأيت نفسي عند أبواب فازي ـ فكرت: علي أن أطرق بابه طويلاً كي أوقظه من نومه ولكنه كان واقفاً مع ثلاثة من أصدقائه. عند أول كلمة تلفظت بها، صاح: «أنت مزمع على اللحاق بنابوليون»، وقفز إلى عنقي. وقبلني الآخرون بحماس أيضاً: «لماذا أنا متزوج»؟ كان أحدهم يقول:

غرقت السيدة بيترا نيرا ببحـر من التفكير؛ واعتقـدت من الواجب إبداء بعض الاعتراضات. لو توفر لفابريس أقل قدر من الخبـرة لكـان أدرك أن الكـونتيسة نفسهـا لم تكن تؤمن

بالأسباب التي كانت تتسرع بإعطائها له. وكانت تتمتع، مع فقدان الخبرة، بالتصميم والإرادة. لم يتكرم حتى بالاستماع إلى الأسباب. وارتضت الكونتيسة الحصول منه على وعد بأن يخبر والدته عن عزمه.

وصاح فابريس بشيء من الكبرياء الشجاعة: إنها ستخبر بذلك شقيقتي، وستخونانني على غير علم منهما.

قالت الكونتيسة وهي تبتسم من خلال دموعها: تكلم باحترام أوفر على الجنس الذي سيوفر لك الثروة. لن تروق أبداً للرجال. إنك تلتهب غضباً ضدّ ذوي النفوس المبتذلة.

أجهشت المركيزة بالبكاء أمام غرابة مقصد ولدها. كانت تجهل البطولة التي يتجلى بها وسعت جهدها لاستبقائه. ولما اقتنعت أن لا شيء في العالم، عدا جدران السجن، تستطيع منعه من الذهاب، أعطته الدراهم القليلة التي تملكها، وتذكّرت أنه كان لها منذ العشية ثماني أو عشر ماسات تساوي ربما عشرة آلاف فرنك كان أعطاها إياها المركيز لتعدّها في ميلانو. دخلت شقيقتا فابريس غرفة والدتها بينما الكونتيسة تخيط هذه الماسات في ثياب سفر بطلنا. كان يعيد ألى هذه النسوة البائسات، النابوليونات القليلة التي تخصّهن. تحمّست شقيقتاه لمشروعه فأخذتا تقبلانه بفرح ظاهر. حمل بيده بعض الماسات الباقية دون تخبئة، وأراد الانصراف فوراً.

قال لشقيقتيه إنكما تخونانني دون علم منكما، وبما أن معي كل هذا المال، فمن النافل أن أحمل معي أسمالاً موجودة في كل مكان. سار بسرعة خشية أن يلاحقه رجال يمتطون جياداً حتى أمكنه أن يصل إلى لوغانا مساء اليوم نفسه الحمد لله!. أصبح في مدينة سويسرية ولم يعد خائفاً من جنود رشاهم والده يكرهونه على العودة، في طريق منعزلة. ودفعه ضعف صبياني كي يكتب رسالة رقيقة، من هذا المكان، كانت سبباً لغضب والده. استقلّ فابريس عربة واجتاز سان غوتارا تمّت رحلته بسرعة ودخل فرنسا من بونتارلييه. كان الامبراطور في باريس. وهنا بدأت متاعب فابريس. كان ذهب بقصد ثابت لمحادثة الامبراطور. لم يمرّ في باله أن الأمر صعب. كان يرى الأمير أوجين عشر مرات في ميلانو، ويستطيع أن يوجه الكلام إليه بسهولة. وفي باريس كان يذهب كلّ صباح إلى قصر التويلري، ولكنه لم يتمكن مرة أن يقترب من الامبراطور. كان بطلنا يعتقد أن جميع الفرنسيين متأثرون مثله إلى حدّ كبير بالخطر البالغ المحدق بالوطن. صرّح فابريس بقصده وإخلاصه، على مائدة الفندق حيث نزل، ووجد شباباً يمتازون بلطف محبّب، أشدّ حماسة منه، ولكنهم لم يتوانوا، بعد أيام قليلة أن يسرقوا له كل ما يملك من مال. ولحسن الحظ ومن قبيل التواضع لم يكن تكلّم على الماسات التي أعطته إياها والدته. وفي الصباح الذي تلا إحدى ليالي القصف، وجد نفسه مسروقاً. اشترى جوادين جميلين، واتخذ له خادماً جندياً يعمل

سائساً عند تاجر خيل، وبسبب احتقاره للفتيان الباريسيين كمحدثين متذحلقين، انخرط في سلك الجيش. لم يكن يعرف سوى أن الجيش يتجمّع باتجاه موبيج. وما أن وصل الحدود، حتى وجد مضحكاً أن يبقى في أحد البيوت، يتدفأ أمام مدخنة بينما الجنود يخيّمون، ورغم ما قاله له خادمه الذي لم تكن تنقصه الفطنة. اتّجه مسرعاً واختلط بلا حذر بمخيمات أقصى الحدود، على طريق بلجيكا. وما أن وصل إلى الكتيبة الأولى التي حدّ الطريق حتى أخذ الجنود ينظرون إلى هذا البورجوازي الفتي لا شيء فيه يذكّر بالبزة النظامية. كان الليل يهبط والهواء بارداً. اقترب فابريس من النار وطلب الاستضافة عارضاً دفع البدل. نظر الجنود بعضهم إلى بعض، مستغربين فكرة الدفع، وأفسحوا له مكاناً أمام النار وضع له خادمه ملجأ يأوي إليه مرّ مساعد الكتيبة، ساعة بعد ذلك، عند المعسكر، فأخبره الجنود بوصول هذا الغريب الذي لا يحسن التكلم بالفرنسية. سأل المساعد فابريس، فأخبره عن حماسته للامبراطور بلهجة مشبوهة، رجاه ضابط الصف، أن يتبعه عند العقيد في مزرعة مجاورة. اقترب خادم فابريس مع الجوادين. منظرهما أثّر عميقاً على مساعد الضابط، فبدّل فكره سريعاً، وأخذ يحقّق مع الخادم. ولأنه جنديّ قديم، أدرك منذ البدء، مخطّط مخاطبه. تكلم على الرعاية التي يتمتع بها سيده وأضاف إنهم لن يأخذوا منه جواديه. نادى المساعد حالاً أحد الجنود، فأمسكه من طوقه، وتولّى جندي آخر

أمر الجوادين، ثم أمر فابريس بلهجة قاسية، أن يتبعـه دون احتجاج.

بعد مسيرة فرسخ مشياً وسط ظلام جعلته أشدّ حلكة، نيران المعسكر تنير الأفق من كل الجهات، سلّم المساعد فابريس إلى الضابط الذي طلب منه أوراقه بوقار. أبرز فابريس جواز سفره الذي كان يصفه بأنه بائع بارومترات جوّال.

صاح الضابط: هل هم حيوانات؟ أمر غريب جدًّا. ووجّه لبطلنا بعض الأسئلة. فتكلّم على الامبراطور والحرية بكلمات تدلّ على حماسة شديدة وعندما استولت على الضابط موجة من الضحك المجنون. وصاح:

ـ حقاً! لست على قدرٍ كافٍ من المهارة! إنه أمر صعب أن يتجرّأ ويرسلوا لنا أغراراً أمثالك. كان فابريس يسعى جهده ليثبت أنه لم يكن بائع بارومترات، ولكن الضابط لم يقتنـع بكلامه فأرسله إلى سجن ب...، مدينة صغيرة في الجوار، وصل بطلنا في الثالثة صباحاً، متأثراً ومنهوكاً من التعب. تعجب بادىء الأمر ثم غضب، غير مدرك ما كان يجري له. قضى فابريس ثلاثة وثلاثين يوماً في هذا السجن البائس. كان يكتب الرسالة تلو الرسالة إلى قائد الموقع. وزوجة السجّان ـ فلامندية جميلة عمرها ستة وثلاثون سنة ـ تتولى أمر إيصالها. ولكن لم تكن لها رغبة أن تجعل شاباً بهذا القدر من الجمال، يقتل رمياً

بالرصاص وكان سخياً، فلم تكن تتأخر عن رمي جميع رسائله في النار. كانت تتكرّم مساء وتأتي إليه في ساعة متأخرة لتستمع إلى شكاواه. وكانت قالت لزوجها أن هذا الغر يملك مالاً، فترك لها السجان الحكيم حرية التصرف - واستعملت هذا الأذن وكسبت بعض النابوليونات إذ المساعد لم يأخذ منه سوى الجوادين، وضابط الدرك لم يصادر شيئاً. بعد ظهر أحد أيام حزيران، سمع فابريس، بعيداً، قصفاً على شيء من القوة. ها هم أخيراً يتقاتلون. كان قلبه ينتفض من قلة الصبر. وسمع أيضاً صخباً في المدينة، إن حركة كبرى تحدث. ثلاث فرق تجتاز ب.. عند الحادية عشرة مساء، أتت زوجة السجان تشارك فابريس همومه، فأظهر لها مودة أكثر من المعتاد، وأمسكها من يديها:

- أخرجيني من هنا، وأقسم لك أن أعود إلى السجن عندما يتوقف القتال.

- هذر كل هذا! هل معك دراهم! أبدى اضطرابه، فأدركت أنّ الدراهم شحت. وعوضاً أن تتكلم على نابوليونات ذهبية كما كانت صممت، لم تتكلم إلا على الفرنكات.

- إسمع، قالت له، إذا تمكنت أن تعطيني ماية فرنك، سأضع نابوليون مضاعفاً على كل من عيني الرقيب الذي سيأتي، ويأخذ مكان الحارس في الليل. لن يراك تهرب من السجن،

وإذا كان الفيلق سيرحل أثناء النهار، فسيقبل.

وتمت الصفقة. قبلت السجانة أن تخبىء فابريس في غرفتها من حيث يتمكن أن يتسلل هارباً بسهولة أكبر صباحَ اليوم التالي.

في الغد، قبل الفجر، قالت هذه المرأة الحنون لفابريس:

ـ يا صغيري العزيز، لا تزال فتياً على هذه المهنة القذرة. لا تعد إليها.

ـ ماذا! كان فابريس يردد. هل جريمة أن يريد المواطن الدفاع عن وطنه؟.

ـ كفى. تذكر دائماً إنني نجيّتك من الموت، كانت حالتك واضحة، ولكنت رميت بالرصاص. لا تقل شيئاً لأحد. لأنك إذا فعلت ستفقدنا وظيفتنا زوجي وأنا، وخاصة لا تردد قصتك العاطلة بأنك نبيل من ميلانو متنكر بزيّ بائع بارومترات، هذا سخيف جداً. اسمعني جيداً، سأعطيك ثياب جنديّ مات أول البارحة في السجن: لا تنطق إلا عند الضرورة. وأخيراً، إذا سألك الرقيب أو ضابط وأجبرت على أن تجيب، قل إنك كنت مريضاً عند أحد المزارعين استضافك إحساناً بينما كنت ترتجف من الحمى في أحد حفر الطريق. وإذا لم يكن الجواب شافياً لهم أضف إنك ذاهب للالتحاق بفرقتك. سيوقفونك ربما بسبب لهجتك. قل إنك من مواليد البييمون، وإنك مجند بقيت في فرنسا منذ السنة الماضية.

لأول مرة بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من الاندفاع، أدرك فابريس سرّ كل ما يصيبه. يعتقدون أنه جاسوس. فكر مع حارسة السجن التي كانت هذا الصباح شديدة الحنان؛ وأخيراً عندما أخذت إبرة وأخذت تضيق ثياب الجندي، أخبر قصته بوضوح إلى هذه المرأة المندهشة. صدقتها برهة، كان يبدو ساذجاً، ورائعاً وهو مرتد بزة الجندي.

قالت له أخيراً وهي ليست مقتنعة تمام الاقتناع:

ـ بما أن لك هذا القدر من الرغبة الجادة كي تشترك بالقتال، كان عليك لدى وصولك إلى باريس، أن تتطوع في كتيبة. كان بالإمكان حل قضيتك بتقديم الشراب إلى أحد الرقباء! وأضافت السجانة كثيراً من النصائح النافعة للمستقبل؛ وأخيراً عند بزوغ الفجر، أخرجت فابريس من غرفتها بعد أن جعلته يقسم مئات المرات أنه لن يتلفظ أبداً باسمها مهما حصل. وما أن خرج فابريس من المدينة الصغيرة، سائراً بخطى ثابتة، ومتأبطاً سيف الخيالة حتى داخله شك.

قال في نفسه: ها أنا بثياب جندي وأوراقه وهو مات في السجن، لسرقه بقرة وبعض الصحاف الفضية! ورثت شخصيته دون أن يكون لي إرادة أو إمكانية التنبؤ بأية طريقة، عن حصول هذا الأمر. حذار السجن، النذير واضح! سأشقى كثيراً في السجن.

لم تنقضِ ساعة على مغادرة فابريس تلك المحسنة إليه، حتى بدأ المطر ينهمر بكثير من القوة، والفارس الجديد يسير بشق النفس، متضايقاً من حذائه السميك لم يكن مصنوعاً له. التقى مزارعاً يمتطي جواداً سيء الحالة. اشتراه تفاهماً بواسطة الحركات. كانت السجانة أوصته أن يتكلم أقل ما يمكن، بسبب لهجته.

كان الجيش انتصر ذلك اليوم في معركة ليني، ويتجه إلى بروكسيل، عشية معركة واترلو. عند الظهر كان المطر لا يزال ينهمر سيولاً. سمع فابريس قصف المدافع. هذه السعادة أنسته تماماً أيام اليأس المرعبة وفّرها له السجن الظالم. سار حتى ساعة متأخرة من الليل. وبينما بدأ يستعيد شيئاً من الرشد، اتجه إلى بيت أحد المزارعين يبعد عن الطريق. كان هذا المزارع يبكي ويدعي أنه سُلب كل شيء؛ أعطاه فابريس ريالاً، وتمكّن أن يحظى ببعض الشوفان. قال فابريس في نفسه: أن جوادي ليس جميلاً، ولكن ما أهمية ذلك، يمكن أن يعجب أحد معاوني القادة.

ذهب ونام في الاصطبل حدّ جواده. كان فابريس في الطريق قبل ساعة من شروق شمس اليوم التالي. وبفضل الجهد المبذول لحث جواده جعله يسرع. وسمع القصف المدفعي قرابة الساعة الخامسة. كانت تلك، مقدّمات معركة واترلو.

٣

وجد فابريس سريعاً بائعات الأرزاق للجيش. وحمله حفظ الجميل لسجانة ب. . . أن يوجه إليهن الكلام؛ فسأل واحدة منهن عن فوج الخيالة الرابع، وهو أحد أفراده. أجابته متأثرة بامتقاع فابريس وجمال عينيه:

ـ لا تستعجل يا عزيزي الجنديّ الصغير. ليس لـك من البائس لتشارك في المعركة التي تدور اليوم. لو كنت تملك بندقية على الأقل لاستطعت أن تطلق النار كأيّ جندي آخر.

لم تعجب النصيحة فابريس، ولكنه جهد كثيراً في حثّ جواده على السير فلم يتمكن أن يسرع أكثر من عربة البائعة. كان من وقت إلى آخر أن قصف المدافع يقترب، فلم يعد يسمعها، إذ لم يعد يتمالك نفسه من الحماس والسعادة، فعاد واستأنف الحديث. كانت كلّ كلمة منها تضاعف سعادته وخاصة أنها كانت تجعله يدرك معناها. انتهى به الأمر أن اعترف إلى هذه المرأة الطيبة بكل شيء عدا اسمه الحقيقي وحادثة هربه من السجن. كانت شديدة الدهشة ولم تكن تفهم شيئاً من كل ما كان يخبره هذا الجندي الوسيم.

أدركت سرك، صاحت أخيراً منتصرة: أنت شاب بورجوازي مغرم بزوجة أحد نقباء فوج الخيالة الرابع. قد تكون عشيقتك قدمت لك هذه البزة ترتديها. وها أنت الآن تلاحقها. هذا

الأمر حاصل كما وجود الله في السماء. لم تكن أبداً جندياً في الجيش. وبما أن فوجك يحارب في خط النـار، تريـد كشاب شجاع أن تثبت وجودك هناك كي لا تبدو جباناً.

وافق فابريس على هذه الأقوال: كانت الطريقة الوحيدة التي لديه لتلقي النصائح المفيدة. كان يقول في نفسه: أنا أجهل كل أساليب الفرنسيين هذه، وإذا لم يساعدني أحد، سيكون نصيبي السجن مرة أخرى وسيسرقون جوادي.

قالت البائعة وكانت تشتد أواصر صداقتها به: اعترف، يا صغيري، أولاً إنك لم تبلغ الواحدة والعشرين فعمرك سبعـة عشر عاماً في أقصى حد.

فاعترف فابريس بكل طيبة خاطر بأنها الحقيقة.

ـ أنت لست مجنداً. تعرض نفسك للموت من أجل جمال عيني السيدة. اللعنة! أليست منزعجة! إذا كنت تحتفظ ببعض من القطع الذهبية أعطتك إياها عليك أولاً أن تشتري جواداً آخر، أنظر، كيف أن أذني جوادك الضعيف هذا تنتصبان عند دوي المدفع عن قرب. هذا جواد مزارع سيتسبب في قتلك لدى وصولك إلى خط النار وهذا الدخان الأبيض، تراه هناك، فوق السياج، نيران الكوكبة، يا صغيري، جهز نفسك لأن يتولاك الخوف عند سماع أزير الرصاص. وما دام أمامك متسع من الوقت عليك أن تتناول بعض الطعام.

اتبع فابريس نصيحتها، ونقدها نابوليوناً، راجياً أن تقتطع منه ما لها بذمته صاحت، مرآه يثير الشفقة، لا يعرف هذا المسكين الصغير حتى كيف يصرف دراهمه. تستحق، بعد أن قبضت ليرتك الذهبية أن أدفع جوادي إلى الإسراع ولن يستطيع جوادك السقيم أن يلحق بي. ماذا ستفعل أيها الأبله عندما تراني أدبر مسرعة؟ تعلم أنه عندما يدوي صوت المدفع لا يظهر الناس ما يملكون من ذهب، وقالت له: خذ هذه ثماني فرنكات وخمسون سنتيماً، فثمن وجبة الطعام ثلاثون نحاسة. الآن ستصلنا بعض الجياد للبيع. فإذا كانت دابتك صغيرة ستدفع عشر فرنكات، وفي مطلق الأحوال لن تدفع أكثر من عشرين فرنكاً، حتى ولو كان جواد أبناء ايمون الأربعة.

كانت البائعة لا تزال تثرثر، عند نهاية الفطور، عندما قاطعتها امرأة تتقدّم في الحقول لتمر على الطريق صائحة:

ـ هاي! هاي! مرغو، الفوج السادس إلى اليمين.

ـ قالت البائعة لبطلنا: يجب أن أتركك يا صغيري. إنك تثير الشفقة في نفسي. أكن لك كل صداقة. انك جاهل لا تعرف شيئاً، كما الله هو الله؛ تعال معي إلى الفوج السادس.

ـ أدرك تماماً، أني لا أعرف شيئاً، أجابها فابريس، ولكن أريد أن أحارب، وأني مصمم على الذهاب إلى هناك نحو الدخان الأبيض.

ـ أنظر إلى حيوانك، كيف يحرك أذنيه! حين تصبح هناك، إذا امتلك بقية من قوة ونشاط، سيجبرك على المسير حيث يشاء، والله وحده يعلم إلى أين سيقودك. أتريد أن تصدقني! عندما تصبح مع الجنود الصغار، التقط بندقية وجعبة وقف بجانب الجنود وتصرّف كما يتصرفون. ولكن، يا إلهي، أؤكد إنك لا تعرف أن تطلق النار.

تأثر فابريس بالغاً، ومع ذلك اعترف إلى صديقته الجديدة بأنها أدركت الحقيقة.

ـ أردفت البائعة بلهجة جازمة: الصغير المسكين! سيقتل فوراً. لن يقتضي لذلك وقت طويل. يجب أن تأتي معي مهما كلّف الأمر.

ـ ولكني أريد أن أحارب.

ـ ستحارب الفوج السادس، له شهرته. وفرصة القتال موفورة اليوم للجميع.

ـ ولكن هل سنكون مع فرقتك قريباً؟.

ـ بعد ربع ساعة على الأكثر.

قال فابريس في نفسه: إذا أوصت بي هذه المرأة، فجهلي لكل الأشياء لن يعرضني لأن يلقى القبض عليّ كجاسوس. وعندئذ سأتمكن من خوض القتال. وتضاعف قصف المدافع في هذا الوقت. فالطلقة تلي الطلقة. الطلقات تتوالى كحبات السبحة.

ـ ها نحن نلمح نيران المفرزة قالت البائعة وهي توجه ضربة سوط لجوادها الصغير الذي يبدو وكأن النيران أثارت فيه نشاطاً جديداً..

استدارت البائعة إلى اليمين، وسلكت طريقاً معترضة وسط المروج، الوحول تبلغ فيه سماكة قدم. كادت العربة الصغيرة تبقى عالقة في تلك الوحول. دفع فابريس الدولاب. كبا جواده مرتين. غدت الطريق أقل ماء بعد فترة قصيرة وأصبحت ممراً ضيقاً وسط أرض معشبة. لم يتقدم فابريس خمسمائة خطوة حتى توقفت مطيته تماماً بسبب جثة ملقاة عبر الممر أثارت الجواد وفارسه.

امتقع إلى أقصى حد وجه فابريس الشاحب طبيعياً واتخذ لوناً أخضر بوضوح. بعد أن نظرت البائعة إلى الميت، قالت كما لو كانت تكلم نفسها: ليس من فرقتنا، ثم رفعت نظرها إلى وجه فابريس وأطلقت ضحكة مدوية. وصاحت:

ـ ها! ها! يا صغيري شيء طريف..

بقي فابريس جامداً. وما لفت نظره خاصة، قذارة قدمي هذا القتيل الذي نزع حذاؤه ولم يترك له سوى بنطلون متسخ بالدم.

قالت:

ـ اقترب، انزل عن الجواد. يجب أن تعتاد هذا المشهد.

أنظر، أصيب في رأسه. اخترقت رصاصة جانب الأنف وخرجت من الصدغ المقابل، وشوهت الجثة بطريقة بشعة. وكانت أحد العينين ما تزال مفتحة انزل عن الجواد، أيها الصغير، وسلم عليه لنرى إذا كان سيرد على التحية بمثلها.

ومع أن فابريس كاد يموت من القرف، نزل بسرعة عن ظهر جواده، وأمسك يد الجثة، دون تردد وهزّها بعنف، ثم بقي كالمعتوه، كان يشعر أن لا قوة لديه تساعده على امتطاء جواده. كانت تلك العين المفتوحة ترعبه.

قال في نفسه بمرارة: ستعتقد البائعة أني جبان. وكان يشعر باستحالة قيامه بأي حركة: ولو فعل، لكان انهار. كانت رهيبة هذه البرهة. كاد يغمى على فابريس. تنبهت البائعة للأمر فقفزت بخفة من عربتها الصغيرة وقدمت له، صامتة كأس ماء، فابتلعه جرعة واحدة، وتمكن من أن يمتطي جواده البليد، وتابع طريقة دون أن يتكلم. كانت البائعة تنظر إليه خلسة بين الفينة والفينة.

- قالت أخيراً: غداً ستحارب، يا صغيري. أما اليوم فستبقى معي. عليك أن تتعلم مهنة الجندية.

صاح بطلنا مغتماً: بالعكس، أريد أن أحارب فوراً. فاستبشرت البائعة خيراً. تضاعف قصف المدافع وبدا يقترب. بدأت الطلقات تأتلف وتكون صوتاً جهيراً متواصلاً. ولم يكن

يفصل بين الطلقة والأخرى أية فسحة، ومن خلال هذا الصوت الجهير يذكر بصوت سيل بعيد، كانت تبدو نيران المفرزة بكل وضوح.

في هذا الوقت كانت الطريق تتغلغل وسط غابة صغيرة: رأت البائعة ثلاثة أو أربعة من جنودنا يتّجهون نحوها بسرعة. قفزت بخفة من عربتها واختبأت في مكان يبعد خمسة عشر أو عشرين خطوة عن الطريق وكمنت في حفرة باقية في مكان اقتلعت منه شجرة كبيرة منذ وقت قصير. قال فابريس في نفسه: سأرى إذا كنت جباناً! توقف قريباً من العربة المهملة واستلّ سيفه. لم ينتبه الجنود له ومروا راكضين على طول الغابة إلى يسار الطريق.

- إنهم من جنودنا، قالت البائعة بهدوء وهي تعود لاهثة نحو عربتها الصغيرة. لو كان باستطاعة جوادك أن يقرب لقلت لك إلى الأمام حتى تصل إلى طرف الغابة، وانظر إذا كان أحدٌ في السهل. كسر فابريس على الفور غصناً من شجرة دلب، ونزع أوراقه وراح ينهر جواده بكل قوته. فأسرعت مطيته لبعض الوقت ثم عادت مشيتها البطيئة المعتادة. وأسرعت البائعة بجوادها. وأخذت تصيح لفابريس:

- قف! قف!.

بعد قليل أصبح الإثنان خارج الغابة. وبوصولهما إلى السهل

سمعا ضوضاء مخيفة. المدفع ورشقات البنادق تجلجل من كل الجهات، إلى اليمين واليسار والوراء. وإذا الغابة التي خرجوا منها كانت على أكمة ترتفع ثمانية أو عشرة أقدام فوق السهل، شاهدوا قسماً من المعركة؟ أخيراً لم يعد أحد في المـرج وراء الغابة. كان يحد هذا المرج، على ألف خطوة، صف طويل من الصفصاف الكثيف ويظهر فوق الأشجار دخان أبيض يـرتفع مرات إلى السماء مدوّماً.

ـ كانت البائعة تقول مرتبكة: لو كنت أعرف فقط أين هو الفوج! لا يجب اجتياز هـذا المرج بـالسير في خط مستقيم. بالمناسبة، إذا رأيت جندياً من الأعداء شكه بسنان سيفك ولا تتسلّ بتسييفه.

في هذا الوقت، رأت البائعة الجنود الأربعة الذين مرّوا قبل قليل. كانوا يخرجون من الغابـة إلى السهل شمـالي الطريق. واحد منهم يمتطي جواداً. قالت لفابريس.

ـ هذا شأن يهمك. ثم نادت صاحب الجواد: أنت تعال اشرب كأس ماء. اقترب الجنود:

ـ أين الفوج السادس؟.

ـ هناك، على خمس دقائق من هنا، أمام هذه القناة، بمحاذاة أشجار الصفصاف. الكولونيل مالون قتل منذ قليل.

ـ أتبيع جوادك بخمس فرنكات، أنت؟.

ـ خمس فرنكات! تجيدين المزاح، أيتها الأم الصغيرة، هذا جواد ضابط وسأبيعه بخمس نابوليـونات، قبـل انقضاء ربـع ساعة.

قالت البائعة لفابريس:

أعطني نابوليوناً مما معك.

واقتربت من الجندي صاحب الجواد وقالت له: انزل بسرعة خذ هذا نابوليونك.

نزل الجندي وقفز فابريس على السرج فرحاً. وبدأت البائعة تنزع الشجاب عن ظهر الجواد البليد.

قـالت للجنـود: أعينـوني. أهكـذا تـدعـون سيـدة تعمـل وحدها؟.

وما إن شعر الجواد الغنيمة بالشجاب حتى بدأ يشبّ. كان فابريس يحسن ركوب الخيل، واحتاج إلى كل قوته لكبحه.

ـ قالت البائعة: هذه اشارة طيبة! ليس هذا الجواد معتاداً على دغدغة المشجب.

أخذ الجندي البائع يصيح: إنه جواد قائد. ثمنه ضئيل فهو يساوي عشر نابوليونات.

ـ هذه عشرون فرنك، قال له فابريس وكاد يطير من الفرح بأن يجد نفسه فوق جواد نشيط يستطيع أن يتحرك.

في هذا الوقت سقطت كلة مدفع، في أشجار الصفصاف وأصابتها جانبياً. وتوفر لفابريس أن يرى مشهداً غريباً: كانت هذه الغصون الصغيرة تتطاير في كل الاتجاهات كما لو كانت حصدت بضربة مقضب.

قال له الجندي وهو يأخذ العشرين فرنكاً: أنظر. هذا هو الجيش يتقدّم. ربما كانت الساعة الثانية.

كان فابريس لا يزال مأخوذاً بالمشهد عندما مرت مجموعة ألوية يتبعهم عشرون خيّالاً، اجتازوا سريعاً إحدى زوايا المرج الفسيح، الذي كان القصف يتناول طرفه. صهل جواده وشب مرتين أو ثلاثة ووجه عدة ضربات عنيفة إلى المقود الذي كان يكبح جماحه. فليكن. قال فابريس. أسرع الجواد بعد أن ترك له العنان وانضم إلى الموكب الذي يتبع الألوية. عدّ فابريس أربع قبعات موشاة وأدرك بعد ربع ساعة، من بضع كلمات، قالها خيال بجانبه، أن واحداً من القادة كان الماريشال ني الذائع الصيت. بلغت سعادته أوجها. غير أنه لم يتوصل أن يعرف أيًا من القادة الأربعة هو الماريشال ني.

كان مستعداً أن يعطي كل شيء في العالم لكي يتعرف إليه، ولكنه تذكر أن عليه الحفاظ على الصمت. وقف موكب الحراسة لاجتياز خندق واسع مملوء بماء المطر منذ العشية، كان محاطاً بأشجار كبرى تحدّ من الجهة الشمالية المرج الذي عند مدخله

كان فابريس اشترى جواده. ترجّل الفرسان بأجمعهم تقريباً، كانت حافة الخندق عمودية وزالقة جداً ويبلغ الماء فيه ثلاثة أو أربعة أقدام تحت مستوى المرج. وكان فابريس شارد الذهن بسبب غبطته، يفكر بالماريشال ني وبالمسجد، أكثر مما بجواده الذي قفز إلى الخندق في حالة هياج شديد. تصاعدت الماء إلى علو كبير فتبلّل من جراء ذلك أحد القادة، فصاح شاتماً: إلى الشيطان أيها الحيوان اللعين! شعر فابريس في أعماق نفسه أنه مهان بسبب هذه الشتيمة. وتساءل هل أتمكن من أن أسأل عن السبب؟ وباشر بقيادة جواده إلى الضفة المقابلة للخندق، كي يثبت أنه ليس أخرق؛ ولكنها كانت عمودية فأضطر أن يتخلى عن هذه المغامرة؟ عندئذ صعد المجرى وغمر الماء الجواد حتى رأسه، وأخيراً وجد مسقى، وعن طريق هذا المنحدر القليل الارتفاع استطاع الوصول بسهولة إلى السهل المجاور لذلك المكان. وبينما كان الفرسان يتعثّرون في الخندق، مرتبكين من وضعهم، إذ كان عمق الماء يبلغ في كثير من الأماكن أكثر من خمسة أقدام، تملّك الخوف جوادين أو ثلاثة، أرادوا الاستباحة، فتسبب عن ذلك تخبط مريع. وأدرك أحد القادة الحيلة التي قام بها هذا الغر، الذي لم يكن يتصف بسمة تدل على أنه جندي.

اصعدوا، ثمة مسقى إلى الشمال! وهكذا شيئاً فشيئاً مرّوا بأجمعهم.

بوصوله إلى الضفة الأخرى وجد فابريس القادة وحدهم.

وبدا له أن قصف المدافع تضاعف؟ وبالكاد كان يسمع القائد الذي سبق وبلّله يصيح في أذنه:

ـ من أين لك هذا الجواد؟.

كان فابريس مضطرباً إلى درجة أنه أجاب بالإيطالية:

ـ اشتريته الآن. فصاح اللواء:

ـ ماذا تقول؟.

ولكن الجلبة أصبحت مرتفعة حتى لم يستطع فابريس الإجابة. وسنعترف أن بطلنا كان جباناً في هذا الوقت. ومع هذا، كان الخوف يحلّ في المرتبة الثانية عنده. كان يثير استنكاره مدى هذه الجلبة كانت تؤلم أذنيه. أسرع جند الحراسة، وكانوا يجتازون قطعة أرض محروثة، وراء القناة المغطاة بجثث القتلى.

ـ البزات الحمراء! البزات الحمراء! كان يصيح خيّال الحراسة بسرور. لم يكن فابريس يفهم شيئاً في البدء. لاحظ أخيراً أن جميع الجثث مرتدية بزّات حمراء، كانوا طبعاً يصرخون طالبين النجدة. ومرّت لحظة جعلته يرتجف من الهول. ولاحظ أن كثيراً من هؤلاء التعساء أصحاب الثياب الحمراء لا يزالون أحياء. لم يكن أحد يتوقف لمدّ يد المساعدة لهم. كان بطلنا الذي يمتاز برقة قلب شديدة، يبذل أقصى الجهد كي لا يطأ جواده أيّا من أصحاب البزات الحمراء. توقفت فرقة الحراسة ولم يكن فابريس يتنبّه لواجبه كجندي، فأكمل تقدّمه وهو يحدق بأحد الجرحى التعساء.

ـ أتريد أن تتوقف أيها الغرّ! صاح به الرقيب. تنبّه فابريس عندئذ أنه كان على عشرين خطوة أمام القـادة، وبالضبط في الاتجاه الذي كانوا يراقبونه بمناظيرهم. لدى عودته كي يتخذ مكانه في نهاية الصف رأى أن أحد هؤلاء القادة كان يتكلم مع قائد جاره بلهجة آمرة، مرفوقة بما هو قريب من التأنيب صائحاً بوجهه. لم يتمكن فابريس من كبح فضوله بالرغم من النصيحة التي أعطته إياها رسالة حارسة السجن بعدم التكلم، فجهّز جملة فرنسية صحيحة وقال لجاره:

ـ من هو هذا العماد الذي يؤنب رفيقه؟.

ـ الماريشال.

ـ أي ماريشال؟.

ـ الماريشال ني، أيها الأحمق! يا للعجب، أين خدمت حتى اليوم؟.

لم يفكـر فابـريس، كونـه مرهف الاحسـاس، أن يغضب للإهانة، كان يتأمّل تائهاً، في إكبار طفولي، أمير موسكوفا هذا، الذائع الصيت وأشجع الشجعان.

ذهب القوم فجأة مسرعين، فرأى فابريس برهات بعد ذلك على عشرين خطوة إلى الأمام، أرضاً مقلوبة. بطريقة غريبة، قعور الأثلام مليئة بالماء، تتكوّن ذرواتها من تراب رطب جداً يتطاير أجزاء صغيرة سوداء، ترتفع ثلاثة أو أربعة أقـدام في الهواء. لاحظ فابريس هذه النتيجة الغريبة ثم عاد يفكر بمجد

القائد سمع صيحة، بالقرب منه، صادرة عن فارسين سقطا مصابين بكرة مدفع. ولما نظر إليهما كانا أصبحا على عشرين خطوة من موكب الحراسة. وما بدا له مريعاً جواد ما زال يتخبط على الأرض المحروثة، أدخل قوائمه في أحشائه، ويريد أن يتبع الآخرين: غير أن الدم كان يجري على الوحل.

كان فابريس يردد في نفسه راضياً:

ـ آه، ها أنا أخيراً في خط النار؛ رأيت النار، ها أنا جندي حقيقي. في هذا الوقت كان المرافقون يزحفون على الأرض، فأدرك بطلنا أن كرات المدافع هي التي كانت تنثر التراب من كل الجهات.

حاول عبثاً أن ينظر إلى الاتجاه الذي تأتي منه الكرات. كان يرى دخان البطارية الأبيض على مسافة شاسعة، ووسط القصف الرتيب المتواصل تحدثه طلقات المدافع. كان يبدو له أنه يسمع قصفاً أقرب بكثير. لم يكن يفهم شيئاً.

في هذا الوقت انحدر القادة والحراس في طريق ضيق مليء بالماء أدنى بخمسة أقدام مما يجاوره.

توقف المشير وراقب بمنظاره من جديد، فتمكّن فابريس هذه المرة من أن يتأمله ملياً، وجده شديدا الشقرة، رأسه كبير أحمر. قال في نفسه: ليس عندنا في إيطاليا وجوه مثل هذا الوجه، وأضاف حزيناً: لن أصبح أبداً هكذا، أنا الشاحب الوجه ذو

الشعر الكستنائي. كانت هذه الحكايات تعني له: لن أصبح أبداً بطلاً. نظر إلى الخيالة فإذا بهم يتمتعون كلّهم بشوارب صفراء إلّا واحداً. نظر فابريس إلى فرسان الحراسة فكانوا بدورهم ينظرون إليه مما جعل الاحمرار يعلو وجنتيه. ولكي يضع حداً لاضطرابه. حوّل نظره إلى الأعداء. كانوا خطوطاً من الرجال ذوي الثياب الحمراء تنتشر إلى أبعاد طويلة. ولكنّ ما أثار العجب الشديد، أن هؤلاء الرجال كانوا يبدون جميعهم صغاراً، ولم تكن خطوطهم الطويلة من أفواج أو فرق تبدو له أعلى من السياج. كان صف من الفرسان الحمر يركض للاقتراب من الطريق الضيق الذي كان المارشال والفرقة يجتازونه بخطى قصيرة وهم يتعثرون في الوحل. كان الدخان يمنع مرأى أي شيء من الناحية التي يتقدمون باتجاهها. وكان يشاهد أحياناً رجالاً مسرعين يرتسمون على هذا الدخان الأبيض.

رأى فابريس فجأة، أربعة رجال يصلون زاحفين من صوب الأعداء. قال في نفسه: إنهم يشنّون هجوماً علينا. ثم رأى اثنين منهم يكلمان المارشال. تقدّم أحد عمداء بطانة هذا الأخير مسرعاً إلى ناحية الأعداء يتبعه حارسان من الفرسان والرجال الأربعة الذين كانوا وصلوا قبل ذلك. وجد فابريس نفسه وراء قناة صغيرة اجتازها الجميع، حذّ الرقيب الذي كان يبدو طيب الخلق كثيراً. قال في نفسه: يجب أن أكلّم هذا الرجل، ربما يقلعون عن النظر إليّ. فكر ملياً ثم قال أخيراً:

ـ سيدي، هذه أول مرة أحضر معركة. هل هي معركـة حقيقية؟.

ـ نوعاً ما. ولكن أنت، من أنت؟.

ـ أنا شقيق زوجة النقيب.

ـ وما اسم هذا النقيب؟.

اضطرب بطلنا شديداً. لم يتوقع هذا السؤال، ولحسن الحظ كان المارشال وموكبه ينطلقان مسرعين على ظهور جيادهم. أي اسم فرنسي سأعطي؟ وأخيراً تذكر اسم رئيس خـدم مائـدة الفندق حيث كان نزل في باريس، فاقترب بجواده من جواد رقيب الخيالة وصاح بأعلى صوته:

ـ النقيب مونييه! لم يسمع الآخر الاسم بـوضوح، بسبب قصف المدفع، فأجابه: آه! النقيب تولييه! قتل. مرحى! قال فابريس! النقيب تولييه، يجب أن أتظاهر بالحزن! صـاح، يا إلهي! واتخذ مظهراً مثيراً للشفقة. كانوا يجتازون حقلاً صغيراً والطريق تفضي إلى مستوى أدنى من الحقل. يتقدمون زاحفين، وكرات المدافع تتساقط من جديد. اتجه المارشال نحو إحدى فرق الخيالة. وجد الموكب نفسه وسط جثث قتـلى وجرحى، ولكن هذا المشهد لم يعد يؤثر كما في السابق على بطلنا، كان لديه أمراً آخر يفكر به.

بينما كان الموكب متوقفاً ألمح عربة صغيرة لإحدى البائعات، فتغلّب عليه حنانه لهذه المخلوقات، وذهب مسرعاً ليلتقي بها.

صاح به الرقيب: إبقَ يا ق. . . فكّر فابـريس، أي أذى يستطيع أن يلحق بي هنا، وأكمل طريقه نحو البائعة وهو يهمز جواده. وساوره بعض الأمل أن تكون هذه البائعة هي نفسها التي عرفها صباحاً. تتشابه الجياد والعربات كثيراً، ولكن صاحبة هذه لم تكن التي يفتش عنها. وجدها فظة. وبينما يقترب منها سمعها تقول: كان مع ذلك رجلاً جميل الخلقة. وكان مشهد قبيح ينتظر الجندي الجديد: يقطعون فخذ خيال، شاب جميل، طوله خمس أو ست بوصات. أغمض فابريس عينيه، وشرب أربعة أكواب من المسكر، الواحد تلو الآخر.

قالت البائعة: كم تشرب، يا رجل!.

أعطاه ماء الحياة فكرة: أن أشتري عطف رفاقي خيالة موكب الحراسة، قال للبائعة:

ـ أعطيني بقيّة القنينة.

ـ ولكن أتعرف أن هذا الباقي يكلفك عشر فرنكات في مثل هذا اليوم؟.

وبينما كان يعود إلى الموكب مسرعاً، صاح الرقيب:

ـ آه، تأتي لنا بالمشروب! ألهذا السبب كنت هارباً؟. هات.

انتقلت الزجاجة من يد إلى يد ورماها الأخير في الهواء بعد أن شرب ما فيها وصاح لفابريس ـ شكراً أيها الرفيق! هذه النظرات، رفعت الثقل عن قلب فابريس وكان هذا من تلك

القلوب الطيبة التي تحتاج إلى صداقة من يحيط بها. وأصبح أخيراً منظوراً إليه بعين الرضى من رفاقه. تنفس فابريس عميقاً وقال بصوت هادىء للرقيب:

ـ إذا كان النقيب توليبيه قتل، أين يمكن أن اجتمع بشقيقي؟ كان يعتقد نفسه مكيافيلي صغيراً يتقن قول توليبيه عوضاً عن مونبييه.

أجابه الرقيب:

ـ هذا ما ستعرفه هذا المساء. شعر فابريس أنه سكران تماماً. شرب كثيراً وتذكر في الوقت المناسب كلمة كان يردّدها حوذي والدته: متى سكر الإنسان عليه أن ينظر بين أذني جواده وأن يتصرف كما يتصرف الجار. توقف الماريشال طويلاً بالقرب من عدة فرق خيالة ودفعها إلى الهجوم. لم يدرك بطلنا في مدى ساعة أو اثنتين ما كان يجري حوله. خالجه شعور بالسأم. وعندما كان جواده يقترب، أخذ يعلو ويهبط على السرج كقطعة رصاص.

صاح الرقيب فجأة برجاله:

ـ ألا ترى الامبراطور، أيها ال... وفي الحال صاح الموكب بأعلى صوته: يحيا الامبراطورا.

بطلنا نظر بانتباه، ولكنه لم يـر سوى جنرالات يرمحون. يتبعهم موكب منعته أغراف خوذ خيالته من أن يميّز وجوههم.

«لم أتمكن من مرأى الامبراطور في ساحة القتال بسبب أقداح المسكر الملعونة». أيقظته هذه الفكرة تماماً. نزلوا جميعاً في طريق مليئة بالماء. أرادت الجياد أن تشرب.

قال لرفيقه: الامبراطور مرّ من هنا إذاً؟.

أجابه بلطف: ـ نعم، بكلّ تأكيد. ذلك الذي كان يرتدي ثوباً غير موشى. كيف لم تره؟ تمنى فابريس، من كل قلبه، أن يرح وراء موكب الامبراطور. أية سعادة أن يشترك الإنسان في الحرب بقيادة هذا البطل. أتى إلى فرنسا من أجل هذه الغاية. قال في نفسه: أنا سيّد أمري ليس لدي أي سبب آخر كي أؤدي الخدمة التي أؤديها. كانت ارادة جوادي الذي أخذ يرمح كي أتبع هؤلاء الجنرالات.

والذي جعل فابريس يتخذ قراراً بالبقاء، أن الخيّالة هؤلاء الرفاق الجدد، كانوا يرحّبون به. وبدأ يعتقد أنه الصديق الحميم لكل الجنود الذين كان يرمح معهم منذ ساعات ـ كان يرى بينه وبينهم صداقة أبطال التاس والأريوست الشريفة. وإذا انضم إلى حراسة الامبراطور سيكون عليه أن يجري تعارفاً جديداً، فربما يرحّب به أيضاً، إذ أن هؤلاء الفرسان الأخر كانوا خيّالة وكان هو يرتدي بزتهم كجميع الذين يتبعون الامبراطور. جعلته الطريقة التي كانوا ينظرون بها إليه الآن في منتهى السعادة. ولكان قام بأيّ عمل في العالم من أجل رفاقه. كان شديد

الابتهاج. بدا له أن كل شيء تبدّل منذ أصبح له أصدقاء. وكانت لديه رغبة شديدة بطرح الأسئلة. قال في نفسه، ولكني ما زلت سكران قليلاً. يجب أن أتذكر السجّانة لاحظ بعد ذلك أن ترك الطريق الضيقة المتعرجة، أن الموكب لم يغد يرافق الماريشال ني، والعميد الذي كانوا يتبعونه طويل القامة كان ضعيفاً، جاف الوجه مخيف النظرة.

لم يكن هذا الجنرال سوى الكونت «ا»، ملازم ١٥ أيار ١٧٩٦. أيُّ شعور بالسعادة كان خالجه لو قيضت له مشاهدة فابريس دل دونغو. لم يعد فابريس يرى التراب يتناثر أقساماً سوداء من كرات المدافع، وصلوا وراء فرقة خيّالة فسمع بكل وضوح طلقات الرصاص تضرب الدروع ورأى عدة رجال يسقطون.

كانت الشمس واطية وتكاد تشرف على المغيب. عندما خرجت الحراسة عن طريق ضيقة صعدت على تلة يبلغ علوّها ثلاثة أو أربعة أقدام لتدخل في أرض محروثة. سمع فابريس حدّه صوتاً غريباً، التفت فإذا بأربعة رجال يهوون عن جيادهم، والجنرال أيضاً، ولكنه عاد ونهض مغطّى بالدماء. كان فابريس ينظر إلى الخيّالة المجندلين على الحضيض، ثلاثة منهم ما زالوا يقومون ببعض الحركات التشنجية. وكان الرابع يصيح: اطلقوا النار عليّ. نزل الرقيب ومعه رجلان أو ثلاثة عن ظهور جيادهم

لمساعدة الجنرال، الذي كان يستند على مساعده ويسعى لأن يخطو بضع خطوات؛ كان يجرّب أن يبتعد عن جـواده الذي يتخبط على الأرض ويرفس بقوائمه رفسات غضوب.

اقترب الرقيب من فابريس. سمع بطلنا عندئذ وقريباً جداً من أذنه صوتاً يقول: هذا هو الجواد الوحيد الذي يستـطيع السير. شعر أنهم يمسكون برجليه ويرفعونها، وفي الوقت نفسه يحملونه فوق ردف الجواد، ثم تركوه ينزلق فسقط على الأرض. أخذ مساعد العميد جواد فابريس بالمقود؛ وامتطى الجنرال بمساعدة الرقيب ظهر الجواد وذهب مسرعاً؛ وتبعه بسرعة ستة رجال كانوا لا يزالون أحياء، نهض فابريس غاضباً وراح يركض وراءهم وهو يصيح: اللصوص! اللصوص! كان ممتعاً الركض وراء اللصوص وسط ساحة قتال.

اختفى المـوكب والجنـرال كـونت «ا» وراء صـفّ من الصفصاف. وصل فابريس، غاضباً إلى أقصى حد عند صف الصفصاف هذا. ووجد نفسه أمام قناة عميقة جدّا. اجتازها. ولما وصل إلى الناحية الأخرى، أخذ يجدّف من جديد، لما رأى الجنرال والموكب يتواريان بين الأشجار! أيها اللصوص! أيها اللصوص! كان الآن يصيح بالفرنسية. ارتمى على حافة الخندق منهوكاً، وعلى أشدّ ما كا يكون من الجوع وأكثر يأساً لخيانة أصدقائه، منه بسبب خسارة جواده. لـو أن الأعداء الـذين

استولوا على جواده الجميل، لم يكن ليفكر به، ولكن أن يُسرق ويتعرض للخيانة من قبل هذا الرقيب الذي كان أحبّه كثيراً ومن قبل هؤلاء الخيالة الذين كان يحسبهم كأخوان له. هذا ما كان يضايقه. لم يكن يمكنه أن يتعزى عن هذا القدر من السفالة، فأخذ يبكي بدموع حرّى. كان يهدم واحداً بعد الآخر جميع أحلام الصداقة الفروسية كأحلام أبطال أورشليم المنقذة. أن يرى الإنسان الموت، أمر بسيط؟ ولكن أن يكون محاطاً بأشخاص شجعان وأرقاء القلوب وأصدقاء يشدون يده عند النزاع الأخير! وأن يحتفظ بالحمية وهو محاط بالأوغاد!!! كان فابريس يبالغ كأي رجل غاضب. بعد ربع ساعة من التأثر، لاحظ أن كرات المدافع بدأت تصل حتى صفّ الصفصاف الذي كان يحلم في ظله. وقف وحاول أن يتّجه. كان ينظر إلى هذه الحقول تحدها هذه القناة الواسعة وصفّ أشجار الصفاف الملتفّة. اعتقد أنه اهتدى إلى طريقه. لمح فوج خيالة كان يجتاز الحفرة ويدخل الحقول، على ربع فرسخ. قال في نفسه: كدت أغفو، ما يهم الآن ألا أكون سجيناً. وأخذ يمشي بسرعة. وبينما هو يتقدم هدأ، وعرف من البزة النظامية أن الأفواج التي كان يخشى أن ينفصل عنها كانت فرنسية. انعطف إلى اليمين لينضم إليها.

بعد العذاب النفسي من تعرّضه للخيانة والسرقة بهذا الشكل المعيب، كان ألم آخر يلح عليه بشدة في كل حين: شدة جوعه. أدرك بسرور بالغ أن فوج الخيالة، بعد عشر دقائق توقف كما لو

كان يريد أن يتخذ موقعاً للقتال: بعد دقائق وجد نفسه وسط الجنود الأول.

- أيها الرفاق، أيمكنكم أن تبيعوني قطعة خبز؟.

- عجباً، يعتقد هذا الرجل، اننا باعة خبز.

هذه الكلمة القاسية والسخرية لحقته، أرهقت فابريس. لم تعد الحرب هذا الاندفاع الشريف المشترك لأنفس محبّة للمجد، كما تخيلها من خلال بيانات نبوليون. جلس أو بالأحرى ارتمى على الأرض المعشبة وامتقع لونه. الجندي الذي سبق وكلّمه وتوقف على عشر خطوات منه، لينظف بندقيته بمنديله، اقترب منه ورمى له قطعة خبز، ثم رأى أنه لم يلتقطها. وضع الجندي قطعة من هذا الخبز في فم فابريس. فتح هذا عينيه وأكل القطعة دون أن يقوى على الكلام. أخيراً، عندما فتش عن الجندي ليدفع له، وجد نفسه وحيداً وأن الجنود الأقرب إليه كانوا يمشون على مئة خطوة. وقف آلياً وتبعهم. دخل في غابة؛ كاد يسقط على الحضيض من الإرهاق، وراح يفتش بعينيه عن المكان الملائم؛ وكم كان سروره بالغاً عندما تعرّف إلى الجواد فالعربة فبائعة الصباح؛ ركضت إليه من شكله.

- امش بعد، يا صغيري، قالت له. هل أنت جريح؟ وجوادك الجميل؟ وإذ هي تتكلم هكذا قادته إلى عربتها، وأصعدته إليها وهي تسنده تحت إبطيه؟ وما أن أصبح في العربة، حتى غفا بملء عينيه منهوكاً من التعب.

٤

لم يوقظه دويّ البنادق القويّ حدّ العربة، ولا خبب الحصان تحثّه البائعة باستمرار. وكان الفيلق إذ داهمه الهجوم البروسي بجحافله، وكان يظنّ أنه انتصر ـ يتسرّب منزلقاً نحو فرنسا.

وأصيب بالسيف، القائد الشاب الوسيم، وكان خَلَفَ ماكون، فناب عنه في القيادة عجوز أشيب، خفّف من هجوم الفيلق. وصرخ بالجنود: منذ عهد الجمهورية، ونحن ننتظر دهما من العدو، لننسحب دافعوا عن كل شبر، وموتوا. البروسيون جاؤوا يغتصبون أرضنا.

توقفت العربة الصغيرة، فنهض فابريس فجأة، كانت الشمس غابت منذ فترة، ففوجىء بهبوط الليل. وتراكض الجنود من جهة ومن أخرى، مما أذهل فابريس ولاحظ ارتباكهم. فسأل البائعة:

ـ ماذا يجري؟.

ـ لا شيء. احترقنا. الجحفل البروسي يجتاحنا. في البدء، ظنّ القائد أنه جحفلنا. هيّا، قم ساعدني على تصليح مجرّ العربة. يبدو أنه انكسر.

انطلقت عشرات الطلقات عن مسافة قريبة، فقال فابريس في نفسه: مرّ كل النهار، لم أُقاتل. رافقت قائداً وحسب. ثم التفت إلى البائعة: أريد أن أقاتل.

ـ إهدأ. ستقاتل أكثر مما ترغب. يبدو أننا ضعنا.

ثم صرخت لأحد العرفاء: أوبري، يا صغيري، خلّ عينيك على العربة الصغيرة.

فسأل فابريس ذاك العريف: ستقاتل؟.

ـ لا. سأضع حذائي الجديد وأذهب إلى الرقص.

ـ وأنا أتبعك.

فصرخت البائعة: أوصيك بهذا الجندي الفتى، له قلب شجاع.

ومشى العريف أوبري دون جواب. لاقاه ثمانية جنود أو عشرة، فقادهم خلف سنديانة كبيرة. حيث صفّهم، دون أن يتكلّم، على صفّ طويل، تفصل بين الواحد والآخر نحو عشر خطوات. ثم قال لهم:

ـ هاي، أنتم، لا تطلقوا النار قبل الأوامر، لم يبق لكم سوى ثلاث طلقات.

فتساءل فابريس: ما يجري؟ ثم، إذ صار وحده مع العريف سأله:

ـ لا بندقية لي، ماذا أفعل؟.

ـ اسكت، أولاً. تقدّم خمسين خطوة إلى الأمام، هنا عند مدخل الغابة، تجد أحد جنود الفيلق الذين أصيبوا. تأخذ جرابه وبندقيته. لا تجرّدهما لجندي جريح، بل ميت. هيّا، قبل أن تصيبك بنادقنا نحن بالخطأ..

هرع فابريس وعاد سريعاً ببندقية وجراب، فنهره العريف:

ـ هيا عبّيء بندقيةً حشوة، وتمركز هنا، وراء هذه الشجرة، وخاصة لا تطلق النار قبل أوامري. قال الرقيب مقاطعاً نفسه: يا لله! لا يعرف حتى أن يذخر بندقيته؟.. وعاون فابريس، وهو يكمل خطابه: إذا اتجه إليك فارس من العدو لكي يسيّفك، در حول شجرتك ولا تطلق النار إلاّ عن كثب. عندما يصبح غريمك على ثلاث خطوات منك، فلتلامس حربتك تقريباً بزته.

صاح الرقيب أرمِ سيفك الكبير، أتريد أن يرميك أرضاً، باسم الله.. أي نوع من الجنود يرسلون لنا الآن! وإذ هو يتكلّم هكذا. أخذ السيف بنفسه ورماه غاضباً بعيداً عنه.

ـ أنت، امسح حجر بندقيتك بمحرمتك. هل أطلقت يوماً النار؟.

ـ أنا صيّاد.

أردف الرقيب متنهداً بقوة: المجد لله! لا تطلق النار قبل أوامري. وذهب. كان فابريس مسروراً جدّا. يقول في نفسه: أخيراً سأحارب فعلاً، سأقتل عدواً! هذا الصباح، كانوا يرسلون لنا كرات مدافع، لم أكن أقوم بأي عمل سوى تعريض نفسي للقتل! حرفة المغبونين. كان ينظر إلى كل الاتجاهات بمنتهى الفضول. وبعد برهةٍ سمع سبع أو ثماني طلقات قريبة منه. حافظ على هدوئه وراء شجرته كان الليل أرخى سدوله تقريباً. وبدا له أنه في الملمن يصيد الذّب، في جبل ترافرنيا، فوق

غريانتا. أتته فكرة صيّاد؛ أخذ خرطوشة من جعبته وانتزع رصاصتها: إذا رأيته يجب ألاّ أفقده. وأدخل هذه الرصاصة الثانية في قناة بندقيته. سمع طلقتي نار بالقرب من شجرته، وفي الوقت نفسه رأى فارساً، يرتدي بزة زرقاء يمر مسرعاً أمامه متجهاً من يمينه إلى شماله. قال في نفسه: لا يبعد عني ثلاث خطوات، ولكن على هذه المسافة، أنا واثق من نفسي. وتبع الفارس بطرف بندقيته، وأخيراً ضغط على الزناد. هوى الفارس وجواده. كان بطلنا يعتقد نفسه في الصيد: فركض مسروراً نحو الطريدة التي أرداها. كان يلمس الرجل الذي بدا له محتضراً عندما وصل فارسان بروسيان بسرعة فائقة ليسيّفاه. هرب فابريس بأقصى سرعة نحو الغابة، ورمى بندقيته لكي يركض بسهولة. ولم يكن البروسيان إلاّ على ثلاث خطوات منه عندما وصل إلى مغرس شجيرات سنديان ثخينة كالذراع ومستقيمة وتحفّ بالغابة. أعاقت أشجار السنديان هذين الفارسين برهة ولكنهما مرّا وعاودا ملاحقة فابريس في الفرجة. كادا يصلان إليه من جديد عندما انسلّ بين سبعة أو ثمانية أشجار كبرى. في هذا الوقت بالذات كاد وجهه يحترق من وهج خمس أو ست طلقات بندقية انطلقت أمامه. خفض رأسه، وبينا هو يرفعه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرقيب أوبري.

ـ قتلت غريمك؟.

ـ نعم ولكني فقدت بندقيتي.

ـ ليست البنادق هي التي تنقصنا، مع أنك تبدو كالأحمق. استحققت يومك تماماً. وهؤلاء الجنود لم يتمكنوا من الإثنين اللذين كانا يلاحقانك، وكانا يتوجهان نحوهم ولكن أنا لم أكن أراهما. علينا الآن أن نهرب بسرعة. يجب أن تكون الكتيبة على ربع فرسخ. ثمة مرج صغير حيث يمكن أن نتجمع في نصف دائرة.

كان الرقيب يمشي ويتكلم بسرعة. على مائتي خطوة من هناك التقوا عميداً مجروحاً يحمله مساعده وأحد الخدم. قال للرقيب بصوت خفيض:

ـ ستعطيني أربعة رجال، يجب نقلي إلى مستشفى الميدان فخذي مكسور.

أجاب الرقيب: تدبّر أمرك أنت وكل العمداء. إنكم خنتم اليوم الامبراطور.

قال العميد بغضب:

ـ كيف تجرؤ أن تعصي أوامري! أتعرف أني العميد، كونت ب. . .، قائد فرقتكم؟. . ورصف عدة جميل أخرى. هجم المساعد على الجنود. فوجّه الرقيب إليه ضربة حربة أصابت ذراعه وأكمل طريقه مع رجاله، مضاعفاً الخطى مردداً: ليكن الجميع مثلك مكسوري الأذرع والسيقان! مجموعة حقيرين! كلكم بعتم أنفسكم للبوربون بخيانتكم للامبراطور! كان

فابريس يستمع بهلع إلى هذه التهمة الفظيعة.

نحو العاشرة مساء، انضمت المجموعة الصغيرة إلى الكتيبة عند مدخل قرية كبيرة فيها عدة أسواق ضيقة، ولكن فابريس لاحظ أن الرقيب أوبري يتهرب أن يوجه الكلام إلى أحد القادة. صاح الرقيب: يستحيل التقدّم بالمشاة والفرسان وخاصة بصناديق ذخيرة المدفعية والمقطورات. توجّه الرقيب إلى مداخل ثلاثة من هذه الأسواق! وبعد أن سار عشرين خطوة كان عليه أن يتوقف: جميع الناس كانوا يشتمون غاضبين.

صاح الرقيب: خائن آخر في القيادة يصدر الأوامر، إذا خطر ببال العدو أن يطوّق القرية، سنقع جميعنا سجناء، كالكلاب. اتبعوني أنتم. التفت فابريس: لم يعد سوى ستة جنود مع الرقيب. دخلوا من باب كبير مشرّع إلى ساحة فسيحة ومنها إلى إسطبل، افسح بابه الصغير أمامهم مجال الدخول إلى بستان. ضاعوا فيه لفترة قصيرة، تائهين من ناحية إلى أخرى. وأخيراً بعدما اجتازوا أحد السياجات وجدوا أنفسهم في أرض مزروعة بالقمح. مسيّرين بالصياح والضجيج المبهم. كان بإمكانهم أن يصلوا الشارع العام بعيداً عن القرية، في أقلّ من نصف ساعة. كانت حفر الطريق مليئة بالبنادق المهملة. اختار فابريس واحدة منها. كانت الطريق ـ وإن واسعة ـ مزدحمة إلى حد كبير بالهاربين والعجلات حتى أنه في نصف ساعة أمكن الرقيب وفابريس بجد

أن يتقدما خمسماية خطوة فقط. كان يقال إنّ هذه الطريق تقود إلى شارلروا. . دقت ساعة القرية الحادية عشرة. فقال الرقيب:

ـ لنسر من جديد في الحقول. لم تعد الفرقة الصغيرة مؤلفة إلا من ثلاثة جنود والرقيب وفابريس. عندما ساروا ربع فرسخ من الطريق قال أحد الجنود:

ـ لم أعد قادراً على المسير.

وقال آخر: وأنا أيضاً.

ـ حدث سعيدا كلنا في الحالة نفسها، أطيعوني، وستجدون أنفسكم في حالة أفضل. رأى خمسة أو ستة أشجار على طول حفرة صغيرة وسط حقل قمح كبير. قال لرجاله: إلى الأشجار. وعندما وصلوا إلى هناك، أضاف: انبطحوا هنا. لا تحدثوا أيّة ضجة. ولكن قبل أن تناموا: من معه قطعة خبز؟.

قال أحد الجنود: أنا.

قال الرقيب بلهجة حازمة: أعطني إياها. وقسم قطعة الخبز إلى خمسة أقسام وأخذ القسم الأصغر.

وقال وهو يأكل: ستلاحقكم خيالة الأعداء قبل بزوغ الفجر بربع ساعة. المهم الّا تطالنا سيوفهم. شخص بمفرده يغلب على أمره إذا كانت الخيالة تلاحقه في هذه الحقول الفسيحة. خمسة، على العكس، يتمكنون من النجاة: ابقوا معي متّحدين ولا تطلقوا النار إلا عن كثب. آخذ على عاتقي أن أصل بكم إلى

شارلروا غداً مساء. أيقظهم الرقيب قبل طلوع النهار بساعة وجعلهم يبدّلون حشوة بنادقهم. كانت الضوضاء تتتابع على الطريق ودامت طيلة الليل، وكانت تشبه هدير شلال يسمع من بعيد.

قال فابريس للرقيب بسذاجة: يهربون كالأغنام.

قال الرقيب غاضباً: أتريد أن تصمت أيها الغرّ؟ ونظر الجنود الثلاثة الذين كانوا يؤلفون كل جيشه مع فابريس إلى هذا الأخير بغضب كما لو أنه جدّف، أو أنّه أهان الأمّة.

فكّر بطلنا: هذا أمر مذهل! لاحظت الأمر نفسه عند نائب الملك في ميلانو؛ لا. إنّهم لا يهربون!.

لا يُسمَح بقول الحقيقة مع هؤلاء الفرنسيين وخاصة عندما تجرح كبرياؤهم. ولكن ما يختص بمظهرهم الشرير لا أهتم به. ويجب أن أفهمهم هذا. كانوا يسيرون دائماً على خمسماية خطوة من هذا الجدول عن الهاربين الذين كانوا ملء الشارع. وعلى فرسخ، اجتاز الرقيب وفرقته درباً كان يتصل بالطريق حيث ينام جنود كثيرون. اشترى فابريس جواداً جيداً دفع ثمنه أربعين فرنكاً. واختار بين جميع السيوف المرميّة سيفاً طويلاً مستقيماً. وفكّر: بما أنه يجب الوخز بالحربة، فهذا السيف هو الأفضل. أسرَع على جواده، مجهّزاً بهذه العدّة، وانضمّ إلى الرقيب الذي كان سبقه. ثبّت نفسه على ركابيه وأخذ سيفه المستقيم بيده

اليسرى وقال للفرنسيين الأربعة:

ـ هؤلاء الناس يهربون في الشارع يشبهون قطيع غنم... يسيرون كأغنام خائفة.

وعبثاً حاول فابريس التشديد على كلمة «أغنـام» فلم يعد رفاقه يتذكرون أنهم غضبوا من هذه الكلمة قبل ذلك بساعة. وهنا يظهر التباين بين الطبائع الإيطالية والفرنسية، لا شك أن الفرنسي هو الأكثر سعادة، يمرّ على الأحداث مرور الكرام ولا يحفظ أيّة ضغينة في قلبه.

كان فابريس راضياً عن نفسه، بعد أن تحدّث عن «الأغنام». كانوا يمشون ويتحدّثون. على فرسخين، كانت دهشة الرقيب لا تزال مستمرّة، كونه لم يرَ خيّالة الأعداء. قال لفابريس:

ـ أنت من فرقة خيالتنا، تقدّم نحو هذه المزرعة على هذه الأكمة الصغيرة، واسأل المزارع إذا كان يقبل أن يبيعنا فطورنا، أفهمه جيّداً أننا خمسة فقط، وإذا تردد أعطه خمسة فرنكات من مالك، مسبقاً، ولكن كن مطمئن البال سنستردها بعد أن ننتهي من تناول الطعام.

نظر فابريس إلى الرقيب، ورأى فيه رزانة حازمة ومظهر تفوّق معنوي حقاً؟.

أطاع، وتمّ كل شيء كما تنبّأ الضابط، ولكن فابريس أصرّ

على عدم استرجاع الخمس فرنكات بالقوة وكان نقدها للمزارع.

ـ قال لرفاقه: الدراهم دراهمي، لا أدفع عنكم، بل أدفع ثمن الشوفان الذي قدمه لجوادي.

كان فابريس يتلفظ بالكلمات الفرنسية بطريقة سيئة للغاية، فاعتقد رفاقه أنه يكلّمهم بلهجة متعالية. اغتاظوا منه في أعماقهم، ومنذ ذلك الحين أضمروا الشرّ لنهاية النهار. كانوا يجدونه مختلفاً كثيراً عنهم، وهذا ما كان يثير حنقهم. وعلى العكس بدأ فابريس يشعر بصداقة عميقة تجاههم.

كانوا يسيرون صامتين منذ ساعتين، عندما نظر الرقيب إلى الطريق وصاح بفورة فرح: هذا هو الفوج. وصلوا سريعاً إلى الطريق ولكن للأسف، لم يكن حول النسر سوى مائتي رجل. وبلمحة خاطفة، رأى فابريس البائعة، كانت تسير على قدميها، عيناها حمراوان تذرف الدمع بين الحين والآخر! عبثاً فتّش فابريس عن العربة الصغيرة.

ـ نهبت، ضاعت، سرقت، صاحت البائعة مجيبة نظرات بطلنا. نزل عن ظهر جواده، دون أن يتلفظ بكلمة، وأمسكه من مقوده وقال للبائعة: أصعدي. لم تنتظر ترديد قوله.

قالت له: قصّر الركابين.

عندما استوت على ظهر الجواد، وأخذت تقص على فابريس

كل نكبات الليل. وبعد قصة طويلة سمعت برغبة من بطلنا، الذي لم يكن يفهم شيئاً منها، ولكنه كان يكنّ صداقة متينة للبائعة. أضافت هذه الأخيرة:

ـ والغريب، أن الفرنسيين هم الذين نهبوني وضربوني وأضنكوني.

سأل فابريس بسذاجة جعلت وجهه الجميل ممتقعاً وقوراً:

ـ ماذا الفرنسيون، لا الأعداء؟.

ـ قالت البائعة وهي تبتسم بين الدموع: كم أنت ساذج يا صغيري، ومع هذا أنت لطيف جداً.

ـ كما ترين، نجح في قتل بروسي، قال الرقيب أوبري، الذي كان وسط الازدحام العام موجوداً بالصدفة إلى الناحية الثانية من الجواد الذي تمتطيه البائعة. وأردف: ولكنه فخور. قام فابريس بحركة. تابع الرقيب: ما اسمك؟ أريد أن أنوّه بك عند وضعي تقريري.

أجاب فابريس: اسمي فازي، وبدا مظهره غريباً واستدرك بسرعة يعني بولو.

كان بولو اسم صاحب ورقة «خطة السير» التي سلمته إياها، قبل ذلك بيومين، حارسة السجن. درسها بدقة، أول أمس، أثناء سيره، إذ بدأ يفكر قليلاً ولم يعد مندهشاً من الأشياء التي

يراها. كان بعناية كبرى، إلى جانب ورقة خطة السير يحتفظ بجواز سفر إيطالي يخوّله حمل اسم فازي، بائع البارومترات. ولما آخذه الرقيب على كونه فخوراً، كان على وشك أن يجيب: أنا فخور؟ أنا فابريس فلسيرا، مركيز دل دونغو الـذي يقبل أن يحمل اسم أحد آل فازي، بائع البارومترات؟.

وبينما تجتاحه هذه الأفكار، قال في نفسه: يجب أن أتذكّر جيّداً أنّ اسمي هو بولو، أو الويل لي في السجن الذي يهدّدني. وتبادل الرقيب والبائعة بعض الكلمات بشأنه.

ـ قالت له البائعة، وقد توقفت عن التحـدث معه بـرفع الكلفة: لا تتهمني بالفضول. إذا وجهت لك بعض الأسئلة فمن أجل خيرك. من أنت بالحقيقة؟.

لم يجب فابريس للوهلة الأولى، كان يعتبر أنه لن يجد أصدقاء أكثر وفاء منها، يستشيرهم عند الضرورة. وكان بحاجة قصوى للنصائح. سندخل الآن إلى حصن والحاكم يريد أن يعرف من أنا. والويل من السجن إذا بدا من أجوبتي إنني لا أعرف أحداً من فوج الخيّالة الرابع الذي أرتدي بزته الرسمية كان فابريس بصفته من رعايا النمسا يعرف الأهمية التي يجب أن تعلق على جواز السفر. أعضاء أسرته، مع كـونهم أشرافـاً وأتقياء ومن حزب المنتصرين، أهينوا أكثر من عشرين مرة بسبب جوازات سفـرهم، لهذا لم ينزعج قط من السؤال الـذي وجهته إليـه

البائعة. ولكن فيما كان يفتش عن الكلمات الفرنسية الأكثر وضوحاً، قبل أن يجيب، استولى على البائعة فضول عميق، فأضافت كي تشجّعه على الكلام أنا والرقيب أوبري سوف نعطيك نصائح حسنة تمكنك من السلوك.

أجاب فابريس: لا أشكّ في ذلك. أسمي فازي من جنوى. تزوجت أختي، وهي مشهورة بجمالها، من نقيب، وبما أن عمري سبعة عشر عاماً، كانت تستدعيني إليها كي تعرفني بفرنسا وأتثقف قليلاً. ولعدم عثوري عليها في باريس، ولمعرفتي أنها في هذا الجيش. أتيت وانضممت إليه. فتّشت عنها في كل مكان دون العثور عليها. أدهشت لهجتي الجنود فأوقفوني. كنت أملك بعض المال، وعندئذ أعطيت الدركي بعضه، فسلّمني ورقة سفر وبذلة وقال لي:

ـ اذهب، أقسم لي بأنك لن تتلفظ باسمي.

قالت البائعة: ما كان اسمه؟.

أجاب فابريس: قطعت عهداً ألاّ أبوح بهذا السر.

ـ قال الرقيب: الحق معه، لا يجب أن يسمّي الرفيق. وما اسم النقيب زوج أختك؟ إذا عرفنا اسمه يصبح باستطاعتنا أن نفتش عنه.

ـ توليبه، نقيب في فوج الخيالة الرابع.

قال الرقيب بلطف: هكذا إذاً، اعتقدك الجنود جاسوساً بسبب لهجتك الغريبة.

صاح فابريس وأبرقت عيناه هذه كلمة مشينة، أنا الذي يحبّ حتى العبادة الامبراطور والفرنسيين. هذا التحقير يضايقني أكثر من أي شيء آخر!.

- ليس من إهانة. هذا ما يخدعك؟ كان خطأ الجنود طبيعياً جداً، أردف الرقيب أوبري بوقار.

عندئذ شرح له بكثير من التكلّف، أنّ الفرد في الجيش يجب أن يلتحق بفيلق ويرتدي بزة نظامية وإلاّ فمن السهل الظن به أنه جاسوس. العدو يرسل لنا الكثير من الجواسيس والناس، كلهم يخونون في هذه الحرب، انهارت الغشاوة عن عيني فابريس وانكشف له الحق وأدرك للمرة الأولى أنه أخطأ في كل تصرفاته منذ شهرين.

- يجب أن يخبرنا الصغير كل شيء، قالت البائعة، وكان فضولها يزداد شيئاً فشيئاً. أطاع فابريس. ولما انتهى:

- في الواقع قالت البائعة، وهي توجّه كلامها إلى الرقيب بجديّة: ليس هذا الولد عسكرياً قط. سنخوض الآن حرباً قذرة، بعدما تعرضنا للانكسار والخيانة. فلماذا يجب أن يتعرّض للموت مجاناً، لوجه الله؟.

- لا يعرف حتى أن يحشو بندقية عندما تدعو الحاجة. أنا من ألقم القذيفة التي رمى بها البروسي وقتله.

- أردفت البائعة: هذا، إضافة إلى أنه يعرض دراهمه أمام

الناس؟ سيسلبونه عندما يبتعد عنا.

ـ سيحتجزه أول ضابط لصالحه، عندما يصادفه، كي يشرب على حسابه، وربما يُجَنَّد لصالح العدو، لأن جميع الناس خونة. وسيأمره أول الواصلين بأن يتبعه، وسيفعل. وأفضل ما يمكن القيام به الآن، الالتحاق بكتيبتنا.

صاح فابريس بحماس: كلا إذا أمرت، يا رقيب، فمن الأفضل، الذهاب لأني لا أحسن حشو بندقية. رأيت أنت كيف أستطيع أن أقود جواداً.

كان فابريس فخوراً بهذا الخطاب القصير. ولن نذكر الحوار الطويل الذي جرى بين الرقيب والبائعة عن مصيره في المستقبل.

لاحظ فابريس، أثناء المناقشة، أن هؤلاء الناس يعيدون ثلاثاً أو أربع مرات كل ظروف قصته: ريب الجنود، بيع الدرك له تذكرة السير، وبذلة نظامية، الطريقة التي وجد نفسه بها من مواكبي الماريشال، رمح الامبراطور، الجواد المسروق الخ.

كانت البائعة تعود بفضول النساء ودون توقف إلى الطريقة التي حرموه بها من جواده الذي سبق ودفعته إلى شرائه.

شعرتُ أنك أُمسِكتَ من رجليك ونُقلت بلطف عن الجواد وأجلست على الثرى! كان فابريس يقول في نفسه: لماذا الترديد المستمر لما نعرفه نحن الثلاثة بكل دقة؟ كان يجهل، حتى ذلك

الوقت، أن أبناء الشعب، يسعون بهذه الطريقة وراء الأفكار الجديدة.

ـ كم تحمل من المال؟ قالت له البائعة، أجابها فابريس فجأة دون تردد لأنه كان متأكداً من عزة نفس هذه المرأة. وهذا هو وجه فرنسا الجميل.

كل ما معي، ثلاثون نابوليوناً ذهباً وثمانية أو عشرة ريالات قيمة كل منها خمس فرنكات.

صاحت البائعة:

ـ أنت حر في هذه الحالة! انسحب من هذا الجيش المهزوم، تنحَّ واتبع أول طريق هنا إلى يمينك، ادفع جوادك بثبات وابتعد باستمرار عن الجيش. اشتر ثياباً مدنية عند أول فرصة. عندما تصبح على ثمانية أو عشرة فراسخ ولا تعود تشاهد جنوداً استقل عربة واذهب إلى إحدى المدن لترتاح ثمانية أيام وتأكل لحماً. لا تقل أبداً لأحد أنك كنت في الجيش لئلا يمسك بك رجال الدرك كفارٍّ من الجيش. ومع أنك لطيف، يا صغيري، فليس لديك الخبرة الكافية تجيب عن أسئلتهم. وعندما ترتدي ثياب البورجوازيين مزِّق تذكرة خط السير ألف قطعة، واستعد اسمك الحقيقي. قل إنك فازي. ومن أية ناحية يجب أن يقول أنه يأتي قالت للرقيب..

ـ من كامبري على الاسكو، إنها مدينة حسنة وصغيرة

أتسمع؟! وفيها كاتدرائية وفنون.

ـ وهذا ما أريد قوله لك، قالت البائعة: لا تقل أبداً أنك كنت في ساحة الحرب، ولا تهمس كلمة عن ب...، ولا عن الدركي الذي باعك تذكرة خطة السير. وعندما تدخل إلى باريس، اذهب أولاً إلى فرساي واجتز حاجز باريس مشياً من هذه الناحية كالمتنزه. وما يحزنني أنهم سيلقون القبض عليك ويسرقون كل ما معك، وماذا ستفعل عندما تصبح دون مال، وأنت لا تعرف أن تتدبّر أمورك بنفسك؟. الخ..

تكلَمَتْ طويلاً، وكان الرقيب يوافق على توجيهاتها بإشارات من رأسه. لم يكن يستطيع أن ينتهز فرصة للتكلم. ضاعف سرعته هذا الجمهور الذي كان يغطي الشارع فجأة ثم بلمحة خاطفة، اجتاز الخندق الصغير على حافة الطريق إلى الشمال، القوزاق! القوزاق! كانوا يصيحون من جميع النواحي.

استعد جوادك! صاحت البائعة!.

ـ أبداً، قال فابريس. أسرعي؟ اهربي! أهبك إياه. أتريدين شراء عربة أخرى؟ نصف ما معي هو لك.

ـ استعد جوادك، قلت لك، صاحت بغضب. وهمّت بالنزول عن ظهر الجواد. استل فابريس سيفه:

ـ اجلسي جيّداً! وضرب الجوار ثلاث ضربات بمنبسط سيفه فراح يقترب وتبع الهاربين!.

نظر بطلنا إلى الشارع حيث كان يزدحم سابقاً ثلاثة أو أربعة آلاف شخص، في صفوف مرصوصة كما في موكب. لم يعد يرى أحد بعد كلمة «قوزاق»؟ إن الهاربين تركوا قلنسوات وبنادق وسيوفاً الخ.. صعد فابريس متعجباً إلى حقل على يمين الطريق، كان ارتفاعه من عشرين إلى ثلاثين خطوة، نظر إلى جانبي الجادة وإلى السهل، فلم يجد أثراً للقوزاق. إن الفرنسيين غريبو الأطوار، قال في نفسه. بما أنه يجب أن أتجه إلى اليمين فالأفضل أن أبدأ السير فوراً. كي يركض هؤلاء الناس كما يفعلون قد يكون لديهم سبب أجهله. تناول بندقية وتأكد أنها معبأة، وحرك بارود الذخيرة، ونظف الحجر، واختار جعبة مملوءة، ثم التفت إلى كل الاتجاهات. كان وحده وسط هذا السهل الذي كان قبل قليل يعجّ بالناس. في أقصى البعد، كان يرى الهاربين يختفون وراء الأشجار وهم ما زالوا يركضون. قال في نفسه: أمر غريب! متذكراً المناورة التي قام بها الرقيب عشية البارحة. ثم ذهب وجلس وسط سهل قمح. لم يكن ليبتعد، كي يشاهد أصدقاءه الطيبين والبائعة والرقيب أوبري.

تحقّق في حقل القمح، إنه لا يملك سوى ثمانية عشر نابوليوناً، بدلاً من ثلاثين كما كان يعتقد. ولكن كان يبقى معه بعض حجارة الماس الصغيرة كان خبأها صباحاً في بطانة الجزمة التي ينتعلها الفرسان. أخفى دراهمه بأفضل طريقة عندما كان لا يزال في غرفة حارسة السجن في ب.. وهو مستغرق في التفكير

باختفاء هذا الجمع المفاجىء.

كان يقول في نفسه: أهذا نذير شؤم لي؟ غمه الأكبر أنه لم يوجه السؤال التالي إلى الرقيب أوبري. هل حقيقة حضرتُ معركة؟ كان يبدو له أن نعم. ولكانت بلغت سعادته أقصى حدها لو تسنى له التأكد من هذا الأمر.

حضرت، مع ذلك، تلك المعركة، وأنا أحمل اسم أسير، ومذكرة سيراسير إضافة إلى أني كنت أرتدي ثوبه. وهذا شؤم للمستقبل. ما كان قال الأب بلانيس بهذا الشأن؟ ومات هذا التعس بولو في السجن! هذا شؤم. سيقودني القدر إلى السجن. كان فابريس على استعداد لأن يهب كل ما يملك في العالم كيف يعرف يقيناً إذا كان الفارس بولو مذنباً. كان يبدو له وهو يستعد ذكرياته، أن حارسة سجن ب... قالت له، أن الفارس بولو ألقي القبض عليه من أجل سرقة أدوات فضية فقط، بل أيضاً بسبب سرقة بقرة أحد المزارعين. وضربه بكل قساوة: لم يكن فابريس يشك بأنه سيدخل يوماً السجن من أجل خطأ له علاقة بالفارس بولو. كان يفكّر بصديقه الكاهن بلانيس. بأي شيء لا يضحي من أجل أن يستشيره؟. ثم تذكر أنه لم يكتب إلى عمته منذ غادر باريس. قال في نفسه: مسكينة جينا! ونضحت الدموع من عينيه، عندما سمع حركة ضعيفة حدّه، كان جنديّ يرعى ثلاثة جياد في القمح، حررها من أعنّتها وبدت شديدة

الجوع. وقف فابريس مثل فرخ الحجل. خاف الجندي لاحظ فابريس ذلك، واستسلم برهة للذة تمثيل دور خيّال. وصرخ:

ـ أحد هذه الجياد خاصتي. . . ولكن سأرضى بإعطائك خمس فرنكات، بدل أتعابك في إيصاله إليَّ، إلى هنا.

ـ قال الجندي: أتهزأ مني؟.

سدّد فابريس بندقيته إليه عن ست خطوات.

ـ أترك الجواد وإلا أطلقت عليك النار.

كان الجندي يتقلد بندقيته فبذل بعض الجهد لكي يتناولها. فصاح فابريس وهو يهجم نحوه:

ـ إذا قمت بأقل حركة، فأنت ميت!.

ـ إذاً أعطني الفرنكات الخمس وخذ أحد الجياد الثلاثة، قال الجندي مضطرباً، بعد أن ألقى نظرة ندم على الشارع الخالي من الناس. رمى له فابريس بيده اليمنى ثلاثة قطع نقدية من فئة الخمس فرنكات، وهو يرفع بندقيته عالياً بشماله.

ـ إنزل، وإلّا فأنت ميت، الجم الأسود وابتعد من هنا مع الجوادين الباقيين. أنا قاتلك إن تحركت.

أطاع الجندي مقطب الجبين. اقترب فابريس من الجواد، وأمسك بشماله اللجام، دون أن يدع الجندي يغيب عنه ويبتعد ببطء، عندما رآه فابريس صار على خمسين خطوة، قفز بخفة على الجواد. وما أن امتطاه مفتشاً عن الركاب الأيمن برجله حتى

سمع أزيز رصاصة قريباً جداً منه: الجندي أطلق عليه النار، من بندقيته. أخذ فابريس، وهو غاضب، يتّجه إلى الجندي الذي هرب بسرعة. رآه يمتطي أحد الجوادين ويعدو مسرعاً. قال في نفسه: ها هو خارج المرمى.

كان الجواد الذي اشتراه رائعاً ولكن كأنه يموت من الجوع. عاد فابريس إلى الشارع، وكان خالياً، فاجتازه وجعل جواده يسرع ليصل إلى مرتفع نحو اليسار، حيث كان يأمل أن يجد البائعة، ولكنه وصل ولم يرَ على أكثر من فرسخ سوى بعض الجنود المنفردين. قال في نفسه متنهداً: كُتب عليّ ألاّ أرى تلك البائعة الطيبة أبداًا وتوجّه إلى مزرعة كان يراها عن بعيد إلى يمين الطريق. ودون أن يترجّل، جعلهم بعد أن دفع الثمن مسبقاً يقدّمون الشوفان لجواده المسكين الذي كان يعض المعلف من شدة الجوع. كان فابريس ساعة بعد ذلك، لا يزال على الجادة ممتطياً جواده، وأمله ضعيف بأن يصادف البائعة أو على الأقل الرقيب أوبري. كان يواصل التقدم وهو يلتفت إلى كل الجهات. وصل إلى ساقية منقعيّة، فوقها جسر خشبي ضيق. كان بيت منعزل قبل الجسر، إلى يمين الطريق، يحمل لافتة: الجواد الأبيض. قال فابريس في نفسه سأتناول هنا وجبة الغداء. كان أحد القادة على ظهر جواده، عند مدخل الجسر، شديد الحزن، على عشر خطوات منه ثلاثة فرسان يعبثون غلايينهم.

قال فابريس: كأن هؤلاء الناس يريدون شراء جوادي بأقل

مما اشتريته. كان القائد الجريح والمشاة الثلاثة ينظرون .
كأنهم ينتظرونه. يجب ألّا أمرّ فوق الجسر بل أن آتي
الساقية إلى اليمين. ستكون تلك الطريق هي التي تصب
البائعة، لكي أنجو من المأزق! ولكن إذا هربت سأكو
خجولاً من نفسي. جوادي قوي القوائم، أما جواد القائد
بالتأكيد. إذا تولى أمر إنزالي عن ظهر الجواد سأعدو .
وبينما هذه الأفكار تجول في رأس فابريس أخذ يضبّر
ويتقدّم ببطء.

صاح به القائد بلهجة سلطوية، تقدم أيها الخيال :
فابريس بضع خطوات وتوقف. ثم صاح:

- تريد أن تأخذ جوادي؟.

لا قطعاً. تقدّم.

نظر فابريس إلى القائد بشاربيه الأبيضين: رجل في
التهذيب. كان المنديل الذي يسند يده اليسرى مغطى
وكانت يمناه ملفوفة أيضاً بخرقة مدماة. قال فابريس في
المشاة هم الذين سيقفزون إلى مقود جوادي، ولكنه لما دقق
رأى أن المشاة مصابون بجروح أيضاً.

قال له القائد الذي كان يحمل كتافيات عقيد:

- باسم الشرف، أبق هنا حارساً، وقل لجميع
والقناصة الذين ستراهم أن العقيد بارون هو في النزل، و

بأن ينضمّوا إليه. وبدا العقيد العجوز متأثراً من الألم. منذ الكلمة الأولى، نال اعجاب بطلنا فأجابه بحكمة:

ـ ما زلتُ شاباً يا سيدي، كي يصغوا إليَّ، أعطني أمراً خطيًّا موقعاً منك.

قال العقيد وهو يحدق به:

ـ معك حق. أكتب الأمر، يا لاروز، أنت يمكنك استعمال يدك اليمنى.

أخذ لاروز دفتراً صغيراً من جيبه وكتب بضعة أسطر وانتزع الطلحية ووضعها بين يدي فابريس. كرر العقيد الأمر على هذا الأخير مضيفاً أنه بعد حراسة ساعتين أحد الفرسان الثلاثة الجرحى الذين كانوع معه، سيتولى الحراسة مكانه كما يقضي الحق. قال هذا ودخل إلى النزل. كان فابريس ينظر إليهم يسيرون، وهو ثابت عند طرف الجسر الخشبي، لأنه تأثر بألم هؤلاء الأشخاص الحزين الصامت. كأنهم عفاريت مسحورون.

وأخيراً فتح الورقة المطوية وقرأ الأمر المحرر كما يأتي:

«العقيد بارون، آمر لواء فرقة الخيالة الأولى من الكتيبة الرابعة عشرة، يأمر جميع الخيالة والسواري والقناصة، بعدم اجتياز الجسر وبالانضمام إليه، في ملهى: الجواد الأبيض، بالقرب من الجسر المذكور، حيث مركز قيادته.

«عن القيادة العامة، بالقرب من جسر القديسة، في ١٩

حزيران ١٨١٥» «بالنيابة عن العقيد بارون المصاب بجرح بيده اليمنى وبأمره».

الرقيب لاروز

مضى ما يقارب نصف الساعة، على خفارة فابريس عند الجسر، ولما رأى ستة قناصة ممتطين جيادهم وثلاثة راجلين، أبلغهم أمر العقيد. قال أربعة منهم: سنعود، واجتازوا الجسر مسرعين. كان فابريس يكلّم الاثنين الآخرين. أثناء الحوار الذي كانت ترتفع حرارته، مرّ الراجلون الثلاثة. أحد القناصين الممتطين اللذين بقيا، انتهى بطلب الاطلاع على الأمر ثانية، وما كان منه إلا أن انتزعه من بين يديه وهو يقول:

ـ سأحمله إلى رفاقي، الذين لن يتوانوا عن العودة. انتظرهم بثبات. ذهب سريعاً، وتبعه رفيقه. جرى كل هذا في لمحة خاطفة.

غضب فابريس ونادى أحد الجنود الجرحى الذي ظهر في إحدى نوافذ النزل. رأى فابريس أن هذا الجندي يضع شريطة رقيب. نزل وصاح به وهو يقترب منه:

ـ خذ سيفك بيدك. أنت في حراسة. أطاع فابريس وقال له:

ـ انتزعوا مني الأمر.

ـ إنهم غاضبون بسبب قضية البارحة، أردف الآخر بحزن سأعطيك أحد مسدساتي.

إذا خُرِقت الأوامر من جديد، أطلق طلقة في الهواء، سآتي أو سيظهر العقيد نفسه إلى جانبك.

رأى فابريس حركة تعبّر عن دهشة الرقيب، عندما أخبره عن قضية انتزاع الأمر منه، وأدرك أنها إهانة شخصية وجهت إليه وعزم على ألاّ يدع أحداً يستخف به.

عاد فابريس إلى الحراسة فخوراً مسلحاً بمسدس الرقيب فرأى سبعة جنود خيالة ممتطين جيادهم يتجهون نحوه: وكان اتخذ مكاناً يستطيع منه أن يمنع اجتياز الجسر، واطلعهم على أمر العقيد، فبدأ الغيظ على وجوههم، وجرّب أشدهم جرأة أن يمر. خفض فابريس حد سيفه وتظاهر بأنه يوجه ضربة إلى الذي يريد أن يخالف أمر العقيد، متّبعاً نصيحة صديقته البائعة التي كانت تقول له البارحة صباحاً: اهمز ولا تسف.

ـ آه، يريد هذا الغرّ أن يقتلنا. صاح الخيّال كما لو اننا لم نشبع تقتيلاً البارحة! استل الجميع سيوفهم معاً وهاجموا فابريس، تأكّد هذا الأخير من موته؟ ولكنه فكّر بدهشة الرقيب، فلم يقبل أن يحتقر مرة ثانية. وفيما هو يتراجع على الجسر كان يجرّب أن يوجه ضربات من سيفه إلى المهاجمين. وكان مظهره مضحكاً وهو يستعمل هذا السيف المستقيم، الثقيل الوزن عليه، الخاص بالسواري، حتى أن جنود الخيال أدركوا سريعاً مع من يتعاملون، فجرّبوا ألاّ يجرحوه بل أرادوا الاكتفاء بتمزيق

ثوبه على جسده. تلقى فابريس ثلاثاً أو أربع ضربات سيف على ذراعه. وحافظ على أمانته لنصيحة البائعة فكـان يوجّـه بكل قوته، ضربات كثيرة بحد سيفه. إحداها لسوء حظه، جرحت خيالاً بيده. فغضب جداً أن ينال منه مثل هذا الجندي، فردّ بضربة أصابت فابريس في أعلى فخذه لأن جواد بطلنا عوضاً من أن يهرب من المعركة بدا مسروراً بها فارتمى على المهاجين. رأى هؤلاء دم فابريس يسيل على طول يده اليمنى فخافوا أن يكونوا تمادوا كثيراً في لعبتهم ودفعوه نحو دورة الجسر الشمالية، وذهبوا مسرعين. ما أن وجد فابريس فرصة سـانحة حتى أطلق من مسدسه طلقة في الهواء لإعلام العقيد بما حدث.

كان أربعة خيالة ممتطين جيادهم وإثنان راجلين من الفوج نفسه يقبلون باتجـاه الجسر. ولا يبتعـدون عنه سـوى مائتي خطوة. سمعوا الطلقة، وكانوا يراقبون بانتباه كلي ما يجري على الجسر. اعتقدوا أن فابريس أطلق النار على رفاقهم، فالأربعة الأُول انقضوا عليه بسيوفهم المسلولة، في هجوم حقيقي. فتح العقيد لو بارون باب النزل إذ سمع الطلقة، فهرول إلى الجسر في الوقت الذي كان يصل إليه الخيالة بسرعة، فأمرهم بنفسه أن يتوقفوا.

صاح أحدهم: لم يبق من عقيد هنا، ودفع جواده إلى الأمام. أوقف العقيد الساخط توبيخه وأمسك بيده اليمنى المجروحة مقود هذا الجواد من الجانب الأيمن.

قال للخيّال: قفْ أيها الجندي البَبيء. أنا أعرفك، أنت من سرية يقودها النقيب هنرييه.

ـ إذاً ليعطني النقيب هنرييه الأمر بنفسه، وأضاف هازئاً: قتل البارحة. اذهب إلى الشيطان.

أراد أن يفتح طريقه بالقوة، وهو يتفوه بهذه الكلمات، ودفع العقيد العجوز فسقط جالساً على أرض الجسر، كان فابريس على خطوتين من ناحية النزل. دفع جواده، بينما صدر جواد المهاجم رمى العقيد أرضاً ولكنه لم يفلت المقود. وجّه فابريس، وهو غاضب، ضربة من سنان سيفه إلى الخيّال. ولحسن الحظ شعر جواد هذا الأخير أنه مشدود إلى الأرض بالمقود الذي يمسك به العقيد، فانحرف إلى جهة أخرى بطريقة أن شفرة سيف الخيالة الطويل الذي يمسك به فابريس انزلقت على طول صدرة الخيال ومرت بكاملها تحت عينيه. استشاط هذا غضباً ثم استدار ووجّه طعنةمن كل قواه، قطعت كم فابريس ودخلت عميقاً في ذراعه. فسقط بطلنا على الأثر إلى الحضيض.

رأى واحد من الخيالة المشاة حارسي الجسر أرضاً، فانتهز الفرصة، وقفز على ظهر جواد فابريس قاصداً الاستيلاء عليه بدفعه بسرعة فوق الجسر.

لاحظ الرقيب وهو يخرج من النزل أنّ العقيد سَقَط فاعتقد أنه أصيب بجرح بالغ. ركض وراء جواد فابريس، وطعن

بسنان سيفه خاصرة السارق فسقط إلى الأرض. ولما لم يرَ الخيالة أحداً على الجسر، ابتعدوا مسرعين، أما الراجل الثاني فهرب في الحقول.

اقترب الرقيب من الجريحين. كان فابريس وقف، يشعر بألم خفيف ولكنه ينزف بغزارة. نهض العقيد ببطء، طائشاً كلياً، بسبب السقطة ولكنه لم يصب بأي جرح.

قال للرقيب: لا يؤلمني سوى جرح يدي القديم.

كان الخيّال الذي جرحه الرقيب، يموت.

ـ ليأخذه الشيطان! صاح العقيد موجهاً كلامه إلى الرقيب والفارسين الآخرين اللذين كانا يقتربان راكضين. فكروا بهذا الشاب الذي عرضته للخطر دون سبب. سأبقى بنفسي على الجسر لأوقف هؤلاء الهائجين. خذوا الشاب إلى النزل و ضمّدوا جرح ذراعه. استعملوا واحداً من قمصاني.

٥

لم تستمر كل هذه المعركة دقيقة واحدة، كانت جراح فابريس طفيفة، شدوا ذراعه بشرائط قطعت من قميص العقيد. أرادوا أن يجهزوا له سريراً في الطابق الأول من النزل.

قال فابريس للرقيب: ولكن بينما أنا أتمتع بتمام الراحة في

الطابق الأول، سيسأم جوادي في الاسطبل ويذهب مع سيد آخر.

أجاب الرقيب: هذا أمر لافت صادر عن مجند! ووضعوا فابريس على تبن طري في المأكل نفسه الذي كان مربوطاً إليه جواده.

وإذا كان فابريس يشعر أنه ضعيف جداً، جلب له الرقيب ملء جفنه من النبيذ الساخن وتحدث معه قليلاً، مع بعض الثناء، مما غمر قلب بطلنا بالفرح.

لم يستيقظ فابريس إلا في اليوم التالي عند بزوغ الضوء. كانت الجياد تصهل طويلاً وتحدث جلبة مريعة. أخذ الدخان يملأ الأسطبل. لم يدرك فابريس بادىء الأمر معنى هذه الضجة ولم يكن يعرف مكان وجوده، فاعتقد أن النزل يحترق، وفي طرفة عين أصبح خارج الإسطبل على ظهر جواده، رفع رأسه؛ كان الدخان يخرج بقوة من النافذتين فوق الإسطبل. كان السطح مغموراً بدخان أسود يملأ الفضاء. كان وصل أثناء الليل مائة جندي هارب، إلى نزل الجواد الأبيض، يصيحون ويشتمون. بدا الخمسة أو الستة ممن تمكن فابريس أن يراهم، سكارى تماماً، أراد أحدهم إيقافه وأخذ يصيح: إلى أين تقود جوادي؟.

ولما أصبح فابريس على ربع فرسخ، التفت وراءه. لم يكن

أحد يتبعه، كان النزل يشتعل، تعرّف فابريس إلى الجسر، فكّر بجرحه، وشعر أن ذراعه مشدودة بشرائط وحارة جدًّا، ما مصير العقيد العجوز؟ قدّم قميصه لتضميد يدي. كان بطلنا يتمتع هذا الصباح برباطة جأشه، إن كمية الدم التي فقدها أنقذته من القسم الخيالي في مزاجه.

قال في نفسه: إلى اليمين! لنهرب. وأخذ يتبع بكل هدوء مجرى الساقية وبعد أن مرّ تحت الجسر، عدا باتجاه يمين الطريق وهو يتذكّر نصائح البائعة الطيبة. أية صداقة! كان يقول في نفسه؟ أية صراحة في الخلق!.

وجد نفسه بعد مسيرة ساعة، ضعيفاً للغاية! قال في نفسه: آه! هل سيغمي علي؟ إذا أغمي علي سيسرقون ربما جوادي وثيابي ومعها ثروتي. لم يكن يملك القوة لقيادة جواده، وكان يجرّب أن يحافظ على توازنه، عندما رأى مزارعاً يركش حقله حدّ الطريق. لاحظ هذا الأخير امتقاع لونه، فأتى إليه وقدم له كوب بيرة وقطعة خبز.

قال له المزارع: اعتقدت، عند مشاهدة امتقاع وجهك، انك من جرحى المعركة الكبرى! لم تصل مساعدة في وقتها المناسب كهذه المرة. في الوقت الذي بدأ فابريس يمضغ قطعة الخبز الأسود، شعر أنّ عينيه تؤلمانه عندما ينظر أمامه. لما ارتاح قليلاً شكر المزارع وسأل: أين أنا؟ فأخبره أنه على ثلاثة أرباع

الفرسخ من ضاحية زوندر حيث سيلقى كل عناية بجراحه.
وصل فابريس هذه الضاحية، غير مدرك ما كان يفعل، وغير مفكّر، مع كل خطوة يخطوها، إلا بعدم سقوطه عن ظهر الجواد. رأى باباً كبيراً مشرعاً فدخل: إنه نزل الاتريل. أقبلت سيدة البيت، مسرعة، امرأة ضخمة، رأته فاستغاثت بصوت ملؤه الشفقة، ساعدت فتاتان فابريس كي ينزل عن ظهر الجواد، ثم أغمي عليه تماماً. نودي على أحد الجراحين فقصده. لم يكن فابريس يعلم، هذا اليوم والأيام التي تلته، ما كان يجري له. كان ينام تقريباً باستمرار.

إن ضربة السنان في أعلى الفخذ كانت تهدد بترسّب هام. وعندما كان يعود إليه وعيه كان يوصي بالاهتمام بجواده، وغالباً ما كان يردد أنه سيدفع بسخاء مما كان يجرح إحساس سيّدة النزل الطيّبة وفتياتها. مضى خمسة عشر يوماً وهو يحظى بأفضل العناية. بدأ يستعيد أفكاره بعض الشيء عندما لاحظ ذات مساء أن مضيفاته يبدين مضطربات جدّا. ودخل بعد قليل ضابط ألماني غرفته: كن يستعملن للإجابة عن أسئلته لغة لا يفهمها، ولكنه أدرك أنهم يتكلمون عليه، تظاهر بالنوم. عندما اعتقد بعد ذلك، أن الضابط الألماني خرج من النزل نادى مضيفاته:

ـ ألا يأتي هذا الضابط ليسجل اسمي على لائحة ويأسرني؟ وافقت المضيفة والدموع تملأ عينيها. صاح وهو ينهض من

السرير: معي دراهم في الضولة! اشترين لي ثياب بورجوازي وسأهرب هذه الليلة على جوادي. خلصتن حياتي مرة باستقبالي في الوقت الذي كدت أسقط ميتاً في الشارع. خلصنها مرة أخرى بتوفيركن لي سبل اللحاق بأمي.

في هذا الوقت أخذت ابنتا المضيفة تجهشان بالبكاء، كانتا تخافان على فابريس، وبما أنهن يفهمن بالكاد الفرنسية، اقتربنا من سريره لطرح بعض الأسئلة عليه. تناقشتا بالغلامندية مع والدتهما، ولكن في كل لحظة كانت عينان حنونتان ترمقانه. فأدرك أن هربه قد يعرضهن لخطر بالغ، ولكنهن رضين أن يجرّبن، شكرهن بإفاضة وهو يضم يديه. ووفّر له أحد يهود المنطقة بذلة كاملة. ولكن عندما جلبها له نحو العاشرة مساء، علمت الفتاتان من مقابلة البذلة مع ضولة فابريس، أنه يجب تضييقها كثيراً كي تناسبه. ولضيق الوقت بدأ العمل على الفور. دلّهن فابريس على بعض النابوليونات في بذلته وطلب من مضيفاته أن يخطنها في الثوب الذي تمّ شراؤه له. وكان اشترى معه جزمة جديدة. لم يتردد فابريس في الطلب من الفتاتين أن تقطعا الجزمة في مكان عينه لهما وخبّأتا ماساته الصغيرة في بطانتها.

وكان فابريس نسي تقريباً اللغة الفرنسية بفعل ضعفه الناتج عن فقدانه للدماء. فكان يكلم مضيفاته بالإيطالية وكن يتكلمن

اللهجة الفلامندية، فكانوا يتفاهمون تقريباً بالاشارات وحدها. وفضلاً عن ذلك، لما رأت الفتيات، الماسات فرحن فرحاً عميماً إذ اعتقدنه أميراً متنكراً. قبلته انيكن الصغرى، والأكثر سذاجة دون كلفة. وكان فابريس يجدهن لطيفات. وعند منتصف الليل، إذ سمح له الطبيب بتناول قليل من النبيذ، بسبب الطريق التي كان عليه أن يباشر باجتيازها، كانت له رغبة بالبقاء. كان يقول: أين يمكن أن أجد مكاناً أرتاح فيه أفضل من هذا؟ على أية حال، ارتدى ثيابه عند الثانية بعد منتصف الليل. لدى خروجه من الغرفة أخبرته المضيفة أن الضابط الألماني استولى على جواده وأخذه، بضع ساعات قبل ذلك عندما أتى لزيارة البيت.

صاح فابريس وهو يشتم: آخ! الوغد! ولم يكن حكيماً قدر الكفاية هذا الإيطالي الفتي، كي يتذكر بأيّ ثمن اشترى هو نفسه الجواد.

اطلعته آنيكن باكية انهن استأجرن جواداً له. كان بوده ألا يرحل. وكان الوداع مؤثراً. حمل شابان من أنسباء المضيفة الطيبة فابريس ووضعاه على ظهر الجواد. وفي أثناء الطريق كانا يسندانه، بينما كان ثالث يتقدم الموكب الصغير نحو مائة خطوة ليكشف إذا لم تكن دورية مشبوهة على الطريق. توقفوا بعد مسيرة ساعتين عند نسيبة لمضيفة الاتريل. لم يقبل الشبان

الثلاثة. فرافقوا فابريس رغم ما راح يقوله لإقناعهم بالعودة. كانوا يزعمون أنهم يعرفون، أفضل من أي شخص آخر، السبل عبر الغابات.

قال فابريس: ولكن غداً صباحاً سيفضحكم غيابكم، عندما يعلمون بهربي ولا يرونكم في البلاد.

عاودوا السير. عندما طلع النهار، كان السهل، لحسن الحظ مغطى بضباب كثيف. وصلوا عند إحدى المدن الصغرى نحو الثامنة صباحاً. افترق عنهم أحد الشبان ليرى إذا كانت جياد البريد سرقت. تيسر الوقت لناظر محطة البريد أن يجمع بعض الجياد الضعيفة ويخفيها مالئاً بها أسطبله. فذهبوا وأتوا بجوادين من المستنقعات، بعد ذلك بثلاث ساعات صعد فابريس إلى عربة يجرها جوادان نشيطان. كان استعاد بعض قواه. ولم يقبلوا منه أجراً لأي سبب تذرع به فابريس.

ـ أنت أكثر منّا احتياجاً إلى الدراهم، في مثل حالتك يا سيدي. كان يجيبه الشبان الثلاثة. انصرفوا أخيراً، حاملين رسائل من فابريس وساعدته اهتزازات الطريق على استعادة بعض نشاطه. جرّب أن يجعل مضيفاته يشعرن بكل ما يكنه لهن.

كان فابريس يكتب والدموع تملأ عينيه. وكان حتماً بعض حب في الرسالة الموجهة إلى آنيكن الصغيرة.

لم تحصل في بقية الرحلة سوى أمور - دية، ولما وصل إلى آميان كان يتألم كثيراً من طعنة السنان في فخذه. لم يفكر الطبيب القروي بتوسيع الجرح. وبالرغم من فصده، تكوّن فيه خرّاج. وخلال الخمسة عشر يوماً قضاها فابريس في نزل آميان، الذي تشرف عليه أسرة جشعة وكثيرة المجاملة، كان الحلفاء يجتاحون فرنسا. أصبح فابريس كأنه رجل آخر، لشدة تفكيره العميق بما جرى له. لم يعد طفلاً إلّا من ناحية واحدة: ما كـان رآه، أكانت حقاً معركة؟ ومن جهة أخرى هذه المعركة أكانت معركة واترلو؟ للمرة الأولى في حياته اكتشف لذةً في المطالعة. كان يأمل دائماً أن يجد في الصحف أو في أخبار المعركة، وصفاً يسمح له بالتعرف إلى الأماكن التي مشاها برفقة الماريشال ني، ثم مع الجنرال الآخر وأثناء إقامته في آميان، كتب تقريباً كل يوم إلى صـديقاتـه الطيبـات في الاتريـل. وما أن شفي حتى أتى إلى باريس؛ ووجد في فندقه القديم عشرين رسالة من والدته وعمته تـرجوانـه العودة في أسـرع وقت ممكن. ورسالـة أخيـرة من الكونتيسة بيترانيرا وجد فيها لغزاً أقلقه إلى حد كبير. بخرت هذه الرسالة كل أحلامه العذبة. كان رجلاً ذا مزاج لا يحتاج إلا لكلمة واحدة حتى يتكهّن بسهولة عن وقوع أعظم المصائب؛ ويتـولّى خيالـه من ثم تصويـر هذه المصـائب بكل تفـاصيلها الرهيبة.

«انتبه، لا توقّع الرسائل التي تكتبها لتفصّل أخبارك، كانت

تقول له الكونتيسة. لا يجب، لدى عودتك، أن تأتي تواً إلى بحيرة كوم: توقف في لوغانو، على الأرض السويسرية». كان من المنتظر أن يصل إلى هذه المدينة الصغيرة متنكراً باسم كافي، ليجد داخل أهمّ نزل فيها خادم الكونتيسة الذي سيقول له كل ما عليه عمله.

أنهت عمته رسالتها بهذه الكلمات: «أخفِ بكل الوسائل الممكنة، العمل المجنون الذي قمت به. ولا تحتفظ بأيّة ورقة مطبوعة أو مكتوبة، سيحيط بك في سويسرا أصدقاء سانت ـ مرغريت، ثم قالت الكونتيسة له، إذا كان لديّ قدر كافٍ من المال، سأرسل شخصاً إلى فندق الموازين في جنيف وستصلك تفاصيل لا أستطيع أن أكتبها ويجب أن تعرفها قبل وصولك. ولكن، استحلفك بالله، لا تبق يوماً واحداً بعد الآن في باريس، سيتعرف عليك جواسيسنا». بدأ خيال فابريس يصوّر له أشد الشؤون غرابة وامتنعت عليه أية لذة سوى لذة الكشف عمّا يمكن أن تخبره عمته على قدر كبير من الغرابة. أوقف مرتين وهو يجتاز فرنسا، وعرف كيف يخلص نفسه، حصلت له هذه المضايقات بسبب جواز سفره الإيطالي وتلك الصفة الغريبة: بائع بارومترات، وهو لم تكن تنسجم ووجهه الفتي وذراعه المربوطة بعنقه.

وأخيراً وجد في جنيف رجلاً من أتباع الكونتيسة، أخبره عن

لسانها، إنه فابريس وُشي به أمام شرطة ميلانو كشخص كان قصد نابوليون حاملاً إليه عروضاً وضعتها مؤامرة كبرى منظمة في مملكة ايطاليا. وكانت الوشاية تقول، إذا لم يكن هذا هدف رحلته فما الفائدة من اتخاذ اسم مستعار، وستجرب أمّه أن تبرهن حقيقة الأمر أي:

١ ـ أنه لم يغادر سويسرا أبداً.

٢ ـ أنه ترك القصر سرّا إثر خلاف مع أخيه البكر.

عند هذا الخبر شعر فابريس بالزهو. قال في نفسه: كنت سفيراً لدى نابوليون. وكان لي شرف محادثته، ذلك الرجل العظيم. يا ليت كان ذلك! تذكر جدّه السابع حفيد ذلك الذي وصل إلى ميلانو، تابعاً سفورزا، ونال شرف قطع رأسه من قبل أعداء الدوق الذي فاجأوه ذاهباً إلى سويسرا حاملاً مقترحاته إلى المقاطعات الموقرة لتطويع الجنود. كان يرى بعيني روحه الرشمة المتعلقة بهذا الشأن، والموضوعة في سجل نسب الأسرة. وفيما فابريس يسأل هذا الخادم، وجده ساخطاً بسبب تفصيل باح به، بالرغم من الأمر الصريح الذي كررته الكونتيسة عليه عدة مرات، بإخفائه عنه: أخوه الأكبر اسكانيي هو الذي وشى به إلى شرطة ميلانو. هذه الكلمة القاسية سبّبت لبطلنا شبه نوبة جنون. كان عليه أن يمرّ بلوزان للذهاب من جنيف إلى إيطاليا؛ فأراد الرحيل الفوري مشياً، واجتياز عشرة أو إثني عشر فرسخاً، مع أن العربة من جنيف إلى لوزان ستذهب بعد ذلك بساعتين.

وقبل الخروج من جنيف، تشاجر مع شاب كان ينظر إليه بطريقة غريبة حسب قوله، في أحد المقاهي الحقيرة من البلدة. كان الشاب الجنيفي رابط الجأش، عاقلاً، لا همّ له إلا كسب المال. اعتقده مجنوناً. رمى فابريس لدى دخوله نظرات غاضبة إلى كل الاتجاهات، ثم كب دون انتباه، على بنطلونه فنجان قهوة كان يقدّم له. وأول حركة قام بها فابريس، في هذه المعركة تعود إلى القرن السادس عشر: فعوضاً من أن يدعو غريمه إلى المبارزة، تناول حنجره وهجم عليه ليضربه به: نسي فابريس كل ما كان تعلمه من قواعد الشرف، وسيطرت عليه الغريزة أو من الأفضل القول ذكريات طفولته الأولى، في لحظة الغضب هذه.

زاد حنقه رجل الثقة الذي وجده في لوغان، يعطيه بعض التفاصيل الجديدة. وبما أنّ فابريس كان محبوباً في غريانتا، لم يكن أحد ليتلفظ باسمه. ولولا الطريقة المحببة التي استعملها شقيقه، لتظاهر الجميع أنه كان في ميلانو. ولم يكن جذب انتباه شرطة ميلانو إلى غيابه.

قال له رسول عمته: لا شك أن لدى رجال الجمرك أوصافك، فإذا تبعنا الشارع العام، ستوقف على الحدود اللومباردو ـ الجنوية.

كان فابريس وصحبه يعرفون أصغر سبل الجبل التي تفصل لوغانو عن كوم: فتنكروا بثياب قناصين أي مهربين، وبما أنهم

ثلاثة من ذوي المظاهر الحازمة، لم يفكّر رجال الجمارك الذين صادفوهم إلاّ بأداء التحية لهم. وتدبّر فابريس أمره حتى لا يصل إلى القصر إلا عند منتصف الليل، في هذه الساعة كان والده وجميع الخدم المتبرجين نائمين منذ وقت طويل. انحدر بسهولة الخندق العميق ودخل القصر من نافذة أحد الأقبية حيث كانت تنتظره والدته وعمته، وبعد قليل تراكضت شقيقتاه. تلاحقت نشوات الفرح وسورات الدموع طويلاً. وما أن بدأوا يتحدثون، حتى بزغ الفجر لينبّه هذه الكائنات التي كانت تعتقد نفسها تعيسة. . وأنّ الوقت يمر بسرعة.

ـ أتمنى ألاّ يكون شقيقك داخله شك بمجيئك، قالت له السيدة بيترانيرا. لم أكن أوجه إليه الكلام منذ مغامرته، وجعلني حبّ ذاته حانقة إلى أقصى حد: هذا المساء بحاجة أن أجد سبباً لأخفي سروري البالغ الذي قد يثير ارتيابه. ثم لما أدركت أنه فخور بهذه الصلحة المزعومة انتهزت فرصة سروره لكي أجعله يشرب بكثرة. طبعاً لم يكن يفكر أن يختبىء في مكمن ما ليتابع مهنته كجاسوس.

قالت المركيزة:

ـ يجب إخفاء هذا الخيّال في غرفتك. لا يمكنه أن يذهب فوراً. لا نمتلك زمام الأمور كفاية في بيتنا، والأمر يتعلق بإيجاد أفضل طريقة لخذل شرطة ميلانو الرهيبة.

اتبعوا هذه الفكرة، ولكن المركيز وابنه البكر لاحظا أن المركيزة، كانت دائماً في غرفة زوجة أخيها، نتوقف عند وصف فورات الحنان والسرور أثارت في هذا اليوم هؤلاء الأشخاص السعداء، إلى حد كبير.

القلوب الإيطالية، أكثر من قلوبنا إحساساً بالعذاب بسبب الريبة والأفكار المجنونة توفرها لهم مخيلتهم المشتعلة. ولكن بالمقابل مسراتهم أشدّ عنفاً وتدوم مدة أطول. يومها فقدت المركيزة والكونتيسة صوابهما تماماً، اضطر فابريس أن يعيد كل أخباره. وأخيراً تقرّر الذهاب إلى ميلانو لإخفاء الغبطة المشتركة. وبدا من الصعب الاحتجاب مدة أطول عن أعين شرطة المركيز وابنه اسكانيه.

أخذوا سفينة البيت العادية للذهاب إلى كوم، إذ أن أيّ تصرف آخر كان أثار ألف شبهة. ولكن بوصولهما إلى مرفأ كوم، تذكرت المركيزة أنها نسيت في غريانتا أوراقاً غاية في الأهمية: فأسرعت في صرف النوتيين، فلم يتمكنا من إعطاء أية ملاحظة على الكيفية التي تقضي هاتان السيدتان وقتهما في كوم. وما أن وصلتا حتى استأجرتا عربة كما تيسر لهما، من العربات التي تنتظر بالقرب من برج يعود عهده إلى القرون الوسطى ويرتفع فوق باب ميلانو، مضتا في الحال دون أن تتركا للحوذي الوقت كي يكلم أحداً. على ربع فرسخ من المدينة، وجدتا صياداً فتياً من

معارفهما، وإذ لم يكن برفقتهما أي رجل، أحبّ أن يرافقهما، من قبيل الكياسة، حتى أبواب ميلانو، حيث كان ذاهباً للصيد. كل شيء كان على ما يرام، وكانت هاتان السيّدتان تتحدثان بكل سرور مع المسافر الشاب، حين عند أحد المنعطفات وقبل أن تلتف الطريق حول تلة فتانة، في غابة سان ـ جيوفاني، قفز ثلاثة رجال شرطة متنكرين، وأمسكوا بزمام الجياد. صاحت المركيزة: خاننا زوجي! وفقدت وعيها. كان الرقيب الذي بقي واقفاً بعض الشيء إلى الوراء اقترب من المركبة، وهو يتعثر وقال بصوت كأنّه خارج من المقهى:

ـ أنا مستاء من المهمّة التي عليّ أنّ أتمّها ولكنّي أوقفك يا جنرال فابيو كونتي.

اعتقد فابريس أن الرقيب يمزح معه بسماجة بدعوته جنرال. فقال في نفسه: ستدفع ثمن هذه المزحة! كان ينظر إلى رجال الشرطة المتنكرين وينتظر الوقت المناسب ليقفز من العربة ويهرب في الحقول.

ـ ابتسمت الكونتيسة تحسباً لكل طارىء ثم قالت للرقيب:

ـ ولكن، يا عزيزي الرقيب، هل هذا الولد ابن السادسة عشر عاماً هو الذي تعتقد أنه الجنرال كونتي؟.

وقال الرقيب: ألست ابنة الجنرال؟.

ـ وهذا أبي، قالت الكونتيسة، وهي تدل على فابريس

فاستغرق رجال الدرك في ضحك مجنون.

- أرونا جوازات سفركم، قال الرقيب دون تفكير، بعدما أثارته الغبطة العامة.

- هاتان السيِّدتان لا تحملان جوازات سفر أبداً للذهاب إلى ميلانو، قال الحوذي ببرود وفلسفة. أنهما تأتيان من قصرهما في غريانتا. هذه السيدة الكونتيسة بيترانيرا وتلك السيدة المركيزة دل دونغو.

مرّ الرقيب أمام الجياد محتاراً وتبادل الرأي مع رجاله. انقضى على بدء الموضوع خمس دقائق عندما رجت الكونتيسة بيترانيرا هؤلاء السادة السماح للعربة بالتقدم بضع خطوات لكي تصبح في الظل. كانت الحرارة مرهقة مع أن الساعة لم تكن سوى الحادية عشرة صباحاً. كان فابريس ينظر إلى كل الاتجاهات مفتشاً عن طريقة للهرب. فرأى فتاة عمرها أربعة أو خمسة عشر عاماً تبكي خائفة تحت منديلها، تنفذ من طريق صغير بين الحقول وتصل إلى الشارع العام يغطيها الغبار. كانت تتقدّم ماشية بين دركيين مرتديين بزتيهما الرسميتين وعلى ثلاث خطوات وراءها بين دركيين أيضاً رجل يصطنع الوقار كمحافظ يتبع تطوافا.

- قال الرقيب، إذ تعتعه السكر: أين وجدتهما؟.

- هاربين بين الحقول بدون جوازات سفر.

بدا الرقيب حائراً في أمره، أمامه خمسة سجناء بينما المطلوب اثنان فقط. ابتعد خطوات غير تارك سوى رجل واحد لحراسة السجين الذي كان يتظاهر بالعظمة وثان لمنع الجياد من التقدم.

- ابقَ، قالت الكونتيسة لفابريس الذي كان قفز إلى الأرض، ستسوّى كل الأمور.

وسمع الدركي يصيح:

- ماذا يهم! إذا لم يكن لديهم جوازات سفر. إنهم غنيمة قانونية.

بدا أن الرقيب ما زال متردداً في اتخاذ قرار، كان اسم الكونتيسة بيترانيرا يسبب له بعض القلق. عرف الجنرال في السابق ولكنه يجهل. إنه مات. وإنه لا ينسى الاساءة بسهولة وسينتقم مني أن أوقفت زوجته دون حق.

أثناء هذه المداولة التي طالت، باشرت الكونتيسة حديثاً مع الفتاة التي كانت سائرة، على الطريق، في الغبراء، بمحاذاة العربة، وأخذت بجمالها.

- ستؤذيك الشمس، يا آنسة، هذا الدركي الطيب، أضافت، وهي توجه كلامها إلى هذا الأخير، الواقف عند مقدمة الجياد، سيسمح لك بالصعود إلى العربة.

اقترب فابريس الذي كان يجول حول العربة، كي يساعد

الفتاة على الصعود. وكانت هذه اندفعت على مرقاة العربة وفابريس يسند ذراعها. عندما صاح الرجل الضخم بصوت أراده رزيناً:

ـ إبقي على الطريق، لا تصعدي إلى عربة ليست لك.

لم يسمع فابريس الأمر، وعوضاً من أن تصعد الفتاة إلى العربة أرادت أن تنزل، وكان فابريس لا يزال ممسكاً بيدها فسقطت بين ذراعيه. ابتسم وعلت وجهها حمرة الخجل وبقيا لحظة ينظر كل منهما إلى الآخر، ثم تخلصت الفتاة من بين ذراعيه.

قال فابريس في نفسه ستكون رفيقة سجن فاتنة: أية فكرة عميقة تدور وراء هذه الجبهة! ستعرف كيف تتقن فن الحب.

اقترب الرقيب بعدما اتخذ موقفاً متسلطاً:

ـ أية من هاتين السيدتين تدعى كليليا كونتي!.

ـ أنا، قالت الفتاة.

ـ وأنا، قال الرجل المقمر، أنا الجنرال فابيو كونتي، حاجب عظمته أمير بارما، وأجد من غير اللائق أن يطارد رجل مثلي كلص.

ـ ألم تصرفوا بخشونة مفتش الشرطة وأنتم تبحرون أول البارحة من مرفأ كوم؟ ها هو يمنعكم اليوم من التنزه.

ـ كنت بدأت ابتعد بمركبي مستعجلاً وكان الوقت عاصفاً،

ناداني رجل لا يرتدي بزة رسمية كي أعود إلى المرفأ، فقلت له اسمي وأكملت رحلتي.

ـ وهذا الصباح هربت من كوم.

ـ أن رجلاً مثلي لا يأخذ جواز سفر لـلانتقال من ميـلانو ليشاهد البحيرة قيل لي أنـه سيلقى القبض عليّ عنـد الباب فخرجت مع ابنتي ممشياً. كنت آمل أن أجد في الطريق عربة تقودني حتى ميلانو حيث ستكون زيارتي الأولى إلى الجنرال قائد المنطقة، لأرفع له شكاويّ.

بدا أن الرقيب ارتاح من حمل ثقيل.

ـ اذن، يا جنرال، أنت قيد التوقيف. سأقودك إلى ميلانو. وقال لفابريس: وأنت، من أنت؟.

ـ ابني، أجابت الكونتيسة، اسكانيه، ابن الجنرال بيترانيرا.

قال الرقيب ولطفت لهجته جداً.

ـ بدون جواز سفر، يا سيدتي الكونتيسة؟.

ـ لم يستحصل أبداً، حتى الآن وفي مثل عمره على جواز سفر، فهو لا يسافر أبداً وحده. إنه دائماً برفقتي.

خلال هذا الحوار، كان الجنرال يتظاهر بالكرامة المهانة أمام رجال الدرك.

قال أحد رجال الدرك: لماذا الثرثرة؟ أنت موقوف وكفى.

قال الرقيب، سيكون حظك عظيماً، كوننا قبلنا أن تستأجر جواد أحد المزارعين، وإلا بالرغم من الغبار والحرارة ورتبة خادم غرفة الملك، ستقطع المسافة سيراً على قدميك بطيبة خاطر، بين جيادنا.

أخذ الجنرال يشتم.

أردف الدركي: أتريد أن تصمت؟.. أين بزة الجنرال خاصتك؟ ألا يستطيع أي شخص أن يقول أنه جنرال؟.

غضب الجنرال غضباً شديداً. في هذا الوقت كانت الأمور تجري على أحسن حال في العربة.

جعلت الكونتيسة رجال الدرك يمشون كما لو كانوا من خدمها. أعطت بعض المال إلى أحد رجال الدرك كي يذهب ويجلب النبيذ، والمياه العذبة، من منزل صغير كان على مايتي خطوة. ووجدت الوقت لتهدئة فابريس الذي كان عازماً على الهرب إلى الحرج الذي يغطي التلّ. كان يقول في نفسه: معي مسدسان جيّدان. وحصلت من الجنرال الغاضب على إذن بالسماح لابنته أن تصعد إلى العربة. كان الجنرال يحب أن يتحدث عن نفسه وعن أسرته، فأخبر هاتين السيدتين أن ابنته لا يزيد عمرها عن اثني عشر عاماً، مولودة عام ١٨٠٣ في ٢٨ تشرين الأول، ولكن الجميع يعطونها خمسة عشر عاماً، بسبب ما تتمتع به من إدراك.

رجل عادي تماماً، كانت عينا الكونتيسة تقولان للمركيزة.

بفضل الكونتيسة تدبّرت كل الأمور. وبعد حوار ساعة. كان لدى أحد رجال الدرك عمل في قرية مجاورة، فاستأجر جواداً للجنرال كونتي، بعد أن قالت له الكونتيسة: سأعطيك ١٠ فرنكات. ذهب الرقيب وحده مع الجنرال وبقي رجال الدرك الآخرون، تحت شجرة، برفقة أربعة قناني ضخمة من النبيذ نوع «دام - جان» حملها الدركيّ الذي أرسل إلى الكوخ بمساعدة أحد المزارعين.

سمح خادم الأمير الأبي، لكليليا كونتي أن تقبل مكاناً في عربة هاتين السيّدتين من أجل العودة إلى ميلانو، ولم يفكر أحد أن يوقف ابن الجنرال الطيب بيترانيرا. بعداللحظات الأولى التي خصصت لتبادل اللياقات والتعليقات على الحادث التافه الذي انتهى، لاحظت كليليا كونتي طابع الحماس الذي كانت امرأة جميلة كالكونتيسة تكلّم به فابريس. لم تكن والدته، بكل تأكيد. وأثارت انتباهها، خاصة، التلميحات المتكررة عن حدث بطولي، جريء وخطر، إلى أقصى درجات الخطورة، كان قام به منذ وقت وجيز، ولكن بالرغم من كل ذكائها، لم تتوصل كليليا الفتية إلى التنبؤ عن الأمر المقصود.

كانت تنظر بدهشة إلى هذا البطل الشاب، لا تزال عيناه تنبئان عن بطولة الحدث، أما هو فكان مشدوهاً بعض الشيء بجمال هذه الفتاة ذات الإثني عشر عاماً، والتي كانت نظراته إليها تجعلها تحمّر خجلاً.

قال فابريس، قبل الوصول إلى ميلانو بفرسخ واحد، إنه ذاهب لزيارة عمه واستأذن من السيدات.

ـ إذا تمكنت أن أنجو من المأزق، قال لكليليا، سأذهب وأشاهد مناظر بارما الرائعة، أتتكرمين عندئذ أن تتذكري هذا الاسم: فابريس دو دونغو

قالت الكونتيسة، كم أنت ماهر في المحافظة على تنكرك. تكرمي يا آنسة وتذكري إن هذا الشخص السيء، هو ابني واسمه بيترانيرا وليس دل دونغو.

في وقت متأخر من المساء، وصل فابريس إلى ميلانو عن طريق باب رنزا الذي يقود إلى منتزهات عصرية. إرسال خادمين إلى سويسرا كان استنفد القليل مما ادّخرته المركيزة وأختها، ولحسن الحظ كان فابريس يحتفظ ببعض النابوليونات وبإحدى الماسات التي قرروا بيعها.

كانت هاتان السيدتان محبوبتين وتعرفان المدينة بكاملها. ذهب أكثر الأشخاص نفوذاً في الحزب النمسوي، وتوسطوا لدى البارون بندير، رئيس الشرطة لصالح فابريس، هؤلاء السادة لم يكن باستطاعتهم أن يدركوا كيف يمكن اعتبار حماقة ولد عمره ستة عشر عاماً، اختلف مع شقيقه البكر وهجر البيت الأبوي.

ـ مهمتي أن آخذ كل شيء في الاعتبار، أجاب البارون بندير بلطف، وهو رجل حكيم وحزين: كان يؤسس يومئذ شرطة

ميلانو الشهيرة، وكان أخذ على عاتقه أن يدرأ خطر قيام ثورة كثورة ١٧٤٦ التي طردت النمسويين من جنوى. اشتهرت شرطة ميلانو هذه، بمغامرات السيّدين بلّيكو وداندريان. لم تكن شديدة القساوة، بل كانت تنفّذ بصواب وبدون شفقة، القوانين الصارمة. كان الامبراطور فرنسوا الثاني يريد أن يرعب هذه المخيّلات الإيطالية الجريئة. كان البارون بنديز يردّد لحماة فابريس: أعطوني يوماً فيوماً بياناً لعمل المركيز الفتي دل دونغو. لنأخذه منذ مغادرته غريانتا في الثامن من آذار وحتى وصوله البارحة مساء، إلى هذه المدينة حيث يختبىء في إحدى غرف بيت والدته، وأنا مستعد لمعاملته كألطف وأكثر الشباب عبثاً في هذه المدينة. وإذا عجزتم عن اعطائي خط سيره خلال جميع الأيام، فمهما كان أصله رفيعاً والاحترام الذي أكنه نحو أصدقاء أسرته، ألا يفرض علي واجبي إلقاء القبض عليه؟ ألا يجب أن أحتفظ به في السجن حتى يعطيني برهاناً أنه لم يحمل رسالة إلى نابوليون من بعض المستائين الذين يستطيعون أن يقيموا في لومبارديا بين رعايا عظمته الامبراطورية؟ إذا استطاع دل دونغو تبرير مسلكه حول هذه الناحية فسيبقى مسؤولاً عن ذهابه إلى الخارج دون جواز سفر معطى له بطريقة قانونية إضافة إلى أنه اتّخذ اسماً مستعاراً، واستعمل عن قصد، جواز سفر عامل بسيط، يعني من شخص أدنى مرتبة من التي ينتمي إليها.

كان هذا التصريح العاقل مقروناً بجميع دلائل الاحترام

لسموّ مرتبة المركيزة دل دونغو والأشخاص النافذين الذين أتوا للتوسط من أجل فابريس.

يئست المركيزة عندما اطّلعت على جواب البارون بندير.

وصاحت باكية: سيلقى القبض على فابريس، وعندما يصبح بين جدران السجن، فالله وحده يعلم متى سيخرج منه! وسيتنكر له والده.

عقدت السيدة بيترانيرا وزوجة أخيها مجلس استشارة مع إثنين أو ثلاثة من أصدقائهما الحميمين. وبالرغم من كل ما أمكنهم قوله لها، أرادت المركيزة أن ترحّل ابنها، مهما كلف الأمر، منذ الليل التالي.

كانت الكونتيسة تقول: إن البارون بندير يعلم أن ابنك هنا. وهذا الرجل ليس شريراً.

لا. ولكنه يريد أن يرضي الامبراطور فرنسوا.

ـ ولكنه لو اعتقد من النافع أن يرمي فابريس في السجن للحصول على ترقية، لكان الآن بين جدرانه. اننا نظهر تجاهه حذراً مهيناً بعملنا على تهريب فابريس.

ـ كأنه بتصريحه عن مكان وجود فابريس شاء أن يقول لنا: اعملوا على ترحيله. كلا. لن أعيش ما دمت أتمكن أن أردد بعد ربع ساعة ربما يصبح ابني بين أربعة جدران! كانت المركيزة

تضيف: مهما كان طموح البارون بندير، يعتقد أنه من المفيد لوضعه الشخصي، في هذه البلاد، أن يتظاهر بالمجاملة تجاه شخص من مقام زوجي، أن انفتاح هذا القلب الفريد هو برهان على إقراره بأنه يعرف أين يمكن إلقاء القبض على ابني إذا شاء ذلك، إضافة إلى أنّ البارون يفضل بكل طيبة خاطر، المخالفتين المتهم بهما فابريس بموجب وشاية أخيه الشائنة ويشرح أن هاتين المخالفتين تستوجبان السجن. أليس هذا معناه اننا، إذا كنا نفضل النفي، فالخيار عائد لنا؟.

ـ كانت الكونتيسة تردّد دائماً: إذا اخترت المنفى فلن نراك مدى الحياة. كان فابريس الذي سمع كامل الحديث مع أحد أصدقاء المركيزة القدماء، وهو مستشار الآن، في المحكمة التي أنشأتها النمسا، ميّالاً كثيراً إلى الهرب. وفي الواقع، خرج من القصر في المساء نفسه متخفياً في العربة التي تنقل أمه وعمته إلى مسرح سكالا. ذهب الحوذي الذي كانتا تحترسان منه، ينتظر كالعادة في المقهى، وبينها الخادم، وهو رجل ثقة، يحرس الجياد، انسلّ فابريس متنكراً بزي الفلاحين من العربة، وخرج من المدينة. وصباح اليوم التالي اجتاز الحدود بنجاح كما قبل. وكان بعد ساعات مقيماً في أرض تملكها والدته، في البييمونت قرب نوفار في رومانيانو بالضبط حيث قتل بايار.

يتمكن التصوّر بأية حالة وصلت هاتان السيدتان إلى

مقصورتهما في سكالا، وأخذتا تتابعان العرض ذهبتا إلى المسرح خصيصاً للتمكن من استشارة بعض أصدقائهما من الحزب الليبرالي، وكان بإمكان الشرطة أن تسيء الظن بهم لو ظهروا في قصر دل دونغو. وفي المقصورة، تقرّر أن تقوما بمسعى جديد لدى البارون بندير. لم يكن بالإمكان تقديم مبلغ من المال إلى هذا القاضي النزيه، ومن ناحية أخرى كانت هاتان السيدتان فقيرتين بعد أن أجبرتا فابريس على حمل كل ما بقي من ثمن الماسات.

كان من الضرورة القصوى معرفة كلمة البارون الأخيرة. أصدقاء الكونتيسة ذكّروها بأحد الكهنة، بوردا، وهو شاب لطيف أراد في السابق أن يغازلها بأساليب غاية القباحة. ولما فشل وشى إلى الجنرال بيترانيرا بالصداقة التي تضمرها نحو ليماركاتي، فطرد هذا الأخير كما لو كان فلاحاً. لكن هذا الكاهن كان يلعب الورق كل مساء مع البارونة بندير. وقرّرت الكونتيسة القيام بهذا المسعى الشاق عليها، وتزور هذا الكاهن. وباكراً، صباح اليوم التالي، طلبت أن يعلن عن مجيئها، قبل أن يخرج من بيته.

ولما تلفظ خادم الكاهن باسم الكونتيسة بيترانيرا، تأثر حتى فقد الصوت. لم يجرب أن يصلح من فوضى مبذلته البسيطة للغاية.

قال الكاهن بصوت منخفض: أدخلها وانصرف. دخلت الكونتيسة فارتمى بوردا ساجداً على ركبتيه. وقال:

ـ في مثل هذا الوضع، على مجنون تاعس أن يتلقى أوامرك.

كانت ذلك الصباح، ترتدي بذلة نصف تنكرية، ذات جمال مثير، وعليها الكآبة بسبب وجود فابريس في المنفى، والإكراه الذي مارسته على ذاتها لزيارة هذا الرجل الذي عاملها سابقاً بالغدر، وتآزرت لإعطاء نظراتها بريقاً عجيباً.

وصاح الكاهن: في مثل هذا الوضع، أريد أن أتلقى أوامرك إذ تأتين لطلب خدمة، وإلا لما كنت شرفت بحضورك بيتاً حقيراً يخصّ مجنوناً تعساً استخف به الحب وسيطر عليه الحسد في السابق وسلك تجاهك مسلك جبان، لمّا تأكّد له أنه لا يستطيع ارضاءك.

كانت هذه الكلمات صادقة بقدر ما هي جميلة، إذ إن الكاهن يتمتّع حالياً بسلطة قويّة. تأثرت الكونتيسة، فدمعت عيناها، وأرهبها الإذلال والخوف وعقبهما العطف وبصيص من الأمل . فمرت بلمحة خاطفة من حالة تعسة جداً إلى ما يقارب السعادة.

قالت للكاهن وهي تقدّم له يدها: قبّل يدي وانهض. (المخاطبة في إيطاليا بضمير المفرد دلالة على عاطفة أكثر حناناً من الصداقة الطيبة الخالصة). جئت لأطلب منك العفو عن فابريس

ابن شقيقي. وهذه هي الحقيقة العارية، وبدون أيّ لُبس، كما تقال إلى صديق قديم. أنه اقترف عملاً مجنوناً. في الستة عشر عاماً. كنا في قصر غريانتا، على بحيرة كوم. وعلمنـا، ذات مساء، الساعة السابعة. بواسطة سفينة من كوم، أن الامبراطور نزل إلى البر في خليج جوان. ذهب فابريس إلى فرنسا صباح اليـوم التالي، بعـد أن استحصل عـلى جواز سفـر واحد من أصدقائه، بائع بارومترات، ما سار عشرة فراسخ في فرنسا حتى ألقي القبض عليه بسبب منظره الحسن وحماسته للأمبراطور، كان يعبر عنها بفرنسية ركيكة جعلته موضوع شبهة. بعد مضي بعض الوقت، وأمكنه الوصول إلى جنيف؛ فأرسلنا من لاقاه إلى لوغانو. .

قال الكاهن وهو يبتسم: يعني إلى جنيف.

وأنهت الكونتيسة قصتها.

ـ سأفعل من أجلك، كل ما هو ممكن إنسانياً، أردف الكاهن بانشراح. أضع نفسي تحت تصرّفك بكليتها. وأضاف: سأقوم بأية مجازفة. قولي. ما الذي يجب أن أقوم به عندما تصبح هذه الصالة الحقيرة خالية من ظهورك السماوي الذي سيبقى ذكراً دائماً في تاريخ حياتي؟.

ـ يجب أن تذهب إلى البارون بنديز وتقول له بأنك تحب فابريس منذ ولادته، وأنك شاهدت تلك الولادة حين كنت

تزورنا، وأنّك أخيراً، باسم الصداقة التي يخصّك بها، ترجوه أن يستعمل كل جواسيسه ليتحقق إذا كان فابريس، قبل ذهابه إلى سويسرا، أجرى أية مقابلة مع أي من هؤلاء الليبيراليين الذين يراقبهم. فإذا أخلصوا للبارون، سيرى بوضوح أن الأمر كله ناتج عن طيش صبي. أنت تعرف أنه كان معي، داخل غرفتي الجميلة، في قصر دوغاني. ثمة لوحات المعارك التي كسبها نابوليون وأن ابن أخي تعلّم القراءة بمطالعة الشروح المنقوشة على حافة هذه الصور. كان زوجي المسكين يشرح له هذه المعارك، منذ كان عمره خمس سنوات؛ وكنا نضع على رأسه خوذة زوجي والولد يجر سيفه الطويل وراءه. علم الولد ذات يوم، أن الامبراطور، معبود زوجي عاد إلى فرنسا؟ فذهب إلى ملاقاته كالطائش غير أنه لم يفلح.

اسأل بارونك أي عقاب يريد أن يفرض بدل لحظة الجنون هذه.

صاح الكاهن: كدت أنسى شيئاً سترين أني أهل للغفران الذي تمنحيني إياه. قال وهو يفتش بين أوراقه على الطاولة، هذه الوشاية السافلة، موقعة: اسكانيو فلسيرا دل دونغو، وبها بدأت هذه القضية؟ أخذتها البارحة من مكاتب الشرطة، وذهبت إلى السكالا، على أمل أن أجد أحداً يذهب إلى مقصورتك كالعادة أستطيع بواسطته أن أوصلها إليك. نسخة من هذا المستند موجودة في فيينا منذ زمن بعيد. هذا هو العدو الذي تتوجّب

محاربته. وقرأ الكاهن الوشاية مع الكونتيسة واتفقا على أنه خلال النهار سيرسل إليها نسخة عنها، مع شخص أمين. فعادت الكونتيسة إلى قصرها بقلب منشرح.

قالت المركيزة: يستحيل على الإنسان أن يكون أكثر ظرفاً من هذا النذل القديم. هذا المساء، في السكالا، الساعة العاشرة وخمسة وأربعون دقيقة، بتوقيت المسرح سنعمل على ابعاد كل الموجودين في مقصورتنا، ونطفىء الشموع ونغلق بابنا. وفي الحادية عشرة، سيأتي الكاهن بنفسه ليطلعنا على ما أمكنه عمله. وجدنا هذه الطريقة، الأقل إثارة للشبهة.

كان الكاهن يتمتع بعقل راجح؟ تحاشى أن يتغيب عن الموعد، وأظهر طيبة خلق كاملة وانفتاح قلب بلا تحفظ، غير موجود في البلدان التي لا يسيطر فيها الغرور على كل العواطف. وشايته على الكونتيسة، للجنرال بيترانيرا زوجها، كان أحد أكبر المآخذ في حياته، ووجدا سبيلاً لإزالته.

في الصباح، لما خرجت الكونتيسة من عنده، قالت في نفسه بمرارة: ها هي تمارس الحب مع ابن شقيقها. لم يكن شفي من حبها، متعجرفة.. وتأتي لزيارتي.. عند وفاة بيترانيرا المسكين.

رفضت عروض خدماته بهلع، مع أنها مهذبة ومقدمة بطريقة لائقة من قبل الكولونيل سكوتي عشيقها القديم! بيترانيرا الفاتنة تعيش بمبلغ ١٥٠٠ فرنك! كان يضيف الكاهن، وهو يمشي

بعصبية في غرفته! ثم، الذهاب للسكن في غريانتا مع المركيز دل دونغو، هذا الكريه. كل شيء يتوضح الآن! في الواقع فابريس شاب لطيف وأنيق للغاية، طويل القامة رشيق القوام، وجهه دائم الابتسام، والأفضل من هذا كله نظرات مثقلة بالعاطفة ومحيا كوريجي.

فارق العمر.. ليس كبيراً.. ولد فابريس عند دخول الفرنسيين إلى إيطاليا عام ٩٨، كما يبدو لي، وربما يكون عمر الكونتيسة سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاماً. يستحيل أن تكون امرأة أشد جمالاً منها، في هذا البلد الغني بالجمالات، إنها تفوز عليهم جميعاً: لاماريني، لاروغا، لاريزي، ولابتراغروا. انها تفوقهن جميعاً بجمالها. كانوا يعيشون سعداء، مختبئين على بحيرة كوم الرائعة، عندما عنّ للشاب أن يلتحق بنابوليون..

لا يزال ثمة نبلاء النفوس، في ايطاليا.. ومهما فعلوا! يا وطني العزيز!.. لا، كان يتابع هذا القلب المشتعل بالحسد، يستحيل شرح هذا القبول بالعيش في الريف برفقة النفور من مرأى وجه المركيز دل دونغو المرعب، كل يوم، ومع كل وجبة طعام. ومحيا المركيز اسكانيو القذر الممتقع. سأخدمها بصدق. سأتمتع على الأقل بمرآها فسأجد متعة مراقبتي إياها بمنظاري.

شرح الكاهن بوردا الأمر بوضوح لهاتين المرأتين. بنديز كان بالحقيقة مستعداً تمام الاستعداد لخدمتها وكان مبتهجاً جداً لكون

فابريس هرب قبل الأوامر أن تصل من فيينا. وبندير لم يكن باستطاعته أن يقرّر أي شيء. كان ينتظر الأوامر في هذه المسألة كما لبقية المسائل وكان يرسل كل يوم إلى فيينا نسخة دقيقة عن كل الأخبار ثم. ينتظر.

كان من الضروري على فابريس، في رومانيانو، منفاه:

١ ـ أن يحضر يومياً الذبيحة الإلهية ويتخذ معرّفاً رجل فكر، متفانياً في خدمة الملكية، وألاّ يبوح له في كرسي الاعتراف إلاّ بالميول التي لا عيب فيها.

٢ ـ ألا يعاشر أيّ رجل معروف عنه أنه صاحب دعابة، وأن يتكلم على الثورة بهلع، إذ باتت مسموح بها مهما كانت الحال.

٣ ـ ألا يذهب ألى المقاهي ولا يطالع سوى الصحف الرسمية التي تصدر عن تورينو وميلانو، وخاصة أن يبدي قرفاً من مطالعة الكتب، وبالأخص تلك التي صدرت بعد ١٧٢٠، عدا روايات ولتر سكوت.

٤ ـ وأخيراً أضاف الكاهن بشيء من المكر، عليه أن يغازل علناً إحدى جميلات البلاد من طبقة الأشراف؛ فيثبت أنّ مزاجه غير متشائم وأنه غير راضٍ عن متآمر حديث.

كتبت الكونتيسة والمركيزة، قبل النوم، رسالتين طويلتين إلى فابريس، بلهفة لطيفة، شرحتا فيها جميع نصائح بوردا.

لم يكن عند فابريس أية رغبة في التآمر: كان يحب نابوليون، وبصفته شريفاً، يجد نفسه معداً ليكون أكثر سعادة من سواه،

ويجد البورجوازيين مدعاة للسخرية.

إنه لم يفتح كتاباً منذ مغادرته المدرسة، فلم يطالع سوى كتب ألفها اليسوعيون. استقرّ على بعض المسافة من رومانيانو، في قصر رائع، أحد منجزات سان ميشلي المعماري الشهير، ولكنه لم يؤهل منذ ثلاثين سنة، فكانت تمطر في جميع الغرف، ولا نافذة واحدة فيه تغلق. استولى على جياد رجل الأعمال التي كان يستعملها ببساطة، النهار بطوله؛ لم يكن يتكلم أبداً بل ينصرف إلى التفكير، وبدت له نصيحة اتخاذ عشيقة من طبقة الأشراف، مستحبة، فعمل بها حرفياً. واختار معرفاً كاهناً شاباً محباً للتآمر كان يريد أن يصبح أسقفاً (كمعرّف سبيلبرغ) ولكنه كان يمشي كل يوم ثلاثة فراسخ، ويحيط نفسه بسرية، يعتقد أن أحداً لا يستطيع فضحها لكي يطالع صحيفة «الدستوري». كان يصيح غالباً أنه يحاكي جمال الغييري ودانته! كان فابريس كالشباب الفرنسيين: يهتم بجواده وصحيفته أكثر مما بعشيقته المستقيمة الرأي. ولكنه ليس في هذه النفس الساذجة الحازمة، بعد، مكانٌ لتقليد الآخرين، فلم يتخذ له أصدقاء في ضاحية رومانيانو الكبرى. كانت بساطته تعدّ كبرياء ولم يكن أحد يعرف ما باستطاعته قوله عن طباعه. وقال عنه الكاهن أنه شقيق أصغر متذمّر من عدم كونه البكر.

٦

إن حسد الكاهن بوردا لم يكن في غير مكانه. بدا فابريس

لدى عودته من فرنسا، في أعين الكونتيسة بترانيرا كغريب فاتن عرفته في السابق معرفة جيدة. فلو حدثها عن الحب لكانت أحبّته. ألم تكن معجبة بسلوكه وشخصه إعجاباً محموماً، بدون حدود؟ ولكن فابريس كان يقبّلها بفيض من البراءة وعرفان الجميل والصداقة الحقيقية، حتى لكانت كرهت نفسها لو فتشت عن عاطفة أخرى في هذه الصداقة التي تكاد أن تكون بنوية. وفي الواقع، كانت تقول المركيزة في نفسها، إن بعض الأصدقاء عرفوني منذ ست سنوات، في بلاط الأمير أوجين، يجدونني جميلة وشابة، ولكنني في عينيه امرأة جديرة بالاحترام. . وإذا كان يجب أن أقول كل شيء دون مراعاة لحب ذاتها، فإنها امرأة معمّرة. كانت الكونتيسة تخدع نفسها بعهد الحياة الذي وصلت إليه، ولكن لم يكن هذا على طريقة النساء العاديات. فالإنسان في سنها يبالغ في الأضرار التي يحدثها الزمن؛ إن رجلاً أكثر توغلاً في الحياة قد يفكر مثلها.

كانت الكونتيسة تتنزّه في صالتها، فتوقفت أمام المرآة وابتسمت. . كان قلبها متيماً حقاً، منذ أشهر بشخص غريب الأطوار.

بعد ذهاب فابريس إلى فرنسا، باشرت الكونتيسة الاهتمام به كثيراً دون أن تعترف لنفسها بالأمر، واستولت عليها سويداء عميقة. بدت لها مشاغلها تافهة وبدون رونق. كانت تقول في نفسها: إذا شاء نابوليون أن يحب من شعوبه، في ايطاليا، فما عليه إلا أن يتخذ فابريس مرافقاً له.

ـ فقدته . . . كانت تصيح باكية، فلن أراه بعد الآن أبداً. قد يكتب لي، ولكن ماذا سأمثل في عينيه بعد عشرِ سنوات؟ قامت برحلة إلى ميلانو وهي على هذه الحالة؟ كانت تأمل أن تجد فيها أخباراً مباشرة عن نابوليون؟ ومن يدري، ربما تجد بالمقابل أخباراً عن فابريس. وبدون أن تعترف لذاتها باتت هذه النفس الناشطة تكون ضجرة من الحياة الرتيبة التي تعيشها في الريف: إنها ليست حياة بل سعي لتلاقي الموت.

رؤية هذه الوجوه المتبرجة كلّ يوم: الشقيق، وابنه اسكانيي وخدمهما! ما قيمة النزهات على البحيرة بدون فابريس؟ كانت تجد عزاءها الوحيد في الصداقة التي تربطها بالمركيزة، ولكن، منذ بعض الوقت، هذه الألفة مع والدة فابريس الأكبر منها سناً واليائسة من الحياة باتت تبدو في عينيها أقل رونقاً.

وهذا هو موقف السيدة بترانيرا الفريد: لم تعد بعد ذهاب فابريس تأمل سوى القليل من المستقبل. كان قلبها بحاجة إلى عزاء وجدّة. عشقت الأوبرا بعد وصولها إلى ميلانو. فكانت تذهب وتنفرد ساعات طويلة في مقصورة الجنرال سكوتي، صديقها القديم. كان الرجال الذين تسعى أن تلتقي بهم، للحصول على أخبار نابوليون وجيشه، يبدون سوقة وأفظاظاً. ولما عادت إلى بيتها كانت تعزف ارتجالاً على البيانو حتى الثالثة بعد منتصف الليل. كانت ذات مساء في سكالا في مقصورة إحدى

صديقاتها تسعى للحصول على بعض أخبار فرنسا، فقُدّم إليها الكونت موسكا، وزير بارما، وكان رجلاً لطيفاً وتكلّم على فرنسا ونابوليون بطريقة وفرت لقلبها أسباباً جديدة للأمل أو للخوف. عادت إلى هذه المقصورة في اليوم التالي، وعاد أيضاً رجل الفكر هذا، فحادثته طيلة وقت العرض بلذة. لم تجد، منذ ذهاب فابريس، سهرة حيّة كهذه. كان هذا الرجل الذي يسليها، الكونت موسكا دلا روفير سوريزانا، يومئذ وزيراً للحربية والشرطة والمالية عند أمير بارما المعروف أرنست الرابع، المشهور بأعماله القاسية يدعوها المتحررون في ميلانو أعمالاً وحشية. كان عمر موسكا أربعين أو خمسة وأربعين عاماً، وقسمات وجهه كبيرة لا تنضح عن أيّ أثر يوحي بالأهمية. بدا بسيطاً وفرحاً مما كان يحبّبه للآخرين. ولكان رجلاً حسناً جداً، لولا أن غرابة عند أميره، أجبرته على ذرّ البودرة على شعره كعربون عن ميوله السياسية. وبما أن الناس لا يخافون في إيطاليا، إلاّ قليلاً، من جرح الغرور، يصلون بسرعة إلى الإلفة وتبادل الحديث حول الشؤون الشخصية. وما يمكن عمله لتقويم هذه العادة: امتناع الطرفين أن يرى كل الآخر إذا شعر أحدهما أنه مهان.

ـ لماذا، يا كونت تذر البودرة على شعرك؟ سألته السيدة بترانيرا، عندما رأته للمرة الثالثة، وأنت رجل لطيف وفتي خاض حرب اسبانيا بجانبنا.

ـ ذلك أني لم أسرق شيئاً، في اسبانيا هذه ويجب أن أعيش. كنت محباً للمجد. كلمة اطراء من الجنرال الفرنسي غوفيون ـ سان ـ سير الذي كان يقودنا، كانت كل شيء. عند سقوط نابوليون تبيّن لي انني بينما كنت أبذر ثروتي في خدمته، كان أبي وهو رجل خيالي، يشيد لي قصراً في بارما، وتصورني جنرالاً. وفي عام ١٨١٣، وجدت نفسي معدماً، وتنحصر كل ثروتي في قصر يجب انجازه وراتب تقاعدي.

ـ معاش: ٣٥٠٠ فرنك، كزوجي.

ـ كان بترانيرا جنرال فرقة.. كنت أتقاضى معاش رئيس سرية، لم يتعد أبداً ٨٠٠ فرنك ولم تدفع لي إلا عندما أصبحت وزيراً للمالية.

وإذ لم يكن في المقصورة سوى سيدة ذات آراء تحررية تعتنقها، تتابع الحديث بالصراحة نفسها. سئل الكونت موسكا فتكلّم على حياته في بارما: كنت أواجه، في إسبانيا، بقيادة الجنرال سان سير، طلقات البنادق لأصل إلى الصليب، ثمّ إلى قليل من المجد، والآن أرتدي ثياب ممثل هزلي لأكسب بيتاً كبيراً وبضعة آلاف من الفرنكات. ما أن دخلت في هذا النوع من لعبة الشطرنج، متكدراً من وقاحات رؤسائي حتى أردت احتلال واحد من المراكز الأولى، وتحققت رغبتي: ولكن أسعد أيامي: تلك التي، من وقت إلى آخر، أمضيها في ميلانو حيث يعيش حتى الآن، كما يبدو لي، قلب جيشكم الإيطالي.

أثارت الصراحة التي كان يتكلم بها وزير الأمير المخيف. فضول الكونتيسة؟ واستناداً إلى لقبه، اعتقدت أنها أمام مدّع ذي أهمية بالغة، .فإذا بها أمام رجل يستحي من أهمية مركزه. كان موسكا وعدها أن يصلها بكل أخبار فرنسا التي يستطيع الحصول عليها: كان ذلك بمثابة افشاء سر في ميلانو، وخاصة في الشهر الذي سبق معركة واترلو، إذ كان الأمر يتعلق بأن تكون ايطاليا أو لا تكون. الجميع في ميلانو، مصابون بحمى الأمل أو الخوف. وسط هذا الاضطراب العام طرحت الكونتيسة أسئلة عن رجل يتكلّم بهذا القدر من الحذق وفي مركز مرغوب فيه إلى حد بعيد كان الوسيلة الوحيدة للعيش.

أمور طريفة تثير غرابتها الاهتمام، أبلغت للسيدة بترانيرا. قيل لها أن الكونت موسكا دلا روفير سوريزانا على أهبة أن يصبح رئيساً للوزراء والسميرالمفضل لدى أرنست الرابع، ملك بارما المطلق، إضافة إلى أنه أحد الأمراء الأكثر ثراء في أوروبا. ولكان الكونت وصل قبل ذلك إلى هذا المركز السامي لو أراد، أن يكون أكثر وقاراً: ويقال أن الأمير ينبهه دائماً بهذا الخصوص.

ـ وما تهم تصرفاتي، سموكم، أجاب بحرية، ما دمت أقوم بعملي كما يجب؟.

ـ إن سَعَادة هذا السمير المفضّل، كانوا يضيفون، ليست بدون مصاعب. يجبّ إرضاء الملك. رجل رشاد وفكر، دون

شك، ولكن يبدو أنه فقد صوابه، منذ تولى عرشاً ذا سلطة مطلقة، كأن تساوره مثلاً شكوك جديرة بامرأة حمقاء.

ليس أرنست الرابع شجاعاً إلا في الحرب. شوهد عشرين مرة في ساحات الحرب، يقود رتلاً إلى الهجوم كجنرال شجاع؛ ولكن بعد وفاة والده أرنست الثالث، ولدى عودته إلى دولته، حيث يملك لسوء حظه، سلطة غير محدودة، أخذ يخطب بحماقة ضد الأحرار والحرية. وتصوّر أنه مكروه. وأخيراً، في فترة تعكر مزاج، واضطراب، أمر بشنق اثنين من الليبراليين، ربما قليلي المسؤولية، بإيعاز من بائس يدعى راسي، وزير العدل.

تبدّلت حياة الأمير، منذ هذا الوقت المشؤوم، فصار معذباً بأشد الشكوك غرابة. لم يبلغ الخمسين، وأوهنه الخوف حتى ما يتحدث عن اليعقوبيين أو عن مشاريع المجلس الإداري في باريس حتى يبدو كعجوز عمره ثمانون؟. وتستولي عليه مخاوف طفولته الأولى الوهمية. سميره راسي، القاضي الأكبر، ليس له تأثير إلا عن طريق خوف سيده، فما أن يخشى على نفوذه، حتى يسرع ويكتشف مؤامرة، من أشدّ المؤامرات فظاعة ووهمية. ثلاثون متغافلاً يجتمعون لمطالعة عدد من صحيفة «الدستور» فيعلنهم راسي متآمرين ويرسلهم سجناء إلى قلعة بارما الذائعة الصيت، وهذا سبب ذعر كل لومبارديا. تبدو هذه القلعة من مسافة بعيدة جداً، وسط السهل الفسيح، لارتفاعها الهائل الذي

يبلغ ماية وثمانين قدماً كما يقال. شكل هذا السجن الخارجي، يجعله ملك الرعب في كل هذا السهل الذي يمتد من ميلانو إلى بولونيا.

ـ أيمكن تصديق ذلك؟ كان للكونتيسة مسافر آخر، أثناء الليل، وفي الطابق الثالث من قصره يحرسه نحو ثمانين حارساً، يصيحون كل ربع ساعة عبارة تجعل أرنست الرابع يرتجف في غرفته، تقفل جميع الأبواب كلٌ بعشرة مزاليج، والغرف المجاورة لغرفته وكذلك الغرف العلوية والسفلية مليئة بالجنود.. يخاف اليعقوبيين. إذا صرّت لوحة من الأرضية الخشبية يقفز إلى مسدساته معتقداً أن واحداً من الأحرار يختبىء تحت سريره. ويتحرك عندئذ جميع حراس القصر ويذهب أحد مرافقيه لايقاظ الكونت موسكا. ولدى وصوله إلى القصر يحرص وزير الشرطة أن ينفي المؤامرة، بل على العكس: يزور وحده مع الأمير، ومسلحاً تسليحاً كاملاً جميع زوايا الغرف، ويفتش تحت الأسرّة، وبكلمة، يباشر سلسلة من الأعمال المثيرة للسخرية، جديرة بامرأة عجوز. ولكانت بدت كل هذه الاحتياطات محطة في عيني الأمير نفسه، في الأيام السعيدة، حين كان يحارب ولم يكن قتل أحداً بعد إلا بطلقات من البندقية. وبما أنه رجل فكر، كان يخجل من هذه الاحتياطات إذ تبدو له مثيرة للهزء حتى في الوقت الذي يقومون بها. مصدر حظوة الكونت موسكا الواسعة، وأنه يستعمل كل مهارته في جعل الأمير لا يخجل من

وجوده إلى جانبه. وموسكا بصفته وزير الشرطة يلحّ في التفتيش تحت قطع الأثاث، ويقال في بارما: حتى في غلافات الكمانات. يرفض الأمير دقة وزيره المبالغ فيها ويسخر منها. هذا رهان، يجيبه الكونت موسكا: فكر بالسونيتة الهجائية التي سيرهقوننا بها لو تركناهم يقتلوننا. ليست حياتك وحدها هي التي ندافع عنها: إنما شرفنا: ولكن يبدو أن الأمير نصف مخدوع، لأنه إذا عنّ لأحد من المدينة أن يقول إنهم لم يناموا في القصر، فإن راسي، القاضي الأكبر يرسل المهذار المشؤوم الحظ إلى القلعة؛ وعندما يصبح في هذا المسكن العالي ذي الهواء الطلق، كما يقال في بارما، يصير في حاجة إلى أعجوبة لتذكر هذا السجين. فهو عسكري نجا في إسبانيا عشرين مرة والمسدس في اليد، وسط المفاجآت. من هنا أنّ الأمير يفضّل الكونت موسكا على راسي، لأنه أكثر مرونة وأشدّ سفالة. مساجين القلعة التعساء، يحفظون في سرية صارمة للغاية، وتروي قصص على حسابهم. الأحرار يدعون أنّ حراسهم ومعرّفيهم، بتدخل من راسي، يتلقون الأوامر بإقناعهم، إن كل شهر تقريباً، يقاد واحد منهم إلى الموت. ويسمح للسجناء بالصعود إلى فناء البرج الفسيح، على علو ماية وثمانين قدماً، من حيث يشاهدون مرور موكب برفقة جاسوس يمثل دور التعس الذي يقاد إلى الموت.

هذه القصص وعشرون أخرى من نوعها، لا تقلّ عن السابقة صحة. تهمّ السيدة بترانيرا إلى أقصى حد؛ في اليوم

التالي كانت تطلب تفاصيلها من الكونت موسكا الذي كانت تداعبه بشدة. كانت تجده مسلياً وتؤكد له أنه بالحقيقة مسخ غريب، ولا شك في الأمر. ذات يوم قال الكونت في نفسه وهو يدخل إلى نزله: هذه الكونتيسة بترانيرا ليست فقط رائعة؛ ولكن عندما أقضي السهرة في مقصورتها، أنسى بعض أمور بارما التي تمزّق ذكراها قلبي. «بالرغم من طيش هذا الوزير وتصرفاته الباهرة، لم يكن خلقه كالخلق الفرنسي، لا يحسن نسيان غمه، وحين يجد شوكة في رأس سريره، كان مجبراً، ليكسرها، أن يتلفها من فرط ما يخزّ بها أطرافه المختلجة». أعتذر لهذه الجملة التي ترجمتها عن الايطالية. في اليوم التالي لهذا الاكتشاف، وبالرغم من الأعمال التي كانت تستدعي وجوده في ميلانو، وجد الكونت النهار طويلاً. لم يكن قادراً أن يمكث في مكان واحد؛ أتعب جياد عربته. في نحو السادسة امتطى جواده للذهاب إلى كورسو، كان يأمل بأن يلتقي السيدة بترانيرا؛ ولما ولما لم يرها، تذكر أن مسرح السكالا يفتح أبوابه إلاّ عند الثامنة؛ دخله فلم يرَ عشرة أشخاص في هذه الصالة الفسيحة. استحيا من وجوده في هذا المكان؛ قال في نفسه: هل بالإمكان، أن أرتكب في الخامسة والأربعين حماقات يخجل منها ملازم؟ ولحسن الحظ لا يرتاب أحد بها. هرب وجرّب أن يقضي الوقت بالتنزه في هذه الأسواق المحيطة بمسرح سكالا وهي على قدر كبير من الجمال. إنها مشغولة بالمقاهي تغصّ بالناس في هذه الساعة؟

أمام كل منها، جماعات من الفضوليين الجالسين على مقاعد، وسط الشارع، يتناولون المبردات، وينتقدون المارة. كان الكونت ماراً مرموقاً؟ وسرٍّ أيضاً بأن يتعرّف الناس عليه ويقتربوا منه. أربعة من الثقلاء لا يمكن مخاشنتهم انتهزوا هذه الفرصة لمقابلة وزير بهذا القدر. اثنان من بينهم تقدّما بعرائض والثالث اكتفى بأن يوجه نصائح طويلة جداً عن مسلكه السياسي.

قال: لا ينام الإنسان، عندما يمتلك هذا القدر من العقل؛ ولا يتنزّه عندما يتمتّع بمثل هذا النفوذ. عاد ودخل المسرح، وأتته فكـرةٌ أن يستأجر مقصورة في الصف الثالث؛ من حيث يمكن لنظراته أن تتّجه إلى مقصورة الصف الثاني، آملاً وصول الكونتيسة إليها. ساعتان لم تبدُوَا طويلتين جداً لهذا العاشق. استسلم كليّاً لحماقته، وتأكّد من أنّ أحداً لن يراه. وقال في نفسه: أليست الشيخوخة، قبل كـل شيء، هي العجز عن القيام بكلّ هذه الأعمال الصبيانية الطريفة.

وأخيراً ظهرت الكونتيسة. كـان يتفحّصها بنشـوة، مسلّحاً بمنظاره الصغير، ويقول في نفسه: فتيّة، فاتنة خفيفة كالعصفور، لا يتعدّى عمرها خمسة وعشرين عاماً. جمالها أقلّ ما فيها من سحر. أين في مكان آخر، هذه الروح المخلصة دائماً، لا تسلك أبداً منهج الحكمة، وتستسلم بكليتها إلى تأثير اللحـظة، ولا تطلب إلا أن تندفع مع حدث جديد؟ أدرك حماقات الكونت

ناني. كان يجد لنفسه الأسباب البارعة ليكون مجنوناً، ولم يفكر إلا باقتناص السعادة التي كان يراها تحت عينيه. لم يكن يجد أسباباً بهذا القدر من الجودة، عندما يشرع في التبصر بسنّه، وبالهموم المحزنة أحياناً جدًّا، تملأ حياته. رجل ماهر يفقده الخوف عقله، يمكّنني من حياة كريمة ويقدّم لي كثيراً من المال لأكون وزيره. ولكن إذا صرفني غداً، أبقى عجوزاً معدماً، أي أشدّ ما يستدعي للازدراء، في العالم. هذا شخص محبب أهل أن يُهدى إلى الكونتيسة! كانت هذه الأفكار كئيبة جداً، فعاد إلى السيدة بترانيرا؛ لم يكن يملّ النظر إليها. ولكي يفكّر بها بطريقة أفضل، لم يكن ينزل إلى مقصورتها. لم تأخذناني إلا لكي تعمل مقلباً سيئاً لِلَمركاتي الذي رفض الموافقة أن يسيف أو يطعن، بخنجر، قاتل زوجها. سأحارب عشرين مرة لأجلها، صاح الكونت بنشوة، كان ينظر في كل برهة إلى ساعة المسرح التي تبرز أرقامها المضيئة على ستارة خلفية سوداء لتنبّه المشاهدين، كل خمس دقائق عن الوقت الذي يسمح فيه بالوصول إلى مقصورة صديقة. كان يقول: لن أستطيع البقاء سوى نصف ساعة على الأكثر، في مقصورتها. لم أتعرف إليها إلا منذ مدة وجيزة. وإذا بقيت مدة أطول، سأعلن حبي بفضل عمري وخاصة هذا الشعر الملعون المبودر، سيجعلان لي مظهر كساندر الجذاب. ولكن فكرة جعلته فجأة يقرّر: إذا كانت تريد أن تترك هذه المقصورة، لتقوم بزيارة، سأنال مكافأة جزيلة عن البخل

الذي به أوفر لنفسي هذه اللذة. وقف لكي ينحدر إلى المقصورة حيث كان يرى الكونتيسة، وفجأة شعر أنه فقد الرغبة في الذهاب إليها.

ـ هذا منتهى الطرافة! صاح وهو يضحك في نفسه وتوقف على الدرج. هذه حركة تهيب حقيقية! مثل هذا الأمر لم يحصل لي منذ خمسة وعشرين عاماً، دخل إلى المقصورة، باذلاً بعض الجهد ضدّ إرادته. وأفاد كرجل فكر من الحدث الذي حصل له؟ لم يجرب البتة أن يظهر اليسر أو أن يسرد بكلام بارع أية قصة طريفة. كانت له الجرأة أن يكون خجولاً، واستعمل عقله ليظهر اضطرابه دون أن يكون مدعاة للهزء. كان يقول في نفسه: إذا أخذت الأمر على عكس ما أبغي، سيقضي عليّ إلى الأبد. ماذا! خجول بشعر مغطّى بالبودرة، وسيبدو رمادياً بدون البودرة! ولكن هذا واقع. إذن لن يكون مثيراً للسخرية إلاّ إذا بالغت فيه وجعلت منه موضوع افتخار: فالكونتيسة غالباً ما أصابتها نوبات السأم، في قصر غريانتا، إزاء السحنات المبودرة لأخيها وابن أخيها وبعض الثقلاء التقليديين في تفكيرهم، حتى أنها لم تفكّر في الاهتمام بتسريحة شعر عاشقها الجديد.

كان تفكير الكونتيسة غير موجّه إلى قهقهة المدخل، فلم تكن تصغي إلا إلى أنباء فرنسا التي كان موسكا يوافيها بها، على انفراد لدى وصوله المقصورة، كان يختلق بدون شك. لـدى

نقاشهما ذلك المساء، لاحظت نظرته عطوفة وجميلة.

قالت له: أتخيّل أن لن تكونَ لك هذه النظرة المحبّبة في بارما وسط خَدَمك، لأن من شأنها أن تفسر كل الأمور وتعطيهم بعض الأمل بأنهم لن يموتوا شنقاً.

إن فقدان الأهمية لدى شخص كان يعتبر الدبلوماسي الأول في إيطاليا، .بدا غريباً للكونتيسة؛ ووجدت أنه يتمتع بالظرف. أخيراً إذ كان يتحدث بحرارة، لم تنزعج لأنه ارتأى أن يحتفظ طوال سهرة بمهمة المستمع.

كانت خطوة في الواقع خطرة جداً، ومن حظ الوزير، إذ لم يكن يجد في بارما صاحبات تيه ودلال. فالكونتيسة وصلت من غريانتا قبل أيام قليلة، كانت لا تزال متوترة بسبب الضجر وحياة الريف. كانت كأنها نسيت الدعابة وكل ما يخصّ أسلوب عيش متأنق وسطحي. اتّخذت عيناها مسحة من الجدّة جعلتها مقدسة؛ لم تكن مهيأة لتهزأ من أي شيء، حتى ولا عن متيم خجول عمره خمسة وأربعون عاماً. كان بالإمكان أن تحظى جسارة الكونت، استقبالاً آخر ثمانية أيام بعد ذلك.

في عادات سكالا، ألا تدوم سوى عشرين دقيقة، هذه الزيارات القصيرة في المقصورات. ولكن قضى الكونت السهرة بكاملها في تلك المقصورة التي سعد فيها بلقاء بترانيرا: إنها امرأة تدفعني للقيام بكل حماقات الصبا! ولكنه كان يشعر صادقاً

بالخطر المحدق به. هل تدفع صفة الباشا، الذي يمتدّ نفوذه إلى أربعين فرسخاً من هنا، إلى غفران هذه الحماقة؟ إني أسأم جداً في بارما. لكنه كان يعد نفسه بالرحيل ربع ساعة بعد ربع ساعة.

قال للكونتيسة ضاحكاً:

ـ يجب الاعتراف، يا سيدتي، أني أموت من الضجر في بارما. لا بد لي من اغتراف اللذة حينما أجدها في طريقي. فاسمحي لي أن أمثل معك، لسهرة واحدة دور العاشق الهيمان، لن يكون لهذا الأمر أية مغبّة. سأكون، للأسف، بعيداً عن هذه المقصورة التي تنسيني كل الهموم، أو كما تقولين جميع قواعد اللياقة.

ثمانية أيام، بعد هذه الزيارة الطويلة إلى مقصورة السكالا، أصبح الكونت موسكا متيماً. وكانت الكونتيسة فكرت، أن العمر لا يتعارض مع الحب، إذا كان أهلاً لذلك. كانا عند هذه المرحلة من التفكير، لما استدعي الكونت موسكا، بواسطة البريد، إلى بارما. وكأن الأمير كان يخشى أن يبقى وحده. فعادت الكونتيسة إلى غريانتا. لم يغد خياله يزين له هذا المكان الفاتن، فبدا له كصحراء خالية. سألت ولكنه لم يجد شيئاً يقوله. أفقده غيابها الينبوع الذي يستقي منه جميع أفكاره. كانت رسائله مسلية ولم يفسّر تكلفها تفسيراً سيئاً لتجنب تعليقات

المركيز دل دونغو، الذي لم يكن يحب دفع أجرة حمل الرسائل. فكان يكلف رسلاً بإيداع رسائله في بريد كوم وليكو أو فاريز أو في أية من هذه المدن الفاتنة، قرب البحيرة، على أقل أن تأتيه الأجوبة مع الرسائل فلم يخب ظنه.

وسريعاً ما أصبحت أيام وصول البريد حدثاً في حياة الكونتيسة. كان هؤلاء السعاة يجلبون لها أزهاراً وأثماراً، وهدايا صغيرة لا قيمة لها، ولكنها تسليها هي وزوجة أخيها. كانت ذكرى الكونت تمتزج بنفوذه العظيم؛ وأصبحت الكونتيسة فضولية لكل ما يقولونه عنه. كان الأحرار أنفسهم يثنون على مواهبه.

المصدر الأساسي لشوء سمعة الكونت، أنه كان يعتبر رئيس الحزب المتطرف في بلاط بارما، وأن الحزب الليبرالي تتولى رئاسته المركيزة رافرسي، الضخمة الثراء، امرأة دساسة، قادرة على كل شيء، حتى على النجاح. كان الأمير يحرص على ألا يثبط همة الحزب الذي لم يكن يتولى السلطة؛ كان يعرف تماماً أنه سيبقى هو السيد حتى مع وزارة يختار أعضاؤها في صالة السيدة رافرسي. كانوا يخبرون في غريانتا ألف تفصيل عن هذه الدسائس؛ وغياب موسكا، الذي جميع الناس يصفونه وزيراً من الدرجة الأولى، ورجل عمل، كان يتيح عدم التفكير بالشعر الذي ذرت عليه البودرة، رمز كل ما هو بطيء، وحزين؛ كان هذا التفصيل دون أهمية، وأحد متوجبات البلاط، يمثل دوراً

بـارزاً. البلاط، . . شيء مضحك، كانت تقـول الكونتيسـة للمركيزة، ولكنه أمرٌ مسلّ؛ لعبة مثيرة للاهتمام، ويجب قبول قواعدها. من الذي لم يسمح أبداً لنفسه بالاحتجاج على قواعد الهويست المضحكة؟ وبعد أن يعتادوها يغدو من المبهج أن يمتاز اللاعب على خصمه.

كانت الكونتيسة تفكر غالباً بكاتب هذا القدر من الرسائل اللطيفة، وباليوم الذي كانت تتلقاها فيه. كانت تأخذ مركبتها وتذهب لمطالعتها، بين أحضان البحيرة الحلوة، إلى بلينيانا وبلان وحرج سفوندراتا. وبدت هذه الرسائل تعزّيها بعض الشيء عن غياب فابريس. ولم يكن بإمكانها أن تمنع الكون من أن يكون متيماً بها. ولم ينقض شهر حتى كانـت تفكر به في صداقة حنون. كان الكونت موسكا من ناحيته، صادقاً، عندما كان يعرض عليها أن يستقيل من الوزارة، للالتحاق بها وقضاء الحياة معها في ميلانو أو سواها. وأضاف، إني أملك ٤٠٠,٠٠٠ فرنك تعطينا ١٥٠٠٠ فرنك كإيراد دائم. وكانت الكونتيسة تقول: مقصورة، وجياد الخ. . من جديد، أحلام رائعة. عادت جمالات مناظر كوم الفائقة تستهويها. كانت تذهب لتحلم على شطآنها بعودة تلك الحياة الزاهية والفريدة التي، بالرغم من كل المظاهر، ممكن أن تحياها من جديد. رأت نفسها سعيدة في كورسو وفي ميلانو، وهانئة كما في عهد نائب الملك؛ سيعود إليّ الشباب أو على الأقل الحياة الناشطة.

كان خيالها المتوقد، يخفي عنها وقائع بعض المرات، ولكن معها، لم يكن يوجد أبداً مكان للأوهام الارادية التي تمنحها الجبانة. شخت قليلاً كي أرتكب حماقات، والرغبة التي تولّد الأوهام، كالحب يمكنها أن تسمم إقامتي في ميلانو. بعد وفاة زوجي لاقى فقري الأنوف نجاحاً كنجاحي في رفضي ثروتين ضخمتين.

إن موسكا المسكين هذا، لا يملك جزءاً من عشرين، من الثروة التي كان يضعها عند قدميّ هذان الغبيان لميركاتي وناني. إن معاش الأرملة الهزيل، الذي حصلت عليه بشقّ النفس، إلى الخدم المسرحين، هذا الألق الرائع، كانت الغرفة الصغيرة في الطبقة الخامسة تجلب عشرين عربة أمام الباب. كوّن كلٌّ هذا في السابق، مشهداً فريداً. ومهما بذلت من مهارة، ستمرّ بي أوقات كدرة. إذا كانت كلّ ثروتي تنحصر براتب أرملة، سأعود إلى ميلانو برخاء بورجوازي تتمكن أن توفره لنا الـ ١٥٠٠٠ ليرة التي ستبقى لموسكا بعد استقالته. سيكون اعتراض هام سيجعل الحسد منه سلاحاً فظيعاً، وهو أن الكونت متزوج ومنفصل عن زوجته منذ زمن بعيد. هذا الانفصال معروف في بارما، ولكنه سيكون جديداً في ميلانو وسينسبونه إليّ. هكذا مسرحي الجميل في السكالا، وبحيرتي الرائعة في كوم.. وداعاً، وداعاً.

بالرغم من كل هذه التكهنات، لو كان للكونتيسة أقل ثروة،

لكانت قبلت عرض استقالة موسكا. كانت تعتقد نفسها مسنة تخيفها المغازلة، ولكن المدهش في هذه الناحية من الألب، أن الكونت كان قدّم استقالته بسعادة. أو هذا على الأقل ما توصّل أن يقنع به صديقته. كان يطلب، في جميع رسائله، بولهٍ، على ازدياد مستمر، مقابلة ثانية، في ميلانو، فمنحت له. كانت الكونتيسة تقول له يوماً، في ميلانو، إن أقسمت لك إني أكنّ لك عاطفة قوية، أكون كاذبة. سأكون شديدة السعادة أن أحب اليوم، في سن تجاوزت الثلاثين، كما كنت أحب سابقاً، يوم كان عمري اثنين وعشرين عاماً! ولكني رأيت زوال أشياء كثيرة كنت أعتقدها أبدية! أنا أكنّ لك أشد الصداقة حناناً وأمنحك ثقة لا محدودة، وأنت الرجل المفضّل عندي بين جميع الرجال. كانت الكونتيسة تعتقد نفسها صادقة، غير أن هذا التصريح يحمل كذبة صغيرة في كلماته الأخيرة. ربما لو أراد فابريس، لكان انتصر على الكل في قلبها. ولكنه لم يكن سوى طفل في عيني الكونت موسكا. وصل هذا إلى ميلانو ثلاثة أيام بعد ذهاب الفتى الطائش إلى نوفار، وأسرع للتوسط من أجله لدى البارون بندر، وكان فكّر الكونت أن النفي أمر ليس له دواء.

لم يصل وحيداً إلى ميلانو، بل رافقه في عربته الدوق سنسيفرينا، تاكسيس، وهو شيخ جميل الخلقة، عمره ثمانية وستون عاماً، نظيف وشديد التهذيب، فاحش الثراء ولكنه لم يكن يتمتع بقدر كافٍ من شرف الأصل. جده وحده جمع عدة

ملايين، من عائدات دولة بارما عن طريق مهنة مزارع. عُيِّنَ والده سفيراً لدى أمير بارما في بلاط * * نتيجة الاستدلال التالي:

- سموكم تمنحون ٣٠,٠٠٠ فرنك لمبعوثكم في بلاط * * *. سأقبل بـ ٦٠٠٠ فرنك. ولن يكون المصروف في بلاط * * * أدنى أبداً من ١٠٠,٠٠٠ فرنك في السنة ومدبري سيسلم كل سنة ٢٠,٠٠٠ فرنك إلى صندوق الشؤون الخارجية في بارما. يمكن بهذا المبلغ أن يُعَين بجانبي في السفارة أمين السر الذي يشاؤون، فلن أبدي اطلاقاً غيرة على الأسرار الدبلوماسية في حال وجودها. هدفي أن أعطي بيتي رفعة شأن جديدة وأن أشرّفه بواحدة من أرفع الوظائف في البلاد.

أظهر الدوق الحالي، ابن هذا السفير، ببلاهة، أنه نصف ليبيرالي، ومنذ سنتين وهو بائس. كان خسر مليونين أو ثلاثة في عهد نابوليون بسبب عناده للبقاء في الخارج، لكنه، منذ إعادة النظام إلى أوروبا، لم يتمكّن من أن ينال أحد الأوسمة الرفيعة التي كانت تزين رسم والده وأضناه عدم الحصول عليه.

في وضع الألفة الذي يتبع الحب في ايطاليا. لم يعد من اعتراض غرور بين محبين. قال الكونت موسكا بمنتهى البساطة للمرأة التي يعبدها. :

- لدي تصميا سلوك أو ثلاثة أقدمها لك، كلها منسقة حسناً

ولا أحلم إلا بها منذ ثلاثة أشهر.

١ ـ أقدّم استقالتي ونعيش كبورجوازيين في ميلانو، في فلورنسا، في نابولي.. حيث تشائين. لدينا ايراد خمسة عشر ألف ليرة، ما عدا تقدمات الأمير، التي ستدوم حسب الظروف.

٢ ـ تتكرّمين أنت وتأتين إلى البلاد حيث أتمتع ببعض النفوذ، تشترين أرض ساكّا مثلاً، وهو بيت لطيف وسط غابة، يشرف على نهر البو. يمكنك الحصول على اتفاقيتك موقعة خلال ثمانية أيام. يضمك الأمير إلى بلاطه. إنما ثمة اعتراض هام: ستستقبلين استقبالاً حسناً في هذا البلاط، ولن يفكر أحد بالاعتراض على وجودك أمامي. وتعتقد الأميرة، من ناحية أخرى أنها تعيسة، وأنا قدّمت لها باسمك بعض الخدمات. ولكن أذكرك بهذا الاعتراض الأساسي: الأمير تقيٌّ جداً، وكما تعرفين يشاء القدر أن أكون متزوجاً. نتج عن هذا الأمر مليون مضايقة في التفصيل. أنت أرملة، وهذا لقب جميل، يجب استبداله بسواه. وهذا عرضي الثالث.

بالإمكان ايجاد زوج جديد غير مزعج. يجب أن يكون أولاً متقدماً جداً بالسن، إذ لماذا ترفضين لي أمل إبداله ذات يوم؟ والآن! أتممت هذا المشروع الفريد مع الدوق سنسفرينا تاكسيس الذي لا يعرف طبعاً الدوقة العتيدة، غير أنه يعرف فقط أنها تستجعل منه سفيراً وتعطيه وشاحاً رفيعاً كان لأبيه، ويجعله عدم

الحصول عليه أشد الناس تعاسة. لهذا، ليس هذا الدوق أبله، فهو يجلب ثيابه وشعوره المستعارة من باريس. وليس الرجل الذي يحب الأذى عن تصميم مسبق بل يؤمن بجدية أنّ الشرف يكمن في نيل أي وشاح، وهو يستحي بما يملك. عرض عليّ، منذ سنة، تأسيس مستشفى لأربح هذا الوشاح. فسخرت منه ولكنه لم يهزأ بي عندما عرضت عليه الزواج. كان شرطي الأول طبعاً أنه لن يدوس أبداً أرض بارما.

قالت الكونتيسة: أتعرف أن ما تعرضه عليّ، منافٍ جداً للأخلاق؟.

ـ ليس أكثر لا أخلاقية مما يقومون به في بلاطنا وفي عشرين بلاطاً آخر. الحكم المطلق ملائم من ناحية، لأنه يطهر ويقدّس كل شيء في أعين الشعوب؟ والمضحك، والحال هذه: سترتكز سياستنا مدى عشرين عاماً على الخوف من اليعاقبة. وأي خوف؟! كل سنة سنعتقد أنفسنا عشية ١٧٩٣ ستسمعين، كما أرجو، الجمل التي أصوغها بهذا المعنى خلال حفلات الاستقبال التي سأقيمها. جميلة! كل ما يمكن أن يخفف قليلاً هذا الخوف، سيكون أخلاقياً للغاية في أعين الأشراف والأتقياء. والحال هذه، كل من هو غير شريف وغير تقي في بارما، هو في السجن أو يجهّز نفسه للدخول إليه. وتأكّدي، أن هذا الزواج لن يبدو فريداً من نوعه إلا يوم أُقال. هذا التدبير ليس مكراً أو خداعاً ضد أحد. وهذا هو المهم، كما يبدو لي. لم يضع الدوق، الذي

لصالحه نعمل، سوى شرط واحد: أن دوقة المستقبل يجب أن تكون من أصل شريف. أكسبني مركزي، السنة الماضية،ماية وسبعة آلاف فرنك تماماً، ووجب أن يكون مجموع إيرادي ماية واثنين وعشرين ألف فرنك، أودعتُ منها عشرين ألفاً في ليون. اختاري اذن حياة عظيمة ترتكز على ماية واثنين وعشرين ألف فرنك معدّة للصرف في بارما، وهي تساوي أربعمائة ألف في ميلانو، ويعطيك هذا الزواج اسم رجل مقبول لن تريه أبداً إلّا أمام المذبح. أو حياة بورجوازية من الطبقة الدنيا مع خمسة عشر ألف فرنك في فلورنسا أو نابولي إذ أني من رأيك؟ أعجبوا بك كثيراً في ميلانو. سيضطهدنا الحسد وربما يتوصّل أن يثيرنا. إن حياة الرفاهية في بارما سيكـون لها، كـما أتمنى، بعض ألوان الجدة، حتى في عينيك اللتين شاهدتا بلاط الأمير أوجين؛ من الحكمة أن نعرفها قبل إغلاق الباب. لا تعتقدي أني أسعى للتأثير على رأيك. قراري؟ أفضل أن أعيش في طابق رابع معك من أن أكمل وحدي هذه الحياة.

نوقشت امكانية هذا الزواج الغريب يومياً بين العاشقـين. رأت الكونتيسة، في حفلةالسكالا الراقصة، الدوق سنسفـرينا تاكسيس فبدا لها لائقاً تماماً. كان موسكا في حديث من أواخر أحاديثهما يختصر العرض هكذا: يجب اتخاذ قرار نهائي إذا أردنا أن نمضي بقية حياتنا بطريقة بهيجة وألّا نشيخ قبل الوقت. وافق الأمير: فسنسفرينا شخص لا بأس به، يملك أجمل قصر في بارما

وثروة لا تحصى، عمره ثمانية وستون عاماً، كلف بالوسام الرفيع، ولكن أمراً واحداً يفسد حياته: اشترى في السابق بعشرة آلاف فرنك تمثالاً نصفياً لنابوليون من نحت كتوفا. خطيئته الثانية التي ستمته، إن لم تبادري إلى مساعدته، إنه أدان خمسة وعشرين نابوليونياً إلى فيرانت بالا، مجنون من بلادنا ولكنه على شيء من العبقرية، منذ حكمنا عليه بالموت، مع وقف التنفيذ، لحسن الحظ. فيرانت هذا نظم، في أثناء حياته، مائتي بيت شعر، لا يوازيها شيء؛ سألقيها على مسامعك. إنها رائعة كأشعار دانتي. أرسل الأمير سنسفرينا إلى بلاط ***، وسيتزوجك يوم ذهابه، وفي السنة الثانية لرحيله التي يدعوها بغتة، سينال هذا الوشاح من *** بدونه لا يستطيع العيش. ستجدين فيه أخاً، ولن يكون مزعجاً يوقّع مسبقاً جميع المستندات التي أريد. ومن ناحية أخرى سترينه قليلاً أو لن تريه أبداً كما يلائمك. لا يطلب سوى ألّا يظهر في بارما حيث يعمل جده كمزارع، إضافة إلى أن ليبراليته المدّعاة تضايقه. يدّعي راسي، سفاحنا، أن الدوق كان مشتركاً سرًّا بصحيفة «الدستوري» عن طريق فيرانت بيلا الشاعر، وهذا الافتراء كان مانعاً هاماً لموافقة الأمير.

لماذا يكون مذنباً المؤرخ الذي يتّبع بكل أمانة تفاصيل الحدث الذي نقل إليه بدقائقه؟ هل مسيء إذا كان الأشخاص اغتروا بأهواء لا يقاسمهم إياها، يرتكبون لسوء حظه، أعمالاً لا

أخلاقية كبيرة! صحيح أن أموراً من هذا القبيل لا تحدث في بلاد هواها الوحيد الباقي بين جميع الأهواء هو المال، سبيل حب الظهور.

ثلاثة أشهر بعد الأحداث المروية حتى الآن، كانت الدوقة سنسفرينا ـ تاكسيس تدهش بلاط بارما بلطفها البسيط وهدوء عقلها السامي؟. فكان بيتها ممتعاً أكثر من جميع بيوت المدينة. وهذا ما كان وعد به سيده الكونت موسكا. قدّمت الدوقة، سيدتان من أعظم نساء البلاد إلى رانوس ـ أرنست الرابع، الأمير المالك والأميرة قرينته، فاستقبلاها استقبالاً مميّزاً. وكانت الدوقة متشوقة لترى هذا الأمير، سيّد مصير الرجل الذي تحبه. أرادت أن تتودد إليه ونجحت جدًّا. وجدت رجلاً طويل القامة على شيء من السمنة. لون شعره وشاربيه وعارضي لحيته الضخمين أصهب جميل، وفقاً لأفراد حاشيته، ولكانت هذه الصفات، أثارت الرفض في غير مكان.

وسط وجهه الكبير، أنف صغير، أنثوي تقريباً. لاحظت الدوقة أنها، كي تلمح كل أسباب هذا القبح، كان عليها أن تجرّب تفصيل ملامح الأمير بإسهاب. كان رجل فكر ذا أصالة. ولم يكن ينقص هيئة الأمير وطريقة سلوكه مهابة، لكنه غالباً ما كان يريد أن يفرض نفسه على محدثه، فيضطرب ويباشر بالتأرجح على ساقيه منتقلاً من واحدة إلى أخرى. لارنست

الرابع على أي حال نظر نافذ ومسيطر. تنبىء حركات يديه على النبل وكان حديثه لائقاً وموجزاً في الوقت نفسه.

سبق لموسكا فأنبأ الدوقة بأن لدى الأمير، في الغرفة الكُبرى حيث يستقبل، رسماً كاملاً للويس الرابع عشر وطاولة جميلة جدًّا من الرخام الفلورنسي الاصطناعي. وجدت أن التقليد كان واضحاً. كان يفتش عن نظرة وكلمة من لويس الرابع عشر ويتكىء إلى طاولة الرخام الاصطناعي على طريقة جوزف الثاني. جلس فوراً بعد الكلمات الأولى وجهها إلى الدوقة، لكي يعطيها فرصة الجلوس على المقعد المعدّ لمثل مقامها. في هذا البلاط، ، الدوقات والأميرات وزوجات النافذين في اسبانيا يجلسن وحدهن، وتنتظر النساء الأخريات دعوة من الأمير أو الأميرة؛ ولكن يظهر الفرق بين الطبقات، يهتمّ هؤلاء الأشخاص، الرفيعو الشأن دائماً، بترك فترة قصيرة من الوقت تمرّ قبل دعوة النساء من غير الدوقات للجلوس. وجدت الدوقة أنه، في بعض الأحيان، كان تقليد الأمير للملك لويس الرابع عشر فاضحاً؛ مثلاً في طريقة ابتسامه بلطف، وهو يرفع برأسه إلى الوراء.

كان ارنست الرابع يرتدي أحدث الأزياء الواصلة من باريس. وكانوا يرسلون له، في هذه المدينة التي يكرهها، بذلة رسمية سوداء وردنغوتاً وسترة طويلة وقبعة. ولكن في يوم استقبال الدوقة ارتدى خليطاً غريباً من الملابس: بنطلوناً أحمر،

وجرابات حريرية وحذاء مغلقاً كما في رسوم جوزف الثاني.

استقبل السيدة سنسفرينا بلطافة، وقال لها أشياء ذكية ورقيقة، ولاحظت إفراطاً في الاستقبال الطيب ـ قال لها الكونت موسكا لدى عودتها: تعرفين لماذا؟ لأن مدينة ميلانو أكبر وأجمل من بارما. وكان لدى استقبالك الاستقبال الذي كنت أنتظر وآمل. يخشى أن يبدو كقروي مذهول أمام مفاتن سيدة واصلة من المدينة. وهو مغتاظ من مزية لا أجرؤ البوح لك بها: الأمير يرى أن ما من أحد في بلاطه يجاريك في جمالك. ذلك ما كان البارحة مساء عند اضطجاعه، موضوع حديثه الوحيد مع برنيس، رئيس فراشيه. أتوقع ثورة صغيرة في المراسم. عدوي الأكبر، في هذا البلاط، أبله يدعونه الجنرال فابيو كونتي. تصوّري رجلاً غريب الطباع. حارب يوماً واحداً في حياته، ويبدأ من هنا كي يقلّد موقف فريدريك الكبير، ويريد أن يقلد أيضاً لطف جنرالنا لافاييت، لأنه هنا، رئيس الحزب الليبرالي (والله أعلم أي ليبراليين!).

ـ أنا أعرف فابيو كونتي، قالت الدوقة؛ رأيته بالقرب من كوم؛ كان يختصم مع الدرك. وقصت المغامرة التافهة التي يتذكرها ربما القارىء.

ـ ستعلمين يوماً، يا سيدتي، إذا كان عقلك يدخل إلى أعماق مراسمنا. إن الأوانس لا يظهرن في البلاط إلا بعد

زواجهن. إذن، يشعر الأمير لتفوق مدينة بارما على كل الباقيات، وطنية شديدة حتى أنه سيجد طريقة تقدّم بها إليه الصغيرة كليليا كونتي، ابنة قائدنا لافاييت. فاتنة، وكانت تعتبر لثمانية أيام خلت كأجمل فتاة في كل مقاطعات الأمير.

لا أدري، أردف الكونت، إذا كانت الفظاعات التي نشرها أعداء الملك على حسابه، وصلت قصر غريانتا. جعلوا منه مسخاً وغولاً. والحقيقة، أن أرنست الرابع يمتاز بعدد كبير من الفضائل الصغيرة، ولو كان منيعاً كأشيل لكان استمر مثال العاهل. ولكن في ساعة سأم وغضب، ولكي يقلد ولو من بعيد، لويس الرابع عشر الذي قطع رأس لا أدري أي بطل من أبطال الفروند، وجد يعيش بهدوء ووقاحة في أرض قريبة من فرساي، خمسين سنة بعد الفروند، أمر أرنست الرابع يوماً بشنق رجلين من الأحرار. ويبدو أن هذين الأحمقين كانا يجتمعان في يوم ثابت من كل أسبوع ليتكلما بالسوء عن الأمير ويرفعا إلى السماء تمنيات حارة كي يجتاح الطاعون بارما ويخلصهما من الطاغية. وأثبتت كلمة طاغية بالبرهان. دعا راسي هذا تآمراً، وسعى ليصدر بحقهما حكم الاعدام، وتنفيذ الحكم بواحد منهما، الكونت ل. كان رهيباً. هذا ما كان يجري قبلي أنا. منذ تلك اللحظة المشؤومة، أضاف الكونت وهو يخفض صوته، يتعرض الأمير لنوبات خوف مخجلة ولكنها السبب الوحيد للحظوة التي أتمتّع بها. فلولا الخوف المسيطر، سيكون لي نوع

من الاستحقاق العنيف المرير لهذا البلاط حيث الغباوة وفيرة. أتصدّقين أن الأمير يفتش تحت أسرّة غرفته قبل أن ينام، ويصرف مليونا، أي ما يعادل أربعة ملايين في ميلانو، كي تكون عنده شرطة قادرة، وترين أمامك يا سيدتي، الدوقة رئيس هذه الشرطة المخيفة. بالشرطة، أي عن طريق الخوف أصبحت وزيراً للحربية والمالية. وبما أن وزير الداخلية رئيسي الشكليّ، بمعنى أن الشرطة من ضمن صلاحياته، جعلتهم يسلمون هذه الحقيبة إلى الكونت زورلا - كونتاريني، وهو أحمق مكرّ يجد لذة في كتابة ثمانين رسالة يومياً، وصلتني واحدة هذا الصباح كتب عليها الكونت زورلا - كونتاريني بخط يده الرقم ٢٠٧١٥.

قدّمت الدوقة سنسفرينا إلى الأميرة الحزينة دي بارما كلارا - باولينا التي كانت تظن نفسها المرأة الأكثر تعاسة في الدنيا، لأن زوجها له عشيقة (امرأة على قدر كافٍ من الجمال المركيزة بالبي) فباتت مملة للغاية. وجدت الدوقة فيها امرأة طويلة وهزيلة جدًّا. لم يكن لها من العمر سوى ستّة وثلاثين عاماً وكانت تبدو في الخمسين. وجه منسّق التقاسيم، يعتبر جميلاً مع أنه مشوه قليلاً بعينين كبيرتين مستديرتين لم تكن ترياه قط، لو أن الأميرة لم تستسلم لحزنها. استقبلت الدوقة بتهيّب ظاهر حتى أن بعض رجال الحاشية، أعداء الكونت موسكا، تجرأوا على القول أنها كانت تبدو المرأة المعرّف بها، والدوقة هيئة الملكة. لم تعد الدوقة تعرف أين تجد الكلمات لتضع نفسها في مرتبة أدنى من المرتبة

التي كانت الأميرة تضع نفسها فيها، بسبب دهشتها وحيرتها، لكي تعيد بعض المعنويات إلى هذه الأميرة المسكينة التي حتماً لم يكن ينقصها العقل. لم تجد الدوقة أفضل من أن تباشر بحثاً في علم النبات، وجعلته يدوم بعض الوقت. كانت الأميرة عالمة بهذا النوع من الأبحاث؛ كان عندها مصرى جميلة جداً بسعي الدوقة للتخلص، بكل بساطة، من حالة الارتباك، فاكتسبت نهائياً ثقة الأميرة كلارا باولينا التي، من مرتبكة ومذهولة في بدء المقابلة، وجدت نفسها مرتاحة تماماً عند نهايتها. لم تدم هذه المقابلة الأولى أقل من خمسة أرباع الساعة بالرغم من كل قواعد المراسم. أرسلت الدوقة، في اليوم التالي من أشترى لها نباتات دخيلة واتجهت كهاوية كبرى نحو علم النبات.

كانت الأميرة تقضي حياتها، مع الأب الجليل لانـدرياني رئيس أساقفة پارما، رجل علم وفكر، نزيه؛ إنما يبدو بمنظر طريف عندما يكون جالساً في مقعده المخملي ذي اللون القرمزي (حق رتبته الكهنوتية) قبالة مقعد الأميرة، المحاطة بسيدات الشرف وبسيدتين مرافقتين. كان الحبر العجوز بشعره الأبيض الطويل، أكثر خجلاً من الأميرة. كانا يتقابلان كل يوم، وجميع هذه المقابلات تبدأ بربع ساعة طويل من الصمت. أصبحت الكونتيسة ألفيزي نديمة، وهي إحدى المرافقتين لأنها تمتلك من تشجيعهما على الكلام ودفعهما للكف عن الصمت.

ولكي تنهي سير تعارفها، قبلت الدوقة عند صاحب السمو الأمير ولي العهد، الأطول قامة من والده والأشد خجلاً من والدته؛ كان ماهراً بعلم المعادن وله ستة عشر عاماً، اشتد احمرار وجنتيه وهو يرى الدوقة داخلة واحتار حتى لم يتمكن من أن يجد كلمة يقولها لهذه السيدة الفاتنة. كان شاباً جميلاً، ويقضي حياته في الأحراج يحمل مطرقة بيده. في اللحظة التي كانت تقف لتضع حداً لهذه المقابلة الصامتة صاح الأمير ولي العهد:

- يا إلهي! كم أنت جميلة، يا سيدتي. ووجدت السيدة المعرف بها هذا الكلام، صادراً عن صاحب ذوق سليم.

عمر السيدة بالبي خمسة وعشرون عاماً. كان يمكن أن تكون نموذجاً للجمال الإيطالي سنتين أو ثلاثاً قبل وصول الدوقة سنسفرينا إلى بارما. والآن، كانت عيناها لا تزالان أجمل عينين في العالم وحركاتها الأكثر لطفاً وظرفاً. ولكن إذا نظر إلى جلدها عن قرب، يبدو موشى بعدد لا يحصى من الغضون الرقيقة التي تجعل من المركيزة شابة عجوزاً، أما إذا نظر إليها من بعيد، مثلاً في المسرح داخل مقصورتها، فكانت لا تزال واحدة من الجميلات.

كان المشاهدون في قائمة المسرح يجدون الأمير ذا ذوق رفيع، كان يقضي جميع سهراته عند المركيزة دي بالبي، ولكن غالباً

صامتاً والسأم الذي يستولي عليه جعل هذه المرأة المسكينة في هزال فريد. كانت تدعي ذكاء غير محدود. وتبتسم دائما بابتسامة مكر، وهي تملك أجمل أسنان في العالم. كانت، على سبيل الاحتياط، تبغي، ببسمة رياء، أن توحي غير ما كانت تعبر عنه كلماتها. كان الكونت موسكا يقول إن هذه الابتسامات المستمرة، بينما نفسها سئمة، هي التي تسبب لها غضوناً بهذا القدر. كانت السيدة بالبي تتعاطى كل الشؤون. فلا تتسوّق الدولة بألف فرنك دون أن تتذكر المركيزة (هذه كانت الكلمة المهذّبة في بارما). تقول الشائعات انها أودعت في انكلترا ستة ملايين فرنك ولكن ثروتها فعلاً حديثة، ولا تتعدى خمسة عشر ألف فرنك. اختار الكونت موسكا أن يكون وزيراً للمالية كي يكون بمنجاة من حيلها ولكي يجعلها من تبعيته. كانت شهوة المركيزة الوحيدة: الخوف متنكراً في بخل قذر: سأموت على القش، كانت تقول بعض المرات للأمير الذي كان يدفعه هذا الحديث للغضب. لاحظت الدوقة أن المدخل في قصر السيدة بالبي، يتألق بالأشياء المذهبة، مضاء بشمعة واحدة تسيل على طاولة رخامية ثمينة وأبواب صالتها متّسخة من أصابع الخدم.

- استقبلتني، قالت الدوقة لزوجها، كما لو أنها كانت تنتظر مني اكرامية خمسين فرنكاً.

مسار نجاحات الدوقة أوقف قليلاً بسبب الاستقبال الذي

أقامته المرأة الأكثر مهارة في البلاط، المركيزة رافرسي الشهيرة، المتآمرة المتفوقة، وكانت آنذاك تـرأس الحزب المنـاوىء لحزب الكونت موسكا. كانت تريد أن تطيح به منذ أشهر؛ لا سيما وأنها ابنة أخت الدوق سنسفرينا. وكانت تخشى أن تطعن مفاتن الدوقة الجديدة بالإرث. كان الكونت يقول لصديقته: ليست السيدة رافرسي من اللواتي يمكن احتقارهن. اعتبرها امرأة قادرة على تنفيذ كل ما ترد. فإني انفصلت عن زوجتي للسبب الوحيد انها أصرت أن تتخذ لها عشيقاً الفارس بنتفوغليو أحد أصدقاء رافرسي. هذه السيدة امرأة مسترجلة إلى حد كبير، ذات شعر حـالك السـواد، تلفت النظر بـالماسـات التي تتزيّن بهـا منذ الصباح، وبالأحمر الذي كانت تطلي به خديّهـا. وجعلت من نفسها مسبقاً عدوّة الدوقة، ولدى استقبالها في بيتها أخذت على عاتقها أمر بدء الحرب، في الرسائل التي كان يكتبها الـدوق سنسفرينا من ** * كان يبدو مبتهجاً جداً من بعثته وخاصة بالأمل في الحصول على الوشاح الأكبر، حتى أن أسرته كانت تخشى أن يتنازل عن قسم من ثروته لصالح زوجته التي كان يثقلها بالهـدايا الصغيـرة. وللسيدة رافـرسي مع أنها قبيحـة، بحسب القوانين الجمالية، كان الكونت بالبي، أجمل رجل في البلاط: وكانت تنجح عموماً في كل عمل تباشره.

كـانت الدوقـة تحافظ عـلى بيتها محـافظة شـديدة. فقصـر سنسفرينا دائماً أروع قصر في مدينة بارما، والدوق يصرف مبالغ

كبيرة من المال كي يجمله وتشرف الدوقة على الاصلاحات لمناسبة إرساله ووسامه المستقبلي.

تنبأ الكونت بصحة ما سيجري: أتت كليليا كونتي إلى البلاط، بعدما جُعلت صاحبة معاش، أياماً قليلة بعد أن تمّ تقديم الدوقة. ولكي تتفادى هذه الضربة التي بامكانها أن تنتقص من نفوذ الكونت، أقامت الدوقة حفلة استقبال كبرى، بحجة تدشين بستان قصرها. وجعلت من كليليا، التي تدعوها صديقتها من بحيرة كوم، ملكة السهرة وذلك عن طريق تصرفاتها المليئة بالرعاية واللطف. ووجد رقمها كما من قبيل الصدفة على جميع الأشياء الشفافة. وكانت كليليا رغم أنها منشغلة البال، محبّبة للجميع، بحديثها عن المغامرة الصغيرة بجانب البحيرة وعن شكرها الجزيل. وقيل انها ورعة جداً وميّالة للوحدة.

كان الكونت يقول: أراهن أن لها قدراً كافياً من العقل لتستحي من والدها. جعلت الدوقة من هذه الفتاة صديقتها، وكانت تشعر بالميل نحوها؟ لم تكن تريد أن تبدو، وكأنها محسودة منها، فتدعوها إلى جميع حفلات الطرب التي تقيمها؟ وأخيراً كانت طريقتها السعي لتخفيف جميع الكراهيات التي تستهدف الكونت.

كان كل شيء يبتسم للدوقة وهي تلهو بمثل هذه الحياة في

البلاط، حيث يخشى، في كل وقت، هبوب العاصفة. كان يبدو لها أنها تحيا حياتها من جديد: شديدة التعلق بالكونت الذي كان سعيداً حتى الجنون. وفرت له هذه الحالة المحببة قوة في كل ما لا يختص إلا بمصالحه الطموحة. وهكذا حصل على البراءات والاكرامات المتوجبة لرئيس الوزراء والتي تقدّم للملك نفسه، شهرين بالكاد بعد وصول الدوقة. وكان الكونت يؤثر على سيّده، في كل شيء. وحصل أهالي بارما على برهان أذهل كل العقول.

في الجنوب الشرقي، على عشر دقائق من المدينة، ترتفع هذه القلعة الذائعةالصيت والأكثر شهرة في ايطاليا، ويبلغ علوّ برجها الكبير مائة وعشرون قدماً وترى من بعيد. هذا البرج الذي شاده آل فارنيز، وأحفاد بولس الثالث، بشكل ضريح ادريانوس، في روما مع مطلع القرن السادس عشر. بناء سميك الجدران، وأمكن بناء قصر لحاكم القلعة وسجن جديد، يدعى برج فارنيز، على الفناء الذي ينتهي به، شُيد على شرف الابن البكر لرانوس ـ أرنست الثاني، الذي أصبح عشيق حماته المفضل التي تعتبر جميلة وفريدة في البلاد. فضول الدوقة دفعها لمشاهدتها كانت الحرارة مرهقة يوم زيارتها. وجدت، فوق، في ذلك المكان المرتفع، الهواء الرطب، فانشدهت إلى درجة جعلتها تقضي فيه ساعات، وسارعوا بفتح أبواب غرف برج فارنيز أمامها.

التقت الدوقة، في ساحة البرج، بسجين ليبرالي مسكين،

كان أتى للتمتع بنزهة نصف ساعة يسمح له بها كل ثلاثة أيام. وعادت إلى بارما. لكنها، إذ هي لا تتمتع بالفطنة اللازمة في بلاط سلطته مطلقة، تكلمت على هذا الرجل الذي أخبرها قصته بكاملها. تسلّم حزب المركيزة رافرسي حديث الدوقة هذا، وردّدها كثيراً على أمل أنه سيغيظ الأمير. في الواقع كان أرنست الرابع يردد غالباً إن المهم خاصة: التأثير على المخيلات. كان يقول: «دائماً» كلمة كبيرة وأكثر فظاعة في ايطاليا منها في أي مكان آخر: وبالتالي فالأمير لم يمنح عفواً لأحد، طيلة حياته. ثمانية أيام بعد زيارتها للقلعة، تلقت الدوقة رسالة إبدال العقوبة، موقّعة من الأميروالوزير، وترك مكان اسم المحكوم عليه فارغاً. يحق للسجين الذي سيكتب اسمه استعادة أرزاقه والحصول على إذن بالذهاب إلى أميركا لقضاء بقية أيامه. كتبت الدوقة اسم الشخص الذي كان حدثها. كان هذا الرجل للأسف بنصف نذل وذا نفس ضعيفة. وكان حُكم على فيرانت بالا الذائع الصيت بالموت، استناداً إلى اعترافاته.

حسنت الطريقة الغريبة التي تمّ بها هذا العفو موقف السيدة سنسفرينا. كان الكونت موسكا سعيداً إلى أقصى حد. وكان عهد زاهر في حياته أثر تأثيراً حاسماً على مصير فابريس. كان هذا الأخير لا يزال في رومانيانو، بالقرب من نوفار، يعترف ويصطاد، ولا يطالع، ويعشق امرأة من الأشراف كما أعطيت له التعليمات بذلك. وكانت الدوقة مكدرة من هذه الضرورة

الأخيرة. اشارة أخرى لم يكن الكونت يعلق عليها أهمية كبرى. فالدوقة كانت صريحة معه في كل الشؤون المطروحة وتفكر عالياً بوجوده، غير أنها لم تكن تحدثه أبداً عن فابريس إلا بعد أن تفكر ملياً بصياغة جملتها.

قال لها الكونت يوماً: إذا أردت، سأكتب إلى هذا الأخ المحبب، على بحيرة كوم، وسأجبر المركيز دل دونغو هذا بقليل من الجهد وأصدقائي من ***، أن يطلب العفو لفابريسك اللطيف. إذا كان صحيحاً، ولا يخالجني شك من هذا القبيل، إن فابريس أسمى بقليل من الشبان الذين ينزّهون جيادهم الانكليزية في أسواق ميلانو. ما هي حياة من لا يقوم بعمل في الثامنة عشرة وليس عنده نظرة إلى المستقبل! إذا كانت السماء منحته ميلاً حقيقياً نحو أي شيء، حتى إلى الصيد بالشص، سأحترمه؛ ولكن ما الذي سيفعله في ميلانو حتى بعد أن ينال العفو عنه؟ سيمتطي جواداً يجلبه من انكلترا في ساعة ما، وفي أخرى ستقوده البطولة إلى عشيقته التي سيحبها أقل من جواده.. ولكن إذا أعطيتني الأمر، سأسعى لأوفر هذا النوع من الحياة إلى ابن أخيك.

قالت الدوقة: أريده ضابطاً.

ـ أتنصحين ملكاً بأن يسلم هذا المركز الذي سيكون له يوماً أهمية، إلى شاب سريع التحمس، وأبدى حماسه لنابوليون حتى

ذهب وانضم إليه في واترلو؟. فكري بحالنا جميعاً، لو أن نابوليون انتصر في واترلو، لما كان عندنا أحرار نخشاهم، صحيح، غير أن ملوك الأسر القديمة لن يتمكنوا من الحكم إلاّ بعد أن يتزوجوا بنات مارشالاته. وهكذا فإن سلك الجندية لفابريس، هو كحياة السنجاب يدور في قفص: حركة دائمة دون تقدم في أي أمر سيكتئب في أن يرى نفسه مجبراً على القيام بجميع تضحيات رجال العامة. أول مزية لشباب اليوم، ولمدة خمسين سنة ربما، طيلة المدة التي يخشى ألاّ يعاد الدين إلى مكانته، هو أن يكون محروماً من العقل وغير قابل للتحمس.

فكرت بشيء، ولكنه سيجعلك تحتجين أشد الاحتجاج، وسيسبب لي شخصياً متاعب لا متناهية ولأكثر من يوم. ولكن قولي لي، إذا كنت تعرفين، أية حماقة لن أرتكب في سبيل الحصول على بسمة منك.

قالت الدوقة: يعني؟.

ـ يعني، كان عندنا في بارما ثلاثة أساقفة من أسرتك: اسكانيي دول دونغو الذي كتب في ١٦ فابريس في ١٦٩٩ واسكانيي آخر في ١٧٤٠. إذا كان فابريس يرغب في نيل درجة الأسقفية والاشتهار بفضائل سامية من الدرجة الأولى، سأجعل منه أسقفاً في أحد الأمكنة، ثم رئيس أساقفة هنا إذا دام نفوذي. الاعتراض الحقيقي على هذا الأمر هو: هل أبقى وزيراً

مدة كافية لأنفذ هذا التصميم الرائع الذي يتطلب سنوات؟ قد يموت الأمير أو قد يقضي بصرفي. ولكن، هي الطريقة الوحيدة التي في متناولي كي أخدم فابريس خدمة تليق بكما.

نوقش الموضوع طويلاً: كانت الدوقة تنفر من هذه الفكرة. فقالت للكونت: أثبت لي ثانية أن أي سلك آخر مستحيل لفابريس. فأقام الكونت الدليل على ذلك.

وأضاف: تتلهفين على البدلة الرسمية الزاهية. ولكن لا أدري ماذا يجب أن أفعل لمعالجة هذا الأمر الأخير.

بعد انقضاء شهر، كانت طلبته الدوقة للتفكير استلمت لوجهات نظر الوزير الحكيمة. ـ كان الكونت يردد: امتطاء جواد إنكليزي بتكلف في إحدى المدن الكبرى، أو اعتماد موقف ينسجم مع شرف الأصل، ولا أرى حلاً وسطاً بين هذين. للأسف، الرجل النبيل لا يستطيع أن يكون طبيباً ولا محامياً. وهذا العهد عهد المحامين.

تذكري دائماً يا سيدتي، انك تعدّين لابن أخيك في ميلانو المصير الذي يتمتع به الشباب أترابه ويحسبون محظوظين. بعد نيل العفو عنه، تعطينه عشرة، عشرين أو ثلاثين ألف فرنك؛ ومهما يكن فلا أنت ولا أنا نطمع بالتوفير.

كانت الدوقة تتأثر بالمجد، ولا تقبل أن يكون فابريس مبذراً

بسيطاً؛ فعادت إلى تصميم عشيقها.

.كان الكونت يقول لها، لاحظي أنني لا أبغي أن أجعل من فابريس كاهناً مثالياً كالذين تصادفينهم. كلا. إنه سيد عظيم قبل كل شيء؟ يمكن أن يبقى، إذا شاء، جاهلاً تماماً، فهذا لا يمنعه من أن يصبح أسقفاً أو رئيس أساقفة إذا كان الأمير يوالي اعتباري كرجل نافع.

وأضاف الكونت: إذا كانت أوامرك تتكرّم بتحويل عرضي إلى قرار ثابت: لا يجب أن ترى بارما الرجل الذي نأخذه تحت حمايتنا، في مرتبة حقيرة، فقد يسبب لها ذلك صدمة، إذا شاهدته هنا كاهناً بسيطاً؛ لا يجب أن يظهر في بارما إلا بجرابات بنفسجية وبرفقة حاشية لائقة. وسيدرك الجميع عندئذ أنّ ابن أخيك أسقف ولن يتكدر أحد.

ـ إذا شئت الاستماع إلي، سترسلين فابريس ليتلقى علومه اللاهوتية، وقضاء ثلاث سنوات، في نابولي وأثناء فرصة المجمع الإكليريكي، يذهب إذا شاء إلى باريس أو لندن، دون أن يظهر البتة في بارما. هذه الكلمة سببت للدوقة ارتعاشة هلع.

أرسلت موفداً إلى ابن أخيها وأعطته موعداً في بليزانس. الموفد كان يحمل المال وكل جوازات السفر الضرورية.

وصل فابريس أولاً إلى بليزانس وأسرع إلى الدوقة وقبّلها

بعاطفة جعلتها تجهش بالبكاء. كانت سعيدة لأن الكونت لم يكن موجوداً. منذ بداية علاقتهما كانت المرة الأولى التي تحس بهذا الشعور.

تأثر فابريس بالغاً، ثم حزن بسبب المشاريع التي وضعتها الدوقة له؛ أمله كان منذ البدايـة أن مشكلة واترلو ستسوى وينتهي الأمر بأن يصبح عسكرياً: أذهل الدوقة أمر جسَّم الرأي الحالم الذي كونته عن ابن أخيها: رفض قطعاً أن يحيا حياة المقاهي في إحدى مدن ايطاليا الكبرى.

كانت الدوقة تقول: هل تتخيل نفسك في ميدان السباق في فلورنسا أو نابولي مع جياد انكليزية أصيلة! وللمساء عربة وشقة جميلة الخ..

كانت تلح، بلذة، على وصف هذه السعادة المبتذلة، وكان فابريس يرفضها باحتقار. كانت تفكّر: أنه بطل.

كان فابريس يقول: بعد عشر سنوات من هذه الحياة الهانئة ماذا سأفعل؟ ماذا سأكون؟ شاب ناضج؟ يجب أن يتخلى عن مركزه لصالح أول مراهق يفتتح الحياة في العالم هو أيضاً برفقة جواد انكليزي.

رفض فابريس أولاً بشدة أن يصبح إكليريكياً. وأبدى رغبته بالذهاب إلى نيويورك ليصبح مواطناً، فجندياً جمهورياً في أميركا.

أجابته الدوقة: أي خطأ هذا؟ لن تحارب. وستعود إلى حياة المقاهي ولكن بدون أناقة، ولا موسيقى ولا حب.

صدقني، من أجل نفسك ومن أجلي ـ ستكون الحياة حزينة في أميركا. وشرحت له عبادة الإله دولار، وهذا الاحترام الذي يجب محضه لشعب الشارع، الذي باقتراعهم يقررون كل شيء. وعادا إلى موضوع الكنيسة.

قالت له الدوقة: قبل أن تغضب وتحتج، إفهم ماذا يطلب منك الكونت: الأمر لا يتعلق أبداً بأن تصبح كاهناً مسكيناً وأن تكون مثالياً وفاضلاً كالكاهن بلانيس. تذكّر ما كان أعمامك عليه، رؤساء أساقفة بارما؛ أعد قراءة نبذات عن حياتهم في سلسلة الإنساب. قبل كل شيء يليق برجل يحمل اسمك أن يكون سيداً عظيماً، شريفاً وكريماً، حامي العدالة، ومهيّأ ليكون رئيس جماعته.. ولا يرتكب طيلة حياته سوى سفالة واحدة، ولكن هذه الأخيرة ضرورية جداً.

كان فابريس يقول وهو يتنهد بعمق: ها هي كلّ أوهامي ذهبت سدى. التضحية قاسية! أقر بهذا الواقع. لم أكن فكّرت بهذا الكره للحماسة والعقل حتى الممارسة لحسابهما. سيتولّى فابريس الحكم من الآن فصاعداً بين المملوك ذوي الحكم المطلق.

ـ فكر أن تصريحاً أو نزوة من نزوات القلب تردي الإنسان

المتحمس في الحزب المعاكس للذي خدمه طيلة حياته.

ـ أنا متحمس؟ أجاب فابريس؟ اتهام غريب! لا أستطيع حتى أن أكون عاشقاً.

صاحت الدوقة: كيف؟.

ـ عندما يكون لي شرف مغازلة جميلة. حتى وان كانت من أصل نبيل وتقية، لا أتمكن أن أفكر بها إلا عندما أراها.

أثر هذا الاعتراف تأثيراً غريباً في الدوقة.

ـ أطلب منك شهراً، أردف فابريس، لأستأذن السيدة ت. دي نوفار، وكل أحلامي. سأكتب إلى أمي المحبّة كي تأتي وتراني في بلجيرات، على الضفة البييحونتية من بحر ماجور. وفي اليوم الواحد والثلاثين بعد هذا سأكون متنكراً في بارما.

صاحت الدوقة: احترس تماماً! لم تكن ترغب أن يراها الكونت موسكا تتكلم مع فابريس.

عادا فتقابلا في بليزانس. كانت الدوقة مضطربة هذه المرة اضطراباً شديداً: هبت عاصفة في البلاط، ويكاد حزب المركيزة رافرسي أن ينتصر؛ كاد يستبدل الكونت موسكا بالجنرال فابيو كونتي، رئيس ما كان يدعي في بارما الحزب الليبرالي. قالت الدوقة كل شيء لفابريس، ما عدا اسم الخصم الذي كان ينمو في حظوة الأمير. وناقشت معه من جديد فرص مستقبله، حتى

مع احتمال خسارة حماية الكونت القوية جداً.

ـ سأقضي ثلاث سنوات في مجمع نابولي الاكليركي، صاح فابريس؛ ولكن ما دمت قبلْ كل شيء نبيلاً؛ لا تلزميني بحياة الاكليريكي الفاضل القاسية. هذه الاقامة في نابولي لا تخيفني. هذه الحياة تساوي حياة رومانيانو، بدأت الشلة هناك تجدني يعقوبياً. اكتشفت في منفاي انني لا أعرف شيئاً ولا حتى اللاتينية والاملاء. كان لدي مشروع بإعادة تثقيف نفسي في نوفار، سأدرس اللاهوت في نابولي: علم معقد. ابتهجت الدوقة وقالت له: إذا ؟طرِدنا، سنذهب لنراك في نابولي. ولكن بما أنك تقبل، حتى إشعار آخر، فريق الجرابات البنفسجية، فإن الكونت، الذي يعرف ايطاليا جيداً، كلفني بفكرة لك: لا تبد أي اعتراض. تخيّل انهم يعلمونك قواعد الهويست. هل تبدي اعتراضات على قواعد الهويست؟ قلت للكونت انك مؤمن، وهنأ نفسه. فهذا مفيد في هذه الحياة وفي الأخرى. ولكن إذا كنت مؤمناً لا تسقط في المبتذل وتتحدث بكره عن فولتير وديدرو ورينال وجميع الرعناء، رواد المجلسين. لتكن هذه الأسماء، نادرة في فمك، ولكن عندما يجب أن تتكلم على هؤلاء السادة إفعل بسخرية رصينة هادئة؛ إنهم أناس دحضت آراؤهم منذ زمن بعيد، ولم يعد لهجماتهم أي تأثير. آمن بلا تبصر، بكل ما يقولونه لك في المجمع. فكر أن ثمة من يسجلون ملاحظات على أقل اعتراضاتك؛ سيغفرون لك مغامرة غرامية، إذا اتقنت

قيادتها ولكنهم لن يغفروا لك شكاً راودك. العمر يلغي المغامرة ويزيد الشك. تصرف بحسب هذا المبدأ، في كرسي الاعتراف. ستصلك رسالة توصية للأسقف القيّم على الأعمال من الكاردينال رئيس أساقفة نابولي. يجب أن تعرض له وحده مغامرتك في فرنسا ووجودك يوم ١٨ حزيران بجوار واترلو. ومع ذلك اختصر كثيراً ولا تتوسع في سرد هذه المغامرة؛ اقرّ بها فقط لكي لا يتمكنوا من لومك بأنك أخفيتها. كنت شاباً يومذاك.

فكرة الكونت الثانية لك هي التالية: إذا راودك سبب ممتاز أو جواب بارع، يبدّل من مجرى الحديث، لا تستسلم لتجربة حبّ الظهور، بل احتفظ بالصمت. فالناس المرهفون، سيرون ذكاءك في عينيك. لديك الوقت لإظهار نباهتك عندما تصبح أسقفاً.

بدأ فابريس في نابولي، بعربة بسيطة وأربعة خدم ميلانيين طيبين، أرسلتهم إليه عمته. بعد سنة من الدرس، لم يقل أحد عنه أنه رجل فكر. كانوا ينظرون إليه كنبيل مجتهد، كريم جداً انما فاسق قليلاً.

كانت تلك السنة مسلية لفابريس ورهيبة للدوقة. كاد الكونت يفقد مركزه أربع مرات. كان الأمير مريضاً تلك السنة، فوجد نفسه خائفاً أكثر من أي وقت آخر. كان يعتقد أنه، بصرفه، يتخلّص من بشاعة تنفيذ أحكام الإعدام قبل دخول الكونت إلى الوزارة. كان السيد راسي محظيّ القلب الذي يُراد

الاحتفاظ به. المخاطر التي أحاقت بالكونت جعلت الدوقة تتعلّق به. لم تعد تفكر بفابريس. لكي تعطي مظهراً لانسحابها المحتمل، اتفق أن هواء بارما الرطب قليلاً كهواء لومبارديا، لا يناسب صحتها البتة. وأخيراً، بعد فترات من فقدان الحظوة امتدت بالكونت، رئيس الوزراء، حتى قضاء عشرين يوماً كاملة بعض المرات، دون أن يرى سيّده شخصياً، انتصر موسكا: ودفع الأمير لتعيين الجنرال فابيو كونتي، الليبرالي المزعوم، حاكم القلعة حيث كان الليبراليون المحكومون من راسي. إذا عامل كونتي مساجينه بالرحمة، كان موسكا يقول لصديقته، يغضب عليه كيعقوبي فتدفعه أفكاره، السياسية إلى نسيان واجباته كجنرال، وإذا أبدى قسوة وقلة شفقة، ويبدو أنه إلى هذه الناحية سيميل، يبطل أن يكون رئيس حزبه نفسه، ويخسر مؤازرة جميع الأسر التي لها أحد السجناء في القلعة. يعرف هذا الرجل المسكين أن يتظاهر بالمسكنة، عند اقتراب الأمير؛ إنه يبدّل ثيابه، عند الحاجة، أربع مرات كل يوم، ويتمكن من مناقشة أمر يتعلق بمراسيم الاستقبال ولكنه عاجز أن يسلك الطريق الصعبة التي منها فقط يقوى أن ينقذ نفسه، وعلى أية حال، أنا هنا.

في اليوم التالي، لتعيين الجنرال فابيو كونتي، والذي أنهى أزمة وزارية، علم أنه سيكون لبارما صحيفة ملكية متطرفة.

كانت الدوقة تقول: كم من المشاكل ستثير هذه الصحيفة!.

فيجيبها الكونت ضاحكاً: قد تكون فكرة هذه الصحيفة من روائعي. سأترك شيئاً فشيئاً متطرفي، الساخطين ينتزعون إدارتها مني. خصصت رواتب مرتفعة للمحررين. ستُلْتَمس هذه الوظائف من جميع الجهات. سيشغلنا هذا الشأن شهراً أو اثنين، وسننسى المخاطر التي هدّدتنا. الشخصان الهامان ب. و د. دخلا في صف طالبي هذه الوظيفة.

ـ ولكن هذه الصحيفة ستكون سخيفة وتثير الاشمئزاز.

كان الكونت يجيب: أتوقّع هذا الأمر. سيطالعها الأمير كلّ صباح وسيعجب بمذهبي. أما التفاصيل فسيوافق عليها أو يصدم بها وسيضطر أن يكرس لها ساعتين من الساعات التي يخصصها للعمل. ستحقق الصحيفة أرباحاً، ولكن في الوقت الذي ستصل الشكاوي الهامة بعد ثمانية أو عشرة أشهر، ستكون انتقلت إدارتها تماماً إلى أيدي متطرفي الساخطين، سيحاسب عنها هذا الحزب الذي يضايقني. أما أنا فسأقدّم اعتراضات ضدّ الصحيفة؟ في الواقع أفضّل مئة سخافة فظيعة على مشنوق واحدٍ. من يتذكر سخافة، سنتين بعد صدور عدد الجريدة الرسمية الذي ذكرت فيه؟ بينما أسرة المشنوق ستحفظ لي كرهاً دائماً وربما قد تقصر حياتي.

تهتم الدوقة دائماً بشيء ما فهي دائماً نشيطة ولا تبقى أبداً عاطلة عن العمل. كانت تملك من العقل أكثر من بلاط بارما

كله. ولكن لا صبر لها ولا هدوء أعصاب كي تنجح في الدسائس. توصلت مع ذلك أن تتبع باهتمام وشغف مصالح الزمر المختلفة. وبدأ أن يكون لها نفوذ شخصي لدى الأمير. كانت كلارا ـ باولينا، الأميرة المالكة، تعتبر نفسها أشدّ النساء تعاسة، مع أنها محاطة بالاكرام، ولكنها سجينة أكثر المراسم قدماً. أخذت الدوقة سنسفرينا تمدحها، وحاولت إقناعها بأنها ليست تعيسة بقدر ما تعتقد. والأمير لم يكن يرى زوجته إلا عند تناول طعام الغداء: وتدوم هذه الوجبة ثلاثين دقيقة. وكان الأمير يقضي أسابيع كاملة دون أن يوجه كلمة إلى كلارا ـ باولينا. جربت السيدة سنسفرينا أن تبدّل كل هذا: كانت تسلي الأمير، وعرفت أن تحافظ على استقلالها. حتى لو أرادت، لرأت نفسها عاجزة عن أن تسيء إلى أي من البلهاء الذين يكثرون في هذا البلاط. كان عدم حذقها الكامل هو الذي جعلها مكروهة من كلّ رجال الحاشية العاديين. كل واحد منهم، كونت أو مركيز يتمتع بإيراد قدره خمسة آلاف ليرة. أدركت هذه المصيبة منذ الأيام الأولى ورهنت اهتمامها فقط بإرضاء الملك، وزوجته التي كانت تسيطر سيطرة تامة على الأمير ولي العهد. كانت الدوقة تحسن تسلية الأمير وتغير من اهتمامه بأقل الكلمات التي تتلفظ بها لتجعل من رجال الحاشية، الذين يكرهونها، مدعاة للسخرية.

منذ الحماقات، التي دفعته السيدة راسي إلى ارتكابها،

وحماقات الدم لا تعوض، كان الأمير خائفاً بعض المرات، ويتبرّم مما قاده إلى الحسد. كان يشعر أنه لا يتسلّى أبداً، ويغدو كئيباً عندما يعتقد أن الآخرين يلهون؛ كانت مظاهر السعادة تغضبه. يجب أن نخفي ميولنا، قالت الدوقة لصديقها، وجعلت الأمير يكتشف بنفسه أنها لم تكن على علاقة غرامية متينة بالكونت، مع أنه رجل جدير بالتقدير.

هذا الاكتشاف وفّر لعظمته يوماً سعيداً. كانت الدوقة، من وقت إلى آخر، تتكلم تلميحاً على مشروع تتمكن معه أن تعطي نفسها كل سنة بضعة أشهر ستفيد منها للتعرف إلى ايطاليا التي تجهلها: ستذهب لزيارة نابولي وفلورنسا وروما.

إنما لا شيء في العالم يمكنه أن يكدر الأمير، كهذا الهروب المحتمل: كانت هذه أبرز نقاط الضعف لديه. والمساعي التي كان بالإمكان نسبتها دون اكتراث لمدينته العاصمة، تحزنه. كان يشعر أن ليس لديه طريقة لاستبقاء السيدة سنسفرينا مع أنها أبعد من أن تكون الأكثر شهرة وتألقاً في بارما.

الأمر الفريد هو، أن يأتي الناس من القرى المجاورة، مع ما هو معروف عن كسل الايطاليين، لحضور حفلاتها كل يوم خميس. كانت أعياداً كبرى. إن لدى الدوقة دائماً شيئاً جديداً وطريفاً. كان الأمير يرغب رغبة ملحة في أن يشاهد واحدة من حفلات الخميس هذه. الذهاب إلى بيت شخص عادي، أمر لم يقم به والده ولا هو.

ذات خميس، كان الطقس ماطراً وبارداً. كان الدوق يسمع العربات تهزّ بلاط بـاحة القصـر، في كل لحـظة من لحظات السهرة، وهي في طريقها إلى قصر السيدة سنسفرينا. هاجت أعصابه: آخرون يتسلون، وهو الملك، السيد المطلق الذي من المفترض أن يلهو أكثر الناس في العالم.. يضجر.. أرسل في طلب مساعدة، فلزمه بعض الوقت لوضع اثنتي عشر رجلاً من أصحاب الثقة في الشارع، من قصر عظمته إلى قصر سنسفرينا. وأخيراً بعد ساعة من الوقت خالها الأمير دهراً، كاد خـلالها عشرين مرة أن يتحدى الخناجر ويخرج كيفما تيسر ودون أي احتراز، وظهر في أول صالونات سنسفرينا. لو نزلت صاعقة على الصالون لما كانت أحدثت دهشة مماثلة. بلمحة خاطفة، وبينما كان الأمير يتقدّم، خيّم على الصالونات المضجة صمت مشوب بالهلع. تسمرت كل الأعين على الأمير ووسعت الأعين فوق الحد. بدا رجال الحاشية مذهولين. وحدها الدوقة لم تظهر عليها علائم الدهشة. عندما استعاد المدعوون أخيراً قوة النطق، انصرف اهتمام لتقرير هذه المسألة الهامة: هل أعلمت الدوقة بهذه الزيارة أم أنها دهشت بها كما جميع الآخرين.

لها الأمير، وسنستطيع أن نحكم على الطابع من ميل الدوقة الأول ومن سلطة الأفكار الغامضة اللامتناهية بذرتها الدوقة في البداية عرضاً وتركت الأمير يتلقفها.

وبينما تشيع الأمير الذي راح يوجه إليها كلمات في غـاية

اللطف، مرت بخاطرها فكرة غريبة فتجرأت وأفصحت له عنها ببساطة، كما لو كانت أمراً عادياً:

- لو أن عظمتك تريد أن توجه إلى الأميرة أربع عبارات لطيفة من التي تغدقها علي، ستجعلني، بكل تأكيد، أكثر سعادة من أن تقول لي انني فاتنة. لا أود أصلاً أن تنظر الأميرة نظرة استقباح إلى سمة الأنعام الفائقة التي شرفتني بها عظمتك. نظر الأمير إليها بعين جامدة وقال لها بلهجة جافة:

- إنني حر، على ما يبدو لي، أن أذهب حيث أشاء.

علا الاحمرار وجنتي الدوقة.

أردفت في الحال: أردت فقط أن أوفر على عظمتك القيام برحلة غير مجدية، فهذا آخر خميس أقيم فيه حفلة. إني ذاهبة لقضاء بضعة أيام في بولونيا أو فلورنسا.

وبينا هي عائدة إلى الداخل، اعتقد الجميع أنها وصلت إلى أقصى درجات الحظوة لدى الأمير وأنها خاطرت وأقدمت على عمل لم يجرؤ الإقدام عليه أحد في بارما سابقاً.

أشارت إلى الكونت فترك مائدة الهويست وتبعها إلى صالون صغير، مضاء ولكنه منفرد.

وقال لها: ما فعلته جريء جداً. وأضاف وهو يضحك: ولكن في القلوب المتيمة السعادة تزيد الحب، إذا ذهبت غداً صباحاً سأتبعك غداً مساء. لن يؤخرني سوى عمل السخرة في

وزارة المالية التي جعلتني حماقتي أتولاه. ولكن في أربع ساعات من العمل الجدي يمكن ضبط صناديق كثيرة. لندخل يا عزيزتي، ولنمثل دور الغطرسة الوزارية فقد يكون آخر عرض نقدمه في هذه المدينة. إذا اعتقد الإنسان أنه مجابه، يصير قادراً على كل شيء، ويدعو هذا اعطاء مثل. عندما يذهب هؤلاء الجماعة، سنفكر بطرق حمايتك لهذه الليلة، وربما من الأفضل الرحيل دون إبطاء، إلى بيتك في ساكّا، بالقرب من البو، الذي يمتاز بأنه لا يبعد سوى إلى نصف ساعة عن حدود الدول النمسوية.

حظي حبّ الدوقة وكرامتها بلحظة ممتعة؛ نظرت إلى الكونت، وابتلت عيناها بالدموع. وزير بهذاالقدر من النفوذ، محاط بهذا الجمهور من أفراد حاشية يغدقون عليه اكراماً مساوياً للإكرام الذي يمحضونه الأمير نفسه، يترك كل شيء من أجلها وبهذه السهولة.

لدى رجوعها، كانت سعيدة جداً. وسجد الجميع أمامها.

كان أفراد الحاشية يقولون، من كل ناحية: كم تبدل السعادة الدوقة حتى يكاد الإنسان لا يعرفها. هذه المرأة المتغطرسة، والتي فوق الكل، تتنازل وتقدر الحظوة المفرطة التي محضها إياها الملك قبل قليل.

عند نهاية السهرة، أتى الكونت إليها: يجب أن أنقل إليك

الأخبار. ابتعد الأشخاص الذين كانوا يحيطون بها سريعاً.

ـ لدى عودة الأمير إلى قصره، أردف الكونت، جعلهم ينبئون زوجته بمجيئه. تصوري الدهشة! أتيت، قال لها، لأطلعك على خبر سهرة لطيفة جداً قضيتها مع سنسفرينا. وهي التي رجتني أن أخبرك تفصيل الطريقة التي بموجبها رتبت ذلك القصر المسوّد بالدخان. وبعد أن جلس الأمير أخذ يصف لها كلاً من صالوناتك بمفرده.

قضى أكثر من خمس وعشرين دقيقة عند زوجته وهي تبكي من الفرح! رغم ذكائها، لم تتمكّن من أن تجد كلمة لتواصل الحديث بظرف. كما شاء عظمته أن يكون.

لم يكن هذا الأمير رجلاً شريراً، مهما أمكن الليبراليون أن يقولوا. رمى في السجون عدداً منهم، بسبب الخوف وكان مرات كثيرة يستعيد بعض الذكريات ليعزي نفسه. من الأفضل قتل أبليس من أن يقتلنا. في اليوم التالي للسهرة، كان مسروراً جداً، فقام بمكر متين: حضور حفلة الخميس ومحادثة زوجته. وجّه إليها الحديث أثناء الغداء. أحدث خميس السيّدة سنسفرينا هذا، ثورة في الداخل، وترك أصداء في كل بارما. ذهلت السيدة رافرسي، وكان فرح الدوقة مضاعفاً إذ تمكنت من أن تكون نافعة لعشيقها خاصة أنها وجدته أكثر انشغافاً بها من أيّ وقت آخر.

قالت للكونت:

ـ كل هذا، بسبب فكرة طائشة مرّت ببالي. سأكون، دون شك، أكثر حرية في روما أو نابولي، ولكن هل أجد هناك لعبة جذابة بهذا القدر؟ لا. في الحقيقة، يا عزيزي الكونت، أنك تسبّب كل سعادتي.

٧

الأربع سنوات التالية، ممتلئة تفاصيل عادية كالتي رويناها. كانت المركيزة سنسفرينا تأتي مع بناتها، كل ربيع، لقضاء شهرين في قصر سنسفرينا أو أرض ساكا، على ضفاف البو. كن يتمتعن بلحظات لطيفة ويتكلمن على فابريس؟ ولكن الكونت لم يكن يريد أن يسمح له بزيارة واحدة لبارما. وكان على الدوقة والوزير أن يصلحا بعض أعمال الطيش صدرت عنها. ولكن فابريس كان يتبع بكل تعقل خط السلوك الذي رسم له: نبيل يدرس اللاهوت ولا يتكل على فضيلته كي ينال ترقية. كان تولّع في نابولي بدراسة العصور القديمة وكان يقوم بالحفريات؛ وحلّ هذا الشغف مكان شغفه بالجياد، حتى باع جياده الإنكليزية ليتابع حفرياته في ميزين، حيث وجد تمثالاً نصفياً لطيباريوس شاب، اتخذ مكانه بين أجمل بقايا العصور القديمة. اكتشاف هذا التمثال وفر له اللذة الأقوى التي عرفها في نابولي. كان على كفاية من الكبرياء كي يسعى إلى تقليد الشبان الآخرين، كان

يمثل بقدر من الرصانة، دور المحب، لم تكن تنقصه، العشيقات ولكن لم يكن لهن عنده أي شأن . كان يمكن القول أنه، رغم سنّه، لا يعرف الحب؛ وهذا ما لم يقلل من محبة الآخرين له. لم يكن يمنعه شيء عن العمل بثبات، إذ كان يعتقد أن امرأة شابة وجميلة تساوي امرأة أخرى شابة وجميلة. غير أن التي تبدو أكثر إثارة عنده: آخر امرأة تعرف إليها.

كانت واحدة من أشد نساء بارما أناقة، ارتكبت حماقات في سبيله خلال سنة إقامته الأخيرة، مما وفّر له السلوى بادىء الأمر وانتهى بإرهاقه سأماً، حتى أنّ أحد أسباب سعادته بالرحيل هو التخلص من اهتمامات الدوقة . . الفاتنة.

كان ذلك عام ١٨٢١، حين أجرى امتحاناته بدرجة وسطى. وحصل مدير دروسه أو مدربه على صليب وهدية. ذهب ليرى مدينة بارما التي غالباً ما كان يحلم بها؛ أصبح صاحب سيادة يحق له بأربعة جياد لجر عربته؛ في الموقف، قبل بارما، لم يتخذ سوى اثنين. وفي المدينة أوقف عربته أمام كنيسة مار يوحنا، حيث ضريح الأسقف اسكانيي دو دونغو الفخم، شقيق والد جده، مؤلف كتاب سلسلة الأنساب اللاتينية. صلّى عند الضريح ثمّ قصد قصر الدوقة مشياً. كانت تنتظر وصوله بضعة أيام بعد ذلك. فوجد عدداً وفيراً من الزائرين في صالونها ولكن سرعان ما تركوها وحدها.

قال لها وهو يرتمي بين ذراعيها: إذن! هل أنت مسرورة مني؟ قضيت بفضلك أربع سنوات سعيداً كفاية في نابولي، عوضاً من أن أضجر في نوفار برفقة عشيقتي المرخّص لها من قبل الشرطة.

دهشت الدوقة! لو رأته ماراً في الشارع، لما كانت عرفته. وجدته أحد أجمل شباب ايطاليا. كان يتمتع بوجه فاتن. كانت أرسلته إلى نابولي غاوياً: السوط الذي كان يحمله دائماً، بدا كأنه يؤلف جزءاً من كيانه. ها هو الآن يبدو أكثر نبلاً ورزانة، أمام الأغراب، وكانت تجده استعاد كل حرارة شبابه. إنه الماسة التي لم تفقد بصقلها شيئاً. لم تنقض ساعة على وصول فابريس حتى تبعه فجأة الكونت موسكا؛ وصل باكراً. حدّثه الشاب بعبارات طيّبة عن وسام صليب بارما الذي ناله مدربه، وعبّر عن عميق امتنانه لخدمات أخرى لا يجرؤ أن يفصح عنها بهذا الوضوح. وبتوازن يقارب الكمال، حتى أن الوزير امتدحه منذ اللحظة الأولى.. وقال للدوقة بصوت منخفض: ابن الأخ هذا، مخلوق يزيّن كل المناصب الرفيعة التي تريدين أن ترفعيه إليها في ما بعد. كان كلّ شيء يسير رائعاً. كان الوزير مسروراً جداً من فابريس ولا يهتمّ إلا بأعماله. ولكنه لما نظر إلى الدوقة وجد أن عينيها غريبتان. قال في نفسه: هذا الشاب يترك انطباعاً غريباً هنا. كانت الفكرة مريرة. بلغ الكونت الخمسين. كلمة قاسية لرجل متيم وحده أن يشعر بكل صداها. كان رجلاً طيباً جدًّا وجديراً بأن يُحَبّ رغم من تصرفاته القاسية كوزير. ولكن هذه

الكلمة القاسية برأيه «الخمسين» تفسد كل حياته، وكانت قادرة أن تجعل منه بالذات رجلاً قاسياً. جعل الدوقة تعتزم المجيء إلى بارما، منذ خمس سنوات، وكانت تثير غيرته، خاصة عند بدء علاقتهما، ولكنها لم تترك له أبداً مجالاً لشكوى ذات بال. كان يعتقد أن الدوقة للتأكد من حبه لها، تلجأ إلى مظاهر الإكرام لبعض شباب البلاط الذين يتمتعون بقسط من الجمال متأكداً مثلاً، أنها رفضت تقدير الأمير الذي قال بهذه المناسبة كلمة مفيدة.

ـ ولكن إذا قبلت إكرام عظمتكم، قالت الدوقة وهي تضحك، فبأي وجه سأجرؤ على مقابلة الكونت؟.

ـ سأكون مرتبكاً تقريباً مثلك. الكونت العزيز! صديقي! ولكن يمكن تجنّب هذه الورطة بسهولة. فكرت بهذا الأمر: سيوضع الكونت في قلعة يقضي فيها بقية أيامه.

استخفها الفرح لدى وصول فابريس ولم تهتم بالأفكار التي يمكن أن تولدها عيناها في نفس الكونت. فكان الأثر عميقاً والظنون دون دواء.

استقبل الأمير، فابريس ساعتين بعد وصوله. توقعت الدوقة النتيجة الطيّبة التي كان يفترض أن تتركها هذه المقابلة المرتجلة تلتمسها منذ شهرين. هذه الحظوة لدى الأمير جعلت فابريس قوياً: كانت الذريعة إن فابريس يمرّ في بارما وسينتقل إلى

البييمونت ليرى والدته. في الوقت الذي وصلت كلمة لطيفة إلى الأمير تقول له إن فابريس ينتظر أوامره، كان سموه ضجراً. قال في نفسه: سأرى قديساً صغيراً، شديد البلاهة، ذا هيئة عديمة الأهمية، ومداجية. سبق أن قائد الموقع رفع تقريراً عن زيارة فابريس الأولى لضريح عمه الأسقف. رأى الأمير شاباً طويل القامة داخلاً عليه، لولا جراباته البنفسجية لكان اعتقد أنه أحد القادة الشبان.

أبعدت هذه المفاجأة الصغيرة السأم عن قلب الأمير: هذا رجل جسور، قال في نفسه. سيلتمسون له، والله أعلم! أية نعم. كل ما أتمكن أن أتصرف به. أنه يقترب، يجب أن يكون متأثراً: سأستعمل معه سياسة يعقوبية. وسنرى كيف يستجيب.

قال لفابريس، إذن يا مونسينيور، هل سكان نابولي سعداء؟ وهل الملك محبوب؟.

ـ يا صاحب السمو والعظمة، أجاب فابريس، دون أن يتردد لحظة، كنت أنظر بإعجاب لدى مروري في الشارع، حسن هيئة وحدات جلالة الملك المختلفة، ولاحظت أن الرفقة اللطيفة تحترم الكبار كما يجب، ولكن سأعترف، انني لم أحتمل في حياتي، الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا، يتكلمون على شيء آخر سوى عن العمل الذي يدفع لهم بدل تنفيذه.

ـ اللعنة، قال الأمير، أي صغير! هذا طائر مدرّب تماماً. هو

روح سنسفرينا وعقلها، حاذق في اللعب. بذل كثيراً من المهارة كي يجعل فابريس يتكلم على موضوع شائك بهذا القدر، سعد الشاب أن يجد أجوبة رائعة، وأنعشه الخطر: كان يقول أنها وقاحة أن يظهر الإنسان الحب لملكه. فما يتوجب له هي الطاعة العمياء. عندما لمس الأمير هذا القدر من الحكمة كاد يغضب: يبدو أنه يأتينا من نابولي رجل فكر وأنا لا أحب هذه الطبقة المكروهة، رجل فكر، لو اعتنق أفضل المبادىء وتحلّى بحسن النية، فهو من ناحية، ابن عم لفولتير وروسو.

وجد الأمير نفسه كما لو أن هذا الشاب الخارج من المعهد، تحداه بسلوكه اللائق وأجوبته المحكمة. ما انتظره لم يحدث قط: ففي لمحة بصر خاطفة، بدا بمظهر رجل طيب القلب، وعاد ببضع كلمات إلى المبادىء الأساسية للمجتمعات والدول وتلفّظ بعدة جمل من فنون كان حفظها غيباً لاستعمالها في المقابلات العمومية، وتتوافق مع هذا الظرف.

ـ هذه المبادىء تدهشك، أيها الشاب، قال لفابريس (وكان دعاه مونسينيور في بدء المقابلة وكان ينوي أن يرددها لدى صرفه، ولكن خلال الحديث وجد أشد حذقاً للصيغ المؤثرة أن يناديه باسم جميل يوحي بالصداقة)؛ وهذه المبادىء أعترف أنها لا تشبه المزبدة الاستبدادية (هذه كانت الكلمة) التي يمكن مطالعتها كل يوم في صحيفتي الرسمية. ولكن، يا الله! ماذا

سأذكر هنا؟ جميع هؤلاء المحررين في الصحيفة مجهولين لديك.

المعذرة من سمو عظمتكم. أنا لا أطالع فقط صحيفة بارما التي تبدو لي محررة بلغة جيدة، ولكني أعتبر معها، أن كل ما كان منذ وفاة لويس الرابع عشر، عام ١٧١٥، جريمة وغباوة معاً. أكبر مصلحة للإنسان خلاصه، ولا يمكن أن تكـون وجهتا نظر في هذا الموضوع. هـذه السعادة يجب أن تـدوم أبديـة: كلمات: حرية، عدالة، سعادة العدد الأكبر، كلمات سافلة ومجرمة: تدخل في الروح عادة المناقشة والارتياب. إن مجلس النواب يحذّر هؤلاء النـاس الذين يـدعونهم مجلس الـوزراء. الارتياب، هذه العادة المشؤومة، متى اكتسبت، يطبّقها الضعف البشري على كل الأمور، فيصل الإنسان إلى أن يرتاب بالكتاب المقدس وأوامر الكنيسة، والتقليد الخ.. منذ هذه اللحظة يفقد الإنسان ذاته، حتى ولو كان قوله مجرماً وخاطئاً إلى أقصى حد. هذه الريبة في سلطة الأمراء، المثبتة من الله، ستسبب السعادة عشرين أو ثلاثين سنة لحياة يمكن أن يطمح إليها كل واحد منا. ما يكون نصف قرن أو قرن كامل بالنسبة إلى أبدية شقاء الخ.

كان يرى، من الطريقة التي يتكلم بها فابريس، انه يجرب أن ينسق أفكاره بطريقة يدركها السامع بأسهل مما يمكن، وكان من الواضح أنه لم يكن يسمّع أمثولة، لم يعد الأمير يهتم بمحاورة هذا الشاب الذي كانت أساليبه البسيطة والخطيرة تزعجه.

ـ إلى اللقاء، يا مونسينيور، قال له فجأة. أرى أن أكاديمية نابولي اللاهوتية توفّر تربية ممتازة. وعندما يتلقى عقل متميز بهذا القدر، هذه المبادىء الطيبة، يحصل على نتائج باهرة. الوداع. وأدار له ظهره.

قال فابريس في نفسه، انني لم أرق في عيني هذا الحيوان.

قال الأمير في نفسه، عندما أصبح وحده، يبقى لنا الآن أن نرى إذا هذا الشاب الجميل قابل الميل إلى شيء ما. في هذه الحال، سيكون كاملاً.. أيمكن الترديد بنباهة أكثر، أمثولات العمة؟ كان يبدو لي أني أسمعها تتكلم؟ لو كانت عندي ثورة، ستتولى هي تحرير «المرشد» كما في الماضي سان ـ فيليس في نابولي! ولكن سان ـ فيليس بالرغم من عمرها الذي يقارب خمسة وعشرين عاماً، وجمالها كانت خسرت قليلاً من نفوذها. تنبيه إلى النساء ذوات العقل الراجح، كان الأمير على خطأ باعتقاده أن فابريس تلميذ عمته: رجال الفكر الذي يلدون على العرش أو بالقرب منه يفقدون سريعاً رهافة الاحساس. إنهم يحظرون حولهم حرية التحدث التي تبدو لهم بذاءة، لا يريدون أن يروا سوى أقنعة، ويدّعون الحكم من خلال جمال اللون؛ والطريف في الأمر، بأنهم يتمتعون بكثير من الحصافة. كان فابريس في مثل هذه الحالة يؤمن تقريباً بكل ما سمعناه يقول؛ لم يكن يفكر مرتين في الشهر بكل هذه المبادىء الهامة.. كان

يتمتع بالميول المتقدة والعقل، ولكنه كان مؤمناً.

الميل إلى الحرية، ومحاكاة ذوق العصر والاجلال لمبدأ سعادة العدد الأكبر من الناس، التي فتنت القرن التاسع عشر، لم تكن في عينيه سوى هرطقات تزول بعد أن تفسد نفوساً كثيرة كالطاعون الذي حين يتفشى في منطقة يقضي على عدد كبير من الناس وبالرغم من كل هذا، كان فابريس يطالع الصحف الفرنسية بلذة كبرى، ويرتكب حماقات كي يحصل عليها.

كان فابريس راجعاً مدهوشاً تماماً من مقابلة القصر، ويخبر عمته تهجمات الأمير المختلفة.

قالت له: يجب أن تذهب حالاً إلى زيارة الأب لاندرياني، أسقفنا الطبيب: أذهب مشياً، أصعد الدرج بهدوء، لا تحدث ضجة في ردهات الانتظار، وإذا طلبوا منك الانتظار، فنعمَ الأمر وألف مرة نِعَم، وبكلمة كن رسولياً.

ـ أدرك مما تقولين، أن رجلنا مشعوذ.

ـ لا أبداً. إنه الفضيلة عينها.

قال فابريس مدهوشاً: حتى بعد الذي فعله في أثناء تعذيب الكونت بالنزا؟.

ـ نعم، يا صديقي، بعدما فعله: والد أسقفنا بورجوازي صغير كان كاتباً في وزارة المالية. وهذا يوضح كل شيء.

الأسقف لاندرياني رجل فكر متّقد، واسع وعميق؛ إنه صادق، ويحب الفضيلة. أنا متأكدة: لو أن الامبراطور ديوسيوس يعود إلى الحياة، لكان استشهد مثل بوليوكت الأوبرا، الذي كان يعرض في الأسبوع الماضي. هذا هو الوجه الحسن وهاك الآن الشيء: بمجرد وجوده في حضرة الملك، أو فقط رئيس الوزراء، ينبهر بهذا القدر من العظمة، ويضطرب ويعلو الاحمرار وجنتيه. يستحيل عليه أن يقول لا. من هنا سبّبت له الأشياء التي قام بها سمعة رجل طاغية في كل إيطاليا. ولكن ما لا يعرفونه: إنه لما شاء الرأي العام أن يوضح له دعوى الكونت بالنزا، فرض على نفسه، كعقاب، أن يعيش على الماء والخبز أحد عشر أسبوعاً على عدد أحرف اسم دافيد بالنزا. لدينا نذل في البلاط له عقل راجح يدعى راسي، القاضي الأكبر، عند وفاة الكونت بالنزا، فتن الأب لاندرياني. في زمن كفارة الأسابيع الأحد عشر، كان الكونت موسكا من قبيل الشفقة الممزوجة بشيء من المكر، يدعوه لتناول طعام الغداء معه مرتين في الأسبوع، كان الأسقف الطيب يتناول طعامه تملقاً كالآخرين. كان يعتقد أنّ إعلان كفارة عن عمل وافق عليه الملك، هو عصيان ويعقوبية. ولكن من المعروف أنه مقابل كل وجبة طعام كان يضطره واجبه كمواطن مخلص على تناولها كباقي الناس، كان يفرض على نفسه، ألا يتناول سوى الخبز والماء خلال يومين.

الأسقف لاندرياني عقل راجح، وعالم من الدرجة الأولى،

ليس فيه سوى نقيصة واحدة، يريد أن يحبّ. هكذا أثِر شفقته وأنت تنظر إليه. وعند الزيارة الثالثة أحببه كلياً. هذا بالإضافة إلى نبل أهلك، مما سيجعلك معبوداً فوراً. لا تتظاهر بالدهشة إذا رافقك حتى الدرج لدى انصرافك بل تظاهر أنك معتاد على هذه الأمور؟ إنه رجل ولد زاحفاً على ركبتيه أمام النبلاء، مع ذلك كن بسيطاً، رسولياً، غير متميز بشيء وإياك والأجوبة البديهية؟ إذا لم تخفه سيبتهج برفقتك؟ فكر بأنه يجب أن يجعلك نائبه من تلقاء ذاته. سأدهش أنا والكونت وسنكون منزعجين حتى في هذه الترقية السريعة جداً، وهذا الأمر جوهري بالنسبة للملك.

أسرع فابريس إلى الأبرشية: لم يسمع خادم الأسقف الطيب، لحسن حظ فريد، اسم دل دونغو، لأنه خفيف السمع، فأبلغ الأسقف عن وصول كاهن شاب، اسمه فابريس. كان مع كاهن ذي سلوك سيء، سبق وإستقدمه ليؤنبه. كان الأسقف يوبخ الكاهن في هذا الوقت، وكان هذا الأمر شاقاً بالنسبة إليه، ولم يكن يريد الشعور بهذا الغم مدّة أطول، فجعل حفيد أخ الأسقف العظيم اسكانيي دل دونغو ينتظر ثلاثة أرباع الساعة.

كيف يمكن وصف أعذاره ويأسه، إذ بعد أن شيّع الكاهن حتى ردهة الانتظار الثانية، سأل بطريق عودته، هذا الرجل الذي كان ينتظر، عن الخدمة التي يستطيع تقديمها له، فلمح

الجرابات البنفسجية وطرق سمعه اسم فابريس دل دونغو؟ بدا الأمر غاية في الطرافة، لبطلنا، حتى أنه منذ الزيارة الأولى، غامر بقبلة وضعها على يد الأسقف القديس بفيض من الحنان. كان يحب الاستماع إلى الأسقف يردد بيأس: أحد آل دل دونغو ينتظر في ردهة بيتي! واعتقد نفسه مجبراً على سبيل الاعتذار، أن يخبره نادرة الكاهن وعيوبه وأجوبته. الخ..

هل يمكن كان يقول فابريس في نفسه، لدى عودته إلى قصر سنسفرينا، أن يكون هذا الرجل هو الذي عجّل في نهاية الكونت بالنزا المسكين.

ـ بم يفكر سموكم، قال له الكونت موسكا وهو يضحك، عندما رآه عائداً إلى قصر الدوقة. (كان الكونت لا يريد أن يدعوه فابريس: سموكم).

ـ مندهش؛ لا أعرف شيئاً عن طبائع الناس: لو كنت لم أعرف اسمه لكنت راهنت أن هذا الرجل لا يستطيع أن يرى دجاجة تذبح.

ـ ولكنت ربحت الرهان؛ ولكن أمام الأمير وأمامي فقط، لا يتمكن أن يقول: لا. بالحقيقة لكي أؤثر تماماً يجب أن أضع الوشاح الأصفر الكبير فوق ثوبه، بلباس الفراك سوف يعارضني ولهذا أرتدي دائماً البزة النظامية لاستقباله. نحن السنامعنيين بالقضاء على هيبة السلطة. الصحف الفرنسية تهدمها بسرعة

فائقة. ستعيش عادة احترام السلطة قدر ما نعيش نحن. وأنت يا ابن أخي ستخلف عهد الاحترام. ستكون رجلاً حقاً.

كان فابريس يبتهج جداً برفقة الكونت. كان أول رجل يحتل مركزاً مرموقاً يتكرم ويحدثه بجديّة؟ كانا يتمتعان. من ناحية أخرى، بذوق مشترك: آثار القدماء والحفريات، وكان الكونت، من جهته، فرحاً بالانتباه الكلي الذي يوليه الشاب لأقواله. إنما كان اعتراض أساسي: فابريس يسكن شقة. في قصر سنسفرينا، ويقضي حياته مع الدوقة، ويظهر بكل براءة أن هذه الإلفة سبب سعادته وكانت عينا فابريس وسحنته ذات طراوة مقنطة.

لرانوس ـ أرنست الرابع خبرة قوية في الشؤون العاطفية، ونادراً ما كان يصادف نساء متحجرات العاطفة تجاهه. كان مغتاظاً من أن فضيلة الدوقة معروفة تماماً في البلاط وأنها لم تفرط بها من أجله. مرّ بنا أن فطنة وسرعة خاطر فابريس كانتا ازعجتاه منذ اليوم الأول. واستاء من الصداقة الحميمة بينه وبين عمته، يظهر أنها بنزق وطيش. أصغى الأمير إلى أحاديث رجال البّلاط التي لم تكن لتنتهي. وصول هذا الشاب والمقابلة الغريبة التي حظي بها، كانا الحدث، وسبّبا الدهشة إلى البلاط لمدة شهر كامل، وعرضت للأمير فكرة حول هذا الموضوع.

كان بين حرسه جندي بسيط يحتمل شرب النبيذ بطريقة مدهشة، ويقضي حياته في الحانة ويخبر سيده مباشرة عن العقلية

العسكرية السائدة. كان كارلون غير مثقف وإلا لكان حصل على ترقية منذ عهد طويل. التعليمات الصادرة إليه أن ينوجد أمام القصر كل يوم عندما تدق ساعة البلدة الكبرى الظهر. ذهب الأمير بذاته قبل حلول هذا الموعد بقليل، يفتح، على نمط ما، نافذة الطابق الوسط المحاذي للغرفة حيث كان سموّه يرتدي ثيابه. عاد إلى هذا الطابق المتوسط بعد الظهر بقليل، فوجد الجندي. كان في جيب الأمير ورقة بيضاء ومقلمة فأملى عليه هذه الرسالة:

«يتمتع سموكم بعقل راجح، دون شك، وبفضل فطنتكم نرى الدولة تساس بطريقة رشيدة. ولكن، يا عزيزي الكونت، انتصارات عظيمة كهذه لا تتم دون قليل من الغيرة، وأخشى كثيراً أن يهزأ الناس قليلاً بك إذا كانت فطنتك لا تحزر شاباً كانت له السعادة في إلهام حب من أغرب الأنواع، ربما بالرغم منه. ليس لهذا الإنسان السعيد سوى ثلاثة وعشرين عاماً. يا عزيزي، إن ما يجعل المسألة أكثر تعقيداً، أني وإياك بلغنا أكثر من ضعف هذا السن. الكونت، مساء، وعلى مسافة رائع، حيوي، رجل مفكر، ولطيف ضمن حدود الممكن. ولكن صباحاً في الحياة الخاصة، إذا أخذنا الأمور من ناحيتها الحسنة، للآتي الجديد ظرف أفضل. نحن النساء نقدر، بالتالي، هذه النضارة، حق قدرها في الشباب، خاصة بعد أن نتخطى الثلاثين. ألا يتكلمون الآن أن يثبتوا هذا اليافع المحبب في مركز

لأئق في بلاطنا؟. من هو الشخص الذي يتكلم عليه في غالب الأحيان لسموكم»؟.

أخذ الأمير الرسالة، وأعطى الجندي قطعتي نقود.

قال له وبدت عليه علائم الكآبة: إضافة إلى مرتبك. أحفظ الصمت المطلق تجاه الجميع أو ستكون من نصيبك الحفرة الأكثر رطوبة في القلعة. كان في مكتب الأمير مجموعة ظروف على عناوين معظم أهل البلاط، اختار الأمير العنوان المناسب بواسطة ذاك الجندي الذي لا يحسن الكتابة إذ لم يكن يكتب أبداً تقاريره.

تلقى الكونت موسكا، بضع ساعات بعد ذلك رسالة بواسطة البريد؟ وكانت قدّرت الساعة التي يمكن أن تصل فيها. وفي اللحظة التي كان الساعي يدخل وبيده رسالة صغيرة، ويخرج من قصر الوزارة، نودي موسكا لمقابلة عظمته. لا يبدو أن كآبة أشد سواداً سيطرت مرة على النديم. ولكي يتمتع الأمير بغمه بكل راحة، صاح لما رآه:

ـ أنا بحاجة لأن أروّح عن نفسي بالثرثرة، كيفما تيسر، مع الصديق، وليس أن أعمل مع الوزير. أشعر، هذا المساء، بألم فظيع في رأسي، وتساورني أفكار سوداء.

أيجب التكلم على المزاج الغريب الذي كان يقلق رئيس الوزراء، الكونت موسكا دلا روفير، في اللحظة التي سمح له

بها أن يفترق عن سيّده الرفيع القدر، كان رانوس ـ أرنست الرابع ماهراً تماماً في فن تعذيب القلب، كالنمر الذي يجب أن يلاعب فريسته.

جعل الكونت مرافقيه يعيدونه إلى البيت بسرعة؛ صاح وهو يمرّ، بألا يترك أحداً يدخل عليه وأرسل يقول للمشرف على الخدمة إنه يحرره (كان يمقت إن كائناً بشرياً يستطيع أن يسمعه). ثم ركض وسجن نفسه في غرفة اللوحات الكبرى، حيث تمكن من الاستسلام إلى غيظه، وقضى السهرة دون أضواء يتنزّه كما تشاء الصدفة، كرجل خرج عن طوره. كان يجرب أن يفرض الصمت على قلبه ليركز كل قوة انتباهه على مناقشة الوضع الذي سيتخذه. غارقاً في هذه الضيقة التي تستدرّ شفقة ألد أعدائه، كان يقول في نفسه: يسكن الرجل الذي أكره، عند الكونتيسة، ويقضي كل أوقاته معها. هل يجب أن أجرّب استطلاع الحقيقة من إحدى نساء حاشيتها؟ لا أخطر من هذا الأمر! إنها طيبة للغاية؟ وتدفع لهن أجوراً طيبة! جميعهن يعبدنها (ومن، يا إلهي، لا يعبدها!) هذه هي المسألة. واستأنف بغضب:

ـ يجب أن أترك الغيرة تتآكلني، وتظهر أو أصمت ولا أتكلّم عليها؟.

إذا صحْت لن يختبئوا مني. أنا أعرف جيناً، فهي امرأة عفوية، تتأثر بالبادرة الأولى.

كان سلوكها غير متوقع حتّى في نظرها، إذا شاءت أن تخطّط دوراً مسبقاً، ترتبك؛ لدى مباشرتها العمل تطرأ لها دائماً فكرة جديدة تتقيد بها بحماس، كما لو كانت أفضل ما يـوجد في العالم، فتفسد كل شيء.

بعدم تلفظي بأيّة كلمة عن ألمي المبرّح، لن يتسترا مني، فأرى كلّ ما يمكن أن يحدث.

نعم، ولكن إذا تكلمت، سأتسبب بايجاد ظروف أخرى. سأجعلهما يترويان؛ وأتدارك كثيراً من هذه الأمور الفظيعة التي يمكن أن تحدث.. ربما نبعده، تنفس الكونت، وسيحصل، مع ذلك بعض الكدر، ولكني سأتوصل إلى إخماده.. أليس هذا الكدر طبيعياً؟.. إنها تحبه كولدها منذ خمسة عشرة عاماً. هنا يكمن كل أملي: كولدها. ولكنها توقفت عن مقابلته منذ هربه من واترلو؛ وبعودته إلى نابولي، كرجل آخر، وخاصة في عينيها، وردَّد بغضب شديد؛ رجل آخر، وهذا الرجـل فاتن. يبـدو ساذجاً ولطيفاً، وهذه العين المبتسمة، تعد بقدر كبير من الهناء. وعينا الدوقة هاتان، لم تكونا معتادتين أن نجدهما في بلاطنا.. وقد ينوب عنهما هنا، نظرة كئيبة ساخرة. أنا شخصياً، تلاحقني الأعمال، ولا أحكم إلا بتأثيري على رجل يريـد أن يجعلني مسخرة، أية نظرات يجب أن تكون لي غالباً! آه! مهما كانت العناية التي أبذلها، فإن نظري هو الذي يجب أن يكون مسناً

فيّ. ألا يجاور مرحي دائماً السخرية؟ وأكثر، هنا يجب الاخلاص، ألا يستشف من حبوري، السلطة المطلقة.. وإرادة الأذى؟ ألا أقول لنفسي بعض المرات، خاصة عندما أغضب: أستطيع فعل كل ما أريد! بل أضيف حماقة: يجب أن أكون أكثر سعادة من الآخرين بما أني أملك ما لا يملكه الآخرون: السلطة المطلقة في ثلاثة أرباع الأمور. إذن! لنكن عادلين. عادة التفكير بهذا الأسلوب تفسد ابتسامتي.. وتعطيني هيئة أناني.. وكم بسمته فاتنة! تدل على سعادة شبابه الأول.

كان الطقس ذلك المساء، لسوء حظ الكونت، حاراً، خانقاً ينذر بالعاصفة، من تلك الطقوس التي في مثل هذه البلدان، تحمل على اتخاذ القرارات المتطرفة. كيف نعدّد جميع البراهين ووجهات النظر، لكل ما كان يحصل له، خلال ثلاث ساعات مميتة، عذبت هذا المتيّم. وأخيراً انتصرت الحكمة بفعل هذا التفكير: أنا مجنون على الأرجح؛ أعتقد أني أفكر بتعقل، ولكني لا. التفت فقط إلى الوراء مفتشاً عن موقف أقل قسوة، فأمر بجانب أي سبب قطعي دون أن ألحظه. بما أن الألم المبرّح أضلني، لنتبع هذه القاعدة التي وافق عليها جميع الحكماء: الحكمة.

من ناحية أخرى، عندما أتلفظ بالكلمة المشؤومة: غيرة، يكون دوري رسم نهائياً. بالعكس إذا لم أقل شيئاً اليوم، لا

أتمكن أن أتكلم غداً، وأبقى سيد كلّ شيء. كانت الأزمة خانقة ولكان الكونت أصبح مجنوناً لو دامت. ارتاح للحظات، وتوقف انتباهه عند الرسالة المغفلة. من أية ناحية تأتي؟ وهنا حصل تفتيش عن الأسماء، وأصدر حكماً بما يختص كل منها، وهذا ما ألهاه. تذكر الكونت في النهاية، شعاع خبث كان انفجر في عيني الملك، لما قال في نهاية المقابلة: نعم، يا صديقي العزيز، لنعترف أن اللذات واهتمامات الطموح الأكثر سعادة، وحتى السلطة غير المحدودة، ليست شيئاً بالنسبة للسعادة الحميمة التي توفّرها علاقات الحنان والحب. أنا إنسان قبل أن أكون أميراً، وعندما يتوفّر لي هناء الحب تتّجه عشيقتي إلى الرجل وليس إلى الأمير. قارن الكونت هذه اللحظة من السعادة الخبيثة بهذه الجملة في الرسالة: بفضل فطنتك العميقة ترى الدولة تساس برشد. وصاح: هذه الجملة من صياغة الأمير، إذ إنها على لسان أحد رجال الحاشية وتكون حماقة لا مبرر لها. الرسالة واردة من سموه.

بعد حل هذه المشكلة، رؤية لطف فابريس الذي عاد ثانية أزالت السرور الخفيف الناتج عن لذة الاكتشاف. كان ذلك حملاً ثقيلاً سقط على ثوى على قلب البائس. صاح بغضب: وما يهمّ ممن تكون الرسالة المغفلة؟ هل ينفي ذلك أنها وشاية بي؟ بإمكان هذه النزوة أن تبدّل حياتي. قالها كما يعتذر عن هذا القدر من الجنون. في الفترة الأولى، لو أنها تحبه بشكلٍ ما،

تذهب معه إلى بلجيرات، وسويسرا أو أية بقعة من العالم. إنها ثرية. ولو اضطرت أن تعيش معه ببعض القطع الذهبية، كلّ سنة، فهل لهذا الأمر أيّ تأثير عليها؟ ألم تكن تصرّح لي منذ ثمانية أيام، أن قصرها المرتب والفخم يضجرها؟ هذه النفس الشابة تحتاج إلى الجدّة. بأية بساطة تمثل هذه الغبطة الجديدة! ستنجرف قبل أن تفكر بالخطر وقبل أن أفكّر بالشكوى! وأنا، مع كل هذا، بائس، صاح الكونت وهو ينفجر باكياً.

كان عاهد نفسه على ألاّ يذهب لزيارة الدوقة، ذلك المساء، ولكنه لم يتمكن. لم تعرف عيناه أبداً هذا العطش للنظر إليها. عند منتصف الليل قدم إليها فوجدها وحدها مع ابن أخيها، كانت عند العاشرة صرفت جميع خدمها وأغلقت أبوابها.

عند مظهر هذه الصداقة الحميمة التي تسيطر على هذين الكائنين وفرح الدوقة الساذج، برزت فجأة صعوبة كبرى أمام الكونت لم يكن فكّر بها خلال التفكير في قاعة اللوحات: كيف يخفي غيرته؟.

جاهلاً إلى أية ذريعة يلجأ، ادّعى انه ذلك المساء، وجد الأمير متحاملاً عليه، معاكساً كلّ تأكيداته الخ.. تعذّب أن يرى الدوقة تكاد لا تنتبه إليه، في هذه الظروف التي لو كانت أول العشية لدفعتها تعليلات لا نهاية لها. نظر الكونت إلى فابريس، لم يبدُ له أبداً هذا الوجه اللومباردي الجميل بهذه

البساطة وهذا النبل! كـان فابـريس أشد انتبـاهاً من الـدوقة للمتاعب التي يسردها.

قال: هذا الوجه مقرون بمنتهى اللطف وسيماء تعبّر عن سرور ساذج وحنون، لا يقاوم. يخال أنـه يقول: ليس غـير الحب والسعادة توفّرها أشياء جدية، في هذا العالم. ومع هذا، هل يصل الإنسان إلى أحد التفاصيل حيث يكون العقل ضرورياً، ينتعش نظره ويدهشك، ويبقى مذهولاً.

كل شيء بسيط في عينيه لأنه يرى كلّ شيء من أعلى. يا إلهي! يا إلهي! كيف أستطيع محاربة خصم كهذا؟ وبعد كل اعتبار، ما الحياة بدون حبّ جينا؟ بأي غبطة يبدو أنها تستمع إلى خواطر هذا العقل الفتي يبدو لها، كامرأة، فريداً في العالم!.

استولت على الكونت فكرة رهيبة كعارض التشنـج: طعنه بخنجر هنا أمامها وقتل نفسي من ثم؟.

قام بجولة في غرفته، وساقاه لا تكادان تحملانه، ولكن يده مشدودة بتشنّج حول مقبض خنجره. لم يكن أحدهما ينتبه إلى ما، كان بإمكانه أن يقوم به. قـال: إنه ذاهب لاعـطاء أمر إلى خادمه. لم يسمعاه. كانت الدوقة تضحك برفق من كلمة وجهها فابريس إليها. اقترب الكونت من مصباح في الصـالة الأولى وتحقق إذا كان رأس خنجره مرهفاً تماماً. كان يقول وهو عائد، ولدى اقترابه منهما: يجب أن أكون لطيفاً وأتصرف جيّداً تجاه هذا الشاب.

جُن الكونت. خيل إليه إنهما عندما ينحنيان، يقبل أحدهما الآخر. هنا. أمام عينيه قال: هذا مستحيل بوجودي. عقلي يتيه. يجب أن أهدأ؟ إذا تصرفت بقساوة، تستطيع الدوقة بدافع من زهوها، أن تتبعه إلى بلجيرات؟ وهنا، أو أثناء الرحلة، يمكن أن توفر الصدفة لهما السبيل لقول كلمة تعطي اسماً لما يشعر به كل منهما نحو الآخر. ومن ثمّ، في لحظة واحدة، تحصل كل النتائج.

الوحدة ستجعل هذه الكلمة حاسمة. ماذا يحل بي حين تصبح الدوقة بعيدة عني؟ أي دور سأمثّل بين هؤلاء الناس السعداء إلى أقصى حد، إذا، بعد التغلب على الصعوبات من ناحية الأمير، أذهب وأعرض سحنتي المسنة القلقة في بلجيرات؟.

هنا بالذات ما أنا غير شخص ثالث حاضر يضايق المحبين! أي عذاب لرجل، أن يحس بنفسه يمثّل هذا الدور المقيت دون التمكن من أن يتخذ قراراً بالوقوف والانصراف!.

كاد الكونت ينفجر، أو على الأقل يفضح ألمه باضطراب ملامح وجهه. وبينما هو يجول في الصالة، وجد نفسه قريباً من الباب، فهرب وهو يصيح بصوت محبب وحميم: الوداع لكما. وقال في نفسه يجب تحاشي اهراق الدماء.

في اليوم التالي لهذه السهرة المخيفة، وبعد ليلة قضاها في

تفصيل حسنات فابريس، وأخرى في فورات قاسية من الغيرة المخيفة، طرأت على الكونت فكرة استدعاء خادمه الشاب؛ كان هذا يغازل فتاة اسمها شكينا، إحدى وصيفات الدوقة والمفضلة لديها؛ ولحسن الحظ؛ كان منظماً في سلوكه، حتى البخل، ويرغب في نيل مركز حارس في إحدى المؤسسات العامة في بارما. أمره الكونت باستدعاء شكينا عشيقته فوراً. فأطاع، وساعة بعد ذلك، ظهر الكونت فجأة في الغرفة حيث الفتاة مع طالب يدها. أخافها الكونت بكمية الذهب أغدقها عليها. ثم وجّه إلى شكينا هذه الكلمات القليلة مثبتاً عينيه في عينيها:

ـ هل الدوقة تمارس الحب مع المنسينيور؟.

ـ كلا، قالت هذه الفتاة. بعد فترة صمت. لا. بعد، ولكن غالباً ما يقبّل يدي السيدة، وهو يضحك ولكن بنشوة.

أكملت هذه الشهادة بمئة جواب تتالت بعد اسئلة الكونت الساخطة. حبُّه القلق، جعلها يكتسبان، عن حق، المال الذي سبق ورماه لهما: وانتهى بتصديق كل ما كانا يقولانه له، وغدا أقل تعاسة. قال لشكينا: إذا شكت الدوقة بهذا الحديث، سأرسل محبّك عشرين سنة في القلعة ولن تريه إلا عجوزاً أشيب.

مرّت بضعة أيام فقد فابريس خلالها كل حبوره.

ـ كان يقول للدوقة: أؤكد لك أن الكونت موسكا يكرهني.

هذا الأمر لم يكن السبب الحقيقي للقلق الذي أزال حبور

فابريس. كان يقول في نفسه: الموقف الذي يضعني فيه القدر لا يطاق. أنا متأكد أنها لن تتكلم أبداً. سترفض كلمة ذات مغزى، كما لو كانت زنى مع أحد الأقارب. ولكن ذات مساء، بعد يوم من التهور والجنون، إذا قامت بفحص ضميرها، وكانت تعتقد أني تمكنت أن أحزر الميل الذي تشعر به نحوي، أي دور سأمثله في عينيها؟ تماماً كالدور المضحك الذي مثله يوسف مع زوجة الخصي فوطيفار).

هل يجب التنويه، عن طريق مسارة حلوة، أنني لست جديراً بحب رصين؟ لا، لست في وضع عقلي يحملني على أن أعبّر عن هذا الحدث بالوقاحة كشبه قطرتي ماء. لا يبقى أمامي سوى وسيلة حب كبير تركته في نابولي، في هذه الحالة يجب العودة إليها أربعاً وعشرين ساعة: هذا الحل سديد غير أنه مرهق. حب عابر، من درجة دنيا وهذا يزعج؛ ولكن كل شيء، أفضل من الدور الرهيب الذي يمثله شخص لا يدرك. هذا الموقف الأخير قد يعرض مستقبلي للخطر، ويجب، لدرء هذا الخطر كثير من الحكمة وكسب الكتمان. ما كان من مرير بين هذه الأفكار جميعاً، أن فابريس كان يحب الدوقة أكثر من أي كائن في العالم. كان يقول بغضب. يجب أن يكون الإنسان أخرق كي يخشى، إلى هذا الحد، عجزه عن الاقناع بما هو صحيح. أصبح كئيباً ومغموماً تنقصه المهارة للتخلص من هذا الموقف. ماذا يحل بي يا إلهي! إذا أغضبت الكائن الوحيد في

العالم الذي لي به وحده علاقة كلفة!.

لم يكن فابريس قادراً من ناحية أخرى، أن يحزم أمره ويفسد السعادة الخلابة بكلمة غير رزينة. كان موقفه مليئاً بالمتعة. صداقة حميمة مع امرأة أنيسة وجميلة ورقيقة كانت حمايتها، في مجالات الحياة العادية، توفّر له مركزاً مهماً في هذا البلاط الذي تسلّيه دسائسه الكبرى كتمثيلية هزلية. كان يقول في نفسه: في اللحظة الأولى يمكن أن يوقظني حبّ مفاجىء، هذه السهرات الفرحة، الجنون قضيتها منفرداً مع امرأة بهذه الإثارة، إذا قادت إلى شيء أفضل، ستعتقد أنها تجد عشيقاً، وستطلب مني فورات من الحماس العاطفي والكلف. ولن يكون بمقدوري أن أقدم لها سوى الصداقة الأشد حرارة، ولكن دون حب. الطبيعة حرمتني من هذا الجنون السامي. كم من اللوم قاسيت. اتخيّل أني ما زلت أسمع الدوقة أ ***، وكنت أسخر من الدوقة .. ستعتقد أني لا أحبها.. بينما الحب ينقص فيّ، ولن تتمكن أن تفهمني أبداً. غالباً أقبل يديها، وبعض المرات خدّها، بعد طرفة عن البلاط، تسردها بظرفها المعهود وبهذا الوله الذي وحدها تملكه في العالم، والضروري لتثقيفي. ماذا يحدث لو شدت هذه اليد على يدي بطريقة ذات مغزى؟.

كان فابريس يظهر كل يوم في البيوت الأكثر اعتباراً والأقل مرحاً في بارما، توجهه نصائح الدوقة الماهرة. كان يمتدح، بفنّ،

الأميرين: الأب والابن، والأميرة كلارا ـ باولينا والأسقف. وكان ينجح، ولكنّ هذا لم يكن يعزّيه، وينسيه الخوف القاتل من أن يغضب الدوقة، ويتشاجر معها.

٨

هكذا، بعد شهر فقط من وصول فابريس إلى البلاط كان يحمل كلّ هموم رجل البلاط، وتسمّمت الصداقة الحميمة التي كانت تسبب كل سعادة حياته. ذات مساء، خرج من بهو الدوقة حيث كانت تدل هيئته أكثر من اللزوم على كونه العشيق المهيمن. مشى بدون هدى في المدينة، مرّ أمام المسرح فرآه مضاء؛ دخل. كان عمله متهوراً، لا مبرر له لرجل من قماشته، وكان قرّر الابتعاد عن بارما المدينة الصغيرة التي عدد سكانها أربعون ألفاً. صحيح أنه تحرّر منذ الأيام الأولى، من بزته الرسمية. في المساء، عندما لم يكن يذهب لزيارة علية القوم، كان يرتدي، ببساطة، ثوباً أسود، كرجل في حداد.

استأجر في المسرح مقصورة في الصف الثالث، كي لا يراه أحد. كانت تعرض تمثيلية «صاحبة النزل الشابة» من تأليف غولدوني. كان يولي انتباهه إلى هندسة الصالة، وكان بالكاد يوجه أنظاره إلى المسرح. ولكن الجمهور كان غفيراً وينفجر بالضحك كل لحظة، التفت فابريس إلى الممثلة الشابة التي كانت تؤدي

دور صاحبة النزل. وجدها مضحكة، بدت له لطيفة جداً، وكل حركاتها طبيعية. كانت فتاة ساذجة، وأول من يضحك من الأشياء الجميلة التي يضعها غولدوني على لسانها. وكانت مندهشة لكونها تتلفظ بها. سأل عن اسمها، فقيل له: مارييتا فالسيرا.

آه! فكّر. اتخذت اسمي. غريب؛ وبالرغم من مشاغله، لم يترك المسرح إلا عند نهاية التمثيلية. عاد في اليوم التالي؛ وثلاثة أيام بعد ذلك كان يعرف عنوان مارييتا فالسيرا.

مساء اليوم الذي حصل فيه على العنوان، وبكثير من الجهد، لاحظ أن الكونت يظهر له الارتياح. كان العاشق الغيور يبقى بصعوبة كلية ضمن حدود الحكمة. سبق له وكلّف بعض الجواسيس بمراقبة الشاب. مغامرته في المسرح كانت تعجبه. سرّ الكونت، عندما علم، غداة اليوم الذي عزم فيه، أن يكون لطيفاً مع فابريس، أن هذا صعد حتى غرفة مارييتا فالسيرا الحقيرة الكائنة في الطابق الرابع، من بيت قديم، وراء المسرح، نصف متنكر في ردنفوت أزرق. وتضاعف سروره لما عرف أن فابريس، قدّم نفسه باسم مستعار، وأثار غيرة شاب شرّير اسمه جليتي كان يمثل في المدينة أدواراً ثانوية ويرقص في القرى على الحبل. وكان عشيق مارييتا النبيل هذا، ينشر الشتائم ضد فابريس ويقول إنه يريد قتله.

فرق الأوبرا يديرها مدير أعمال، يتعاقد، حيث يتسنى له، مع أشخاص يدفع لهم أجورهم أو يجدهم متفـرّغين، وتبقى الفرقة التي جمع أفرادها عن طريق الصدفة، فصلًا أو اثنين على الأكثر. الأمر لا يجري هكذا مع «الفرق الهزلية». ففيها هي تنتقل من مدينة إلى أخرى، وتبدّل مكان إقامتها كل شهرين أو ثلاثة، تؤلف أسرة يتحابّ أفرادها أو يتكارهون. يوجد في هذه الفرق، أسر مؤسسة، يصادف شباب المدن حيث تقصد الفرقة للتمثيل، صعوبات جمة في تفريقها. وهذا ما كان يحصل لبطلنا بالضبط: كانت مارييتا الصغيرة تحبه ولكنها كانت تخاف هائلاً من جيليتي الذي كان يدّعي أنه سيدها الوحيد ويراقبها عن قرب . كان يعلن في كل مكان أنه سيقتل المونسينيور، إذ كان تبع فابريس وتوصّل أن يكتشف اسمه. كان جيليتي، الأكثر بشاعة، والأقل أهلية للحب. طويل القـامة، شـديد الهـزال منقوشـاً بالجدري نقشاً بارزاً على بعض حوَل، ومع ذلك هو عارف بكل دقـائق مهنته. كـان يدخـل عادة إلى الكـواليس حيث يجتمع اصدقاؤه وهو يدور حول نفسه، على يديه وقدميه كالدولاب أو يقوم بأية حركة لطيفة أخرى. كان ينجح في الأدوار التي يتوجّب فيها على الممثل أن يظهر، بعدما بيّض وجهه بذرّ الدقيق عليه، ويتلقى أو يعطي لأحد رفاقه عدداً من ضربات العصي. كان هذا الخصم الجديد بفابريس يتلقى راتباً شهرياً قدره ٣٢ فرنكاً.

بدا للكونت موسكا كأنه يعود من أبواب القبر عندما أكّد

له جواسيسه صحة كل هذه التفاصيل. استفاق طبعه الأنيس، وبدا أكثر مرحاً وأفضل عشرة من أي وقت مضى، في صالة الدوقة، وحرص على عدم البوح لها بشيء عن المغامرة الصغيرة التي أعادت إليه الحياة. واتخذ الاحتياطات المناسبة لكي تعرف كل ما يحدث، في أبعد وقت ممكن. وأخيراً كانت له شجاعة الاستماع إلى صوت العقل يصيح به عبثاً، منذ شهر، أنه في كل مرة تضعف أهلية عشيق فيتوجب على هذا العشيق أن يرحل.

استدعت مسألة هامة حضوره إلى بولونيا. كان السعاة يجلبون له، كل يوم، أوراقاً رسمية من مكاتبه مرتين أقل مما يجلبون له من أنباء حب مارييتا وغضب جيلتي المخيف ومشاريع فابريس.

طلب واحد من عملاء الكونت، عدة مرات، أرلكان وهي لعبة يبرع بها جيليتي (انه يخرج من فطائر محشوة بينما خصمه بريجيلا يهاجمه ويضربه بالعصا)؛ فكانت هذه ذريعة لاعطائه ماية فرنك. احترس جيلتي وهو غارق في الدين، أن يتكلم على هذه النعمة غير المتوقعة. ولكن غطرسته غدت مذهلة.

تبدلت نزوة فابريس وأصبحت كرامة (اضطرته الهموم، وهو في مثل هذا العمر، أن يكون له نزوات، منذ الآن) كان الغرور يقوده إلى العرض المسرحي. الصبيّة تمثل بغبطة زائدة وتسلية، ولدى خروجه من المسرح، غدا مغرماً لساعة. عاد الكونت إلى

بارما بناء على خبر يقول إن فابريس يتعرّض لأخطار حقيقية؛ جيليتي الذي كان فارساً في فيلق خيالة نابوليون، كان يتكلم بجدية على قتل فابريس، ويتخذ احتياطات ليهرب إلى رومانية. لم يكن جهداً بطولياً قليلاً من الكونت بذله للعودة إلى بولونيا إذ غالباً ما كان يبدو في الصباح متعب الوجه، بينما يتمتّع فابريس بالطراوة والصفاء. من كان فكر أن يجعل من موت فابريس موضوعاً لمؤاخذته، وحصل بغيابه ولسبب تـافه؟ ولكن كـان صاحب واحدة من تلك الأنفس النادرة تندم ندامة أبدية عن عمل نبيل كان باستطاعتها أن تقوم به ولم تفعل؛ لم يستطع، من ناحية أخرى. تحمل رؤية الدوقة حزينة بسبب خطأ ارتكبه.

وجدها، لدى وصوله، صامتة وكئيبة. عذب الندم وصيفتها شكينا التي أدركت جسامة خطئها من ضخامة المبلغ الذي كانت تلقته للقيام به: فمرضت. ذات مساء، صعدت الدوقة التي كانت تحبها، إلى غرفتها. لم تتمكن الفتاة مقاومة علاقة العطف هذه، فأجهشت بالبكاء وأرادت أن تعطي سيدتها ما تبقّى من المال الذي كانت تلقته. وأخيراً تجرأت واعترفت لها بالأسئلة التي وجهها إليها الكونت وأجوبتها. ركضت الدوقة نحو المصباح، وأطفأته، ثم قالت لشكينا أنها تغفر لها شرط ألا تبوح بكلمة عن هذا المشهد الغريب. وأضافت بخفة: الكونت المسكـين يخشى السخرية؛ جميع الرجال هكذا.

أسرعت الدوقـة ونزلت إلى مقصـورتها. ومـا أصبحت في

غرفتها حتى أجهشت بالبكاء؛ كانت تجد، أن فكرة ممارسة الحب مع فابريس الذي شهدت ولادته، أمر رهيب، لكن ماذا يعني سلوكها؛ كان هذا سبب كآبتها المتشائمة الأول، وجدها الكونت غارقة فيها؛ لدى وصوله، حدثت لها نـوبات تبـرّم به وحتى بفابريس. كانت تريد ألّا تراهما أبداً؛ كانت متكدّرة من الدور المضحك الذي يمثله فابريس مع ماريتيـا؛ لأن الكونت كـان أخبرها كعاشق حقيقي لا يستطيع أن يحتفظ بسر لنفسه. لم تكن تقدر أن تعتاد على تحمّل هذه المصيبة: معبودها تعتوره نقيصة؛ وأخيراً في لحظة صداقة حقيقية طلبت نصيحة الكونت. كان هذا وقتاً رائعاً ومكافأة حلوة للبادرة الطيبة التي أظهرها برجوعه إلى بارما.

قال الكونت وهو يضحك: ليس أسهل من هذا!! الشباب يرغبون في رؤية كل النساء، وفي اليوم التالي لا يعودون يفكرون بهن. ألا يجب أن يـذهب إلى بلجيرات لـرؤية السيـدة دل دونغو؟؟ إذاً. ليذهب. أثناء غيابه، سأطلب من الفرقة الهزلية، أن تنقل عرض مهاراتها إلى غير هذا المكان، وسأدفع لها أكلاف الطريق، ولكن سريعاً ما سنـراه مغرمـاً، بأول امـرأة جميلة ستضعها الصدفة على طريقه. هذا أمر عادي، ولا أريد أن أراه خلاف ذلك، إذا كان من الضروري، اجعلي المركيزة تكتب له.

هذه الفكرة طرحت بعدم اهتمام كامل، كانت شعاع النور

للدوقة. كانت تخاف جيليتي. في المساء، أعلن الكونت كما بالصدفة عن عربة تذهب إلى فيينا مروراً بميلانو: ثلاثة أيام بعد ذلك تلقى فابريس رسالة من والدته. ذهب حانقاً جداً: لم يتمكن حتى الآن، بسبب غيرة جيلتي، أن يفيد من النوايا الطيبة التي أكدتها ماريبتا بواسطة امرأة عجوز كانت تقوم مقام أمها.

وجد فابريس أمه وإحدى شقيقتيه في بلجيرات، قرية بييمونتية كبرى، على ضفة بحيرة ماجور اليمنى؟ فالضفة اليسرى هي للميلانيين وبالتالي للنمسويين. تقع هذه البحيرة في موازاة بحيرة كوم وتتجه من الشمال إلى الجنوب، عشرين فرسخاً أبعد إلى الغرب. هواء الجبال والمشهد المهيب والهادىء لهذه البحيرة الرائعة، كانت تذكره بالمشهد الذي كان قضى بجانبه طفولته، كل شيء أسهم في تبديل غمّ فابريس القريب من الغضب، إلى كآبة لطيفة. تذكر الدوقة بحنان، كان يشعر من بعيد بحب لم يشعر بمثله أبداً نحو أية امرأة أخرى.

لم يكن أشد إيلاماً من أن ينفصل عنها نهائياً. وفي مثل هذه الحالة لو أن الدوقة تنازلت واستعانت بأقل حركة دلال كأن تواجهه مثلاً بخصم، لكانت احتلّت هذا القلب. ولكن بدلاً من أن تعتمد هذا الحل الفاصل، كانت تجد فكرها متعلقاً دائماً بخطى المسافر الشاب، إنما لا بدون أن تأخذ نفسها باللوم

الشديد. كانت تؤاخذ نفسها على ما كانت تسميه نزوة، كما لو كانت أمراً فظيعاً؛ ضاعفت رعايتها ومجاملتها للكونت الذي لم يكن يستمع إلى صوت العقل السليم يفرض عليه أن يقوم برحلة ثانية إلى بولونيا، وهو افتتن بهذا القدر من الرقة.

لم تتفرغ المركيزة دل دونغو سوى ثلاثة أيام لابنها الحبيب، لضيق الوقت إذ كانت مزمعة على عقد قران ابنتها البكر إلى دوق ميلاني لم تعهد فيه أبداً من قبل صداقة لطيفة بهذا القدر وسط هذه الكآبة التي تستولي أكثر فأكثر على نفس فابريس. بل خطرت له فكرة غريبة بل مضحكة، جعلته يتعلّق بها فجأة: أن يستشير الأب بلانيس؟ هذا الشيخ الطيب الذي كان عاجزاً تماماً أن يفهم غم قلب تتنازعه أهواء سخيفة ومتساوية تقريباً بقوتها. ومن ناحية أخرى، لكان احتاج إلى ثمانية أيام لكي يتبين المصالح التي كان على فابريس أن يهتم بها في بارما، ولكن فابريس استعاد نضارة مشاعر الستة عشر عاماً، بمجرد تفكيره باستشارة الأب بلانيس. معقول؟ لم يكن فابريس يريد أن يكلمه كرجل حكيم أو صديق مخلص تمام الإخلاص. إن هدف هذه الجولة والعواطف التي أثارت بطلنا خلال الخمسين ساعة التي استغرقتها، حمقاء وفي صالح الرواية من الأفضل الاستغناء عنها. أخشى أن تحرم سذاجة فابريس محبته من القارىء. ولكن ما العمل، هكذا جرت الأمور. فلماذا مدحه: دون سواه؟ إني لم أمدح الكونت موسكا ولا الأمير.

قاد فابريس، والدته حتى مرفأ لافينو على ضفة بحيرة ماجور الشمالية، وهي ضفة نمسوية، حيث وصلت نحو الثامنة مساء. (تعتبر البحيرة بلداً محايداً فلا يطلب جواز مرور من الذين لا ينزلون إلى اليابسة). ولكن ما إن حلّ الليل حتى طلب فابريس أن ينزل على الضفة النمسوية نفسها وسط غابة صغيرة، تتقدّم في المياه. استأجر سيديولا، (نوعاً من التلبرية، وهي مركبة حقلية سريعة)، وتمكن بواسطتها أن يتبع عربة والدته، على خمسماية خطوة، متنكراً بثياب خادم قصر دل دونغو، ولم يخطر ببال أحد من رجال الشرطة أو الجمارك العديدين، أن يطلب منه جواز سفره. وعلى ربع فرسخ من كوم، حيث كان على المركيزة وابنتها أن تتوقفا، لقضاء الليل، تبع سبيلاً إلى الشمال، يلتف حول ضاحية فيكو ليتصل بطريق صغيرة انشئت حديثاً على الطرف الأقصى للبحيرة. كان الليل انتصف، وفابريس يأمل ألا يصادف أيّ دركي. أشجار اضمامات الغابة تخترقها الطريق في كل لحظة، وترتسم دائرة أوراقها السوداء على سماء مليئة بالنجوم ولكنها محجوبة بضباب خفيف. كانت السماء والمياه هادئتين هدوءاً عميقاً؟ لم تتمكن نفس فابريس أن تقاوم هذا الجمال المهيب؟ فتوقّف ثم جلس على صخرة تتقدم في مياه البحيرة مؤلفة رعناً صغيراً. لم يكن يعكر الصمت الشامل، في فترات سوى مويجة البحيرة تأتي لتتنازع على الرملة. كان لفابريس قلب ايطالي؛ اني اطلب المعذرة مكانه: هذه النقيصة

ستجعله أقل لطفاً، وهي عبارة عما يلي: لم يكن يتولّى الغرور عليه إلا عرضاً، ومظهـر الجمالي السـامي يحمله على الحنـان ويخفف الجانب العنيف والقاسي من غمّه. جالس على صخرته المعزولة، لم يعد عليه أن يحترس من رجال الشرطة، وبحماية الليل العميق والصمت الفسيح بلّلت الـدموع عينيـه، ووجد هنا، بقليلٍ من الجهد، اللحظات الأكثر سعادة في حياته.

قرّر ألاّ يكذب أبداً بما يقوله للدوقة، ولأنه يحبها حتى العبادة في هذه اللحظة، أقسم ألا يبوح لها أبداً بأنه يحبها؛ لن يتلفظ قط بكلمة حب وهو بجانبها، إذ إن العـاطفة التي تدعى بهذا الاسم غريبة عن قلبه. وبتأثير هوس السخـاء والفضيلة التي تسبب سعادته في هذه اللحظة، اتخذ قراراً بأن يقول لها في أول مناسبة: قلبه لم يعرف الحب أبداً. وما اعتمد هذا الحل الشجاع حتى شعر وكأنه تخلص من ثقل عظيم. قد تقول لي ربما بعض الكلمات عن مارييتا: إذن سوف لن أرى أبداً مارييتا الصغيرة هذه، أجاب نفسه بنفسه بحبور.

بدأ نسيم الصباح يلطّف من الحرارة المرهقة خيمت خلال النهار. وبزغ الفجر بخيوط بيضاء ضعيفة فوق قمم جبال الألب إلى شمالي بحيرة كوم وشرقيّها. تبيّض كتلها الثلوج حتى في حزيران وترتسم على صفاء لازوردية سماء دائماً نقية في مثل هذه الأعالي الشاسعة. يتقدم فرع من الألب نحو الجنـوب، نحو

ايطاليا السعيدة ليفصل سفوح بحيرة كوم عن سفوح بحيرة غارد. كان فابريس يتبع بنظره جميع فروع هذه الجبال الشامخة، بينما الفجر يصفو ويشير إلى الوديان التي تفصل بينها، بإنارة الضباب الخفيف يرتفع من أعماق الخوانق الجبلية.

منذ بعض اللحظات عاود فابريس السير؛ اجتاز التلة التي تكون شبه جزيرة دوريني، وأخيراً بدت له هذه القبة لقرية غريانتا، حيث كان مارس غالباً مراقبة النجوم مع الأب بلانيس. كم كان جهلي بالغاً في ذلك الوقت! لم يكن باستطاعتي أن أفهم، كان يقول، حتى اللاتيني المضحك لهذه المؤلفات في علم الفلك يتصفحها أستاذي، وأعتقد أني كنت أحترمها، خاصة لأنني لم أكن أفهم سوى بعض الكلمات من هنا وهناك، حيث كانت مخيّلتي تتكلف بإعطائها المعنى الأكثر وهمية.

اتخذت هواجسه شيئاً فشيئاً مسرى آخر. هل من حقيقة في هذا العلم؟ لماذا هو مختلف عن العلوم الأخرى؟ عدد من الأغبياء والناس المهرة يتفوقون بينهم إنهم يعرفون اللغة المكسيكية مثلاً؛ ويفرضون أنفسهم بهذه الصفة على المجتمع الذي يحترمهم وعلى الحكومات التي تدفع لهم. يثقلونهم بالانعامات لأنهم لا يتمتعون بالعقل والسلطة لا تخشى أن يثيروا الشعوب ويهيجوها عن طريق العواطف الكريمة. مثلاً، الأب باري، أعطاه أرنست الرابع، أربعة آلاف فرنك كمرتب ووسام الصليب من رتبته،

لأنه صوّب تسع عشرة بيت شعر من قصيدة مدح إغريقية.

ولكن، يا إلهي! أيحق لي أن أجد هذه الأشياء مضحكة. قال في نفسه فجأة، هل علي أنا، أن أتذمّر؟، ألم يعط هذا الوسام عينه إلى مدربي في نابولي؟ أشعر فابريس بانزعاج عميق. حماس الفضيلة الذي جعل قلبه يخفق في السابق، أخذ يتحوّل إلى لذة سافلة بالحصول على حصة لا بأس بها من سرقة. إذن، قال في نفسه بعينين باهتتين، لإنسان مستاء من نفسه، بما أن ولادتي تخوّلني حق الافادة من هذه التجاوزات، سأخدع نفسي خداعاً عظيماً بعدم أخذ حصتي، ولكن يجب التحفظ في عدم التكلم بالسوء على هذه المفاسد علناً؛ لم تكن الصحة تنقص هـذا التفكير؛ كان فابريس هوى من رفعة السعادة المهيبة وجد نفسه منقولاً إليها ساعة قبل ذلك. أيبست فكرة هذا الامتياز، تلك النبتة الدائمة الهزال التي تدعى السعادة.

إذا كان يجب الكفر بعلم النجوم، أردف وهو يتشاغل، وإذا كـان هـذا العلم الثـلاثـة أربـاع العلوم التي لا عـلاقـة لهـا بالرياضيات فإن جماعة من المتحمسين الأغبياء والخبثاء المهرة، يقبضون من مستخدميهم. فمن أين لي أن أفكر وغالباً بتأثر بالغ بهذا الظرف المشؤوم؟ خرجت بالأمس من سجن *** ولكن بثوب وخطة سير يخصان جندياً رمي في السجن لأسباب عادلة.

لم يتمكن تفكير فابريس أن يذهب إلى أبعد، كان يدور بمئة

طريقة حول الصعوبة، دون أن يتمكّن من التغلب عليها. كان لا يزال شديد الفتوة، وكان يهتمّ بشغف. في أوقات الفراغ، بتذوق الأحاسيس التي تولّدها الظروف الوهمية كانت مخيلته مستعدة دائماً لتوفرها له. كان أبعد ما يكون، عن النظر في خصائص الأشياء ليكتشف في ما بعد أسبابها.

كان يبدو له الواقع تافهاً وكريهاً. أدرك أن الإنسان لا يحب النظر إليه ولكن لا يجب التناقش في هذه الحال حوله. يجب خاصة عدم تقديم الاعتراضات بمختلف وجوه هذا الواقع.

هكذا، دون أن يفوته العقل، لم يتمكن فابريس من أن يبصر سوى نصف إيمانه بالنبوءات التي كانت له ديانة وعقيدة تلقاهما لدى دخوله الحياة. التفكير بهذا الايمان، كان له بمثابة الشعور وبهذا كانت سعادته. وكان يتشبث بالتفتيش، كيف يمكن أن يكون علماً حقيقياً كالهندسة مثلاً. كان يبحث بحرارة في ذاكرته عن كل الظروف التي لاحظها بنفسه ولم تتبع بالحدث السعيد أو التعيس التي كان يبدو أنها تعلن عنه. ولكن مع اعتقاده باتباع استدلال ما، والسير في طريق الحقيقة، كان انتباهه يتوقف بسعادة، عند ذكرى الحالات التي كانت النبوة فيها تتبع، برحابة، الحدث السعيد أو التعيس الذي تتنبأ عنه. داخل نفسه الاحترام والحنان. ولكان شعر بالنفور الشديد تجاه الشخص الذي ينفي وجود النبوة وخاصة لو تكلم عليها بسخرية.

كان فابريس يسير دون أن يتنبّه للمسافات. كان وصل إلى هذه النقطة في استدلالاته العاجزة. وإذ هو يرفع رأسه رأى، من بستان والده، الجدار الكان يسند شرفة جميلة، ويرتفع أكثر من أربعين بين حجارة البناء في الأعلى، بالقرب من الحاجز المفرع، تعطيه شكلاً فخماً. قال فابريس لنفسه ببرودة، هذا ليس شيئاً. فن معماري أصيل من الطراز الروماني تقريباً؛ كان يطبق معلوماته الحديثة في علم الآثار. ثم أدار رأسه بقرف؛ تذكر معاملة والده القاسية وخاصة وشاية شقيقه اسكانيي لدى عودته من رحلته إلى فرنسا.

كانت هذه الوشاية بداية حياتي الحاضرة، أكرهها، احتقرها، ولكنها في النهاية غيرت قدري. ماذا كان اصابني، مبعداً إلى نوفار لا يطيق وجودي رجل أعمال أبي، لو أن عمتي لم تعشق وزيراً نافذاً؟ لو أن هذه القمة كانت قاسية وعادية ولا تمتلك هذه الروح الحنون المتقدة والتي تحبني بحماس يذهلني. أين كنت الآن لو أن الدوقة كان لها روح أخيها المركيز دل دونغو؟

لم يكن فابريس يسير إلا بخطوات مرتابة، مثقلاً بهذه الذكريات الطاغية. وصل حافة الحفرة، تجاه واجهة القصر الفخّمة. ألقى بالكاد نظرة على هذا البناء الّذي سوّده الزمن. وجدته لغة الفن المعماري غريباً عنها. ذكر أخيه ووالده أعمى قلبه عن كل شعور بالجمال. لم يكن متنبها إلا أن يكون دائماً

على حذر بوجود أعداء خبثاء وخطرين. تطلّع، لحظة، بقرف ظاهر، إلى نافذة الغرفة التي كان يسكنها قبل ١٨١٥، في الطابق الثالث. نزعت اخلاق والده سحر ذكريات الطفـولة الأولى. وفكرّ: لم أدخل قصر والدي منذ ٨ آذار الثامنة مساء. خرجت منه لأذهب وآخذ جواز سفر فازي، وفي اليوم التالي، جعلني خوف الجواسيس أعجـل في ذهابي. عندما مررت ثانية، بعد عودتي من فرنسا، لم يسمح لي الوقت، بالصعود إليه حتى لأرى صوري، وذلك بسبب وشاية شقيقي.

أدار فابريس وجهه بهلع. بلغ عمر الأب بلانيس أكثر من ثمانين. قال في نفسه باكتئاب: لم يعد يأتي إلى القصر تقريباً، حسب ما أخبرتني شقيقتي. جمّد العمر هذا القلب الذي على قدر كبير من الثبات والنبل. الله يعلم منذ كم من الوقت، لم يذهب إلى كنيسته. ساختبىء في مخزن المؤن وتحت الادنـان، تحت المعصرة حتى وقت نهوضه؛ لن أعكر نوم العجوز الطيب؛ قد يكون نسي تقاطيع وجهي! ست سنوات تبدل كثيراً في مثل هذا العمر؛ لن أجد سوى ضريح صديق! وأضاف: أنه حقاً لتصرف صبياني المجيء إلى هنا، لأواجه القرف الذي يثيره في نفسي قصر والدي.

دخل فابريس إلى الباحة الصغيرة للكنيسة. فإذا بـه يرى بدهشة حتى الهذيان، النافذة الضيقة، في الطابق الثاني من القبة

القديمة مضاءة بمصباح الأب بلانيس الصغير. اعتاد الأب بلانيس، أن يضعه وهو صاعد إلى قفص الألواح الذي يؤلف مرصده، حتى لا يمنعه النور من قراءة خريطة السماء. كانت هذه الخريطة، ممدّدة على إناء كبير من الفخار مَلَكه في الماضي بائع برتقال القصر. في الفتحة، في قعر الإناء كان مضاءً أصغر المصابيح. يقود دخانه إلى الخارج قسطل من الصفيح، وكان ظلّ الأنبوب يدل على الشمال، في الخريطة. ذكريات هذه الأشياء البسيطة، غمرت نفس فابريس بالانفعالات وملأته بالسعادة.

دون أن يفكّر كثيراً، صَفَر بيديه الاثنين، صفرة صفيرة خفيضة وقصيرة، كانت في الماضي أشارة دخوله. يسمع في الحال جذب حبل، لمرات متواليه، فتحت مزلاج الباب. من أعلى المرصد. اندفع على الدرج متأثراً حتى الهيجان؛ وجد الأب على مقعده الخشبي في مكانه المعتاد؛ كانت عينه مثبته على المنظار الصغير باتجاه ربع دائرة جدارية. أشار إليه بيده اليسرى ألا يقاطعه في مراقبته؛ لحظة بعد ذلك، كتب رقماً على ورقة لعب، ثم استدار على مقعدة، وبسط ذراعيه لبطلنا الذي ارتمى بينهما مجهشاً بالبكاء. كان الأب بلانيس والده الحقيقي.

ـ كنت انتظرك، قال بلانيس، بعد كلمات المكاشفة والحَنان الأولى. الأب يقوم بمهنته كعالم؛ وبما أنه كان يفكر غالباً بفابريس، هل أنبأته إشارة تنجيمية، بمحض الصدفة، عن عودته؟

ـ هذه ساعة موتي أزفَت، قال الأب بلانيس.

ـ كيف؟ صاح فابريس متأثراً.

ـ نعم، أردف الأب، بلهجة رصينة، ولكن غير حزينة، خمسة أشهر ونصف أو ستة أشهر ونصف، بعد أن أكون رايتك، ستنطفيء حياتي، بعدما تكون وجدت تتمة هنائها.

(كالمصباح الصغير ينفد زيته). قبل لحظة الموت، ساقضي شهراً أو اثنين دون أن أتكلم، وبعدها سأُستقبل في أحضان أبينا إذ وجد أني أتممت واجبي حيث جعلني خفيراً.

أنت مرهق بالتعب، وتأثرك يعدّك للنوم. منذ انتظاري لك، خبّأتُ رغيفاً وزجاجة مشروب في صندوق أدواتي الكبير. تناولها وجزب أن تستمد منها قوة كافية لتصغي إليّ بعض لحظات أخرى. في مقدوري أن أقول لك عدة أشياء قبل أن يخلف النهار الليل تماماً؛ أراها الآن بوضوح أفضل ربما مما سأراها غداً، إذا أننا، يا ولدي، دائماً ضعفاء، ويجب ألا نسقط هذا الضعف من حسابنا. غداً، ربما الرجل العجوز، الرجل الأرضي فيّ، سيكون مأخوذاً بالاستعداد للموت. ومساء غد، عند التاسعة، يجب أن تتركني.

أطاعه فابريس بصمت، كما عادته.

ـ إذن، أردف العجوز، حين حاولت أن تشهد واترلو، لم تجد

في باديء الأمر سوى السجن.

ـ نعم، يا أبتِ، أجاب فابريس مندهشاً.

ـ إذن كانت سعادة نادرة، إذ تمّ تنبيهك بصوتي، فلتستعد لسجن آخر أكثر قساوة بكثير وأشد هولاً! وعلى الأرجح، لن تخرج منه إلا عن طريق جريمة، لن ترتكبها أنت. لا تستسلم أبداً للجريمة مهما كانت التجربة قوية؛ إن الأمر يتعلق بقتل بريء يغتصب حقوقك، دون أن يدري؟ إذا قاومت عنف التجربة التي ستبدو مبرّرة بقوانين الشرف، ستكون حياتك سعيدة في نظر البشر... وأضاف بعد لحظة تفكير سعيدة في عيني الحكيم؛ ستموت مثلي، يا بني، جالساً على مقعد خشب بعيداً عن كل ترف وغير مغشوش بالبذخ. ولن يكون عليك أن تنمو باللائمة على نفسك بسبب أي خطأ خطير ارتكبته.

الآن، إنتهت أمور الحالة المستقبلية، ولن أتمكن من أن أضيف شيئاً ذا أهمية. جرّبت عبثاً أن أرى مدّة هذا السجن؛ هل الأمر يتعلق بستة أشهر بسنة بعشرة أعوام؛ فلم أتمكن من أن أكتشف شيئاً. ارتكبت ظاهرياً خطأ. وأرادت السماء أن تعاقبني بغمّ هذا الارتياب. رأيت فقط بعد السجن، ولكن لا أعرف إذا كان في لحظة الخروج ذاتها سيحدث ما أدعوه جريمة، ولكن لحسن الحظ، لن ترتكب على يديك. إذا انغمست عن ضعف، في هذه الجريمة، فكل حساباتي خطأ كبير. عندئذ لن

تموت بسلام النفس على مقعد خشبي، مرتدياً الثياب البيضاء. أراد الأب بـلانيس أن ينهض عن كرسيه وهـو يتلفظ بهـذه الكلمات. تنبّه عندئذ فابريس إلى علائم الشيخوخة؛ لزم له دقيقة تقريباً ليقف ويلتفت إلى فابريس. تركه هذا الأخير يفعل وهو جامدٌ صامت. ارتمى الكاهن بين يديه مـرات متواليـة: فضمه بمنتهى الحنان. وبعدئذ أردف بكل البهجة التي كان يتمتع بها في السابق: جرّب أن تتدبر أمركَ وسط أدواتي لتنام براحة. تجد عدة معاطف فرو قيّمة أرسلتها لي الدوقة سنسفرينا منذ أربع سنوات، اختر لـك واحداً منهـا. طلبَتْ مني نبوءة حـولك، فاحترستُ في أن أرسلها لها، وأنا محتفظ بمعاطفها الفرو وربع دائرتها الجميل. كل تكهن عن المستقبل خرق للعادة، والخطر فيه أنه قد يبدّل الحدث. ويتداعى في هذه الحالة، العلم بكامله كلعبة طفل؛ أضف إلى ذلك، أنه كان توبيخ يجب أن يوجه إلى هذه الدوقة التي لا تزال على قسط من الجمال. بالمناسبة لا تخف في أثناء نومك من الأجراس التي ستحدث ضجة فظيعة بالقرب من أذنيك، عندما ستقرع قداس السابعة؛ بعدها، سيقرعون، في الطابق السفلي، الجرس الكبير الذي سيجعل جميع أدواتي تهتز. اليوم عيد القديس جيوفيتا، الجندي والشهيد. أنت تعرف أن شفيع قرية غرينتا، القرية الصغيرة هو نفسه شفيع مدينة بريسيا، المدينة الكبيرة. وهذا ما غشّ بطريقة طريفـة استاذي الشهير جاك ماريني دي رافين. قال لي عداة مرات، انني سوف

أنجح في السلك الكهنوتي، معتقداً أني سأصبح كاهن كنيسة سان جيوفيتا الفخمة، في بريسيا، فأصبحتُ كاهن قرية تعد سبعماية وخمسين بيتاً! ولكن كل شيء كان في سبيل الأفضل. رأيت، منذ أقل من عشر سنوات، أني لو أصبحت كاهناً في بريسيا، لكان مصيري في سجن. على واحدة من تلال مورافيا، في سبيلبرغ. سأجلب لك غداً أنواعاً مختلفة من المآكل اللذيذة المسروقة عن وليمة العشاء الكبرى التي أقيمها لجميع كهنة الجوار يأتون لخدمة القداس الكبير. سأجلبها إلى الطابق السفلي. لا تجرِّب أن تراني. ولا تنزل لتأخذ كل هذه الأشياء الطيبة إلا عندما تراني خرجت. لا تجرب رؤيتي خلال النهار. الشمس ستغيب غداً في السابعة وسبع وعشرين دقيقة. لن آتي لأقبّلك إلا في نحو الثامنة. يجب أن تذهب بينما تعد الساعات بالتسعة أي قبل الساعة العاشرة. إنتبه أن يراك أحد في نوافذ القبة: أوصافك موجودة مع الدرك وهم نوعاً، تحت إمرة أخيك الطاغية. وأضاف بلانيس بكآبة: المركيز دل دونغو يضعف، فإذا ما رآك ثانية سيعطيك ربما شيئاً يداً بيد. ولكن أمثال هذه المكاسب المشوبة بالغش، لا تناسب أبداً رجلاً مثلك، لأن قوته ستكون يوماً في ضميره. يكره المركيز ابنه اسكانيي ولهذا الابن تعود الخمسة أو الستة الملايين التي يملكها. هذا عدل. سيكون لك أنت، عند وفاته، مرتّب أربعة الآف فرنك وخمسون ذراعاً من القماش الأسود لحداد خدمكم.

٩

كانت نفس فابريس مهتاجة من كلمات العجوز ومن الانتباه والتعب الشديد. نام بصعوبة نوماً تقلقه الأحلام، دليل المستقبل ربما؛ في الصباح، عند العاشرة، أيقظه اهتزاز القبة بكاملها وضجة مخيفة من الخارج، نهض مضطرباً وظنّ نفسه في نهاية العالم، ثم اعتقد أنه في السجن. ولزمه بعض الوقت ليتعرّف على رنين الجرس الكبير يحركه أربعون مزارعاً على شرف القديس جيوفيتا الكبير، ولكان عشرة منهم يكفون.

فتش فابريس عن مكان مناسب ليَرَى دون أن يُرى، ولاحظ أن بصره ينحدر، من هذا العلو الشاهق، على الجنائن وحتى على الباحة الداخلية لقصر والده. كان نسيه. كانت فكرة هذا الأب الذي وصل إلى نهاية العمر، تبدل كل عواطفه. كان يميز حتى عصافير الدوري تفتش عن بعض فتات الخبز على شرفة غرفة الطعام الكبرى، قال في نفسه أنها حفيدة عصافير الماضي التي دجّنتها. وكانت هذه الشرفة كجميع شرفات القصر الباقية، مثقلة بعدد كبير من أشجار البرتقال، في أوان فخارية حجمها متوسّط. حرّك هذا المنظر عواطفه. مظهر الباحة الداخلية، مزيّنه هكذا مع ظلالها المتباينة تماماً والواضحة تحت أشعة الشمس الساطعة، كان حقاً منظراً مهيباً.

وكان سقم والد فابريس يعود إلى ذهنه. ويقول في نفسه:

أمر غريب. أبي لا يزيدني سوى خمس وثلاثين سنة؛ خمس وثلاثون زائد ثلاث وعشرون لا تساوي سوى ثمان وخمسين! عيناه مثبتتان على نوافذ غرفة هذا الرجل الصارم، الذي لم يحظ أبداً بمحبته، فأغرورقتا بالدموع. إرتجف وسرى برد مفاجيء في عروقه عندما خيل إليه أنه يرى والده يجتاز شرفة مزينة بأشجار البرتقال على مستوى واحد مع غرفته، ولكنه لم يكن سوى خادم. تحت القبة تماماً يتوزع جمهور من الفتيات، بالثياب البيضاء، إلى عدة مجموعات؟ كنّ منشغلات بوضع رسوم على أرض الشارع حيث سيمرّ الزياح، تتداخل فيها الأزهار الحمراء والزرقاء والصفراء. ولكن كان مشهد حرّك مشاعر فابريس بعمق: من القبة يغوص نظره نحو فرعي البحيرة على عدة فراسخ، وهذا المنظر المهيب أنساه كل ما عداه. ايقظ فيه أسمى العواطف. برزت جميع ذكريات طفولته أفواجاً تحاصر فكره: وهذا اليوم الذي قضاه مسجوناً في القبة، ربما كان واحداً من أسعد أيام حياته. حملته السعادة إلى سمو التفكير الغريب. كان يعتبر أحداث الحياة، هو الشاب، كما لو أنه وصل منذ الآن إلى حدوده الأخيرة... منذ وصولي إلى بارما، بعد ساعات من الأحلام الرائعة، لم أتمتّع بسرور هادىء لا تشوبه شائبة، كالذي كنت أجده في نابولي وأنا أعدو ممتطياً جواداً على طرقات فوميرا أو أركض على ضفاف ميزين. جميع المصالح المعقدة، في هذا البلاط الصغير الشرير، جعلتني شريراً... لا يسعدني أن أكره،

وأعتقد أنها ستكون سعادة حزينة أن أُذِلّ أعدائي لو كان لي أعداء... ولكن ليس لي أعداء... قف! قال فجأة لنفسه: عندي عدوّ واحد في شخص جيليتي... هذا أمر طريف! اللذة التي أشعر بها بأن أرى هذا الرجل القبيح جداً، في مهلك، بعد الميل الخفيف الذي كنت أكنه لماريتا. إنها لا تساوي، عن قريب أو بعيد، دوقة أ*** التي كنت مجبراً على حبها في نابولي. بما أني قلت لها إني مغرم بها. يا إلهي! كم مرة كنت أشعر بالسأم أثناء اللقاءات الطويلة تمنحني إياها هذه الدوقة الجميلة. لم أجد أبداً مثيلاً لهذا في الغرفة الخربة التي كانت ماريتا تستعملها كمطبخ حيث استقبلتني مرتين، كل مرة لدقيقتين فقط.

آه! يا إلهي! ماذا يأكل هؤلاء الناس؟ الأمر مثير للشفقة! كان يتوجب علي أن أخص راتب ثلاث قطع من اللحم كل يوم، لها، ولمن تقوم مقام أمها، وأضاف، أن ماريتا الصغيرة. كانت تبعد عني الأفكار الشريرة التي كان يوحي بها إليّ جدار البلاط.

كنت أحسنت فعلاً باتباع حياة المقاهي كما تقول الدوقة؛ كأنها تميل إلى هذه الناحية، وتتحلّى بعبقرية أفضل من عبقريتي. وبفضل حسناتها، أو فقط بهذا الراتب من أربعة الآف فرنك، وهذا الاعتماد الدائم من أربعين ألف فرنك في ليون، خصته والدتي بي، سأملك دائماً جواداً وبعض الريالات لإجراء حفريات

وتأسيس مكتب، إذ لن أعرف الحب أبداً، وستكون هذه لي ينابيع عظيمة للغبطة، أتمنى قبل موتي، أن أذهب ثانية إلى ساحة معركة واترلو، والسعي للتعرف إلى المرج حيث أنزلت بمرح عن جوادي، وأجلست على الأرض. عندما أتمّم هذا الحج، سأعود غالباً إلى هذه البحيرة المهيبة! لا يمكن للإنسان أن يرى مشهداً أجمل في العالم، على الأقل بما يخصّني. لماذا الذهاب بعيداً للتفتيش عن السعادة؛ إنها هنا أمامي.

آه! قال فابريس معترضاً، الشرطة تطردني من بحيرة كوم، ولكني أشد فتوة من الذين يوجهون حملات هذه الشرطة، وهنا، أضاف ضاحكاً، لن أجد قط دوقة أ * * * بل واحدة من تلك الصبايا اللواتي يرتبن الأزهار على الحضيض. سأحبها بالزخم نفسه: يخيفني الرياء في الحب، وسيداتنا يطمحن إلى نيل نتائج باهرة. أعطاهن نابوليون أفكار آداب وثبات.

يا للشيطان! قال في نفسه فجأة، وهو يبعد رأسه عن النافذة، كما لو أنه خشي أنكشافه، بالرغم من ظلّ حصيرة النافذة الخشبية الضخمة كانت تحمي الأجراس من المطر، دخل رجال الدرك ببزاتهم الرسمية. ظهر، فعلاً، في أعلى شارع القرية عشرة رجال درك، منهم أربعة ضباط صف. كان الرقيب يوزعهم كل مائة خطوة، على طول الطريق التي سيتبعها الموكب. الجميع يعرفونني هنا. إذا رأوني، سأصل بخطوة من

بحيرة كوم إلى سبيلبرغ، حيث سيعلّقون في كـل من ساقي سلسلة وزنها مائة وعشر ليبرات: وأي عذاب ستعانية الدوقة!

احتاج فابريس دقيقتين أو ثلاثة كي يتذكر أنه أولاً في مكان يعلو ثمانين قدماً، وأنه مظلم بالنسبة لسواه، وإن أعين الناس الذين قد ينظرون إليه تعيقهم شمس ساطعة، وإنهم أخيراً كانوا يتنزهون وهم يحملقون في شوارع بيّضت جدران بيوتها، منذ فترة وجيزة، على شرف عيد القديس جيـوفيتا. وبـالرغم من تفكيره ذهنية فابريس الإيطالية كانت عاجزة عن أن تتذوق أية لذة، لو أنه لم يضع بينه وبين رجال الدرك قطعة قماش قديمة سمّرها على النافذة وفتح فيها ثغرتين صغيرتين لعينيه.

تتجاوب أصوات الأجراس فيترنح لها الهواء منذ عشر دقائق. كان الموكب يخرج من الكنيسة، فارتفعت أصوات الهواوين. أدار فابريس رأسه، فتعرّف إلى هذا الفناء المزود بحاجز، ويشرف على البحيرة، وحيث عـرّض نفسه غـالباً، لأن يـرى طلقات الهواوين تمر بين ساقيه، مما جعل والدته تبقيه حدّها صباحات أيام الأعياد.

الهاون صغير ليس سوى استون بندقية نشر بطريقة لا يبقى منه سوى أربع بوصات. ولهذا يجمع المزارعون، برغبة، أنابيب البنادق التي نثرتها السياسـة الأوروبية بغـزارة منذ ١٧٩٦ في سهول لومبارديا. وعندما يصبح طول الاستون أربع بـوصات

تلقم هذه المدافع الصغيرة حتى فوهتها، وتوضع على الحضيض في وضع عمودي، ويمتدّ نثار بارود من واحد إلى آخر، ترتب على ثلاث صفوف ككتيبة، أفرادها من مائتين إلى ثلاثمائة، في موضع مجاور للمكان الذي سيمرّ به الموكب. عندما يقترب القربان المقدس يشعل نثار البارود، فتمتد النار وتسمع بالتتابع طلقات سريعة، هي الأكثر تفاوتاً وعدم انتظام في العالم والأكثر أثارة للسخرية؛ تنتشي النسوة سروراً. فليس أدعى إلى الجذل، كضجة هذه الهواوين من بعيد على البحيرة، ملطفة بتمايل المياه؛ وهو الصوت الذي غالباً ما سبّب سرور طفولته، وطرد الأفكار المفرطة تحاصره. ذهب وجلب المنظار الفلكي الكبير الذي للأب بلانيس، وتعرّف إلى معظم الرجال والنساء في الموكب. كثير من الفتيات الجميلات اللواتي تركهن فابريس بعمر الأحد عشر أو الإثني عشر عاماً، أصبحن الآن نساء رائعات في أوج شبابهن؛ ولّدن الجرأة في بطلنا، لكي يتحدث معهن، متصدّياً لرجال الدرك.

مرّ الزياح ودخل الناس الكنيسة من باب جانبي، لم يكن بإمكان فابريس أن يراه. وأصبحت الحرارة لا تطاق في أعلى القبة. عاد السكان إلى منازلهم وساد الصمت في القرية. امتلأت مراكب بالمزارعين، العائدين إلى بلاجيو ومناغجيو وغيرها من القرى على البحيرة. وكان فابريس يميز كل ضربة مجذاف: هذا التفصيل البسيط يسحر قلبه؛ كان سروره الحالي مجموعاً من

كل الشقاء ومن كل الشدة التي يجدها في مسار حياة البلاط المعقدة. كم كانت سعادته، في هذا الوقت، لو استطاع اجتياز فرسخ واحد على هذه البحيره الهادئة تعكس، بصفاء، أغوار السماء! سمع باب القبة في الأسفل يفتح: إنها خادمة الأب بلانيس المسنة تجلب سلة كبرى. إمتنع بجهد كلي أن يوجه الكلام إليها. كان يقول في نفسه: هي تكنّ لي من الصداقة قدر ما يكن لي سيدها. ومن ناحية أخرى، إني ذاهب هذا المساء في التاسعة. ألن تحفظ السر الذّي أقسمت على حفظه لبضع ساعات فقط؟ ولكن، قال فابريس، سأزعج صديقي! وقد أعرّضه للشبهة لدى الدرك. وترك جيتا تذهب دون أن يحدّثها. تناول فطوراً فاخراً، وتدبّر أمره لينام عشر دقائق. لم يستيقظ إلا في الثامنة والنصف. كان الأب يمسك بيده ويهزها، والليل هبط.

كان بلانيس مجهداً. كان له خمسون سنة أكثر من البارحة. لم يعد يتكلم على الأشياء الجديّة؛ قال لفابريس وهو جالس على مقعده: قبّلني. وغمره عدة مرات بذراعيه. قال أخيراً: الموت الذي سينهي هذه الحياة الطويلة لن يشق عليه شيء كهذا الفراق. معي كيس نقود، سأتركه أمانة عند جيتا، مع أمر بأن تصرف منه لحاجاتها، وتعيد لك ما سيتبقى إذا أتيتَ وطلبتَه. أعرفها. بعد هذه التوصية، قادرة، اقتصاداً من أجلك، أن تمتنع عن شراء اللحم أربع مرات في السنة إذا أعطيتها أوامر

صريحة. يمكن أن تتعرض أنت نفسك للبؤس، وقد يعينك درهم صديق قديم. لا تنتظر شيئاً من شقيقك سوى معاملة سيئة، وجرّب أن تكتسب مالاً بعمل يجعلك نافعاً للمجتمع. أتوقع عواصف غريبة، ربما بعد خمسين سنة. لن يقبلوا بعاطلين عن العمل. أنت في شوق إلى أمك وعمتك وعلى شقيقتيك أن تطيعا زوجيهما... إذهب إذهب! أهرب! صاح بلانيس بسرعة، إذ سمع صوتاً خفيفاً صادراً عن الساعة معلناً العاشرة. لم يقبل حتى أن يقبّله فابريس للمرة الأخيرة.

ـ أسرع! أسرع، صاح به؟ يلزمك دقيقة واحدة على الأقل لنزول الدرج. انتبه كي لا تسقط على الحضيض، سيكون ذلك نذير شؤم مريعاً. اندفع فابريس في الدرج، ولما وصل إلى الساحة أخذ بالركض. ما أن وصل إلى إمام قصر والده حتى دقت العاشرة؟ كانت كل ضربة ترن في صدره، وتحمل إليه اضطراباً فريداً. وقف ليفكر أو بالأحرى يستسلم إلى العواطف المعقدة يوجهها إليه هذا البناء الفخم كان ينظر إليه ببرودة كلّية البارحة. وسط أحلامه، أيقظته خطوات. تطلّع فرأى نفسه بين أربعة رجال درك. كان يحمل مسدسين ممتازين جدّد ذخيرتهما قبل وقت قصير وهو يتناول فطوره. الصوت الخفيف الذي أحدثه وهو يصليهما لفت انتباه أحد الجنود الأربعة وكان على وشك أن يوقفه. إنتبه للخطر الذي يتعرّض له، وفكر بإطلاق النار على الأول، الطريقة الوحيدة التي يملكها لمقاومة رجال

الدرك، وهم كانوا يقومون بجولة لإفراغ المقاهي من الناس، وهم يشعرون بالمعاملة الحسنة التي تلقّوها في تلك الأماكن المحببة. لم يحزموا أمرهم بسرعة كافية للقيام بواجبهم، فهرب فابريس بسرعة. خطا رجال الدرك بضع خطوات راكضين وهم يصيحون: توقف! توقف! ثم، خيّم الصمت. على ثلاثمائة خطوة، توقف فابريس ليستعيد أنفاسه. قرقعة مسدسي كادت تسبّب بالقبض علي. لكانت الدوقة لو قيض لي أن أرى ثانية عينيها الجميلتين قالت لي إن نفسي تجد متعة في التبصر بما سيجري بعد عشر سنوات وتنسى أن ترى ما يجري حولها حالياً.

ارتجف فابريس وهو يفكر بالخطر الذي نجا منه. ضاعف خطاه ثم لم يمنع نفسه من الركض. كان هذا الأمر منافياً للحكمة، إذ لاحظه عدة قرويين عائدين إلى بيوتهم. لم يستطع أن يتوقف إلا في الجبل، على أكثر من فرسخ عن غريينتا. ساوره قلق شديد وهو يفكر بسبيلبرغ.

كم كان جزعي شديداً! قال في نفسه. لدى سماعه هذه الكلمة استثارته تقريباً رغبة في الاستحياء من نفسه. ولكن، ألا تقول لي عمتي أن ما أحتاجه، هو أن أتعلم كيف أغفر لنفسي. أنا أقارن نفسي دائماً بنموذج كامل، غير ممكن الوجود. إذن، أنا أغفر لنفسي خوفها، إذ من ناحية أخرى كنت على أتمّ

الاستعداد للدفاع عن حريّتي، وما كنت، أكيداً، تركت الأربعة أحياء لإلقاء القبض عليّ وجرّي إلى السجن. ما أقوم به الآن، ليس عسكرياً، فعوضاً من أن أنسحب بسرعة، بعد أن أتممت غرضي ونبهت أعدائي، أتسلى بنزوة أشد إثارة للهزء من كل مواعظ الأب الطيب.

في الواقع، بدلاً من الابتعاد، عبر السبيل الأقصر وصولاً إلى ضفاف بحيرة ماجور، حيث كانت تنتظره مركبة، كان يقوم بدورة طويلة ليذهب ويرى شجرته. يتذكر القارىء، ربما، الحبّ الذي يحمله لشجرة كستناء غرستها والدته قبل ثلاثة وعشرين سنة. خليقاً بأخي أن يكون قطع هذه الشجرة؟ ولكن هذه الكائنات لا تشعر بالأشياء الرهيفة. وربما لم يفكر بهذا الأمر. وأضاف بحزم: أن قطعها لن يكون نذير شؤم. ساعتين بعد ذلك، كان بصره واجماً مذعوراً. إن أشراراً أو عاصفة كانت كسرت أحد الغصون الأساسية الذي يتدلّى جافاً؛ قطعه فابريس في احترام بخنجره، وقطم مكان الكسر تماماً حتى لا يتمكن الماء من التسرب داخل الجذع. ثم، وبالرغم من كون الوقت ثميناً، إذ النهار يكاد يطلع، قضى ساعة كاملة يركش حول الشجرة العزيزة، وبعدما قام بكل هذه الحماقات، أكمل طريقه سريعاً نحو بحيرة ماجور. لم يكن حزيناً، فالشجرة حسنة النموّ، قوية تماماً، وتضاعف طولها في خمس سنوات. لم يكن الغصن المكسور سوى حادث دون ذيول؟ لن يضرّ الشجرة أنه قُطِع، بل إنها

ستكون أكثر رشاقة، لأن تفرّعاتها تبدأ أعلى على الجذع.

لم يمش فابريس فرسخاً واحداً حتى ارتسمت، إلى الشرق، قمم الرزيغون دي ليك، الزاهية وهو جبل مشهور في البلاد. كانت الطريق التي يتبعها، ملأى بالمزارعين. ولكن عوضاً أن يفكّر عسكرياً، تأثرّ بمشاهد جوار بحيرة كوم الجليلة والمحركة للمشاعر. لعلّها أجمل مشاهد في العالم؟ لا أريد أن أقول، كما يقال في سويسرا، إنها تعطي أفضل مردود من النقود الجديدة بل إنها تؤثر في النفس. الإستماع إلى هذه اللغة في الموقف الذي يوجد فيه فابريس مستهدفاً ليقظة رجال الدرك اللومبارديين والبندقيين، كان عملاً صبيانياً صرفاً. قال في نفسه أخيراً: أنا على نصف فرسخ من الحدود، سألتقي برجال الجمرك والدرك يقومون بدورية الصباح. وسيبدو لهم هذا الثوب من الجوخ الناعم مريباً. وسيطلبون مني جواز سفري، الذي يحمل بالأحرف الكاملة أسماً مقدراً لصاحبه أن يدخل السجن؛ ها أنا أرى نفسي مضطراً لارتكاب جريمة. إذا كان الدرك يمشون إثنين معاً كالعادة لا أستطيع الانتظار، بنيّة سليمة، لإطلاق النار حتى يجري أحدهما إلقاء القبض عليا يكفي أن أسقط بين أيديهم وأن يحتفظوا بي برهة، لأُرسَلَ إلى سبيلبرغ. هلع فابريس لاضطراره أن يكون البادىء بإطلاق النار، ربما على جنديّ قديم لدى عمه الكونت بترانيرا. ركض واختبأ في تجويف شجرة كستناء ضخمة. كان يجدّد ذخيرة مسدسيه عندما سمع أحداً

يتقدم في الغابة وهو يغني لحن «مركرانتي» الشـائع يـومئذ في لومبارديا.

قال فابريس في نفسه: فأل حسن! هذا اللحن الذي كان يستمع إليه باحترام، أبعد عنه حنقاً بدأ يختلط بتعليلاته. نظر بانتباه كلي إلى ناحيتي الطريق. لم ير أحداً. قال في نفسـه. سيصل المغني بطريق جانبية. في الوقت نفسه رأى فرّاشاً بالزي الانكليزي يتقدّم بخطى صغيرة، ممسكاً بيده جـواداً أصيلاً، مفرطاً في الهزال.

آه! قال فابريس، لو كنت أفكر مثل موسكا، عندما يردد في مسامعي، أن الأخطار التي يتعرض لها إنسـان هي دائماً من حجم حقوقه على جاره. سأحطّم رأس هذا الفراش بطلقة من مسدسي، وعندما امتطي ظهر هذا الجواد الهزيـل، لن أهتمّ بعدها بكل درك العالم. وفور عودتي إلى بارما سأرسل الدراهم إلى هذا الرجل أو إلى أرملته... ولكن عملي هذا سيكـون فظيعاً.

١٠

في الوقت الذي كان فابريس يؤنب نفسه، راح يقفـز إلى الطريق التي تقود في لومبارديا إلى سويسرا، أربعة أو خمسة أقدام في انخفاض عن الغابة. قال فابريس في نفسه: إذا خاف رجلي

هذا سيهرب سريعاً، بينما أبقى أنا مستمراً هنا كغبيّ حقيقي. في هذه اللحظة، كان يبعد عشر خطوات عن الفراش الذي كان توقف عن الغناء: رأى الخوف مرتسماً في عينيه. كان سيعود ربما بجواده من حيث أتى. لم يكن صمّم على شيء بعد. قفز فابريس وأمسك مقود الجواد الهزيل. وقال للفراش:

ـ يا صديقي، أنا لست سارقاً عادياً إذ أني سأبدأ بإعطائك عشرين فرنكاً، ولكني مجبر أن أستعير منك جوادك سأقتل إذا لم أبارح هذا المكان سريعاً. يلاحقني الأخوان ريغا الأربعة، وهؤلاء الصيّادون الذين تعرفهم طبعاً. دهموني الساعة في غرفة شقيقتهم. قفزت من النافذة وها أنذا. خرجوا إلى الغابة مع كلابهم وبنادقهم. إختبأت في شجرة الكستناء المجوفة هذه، لأنني رأيت واحداً منهم يعبر الطريق. سأمتطي جوادك واحضر حتى فرسخ واحد أبعد من كوم؛ أنا ذاهب إلى ميلانو لأرتمي على قدمي نائب الملك. سأترك جوادك في محطة البريد مع نابوليونيين لك، إذا قبلت. وإذا أبديت أقل مقاومة سأقتلك بمسدسيَّ هذين. وإذا سيّرت الدرك في أعقابي، بعد ذهابي، سيهتم ابن عمي الطيّب، الكونت الاري، فارس الأمبراطور بتحطيم عظامك.

كان فابريس يستنبط هذا الخطاب، عند إلقائه، بلهجة مسالمة.

قال له ضاحكاً: على أي حال، ليس اسمي سرّاً؟ أنا المركيز اسكانيي دل دونغو، قصري قريب من هنا، في غريينتا... وقال رافعاً الصوت: أترك هذا الجواد إذن؟ ذهل الفراش، ولم ينطق بكلمة. نقل فابريس مسدسه إلى يده، اليسرى، وأمسك العنان الذي تركه الآخر ثم قفز على ظهر الجواد وانطلق. عندما أصبح على ثلاثمائة خطوة، انتبه أنه نسي يعطي العشرين فرنك التي وعده بها، فتوقّف. ما زالت الطريق خالية إلاّ من الفرّاش الذي كان يتبعه مسرعاً؛ أشار إليه بمنديله أن يقترب، ولما رآه على خمسين خطوة، رمى ملء قبضته دراهم على الطريق، وعاود السير. رأى الفّراش من بعيد يلتقط قطع الدراهم. هذا رجل عاقل حقاً، قال فابريس في نفسه، وهو يضحك. لم يتلفظ بكلمة نافلة. ذهب بسرعة صوب الجنوب، وتوقّف أمام بيت منفرد، ثم عاد وتابع سيره ساعات. في الثانية بعد منتصف الليل وصل إلى بحيرة ماجور. وسريعاً ما رأى مركباً على الماء. اقترب عند الإشارة المتفق عليها. لم ير مزارعاً كي يسلمه الجواد؟ فأعاد الحرية للحيوان، ووصل إلى بحيرة بلجيرات بعد ثلاث ساعات. وجد نفسه في بلاد صديقة، استراح قليلاً؟ كان شديد السرور. نجح تماماً. انجرؤ أن نعدد الأسباب الحقيقية لسروره؟ كانت شجرته تنمو نمواً ممتازاً، وانتعشت نفسه بالحنان العميق بين ذراعي الأب بلانيس. أتصدق حقاً، كان يقول في نفسه، جميع النبوءات التي قالها لي؟ أو كما شقيقي جعل لي

شهرة يعقوبي، شهرة رجل بلا إيمان وبلا دين وخلق، يقوم بأيّ عمل يوكل به، أراد هكذا فقط أن أتعهد بعدم الاستسلام لتجربة تحطيم رأس حيوان يكون أساء معاملتي واحتال علي بخبث؟ كان فابريس غداة اليوم التالي لوصوله، في بارما، حيث أفرح قلب الدوقة والكونت كثيراً في سرد رحلته بأمانة تامة، كما اعتاد دائماً أن يفعل.

وجد فابريس، لدى وصوله، البوّاب وجميع خدم قصر سنسفرينا يرتدون ثياب الحداد.

سأل الدوقة: أيّة كارثة لحقت بنا؟

ـ هذا الرجل الطيب الّذي كانوا يدعونه زوجي توفي منذ قليل في بادن. ترك لي هذا القصر؛ وكان هذا أمراً متفقاً عليه. ويضيف إليه هبة ثلاثمائة ألف فرنك تضايقني كلّ المضايقة. لا أريد رفضها وتركها لصالح ابنة أخيه المركيزة رافرسي التي تسيء التصرف معي كل يوم. أنت هاوٍ ويجب أن تجد لي نحاتاً ماهر؛ سأقيم للدوق ضريحاً يكلف ثلاثماية ألف فرنك. وأخذ الكونت يخبر نكتاً عن رافرسي.

قالت الدوقة: جربت عبثاً أن ألاطفها بصنع الجميل. أبناء أخيها، جعلتهم كلهم عقداء وألوية. لا يمر شهر بالمقابل، إلا ويوجهون إلي رسالة مغفلة بغيضة. حتى أجبرت أن أستعين بأمين سر لقراءة مثل هذه الرسائل.

قال الكونت موسكا: وهذه الرسائل المغفلة، أقل أخطائهم. يديرون مصنع وشايات دنيئة. كان بإمكاني، عشرين مرة، إحالة كل هذه الطغمة أمام المحاكم، وسموكم يمكنه أن يتصور، أضاف متوجهاً إلى فابريس، إذا كان قضاتي الطيبون كانوا حكموا عليهم.

ـ إذن، هذا ما يوضح كلّ الباقي، أجاب فابريس، بسذاجة في غاية الطرافة، في البلاط. كنت أحببت أكثر أن أراهم يحاكمون من قضاة يستندون في أحكامهم إلى الضمير.

ـ ستجعلني مسروراً، أنت الذي يسافر كي يتثقف، فتعطيني عنوان أمثال هؤلاء القضاة وسأكتب إليهم قبل أن آوي إلى سريري.

ـ لو كنت وزيراً، لكان هذا النقص في القضاة المستقيمين، يجرح كرامتي.

ـ يبدو لي، أجاب الكونت، أن سموكم، يحب الفرنسيين حتى أعارهم في السابق، مساعدة ذراعه التي لا تقهر، وينسى في هذه اللحظة واحداً من أهم أمثالهم السائرة: الأفضل أن تقتل إبليس من أن يقتلك. كيف ستتمكن إدارة من السيطرة على هؤلاء الناس المتقدة نفوسهم، يطالعون طيلة النهار تاريخ الثورة الفرنسية، ومع قضاة ـ يبرّئون أناساً أتهمهم شخصياً،

وقد يحصل ألا يحكم على لؤماء مخطئين طبعاً، ويعتقد كلّ منهم أنه بروتوس. ولكن أريد أن أعارضك: أليست نفسك الحساسة نادمة على ذلك الجواد الجميل، القليل الهزال، تركته منذ أمد قصير على ضفاف بحيرة ماجور

ـ أنا أنوي صادقاً، قال فابريس برزانة، أن أرسل ما يلزم لصاحب الجواد، لكي أعوضه عن تكاليف الإعلان التي في أثرها سيستعيد جواده من المزارعين الذين يكون وجدوه؛ سأقرأ باستمرار صحيفة ميلانو لكي أفتش عن إعلان جواد مفقود؛ أنا أعرف تماماً أوصاف هذا الأخير.

ـ إنه حقاً بدائي ساذج، قال الكونت للدوقة! وما الذي كان جرى لسموكم، تابع وهو يضحك، لو أنتم تعدون سابحين على هذا الجواد المستعار، وعن له أن يكبو بكم؟ لكنتم الآن في سبيلبرغ، ما ابن أخي العزيز، ولكان كلّ نفوذي توصّل بالكاد أن ينقص ثلاثين ليبرة من ثقل السلسلة المعلقة بكل من ساقيك. ولكنت قضيت في مكان النزهة هذا عشرة أعوام ربما كان إنتفخت ساقاك، وعندئذ كانوا بتروهما. . .

ـ آه! رجاء، لا تمضِ في هذا الوصف المحزن من الرواية، صاحت الدوقة، بعدما امتلأت عيناها بالدموع. ها هو يعود.

ـ أنا مسرورٌ أكثر منك، يمكنك أن تصدقي، أردف الوزير برزانة، ولكن لماذا لم يطلب مني هذا الولد القاسي، جواز سفر،

باسم لائق، طالما كان ينوي الدّخول إلى لومبارديا؟ عند أول خبر عن توقيفه كنت ذهبت إلى ميلانو، وكان أصدقائي في هذا البلد تغاضوا عن طيبة خاطر، وافترضوا أن دركهم أوقف أحد رعايا أمير بارما. قصة جولتك لطيفة ومسلية، أجاب الكونت، وهو يكمل حديثه بلهجة أقل تشاؤماً. خروجك من الغابة إلى الطريق العام يعجبني؟ ولكن بما أن هذا الفرّاش كان يمسك خيوط حياتك بين يديه، كان يحق لك أن تقتله. سنبني لسموكم مستقبلاً زاهراً، على أيّ حال، السيدة هذه، هي التي تأمرني بهذا الشأن ولا أعتقد أن ألدّ أعدائي يستطيعون اتهامي بأني عصيت يوماً أوامرها. أيّ همّ مميت لي ولها، لو أن جـوادك الهزيل كبا بك أثناء تلك الجولة إلى القبة، لكان من الأفضل لو أنه تسبب بدق عنقك.

قالت الدوقة متأثرة: أنت مأساوي جداً هـذا المساء، يـا صديقي.

ـ ذلك أننا محاطون بأحداث مأسوية، أجاب الكونت بتأثر؟ لسنا هنا في فرنسا، حيث ينتهي كل أمر بأغان أو بسجن سنة أو اثنتين. وأنا مخطىء أن أحدثك عن كلّ هـذه الشؤون، وأنا ضاحك. آه! هذا يا ابن عمي الصغير، أنا افترض أني سأجد يوماً أجعلك فيه أسقفاً، لكني لا أستطيع بصـراحة أن ابـدأ بأسقفية بارما كما تريد السيدة الدوقة الحاضرة هنـا؟ في هذه

الأسقفية ستكون بعيداً عن نصائحنا الحكيمة. أخبرنا قليلاً ما ستكون عليه سياستك.

ـ قتل إبليس بدل أن يقتلني، كما يقول أصدقاؤنا الفرنسيون، أجاب فابريس بعينين ملتهبتين؟ الاحتفاظ بالمركز الذي تكون جهزته لي، بكلّ الطرائق الممكنة ومن ضمنها المسدس. قرأت في نسب أسرة دل دونغو تاريخ ذلك الذي من أجدادنا شاد قصر غريينتا. أرسله صديقه غالياس، دوق ميلانو، في آخر حياته ليزور قلعة على بحيرتنا؛ كان يخشى من اجتياح سويسريّ جديد. يجب مع هذا كله، أن أكتب كلمة لطيفة إلى القائد، قال له دوق ميلانو وهو بصرفه؛ كتب، وأعطاه رسالة من سطرين؛ ثم عاد وطلبها منه ليختمها. هكذا سيكون الأمر أكثر انطباقاً على قواعد التهذيب. ذهب فسباسيان دل دونغو ليتم المهمة، وفيما هو يمخر مياه البحيرة، تذكّر قصة إغريقية قديمة وهو كان عالماً؛ فتح رسالة سيّده الطيب ووجد فيها الأمر الموجه إلى قائد القلعة يأمره بقتله لدى وصوله. سفورسا، وهو شديد الإنتباه، إلى الهزلية التي كان يمثلها مع جدّنا، كان ترك فسحة بين السطر الأخير وتوقيعه. كتب فسباسيان دل دونغو أمراً بالاعتراف به كحاكم عام على جميع قلاع البحيرة، وقطع رأس الرسالة. لدى وصوله اعترف به في القلعة، رمى القائد في إحدى الآبار، وأعلن الحرب على سفورسا. وبعد سنوات قايض القلعة بهذه الأراضي الفسيحة التي سببت ثراء كلّ فروع

أسرتنا، والتي ستكسبني يوماً إيراد أربعة آلاف ليرة.

ـ إنك تتكلم كأكاديمي، صاح الكونت ضاحكاً. عمل رائع هذا الّذي تسرده على مسامعنا الآن، ولكن لا تتاح المناسبة للقيام بأعمال مثيرة، سوى مرة كلّ عشر سنوات. إن كائناً نصف أحمق، إنما منتبه وحكيم في كل وقت، يذوق في غالب الأحيان لذة الانتصار على الرجال ذوي المخيّلة. بجنون الخيال، استسلم نابوليون إلى جون بول الحكيم، بدلاً من السعي للذهاب إلى أميركا. هزىء جان بول في مكتبه من رسالته التي يذكر فيها تيمستوكل. جميع رجال السانشو بانسا الحقيرين يتغلبون دوماً على الدون كيشوتات النبلاء. إذا كنتَ توافق على عدم القيام بشيء خارق، لا شك إنك ستصبح أسقفاً محترماً. على أيّ حال، ما زالت ملاحظتي قائمة؛ سمّوكم سلك بخفة في مسألة الجواد، وكان على شفير سجن مؤبد.

هذه الكلمة جعلته يرتجف، وبقي مغموراً بدهشة عميقة. قال في نفسه: أكان هذا هو السجن الذي يهدّدني؟ أهذه هي الجريمة التي كان يجب ألا أرتكب؟ تكهنات بلانيس التي كان يهزأ بها بصفتها نبوءات، كانت تأخذ في عينيه أهمية النذائر الحقيقية.

ـ ما بك؟ قالت له الدوقة مندهشة؟ الكونت غمرك بالصور السوداء.

ـ أضاءت عقلي حقيقة جديدة، وعوضاً من أن أثور ضدّها، يأخذ بها عقلي. صحيح كنت على شفير سجن مؤبد. ولكن هذا الفراش كان جميلاً في ثوبه على الزي الانكليزي! من المؤسف قتله!

إغتبط الوزير بلهجته العاقلة. فقال وهو ينظر إلى الدوقة:
ـ هذا حسن على أي حال. سأقول لك، يا صديقي، إنك قمت بواحد من أجمل الفتوحات.

آه! فكّر فابريس. هذه مزحة عن مارييتا الصغيرة. كان مخطئاً. أضاف الكونت:

ـ بساطتك الانجيلية اكتسبت قلب أشفعنا الجليل، الأب لاندرياني. ذات يوم سنجعل منك نائباً أسقفياً عظيماً. وما يشكّل روعة هذه المزحة، أنّ النواب الثلاثة الحاليين هم رجال استحقاق وعاملون مجددون.

وأعتقد أنّ اثنين منهم، كانا نائبَين كبيرين قبل مولدك، سيطلبان، برسالة لطيفة من اسقفهما، أن يجعل مركزك الأوّل بينهما. هؤلاء السادة يستندون أولاً إلى فضائلك، ثمّ إلى كونك حفيد أخ الأسقف المشهور إسكانيي دل دونغو. لما بلغني الاحترام الذي يضمرونه لفضائلك، عينت فوراً ابن أخ أقدم نواب الأساقفة العامين نقيباً؟ كان ملازماً منذ حصار الماريشال سوشي لتراغون.

ـ إذهب فوراً بثياب البيت هذه، صاحت الدوقة، وقم بزيارة وديّة لاسقفك. أخبره عن زواج شقيقتك. عندما يعلم أنها ستصبح دوقة سيجدك أكثر رسولية. وفضلاً عن ذلك، أنت تجهل كل ما أسرّ به الكونت إليك حول تعيينك المقبل.

ركض فابريس إلى البلاط الأسقفي، فكان بسيطاً ومتواضعاً، وهو مسلك كان يحسن اتخاذه بكل بسهولة؛ وبالعكس من ذلك، كان يحتاج إلى جهود لكي يتمثل دور السيد الكبير. وبينما يستمع إلى قصص المونسينيور لاندرياني التي على شيء من الطول، كان يقول في نفسه: هل كان يجب أن أطلق النار على الفرّاش الذي كان يمسك بعنان الجواد الهزيل؟ كان عقله يقول له: نعم، ولكن قلبه لم يكن قادراً الاعتياد على الصورة الدامية للشاب الجميل يهوي عن ظهر جواده مشوّهاً.

هذا السجن الذي كان سيبتلعني لو كبا الجواد، هل كان هو الذي هددتني به عدة نذائر؟

كان هذا السؤال بالغ الأهمية عنده، وسرّ الأسقف بإصغائه العميق.

١١

لدى خروج فابريس من المطرانية هرع إلى زيارة ماريبيتا الصغيرة؛ سمع من بعيد صوت جيليتي الجهوري، وكان سبق

واستجلب بعض النبيذ، ويأكل ما طاب له من الأطعمة مع أصدقائه الملقّنين في المسرح. وحدها مماسياً الكانت تقوم لديها مقام والدتها، أجابته عن إشارته.

صاحت: أمور جديدة حدثت بعد ذهابك. إثنان أو ثلاثة من ممثلينا اتهموا بأنهم احتفلوا بعيد نابوليون الكبير بالسكر والعربدة. وتلقت فرقتنا المسكينة، المتهمة باليعقوبية، أمراً بالرحيل عن أراضي بارما، ويحيا نابوليون! جيليتي معه مال، لا أعرف كم، ولكني رأيت معه قبضة ريالات. تلقت ماريتا خمسة، ومديرنا أكلاف رحلته إلى مانتوفا فالبندقية، وإنا ريالاً واحداً. هي لا تزال تحبك ولكن جيليتي يخيفها؛ في العرض الأخير، قدمناه منذ ثلاثة أيام، كان يريد قتلها وصفعها صفعتين. عمل كريه. ومزق شالها الأزرق. إذا أردت أن تقدّم لها شالاً أزرق ستكون طيب الخلق، وسندّعي أننا ربحناه باليانصيب. رئيس طبالي الجنود الإيطاليين يحيي غداً حفلة، وستجد الإعلان عن الساعة في إحدى زوايا الشوارع. تعالى لترانا، إذا كان قد ذهب، ناوياً الهجوم، بطريقة توهمنا أنه سيبقى خارجاً بعض الوقت، سأكون في النافذة وسأشير إليك بالصعود. جرّب أن تجلب لنا شيئاً جميلاً. ماريتا تحبك حتى الجنون.

كان فابريس نادماً أشد الندم، وهو ينزل الدرج اللولبي لهذا

الكوخ القذر. كان يقول في نفسه: لم أتبدّل. تبخرت جميع المقاصد الطيبة المتخذة على ضفة بحيرتنا، عندما كنت أرى الحياة بعين فلسفية. كانت نفسي منزعجة. كل هذا كان حلماً، غاب حيال الحقيقة القاتمة. حان وقت العمل، قال فابريس، وهو يعود إلى قصر سنسفرينا، نحو الحادية عشرة ليلاً. ولكنه فتش عبثاً في قلبه عن الشجاعة للتكلم بهذا الصدق الرائع بدا له سهلاً أثناء الليل على ضفاف بحيرة كوم. سأتسبب في إزعاج الشخص الذي، أحبه الأكثر في العالم. إذ تكلمت، سأبدو كممثل سيء لا قيمة لي إلاّ في بعض لحظات الاثارة.

قال للدوقة: الكونت رائع معي، بعدما أخبرها عن زيارته المطرانية؟ أنا أقدّر سلوكه، وأدرك أني لا أعجبه كثيراً؟ إن طريقتي في العمل يجب أن تكون لائقة نحوه. عنده حفرياته في سنغينيا لا يزال فرحاً جداً بها، على الأقل، من رحلة ما قبل البارحة. قطع اثني عشر فرسخاً على جواده ليقضي ساعتين مع العمال ويخشى أن تسلب قطع التماثيل، في حال وجودها، في الهيكل القديم الّذي اكتشف أساساته؟ أرغب في أن أعرض عليه الذهاب إلى سنغينيا وقضاء ست وثلاثين ساعة فيها. غداً، نحو الخامسة، يجب أن أرى الأسقف ثانية. ويمكن أن أذهب في السهرة، مستفيداً من طراوة الليل لاجتياز الطريق.

لم تجب الدوقة في بادىء الأمر.

ثم قالت الدوقة بحنان: يبدو وكأنكَ تفتش عن أسباب كي تبتعد عني. ما أن تصل إلى بلجيرات حتى تجد سبباً لمغادرتها.

قال فابرس في نفسه: هذه فرصة مناسبة للكلام. كنت مجنوناً على البحيرة، فلم أتنبه إلى حماستي في قول الصدق حتى أن مجاملتي انتهت بوقاحة. كان عليّ أن أقول: أنا أحبك حباً شديد الاخلاص كصديقة الخ... ولكن روحي لا تتقبّل الحب. أليس هذا معناه: أدرك أنك تحبينني. ولكن انتبهي، لا أتمكن أن أبادلك؟ إذا كانت الدوقة تحبني فقد تغضب لأن سرها اكتشف، وإذا كانت لا تضمر لي سوى مجرد صداقة، فسوف تثور على وقاحتي. وهذه إهانات لا تُغتَفَر.

بينما كان فابريس يزن هذه الأفكار الهامة دون انتباه ويتنزه في الصالة بوقار، كرجل يرى المصيبة على عشر خطوات منه، كانت الدوقة تنظر إليه بإعجاب: لم يعد الطفل الذي شاهدته يولد. لم يعد ابن الاخ المستعدّ دوماً لطاعتها: إنه رجل وقور وسيكون حمله على حبيّ رائعاً. بارحت المتكأ حيث كانت جالسة، وارتمت بين ذراعيه بمزيد من الفرح.

وقالت له: تريد إذن أن تهرب مني؟

أجاب: كلا، متخذاً هيئة أمبراطور روماني، إنما أريد أن أكون حكيماً.

كانت هذه الكلمة تحتمل تأويلات. لم يشعر فابريس في نفسه

بالجرأة أن يذهب أبعد من هذا ويخاطر بجرح شعور هذه المرأة المعبودة. كان لا يزال فتياً وقابلاً للتأثر. لم يوفّر له عقله أي تعبير لطيف يستطيع بواسطته أن يجعلها تدرك ما يريد أن يقوله لها. وبفورة فرح طبيعية، وبالرغم من كل تفكير ضمّ هذه المرأة الفاتنة بين ذراعيه، وغمرها بالقبل، في اللحظة ذاتها، سمع صوت عربة الكونت تدخل الباحة، وفي الوقت نفسه تقريباً، ظهر الكونت في الصالة. بدا شديد التأثر .

إنك توحي بعواطف فريدة، قال لفابريس الذي بقي مخجولاً .

كان الأسقف على موعد لمقابلة عظمته، كما العادة كل خميس. أخبرني الأمير أن الأسقف بدأ المقابلة مضطرباً بخطاب حفظه غيباً وعلمي جداً، لم يفهم منه شيئاً. وانتهى لاندرياني بالتصريح أن من الضروري لكنيسة بارما أن يعيّن المونسينيور فابريس دل دونغو، نائب أسقف عنه، فمعاوناً له عندما يتم الرابعة والعشرين، مع خلافة في المستقبل.

قال الكونت: أعترف أن هذه الكلمة أخافتني. العجلة من الشيطان، وكنت أخشى فورة طبع الأمير. لكنه نظر إلي ضاحكاً وقال بالفرنسية: هذه مقالبك، يا سيد.

صحت بكل الخشوع الممكن: أقسم أمام الله وأمام عظمتكم أنني كنت أجهل تماماً كلمة خلافة في المستقبل. عندئذ، قلت

الحقيقة التي كنا نرددها هنا منذ ساعات، وأضفت بإغراء: سَأعتبر نفسي بالتالي، مغموراً بأفضال عظمتكم، إذا تنازلتم ومنحتموني أبرشية صغيرة كي أبدأ. يجب أن يكون الأمير صدقني لأنه رأى أن يمثل دور المنعم. قال لي بالبساطة الممكنة: هذه مسألة رسمية بين الأسقف وبيني. ولا شأن لك أنت بها، يقدم لي الرجل تقريراً طويلاً جداً، ومضجراً ويليه عرض رسمي، أجبته ببرودٍ كليّ أنّ الشخص كان فتياً جداً وجديداً في بلاطي، سأبدو وكأني أدفع كمبيالة مسحوبة علي من قبل الأمبراطور، بإعطائي رتبة بهذا السمو إلى أبناء القادة الكبار في مملكته اللبادرو ـ بندقية. واحتجّ الأسقف أن لا وصاية من هذا النوع.

كانت حماقة تقال لي أنا. واستغربتها من رجل مسموع الكلمة بهذا القدر؛ ولكنه يتوه دائماً عندما يوجه كلامه إلي، وهذا المساء كان مضطرباً أكثر من أي وقت آخر، مما أوحى إليّ الفكرة بأنه كان يرغب في الأمر بشغف. قلت له: أعرف أن لا توصية من أيّ نافذ لصالح دل دونغو، ولا أحد في بلاطي يرفض الاقرار بقدرته، والناس كانوا لا يتكلمون بكثير من السوء عن أخلاقه. ولكني كنت أخشى أن يكون قابلاً للتحمس، فأخذت عهداً على نفسي بألاّ أرفع، إلى المراتب العليا، المجانين من هذا النوع ممن لن يكون الأمير معهم أميناً من شيء. عندئذ أردف سموه، وجب عليّ أن أتحمل خطاباً

بطول الأول تقريباً مدح فيه الأسقف الحماس لبيت الله. غير لبق، قلت في نفسي. أنت تضلّ، وتعرض للخطر تعيينك الذي كان حصل تقريباً على الموافقة. كان يجب التوقف عن الكلام وشكري، باسراف من التعبير العاطفي. لم يفعل. كان يكمل عظته بجرأة مضحكة، فتشت عن جواب ملائم لـدل دونغو الصغير، فوجدته على قدر من التوفيق كما سيتـاح لكم أن تحكموا: مونسينيور، قلت له، كان بيوس السابع من الباباوات العظام، وقديساً كبيراً، تجرأ وحده بين جميع الملوك، وقـال: «لا»، للطاغية الذي كان يرى أوروبا عند قدميه! كان قابلاً للاندفاع. وهذا ما حمله عندما كان أسقف أيمولا، أن يكتب رسالته الرعوية المشهورة عن المـواطن الكاردينـال شيارامـونتي لصالح جمهورية ما وراء الألب.

بقي أسقفي المسكين مشدوهاً، ولكي أذهله تماماً، قلت له بكثير من الجدية: أستودعـك الله، مونسينيـور، سآخـذ أربعاً وعشـرين ساعـة للتفكير بعـرضك. وأضـاف المسكـين بعض الالتماسات بلغة غير موفقة وغـير مناسبـة بعد كلمـة: وداعاً تلفظتُ بها. والآن، يا كونت موسكا دلا روفير، أكلفك تقول للدوقة أنني لا أؤخر أربعاً وعشرين ساعة، أميراً يمكن أن يدخل السرور إلى نفسها؛ إجلس هنـا، واكتب إلى الأسقف بطاقـة موافقة وتنهي كل هذه القضية. وكتبت هذه البطاقة: وقعـها وقال لي: إحملها إلى الدوقة. وهذه هي البطاقة، يا سيدتي.

وهذا ما أعطاني ذريعة لأسعد بمرآك ثانية هذا المساء.

قرأت الدوقة البطاقة بنشوة. أثناء قصة الكونت الطويلة كان، أمام فابريس، الوقت الكافي ليستعيد روعه. لم يبدُ أنه مندهش من هذا الحدث الطارىء، فتقبّل الأمر كصاحب سلطان عظيم، آمن أن هذه الترقيات غير المتوقعة، وهذه الصدف، تخرج البورجوازي عن طوره؟ وتكلم بعبارات طيبة عن امتنانه، وانتهى بقوله للكونت:

ـ على رجل البلاط الحقيقي أن يمتدح الهوى الطاغي. البارحة كنت قلقاً من أن عمالك في سنغينيا يسرقون قطع التماثيل القديمة التي يمكن أن يكتشفوها. أحب كثيراً الحفريات؟ إذا شئت تسمح لي، سأذهب وأرى العمال. غداً مساء، بعد تقديم الشكر المناسب في القصر ولدى الأسقف، سأذهب إلى سنغينيا.

ـ ولكن، أتحزر، قالت الدوقة للكونت، من أين تأتي عاطفة الأسقف المفاجئة هذه تجاه فابريس؟

ـ لست بحاجة لأحزر. النائب الأسقفي الذي شقيقه قائد، كان يقول لي البارحة: الأب لاندرياني يستند إلى هذا المبدأ الأكيد المثبت أعلى من المعاون، وهو مسرور جداً أن يكون تحت إمرته أحد آل دونغو وأن يكون أدّى له خدمة. كل ما يظهر بوضوح شرف أصل فابريس، يزيد في سعادته الشخصية: إن لديه مثل هذا الرجل كمساعد؟ والمونسينيور فابريس أعجبه، ولا

يشعر بالخجل أمامه، ويغذي منذ عشر سنوات كرهاً مشروطاً لأسقف بلازنس الذي يعلن عالياً طموحه بخلافته على الكرسي الأسقفي في بارما وهو، إضافة إلى ذلك، ابن طحان. ومن أجل خلافة المستقبل أنشأ أسقف بلازنس علاقات حميمة مع المركيزة رافرسي تخيف الآن الأسقف من نجاح مخططه المفضل: أن يكون لديه في مجلسه واحد من آل دونغو يصدر إليه الأوامر.

بعد ذلك، غداة اليوم الثاني لوصوله، كان فابريس يدير حفريات سنغينيا، قبالة كولورنو (فرساي امراء بارما)؟ تمتدّ هذه الحفريات، في السهل، قرب الطريق الكبرى التي تقود إلى بارما، عند جسر كزال ـ مفجيور، أول مدينة نمسوية. كان العمال يقطعون السهل بخندق طويل، عمقه ثمانية أقدام وضيق. كانوا منشغلين بالتفتيش على طول الطريق الرومانية القديمة عن خرائب هيكل ثان، كما يقال في البلاد، لا يزال موجوداً، من القرون الوسيطة. ورغم أوامر الأمير، لم يكن عدة قرويين يرون هذه الخنادق الطويلة تخترق ممتلكاتهم دون غيرة. مهما كان الأمر، كانوا يتخيّلون أنهم يفتشون عن كنز، وأنّ وجود فابريس كان مناسباً خاصة لقمع فتنة صغيرة. لم يكن يسأم أبداً، بل كان يتابع هذه الحفريات بشغف، كانوا من وقت إلى آخر يجدون سكة، ولم يكن يريد أن يترك للعمال متسعاً من الوقت ليتفقوا بينهم على إخفائها.

كان النهار جميلاً، والساعة نحو السادسة صباحاً

وكان استعار بندقية قديمة ذات طلقة واحدة، رمى بها عدة قُبّرات؛ جرحت واحدة منها وسقطت على الطريق. لمح فابريس عن بعد، وهو يلاحقها، عربة مقبلة من بارما وتتجه إلى كزال ـ مفجيوري. وكان لقم البندقية، عندما اقتربت العربة على مهل، وإذا لحقها تلف كثير، عرف مارييتا. كان معها جيليتي الطويل السقيم وهذه المرأة المسنة التي تدعي أنها والدتها.

تخيل جيليتي أن فابريس وقف هكذا وسط الطريق مسلحاً ببندقية، لكي يهينه، وربما ليخطف منه مارييتا. قفز من العربة كرجل شجاع. كانت يده اليسرى على مسدس كبير صدىء جداً، ويمسك باليمنى سيفاً لا يزال في غمده يستعمله عندما تستدعي حاجة الفرقة تكليفه بتمثيل دور المركيز.

ـ آه! أيها اللص! صاح به. أنا مرتاح لوجودك هنا على فرسخ من الحدود. سأقضي عليك. لست هنا بحماية جراباتك البنفسجية.

كان فابريس يغازل مارييتا الصغيرة متظارفاً، ولا يهتم البتة بصياح غيرة جيليتي، لما رأى فجأة على ثلاثة أقدام من صدره طرف المسدس الصدىء، لم يكن لديه سوى لحظة قصيرة، فوجّه ضربة إلى المسدس من بندقيته استعملها كعصا: انطلق المسدس ولكنه لم يجرح أحداً.

ـ توقف... صاح جيليتي بالحوذي، وقفز بمهارة على بندقية

خصمه، ليبعدها عن نفسه؛ أخذا يتجاذبان البندقية بكل ما أعطي لهما من قوة؛ كان جيليتي، واضعاً يداً أمام الأخرى على البندقية، على وشك انتزاعها فهو أشد قوة، عندما أطلق فابريس النار لمنعه من استعمالها. وكان لاحظ بدقّة أن طرف البندقية يبعد ثلاث بوصات فوق كتف جيليتي: حدث الانفجار عند أذن هذا الأخير. بقي مذهولاً برهة قصيرة ثم استعاد روعه.

ـ آه! تريد أن تفجر جمجمتي، إيها الحقير؟ سأقضي عليك.

ورمى جيليتي سيفه وانقض بسرعة عجيبة على فابريس. اعتقد هذا الأخير أنه قضي عليه، إذ لم يكن معه سلاح.

هرب نحو العربة المتوقفة على عشر خطوات وراء جيليتي؛ مرّ إلى اليسار ودار حولها، وأمسك دافع العربة ودار حوله بسرعة، ومرّ قريباً من الباب الأيمن وكان مفتوحاً. لم يفكّر جيليتي، وهو راكض بسرعة، بساقيه الطويلتين أن يمسك بالدافع. خطا خطوات في اتجاهه الأول قبل أن يتمكن من التوقف. ولحظة مرّ فابريس عند الباب المفتوح، سمع مارييتا تقول له بصوت خفيض:

ـ إنتبه لنفسك، سيقتلك.

رأى فابريس، في اللحظة نفسها سكين صيد، يسقط من باب العربة. إنحنى ليلتقطها، فأصيب بضربة سيف في كتفه وجهها إليه جيليتي. ولدى نهوضه وجد نفسه على ست بوصات

من جيليتي الذي ضربه على وجهه ضربة عنيفة ببطن سيفه حتى أن صواب فابريس أرتج تماماً؛ وكاد يقتل. كان جيليتي، لحسن الحظ، قريباً جداً، فلم يتكمن من أن يصوّب إليه ضربة بحد سيفه. ولما استعاد فابريس صوابه، هرب بكلّ قوته. وفيما هو راكض، رمى قراب سكين الصيد، ثم استدار فجأة فوجد نفسه على ثلاث خطوات من جيليتي يلاحقه مندفعاً بكل قوته. وجه فابريس إليه ضربة من سكينه، فكان لدى جيليتي الوقت الكافي ليحـول قليلاً بواسطة سيفه وجهة سكين الصيد ولكن الضربة أصابته على خده الأيسر. ومرّ قريباً من فابريس فشعر أن فخذه جـرح. كانت سكـين جيليتي تسنّ له الـوقت لفتحها. قفـز فابريس إلى اليمين؛ والتفت. وأخيراً وجد الخصمان نفسيهما على بعد مناسب للقتال.

كان جيليتي يجدّف ويشتم غاضباً، ويردّد في كل حين: آه! سأقطع عنقك، أيها الكاهن الوغد. كان فابريس يلهث بشدّة فلا يستطيع أن يتكلّم؛ الضربة على وجهه تؤلمه كثيراً، وكان ينزف دماً بغزارة من أنفه؛ ردّ عدّة ضربات بسكينه وسدّد أخرى دون أن يدرك ماذا كان يفعل؛ كان يبدو له بغموض، وكأنه يشارك في هجوم عامّ. أوحى إليه هذه الفكرة وجود عمالـه وعددهم خمسة وعشرون أو ثلاثون، حلقة حوله ولو على بعد. إنهم كانوا يرون المتقاتلين يتهاجمان الواحد صوب الآخر.

بدأ القتال يتباطأ؛ فلم تعـد الضربـات تتلاحق بـالسرعـة

نفسها، عندها قال فابريس في نفسه: الألم شديد في وجهي. جيليتي شوهني. غضب لهذه الفكرة شديداً، وانقض على عدوه ورأس شفرة مديته موجه إلى الإمام. فدخلت هذه الشفرة صدر جيليتي من اليمين وخرجت نحو الكتف اليسري؛ وأصابت نصلة سيف جيليتي طولياً أعلى ذراع فابريس، ولكن السيف أنزلق تحت الجلد فنتج عن ذلك جرح طفيف.

كان جيليتي سقط على الأرض؛ في اللحظة التي كان فابريس يتقدّم نحوه وهو ينظر إلى يده اليسرى يحمل بها مدية، كانت هذه اليد تنفتح آلياً وتترك السلاح يسقط منها.

قال فابريس في نفسه: مات الوغد. نظر إلى وجهه. كان جيليتي ينزف دماً غزيراً من فمه: وركض فابريس إلى العربة:

ـ هل معك مرآة؟ صاح بمارييتا. كانت هذه الأخيرة تنظر إليه ممتقعة الوجه ولا تجيب... فتحت المرأة المسنة حافظة خضراء، وقدّمت لفابريس مرآة صغيرة ذات مقبض كبير على حجم اليد. وبينما هو ينظر إلى وجهه، كان يجسه بيده ويقول: العينان سالمتان. عظيم؛ ونظر إلى أسنانه فإذا جميعها سالمة. كان يقول في نفسه هامساً: ما سبب هذه الآلام المبرحة أشعر بها؟

أجابته المرأة المسنة.

ـ سحق أعلى خدك فهو متورم وأزرق بشكل مخيف! ضع فوراً عليه علقاً، ولن يكون شأناً هاماً.

ـ آه! علق «في هذه اللحظة» قال فابريس وهو يضحك واستعاد شجاعته. رأى العمال يحيطون بجيلاتي وينظرون إليه دون أن يجرؤوا على لمسه.

صاح بهم: أغيثوا هذا الرجل، إنزعوا عنه ثوبه... وأراد أن يتابع كلامه، ولكن عندما رفع نظره رأى ستة رجال، على ثلاثماية خطوة على الطريق، يتقدمون راجلين بخطى متزنة، إلى مكان الحدث.

فكر أنهم رجال الدرك. وإذا أمامي رجل قتيل، سيلقون القبض علي، وسيكون لي شرف دخول مدينة بارما إحتفالياً. أي طرفة لرجال البلاط أصدقاء رافرسي الذين يكرهون عمتي.

رمى الدراهم التي في جيوبه إلى العمال المنذهلين واندفع فوراً وبسرعة إلى العربة.

ـ إمنعوا رجال الدرك من اللحاق بي، صاح بعماله، وسأجعلكم أثرياء، قولوا لهم أني بريء وإن هذا الرجل هاجمني وأراد قتلي.

ـ وأنت، قال للحوذي، أسرع بجيادك وسأعطيك أربع نبوليونات ذهبية إذا اجتزت البو قبل أن يتمكن هؤلاء الرجال من اللحاق بي.

قال الحوذي: إتفقنا. لا تخف. هؤلاء مشاة، وسرعة جيادي

وحدها تكفي، لكي تتركهم بعيدين جداً عنا. وبقـوله هـذه الكلمات جعل الجياد تسرع.

إنزعج بطلنا من كلمة «خوف» استعملها الحوذي، لأنه كان خائفاً إلى أقصى درجة بعد أن تلقى ضربة السيف على وجهه.

قد نلتقي برجال يمتطون جياداً آتين صوبنا، قـال الحوذي الحكيم الذي كان يفكر بالنابوليونات الأربعة، والذين وراءنـا يمكنهم مناداتهم لإلقاء القبض علينا. وهذا معنـاه أعد تلقيم اسلحتك.

ـ آه! كم أنت شجاع يا كاهني الصغير. كانت ماريبتا تصبح وهي تقبّل فابريس، والمرأة المسنة تنظر إلى الخارج من نافذة العربة، وأدخلت رأسها بعد قليل من الوقت. وقالت لفابريس بشجاعة:

ـ لا أحد يتبعك، يا سيدي. ولا أحد أمامك على الطريق أنت تعرف كم موظفو الشرطة النمسوية شكلانيون. إذا رأوك تصل مسرعاً على سد نهر ألبو سيلقون القبض عليك.

نظر فابريس من نافذة باب العربة.

ـ إسرع. قال للحوذي. أي جواز سفر تحملين، قال للمرأة المسنة؟

ـ ثلاثة عوضاً عن واحـد أجابت. كلفنـا كل واحـد أربع

فرنكات: أليس هـذا مجحفا بحق فنـانين مسـرحيين مسـاكين يقضون السنة بالارتحال. هذا هو جـواز سفر جيليتي، فنـان مسرحي، وسيكون أنت، وهذان جوازان لمارييتا وأنا. ولكن جيليتي كان يحمل دراهمنا في جيبه. ما سيكون مصيرنا؟

ـ كم كان معه؟ سأل فابريس.

ـ أربعون ريالاً وخمسة فرنكات، قالت المرأة المسنة،

ـ يعني ستة، وقطع نقود صغيرة، قالت مارييتا ضاحكة؛ لا أريد أن يغش كاهننا الصغير.

ـ أليس من الطبيعي، يا سيد، أردفت المرأة المسنة بشجاعة كبرى، أن أسعى لآخذ منك أربعة وثلاثين ريالاً؟ ما قيمة أربعة وثلاثين ريالاً بعدما فقدنا حامينا؟ من سيهتم بسكننا، ويساوم الحوذي عند قيامنا بالرحلات. إنه يخيف الجميع. لم يكن جيليتي جميلاً ولكنه كان مناسباً لنا. ولو لم تقع هذه الحمقاء الصغيرة في حبّك لما كان جيليتي شك في شيء. ولكنت أعطيتنا مالاً كثيراً. أو كذلك إننا فقراء جداً.

تأثر فابريس. أخذ كيس نقوده وأعطى المرأة المسنة بعض النابوليونات.

ـ أترين، قال لها، لم يبق معي، سوى خمسة عشرا. هكذا من غير المجدي بعد اليوم مهاجمتي بطريقة غادرة.

قفزت مارييتا إلى عنقه، وأخذت تقبّله، وراحت المرأة المسنة تقبّل يديه. كانت العربة تتقدّم على مهل عندما رأوا من بعيد الحواجز الصفراء المرقنة بالأسود، تدل على الممتلكات النمسوية. قالت المرأة المسنة لفابريس.

ـ من الأفضل أن تذهب مشياً مع جواز سفر جيليتي في جيبك. سنتوقف قليلاً بحجة التزين. الجمرك سيفتش أغراضنا. أنت، اجتز كازال ـ مادجيوري بخطى لا مبالية. أدخل حتى إلى المقهى واشرب كوباً من ماء الحياة، وعندما تصبح خارج القرية أجرِ مسرعاً. الشرطة يقظة جداً في البلاد النمسوية، ستتبلغ سريعاً خبر مقتل رجل. أن تسافر بجواز ليس لك، هذا أكثر مما يلزم لدخول السجن سنتين. توجه يميناً إلى البو. لدى خروجك من المدينة إستأجر مركباً والتجىء سريعاً إلى رافين أو فيراري؛ أخرج بأسرع ما يمكن من الدول النمسوية. تستطيع أن تشتري جواز سفر آخر بمبلغ لويسين من أحد خفراء الجمرك. هذا الذي بين يديك سيكون شؤماً عليك؛ تذكر أنك قتلت رجلاً.

بينما فابريس يقترب، مشياً، من جسر السفن في كزال مفجيوري، أخذ يقرأ بانتباه جواز سفر جيليتي. كان خائفاً جداً. ويتذكر كل ما كان قاله له الكونت موسكا عن الخطر المحدق به في حال دخوله الدول النمسوية. كان يرى، منذ

الآن، على مائتي خطوة أمامه، الجسر المرعب الذي سيفتح له طريق الوصول إلى هذه البلاد التي عاصمتها بالنسبة إليه سبيلبرغ. ولكن هل بالإمكان التصرف بشكل آخر؟ دوقية مودينا التي تحدّ من الجنوب دولة بارما، كانت تعيد إلى هذه الأخيرة الهاربين بموجب اتفاق صريح؛ حدود الدولة التي تمتد من الجبال، كانت بعيدة جداً. وكانت مغامرته معروفة في بارما قبل أن يصل إلى هذه الجبال؛ لم يبق إذاً سوى دول النمسا على ضفة البو الشمالية. قبل أن يكون لديهم الوقت للكتابة إلى السلطات النمسوية بتوقيفه، ستنقضي ربما ستة وثلاثون ساعة أو يومان. بعد التفكير ملياً، أحرق فابريس بنار سيجاره جواز سفره الشخصي؛ فمن الأفضل له أن يكون متشرداً من أن يكون فابريس دل دونغو إذ من الممكن أن يفتش.

بصرف النظر عن النفور الطبيعي لرهن حياته بجواز سفر جيليتي البائس، ينطوي هذا على مصاعب أخرى: تصل قامة فابريس إلى خمسة أقدام وخمس بوصات على الأكثر، لا خمسة أقدام وعشر بوصات كما يذكر الجواز؛ كان عمره يقارب الأربعة وعشرين عاماً ويبدو أكثر فتوة، بينما عمر جيليتي تسعة وثلاثون عاماً. تنزه نصف ساعة على سد مسّاند للبو مجاور لجسر السفن، قبل أن يقرر النزول عليه. بمَ كنت أنصح رجلاً آخر لو قدر له أن يتواجد مكاني؛ قال لنفسه: طبعاً، أن يمر. ثمة خطر مع البقاء في دولة بارما؛ يمكن أن يرسل شرطي لملاحقة رجل

ارتكب جريمة قتل، حتى ولو كان ذلك على حساب حيـ به. استعرض فابريس موجودات جيوبه، مزّق كل الأوراق، ولم يحتفظ إلا بمنديل وعلبة سكاير. كان يهمه أن يختصر عملية التفتيش التي سيخضع لها. فكر باعتراض مخيف قد يواجهونه به، لم يكن يجد له سوى أجوبة سيئة: سيقول أن اسمه جيليتي وكل ثيابه تحمل إشارة ف. د.

إن فابريس من أولئك المعذبين بمخيلتهم؛ وهذا عيب رجال الفكر في إيطاليا. إن جندياً فرنسياً أدنى شجاعة، لكان تقدّم فوراً على الجسر، دون أن يفكر مسبقاً بأية صعوبة، ولكان بذل كل ثباته. وفابريس كان أبعد ما يكون عن الشجاعة، لما قال له عند طرف الجسر، رجل قصير يرتدي بزة رمادية: أدخل إلى مكتب الشرطة من أجل جواز سفرك.

جدران المكتب متّسخة ومملوءة بالمسامير يعلقون عليها الموظفون غلايينهم وقبعاتهم القذرة. كان مكتب الكبير من خشب الصنوبر يعتصمون وراءه، مبقعاً بالحبر والنبيذ. سجلّان أو ثلاثة كبار مغلفة بجلد أخضر تحمل بقعاً من كل الألوان، وأطراف صفحاتها مسودة من لمس الأيدي. على السجلات المكدسة الواحد فوق الآخر، ثلاثة أكاليل غار، استعملت لمناسبة أحد أعياد الأمبراطور.

ذهل فابريس لكل هذه التفاصيل وشق عليه الأمر. ها هو

دفع ثمن البذخ الرائع المليء بالطراوة الذي كان يظهر بوضوح في شقته الجميلة في قصر سنسفرينا. كان مجبراً أن يدخل إلى هذا المكتب القذر، وأن يظهر فيه كشخص من الطبقة الدنيا؛ ويخضع إلى استجواب.

الموظف الذي مدّ يداً صفراء ليأخذ جواز سفره، كان صغيراً وأسود، كان يحمل حلية في ربطة عنقه. بورجوازي سيء الطبع، قال فابريس في نفسه. بدا الشخص شديد الدهشة وهو يقرأ جواز السفر. دامت القراءة خمس دقائق.

ـ حصل لك حادث، قال للغريب، وهو يدل بنظره على وجنته.

ـ نعم، رمانا الحوذي تحت سد البو. وعاد الصمت ليخيّم من جديد.

قال فابريس في نفسه: وصلت، سيقول لي أنه آسف لأن ينقل إلي خبراً سيئاً، وإنني موقوف. خالجت رأس بطلنا كل أنواع الأفكار المجنونة. فكّر مثلاً، أن يهرب من باب المكتب الذي بقي مشرّعاً. سأخلع عني ثوبي وارتمي في مياه ألبو واجتازه سباحة. كل شيء أفضل من سبيلبرغ. كان موظف الشرطة يحدق به فيما هو يحسب فرص نجاح هذه المغامرة. الخطر يعطي العاقل عادة عبقرية؛ يسمو به فوق ذاته، ويوحي إلى رجل الخيال روايات جريئة ولكنها غير معقولة.

عين فابريس تقدح شرراً، وموظف الشرطة المزيّن بحلاه النحاسية يوجه إليه أنظاراً فاحصة. كان فابريس يقول إذا قتلته سأحكم عشرين سنة بجريمة قتل مع الأشغال الشاقة، أو بالموت. وهذا أقل بشاعة من سبيلبرغ، مع سلسلة وزنها ماية وعشرون ليبرة في كل رجل، وثماني أونصات خبز كطعام. وهذا يدوم عشرين سنة؛ ولن أخرج إلاّ في الأربعة والأربعين كان منطق فابريس ينسى أن لا شيء يدل موظف البوليس أنه هو فابريس دل دونغو العاصي، إذ أنه أحرق جواز سفره.

كان خائفاً، ولكان هلع أكثر لو عرف أفكار موظف الشرطة. كان هذا الرجل صديق جيليتي؛ دهشته عندما رأى جواز سفره بين يدي رجل آخر؛ فكّر أن يكون جيليتي باع جواز سفره إلى هذا الشاب الجميل، الذي كما يبدو ارتكب عملاً شريراً في بارما؛ إذا ألقيت القبض عليه سيتعرض جيليتي للخطر سيكتشفون بسهولة أنه باع جواز سفره. ولكن ماذا سيقول رؤسائي إذاعلموا أني أنا، صديق جيليتي، وقعت جوازاً يحمله سواه؟ وقف الموظف وهو يتثاءب وقال لفابريس: إنتظر، يا سيدي، ثم بعادة بوليسية أضاف ثمة صعوبة. قال فابريس في سره: الصعوبة هي هروبي.

ترك الموظف المكتب، وأبقى بابه مفتوحاً. وبقي الجواز على الطاولة. فكر فابريس: الخطر أكيد. سآخذ جوازي ثم اجتاز

الجسر على مهل. وسأقول للدركي إذا سألني، أني نسيت أن أوقّع على جوازي من مفوض الشرطة، عند آخر واحدة من مقاطعات بارما. كان فابريس يحمل جواز سفره بيده، عندما سمع بدهشة يصعب التعبير عنها، موظف الشرطة، صاحب الحلى النحاسية يقول:

ـ لم أعد قادراً. الحر يخنقني، أنا ذاهب إلى المقهى لأحتسي نصف كوب. أدخل إلى المكتب عندما تنهي غليونك. ثمة جواز سفر للتوقيع، صاحبه الغريب هنا.

كان فابريس الذي يخرج بلا ضجة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شاب جميل كان يقول لنفسه وهو يدندن: فلأوقّع هذا الجواز سأضع عليه تاشيرتي.

ـ إلى أين يريد السيد أن يتوجّه؟

ـ إلى مانتوفا والبندقية وفيراري.

ـ فيراري، ليكن. قال الموظف وهو يصفر؛ أخذ ختماً، وطبع تأشيرة المرور بالحبر الأزرق على الجواز وكتب بسرعة كلمات مانتوفا، البندقية وفيراري في الفسحة البيضاء التي تركها الختم، ثم أدار يده عدة مرات في الهواء ووقّع، وغمس الريشة ثانية بالحبر لتأشيرته التي نفذها ببطء واهتمام. كان فابريس يتبع تحركات هذه الريشة. نظر الموظف إلى تأشيرته بإعجاب وأضاف إليها خمس أو ست نقاط، وأخيراً سلّم الجواز إلى فابريس وهو

يقول بخفة: رحلة موفقة، يا سيدي.

كان فابريس يبتعد بخطى يسعى أن يخفي سرعتها عندما شعر بمن يـوقفه بيده اليسرى: وضع يده عفويـاً على مقبض خنجره ولو لم يرَ نفسه محاطاً بالبيوت لكان ربما ارتكب حماقة. عندما رآه الرجل الذي يمسك يده اليسرى، هلعاً قال له بمثابة اعتذار:

ـ ولكن ناديتك، ثلاث مرات دون أن تجيب هل لديك ما تصرح به للجمرك؟

ـ لا أحمل سوى منديلي، وأنا ذاهب إلى مكان قريب من هنا، لاصطاد عند أحد أقاربي.

لو طلب إليه أن يسمي ذلك القريب، لكان ارتبك. كان فابريس مبتلاً بسبب الحر الشديد واضطرابه، كما لو سقط في البو. لا تنقصني الشجاعة بين الممثلين ولكن الموظفين المزينين بحلى النحاس، يخرجونني عن طوري. حول هذه الفكرة سأنظم قصيدة هزلية للدوقة.

ما أن دخل إلى كازال ـ مادجيوري حتى تبع شارعا رديئاً ينحدر باتجاه البو. قال في نفسه، أنا بحاجة إلى معونة باخوس وسيريس، ودخل إلى حانوت أمامه خرقة رمـادية معلقـة على عود، كتبت عليها كلمة تراتوريا. شرشف يسنده دولاباً خشب

رقيقان جداً، ويتدلى حتى ثلاثة أقدام من الأرض، يجنب باب تراتوريا الأشعة المنصبة مباشرة من الشمس. هنا استقبلت بطلنا امرأة نصف عارية وفاتنة، باحترام، مما سبّب له سروراً بالغاً. قال لها سريعاً أنه جائع جداً. بينما كانت المرأة تحضر الفطور، دخل رجل عمره ثلاثون، دون أن يحيّي. ثم هبّ عن المقعد حيث كان ارتمى بدالة، وقال لفابريس: إحيي سعادتك. كان فابريس شديد المرح في تلك اللحظة، وعوضاً من التفكير بمشاريع مؤذية، أجاب ضاحكاً:

ـ يا للشيطان، من أين تعرف سعادتي؟

ـ كيف سعادتك لا تعرف لدوفيك، أحد سائقي عربات الدوقة سنسفرينا؟ كنت دائماً أصاب بالحمى في ساكا، البيت الريفي، حيث نذهب كل سنة. طلبت من السيدة نفقتي وتركت العمل. وها أنا ثريّ؛ فعوضاً عن نفقة إثني عشر ريالاً في السنة تحق لي، على الأكثر، قالت لي السيدة إنها تمنحني أربعة وعشرين كي تسنح لي فرصة نظم القصائد، إذ أني شاعر باللغة العامية. وقال لي حضرة الكونت إني إذا صادف مرة وكنت بحاجة إلى دراهم، فليس لي سوى أن أقصده وأكلمه. تشرفت وقدت سموك خلال إحدى المراحل من حياتك، عندما ذهبت للإختلاء والقيام برياضة روحية، كمسيحي حقيقي في صومعة فيليبجيا.

نظر فابريس إلى هذا الرجل، وتـذكّره قليـلاً: كان أحـد الحوذيين الأكثر أناقة في قصر سنسفرينا. قال في نفسه: أصبح ثرياً، وكان كل ما يملك من ثياب: قميص قديم ممزق وبنطلون قماش بال مصبوغ بالأسود يصل بالكاد إلى الـركبتين. كـان يكمل عدة اللباس هذه حذاء وقبعة قديمان، لم يحلق منذ خمسة عشر يوماً. وبينما فابريس يأكل عجة البيض حدثه الند للند. وبدا له أن لدوفيك عشيق المضيفة. أنهى فطوره وقال له بصوت منخفض: لدي كلمة أقولها لك.

قال لدوفيك بتودد: يمكن أن تتكلم أمامها بحرية، إنها امرأة طيبة.

ـ إذاً يـا صديقيّ، أردف فـابريس دون تـردّد، أنا تعيس وبحـاجـة إلى معـونتكـما؟ أولاً لا تمت مشكلتي بشيء إلى السياسة. إني بكل بساطة، قتلت رجلاً كان يريد أن يغتالني لأني كنت أتحدث مع عشيقته.

قالت المضيفة: مسكين!

ـ ليعتمد سموك علي! صاح الحوذي بعينين تنمان عن أشد الإخلاص؟ أين يريد سموك أن يتجه؟

ـ إلى فيراري. معي جواز سفر، ولكني أفضل ألاّ أحـدث رجال الدرك عنه، فقد يكونون على علم بحادث وفاة جيليتي.

ـ متى قتلته؟

ـ هذا الصباح، في السادسة.

ـ أليس على ثياب سموك دماء؟ قالت المضيفة.

ـ كنت أفكر بهذا الأمر، قال الحوذي، قماش هذه الثياب، ناعم جداً، ليس كثيراً نوعه، في قرانا، وهذا ما سيلفت إليك الأنظار! أنا ذاهب لأشتري لك ثياباً من عند اليهودي.

إن قامة سموك على قدر قامتي تقريباً، ولكنك أنحف مني قليلاً.

أرجو، ألا تدعوني سموّاً من الآن فصاعداً، كي لا نلفت إلينا الانتباه.

ـ نعم، سموك، أجاب الحوذي، وهو يخرج من الحانوت.

ـ ولكن... ! صاح فابريس. والمال؟ عد إلى هنا.

ـ كيف تتكلم على المال؟! قالت المضيفة. معه سبعة وثلاثون ريالاً، وهي بخدمتك كلها. أنا بذاتي، أضافت وهي تخفض صوتها أملك أربعين ريالاً أقدمها لك من كل قلبي. عندما تحصل مثل هذه الأحداث لإنسان، قد لا يملك المال دائماً.

كان فابريس تعرّى من ثوبه لدى دخوله إلى تراتوريا بسبب الحرارة.

ـ إنك ترتدي صدرة يمكن أن تسبب لنا بعض الحرج إذا دخل أحد. هذه القماشة الانكليزية الجميلة تلفت الانتباه. أعطت لصاحبنا الهارب صدرة نسيج مصبوغة بالأسود. دخل إلى الحانوت شاب من باب داخلي، على شيء من الأناقة في لباسه.

ـ إنه زوجي، قالت المضيفة. بيير ـ انطوان، قالت للزوج، إنه صديق لدوفيك! تعرض لحادث هذا الصباح، في الناحية الأخرى من النهر وهو يود الهرب إلى فيراري.

ـ سنجعله يمرّ. قال الزوج بتهذيب، لدينا مركب شارل ـ جوزف.

بسبب ضعف آخر عند بطلنا، وسنعترف به بكل طبيعته كما فعلنا لما أخبرنا عن خوفه في مكتب الشرطة عند طرف الجسر: كانت عيناه دامعتين وفي حالة من التأثر البالغ بسبب الإخلاص الكامل عند هؤلاء القرويين! كان يفكر أيضاً بطيبة عمته المميزة وأراد لو كان في استطاعته إغناء هؤلاء الناس. دخل لدوفيك حاملاً رزمة:

ـ الوداع، أنت الآخر؟ قال له الزوج بصداقة حقة.

ـ الأمر لا يتعلق بهذا، أردف لدوفيك قلقاً، بدأ الناس يتكلمون عليك ولاحظوا أنك ترددت وأنت داخل إلى حانوتنا كنت تغادر الشارع كرجل يسعى أن يختبىء.

ـ إصعد سريعاً إلى الغرفة، قال الزوج.

الغرفة فسيحة وجميلة جدّاً، ولها على النافذتين قماشة رمادية مكان الزجاج. فيها أربعة أسرة، عرض الواحد ستة أقدام وعلوه خمسة.

ـ وسريعاً! سريعاً! قال لدوفيك: في الشارع دركي مغرور وصل حديثاً، أراد أن يغازل المرأة الجميلة التي في الأسفل، فتكهنت له يذهب في مهمة على الطريق ويصادف رصاصة؟ إذا اعتزم هذا الكلب أن يتكلم على سعادتكم، يكون يبغي أن ينالنا بسوء وسيجرب أن يلقي القبض عليك هنا حتى يلحق الضرر بسمعة تراتوريا تيودولند.

ـ عجباً أردف لدوفيك لدى رؤيته قميص فابريس مبقعة بالدم، وجروحه مربوطة بمناديل. دافع قليلاً عن نفسه إذاً؟ وهذه مائة مرة أكثر مما يلزم لإلقاء القبض عليك! لم أشتر قميصاً في حياتي. فتح خزانة الزوج، دون كلفة واعطى واحدة إلى فابريس، فلبس ثياب بورجوازي قروي من الأثرياء. أنزل لدوفيك كيساً شبكياً معلقاً على الجدار، ووضع ثياب فابريس في السلة حيث السمك، ونزل راكضاً وخرج بسرعة من باب خلفي، تبعه فابريس.

ـ تيودولند، صاح عندما مرّ بالقرب من الحانوت، خبئي ما يوجد في الأعلى، نحن ذاهبان للانتظار بين أشجار الصفصاف!

أنت وبيير ـ أنطوان أرسلا لنا سريعاً مركباً ـ سندفع جيداً.

جعل لدوفيك فابريس يجتاز عشرين خندقاً، بين ألواح خشب طويلة جداً ومرنة تستعمل لجسور على أوسع الخنـادق! وكان لدوفيك يرفع الألواح بعد المرور. لما وصل إلى القناة الأخيرة رفع اللوح بعجلة.

وقال: لنسترح الآن. على هذا الدركي الكلب، أن يجتاز فرسخين كي يصل إلى سموّك. قال لفابريس: ها أنت ممتقع اللون. لم أنسَ قنينة ماء الحياة.

ـ تأتي في الوقت المناسب. بدأ جرح الفخذ يؤلمني! خفت خوفاً شديداً في مكتب الشرطة عند طرف الجسر.

قال لدوفيك: أعرف. ولكني لا أفهم قط، كيف تجرأت ودخلت إلى هذا المكان بقميص مغطى بالدماء. أما بما يختص بالجروح، فأنا خبير بالموضوع. ساضعك في مكان مريح يمكنك فيه أن تنام ساعة! سيأتي المركب لأخذنا! أو عندما تكون ارتحت قليلاً، سنمشي فرسخين وسأقودك إلى إحدى الطواحين حيث سأستقل مركباً. سموك يعرف أكثر مني: ستكون السيـدة في حالة من اليأس الشديد متى علمت بالحادث! سيقولون لها إنك جرحت بالغاً وربما قالوا لها أيضاً إنك قتلت الآخر غدراً. لن تترك المركيزة رافرسي الفرصة تفوتها وستشيع أخباراً سيئة قد تحزن السيدة. يتمكن سموك من الكتابة.

ـ وما العمل لإيصال الرسالة؟.

ـ عمال الطاحون حيث نذهب، يربحون اثنتي عشرة نحاسة كل يوم؛ يلزمهم يـوم ونصف كي يصلوا إلى بارمـا، فتكلف الرحلة أربعة فرنكات؛ فرنكان لاستهلاك الحذاء، إذ قام بالجولة رجل بائس مثلي. وستكون الأجرة ستة فرنكات؛ وبما أنها لخدمة سيد مثلك سأدفع اثني عشر فرنكاً.

عندما وصلوا مكان الاستراحة في غابـة صفصاف، ملتفـةٍ ولطيفة الجو، ذهب لدوفيك مسيرة ساعة ليجلب حبراً وورقاً. يا إلهي، كم أنا مرتاح هنا! صاح فابريس. أيتها الثروة وداعاً. لن أصبح أسقفاً أبداً.

لما عاد لدوفيك وجده نائماً نوماً عميقاً، ولم يرد إيقاظه. لم يصل المركب إلّا عند غياب الشمس. رآه لدوفيك سريعاً يظهر في البعد. نادى فابريس الذي كان كتب رسالتين.

ـ سموك أكثر معرفة مني، قال لودفيك مغتماً، وأخشى أن أكدره في الصميم، مهما قال، إذا أضفت أمراً.

ـ أنا لست أبله بالقدر الذي تعتقد، أجاب فابريس، ومهما تتمكن أن تقول، ستكون أبداً في عينيّ خـادم عمتي الأمين ورجلاً قام كل ما باستطاعته ليخرجني من ورطة صعبة.

لزمت تصريحـات كثيرة أخـرى لإقناع لـدوفيك كي يتكلم وعندما اتخذ قراره، بدأ بمقدمة دامت خمس دقائق. نفذ صبر

فابريس، ثم قال في نفسه: من المخطىء؟ غرورنا الذي رآه هذا الرجل من أعلى مقعده. الخلاص لدوفيك حمله أخيراً أن يتعرض لخطر الدم بكل وضوح.

ـ كم المركيزة رافرستي تعطي إلى الراجل الذي سترسله إلى بارما، للحصول على هاتين الرسالتين! إنهما من خطك وبالتالي أدلة قضائية ضدك. ستعتقد سعادتك أني فضولي غير متحفظ وستخجل أن تضع تحت عيني الدوقة خط حوذي! ولكن سلامتك تفتح فمي مع أنك تعتقدني وقحاً. ألا يستطيع سموك أن يملي علي هاتين الرسالتين؟ عندئذ سأكون وحدي معرضاً للخطر، وإن قليلاً، وسأقول عند الحاجة أنك ظهرت وسط حقل مع محبرة عظم بيد ومسدس في الأخرى وأمرتني بالكتابة.

ـ أعطني يدك، يا لدوفيك العزيز، صاح فابريس، لكي أبرهن لك أنني لن أخفي السرّ عن صديق مثلك. إنسخ هاتين الرسالتين كما هما. وأدرك لدوفيك كل عظم الثقة هذه، وتأثر بسبب ذلك تأثيراً لا حدود له، ولكن بعد بضعة أسطر بينما كان يرى المركب يتقدم بسرعة على النهر، قال لفابريس:

ـ ستنهي الرسالتين في أقرب وقت، إذا شاء سموك أن يمليها علي. وبعدهما كتب فابريس أ و ب على السطر الأخير وعلى قصاصة ورق دعكها بعدئذٍ، كتب بالفرنسية: ثقتي بألف و ب. كان على الراجل أن يخبىء هذه الورقة المغضّنة في ثيابه.

لما وصل المركب على مدى الصوت، نادى لدوفيك البحارة بأسماء غير اسمائهم! لم يجيبوا بل رسوا خمسماية قامة أدنى من المكان الموجودين فيه، وهم ينظرون إلى كل الاتجاهات ليروا إذا كان لا يبصرهم أحد رجال الجمارك.

ـ أنا رهن أوامرك، قال لدوفيك لفابريس؛ تريد أن أحمل بنفسي الرسائل إلى بارما؟ تريد أن أرافقك إلى فيراري؟.

ـ مرافقتي إلى فيراري خدمة كنت لا أجرؤ طلبها منك. يجب مغادرة السفينة. والسعي إلى دخول المدينة دون إبراز جواز السفر. اني أشعر بأعظم الاشمئزاز أن أسافر باسم جيليتي، ولا أرى سواك يستطيع أن يشتري لي جوازاً آخر.

ـ لماذا لم تتكلم في كازال مدجيوري! أعرف جاسوساً كان باعني جوازاً ممتازاً، بسعر بخس، بأربعين أو خمسين فرنك.

كان أحد البحارة ولد على الضفة اليمنى من البو وبالتالي لم يكن بحاجة إلى جواز سفر للخارج ليذهب إلى بارما، فاهتم بإيصال الرسائل. كان لدوفيك يعرف أن يحرك المجذاف. أخذ على عاتقه أن يقود المركب مع الآخر.

قال: سنجد عند أسفل البو، عدة زوارق مسلحة، للشرطة، وسأعرف كيف ابتعد عنها. أجبروا أكثر من عشر مرات على الاختباء وسط الجزر الصغيرة على سطح الماء، المثقلة بأشجار الصفصاف. نزلوا ثلاث مرات إلى اليابسة، لإفساح السبيل

لمرور الزوارق الفارغة أمام زوارق الشرطة. انتهز لدوفيك فرصة أوقات الفراغ هذه ليتلو على فابريس عدداً من قصائده.

كانت العواصف على قدر كاف من الصدق. ولكن التعبير عنها أضعفها فلم تعد تستحق أن تكتب؟ والطريف في الأمر: كان لدى هذا الحوذي السابق ميول ووجهات نظر جذابة. وما أن يكتب حتى يصبح بارداً وعادياً. قال فابريس في نفسه: إنه عكس كل ما نراه حولنا في العالم: انهم يعرفون اليوم التعبير بلطف عن كل شيء ولكن ليس عند القلوب ما تقوله. وأدرك أن أكبر لذة يمكنه أن يوفّرها لهذا الخادم الأمين، هي بتصحيح الأخطاء الإملائية في الصوناتات التي يكتبها.

كان لدوفيك يقول: يضحكون مني عندما أعير دفتري إذا تنازل سموك وأملى علي الكلمات حرفاً حرفاً لن يجد الحاسدون ما يقولونه: الاملاء لا يصنع العبقرية. لم يتمكن فابريس أن ينزل إلى اليابسة بأمان، في حقل الصفصاف، فرسخاً قبل الوصول إلى جسر لاغو أوسكورو إلا غداه اليوم التالي. بقي مختبئاً طيلة النهار في مقنبة بينما سبقه لدوفيك إلى فيراري. استأجر مسكناً صغيراً عند يهودي فقير، أدرك فوراً أن ثمة مالاً للكسب إذا عرف أن يصمت. دخل فابريس فيراري مساء عند الغروب وهو يمتطي جواداً صغيراً؛ كان بحاجة ماسة إلى هذه المعونة. وكانت الحرارة على النهر أثرت فيه؛ وطعنة السكين في

فخذه، وضربة السيف من جيليتي وجرح كتفه، عند بداية المعركة، التهبت وسببت له ارتفاعاً في الحرارة.

١٢

كان اليهودي، صاحب المسكن، استدعى طبيباً كتوماً أدرك بدوره أن الفرصة متيسرة لكسب بعض المال مقابل السكوت. قال للخادم لدوفيك أن ضميره يفرض عليه تقديم تقريره إلى الشرطة عن جروح الشاب الذي كان لدوفيك يدعوه أخاه.

أضاف: القانون صريح، من الواضح أن أخاك لم يجرح نفسه كما يخبر، وهو يسقط عن الدرج وهو يحمل سكيناً مفتوحاً بيده.

أجاب لدوفيك هذا الطبيب الشريف، إنه إذا ارتأى أن يستسلم لايحاءات ضميره، سيكون له الشرف، قبل مبارحة فيراري أن يهاجمه من أجل هذا بسكين مفتوح بيده. وعندما عرض هذا الحدث الطارىء على فابريس، لأمه هذا بشدّة، ولكنه لم يعد من دقيقة واحدة للرحيل. قال لدوفيك لليهودي أنه يريد أن ينزه أخاه، فذهب وأتى بعربة وخرج صديقانا من البيت كي لا يعودا إليه أبداً. يجد القارىء أخبار كل هذه المساعي، بدون شك طويلة جداً. ومما يجعلها ضرورية، عدم وجود جواز سفر: لم يعد في فرنسا من وجود لمثل هذا النوع من

الاهتمامات؛ ولكن في ايطاليا، وخاصة في جواز البو، يتكلم الجميع على جواز السفر. ما أن خرجا من فيراري دون عائق كما للقيام بنزهة، حتى أرجع لدوفيك العربة، ثم دخل المدينة ثانية من باب آخر وعاد لأخذ فابريس بعربة أخرى كان استأجرها لاجتياز أثني عشر فرسخاً. عندما وصل صديقانا إلى القرب من بولونيا، جعلا الحوذي يقودهما عبر الحقول على الطريق من فلورنسا إلى بولونيا. قضيا الليل في أحقر نزل أمكنهما اكتشافه، وغداة اليوم التالي لوصولهما شعر فابريس بقوة تساعده على السير قليلاً، فدخلا بولونيا كمتنزهين. كانا أحرقا جواز سفر جيليتي: وفاة الممثل وجب أن تكون عرفت، وأصبح خطر إلقاء القبض عليهما كأناس دون جواز سفر أقل منه بحوزتهما جواز سفر رجل قتيل.

كان لدوفيك على معرفة في بولونيا بخادمين أو ثلاثة في بيوت نافذين. اتفق أن يدخل في محادثات معهم. قال لهم أنه يأتي من فلورنسا في رحلة مع أخيه الأصغر، وشعر هذا بحاجة إلى النوم، فتركه يذهب وحده ساعة قبل شروق الشمس. كان عليه أن ينضم إليه في القرية حيث سيتوقف لدوفيك، حتى تمر ساعات القيظ الشديد. ولكنه لما لم يصادف أخاه قرر العودة. وجده جريحاً بضربة حجر وعدة طعنات سكين، إضافة إلى أنه سرق من أناس أرادوا به شراً. كان هذا الأخ جميلاً، ويعرف فن تضميد جراح الجياد، ويقرأ ويكتب، ويود أن يجد عملاً في

بيت لائق. احتفظ لدوفيك لنفسه بحق الإضافة عندما تتوفر الفرصة، أن فابريس لما سقط، هرب السرقة حاملين معهم الحافظة الصغيرة الحاوية على ثيابهما وجوازي سفرهما.

شعر فابريس لدى وصوله إلى بولونيا بتعب شديد. ولم يجرؤ، دون جواز، أن يظهر في نزل، فدخل إلى كنيسة القديسة بترونا، حيث الطراوة العذبة، فانتعش. قال فجأة في نفسه: كم أنا كافر بالنعمة. أدخل إلى كنيسة لكي أجلس كما في مقهى؛ ارتمى على ركبتيه وشكر الله على الحماية الوثيقة التي كان محاطاً بها منذ طرأت عليه مصيبة قتل جيليتي. الخطر الذي كان يرجفه: أن يتعرف عليه مكتب شرطة كازال مدجيوري. كان يقول في نفسه كيف لم ينتبه هذا الموظف الذي تدل عيناه على كثير من الظن، وهو قرأ جواز سفري ثلاث مرات، ان طولي لا يبلغ ستة أقدام وعشر بوصات، وان ليس لي من العمر ثمانية وثلاثون عاماً، وأنني لست منقوشاً بالجدري، بكم من النعم أنا مدين لك، يا إلهي؟ تأخرت حتى الآن، في وضع عدمي عند قدميك! أرادت كبريائي أنني مدين بسعادتي للحكمة البشرية التافهة، بالنجاة من سبيلبرغ كان يفتح أبوابه ليبتلعني.

قضى فابريس أكثر من ساعة في تأثر بالغ بين أحضان رحمة الله الواسعة. اقترب لدوفيك منه، فلم يسمعه مقبلاً ووقف مواجهة له. كان فابريس يخفي جبهته بين يديه. رفع رأسه،

فرأى الدموع تترقرق على خديّ خادمه الأمين.

قال فابريس بلهجة لا تخلو من الخشونة: عد إلي بعد ساعة.

غفر لدوفيك هذه اللهجة بسبب التقوى. تلا فابريس عدة مرات سبع مزامير التوبة التي كان يعرفها غيباً، كان يتوقف طويلاً عند الآيات التي لها علاقة بوضعه الحاضر.

كان فابريس يطلب المغفرة من الله عن أشياء كثيرة؛ وما يستلفت النظر، انه لم يمر بخاطره أن يحسب بين خطاياه طموحه في أن يصبح أسقفاً فقط، لأن الكونت موسكا كان رئيساً للوزراء ويجد أن هذا المركز والحياة الرحبة التي يوفرها مناسبة لابن أخ الدوقة. كان اشتهاه دون رغبة، ولكن في النهاية فكر به تماماً كمركز وزير أو جنرال. لم يخطر بباله أن باستطاعته أن يكون مهتماً بمشروع الدوقة هذا. هذه سمة بارزة لتدينه، أكسبه إياها تعليم اليسوعيين الميلانيين. هذا التديّن يحرم من جرأة التفكير بالأمور غير العادية ويمنع خاصة فحص الضمير الشخصي كأعظم الخطايا، خطوة نحو البروتستنتية. يجب لمعرفة الذنوب، أن يسأل الإنسان كاهنه أو أن يقرأ لائحة الخطايا كما مطبوعة في الكتب المعنوية: التحضير لسر التوبة. كان فابريس يحفظ لائحة الخطايا المكتوبة باللاتينية كما تعلّمها في المجمع الاكليريكي، في نابولي. هكذا، وهو يستمع هذه اللائحة، وصل إلى مادة القتل، اتهم نفسه أمام الله بأنه قتل رجلاً ولكن

دفاعاً عن نفسه. كان مرّ سريعاً ودون أن يعير أي انتباه للمواضيع المختلفة المتعلقة بخطيئة السيمونية (الحصول بواسطة المال على الرتب الكهنوتية). لو عرض عليه أن يعطي مائة لويسية ليصبح نائباً أسقفياً أول، لدى أسقف بارما، لكان رفض الفكرة برعب. ولكن، لا ينقصه العقل ولا المنطق، فلم يخطر بباله ولو مرة، أن نفوذ الكونت موسكا، وهو لصالحه، يمكن أن يعتبر سيمفونية. هذا هو انتصار التربية اليسوعية: عدم اعارة الانتباه لاشياء واضحة وضوح النهار. كان بإمكان فرنسي ناشىء وسط معالم ذات طابع شخصي والسخرية الباريسية، اتهام فابريس بالخداع، دون أن يكون سيء النية في اللحظة التي كان يعترف بطلنا إلى الله بمنتهى الصدق وأعمق الحنان.

لم يخرج فابريس من الكنيسة إلا بعد ما استعد للاعتراف الذي عزم أن يتمّمه في اليوم التالي؛ وجد لدوفيك جالساً على درجات الرواق الحجري العريض المرتفع في الساحة الكبرى أمام شرفة القديسة بترونا. وكما الهواء، بعد عاصفة قوية أكثر نقاوة، هكذا كانت نفس فابريس هادئة، سعيدة.

أحسّ بالارتياح التام، ولا أشعر بجروحي، قال للدوفيك وهو يقترب منه؛ ولكن أطلب المغفرة؛ أجبتك بغضب عندما أتيت تكلمني في الكنيسة. كنت أقوم بفحص ضميري. أين اصبحت أعمالنا؟.

ـ أفضل مما كانت عليه: ربطت مسكناً، لا يليق حقيقة بسموك، عند زوجة أحد أصدقائي، شديدة الجمال ومرتبطة وثيقاً بأحد أفراد الشرطة. غداً سأذهب وأصرّح أن جوازي سفرنا سرقا؛ ولكن سأدفع أجرة نقل الرسالة التي ستكتبها الشركة إلى كازال مدجيوري، لتعرف إذا كان في هذه المقاطعة شخص يدعى لدوفيك سان ـ ميشلي عنده أخ يدعى فابريس، في خدمة الدوقة سنسفرينا في بارما. كل شيء قد انتهى ونجونا.

بدا فابريس فجأة رزيناً: رجا لدوفيك أن ينتظره برهة. عاد إلى الكنيسة وهو يركض، وما أصبح في داخلها حتى ارتمى على ركبتيه يقبّل بتواضع البلاط، انها عجيبة، يا إلهي، كان يصيح، بللت الدموع عينيه: عندما وجدت نفسي مستعدة للعودة إلى الواجب نجيتني. يا إلهي! من الممكن أن أقتل يوماً في قضية: أذكر لحظة موتي الحالة التي توجد فيها نفسي. وتلا فابريس، من جديد بفيض من السرور، سبعة مزامير التوبة. قبل أن يخرج، اقترب من امرأة عجوز جالسة أمام تمثال كبير للعذراء وقرب مثلث من الحديد مركز عمودياً على قاعدة من المعدن نفسه. ـ كانت جهات هذا المثلث مغطاة بعدد كبير من الرؤوس المستدقة الطرف، مخصصة لوضع شموع صغيرة، تدفع تقوى المؤمنين إلى انشغالها أمام عذراء سيمابوي المشهورة. كانت سبع شموع فقط مضاءة، عند اقتراب فابريس؛ احتفظ فابريس بالظرف في

ذاكرته مع نية التأمل به لاحقاً على مهل.

قال للمرأة، كم ثمن الشموع؟.

- باجوكان الواحدة.

في الواقع لم تكن أكبر من مقبض ريشة، ولا يبلغ طولها قدماً واحدة.

- كم شمعة يمكن وضعها على مثلثك؟.

- ثلاث وستون إذ سبع منها مضاءة.

- آه! قال فابريس في نفسه: ثلاث وستون وسبع تساوي سبعين: وهذا أيضاً ما يجب ملاحظته. دفع ثمن الشموع، وضع بذاته السبع الأولى وأضاءها، ثم ركع ليقوم بكفارة وقال للمرأة المسنة وهو ينهض:

- انها من أجل الحصول على نعمة.

- أنا أموت من الجوع، قال فابريس للدوفيك، وهو ينضم إليه.

- يجب ألا ندخل مقهى، لنذهب إلى المنزل؛ سيدة البيت ستذهب وتشتري ما يتوجب لتناول الفطور؛ ستسرق عشرين درهماً، وستكون أكثر تعلقاً بالواصل الجديد.

هذا لا يؤدي إلا لإماتتي جوعاً ساعة طويلة أخرى، قال فابريس، وهو يضحك بصفاء طفل، ودخل إلى مقهى مجاور لسان بترونا. شاهد ببالغ الدهشة، أمام طاولة مجاورة للتي كان يجلس إليها، بيبي، رئيس خدم عمته، هو نفسه الذي كان أتى

لملاقاته في جنيف. أشار إليه فابريس أن يصمت؛ ثم بعد تناول فطوره بسرعة، وبسمة السعادة تتيه على شفتيه؛ وقف تبعه بيبي وللمرة الثالثة دخل بطلنا إلى كنيسة سان ـ بترونا ومن قبيل الوقاية بقي لدوفيك يتنزه في الساحة.

ـ آه! يا إلهي، يا مونسينيورا كيف جراحك؟ الدوقة منشغلة البال اعتقدت لمدة يوم كامل؛ أنك مت في إحدى جزر البو سأوفد إليها رسولاً في الحال. افتش عنك منذ ستة أيام، قضيت منها ثلاثة في فيراري، باحثاً من نزل إلى آخر.

ـ معك جواز سفر لي؟.

ـ معي ثلاثة كل مختلف عن الآخر: الواحد يحمل أسما سموّك والقابك، الثاني باسمك فقط، والثالث باسم جوزف بوسي المستعار. وكل جواز يخولك الوصول، حسب ما يريد سموك إلى فلورنسا أو إلى مودينا. لا يتعلق الأمر في القيام بنزهة خارج المدينة. يسر حضرة الكونت أن يراك في نزل دل بليغرينو، فمديره صديقه.

بدا فابريس، يمشي دون هدى. تقدم إلى صحن الكنيسة الأيمن حتى المكان الذي تشتعل فيه الشموع. تسمرت عيناه على عذراء سيمابوي، ثم قال لبيبي وهو يسجد: يجب أن أقدم شكري لحظة. فعل بيبي مثله. عند خروجهما من الكنيسة، لاحظ بيبي أنه يعطي قطعة عشرين فرنكاً إلى أول فقير طلب

منه صدقة. أخذ هذا المتسول يصيح شاكراً مما اجتـذب على خطى المحسن جمهوراً من الفقراء يملأون عادة ساحة سان ـ بتـرونـا. كـانـوا كلهم يـريـدون الحصـول عـلى حصتهم من النابوليونات. يئست النساء من اختراق الجماعة الصاخبة التي كانت تحيط به، فانقضضن على فابريس، وهن يجدن من غير الصحيح أنه أعطى نابوليونه ليوزع على جميع شحاذي الله. رفع بيبي عصاه ذات المقبض الذهبي، وأمـرهنّ بأن يبتعـدن عن سموه.

ـ آه! سمو، رددت كل تلك النسوة بصوت أكـثر حدة!

ضاعف فابريس خطاه، تبعته النساء وهن يصحن وكثـير من الذكور المساكين أقبلوا راكضين من كل الشوارع، وقاموا بما يشبه العصيان الصغير. كان كل هـذا الجمهور في منتهى القـذارة والعزم، يصيح «سمو». بذل فابريس كثيراً من الجهد كي ينجو من هذا الجمهور؛ أعاده هذا المشهد من عالم الخيال إلى الواقع. قـال في نفسه لم أنل سـوى مـا استحققت، أنني احتككت بالسوقة.

تبعته امرأتان حتى باب سرقسطة حيث خرج من المدينة، أوقفهما بيبي مهدداً جدياً بعصاه ورمى لهما بعض النقود. تسلق فابريس تلة سان ميشيل الرائعة في بوسكو. جال في قسم من المدينة خارج الاسوار. تبع سبيلاً ووصل على خمسماية خطوة من طريق فلورنسا، وعاد إلى بولونيا حيث قدّم برزانة إلى موظف

الشرطة جوازاً دوّنت فيه أوصافه بطريقة دقيقة. يسمّيه هذا الجواز جوزف بوسي، الطالب في علم اللاهوت. لاحظ فابريس بقعة صغيرة من الحبر الأحمر، موضوعة كما بالصدفة، في أسفل الورقة، نحو الزاوية اليمنى. كان جاسوس يتعقبه، ساعتين بعد ذلك، بسبب لقب «سمو» أطلقه عليه رفيقه أمام فقراء سان ـ بترونا، مع أن جوازه لا يحمل أيّاً في الألقاب.

رأى فابريس الجاسوس وهزىء من هذا التدبير، لم يعد يفكر بالجوازات ولا بالشرطة. وكان يتلهّى بكل شيء كولد صغير. فضل بيبي الذي سبق وتلقى أمراً بملازمته، أن يحمل بنفسه هذه الأخبار السارة جدًّا إلى الدوقة، لا سيما أنه رآه مرتاحاً لرفقة لدوفيك. كتب فابريس رسالتين طويلتين جداً إلى الشخصين العزيزين ثم خطر له أن يكتب ثالثة إلى الأسقف الموقر لاندرياني فأثرت هذه الأخيرة تأثيراً عجيباً إذ حوت سرداً دقيقاً للمعركة مع جيليتي. تأثر الأسقف الطيب بهذه الرسالة فقرأها للأمير استمع إليها بطيبة خاطر، يدفعه الفضول لمعرفة كيف يتصرف هذا المونسينيور الشاب ليبرر جريمة بهذه الفظاعة. وبفضل أصدقاء المركيزة رافرسي العديدين، اعتقد الأمير وكل مدينة بارما، أن فابريس استعان بعشرين أو ثلاثين قروياً لقتل ممثل سيىء الخلق، تواقح ونازعهم ماريتا الصغيرة. في البلاطات الاستبداديةيتصرف أول دساس ماهر بالحقيقة، كما الموضة في باريس.

ـ ولكن، كان يقول الأمير للأسقف، هذه الأمور تجري على يد وسيط، فالعرف لا يسمح أن يقوم بها صاحب العلاقة نفسه؛ لا يقتل ممثل كجيليتي بل يُشرى.

لم يكن فابريس يشك بما يجري في بارما. المهم: موت هذا الممثل الذي كان يكسب في حياته اثنين وثلاثين فرنكاً بالشهر، هل سيسبب سقوط وزارة متطرفة ورئيسها الكونت موسكا.

لما بلغ الكونت خبر مقتل جيليتي انزعج من الحرية التي تسمح بها الدوقة لنفسها، فأمر القاضي راسي بمعالجة هذه الدعوى كما لو الأمر يتعلق بليبيرالي. كان فابريس يعتقد أن رجلاً من طبقته هو فوق القوانين. لم يحسب قط أن في البلدان حيث لا تعاقب الأسماء الكبرى، تستطيع الدسيسة أن تفعل كل شيء، حتى ضدّهم. كان يتحدث غالباً مع لدوفيك عن براءته التامة التي سوف تعلن قريباً. حجته الكبرى أنه غير مذنب. وعلى هذا الأساس، قال له لدوفيك ذات يوم:

ـ أنا لا أفهم كيف سموك يتمتع بالعقل والثقافة ويهتم بقول هذه الأشياء، لي أنا، خادمك المخلص. ليحترس سموك كثيراً، ان هذه الأشياء صالحة لتقال أمام الناس أو المحكمة. قال فابريس في نفسه مستغرباً، يعتقد هذا الرجل أني قاتل، ولكنه لم ينتقص من حبه لي.

ثلاثة أيام بعد ذهاب بيبي، تعجب عندما تلقى رسالة

ضخمة مختومة بضفيرة من الحرير، كما زمن لويس الرابع عشر، ومرسلة إلى سيادة الحبر فابريس دل دونغو السامي الاحترام، النائب الأسقفي الأول في أبرشية بارما، الكاهن القانوني الخ. .

قال في نفسه ضاحكاً: ولكن، هل أنا حقاً كل هذا، كانت رسالة الأسقف لاندرياني رائعة منطقاً ووضوحاً؛ لم تكن تقلّ عن تسع عشرة صفحة، وتخبر بطريقة جيدة عن كل ما جرى في بارما بعد وفاة جيليتي.

كان الأسقف الطيب يقول: «لو أن جيشاً فرنسياً زحف على المدينة بقيادة الجنرال ني، لما ترك أثراً أقوى. يعتقد الناس جميعهم يا ابني العزيز، ما عدا الدوقة وأنا، أنك سمحت لنفسك بقتل جيليتي لمجرد لذتك. حصلت لك هذه المصيبة، يخمدونها بمائتي لويسية وغياب ستة أشهر؟ ولكن السيدة رافرسي تريد أن تسقط الكونت موسكا من أجل هذا الحدث الطارىء. لا يلومك العموم على خطيئة القتل، انما على الرعونة فقط أو بالأحرى على الوقاحة لأنك لم تتكرم باللجوء إلى بونيا (أداة حديدية للقتال تدخل في الأصابع). أنقل بعبارات واضحة الأقوال التي أسمعها حولي، إذ منذ هذه المصيبة التي يؤسف لحصولها أذهب كل يوم إلى ثلاثة من أهم بيوت المدينة لأجد ظرفاً لتبرئتك. لم أعتقد قط اني استعملت البلاغة القليلة التي تكرمت السماء وحلتني بها استعمالاً أكثر صلاحاً».

انكشف الحق لفابريس: رسائل الـدوقة الكثيـرة، المملوءة بنشوة الصداقة لم تكن تتكرم بنقل الأخبار إلي. كانت الدوقة تقسم له أنها ستترك بارما إذا لم يعد سريعاً منتصراً. سيعمل الكونت من أجلك، كانت تقول له في الرسالة المرفقة برسالة الأسقف، كل الممكن انسانياً. أما بمـا يخصني، فبدّلت هـذه المغامرة طباعي؛ أنا الآن بخيلة كما الصيرفي ترمبون. صرفت كل عمالي، بل أكثر: أمليت على الكونت جردة بثروتي، أتفق أنها أقل ضخامة مما كنت أفكّر. بعد وفاة الكونت بيترانيرا الطيّب الذي كان عليك أن تثأر له عوض أن تعرّض نفسك للخطر ضدّ كائن من نوع جيليتي، بقيت مع اثني عشر ألف ليرة وخمسة آلاف فرنك دين؛ أتذكر، في ما أتذكره من الأشياء الأخرى، كان عندي دزينتان ونصف من أحذية الأطلس الأبيض، صنع باريس وزوج واحد للسير في الشارع. أنا عازمة على أن آخذ الثلاثماية ألف فرنك تركها لي الدوق وكنت أريد استعمـالها بكاملها لانشاء ضريح فخم له. وفضـلاً عن ذلك، المـركيزة رافرستي عدوتـك الأساسيـة، يعني عدوّتي، إذا كنت تضجـر وحدك، في بولونيا، ليس أمامك سوى أن تقول كلمة واحدة، وسأذهب لأنضم إليك. هذه أربع كمبيالات جديدة الخ.

لم تكن الدوقة تقول ولو كلمة واحدة لفابريس عن الرأي السائد في بارما حول قضيته. كانت تريد قبل كل شيء أن تعزّيه. فوفاة شخص مضحك كجيليتي لم تكن تبدو لها أنه حريّة

ليؤاخذ عنها جدياً واحد من آل دل دونغو. كم من جيليتي أرسل أجدادنا إلى العالم الآخر، كانت تقول للكونت، دون أن يفكر أحد أن يؤاخذهم.

كان فابريس يستشف مندهشاً، للمرةالأولى، حالة الأمور كما هي. أخذ يقرأ بإمعان رسالة الأسقف. الأسقف نفسه، كان يعتقد أنه مذنب أكثر مما هو فعلاً. أدرك فابريس ما الذي يسبب نصر المركيزة رافرستي، خاصة أنه كان يستحيل ايجاد شهود عيان للمعركة المشؤومة. كان الفراش الذي أول من حمل الخبر إلى بارما، في نزل قرية سنغينيا عندما وقع الحادث. ماريبتا الصغيرة والمرأة التي تقوم مقام أمها اختفتا وكانت المركيزة اشترت صمت الحوذي الذي يشهد الآن شهادة منكرة. كان الأسقف الطيب يكتب بإنشائه الشيشروني: «مع أن الاجراءات محاطة بسرية تامة، ويشرف عليها القاضي راسي، الذي تمنعني المحبة المسيحية وحدها من أن أتحدث عنه بالسوء، ولكنه أثرى من ملاحقة المهتّمين المساكين بضراوة. كما كلب الصيد يلاحق الأرنب البري؛ بالرغم من أن راسي الذي تعجز المخيلة أن تبالغ بوصف دناءته وامكانية قبوله الرشوة، كلف بإدارة الدعوى، من أمير غاضب، تمكنت أن أطالع ثلاث شهادات للحوذي. لحسن، الحظ، هذا المسكين، يناقض نفسه. وسأضيف لأنني أتكلم مع نائبي العام، إلى الذي سيتسلّم بعدي ادارة الأبرشية، اني استدعيت كاهن الرعية التي يسكنها هذا

الخ ىء التائه. سأقول لك، يا ابني العزيز، ولكن بسر الاعتراف، أن هذا الكاهن بات يعرف، من زوجة الحوذي، عدد الريالات التي قبضها من المركيزة رافرسي، ولن أجرؤ على القول أن المركيزة أوجبت عليه أن يفتري، ولكن الأمر محتمل. دفعت الريالات بيد كاهن تعيس، يمثل دوراً قليل النبل إلى جانب هذه المركيزة، وكنت مجبراً على أن أحرمه من الاحتفال بالذبيحة الإلهية للمرة الثانية. لن أتعبك قط بسرد عدة محاولات أخرى كان يجب أن تنتظرها مني والتي هي مع هذا كله، من واجبي. كاهن قانوني، زميلك في الكاتدرائية، يتذكر أكثر مما يجب، بعض المرات، النفوذ الذي توفّره له ثروة أسرته، التي بقي هو وريثها الوحيد، سمح لنفسه أن يقول للكونت زورلا، وزير الداخلية، بأنه ينظر إلى هذه التفاهة، كأمر ثابت ضدك (كان يتكلم على اغتيال جيليتي المسكين)، فاستدعيته للمثول أمامي، وهنا بحضور نوابي الثلاثة الآخرين ومرشدي وكاهنين آخرين كانا موجودين في غرفة الانتظار، رجوته أن يخبرنا، نحن أخوانه، عن عناصر الاقتناع الكامل كان يقول أنه حصل عليها ضدّ واحد من زملائه في الكاتدرائية؛ لم يتمكن البائس أن يعطي سوى اسباب قليلة الاقناع. ثار الجميع ضدّه. ومع أني اعتقدت بأنه لا يجب الإضافة إلاّ كلام قليل، أجهش بالبكاء وجعلنا شهوداً على اعترافه الكامل بخطئه الكامل، على هذا، وعدته بالتكتم، باسمي وباسم الذين كانوا حضروا هذه

المقابلة، بشرط أن يضع كل نشاطه لتصويب الانطباعات الخاطئة التي يمكن أن تكون تسبّبت عن الخطابات التي ألقاها منذ خمسة عشر يوماً.

لن أردّد على مسامعك، يا ابني العزيز، ما يجب أن تعرفه منذ أمد بعيد، يعني عن القرويين الأربعة والثلاثين كانوا يستعملون في حفريات الكونت موسكا. رافرسي تدعي انك رشوتهم كي يساعدوك في الجريمة، اثنان وثلاثون كانوا في أعماق الحفرة، منهمكين في أعمالهم، عندما أمسكت سكين الصيد واستعملته للدفاع عن حياتك ضدّ الذي كان يهاجمك فجأة. كان اثنان منهم خارج الحفرة فصاحا للآخرين: انهم يغتالون المونسينيورا هذا النداء وحده يدل على براءتك بأبهى مظاهرها القاضي العام راسي يدّعي أن هذين الرجلين اختفيا؛ وجدوا ثمانية من الذين كانوا في الحفرة؛ في الاستجواب الأول صرح ستة منهم أنهم سمعوا النداء: انهم يغتالون مونسينيورا أعرف بطرق غير مباشرة، ان في استجوابهم الخامس الذي جرى البارحة، خمسة صرحوا انهم لا يتذكرون جيداً إذا كانوا سمعوا مباشرة هذا النداء أو إذا كان أحد رفاقهم أخبرهم به. صدرت أوامر لكي تعرف أماكن سكن هؤلاء الحفارين وكهنتهم سيفهمونهم أنهم يهلكون أنفسهم، لربح بعض الريالات، إذا تساهلوا وشوهوا الحقيقة».

ودخل الأسقف الطيب في تفاصيل لا نهاية لها، كما يظهر من

الفقرات التي أوردناها. ثم راح يضيف باللاتينية: «هذه القضية ليست سوى محاولة تبديل وزارة. إذا حكم عليك، لا يمكن أن يكون الحكم سوى الأشغال الشاقة أو الاعدام، وفي هذه الحالة سأتدخل مصرِّحاً من أعلى منبرالأسقفية، انك بريء، وأنك، بكل بساطة، لم تفعل سوى الدفاع عن حياتك ضدّ قاطع طريق، وأني أخيراً منعتك من العودة إلى بارما طالما أعداؤك سينتصرون عليك؛ ونويت فضح القاضي العام كما يستحق؛ الكره عام ضد هذا الرجل بقدر ما التقدير لشخصه نادر. ولكن عشية إصدار القاضي هذا الحكم الجائر، ستترك الدوقة سنسفرينا المدينة، وربما مقاطعات بارما: في هذه الحال؛ يؤكد الناس أن الكونت سيقدم استقالته. وعلى الأرجح عندئذ يصل الجنرال فابيو كونتي إلى الوزارة وستنتصر المركيزة رافرسي. اسوأ ما في قضيتك، أن أي رجل نافذ لم يكلف باتخاذ الاجراءات الضرورية لإظهار براءتك وإحباط المساعي المبذولة لرشوة الشهود. يعتقد الكونت أنه يتمم هذا الدور، ولكنه متنفذ كبير لا يتنازل إلى بعض التفاصيل وعليه، كوزير الشرطة، أن يصدر في اللحظة الأولى، أقسى الأوامر ضدّك. أخيراً هل أجرؤ على القول؟ مولانا السيد الأكبر يعتقد أنك مذنب أو على الأقل يتظاهر بهذا الاعتقاد ويبدي بعض السخط في هذه المسألة». (الكلمات المقابلة لمولانا السيد الأكبر ويتظاهر بهذا الاعتقاد، كتبت باللغة الأغريقية. وكان فابريس ممتنًا للأسقف لأنه تجرأ

وكتبها. قطع بسكين هذا السطر من رسالته، وأتلفه فوراً).

توقف فابريس عشرين مرة وهو يقرأ هذه الـرسالـة؛ كان مضطرباً بفيضٍ من عرفان الجميل: أجاب على الفور برسالة من ثماني صفحات وغير مرة رفع رأسه كي لا تسقط دموعه على الورق.

في اليوم التالي، لحظة ختم هذه الـرسالـة، وجد لهجتها اجتماعية جداً. قال في نفسه، سأكتبها باللاتينية. تبـدو أكثر لياقة إلى الأسقف الوقور. ولكن، وهو يسعى في تركيب جمل لاتينية جميلة وطويلة، شبيهة إلى حدّ بعيد بجمل شيشرون، تذكّر أنّ الأسقف، وهو يكلمه عـلى نابـوليون، كـان يتصنع بدعوته بونوبارتياً؛ اختفى فوراً كل الانفعال الذي كان يؤثر فيه حتى تدمع عيناه. صاح، يا ملك ايطاليا، هذا الإخلاص الذي أقسم عليه الكثيرون سواي في حياتك، سأحفظه لك حتى ساعة موتي. انه يحبني دون شك، ولكني لأني من آل دونغو، وهو ابن بورجوازي. ولكي لا تضيع رسالته الجميلة باللاتينية، أجرى فـابريس بعض التغييـرات الضروريـة، ووجهها إلى الكـونت موسكا.

يومها، صادف فابريس ماريتا في الشارع، أحمرت وجنتاها من السعادة، وأشارت إليه أن يتبعها دون أن يقتـرب منها. اتجهت بسرعة إلى رواق مهجور؛ هنا أنـزلت قليلاً الشبيـك الأسود، الذي بموجب زي البلاد، كان يغطي رأسها، بطريقة

لا يتمكن معها أحد من التعرف إليها؛ ثم استدارت فجأة:

- قالت لفابريس: كيف تمشي وحدك في الشارع؟ أخبرها فابريس قصته.

- يا إلهي! كنت في فيراري! فتشت عنك طويلاً فيها! ستعرف اني انفصلت عن المرأة العجوز لأنها كانت تريد أن تقودني إلى البندقية، وكنت أعرف تماماً أنك لن تذهب أبداً إليها طالما أنك على اللائحة السوداء في النمسا. بعت عقدي الذهبي لكي آتي إلى بولونيا. كان حدسي يقول لي بأني سوف أسعد بلقياك فيها؛ عشية البارحة وصلت المرأة المسنة يومين بعدي. لن أدعوك للمجيء إلينا، لأنها ستتقدم منك بطلبات دراهم تخجلني. عشنا بسعة، منذ اليوم المشؤوم الذي تعرف، ولم نصرف ربع ما أعطيتها. لا أريد أن أذهب لأراك في نزل بليغرينو لأن ذلك سيأخذ طابع الدعاية. جرّب أن تستأجر غرفة في شارع مهجور، وعند صلاة السلام الملائكي (غياب الشمس) سأكون هنا تحت هذا الرواق. وبعد أن قالت هذه الكلمات، ولّت هاربة.

١٣

غابت الرصانة كلها عند ظهور هذه المرأة المحببة. أخذ فابريس يعيش في بولونيا بسرور وطمأنينة كاملين. كانت حالة

السعادة الساذجة، بكل ما يملأ حياته، تظهر من الرسائل التي يوجّهها إلى الدوقة؛ ودام هذا الأمر حتى أن مزاجها تعكـر. لاحظ فابريس ذلك، وكتب فقط على ميناء ساعته، باشارات مختزلة: عنـدما أكتب إلى الـدوقة لا يجب القـول: لما كنت أسقفـاً، لمـا كنت رجل دين. هـذا يغضبها. وكـان اشتـرى جـوادين صغيرين وهو شديد السرور بهما يكدنهما إلى عربة تأجير كل مرة تريد مارييتا أن تذهب وتشاهد أحد تلك المناظر الرائعة في جوار بولونيا. كان يقودها كل مساء إلى شلال رينو، ويتوقف في طريق العودة عند كريسنتيني اللطيف الذي كان بشكلٍ ما. يعتبر نفسه والد مارييتا.

كان فابريس يقول في نفسه: بالواقع! إذا كانت حياة المقاهي تبدو مضحكة لرجل له بعض القيمة. فإنني أخطأت بالابتعاد عنهـا ورفضهـا. نسي أنـه لم يـذهـب إلى المقهى إلا لقـراءة «الدستوري» وأنه مجهول كل الجهل من الجميع في بولونيا. لم تكن المتع الباطلة لتدخل في سعادته الحاضرة. فعندما لا يكون مع مارييتا، كان في المرصد حيث يتابع دراسة علم الفلك. ارتبط الأستاذ معه بصداقة كبرى وكان فابريس يعيره جواديه يوم الأحد ليذهب ويتألّق مع زوجته في سباق مونتانيولا.

كان يكره أن يتسبب في تعاسة أي كائن مهما كـان قليل القدر. لم تكن مارييتا تريد أن يرى المرأة المسنة، ولكن ذات يوم

كانت في الكنيسة، فصعد كي يراها وغضبت شديداً لما رأته يدخل. قال فابريس في نفسه: انه ظرف للظهور كواحد من آل دل دونغو.

ـ كم تربح مارييتا في الشهر عندما تكون مرتبطة؟ صاح، كما يفعل شاب يحترم نفسه عندما يدخل مقصورة فخمة في باريس.

ـ خمسين ريالاً.

ـ تكذبين كالعادة؛ قولي الحقيقة أو أقسم بالله أنك لن تحصلي على سنتيم واحد.

ـ إذن، اثنين وعشرين ريالاً من شركتنا في بارما، عندما حصلت لنا مصيبة التعرف بك وأنا اثنتي عشر. كانت كل واحدة منا تدفع إلى حامينا جيليتي ثلث ما كان يعود لنا. على هذا، كان جيليتي يقدّم تقريباً كل شهر هديّة إلى مارييتا تساوي ريالين.

ـ تكذبين لم تكوني تتلقين سوى أربعة ريالات، ولكن إذا كنت طيبة ولطيفة مع مارييتا أتفق معك كما لو كنت منظم حفلات. ستقبضين كل شهر اثني عشر ريالاً لك واثنين وعشرين لها، ولكن إذا رأيت عينيها حمراوين سأفلس ولن أدفع لك سنتيماً واحداً.

ـ أنت تتكبر علينا؛ كرمك يخربنا، أجابت المرأة المسنة بغضب؛ نخسر شهرة مسرحنا، عندما تحل بنا المصيبة العظمى،

ونحرم حماية سموك، ولن نعود معروفين من أية فرقة، ستكون جميعها اكتملت؛ لن نجد بعد ذلك عقود ارتباط وبسببك سنموت جوعاً.

ـ ـ اذهبي إلى الشيطان، قال فابريس وهو ماضٍ.

ـ لن أذهب إلى الشيطان، أيها الزنديق القبيّح، بل إلى مكتب الشرطة، وأنك مونسينيور خلع ثوبه ورمى به على القراص، وأنك لا تدعي جوزف بوسي. كان فابريس انحدر بعض الدرجات فعاد وقال لها بلهجة جادة:

ـ أولاً، تعرف الشرطة أكثر منك، ما يمكن أن يكون اسمي الحقيقي. ولكن إذا ارتأيت أن تذهبي للوشاية بي، سيكلمك لدوفيك، ولن يتلقى هيكلك العظمي المسن ست طعنات مدية انما دزينتين، وستذهبين إلى المستشفى ستة أشهر تحرمين في أثنائها من السجائر.

ـ أقبل بكل امتنان المصير الذي تعدّه لماريتا ولي. يبدو أنك رجل طيب، وكنت أحسبك أحمق. ولكن انتبه جيداً يمكن لأناس سواي أن يرتكبوا هذا الخطأ ذاته. أنصحك بأن تبدو بمظهر السيد العظيم، ثم أضافت بوقاحة عجيبة ستفكر بهذه النصيحة المفيدة، وبما أن فصل الشتاء لم يعد بعيداً ستقدّم لماريتا ولي ثوبين من هذه القماشة الإنكليزية التي يبيعها التاجر الكبير في ساحة سان ـ بترونا.

كان حب ماريتا الصغيرة يوفر لفابريس كل مفاتن

الصداقات، مما كان يدفعه للتفكير بسعادة مماثلة بالقرب من الدوقة.

كان يقول بعض المرات: أليس أفضل ألاّ أكون سريع التأثر بهذا الانشغال الأناني، المتقد يدعونه الحب؟ بين العلاقات التي أتاحتها لي الصدفة في نوفار ونابولي، هل التقيت بامرأة كان وجودها، حتى في الأيام الأولى لتعارفنا، أفضل من نزهة على ظهر جواد جميل مجهول؟ كان يضيف، أيكون ما يسمونه حباً كذبة؟ أنا أحب دون شك، كشهيتي للطعام عند الساعة السادسة. أيكون هذا الميل المألوف الذي كان الكذبة، جعلوا منه حب أوتلّو، حب تنكريد، أو اني لست كسائر الناس؟ نفسي تنقصها عاطفة. لماذا؟ سيكون مصيري فريداً.

كان فابريس، في المدة الأخيرة، وخاصة في نابولي قابل نساء فخورات بمكانتهن الاجتماعية وبجمالهن والوضع الذي يحتله عبادهن في المجتمع وضحيّن بهم من أجله وادّعين أنهم يقدنه.

عند اطلاعه على هذا، قطع فابريس علاقته بهن سريعاً بأشد اثارة للفضيحة. كان يقول إذا تركت نفسي تنجرف وراء اللذة الملحة أكون على صلة طيبة بهذه المرأة التي يدعونها الدوقة سنسفرينا، كذلك الافرنسي، الأبله الذي قتل، ذات يوم، الدجاجة التي تبيض ذهباً. فأنا مدين للدوقة وحدها بالسعادة التي شعرت بها في حياتي بالعاطفة الحنون؟ صداقتي لها هي

حياتي، ومن ناحية أخرى، من أنا بدونها؟ منفي مسكين، مرغم أن يعيش بالتقتير في قصر خرب، بجوار نوفار. أثناء المطرات القوية، في الخريف، كنت مضطراً في المساء، خوفاً من الحوادث، أن أضع، بأحكام، شمسية فوق سريري. كنت أمتطي جياد رجل الأعمال يتحمل ذلك احتراماً لدمي الأزرق (لولادتي من أصل رفيع) ولكنه بدأ يجد اقامتي طالت؛ كان أبي خصني براتب ألف ومائتي فرنك، ويعتقد أنه يهلك نفسه لأنه يوفر العيش ليعقوبي. كانت أمي المسكينة وشقيقتاي يحرمن أنفسهن من الثياب، لجعلي في حالة أستطيع معها أن أقدم بعض الهدايا الصغيرة لعشيقاتي. وكانت هذه الطريقة للتكارم تؤثر فيّ تأثيراً بالغاً، حتى بدأوا يشكون بفقري. وكان نبلاء الجوار الشبان مزمعين أن يرمقوني بعين الشفقة.

عاجلاً أو آجلاً، كان مغرور سيبدي ازدراءه بيعقوبي فقير وبائس في تصوراته إذ في نظر هؤلاء الناس، لم أكن شيئاً آخر. كنت أعطيت أو تلقيت طعنة سيف، قادتني إلى قلعة فنستريل أو كنت أجبرت مجدداً أن ألجأ إلى سويسرا، مع ألف ومائتي فرنك كمعاش. أنا سعيد بأني مدين للدوقة بغياب كل هذه الشرور هي التي تشعر نحوي بنشوة الصداقة عليّ أن أحس بها أنا نحوها.

بدلاً من هذه الحياة المضحكة والتافهة حولتني إلى حيوان

حزين، أبله، أعيش منذ أربع سنوات في مدينة كبرى، وعندي عربة فاخرة، مما منعني أن أعرف الحسد، وكل العواطف السافلة. تؤنبني دائماً هذه العمّة المحبّبة جداً، لأني لا آخذ كفاية من المال لدى الصيرفي. هل أفسد نهائياً هذا الوضع الرائع، وأفقد الصديقة الوحيدة في العالم؟ يكفي النطق بكذبة: أن يقال لامرأة فاتنة وربما فريدة في العالم، أكن لها صداقة شفوفة: أحبك، أنا الذي لا يعرف ما هو الحب. ستمضي النهار تتهمني بجريمة غياب هذه النشوة المجهولة من قبلي. مارييتا بالعكس، لا ترى في قلبي وتعتقد أن المداعبة هي نشوة روح، وتعتقدني مجنوناً بحبها، وتعتبر نفسها أسعد امرأة في العالم. لم أعرف هذا الاهتمام الحنون يسمونه، كما أعتقد، الحب، إلا لتلك الصبية، أنيكن في نزل زوندر، بالقرب من حدود بلجيكا.

سنذكر هنا، للأسف، أحد أعمال فابريس السيئة: وسط هذه الحياة الهادئة، استولت فورة يائسة من الغرور على هذا القلب العاصي على الحب، وقادته بعيداً. في الوقت نفسه، كان في بولونيا فوستا ف ** * الشهيرة، واحدة من أولى مغنيات عصرنا، وربما المرأة الأكثر تقلباً في مزاجها عبر الأجيال. كان الشاعر المجيد بوراتي، من البندقية، وضع عنها، هذه القصيدة الانتقادية يرددها الامراء كالسوقة عند مفترق الطرق.

ـ «ارادة وعدم ارادة، عبادة وكره في يوم واحد، عدم ارتياح

إلا في التقلب، احتقار ما يعبده العالم، بينما الناس يعبدونها. لفوستا عيوبها وأشياء أخرى. لا تقابل أبداً هذه الحية. وإذا قابلتها، أيها الغافل، ستنسى نزواتها. هل لك سعادة سَمَاعها؟ تنسى نفسك، والحب سيجعل منك في لحظة قصيرة ما فعلته سيرسي قديماً برفاق أوليس».

أعجوبة الجمال هذه، كانت تحت تأثير الكونت م * * * ووقاحته المتكبرة، حتى عدم الثورة من غيرته الفظيعة. رأى فابريس هذا الكونت في شوارع بولونيا، وتكدر من العجرفة التي يتصدر بها، ويتنازل في إظهار ظرفه للعموم. كان الشاب ثرياً جداً، ويعتقد أن كل شيء مباح له، وبما أن أحاديثه تسبّبت له ببعض التهديدات، لم يكن يظهر إلا محاطاً بثمانية أو عشرة بولي (صنف من قطاع الطرق) مرتدين كسوة خدم بيته الرسمية، أرسل واستجلبهم من أراضيه، في جوار بريسيا. أنظار فابريس تلاقت مرة أو اثنتين بأنظار الكونت المخيف عندما الصدفة سنحت له بسماع فوستا. اندهش من نعومة هذا الصوت الملائكي: لم يكن يتخيل شيئاً يماثله؛ انه مدين له بمشاعر السعادة الفائقة تتباين مع دعة حياته الحاضرة.

كان فضولياً لأن يشعر بهذه العاطفة، ويجد تسلية في تحدي الكونت م * * * الذي كانت هيئته مرعبة أكثر من هيئة رئيس الطباخين. انصرف بطلنا إلى القيام بصبينة المرور غالباً أمام قصر

تناري الذي كان الكونت م * * * استأجره لفوستا!.

ذات يوم، عند هبوط الليل، سعى أن تلمحه فوستا فاستقبل بضحكات عالية من رجال الكونت الذين كانوا على باب قصر تناري. ركض إلى بيته وأخذ أسلحة ومرّ ثانية أمام القصر. كانت فوستا، مخبأة وراء شماساتها، تنتظر هذه العودة، التي علقت عليها أهمية. م * * * غيور من أيّ كان في العالم، خاصة من السيد جوزف بوسي، فاستشاط غضباً وبدا ذلك من أحاديثه المضحكة، على هذا، كان بطلنا، يوجه إليه كل صباح رسالة لا تتضمن سوى هذه الكلمات: «جوزف بوسي يقضي على الحشرات المزعجة، ويقيم في بليغرينو، طريق لارغا، رقم ٧٩».

لم يرد الكونت م * * *، المعتاد على الاحترام توفره له ثروته الضخمة في كل مكان، ودمه الأزرق وشجاعة خدامه الثلاثين، أن يكمل الاصغاء إلى لغة هذه الرسائل القصيرة.

كتب فابريس رسائل أخرى إلى فوستا؛ وضع م * * * جواسيس حول هذا المنافس، الذي ربما لا يزعج. عرف أولاً اسمه الحقيقي، ثم علم أنه لا يستطيع أن يظهر في بارما. بعد ذلك بأيام، ذهب الكونت م * * * وقاطعوا الطرق، وجياده الفاخرة وفوستا إلى بارما. أثارت اللعبة فابريس فتبعهم في اليوم التالي. وجه لدوفيك إليه تحذيرات مؤثرة؛ فلم يصغ إليه،

وأبدى لدوفيك اعجابه به لأنه شجاع. هذه الرحلة، قرّبته من عشيقته الجميلة في كازال مدجيوري. دخل في خدمته ثمانية أو عشرة جنود قدامى من أفواج نابوليون، بصفة خدم، وذلك بهمة لدوفيك؛ شرط، قال فابريس إن عملي الجنـوني بلحاقي بفوستا، ليس لـه أي علاقـة بوزيـر الشرطـة، الكونت مـوسكا، ولا بالدوقة، فأنا لا أعرض للخطر سوى نفسي. سأقول لعمتي أني كنت ذاهباً للتفتيش عن الحب. أفكر بفوستا، حتى عندما لا أراها ولكن أهي ذكرى صوتها الذي أحبه، أو شخصها؟ لم أعد أفكر بسلك الكهنوت. كان فابريس ترك شاربيه وعارضيـه ينموان حتى بدت مخيفة كشاربي وعارضي الكونت م *** مما كان يبدل قليلاً هيئته. جعل مقره العام، لا في بارما، بل في قرية مجاورة، وسط الغابات، على طريق ساكـا، حيث كان قصـر عمته، ولو فعل غير ذلك لكان عمله عديم الفطنة. بمقتضى نصـائح لـدوفيك، عـرّف عن نفسه في القـرية كفـرّاش أمير انكليزي كبير، غريب الأطوار يصرف مائة ألف فرنك في السنة، لكي يستمتع بهواية الصيد، وسيصل بعد قليل من بحيرة كوم، حيث كان مأخوذاً بصيد الترويت. لحسن الحظ، القصر الجميل الذي كان الكونت م *** استأجره للفاتنة فوستا، كان في الطرف الجنوبي من بارما، على طريق ساكا، ونوافذ فوستا تشرف على أشجار الممرات الكبيرة تمتد تحت برج القلعة العالي. لم يكن فابريس معروفاً في هذا الحي المهجور؛ لم يفته تكليف من يلحق

بالكونت م* * *، حتى إذا خرج يوماً من عند المغنية الرائعة، تجرّأ فابريس وظهر في الشارع وضح النهار، يمتطي جواداً ممتازاً ومسلحاً تسليحاً كاملاً. أتى موسيقيون، من المهرة الذي يركضون في شوارع ايطاليا، ووضعوا كونتر باساتهم تحت نوافذ فوستا؛ بعد دوزنة آلاتهم أنشدوا غنائية على شرفها. بدت في النافذة، ولاحظت شاباً في غاية التهذيب متوقفاً وسط الشارع على ظهر جواده، ألقى عليها التحية ثم بدأ يوجه إليها نظرات ليس فيها لبس. بالرغم من بدلته الانكليزية المبالغ فيها تعمد فابريس ارتداءها، تعرفت سريعاً إلى صاحب الرسائل الشغوفة تسببت في رحيلها من بولونيا. قالت في نفسها هذا كائن طريف يبدو أني سأحبه. معي ماية لويسية، وأتمكن أن أترك هنا هذا الكونت المخيف م * * *. فهو ينقصه العقل والتبصر في الأمور الطارئة، وليس مسلياً إلا بمظهر رجاله القبيح.

في اليوم التالي، علم فابريس، أن فوستا تذهب كل يوم، لحضور الذبيحة الإلهية، نحو الحدية عشرة في وسط المدينة، كنيسة مار يوحنا نفسها، حيث ضريح عمه الأسقف اسكانيو دل دونغو، فتجرأ وتبعها إلى تلك الكنيسة. كان لدوفيك، استحصل له على شعر إنكليزي مستعار، ذي لون أحمر جميل، بلون اللهب المشتعل في قلبه، فنظم قصيدة وجدتها فوستا رائعة؛ واهتمت يد مجهولة بوضعها أمام البيانو.

دامت هذه الحرب الصغيرة ثمانية أيام ولكن فابريس وجد

أنه لا يحقق تقدماً حقيقياً. كانت فوستا ترفض استقباله بالرغم من كل المحاولات. بالغ فابريس في غرابته. قالت أنها خائفة منه. فلم يعد يمسك سوى بقية أمل في الوصول إلى الشعور بما يسمى الحب؛ وغالباً ما كان يسأم.

ـ لنذهب من هنا، يا سيدي، كان يردد له لدوفيك، أنت لست مغرماً ولا تتقدم؛ لنرحل بدون حياء. كان فابريس على وشك الذهاب عند أول تبدل في مزاجه، عندما علم أن فوستا ستغني عند الدوقة سنسفرينا؛ قال في نفسه: ربما هذا الصوت الرفيع، الجذل ينتهي بإشغال قلبي. وتجرأ فدخل متنكراً إلى القصر حيث تعرفه كل الأعين. ولنتصوّر انفعال الدوقة، عندما، في نهاية الحفلة الموسيقية، لاحظت شاباً في ثياب صياد، واقفاً قرب الصالة الكبرى؛ ذكّرها هذا الشكل بأحد الأشخاص. فتشت عن الكونت موسكا فأخبرها عن عمل فابريس الجنوني العظيم والذي لا يصدّق. هذا الحب لغير الدوقة كان يعجبه جداً. يحسن الكونت المغازلة، وبعيداً عن السياسة، كان يتصرف بأنه لا يعرف السعادة إلا حين تكون الدوقة راضية وسعيدة، سأنجيّه من نفسه، قال لصديقته؛ فكري بفرح أعدائنا إذا ألقي القبض عليه في هذا القصر! لدي هنا مائة من رجالي، ولهذا طلبت منك مفاتيح خزان الماء الكبير. انه يتصرف كمحب مجنون بفوستا، وحتى الآن لم يستطع أن يأخذها من الكونت م * * * الذي يوفر لهذه المجنونة حياة ملكة. نضحت وجنتا

الدوقة عن أشد الألم: لم يكن فابريس إذاً فاجراً عاجزاً عن عاطفة حنون ورصينة.

قالت له أخيراً: أن يمر بالقصر دون أن يرانا، أمر لن أغفره له طيلة حياتي، وأنا أكتب له كل يوم إلى بولونيا!.

أجاب الكونت: أنا أقدّر له حرصه. لا يريد أن يعرضنا للخطر بسبب مغامرته، وسيكون مسلياً أن نسمعه يخبرها لنا.

كانت فوستا شديدة الطيش فلم تصمت عما كان يشغل بالها: في اليوم التالي للحفلة الموسيقية، في أثنائها وجهت النظرات إلى هذا الشاب يرتدي ثياب صياد، حدثت الكونت م *** عن هذا العاشق المجهول. أين ترينه؟ قال الكونت غاضباً - في الشوارع، في الكنيسة أجابت فوستا مذهولة وأرادت فوراً أن تصلح حماقتها أو على الأقل كل ما يذكر بفابريس. وبدأت وصفاً طويلاً لشاب طويل، أحمر الشعر، أزرق العينين، هو دون شك أحد الانكليز البلهاء والأثرياء جداً أو أحد الأمراء. عند هذه الكلمة تخيّل الكونت، الذي لم يكن ثاقب النظر أن هذا المنافس ليس سوى الأمير، وريث عشر بارما، وهذا أمر مبهج لغروره. وهذا الشاب المسكين، السوداوي المزاج، يحرسه خمسة أو ستة مرشدين، ومربين، لا يدعونه يخرج إلا بعد أن يعقدوا مجلساً استشارياً، كان يرمي نظرات غريبة على جميع النساء المسموح له بالاقتراب منهن. في حفلة الدوقة

الموسيقية، وضعته منزلته أمام جميع المستمعين، عند مقعد منفرد، على ثلاث خطوات من فوستا الجميلة، وأزعجت نظراته الكونت م * * * إلى أبعد حد. جنون الغرور الرائع هذا: أن يكون المنافس أميراً، سلّى فوستا كثيراً وجعلت لذتها في اثبات هذا الأمر بمائة تفصيل أعطيت بسذاجة.

- هل سلالتك، كانت تقول للكونت، قديمة كسلالة فارنيز التي ينحدر منها هذا الشاب؟

- ماذا تريدين أن تقولي؟ قديمة كسلالة! أنا ليس في أسرتي نغولة.

شاء القدر ألا يتمكن الكونت م * * * أن يرى أبداً منافسه المزعوم. مما ثبّته في الفكرة المخادعة بأن منافسه أمير. وعندما لا تستدعي مصالح غيرته وجود فابريس في بارما كان يسكن في الغابات، باتجاه ساكا وضفاف البو. كان الكونت أكثر فخراً، ولكن أكثر حكمة منذ اعتقد نفسه في وضع منازعة أمير قلب فوستا. رجاها بكل رصانة أن تحترس في كل تصرفاتها، بعد أن ارتمى عند قدميها كمغرم غيور، وصرّح لها بوضوح، أنّ شرفه مهتم بأن لا تقعي فريسة خدعة من قبل الأمير.

- أرجوك، لن أكون مخدوعة إذا أحببته؛ أنا، لم أرّ حتى الآن أميراً عند قدمي.

- إذا قبلت، أردف بنظرة متعالية، قد لا أستطيع الانتقام من الأمير، ولكن بكل تأكيد، سأنتقم! وخرج وهو يغلق الأبواب

بقوة. لو أن فابريس أتى في هذه اللحظة لكان انتصر ونالها.

ـ إذا كنت تتمسكين بالحياة، قال لها مساء، وهو يستأذنها بالانصراف بعد العرض، تصرّفي بألا أعلم أن الأمير دخل بيتك. لا أستطيع شيئاً ضدّه. ولكن لا تجعليني أتذكر أنني أستطيع كل شيء عليك.

ـ آه! يا فابريسي الصغير! صاحت فوستا؛ لو أعرف فقط أين أجدك!.

الغرور الجريح يمكنه أن يقود بعيداً شاباً ثرياً، ومحاطاً بالمتملّقين منذ المهد. استيقظت بعنف العاطفة الحقيقية التي كان يكنها الكونت م *** لفوستا: لم يوقفه الاحتمال الخطير بأن يتنازع مع الابن الوحيد للملك يعيش في كنفه. ولم يسع إلى مرأى هذا الأمير أو على الأقل، إرسال من يتتبع خطاه. تجرأ م *** وفكر بجعله هزأة لأنه كان عاجزاً عن مهاجمته بغير هذه الطريقة. سأنفي نهائياً من دول بارما! آه! وما يهمني ذلك؟ لو سعى في معرفة منافسه، لكان الكونت م *** عرف أن هذا الأمير المسكين، لم يكن يخرج دون أن يتبعه ثلاثة أو أربعة عجزة، حراس للمراسم مضجرين، وأن لذته الوحيدة، من اختياره المتاح له، كانت علم العدانة. في النهار كما في الليل، كان القصر الصغير الذي تسكنه فوستا وحيث تكثر العشرة اللطيفة في بارما محاطاً بالمراقبين. كان م *** يعرف ساعة

فساعة ماذا كانت تفعل وخاصة ماذا كانوا يفعلون حولها. يمكن مدح هذا الأمر في احتياطات هذا العاشق الغيور، بأن هذه المرأة المتقلبة المزاج لم تخالجها أية فكرة، في بادىء الأمر عن مضاعفة الحراسة هذه. وحملت كل تقارير عملاء الكونت م * * * أخباراً عن رجل فتي، يضع على رأسه شعراً أحمر مستعاراً، يظهر غالباً تحت نوافذ فوستا، بثياب تنكرية جديدة. انه الأمير الشاب، قال م * * * في نفسه، والا فلماذا التنكر؟ تباً له! إن رجلاً مثلي مخلوقاً لافساح المجال أمامه. لولا تطاولات جمهورية البندقية، لكنت أنا أيضاً، أميراً مالكاً.

يوم عيد القديس اسطفان، اتخذت تقارير الجواسيس طابعاً أدكن متشائماً. بدا أن فوستا بدأت تستجيب لمبادرات الشاب المجهول: أتمكن أن أذهب فوراً مع هذه المرأة، قال م * * * في نفسه! ولكن ماذا! هربت في بولونيا أمام دل دونغو، وهنا سأهرب أمام أمير! ماذا سيقول هذا الشاب؟ قد يفكر أنه نجح في اخافتي. فأنا من أصل رفيع بقدر ما هو من بيت كريم. كان م * * * ثائراً، ولكن زيادة في التعاسة، كان يهمه قبل كل شيء ألّا يعرض نفسه للهزء، بسبب غيرته، أمام فوستا التي يعرف أنها ساخرة. يوم عيد القديس اسطفان بدت له قمة في الرياء، تركها في نحو الحادية عشرة ترتدي ثيابها لكي تذهب لسماع الذبيحة الإلهية في كنيسة مار يوحنا. عاد الكونت م * * * إلى بيته وارتدى ثوباً أسود رث يرتديه طلاب اللاهوت

وركض إلى كنيسة القديس يوحنا. اختار مكانه وراء أحد الأضرحة التي تزين المُصلى الثالث إلى اليمين، من حيث يرى كلّ ما يجري في الكنيسة. خلال ذراع تمن لكاردينال جعلوه ساجداً على ضريحه. كان هذا التمثال يخفف النور في مؤخرة المُصلى ويخفيه عن الأعين بقدر كاف. لم يمض وقت طويل، حتى رأى فوستا تصل، أجمل منها في أي وقت آخر؛ كانت في أحسن زينة وعشرون عابداً ينتمون إلى أرقى المجتمعات يواكبونها. البسمة والسرور يتفجّران في عينيها وعلى شفتيها. من الجلي، قال الغيور البائس، أنها تتعمّد الالتقاء هنا بالرجل الذي تحب والذي بعدما لم تتمكن أن تراه منذ زمن بعيد، بسببي. فجأة بدا أن أعنف السعادة تتضاعف في عيني فوستا: منافسي حاضر، قال م *** في نفسه ولم يعد لجنون غروره حدود. ماذا أمثل هنا! صنو أمير شاب يتنكر؟ ولكن مهما بلغت الجهود التي بذلها، لم يتمكن أبداً أن يكتشف هذا المنافس، كانت عيناه الملهوفتان تفتشان عنه في كل الجهات.

في كل لحظة، وبعد أن تنزه فوستا عينيها في كل أرجاء الكنيسة، تنتهي بنظرات مثقلة بالحب والسعادة على الزاوية المظلمة حيث اختبأ الكونت م *** في قلب شغوف، يتعرض الحب إلى المبالغة بالفروق الأكثر دقة، ويستخلص النتائج الأكثر مدعاة للسخرية. انتهى م *** المسكين بأن يقنع نفسه أن فوستا رأته، وأنها بالرغم من جهوده تبينت غيرته القاتلة، وكانت

تريد أن تلومه عليها وفي الوقت نفسه تعزّيه بنظراتها الحنونة.

كان ضريح الكاردينال الذي قبع وراءه م * * * للمراقبة، يرتفع إلى أربعة أو خمسة أقدام عن بلاط القديس يوحنا الرخامي. انتهت الذبيحة الإلهية حسب الطقس السائد، في الواحدة، وانصرف معظم المؤمنين وصرفت فوستا مرافقيها من المدينة بحجة تقويّة؛ وبقيت ساجدة على مقعدها وأصبحت عيناها أشد رقة وأكثر لمعاناً. كانتا مثبتتين على م * * * منذ الوقت الذي لم يبق في الكنيسة سوى أشخاص قليلين. لم تعد عيناها تبذلان جهداً للنظر في كل أرجاء الكنيسة قبل أن تتوقف بانشراح على تمثال الكاردينال. كم من الرهافة في الحس! كان الكونت م * * * يقول، معتقداً أنه هو المقصود بنظراتها! أخيراً نهضت فوستا فجأة وخرجت بعد أن قامت بيديها ببعض الحركات القريبة.

تحرر م * * * من غيرته المجنونة وأسكره الحب. ترك مكانه ليطير إلى قصر عشيقته، ويشكرها ألف ألف مرة، ولدى مروره أمام ضريح الكاردينال لمح شاباً يرتدي ثياباً سوداء ساجداً عند شاهدة القبر، بطريقة أن نظرات العاشق الحسود التي كانت تفتش عنه، تمر فوق رأسه دون أن تراه.

نهض الشاب وسار مسرعاً. في اللحظة نفسها، التف حوله سبعة أو ثمانية أشخاص غريبو المظهر وعلى شيء من الارتباك،

بدا أنهم من خاصته، اندفع م * * * وراءه دون أمر يلفت النظر إليه. فأوقف في المعبر المؤلف من دفاف المدخل من قبل هؤلاء الرجال المرتبكين يحمون منافسه. لما وصل أخيراً إلى الشارع بعدهم، لم يتمكن أن يرى سوى باب عربة ذات مظهر زريّ يغلق، والتي كانت بمفارقة غريبة، يجرها جوادان ممتازان. وبلحظة، اختفى.

عاد إلى بيته لاهثاً من الهيجان؛ وبعد وقت وصل مراقبوه ونقلوا إليه بكل برودة، أنّ العاشق الغامض، متنكراً بثوب كاهن ركع بكل تقوى عند مدخل المصلى، في كنيسة القديس يوحنا، وبقيت فوستا في الكنيسة حتى خلت من المؤمنين تقريباً، وعندئذ تبادلت بسرعة بعض الإشارات اليدوية مع هذا المجهول. كانت ترسم ما يشبه إشارات الصليب. ركض م * * * عند الخائنة؛ ولأول مرة لم تتمكن أن تخفي اضطرابها. أخبرت بسذاجة كذوب، لأمرأة مشغوفة أنها ذهبت كالعادة إلى كنيسة القديس يوحنا، ولكنها لم تلاحظ فيها هذا الرجل الذي يلاحقها. عند هذه الكلمات خرج م * * * عن طوره، ووصفها كأحطّ الخلائق، وقال لها كل ما رآه بنفسه. تضاعفت قحة الأكاذيب مع تصاعد حدة الاتهامات. فأخذ خنجره وانقض عليها. قالت له بشجاعة:

إذن! كل ما تشتكي منه هو الحقيقة المجردة. جرّبت أن

أخفيها عنك لكي أوفر عليك الارتماء في مشاريع انتقام مجنونة قد تهلكنا سوية. فلتعلم نهائياً أن الرجل الذي يلاحقني ليس من طينة تحتمل حواجز لارادتها، على الأقل في هذه البلاد. وبعد أن ذكّرته بلباقة كلية أن ليس له أي حق عليها، أنهت بقولها أنها لن تذهب بعد الآن إلى كنيسة القديس يوحنا. كان م * * مغرماً بوله. ضمّت هذه المرأة الصبية، إلى حكمة قلبها، قليلاً من دلالها فشعر أن غضبه سكن. فكر في أن يترك بارما، فمهما كان الأمير الشاب قادراً، لن يتمكن من أن يتبعه، أو إذا فعل. فلن يكون سوى مساو له. ولكن الكبرياء مثلت له من جديد. هذا الذهاب سيكون له دائماً شكل هروب، وامتنع الكونت عن التفكير بهذا الأمر.

لا يشك بوجود فابريس الصغير، قالت المغنية مبتهجة، نتمكن أن نسخر منه بطريقة. لم يدرك فابريس سعادتها. وجد في اليوم التالي جميع نوافذ المغنية موصدة بعناية، ولما لم يرها في أي مكان. بدا له أن الدعابة استمرت طويلاً. أنبه ضميره. في أي موقف أزج الكونت فوسكا، المسكين، وهو وزير الشرطة! سيعتقدون أنه شريكي. أكون أتيت إلى البلاد لكي أدقّ عنق الحظ، إذا أهملت مشروعاً، سعيت لتنفيذه منذ زمن بعيد، ماذا تقول الدوقة عندما سأخبرها عن محاولاتي الغرامية؟.

كان ذات مساء يعظ نفسه وهو يتسكّع تحت الأشجار الكبرى

تفصل قصر فوستا عن الحصن. وكان على وشك إنهاء المغامرة التي بدأها. لاحظ أن جاسوساً قزماً يتبعه، وعبثاً ابتعد كي يتخلص منه. مرّ بعدة شوارع. بدا هذا الكائن المجهري متعلقاً أبداً بخطاه. فقد صبره، وركض إلى شارع معزول. وعلى إشارة أبداها، قفز رجاله على الصغير المسكين الذي ارتمى على أقدامهم. كان هذا الجاسوس. بيتينيا، وصيفة فوستا، بعد ثلاثة أيام من الانزواء متنكرة بثوب رجل لتنجو من خنجر الكونت م *** الذي كانت وسيدتها تخشيانه جداً. كانت التزمت بالمجيء لتقول لفابريس أنهما تحبانه بشغف وتتلهفان للاجتماع به، ولكنهما لا تستطيعان الظهور في كنيسة مار يوحنا. صاح فابريس: حان الأوان. تحيا اللجاجة.

كانت الوصيفة امرأة جميلة مما أيقظ فابريس من أحلامه الأخلاقية. أخبرته أن النزهة وكل الشوارع التي مر بها هذا المساء، كانت محروسة بعناية دون أن يظهر ذلك، من قبل جواسيس الكونت م ***. كانوا استأجروا غرفاً في الطبقة السفلى والطبقة الأولى، مختبئين وراء مغالق النوافذ وملتزمين أعمق الصمت كانوا يراقبون كل ما يجري في الشارع المنعزل ظاهراً ويسمعون ماذا كان يقال فيه.

قالت بيتينيا الصغيرة، لو أن الجواسيس تعرفوا على صوتي لكانوا اغتالوني دون مغفرة لدى عودتي إلى المسكن، وربما كانوا

اغتالوا سيدتي المسكينة معي.

كان هذا الذعر يجعلها تبدو رائعة في عيني فابريس.

أردفت: الكونت م * * غاضب جداً، والسيدة تعرف أنه لا يتوانى عن القيام بأي عمل.. كلفتني أقول لك أنها ترغب أن تكون معك على مائة فرسخ من هنا.

وعندئذٍ أخبرت ما جرى يوم عيد القديس أسطفان، وغضب م * * الذي لم تفته أي من اشارات الحب وجهتها فوستا له، وكانت في ذلك اليوم مجنونة بحب فابريس. استل الكونت خنجره وأمسك فوستا من شعرها ولولا حضور ذهنها لكانت قتلت.

اقتاد فابريس بيتينيا الصغيرة إلى غرفته القريبة. أخبرها أنه ابن حد شخصيات تورينو ووالده حالياً في بارما، مما يجبره على كثير من الاحتراس. أجابته بيتينيا أنه سيد كبير أكثر مما يريد أن يظهر. احتاج بطلنا لقليل من الوقت، قبل أن يدرك أن الفتاة الفاتنة تعتبره شخصية لا تقل قيمة عن شخصية الأمير، ووريث العرش بدأت فوستا تخاف كما بدأت تحب فابريس، وكانت أخذت عهداً على ألا تبوح باسمه لوصيفتها، وأن تكلمها على الأمير. انتهت الحال بفابريس أن اعترف للفتاة الجميلة بأنها أدركت الحقيقة، وأضاف: ولكن إذا نشر اسمي، وبالرغم من شغفي الكبير أعطيت عنه براهين كثيرة لسيدتك، سأجبر أن

امتنع عن مرأها. وزراء أبي هؤلاء الأشرار المضحكون الذين سأخلعهم يوماً، لن يتأخروا عن إرسال الأمر بالخروج من البلاد التي جملتها حتى الآن بحضورها.

هيأ فابريس مع الوصيفة، عند الصباح، عدة مشاريع لقاءات للوصول إلى فوستا، أرسل واستدعى لدوفيك وواحداً آخر من جماعته، ماهراً جداً، أتفقا مع بيتينا، بينما كان يكتب إلى فوستا الرسالة الأكثر غرابة، تضمنت كل مبالغات المأساة وفابريس. لم ينفصل عن الوصيفة الصغيرة، إلاّ عند طلوع النهار، وكانت مسرورة جداً من تصرف الأمير الشاب.

تردّد مائة مرة، أنه بعدما تم الاتفاق بين فوستا وعشيقها، لن يمر هذا الأخير تحت نوافذ القصر الصغير إلا عندما يتمكنون من استقباله، وعندئذ ستعطيه اشارة. ولكن فابريس هام ببيتنيا وشعر بقرب نهاية علاقته بفوستا فلم يتمكن أن يبقى في قريته التي تبعد فرسخين عن بارما. في اليوم التالي، عند منتصف الليل، امتطى جواده بمواكبة جيدة ليغني تحت نوافذ فوستا لحناً عصرياً دارجاً: كان يبدّل كلماته، ويقول في نفسه: ألا يتصرف هكذا السادة المحبون؟.

منذ أبدت فوستا رغبتها بلقاء، كل هذه الملاحقة كانت تبدو طويلة لفابريس، كلا، أنا لا أحب. كان يقول لنفسه وهو يغني بطريقة سيئة، تحت نوافذ القصر الصغير بيتينا أفضل مائة مرة

من فوستا، وأود أن تستقبلني هي في هذه اللحظة. كان فابريس يعود إلى قريته ضجراً، عندما، على خمسماية خطوة من قصر فوستا، خمسة عشر أو عشرون رجلاً انقضوا عليه، أربعة منهم أمسكوا مقود جواده، اثنان آخران أخذاه من ذراعيه وهوجم لدوفيك ورجال فابريس ولكنهم تمكنوا من النجاة؛ أطلقوا بعض الطلقات من مسدساتهم. كل هذا تمّ في لحظة. خمسون مشعلاً مضاء ظهرت في الشارع بلمحة خاطفة كما بالسحر. كل هؤلاء الرجال كانوا مسلحين تسليحاً تاماً. قفز فابريس عن ظهر جواده، ورغم الذين كانوا يمسكون به جرب أن يتخلص منهم، وجرح واحداً من الذين كانوا يضغطون على ذراعيه بأيد تشبه الملازم. ودهش عندما سمع هذا الرجل يقول له بلهجة الاحترام.

ـ سيصرف لي سموّك معاشاً لائقاً مقابل هذا الجرح. وهذا أفضل من أن ارتكب جريمة إهانة الذات الملكية، باستلال سيفي ضد أميري.

هذا عقاب حماقتي، قال فابريس في نفسه، أكون أهلكت نفسي من أجل خطيئة لم تكن تبدو لي محببة.

ما انتهت المعركة الصغيرة، حتى ظهر عدة خدم بثياب رسمية. ومعهم محفة مذهبة ومدهونة بطريقة غريبة؛ كانت واحدة من تلك المقاعد المضحكة يستعملها المتنكرون في المرافع.

ورجا ستة رجال، بخناجرهم بأيديهم، سموه أن يدخل المحفة وهم يقولون له إن هواء الليل البارد قد يلحق الضرر بصوته؛ كانوا يتظاهرون بالاحترام، وكان اسم الأمير يردد في كل لحظة، بالصياح تقريباً. بدأ الموكب بالعرض. أحصى فابريس في الشارع أكثر من خمسين رجلاً يحملون مشاعل مضاءة. قد تكون الواحدة بعد منتصف الليل، أطل جميع الناس من النوافذ. كان هذا الحديث يجري بشيء من الوقار. كنت أخشى طعنات الخناجر من قبل الكونت م ***. قال فابريس في نفسه: يكتفون بالهزء مني، لم أعتقد أنه يتمتع بهذا القدر من الذوق. ولكن هل يفكر فعلاً أن علاقته هي فعلاً مع أمير؟ لو عرف أني لست الأمير بل فابريس، فالويل من ضربات الخنجر!.

بعدها توقف الرجال من حملة المشاعل والمسلحون العشرون طويلاً تحت نوافذ فوستا، ذهبوا يتبخترون أمام أجمل قصور المدينة يحيط كبار الخدم بالمحفة من جهتيها يسألون من وقت إلى آخر سموه إذا كان لديه أوامر يصدرها إليهم. لم يفقد فابريس وعيه، وبواسطة الضوء ترسله المشاعل. كان يرى لدوفيسك ورجاله يتبعون الموكب. كان فابريس يقول في نفسه: لدوفيك ليس معه سوى ثمانية أو عشرة رجال ولا يجرؤون على الهجوم. كان فابريس يرى تماماً من داخل محفته أن الناس المكلفين بهذه النكتة السمجة، كانوا مسلحين تسليحاً كاملاً، ويتصنعون المزاح مع رؤساء الخدم المكلفين بالعناية به. رأى بعد مسيرة ساعتين

أنهم سيمرّون بطرف الشارع حيث كان قصرْ سنسفرينا.

بينما كانوا يدورون حول الشارع الذي يقود إليه، فتح بسرعة باب المحفة المحدث من الأمام، وقفز فوق إحـدى العصي، وأوقع أرضاً، بطعنة خنجر، أحد الخدم المسلحين يحمل مشعلة قريباً من وجهه، تلقى طعنة خنجر في كتفه؛ أحرق له خادم آخر مسلح لحيته بمشعله، وأخيراً وصل فابريس إلى لـدوفيك وصاح به: اقتل! اقتل كل من يحمل مشعلاً. وجه لدوفيك طعنات من سيفه ونجّى فابريس من الرجلين المكلفين باللحاق به. وصل فابريس، وهو يركض، باب قصر سنسفرينا؛ ومن قبيل الفضول، كان البواب فتح الباب الصغير الذي يبلغ علوه ثلاثة أقدام وهو محدث في الباب الكبير، وكان ينظر مذهولاً إلى هذا العدد الكبير من المشاعل. دخل فابريس بقفزة إلى البستان وأغلق وراءه الباب الصغير؛ ركض إلى البستان وهرب من باب مشرع على شارع معزول. ساعة بعد ذلك، كان خارج المدينة. وفي النهار كان يجتاز حدود دول مودينا ووجد نفسه بأمان. عند المساء دخل إلى بولونيا. رحلة رائعة، قال في نفسه؛ لم أتمكن من أن أتحدث مع حبيبتي. كتب بسرعة رسائل اعتذار إلى الكونت والدوقة، رسائل حذرة تصف ما كان يحدث في قلبه، ولا تفيد عدواً. كنت مغرماً حقاً، كان يقول للدوقة. فعلت كل ما يمكن فعله لكي أتعرف إلى الحب، ولكن يظهر أن الطبيعة رفضت قلباً يحب ويكتئب؛ لا أتمكن أن أسمو عن اللذة المألوفة الخ،

مذهلة كانت الضجة التي سبّبتها هذه المغامرة في بارما. السرّ يحرك الفضول. أناس كثيرون رأوا المشاعل والمحفة. ولكن من ذلك المخطوف الذي كانوا يمحضونه جميع ضروب الاحترام. لم تغب، في اليوم التالي، أية شخصية في المدينة.

قالت الطبقة الدنيا، من الشعب، التي تسكن الشارع من حيث كان السجين هرب، أنها رأت جثة ولكن لما تجرأ السكان على الخروج من بيوتهم، في النهار، لم يجدوا آثاراً أخرى للقتال سوى الدماء على بلاط الشارع. أتى أكثر من عشرين ألف فضولي لزيارة الشارع في النهار. مدن ايطاليا معتادة على مشاهد غريبة ولكنها تعرف دائماً لماذا وكيف. ما أزعج بارما، في هذه الحادثة بعد شهر من توقف الناس عن التحدث عن النزهة بالمشاعل، لم يتمكن أحد، بفضل حكمة الكونت موسكا، أن يعرف اسم المنافس الذي أراد أن يخطف فوستا من الكونت م ***. هرب هذا العاشق الغيور منذ بداية النزهة. وضعت فوستا في القلعة بأمر من الكونت. وضحكت الدوقة كثيراً من هذه الظلامة الصغيرة سمح الكونت بها لنفسه لكي يوقف فضول الأمير الذي كان بغير هذه الطريقة تمكن من الوصول إلى اسم فابريس.

كان في بارما ، عالم وصل من الشمال لكتابة تاريخ القرون الوسطى. وكان يفتش عن مستندات في المكتبات. أعطاه

الكونت كل الأذونات الممكنة ولكن هذا العالم كان لا يزال فتياً جداً، ويبدو نزقاً، كان يعتقد مثلاً، أن الكل في بارما يسعون للهزء به، سوقه الشوارع يتبعونه بسبب شعر طويل أحمر فاتح مسبل على كتفيه بكبرياء. كان يعتقد أنهم يطلبون منه أسعاراً مغالى بها في النزل، ولم يكن يدفع ثمن أقل الأشياء التافهة دون التفتيش عن ثمنها في رحلة السيدة ستارك التي بلغت طبعاتها العشرين لأنها تعيّن للانكليزي الحكيم سعر ديك رومي، وتفاحة وكوب حليب الخ..

غضب العالم ذو الشعر الأحمر، في المساء نفسه، الذي قام فيه فابريس بنزهته القسرية، فأخرج من جيبه مسدسات صغيرة لكي ينتقم من الخارج الذي كان يطلب منه نحاستين ثمن دراقنة رديئة. ألقي القبض عليه لأن حمل المسدسات الصغيرة جريمة كبرى!.

بما أن هذا العالم النزق طويل القامة، هزيل، خطرت للكونت، في اليوم التالي فكرة أن يجعله يمر في عيني الأمير، كأنه المجترىء الذي بادعائه اختطاف فوستا من الكونت * * كان مخادعاً. حملُ مسدس الجيب يعاقب بثلاثة أعوام من الاشغال الشاقة، في بارما، ولكن هذه العقوبة لا تطبّق أبداً. بعد سجن خمسة عشر يوماً لم يرَ خلالها سوى محام واحد أثار فيه رعباً شديداً من القوانين الرهيبة المطبقة ممن يتولون الحكم ضد حاملي

السلاح المتخفين، زاره محام آخر في السجن وأخبره عن النزهة التي فرضها الكونت م * * * على منافس بقي مجهولاً. لا تريد الشرطة أن تخبر الأمير أنها لم تستطع أن تعرف اسم هذا المنافس: صرح أنك كنت تنوي أن تثير اعجاب فوستا فخطفك خمسون قاطع طريق بينما كنت تغني تحت نافذتها وأنك نزهت خلال ساعة في محفة دون أن توجّه إليك أية إهانة. ليس في هذا الاقرار ما يذلّ. لا يطلب منك سوى كلمة. بعد أن تتلفظ بها فوراً، ستكون أنقذت الشرطة من ارتباكها، وستوضع عندئذ في عربة توصلك إلى الحدود حيث يتمنى لك الجميع مساء سعيداً.

قام العالم خلال شهر؛ وكان الأمير على وشك أن يستدعيه إلى وزارة الداخلية مرتين أو ثلاثة وأن يحضر بنفسه الاستجواب. وفي النهاية لم يعد يفكر به، فسئم المؤرخ، وقرر الاعتراف بكل شيء، فاقتيد إلى الحدود وبقي الأمير مقتنعاً بأن منافس الكونت م * * * كان له غابة من الشعر الأحمر.

ثلاثة أيام بعد النزهة، بينما كان فابريس في بولونيا ينظّم مع لدوفيك سبل ايجاد الكونت م * * * علم أنه يختبىء في قرية جبلية على طريق فلورنسا. لم يكن مع الكونت سوى ثلاثة من رجاله؛ وفي اليوم التالي، بينما كان عائداً من نزهته، اختطف من قبل ثمانية رجال مقنعين، قدّموا له أنفسهم كرجال شرطة بارما. واقتيد، بعد أن عصبت عيناه، إلى نزل يبعد فرسخين إلى الأمام

في الجبل، حيث وجد كل مراعاة ممكنة وعشاء سخياً. وقدّمت له أفضل خمور ايطاليا وإسبانيا.

قـال الكونت: هل أنا سجين دولة؟.

ـ اطلاقاً! أجابه لدوفيك بكل تهذيب، وهو مقنّع. أهنت شخصاً عادياً، بأن تنزهه في محفة؟ يريد أن يبارزك غداً صباحاً. إذا قتلته، ستجد جوادين ومالاً وجياداً بديلة معدة سلفاً لإراحة جيادك، على طريق جنوى.

ـ ما اسم هذا المدعي؟ سأل الكونت غاضباً.

ـ اسمه بومباس. لك أن تختار السلاح الذي تشاء وشاهدين عادلين، ولكن على أحدكما أن يموت.

ـ إنّ في الأمر اغتيالاً! قال الكونت م. . . هلعاً.

ـ معاذ الله! انها مبارزة حتى الموت مع الشاب الذي نزّهته في شوارع بارما، منتصف الليل، والذي يبقى مفضوح الشرف، إذا بقيت على قيد الحياة. أحدكما زائد في الدنيا، جرّب أن تقتله؛ سيكـون تحت تصرفكـما، سيوف، ومسـدسات، وكـل الأسلحة التي يمكن الحصول عليها خلال بعض الساعات، إذ يجب الاسراع؛ شرطة بولونيا ناشطة جداً، كما تعرف، ولا يجب أن تمنع هذه المبارزة الضرورية لشرف الشاب الذي سخرت منه.

ـ ولكن إذا كان هذا الشاب أميراً؟..

ـ انه مثلك من عامة الناس، بل أقلّ غنى منك، ولكنه يريد مقاتلتك حتى الموت، سيجبرك على القتال، أحذرك.

ـ اني، لا أخشى شيئاً!.

أردف لدوفيك: وهذا ما يتلهف إليه خصمك سيهاجمك رجل له الحق في أن يكون ساخطاً ولن يراعيك؛ لك حق اختيار السلاح الذي تريد؛ واكتب وصيتك.

في نحو السادسة من صباح اليوم التالي قدم للكونت م *** فطوره، ثم فتح أحد أبواب الغرفة التي كان موجوداً فيها تحت الحراسة، ودعي إلى باحة النزل. كانت الباحة محاطة بسياجات وجدران على قدر كاف من العلو وكانت الأبواب محكمة الاغلاق.

دعي الكونت م *** للاقتراب من طاولة في إحدى الزوايا، فوجد عليها قوارير الخمر، وماء الحياة، ومسدّسين، وحسامين، وسيفين، وورقاً وحبراً؛ كان عشرون قروياً على نوافذ النزل الذي يشرف على الباحة. التمس الكونت منهم الشفقة. كان يصيح: يريدون اغتيالي؛ انقذوا حياتي!.

صاح به فابريس: انك تخدع نفسك أو أنك تريد أن تخدع الآخرين. وقف في الزاوية المقابلة من الباحة، بجانب طاولة مثقلة بالأسلحة؛ خلع ثيابه، وأخفى وجهه بقناع من الأسلاك الحديدية التي في ردهة المسايفة.

أخاف فابريس: أدعوك، لوضع قناع الأسلاك الحديدية الموجود حذّك. ثم تقدم نحوي مع سيف أو مسدس، وكما قيل لك مساء البارحة، لك أن تختار السلاح الذي تشاء.

احتج الكونت بصعوبات كثيرة، وبدا مغيظاً من أن يقدم على القتال؛ فابريس من ناحيته كان يخشى وصول رجال الشرطة. ومع أنهم في الجبل، على خمسة فراسخ من بولونيا، انتهى بأن وجّه إلى منافسه الشتائم الأشد قذاعة، وأخيراً سعد لكونه وفق في اغضاب الكونت م *** الذي استلّ سيفاً وهاجم فابريس؛ وبدأت المبارزة بفتور.

بعد دقائق توقفت المبارزة بسبب جلبة مدوية. أدرك بطلنا أنه كان يتورط في عمل قد يكون موضوع تبكيت ضمير أو على الأقل اتهامات اغتيابية يلازمه طيلة حياته. كان أرسل لدوفيك إلى الجبل ليجنّد له شهوداً. أعطى لدوفيك نقوداً إلى أناس غرباء يعملون في غابة مجاورة، فتراكضوا وهم يطلقون صيحات داوية. اعتقدوا أن الأمر يتعلق بقتل عدو الرجل دافع المال. لدى وصولهم إلى النزل رجاهم لدوفيك أن ينظروا بانتباه كلّي ويراقبوا إذا كان أحد الشابين المتبارزين يغش الآخر للحصول على مكاسب محظورة.

المبارزة التي توقفت لحظة بسبب صياح الموت الذي أطلقه القرويون، تأخرت لتبدأ من جديد، شتم فابريس مجدداً غرور

الكونت. ـ كان يصيح: يا حضـرة الكونت، عنـدما يكـون الإنسان وقحاً يجب أن يكون شجاعاً. الموقف صعب عليك، تفضل وادفع إلى أناس يتحلون بالشجاعة. أخذ الكونت الحانق والمثار، يخاطبه صائحاً أنه لازم طويلاً مسيفه باتيستان في نابولي وسيعاقبه على وقاحته؛ وأخيراً غضب الكونت م *** مجدداً، فبارز بقدر كاف من الثبات، مما لم يمنع فابريس من طعنة سيفـ وجهها إلى صدره أجبرته على ملازمة الفراش عدة أشهر. قال له لدوفيك بصوت منخفض وهو يبذل له الاسعافات الأولية. «إذا اطلعت الشرطة على المبارزة. سأرسل لك من يفتك بك طعناً بالخناجر، وأنت في سريرك».

هرب فابريس إلى فلورنسا، وكان بقي متخفياً في بولونيا، فلم يتلقّ كل رسائل تأنيب الدوقة إلا في فلورنسا. لم تتسامح معه أن يكون حضر حفلتها الموسيقية، ولم يبـذل أي مسعى للتحدث معها. سرّ فابريس برسائل الكونت موسكا، تنضح منهـا الصداقـة الحقيقية والعـواطف الأكثر سمـواً. وأدرك أن الكونت كان كتب إلى بولونيا بطريقة يبعد معها الظنون التي قد تؤثر عليه من ناحـية المبـارزة. كانت الشـرطة عـادلة تمـاماً: لاحظت أن رجلين غريبين تبارزا بالسيف أمام أكثر من ثلاثين رجلاً بينهم كاهن بذل جهوداً غير مجدية للفصل بين المتبارزين. جرح واحد منهما وعرفـ: أنه الكونت م *** وإذ لم يتلفظ أحد باسم جوزف بوسي، تجرأ فابريس بعد أقل من شهرين،

على العودة إلى بولونيا، مقتنعاً أكثر من أي وقت آخر أن مصيره يفرض عليه ألاّ يتعرف إلى الناحية السامية والعقلية في الحب. وهذا ما شرحه مطوّلاً للدوقة. كان سئماً من حياة الوحـدة، يرغب، بلهفة، أن يستعيد السهرات الرائعة التي كان يقضيها بين الكونت وعمته. فمنذ ابتعد عنهما لم يعرف عذوبة الرفقة الطيبة.

كتب للدوقة يقول: «ضجرت كثيراً من الحب الذي أردت أن أوفره لنفسي، ومن فوستا، لو بقي هواها ملائماً، فلن اجتاز عشرين فرسخاً حتى أذهب، وأخطرها بتنفيذ وعدها. وهكذا لا تخشي، كما تقولين، أن أذهب إلى باريس حيث تباشر عملها بنجاح باهر، وسأجتاز كل المسافات الممكنة، لقضاء سهرة معك أنتِ ومع هذا الكونت الطيّب أمام أصدقائه».

القسم الثاني

«إن هذه الجمهورية، بصياحاتها المتواصلة، قد تحرمنا نعمى أفضل الملكيات»

١٤

فيما كان فابريس يجري وراء الحب في قرية مجاورة لبارما، كان القاضي راسي الذي لم يعرف أنه قريب منه بهذا القدر، يكمل معالجة قضيته كما لو أنه أحد الليبراليين: تظاهر أنه لا يجد شهود النفي أو يستطيع اخافتهم؛ وأخيراً بعد عمل علمي، دام سنة وشهرين، بعد عودة فابريس الأخيرة إلى بولونيا، وفي

أحد أيام الجمعة، قالت المركيزة رافرسي، في صالونها، وهي نشوانة من السرور، أن الحكم الذي صدر منذ ساعة ضد دن دونغو الصغير، سيعرض في اليوم التالي لتوقيـع الأمير الـذي سيصدّق عليه. وعلمت الدوقة، بعد دقائق بحديث منافستها.

قالت الدوقة في نفسها: رجال الكونت لا يحسنون خدمته. كان يعتقد، حتى هذا الصباح، أن الحكم لا يمكن أن يصدر قبل ثمانية أيام. ربما لن يكون مستاء أن يبعد نائب الأسقف الشاب عن بارما ولكن، أضافت وهي تغني، سنراه عائـداً، وسيصبح ذات يوم أسقفنا. دقت الجرس.

قالت للفراش: أجمعوا كل الخدم في غرفة الانتظار، وحتى الطهاة. اذهب إلى قائد الموقع واستحصل على الإذن الضروري للحصول على أربعة جياد ولتكدن إلى عربتي بأقل من نصف ساعة. انشغلت نساء البيت جميعهن بتحضير الحقائب. ارتدت الدوقة بعجلة، ثوب سفر، دون أن تقول شيئاً للكونت. كانت فكرة السخر قليلاً منه تطربها.

قالت للخدم المجتمعين: يا أصدقائي، أنبئت أن ابن أخي المسكين سيحكم غيابياً: كانت له جرأة الدفاع عن حياته ضد هائج مجنون. جيليتي هو الذي كان يريد قتله. كل واحد منكم أمكنه أن يختبر كم فابريس لـطيف وغير مؤذ. اني أذهب إلى فلورنسا وأنا غاضبة من هذه الإهانة الفظيعة: أترك لكل منكم

اجوره عشرة أعوام، إذا كنتم تعساء، اكتبوا لي وطالما أملك فلساً ذهبياً واحداً فسيكون لكم فيه حصة.

كانت الدوقة تفكر تماماً بما تقول، وعند كلماتها الأخيرة، أجهش الخدم بالبكاء، فابتلت عيناها بالدموع هي أيضاً؛ وأضافت بصوت يغلب عليه التأثر:

ـ صلوا إلى الله من أجلي ومن أجل فابريس دل دونغو، نائب الأسقف الأول في الأبرشية، الذي سيحكم غداً صباحاً بالأشغال الشاقة أو بالموت، وسيكون هذا الحكم أقل غباء من الأول.

تضاعفت دموع الخدم وتحوّلت إلى صياح متمرد. صعدت الدوقة إلى عربتها وجعلتهم يقودونها إلى قصر الأمير. طلبت مقابلته بواسطة مرافقه الجنرال فونتانا، رغم الساعة غير المناسبة. لم تكن ترتدي البدلة الرسمية، وهذا ما أوقع المرافق في هلع لا يوصف. الأمير لم يدهش ولم يتكدر من طلب المقابلة. قال في نفسه مبتهجاً: سيتاح لنا أن نرى دموعاً تذرفها عينان جميلتان. تأتي لطلب الرحمة؛ وسيذل هذا الجمال الفخور!.. كانت لا تطاق في المواقف المستقلة تتخذها وكانت هاتان اللتان تتكلمان، تقولان لي دائماً عند حدوث أي شأن يكدرهما: ستكون نابولي أو ميلانو مقراً أكثر ايناساً من مدينتكم الصغيرة بارما. لا أملك على نابولي أو ميلانو؛ ولكن هذه السيدة الكبيرة

تأتي لتطلب مني شيئاًيتعلق بي وحدي، وتتشوق بشدة للحصول عليه؛ فكرت دائماً أن وصون ابن الأخ هذا، سيستنفد كل ما معي.

وبينما الأمير يبتسم لهذه الأفكار ويستسلم إلى التوقعات المستحبة، كان يتنزه في غرفته التي بقي الجنرال فونتانا واقفاً عند باباها، متوتراً كجندي، وهو يحمل سلاحه. عندما رأى عيني الأمير البراقتين، وتذكر ثوب سفر الدوقة، أحسّ بانحلال الملكية. ولم يعد لذهوله حدّ عندما سمع الأمير يقوله له:

ـ أطلب من الدوقة أن تنتظر ربع ساعة.

عاد الجنرال مساعد رئيس الأركان كجندي في استعراض. ابتسم الأمير وقال في نفسه: فونتانا ليس معتاداً أن يرى هذه الدوقة الفخورة تنتظر: الوجه المندهش، الذي سيتخذه عندما سيكلمها على ربع ساعة الانتظار، سيتيح لها فرصة اجتياز مرحلة الدموع المؤثرة التي ستشهد هذه الغرفة ذرفها. كان هذا الربع ساعة، عذباً على قلب الأمير. وكان يتنزه بخطى ثابتة ومتساوية كان يحكم كملك. المهمّ ألا يقال شيء لا يكون في محله. تماماً؛ مهما كانت عواطفي نحو الدوقة، لا يجب أن أنسى أبداً إنها من سيّدات قصري البارزات. كيف كان يتكلم لويس الرابع عشر إلى الأميرات عندما يكون مستاء؟ وتوقفت عيناه على رسم الملك العظيم.

الطريف أنه لم يفكّر قط، أن يتساءل إذا كان سيعفو عن فابريس. وأخيراً، مرور عشرين دقيقة، عاد فونتانا الأمين إلى الباب، دون أن يقول شيئاً. يمكن للدوقة سنسفرينا الدخول صاح الأمير وكأنه يمثّل. قال الأمير: ستبدأ الدموع وأخذ منديله من جيبه كما لو أنه أراد أن يجهز نفسه لمثل هذا المشهد.

لم تبدُ الدوقة أبداً بهذه الرشاقة وهذا الجمال. وبهذا الجمال، بدت كما لو لها خمسة وعشرون عاماً؛ لدى رؤية خطوها الخفيف كان المرافق المسكين على وشك أن يفقد عقله.

قالت الدوقة بصوتها الضعيف الفرح: لدي الكثير من طلبات الصفح أرفعها إلى سموّك، وسمحت لنفسي أن أقابلك بثوب لا يليق تماماً. ولكن سموّك عوّدني على عطفه إلى درجة تجرأت معها على الأمل أنه سيمنحني، بعد، هذا الفضل.

كانت الدوقة تتكلم ببطء، كي تعطي نفسها فرصة للاستمتاع بالنظر إلى وجه الأمير؛ كانت عذبة بسبب الدهشة الكبرى، وبقية الخيلاء في وضع الرأس واليدين. بقي الأمير كالمصعوق؛ ويصرخ بصوته الحاد المضطرب من وقت إلى آخر، وهو ينطق بجهد: كيف؟ كيف؟ بعد أن أنهت الدوقة مديحها، تركت له الوقت لكي يجيب من قبيل الاحترام ثم أضافت:

ـ أجرؤ أن آمل من سموك التكرّم، وتسامحني لعدم لياقة ثوبي؟ ولكن، وهي تتكلم هكذا، كانت عيناها الهازئتان تبرقان

بلمعان متألق حتى أنّ الأمير لم يتمكن أن يتحمّلها؛ نظر إلى السقف، مما يدل لديه على أقصى الارتباك.

ـ كيف ؟ كيف؟ قال ثانية، وسعد بأنه وجد جملة يقولها: يا سيدتي الدوقة إجلسي. قدّم لها بنفسه مقعداً وبغاية اللطافة. تأثرت الدوقة بهذه المجاملة فلطفت من حدة نظراتها.

ـ كيف؟ كيف؟ ردّد الأمير وهو يضطرب في مقعده كأنه يتعذّر عليه إيجاد وضع مريح في مقعده.

أردفت الدوقة، سأفيد من طراوة الليل حتى أصل إلى محطة السفر. وبما أن غيابي قد يطول لم أشأ الخروج من مقاطعات سموّك دون شكرك على كل الخدمات الطيبة التي تنازلت وقدمتها لي منذ خمس سنوات. عند هذه الكلمات فهم الأمير أخيراً، فامتقع لونه. رأى نفسه مخطئاً في تكهّناته، ثم اتخذ موقفاً متعاظماً، يليق بصورة لويس الرابع عشر، التي كانت تحت عينيه. قالت الدوقة في نفسها، هوذا رجل.

قال بلهجة حازمة: ما سبب رحيلك الفجائي؟.

ـ كنت حضّرت هذا المشروع منذ زمن بعيد، أجابت الدوقة، وأن إهانة صغيرة توجه إلى الحبر دل دونغو الذي سيحكمونه غداً بالموت أو بالأشغال الشاقة، تجعلني أسرع في ذهابي.

ـ وإلى أية مدينة تذهبين؟

ـ أعتقد، إلى نابولي. ثم أضافت وهي تنتصب واقفة: لم يبق أمامي سوى أن استأذن سموّك وأشكرك بكل تواضع على خدماتك الطيبة القديمة. وكانت، بدورها تتكلم بثبات حتى أحس الأمير بوضوح أن بعد ثانيتين يكون كل شيء انتهى. وأن إذا حدثت فضيحة الذهاب، غدت كل تسوية مستحيلة. لم تكن من تلك النسوة اللواتي يعدن عن مساعيهن. ركض وراءها.

قال لها وهو يأخذ بيدها: ولكنك تعرفين، يا حضرة الدوقة، اني أحببتك دائماً وبصداقة يتوقف عليك كي نعطيها اسماً آخر. في الأمر جريمة، وهذا، لا سبيل إلى نكرانه؛ وسلّمت التحقيق في الدعوى إلى أفضل قضائي..

عند هذه الكلمات، وقفت الدوقة، بكل قامتها، واختفت بلمحة خاطفة، كل مظاهر الاحترام والكياسة، وظهرت بكل وضوح للمرأة المهانة التي تتوجه ألى كائن تعرف أنه سيّىء النية. قالت للأمير وبدت عليها دلائل الغضب والاحتقار وهي تتكلم بكل رزانة:

ـ إني أرحل عن كل دول سموّك، كي لا أسمع أحداً يتكلم على القاضي راسي وعلى القتلة السفلة الآخرين الذين حكموا بالموت على ابن أخي وكثيرين غيره. إذا شاء سموك ألّا يمزج شعور المرارة باللحظات الأخيرة أقضيها أمام أمير مهذّب ومرهف

الحس عندما لا يكون مخدوعاً، أرجوه بكل تواضع ألا يذكّرني بهؤلاء القضاة السفلة يبيعون أنفسهم بألف درهم أو بوسام.

اللهجة الرائعة والصادقة لفظت بها هذه الكلمات، جعلت الأمير يرتعش؛ وخشي لحظة أن يرى كرامته ملوثة بتهمة أكثر مباشرة، ولكن تحوّل شعوره سريعاً إلى لذة. كان يعجب بالدوقة اكتسبت في هذه اللحظة جمالاً سامياً. قال في نفسه. يا إلهي! كم هي رائعة! يجب التغاضي عن شأن امرأة فريدة فلا امرأة ثانية نظيرة لها في كل إيطاليا.. إذن، بقليل من حسن السياسة، لن يكون مستحيلاً جعلها، ذات يوم، عشيقتي. الفرق شاسع بينها وبين المركيزة بالبي. التي تسرق كل سنة، ثلاثمائة ألف فرنك على الأقل، من رعاياي المساكين.. فكر فجأة: هل سمعتها فعلاًقالت: حكمت على ابن أخي وكثيرين غيره. عندئذ طغا الغضب. قال الأمير بغطرسة جديدة بعد فترة من الصمت:

ـ وما العمل حتى لا ترحل السيدة!.

أجابت الدوقة بلهجة ساخرة شديدة المرارة وباحتقار باد: لست قادراً على القيام به.

كان الأمير غاضباً، ولكن ممارسة الملك المطلق، أعطته قوة لمقاومة عاطفته الأولى. قال في نفسه: يجب السيطرة على هذه المرأة، يجب أن أكرس نفسي لها، ثم القضاء عليها عن طريق الاحتقار.. إذا خرجت من هذه الغرفة، فلن أراها أبداً.

ولكن، أين يجد الكلمة التي تجعله راضياً عن نفسه وتعمل الدوقة على عدم مغادرة البلاط؟ وإذ هو على هذه الحال من الغضب والكراهية قال في نفسه: يتعذر تكرار حركة، أو جعلها هزأة، وذهب ليقف بين الدوقة وباب غرفته. بعد قليل سمع حكاً على الباب.

ـ من؟، صاح وهو يشتم بكل قوته، من هو المغفل الذي يأتي إلى هنا، جالباً معه بلادة وجوده؟ أطل الجنرال فونتانا المسكين، بوجهه الشاحب المضطرب كلياً. بدا كمرجلٍ في ساعة النزاع، وهو يتلفّظ بهذه الكلمة بطريقة غير واضحة: سموّ الكونت موسكا يرجو شرف الدخول.

أجاب الأمير صائحاً: ليدخل. وبينما موسكا يحييه:

قال له: حسناً، هي ذي الدوقة سنسفرينا، تطمح بالرحيل عن بارما في الحال، لكي تذهب وتقيم في نابولي وتقول لي وقاحات.

قال موسكا: كيف؟ وامتقع لونه؟.

ـ ماذا؟ ألم تكن مطّلعاً على مشروع رحيلها هذا؟.

ـ ليست الكلمة الأولى؛ تركت السيّدة الساعة السادسة مرحة مسرورة.

أحدثت هذه الكلمة في الأمير تأثيراً عظيماً. نظر إلى موسكا، بادىء الأمر، فدلَّ شحوبه المتنزايد على أنه يقول الحقيقة، وأنه

ليس متواطئاً معها. قال في نفسه: هكذا أفقدها نهائياً. البهجة والانتقام يتبخران في الوقت نفسه. ستنظم، في نابولي، قصائد هجاء، بالاشتراك مع ابن أخيها فابريس، عن غضب أمير بارما الصغير. نظر إلى الدوقة؛ كانت أقوى نزوات الاحتقار والغضب تتنازع قلبه. عيناه مثبتتان على الكونت موسكا وعلى هذا الفم الناعم الجميل يعبّر عن أشد الاحتقار مرارة. الوجه بكامله، كان يقول: أيها الممالق الحقير! هكذا فكّر الأمير، بعد أن فحصه، أني أفقد الوسيلة لاعادتها إلى البلاد. إذا خرجت من الغرفة الآن، سأفقدها، والله أعلم ما الذي ستقوله عن قضائي في نابولي. وبهذه العقلية وقوة الاقناع الإلهية وهبتها إياها السماء، ستجعل الجميع يصدّقونها. سأكون مديناً لها بسمعة ظالم مضحك ينهض ليلاً ليفتش تحت سريره.. عندئذ، بحركة ماهرة، وكما لو أنه يسعى للقيام بنزهة، ليخفض من درجة اضطرابه، وقف ثانية أمام باب الغرفة. كان الكونت إلى يمينه، على ثلاث خطوات، ممتقع اللون، شاحبُ، ومرتجفاً فاستند إلى القسم الخلفي من المقعد حيث جلست الدوقة عند بداية المقابلة. أبعده الكونت بحركة غضب. كان مغرماً: إذا ذهبت الدوقة فسأتبعها؛ ولكن هل تقبلني في حاشيتها؟ هذا هو السؤال.

كانت الدوقة واقفة، إلى يسار الأمير، يداها مكتوفتان ومشدودتان إلى صدرها، وتنظر إليه بوقاحة مدهشة. كان

شحوب كامل وعميق عقب الألوان الزاهية المتألقة تنبعث من هذا الوجه الرائع.

كان الأمير، على العكس، أحمر الوجه مضطرب البال. كانت يده اليُسرى تعبث، بطريقة تشنجية، بالصليب المتدلّي من شريط أخويته، يحمله تحت ثوبه؛ وبيده اليمنى كان يداعب ذقنه.

ـ قال للكونت: ما الذي يجب عمله؟ ودون أن يدري هو نفسه، ماذا كان يفعل، مدفوعاً بعادة استشارته في كل أمر، أجاب الكونت:

ـ بالحقيقة، لا أعرف، يا صاحب السمو والرفعة وبدا كرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان ينطق مجهداً بكلمات جوابه. لهجة هذا الصوت سبّبت له العزاء الأول لكبريائه، وهذه السعادة أوحت له بجملة موفقة ارضاء لاعتداده بنفسه:

قال: حسناً! أناالأكثر إدراكاً بين الثلاثة. أريد أن أنسى مركزي الاجتماعي، وسأتكلم كصديق، وأضاف وهو يبتسم ابتسامة تسامح جميلة، عن عهد لويس الرابع عشر السعيد، كصديق يحدث أصدقاء وأضاف: سيدتي الدوقة ما يجب عمله لجعلك تنسين قرارك المفاجىء؟.

أجابت الدوقة، وهي تخرج نهدة عميقة: لا أعرف، بالحقيقة، لا أعرف، لفرط ما أمقت بارما. لم تكن في هذه الكلمة نيّة ساخرة وكان يبدو الصدق يتكلم بفمها.

التفت الكونت بسرعة نحوها، وصدمت فيه نفسية رجل البلاط: ثم وجه إلى الأمير نظراً راجياً. بكثير من الوقار والشجاعة، ترك الأمير لحظة تمر، ثم توجه إلى الكونت:

- أرى صديقتك الفاتنة خارجة تماماً عن طورها؛ الأمر بسيط: انها تعبد ابن أخيها. والتفت إلى الدوقة وأضاف، مرفقاً كلامه بنظرة تنمّ عن أشد معاني الغزل، وبدا في الوقت نفسه بالهيئة التي تعتمد للاستشهاد بكلمة من مهزلة: ما الذي يتوجب لنيل رضى هاتين العينين الجميلتين؟.

حصلت الدوقة على متسع من الوقت للتفكير. أجابت بلهجة بطيئة وجازمة، كما لو أنها كانت تملي انذارها:

- سموك سيوجه إليّ رسالة لطيفة. كما يتقن صياغة هذا النوع، انك لست مقتنعاً بأن فابريس دل دونغو، نائب الأسقف الأول، مجرم، وانك لن توقّع على الحكم عندما يقدّم اليك وأن هذا الاجراء الظالم لن تكون له نتيجة في المستقبل.

- ظالم! كيف! صاح الأمير وهو يحمرّ حتى بياض عينيه، ويعاوده غضبه.

- ليس هذا كل شيء! أجابت الدوقة بكبرياء؛ وهي تنظر إلى ساعة الجدار، تشير إلى الحادية عشرة، منذ هذا المساء، سيرسل صاحب السمو والرفعة من يقول إلى المركيزة رافرسي، أنه ينصحها بالذهاب إلى الريف للترويح عن نفسها من المتاعب

التي سببتها لها إحدى الدعاوى التي كانت تتحدث عنها، في صالتها، عند بدء السهرة. كان الدوق يتمشى في غرفته كرجل هائج.

كان يصيح: هل رأى أحد مثل هذه المرأة؟.. انها تقلّل من احترامي.

أجابت الدوقة بلطف كامل:

ـ لم أفكر أبداً في حياتي ان أقلّل من احترامي لصاحب السمو والرفعة. تكرم سموك إلى أقصى حد، وقال انه يحدثنا كصديق. وفضلاً عن هذا، لا رغبة لديّ بالبقاء في بارما، أضافت وهي تنظر إلى الكونت بازدراء كامل. هذه النظرة رفعت الأمير كي يتخذ قراراً، وكان لا يزال غير متأكد، مع أن كلماته بدت وكأنها وعد؛ كان يهزأ تماماً بالكلام.

تبادل الاثنان بعض الكلمات. وأخيراً تلقى الكونت موسكا أمراً بكتابة الرسالة اللطيفة التي طلبتها الدوقة. كتبها ولكنه أسقط عبارة: هذا الاجراء الظالم لن يكون له أية نتيجة في المستقبل. قال الكونت: يكفي، الأمير يقطع وعداً بألا يوقّع الحكم الذي سوف يقدّم إليه. شكره الأمير بنظرة خاطفة وهو يوقع.

ارتكب الكونت خطأً كبيراً: كان الأمير متعباً فوقع على كل ما يطلب منه. كان يعتقد أنه يتخلّص من الفضيحة. وكانت

هذه الكلمات تتحكّم بمجمل القضية حسب رأيه: «إذا رحلت الدوقة، سأجد بلاطي مضجراً قبل ثمانية أيام». لاحظ الكونت أن السيد صحّح التاريخ، ووضع تاريخ اليوم التالي: نظر إلى ساعة الجدار: منتصف الليل. لم ير الوزير في هذا التاريخ المصحح سوى الرغبة المتحذلقة في إظهار الدقة والادارة الحسنة. لم يجد بما يختص بنفي المركيزة رافرسي أية صعوبة، فالأمير يجد لذة خاصة في نفي الناس.

ـ جنرال فونتانا، صاح وهو يشق الباب.

ظهر الجنرال بوجه، لفرط ما هو مندهش وفضولي، أحدث تبادل نظرات فرحة بين الدوقةوالكونت، أشاعت السلام.

ـ جنرال فونتانا، قال الأمير، ستستقلّ عربتي التي تنتظر تحت الأعمدة، إلى بيت المركيزة رافرسي، سترسل من يخبرها عن وصولك؛ إذا كانت في السرير ستضيف انك آت من قبلي ولدى وصولك إلى غرفتها، ستقول بدقة هذه الكلمات، لا سواها: «حضرة السيدة المركيزة رافرسي، يطلب منك صاحب السمو والرفعة، منذ الغد، قبل الثامنة صباحاً، الذهاب إلى قصرك في فيليجا؛ سيعلمك صاحب السمو متى يمكنك العودة إلى بارما».

فتّش الأمير بعينيه عن عيني الدوقة، التي انحنت أمامه بكل احترام، دون أن تشكره كما كان يتوقع ثم خرجت مسرعة.

قال الأمير وهو يلتفت إلى موسكا: أية امرأة هذه!.

سرّ هذا، بنفي المركيزة رافرسي مما كان يسهّل جميع أعماله الوزارية؛ تكلّم نصف ساعة كرجل بلاط. كان يجب ارضاء كرامة هذا الأمير، ولم يستأذن بالانصراف إلا عندما رآه اقتنع بأن تاريخ لويس الرابع عشر لم يتضمن صفحة أروع من التي وفّرها الأمير لمؤرخيه في المستقبل.

لدى عودة الدوقة إلى بيتها، أوصدت بابها وأوصت خاصتها بعدم استقبال أحد ولا حتى الكونت. كانت تريـد أن تختلي بنفسها وتبحث أية فكرة تكوّن عما جرى. تصرفت بالصدفة. لتوفر لنفسها المتعة في الوقت نفسه؛ ولكن مهما كان الاجراء الذي تركت نفسها تنجرّ إليه، لكانت تشبثت به بعناد. ولما كانت لامت نفسها لدى استعادتها شجاعتها أو ندمت. هذا هو الطبع، المدينة له، وهي في السادسة والثلاثين، بأنها أجمل نساء البلاط.

كانت تحلم، في هذه اللحظة، بما لبارما أن تقوم من متع، كما لو كانت فعلت لدى عودتها من رحلة طويلة لشدة ما كانت ايقنت، بين التاسعة والحادية عشرة بالرحيـل نهائياً عن هـذه البلاد.

بدا الكونت المسكين بوجه مضحك عندما علم برحيلي في حضور الأمير. انه رجل لطيف وذو قلب نادر! ولكان ترك وزارته كي يتبعني، ولكن أيضاً خمس سنوات كاملة لم يتمكن أن

يؤاخذني عن سهو واحد. هل من نساء متزوّجات يتمكّن من أن يقلن هكذا لسيّدهن أمام المذبح؟ هو ليس ذا شأن ولا مدّعياً ولا يرغّب في خيانته. يبدو أمامي خجولاً من سلطته.

كان يتخذ وجهاً مضحكاً في حضور أميره وسيده؛ لو كان هنا لقبّلته.. ولكني لن آخذ على عاتقي تسلية وزير فقد وزارته. انه مرض لا يمكن الشفاء منه حتى الموت و.. الذي يسبب الموت. اية مصيبة ان يصبح الرجل وزيراً وهو بعد بعمر الشباب! يجب أن أكتب له لإطلاعه ما عليه أن يعرفه رسمياً، قبل أن يختلف مع أميره.. ولكني نسيت خدمي الطيبين.

دقت الدوقة الجرس. كانت وصيفاتها لا يزلن منهمكات في ترتيب الحقائب، والعربة تحت الرواق، وكانوا يحملونها. كان جميع الخدم الذين ليس لديهم عمل يقومون به، يحيطون بالعربة والدموع تملأ أعينهم. شكينا التي كانت تدخل على الدوقة في كل المناسبات الكبرى نقلت هذه التفاصيل.

قالت الدوقة استدعيهم للصعود، ثم مرت، برهة بعد ذلك بغرفة الانتظار.

قالت لهم: تلقيت وعداً بأن الحكم الذي سيصدر بحق ابن أخي لن يوقّعه الأمير (هكذا يتكلمون في ايطاليا)؛ إني عدلت عن رحيلي، سنرى إذا كان لاعدائي القدرة على تبديل هـذا القرار.

بعد صمت قصير، أخذ الخدم بالصياح: تحيا الدوقة! وظهرت من الغرفة المجاورة، كما فنانة يصفقون لها، وقامت بانحناءة مليئة باللطف، أمام خاصتها، وقالت: يا أصدقائي، أشكركم. لو أنها قالت كلمة واحدة في تلك اللحظة، لكانوا ساروا جميعاً لمهاجمة القصر. أشارت إلى الحوذي وهو مهرب قديم، ورجل مخلص لها، فتبعها.

ـ سترتدي ثياب مزارع ميسور، وستخرج من بارما كما يتاح لك. ستستأجر عربة وتذهب بأسرع ما يمكن إلى بولونيا، كمتنزه، من باب فلورنسا وستعطي فابريس، في بليغرينو، الرزمة التي ستسلّمك إياها شكينا. فابريس يختبىء هناك باسم جوزف بوسي. إياك أن تفضح أمره بعمل طائش. لا تتظاهر انك تعرفه. ربما وضع أعدائي جواسيس على طريقك. سيعيدك فابريس بعد ساعات أو أيام. عليك أن تضاعف احتراسك وأنت عائد، كي لا تفضح أمره.

ـ آه! صاح الحوذي، جماعة المركيزة رافرسي! نحن ننتظرهم، وإذا شاءت السيدة، سنقضي عليهم.

ـ ربما، يوماً ما! ولكن إياك أن تقوم بأي عمل دون أمر مني.

إنها كانت نسخة رسالة الأمير، ترغب الدوقة في إرسالها إلى فابريس، لم تتمكن مقاومة رغبة تسليته، وأضافت كلمة أصبحت عشر صفحات، عن المشهد الذي كان سبب كتابة

الرسالة؛ ثم استدعت الحوذي ثانية.

قالت له: يمكنك أن تذهب عندما تفتح أبواب المدينة، الساعة الرابعة.

- كنت عازماً على المرور من المجرور الكبير، ستغمرني المياه حتى الذقن، ولكن سأمر..

- كلا، قالت الدوقة، لا أريد أن أعرض أخلص خدمي للإصابة بالحمى. أتعرف أحداً من خاصة الأسقف؟.

- الحوذي الثاني صديقي.

- هذه رسالة إلى هذا الحبر الجليل: أدخل دون ضجة إلى قصره وأطلب الذهاب عند فرّاشه؛ لا أريد ايقاظ سيادته إذا كان اختلى في غرفته. اقض الليل في القصر وإذ من عادته النهوض مع شروق الشمس. غداً صباحاً عند الرابعة، أطلب الاعلان عن مجيئك من قبلي. أطلب بركة الأسقف القديس؛ وسلمه هذه الرزمة وخذ الرسائل ألتي ربما سيعطيك إياها إلى بولونيا.

كانت الدوقة توجّه إلى الأسقف نسخة رسالة الأمير الأصلية. وبما أنها كانت تختص بنائبه الأول، رجته أن يضعها في محفوظات الأسقفية، إذ كانت تأمل أن يطلع عليها نوّاب الأساقفة والكهنة الرسميون، زملاء ابن أخيها بالسرية التامة.

كانت الدوقة تكتب إلى الأسقف لاندرياني، بدالّة فتنت هذا

البورجوازي الطيب؛ كرُس للتوقيع وحده ثلاثة أسطر؛ وكانت رسالة الصداقة هذه تنتهي بهذه‌الكلمات: انجلينا ـ كورنيليا ـ ايزوتا فلسيرا دل دونغو، دوقة سنسفرينا.

قالت الدوقة وهي تضحك:

ـ لم أكتب بهذا القدر، منذ عقد قراني على الدوق المسكين؛ ولكن لا يقاد هؤلاء الناس إلا بمثل هذه الأشياء، وفي أعين البورجوازيين أن الرسم الهزلي لا يصنع الجمال. لم تتمكن من انهاء السهرة دون أن تستسلم لتجربة كتابة رسالة إلى الكونت المسكين. كانت تخبره، رسمياً، لاطلاعه، وتقول في علاقاتها مع الرؤوس المتوجّه، لم تكن تجد في نفسها قدرة تسلية الوزير المغضوب عليه. «الأمير يخيفك؛ عندما لن تتمكن من مرآه، سيكون علي أنا أن أخيفك». وأوفدت في الحال من يحمل له الرسالة.

من ناحيته، غداة اليوم التالي، أوفد الأمير الكونت زورلا وزير الداخلية.

قال له: من جديد، أصدر أشد أوامرك قساوة إلى ضابط العدلية لالقاء القبض على السيد فابريس دل دونغو. يخبروننا أنه قد يجرؤ ويظهر في دولنا. هذا الهارب، الموجود في بولونيا، يتحدى ملاحقة محاكمنا، ضع رجال شرطة يعرفونه معرفة شخصية:

١ ـ في القرى على الطريق التي تؤدي من بولونيا إلى بارما.
٢ ـ في جوار قصر الدوقة سنسفرينا في ساكا وبيتها في كاستلنوفو.
٣ ـ حول قصر الكونت موسكا.

أتمنى من حكمتك السامية، حضرة الكونت، أنك ستعرف كيف تخفي أوامر ملكك هذه، عن الكونت موسكا. أريد أن يلقى القبض على السيد فابريس دل دونغو.

ما خرج هذا الوزير حتى دخل القاضي راسي من باب سري، شديد الانحناء، ومحيّياً عند كل خطوة. مظهر هذا النذل كان يعني سفالة دوره. وبينما حركات عينيه السريعة وغير المنتظمة تدلّ على معرفته بمزاياه، ثقة فمه المتعجرف والمتغضن كانت تشير إلى معرفته كيف يقاوم الازدراء.

هذا الشخص سيكون له تأثير كبير على مصير فابريس. كان ممشوق القامة، وعيناه جميلتين تنبئان عن ذكاء حاد، ووجهه كان مشوهاً بالجدري. كان ذا عقل راجح وذكي، يمتلك علم الحقوق. وكان يلمع خاصة بدهائه: فمهما كان الاتجاه الذي تقدّم به قضية، كان يجد بسهولة، وفي لحظات قليلة، الطرائق المحقّة للوصول إلى إدانة أو تبرئة؛ كان ملك الأمور الدقيقة، بين وكلاء النيابة.

كم من الملكيات الكبرى كانت حسدت أمير بارما، على هذا الذي لم يكن له سوى شهوة واحدة: أن يكون في محادثة حميمية

مع أشخاص كبار، وأن يروق في أعينهم ولو بالتهريج. لم يكن يهتمّ إذا كان الرجل النافذ يضحك مما كان يقول أو من شخصه بالذات، أو أطلق دعابات مثيرة للاشمئزاز موضوعها السيدة راسي، على أن يراه يضحك ويعامل بدالّة. فيكون مسروراً. يجهل الأمير، بعض المرات، السبل للاعتداء على كرامة هذا القاضي الكبير، فيوجّه إليه الرفسات، فإذا آلمته يأخذ بالبكاء ولكن غريزة التهريج كانت عنده قوية فيفضّل كل يوم صالون وزير كان يهزأ منه، في مجلسه الخاص، يتحكم باستبداد على كل محامي البلاد. كوّن لنفسه مركزاً خاصاً، إذ كان يستحيل على النبيل الأكثر وقاحة أن يذلّه؛ وكانت طريقته للانتقام من الاهانات يتلقاها طيلة النهار، يسردها على الأمير، وكان نال الحظوة بأن يقول له كل شيء؛ صحيح أن الجواب كان غالباً صفعة مؤلمة، ولكنه لم يكن يستاء. وجود هذا القاضي الكبير، يسلّي الأمير في أوقات اضطراب مزاجه، وعندئذ كان يتلهّى بإهانته. وراسي كان تقريباً رجل البلاط الواحد: بلا شرف وبلا جرأة.

- يجب المحافظة على السرية، صاح به الأمير، قبل كل شيء، دون أن يحييه. وعامله كما خادم المدرسة، هو الذي كان رفيع التهذيب مع الجميع. ما تاريخ حكمك؟.

- البارحة صباحاً، صاحب السمو والرفعة.

- كم قاضياً وقعه؟.

ـ الخمسة كلهم.

ـ والعقوبة؟.

ـ عشرون سنة سجن في القلعة، كما سبق وقال لي سموك.

ـ الحكم بالموت مثير للاشمئزاز! أمر يؤسف له! أي تأثير كان ترك على هذه المرأة! ولكن، انه واحد من آل دونغو، وهذا الاسم مكرّم في بارما بسبب ثلاثة أساقفة متعاقبين تقريباً. . قلت لي: عشرين سنة في سجن القلعة؟.

أجاب القاضي راسي، نعم، يا صاحب السمو، وهو واقف ومنحن مع اعتذار علني مسبق أمام رسم صاحب الرفعة والسمو، إضافة، إلى صيام كل جمعة على الخبز والماء، والسهرات التي تسبق جميع الأعياد الكبرى، إذ أن الشخص معروف بعدم تقواه. وهذا من أجل المستقبل، ولتحطيم حظه.

قال الأمير: اكتب: «ان صاحب الرفعة والسمو الأمير تنازل واستمع بعطف إلى توسلات المركيزة دل دونغو المتواضعة، والدة المذنب، والدوقة سنسفرينا، عمته اللتين قالتا أنه يوم ارتكبت الجريمة كان لا يزال ابنها وابن أخيها فتياً، وتائهاً بحب مجنون لزوجة جيليتي المسكين، أراد، بالرغم من الفظاعة التي توحي بها هذه الجريمة، تخفيف العقاب الذي حكم به فابريس دل دونغو، إلى اثني عشر عاماً في السجن.

ـ أعط لكي أوقّع.

وقّع الأمير، وأرّخ بتاريخ اليوم السابق، وإذ كان يعيد الحكم إلى راسي قال له: أكتب فوراً تحت توقيعي: «الدوقة سنسفرينا ارتمت ثانية على ركبتي سموه، وسمح الأمير بأن يحصل المذنب على ساعة نزهة على مصطبة البرج المربع، المسمّى برج فارنيز».

ـ وقّع هنا، قال الأمير، واحفظ الصمت مهما كان بإمكانك أن تسمع اصداءه في المدينة. ستقول للمستشار دي كابيتاني، الذي اقترع لسنتي سجن، والذي ثرثر لصالح وجهة النظر المضحكة هذه، اني أدعوه للعودة إلى مطالعة القوانين. وسيحفظ الصمت من الآن فصاعداً حول هذا الموضوع. عمت مساء. قام القاضي بثلاث انحناءات وببطء كبير، لم ينظر الأمير إليها.

كان هذا، يجري في السابعة صباحاً. وانتشر في المدينة والمقاهي. بعد ذلك بساعات، خبر نفي المركيزة رافرسي. كان الجميع يتكلمون على هذا الحدث العظيم. نفي المركيزة أبعد لبعض الوقت، عن بارما، هذا العدوّ اللدود للمدن الصغرى والبلاطات الصغرى: الضجر. ولعدة أيام، لم يخرج الجنرال فابيو كونتي من القلعة، متذرعاً بنوبة نقرس. ولا سيما أنه تخيّل نفسه، وزيراً للدفاع. استنتج البورجوازيون والشعب أن الأمير قرر أن يعطي أسقفية بارما للحبر دل دونغو. ذهب سياسيّو المقاهي القارفين، إلى الادعاء أنه طلب من الأب لاندرياني، الأسقف الحالي أن يتظاهر بالمرض ويقدّم استقالته، وسوف

يعطونه معاشاً كبيراً على مزرعة التبغ، وكانوا متأكدين من هذا الأمر. وصل هذا الخبر إلى رئيس الأساقفة الذي اضطرب له كثيراً وخلال أيام، ضعفت حماسته كثيراً تجاه بطلنا. نُشر هذا الخبر في صحف باريس، بعد شهرين من هذا التغيير البسيط، أن الكونت موسكا ابن أخ الدوقة سنسفرينا هو الذي سيسام أسقفاً.

كانت المركيزة رافرسي ساخطة في قصرها في فيليجا. لم تكن من النسوة الضعيفات، يعتقدون أنهن ينتقمن بالأحاديث المهينة ضد أعدائهن. منذ اليوم التالي لفقدانها حظوتها، تقدّم الفارس رسكارا وثلاثة من أصدقائه إلى الأمير وطلبوا منه أذناً بالذهاب لمقابلتها في قصرها. استقبل سموه هؤلاء السادة بلطف. وكان وصولهم إلى فيليجا عزاء كبيراً للمركيزة. كان في قصرها قبل نهاية الأسبوع الثاني، ثلاثون شخصاً من المنتظر أن يوظفهم الوزير الليبرالي. كانت المركيزة تعقد كل مساء مجلساً استشارياً ورياً مع الأشخاص الأكثر اطلاعاً، من أصدقائها.

ذات يوم، انسحبت باكراً، وكانت تلقت رسائل كثيرة من بارما ومن بولونيا؛ أدخلت وصيفتها العشيق الرسمي، الكونت بالدي، وهو شاب فاتن الوجه انما تافه ثم سالفه الفارس رسكارا: وكان رجلاً صغيراً، أسود من الخارج والداخل، بدأ حياته كمعيد هندسة في معهد النبلاء في نابولي، وهو الآن

مستشار دولة وفارس في عدة جمعيات.

قالت المركيزة: عادتي الطيبة، ألا أتلف أية ورقة. هذه تسع رسائل كتبتها إليّ سنسفرينا في مناسبات مختلفة. ستذهبان كلاكما إلى جنوى وستفتشان بين المحكوم عليهم بالإعدام، عن الكاتب العدل السابق بوراتي، أو دوراتي. أنت، يا كونت بالدي، أجلس أمام مكتبي وأكتب ما سأمليه عليك. «مرّ بخاطري أن أكتب لك هذه الكلمة. أنا ذاهبة إلى كوخي في كاستلنووفو؛ إذا شئت أن تأتي وتقضي معي اثنتي عشرة ساعة. سأكون سعيدة، ولا خطر كبيراً بعد الذي جرى. الغيوم تنقشع. مع ذلك، توقف قبل الدخول إلى كاستلنووفو، ستجد على الطريق أحد رجالي، وهم يحبونك حتى الجنون. ستحتفظ طبعاً باسم بوسي خلال هذه الرحلة القصيرة. يقال أن لك لحية كأجمل الآباء الكبوشيين ولم تُرَ في بارما إلا بوجه نائب أسقف محتشم».

ـ أتفهم، يا رسكارا؟.

ـ تماماً. ولكن الرحلة إلى جنوى ليست سوى بذخ لا طائل منه. أعرف رجلاً في بارما، ليس بعد في سجن الأشغال الشاقة، ولكن سيصل إليه. سيقلّد تماماً خط سنسفرينا.

عند هذه الكلمات، جحظ الكونت بالدي بعينيه الجميلتين وأدرك ما يجري.

ـ إذا كنت تعرف هذا الشخص المحترم في بارما، والذي

ترجو له ترقية، قالت المركيزة لرسكارا، فإنه يعرفك أنت كما يبدو لي، ويمكن عشيقته ومعرّفه وصديقه أن يبيعونا إلى سنسفرينا، أفضل أن أؤخر هذا المزاح بضعة أيام وألّا أعرض نفسي لأيّة صدفة. اذهبا بعد ساعتين كحملين صغيرين، ولا تقابلا أي شخص في جنوى وارجعا بأسرع ما يمكن. هرب الفارس رسكارا ضاحكاً وهو يتكلّم من أنفه كمهرج: يجب تحضير الرزم، قال وهو يركض بطريقة مضحكة. كان يريد أن يترك بالدي وحده، مع السيدة. خمسة أيام بعد ذلك، أعاد رسكارا للمركيزة الكونت بالدي، تغطي جسمه الخدوش: فلاختصار الطريق ستة فراسخ. جعلوه يجتاز جبلاً على ظهر بغل؛ وكان يقسم انه لن يخدع ثانية، ويقوم برحلات طويلة. سلّم بالدي المركيزة ثلاث نسخ من الرسالة التي سبق وأملتها عليه، وست رسائل من الخط نفسه، حرّرها رسكارا، يمكن الافادة منها لاحقاً. كانت واحدة من هذه الرسائل تحوي مزحات موفقة عن بكاء الأمير أثناء الليل، وعن هزال المركيزة عشيقته، المؤسف، والتي كما يقولون، كانت تترك كسرة على وسادة المتكأ بعدما تجلس عليه. وأقسموا أن هذه الرسائل كتبت بيد السيدة سنسفرينا.

- الآن أعرف نهائياً قالت المركيزة، أن حبيب القلب، فابريس هو في بولونيا أو في جوارها..

صاح الكونت بالدي وهو يقاطعها: أنا شديد المرض، أطلب

أن أعفى من هذه الرحلة الثانية، أو على الأقل أن أنال بضعة أيام للراحة، حتى أستعيد صحتي.

ـ أريد أن أرافع في قضيتك، قال رسكارا؛ ونهض مخاطباً المركيزة.

ـ وأنا أقبل، أجابت وهي تبتسم.

ـ اطمئن، لن تذهب قط، قالت المركيزة لبالدي بازدراء.

ـ شكراً، صاح هذا الأخير، من كل قلبه. وصعد رسكارا وحده إلى العربة، فهو كان منذ يومين، في بولونيا، ولمح فابريس وماريتا الصغيرة، في عربة خيل مكشوفة. قال: يا للشيطان! يبدو أن أسقفنا العتيد لا يضيع وقته؛ يجب أن نعلم الدوقة بهذا الأمر مما سيفرحها. لم يكن أمام رسكارا إلا أن يتبع فابريس ليعرف مسكنه. في اليوم التالي تلقى هذا الأخير رسالة بالبريد من جنوى، وجدها على شيء من الاقتضاب، ولكن لم يخالجه أي ظن. جعلته فكرة مرأى الدوقة والكونت ثانية، سعيداً إلى أقصى حد. لم يقتنع بكل ما قاله لدوفيك، فأخذ جواداً من المحطة وذهب سريعا. ولم يتنبّه إلى أنه كان متبوعاً وعلى مسافة قصيرة من الفارس رسكارا الذي على ستة فراسخ من بارما. فرح بمرأى تجمع كبير عند المحطة، قبل كستلنووفو، في الساحة، أمام سجن المركيز. وكان فابريس اقتيد إليه قبل قليل، إذ أن شرطيين من قبل الكونت زورلا، تعرفا عليه بينما كان يبدّل جواده.

التمعت عينا الفارس رسكارا الصغيرتان من السرور؛ وتحقق من كل ما كان حصل في هذه القرية الصغيرة وأوفد رسولاً يخبر المركيزة رافرسي بما جرى. أخذ يركض، بعد ذلك، في الشوارع كيا ليزور الكنيسة الغريبة وليفتش من ثم عن لوحة البارميّ التي قيل له أنها موجودة في البلاد. التقى أخيراً بضابط بادر بتقديم احتراماته إلى مستشار الدولة. أبدى رسكارا استغرابه لعدم ارسال المتآمر فوراً إلى قلعة بارما، بعد إلقاء القبض عليه.

أضاف رسكارا ببرود يخشى أن يكون اصدقاؤه الكثر الذين كانوا يجرّبون أول البارحة أن يسهّلوا مروره في دول صاحب الرفعة والسمو، ذموا رجال الدرك؛ كان هؤلاء العصاة نحو خمسة عشر، يمتطون الجياد.

وأجاب الضابط العدلي بخبث:

ـ ذكي جداً.

١٥

كان فابريس المسكين، بعد ساعتين، مقتاداً إلى قلعة بارما، الأغلال في يديه، ومربوطاً بسلسلة طويلة إلى العربة التي أصعدوه إليها بحراسة ثمانية جنود، كان معهم أمر باصطحاب الجنود المتوقفين في القرى التي سيجتازها الموكب. كان الضابط العدلي نفسه يتبع السجين الهام. عند السابعة مساءً، اجتازت

العربة، القصر الصغير الذي كانت تسكنه فوستا، قبل اشهر، يواكبها أولاد بارما وثلاثون من رجال الدرك. وأخيراً وصلت باب القلعة الخارجي في اللحظة التي كان سيخرج الجنرال فابيو كونتي وابنته. توقفت عربة الحاكم قبل الوصول إلى الجسر المتحرك الذي تدخل منه العربة الموثوق إليها فابريس. امر الجنرال باغلاق ابواب القلعة، وأسرع بالنزول إلى مكتب المدخل ليستطلع الأمر. اندهش كثيراً لما رأى السجين تصلبت عضلاته وهو موثوق إلى العربة بهذا الشكل. حمله أربعة رجال درك وحملوه إلى غرفة التوقيف. قال الحاكم المغرور: فابريس دل دونغو، الآن تحت سيطرتي، المجتمع الراقي، أقسم منذ سنة ألا يهتم إلا به.

كان الجنرال التقى به عشرين مرة. في الباحة عند الدوقة، وفي اماكن أخرى، ولكنه احترس تماماً ان يظهر انه يعرفه، كي لا يعرِّض نفسه للشبهة.

صاح بكاتب السجن: ليوضع محضر مفصل عن تسلمي للسجين من قبل ضابط كستلنووفو.

باربون الكاتب، شخص مخيف بلحيته ومظهره العسكري، اعتمد وضعاً أكثر تعاظماً كأنه حارس ألماني. تخيّل ان الدوقة سنسفرينا منعت سيده الحاكم من أن يصبح وزيراً للحربية، فأظهر وقاحة مبالغاً فيها! كان يوجه إليه الكلام بصيغة المخاطب

المفرد: انت، وهي الصيغة التي يكلمون بها الخدم في إيطاليا.

ـ أنا أحد أحبار الكنيسة الرومانية المقدسة، قال له فابريس بحزم ونائب اسقف هذه الأبرشية! محتدي وحده يخوّلني حق المراعاة.

ـ أنا لا أعرف شيئاً! اجاب الكاتب بوقاحة! اثبت مزاعمك بإبراز الشهادات. لم يكن لدى فابريس شهادات فلم يجب. كان الجنرال فابيو كونتي واقفاً حدّ الكاتب ينظر إليه وهو يكتب دون أن يرفع عينيه على السجين كي لا يجبر على القول انه فابريس دل دونغو.

فجأة، وكليليا كانت تنتظر في العربة، سمعت ضجة مخيفة في مركز الحراسة. الكاتب باربون وهو يصف شخص السجين بطريقة وقحة، امره ان يخلع ثيابه للتمكن في التحقق ومشاهدة الخدوش التي اصابته وحالتها خلال مشكلة جيلتي.

ـ لا أتمكن، قال فابريس، وهو يبتسم بمرارة. أنا لست في حالة تمكنني في إطاعة أمر السيد. الأصفاد تمنعني!

ـ ماذا! صاح الجنرال بسذاجة، هل السجين مكبل داخل القلعة! هذا ضد القوانين، يلزم أمر لهذا الغرض! ارفعوا الأصفاد من يديه!

نظر فابريس إليه. فكر: هذا يسوعيّ مضحك! منذ ساعة

وهو يرى هذه الاغلال تؤلمني كثيراً. ويصطنع الدهشة!

رفع الجنود الأصفاد من يديه، وعلموا أن فابريس هو ابن اخ الدوقة سنسفرينا، واسرعوا باظهار الأدب الجم تجاهه مما يتناقض مع خشونة الكاتب؟ فبدا هذا مرتبكاً، وقال لفابريس الذي بقي متصلباً:

ـ هيا إذن ! لنسرع! دلّنا على هذه الخدوش سببها لك جيليتي المسكين، لدى الاغتيال. هجم فابريس على الكاتب ووجّه إليه لطمة سقط على أثرها عن كرسيه على قدمي الجنرال. امسك رجال الدرك بذراعين فابريس الذي كان لا يزال متصلباً. وأسرع الجنرال نفسه وجنديان كانا حدّه لمساعدة الكاتب على النهوض. كان وجهه ينزف بغزارة. ركض دركيان أبعد من هؤلاء واغلقا باب المكتب، فكّرا إن السجين كان يبغي الهرب. ادرك العريف الذي يأمر رجال الدرك أن الشاب دل دونغو، لا يمكنه القيام بمحاولة هرب جدّية، اذا كان موجوداً داخل القلعة. ولكنه بغريزة الدركي، اقترب من النافذة كي يمنع الفوضى. تجاه هذه النافذة المشرعة، على خطوتين، عربة الجنرال: كانت كليليا في داخلها كي لا ترى المشهد الحزين في المكتب! عندما سمعت هذه الضجة التفتت.

قالت للرقيب، ما الذي يجري؟

ـ يا حضرة الآنسة، الشاب فابريس دل دونغو وجّه لطمة

قوية إلى الوقح باربون.

ـ ماذا! أهو السيد دل دونغو الّذي يأتون به إلى السجن؟

قال الرقيب: آه! طبعاً وبسبب محتده، يفرطون في المجاملات! كنت اعتقد الآنسة على الاطلاع. بقيت كليليا على نافذة العربة؛ عندما كان رجال الدرك يبتعدون عن الطاولة المحيطين بها، وكانت ترى السجين؛ فكّرت: من قال لي، انني ساراه ثانية في هذه الحالة المؤسفة، عندما التقيتة على طريق بحيرة كوم؟... بسط إليّ يده كي أصعد إلى عربة والدته. كان يرافق الدوقة منذ ذلك الحين. هل كان حبهما بدأ عهدئذ؟

في الحزب الليبيرالي الذي يديره الجنرال كونتي والمركيزة رافرسي، كانوا يشككون بالعلاقة الحميمة بين فابريس والدوقة. وكان الكونت موسكا الذي يكرهونه عرض دعابات مستمرة بسبب سذاجته.

فكّرت كليليا: ها هو سجين، وبين أيدي اعدائه! والكونت موسكا، شديد السرور بهذا الامر، ولو تظاهر بالعكس.

انفجرت نوبة من الضحك في غرفة الحراسة.

قالت للعريف بصوت يخنقه التأثر: جاكوبو، ما يجري؟

ـ إن الجنرال سأل بحدّة من السجين، لماذا ضرب باربون؟ فأجاب الحبر فابريس: دعاني مجرماً، ليبرز المستندات

والشهادات التي تخوّله يعطيني هذا اللقب. فضحكوا.

أخذ أحد الحراس الّذين يحسنون الكتابة، مكان باربون. رأت كليليا هذا الأخير يخرج من الغرفة وهو يمسح بمنديله الدماء تسيل بغزارة من وجهه المخيف: كان يشتم كونتي ويقول بصوت مرتفع: لن يموت فابريس إلا بيدي، سأسرق الجلاد الخ. وكان توقف بين نافذة المكتب وعربة الجنرال لكي يتطلع إلى فابريس وتضاعفت شتائمه.

قال له العريف: أكمل طريقك لا تشتم هكذا بوجود الآنسة.

رفع باربون رأسه لينظر داخل العربة. التقت عيناه بعيني كليليا التي اطلقت صيحة رعب. لم ترَ وجهاً يجسد الشراسة بهذا القدر. قالت في نفسها، سيقتل فابريس، يجب أن أُعلم دون سيزار. وهو عمها وأحد الكهنة الأكثر جدارة بالاحترام في المدينة كلها! استحصل له الجنرال كونتي، شقيقه، على مركز أمين صندوق السجن ومرشده.

صعد الجنرال إلى العربة.

قال لابنته: اتريدين العودة إلى البيت أم انتظاري ربما طويلاً، في باحة القصر؟ يجب أن أذهب واطلع الملك على كل هذه الأمور.

كان فابريس يخرج من المكتب بمواكبة ثلاثة دركيين يقودونه

إلى الغرفة التي خصت به؟ كانت كليليا تنظر من نافذه العربة والسجين قريباً جداً منها. في هذه اللحظة، أجابت عن سؤال والدها بهذه الكلمة: سأتبعك. لدى سماع فابريس لهذه الكلمات قريبة منه، رفع عينيه فصادفت عيناه عيني الفتاة. دهش من مسحة الكآبة على وجهها! كم زاد جمالها منذ لقائنا بالقرب من بحيرة كوم! انها تجسّد في ذاتها عمق التفكير! يمكن تشبيهها، عن حق، بالدوقة. لم يتّخذ، باربون المدمّى مكانه بجانب العربة دون قصد، وأوقف، بحركة، الدركيين الثلاثة الكانوا يقودون فابريس، واستدار حول العربة من الوراء للوصول إلى النافذة التي يجلس إليها الجنرال.

قال له: استناداً إلى المادة ١٥٧ من القانون، وضع الأصفاد في يديه ثلاثة أيام؟

ـ إذهب إلى الشيطان، صاح الجنرال، الذي كان هذا الاعتقال يربكه. كان المهم ألا يدفع الدوقة ولا الكونت موسكا إلى فقدان الصبر، ولا يدري على أي محمل سيأخذ الكونت هذه القضية. مقتل جيليتي لم يكن سوى تفاهة، والدسيسة وحدها توصلت أن تجعل منها شيئاً.

أثناء هذا الحوار القصير، كان فابريس رائعاً بين رجال الدرك. كان ذا المظهر الأكثر اباء ونبلاً؟ قسماته الدقيقة والناعمة وبسمة الازدراء تتيه على شفتيه، تتناقض تناقضاً لطيفاً

ومظهر رجال الدرك الفظ حوله. ولكن كلّ هذا لم يكن سوى القسم الخارجي من سيمائه. كان مفتوناً بجمال كليليا السماويّ ونظراته تنبىء عن دهشته. هي، المستغرقة في التفكير، لم يخطر ببالها أن تدخل رأسها من النافذة. حيّاها ببسمة خفيفة فيها كثير من الاحترام! ثم بعد لحظة:

ـ يبدو لي، يا آنسة أن كان لي شرف الالتقاء بك، في السابق، قرب بحيرة، برفقة رجال الدرك.

علت حمرة الخجل وجنتي كليليا، واحتارت فلم تجد كلمة واحدة لتجيبه. كانت تقول في نفسها، لحظة وجّه فابريس إليها الكلام: كم يبدو نبيلاً بين هذه الكائنات الفظة! الشفقة العميقة، بل العطف الذي كانت غارقة فيه، عطّلا عندها حضور البديهة لإيجاد أية كلمة. لاحظت صمتها فازداد احمرار وجنتيها. في هذه اللحظة، كانوا يغلقون باب القلعة الكبيرة بالمتراس: عربة سموه تنتظر منذ دقيقة على الأقل. كان الصوت شديداً تحت هذه القبة حتى أنّ كليليا لو وجدت كلمة لتجيب، لما تمكن فابريس أن يسمع كلامها.

جرت الجياد مسرعة، وكانت كليليا تقول في نفسها بعدما اجتازت الجسر المتحرك: ربما وجدني مضحكة! ثمّ أضافت فجأة: ليس فقط مضحكة، ربما اعتقد أنّ نفسي خسيسة. وإنني لم أجبه عن تحيته لأنه سجين، وأنا ابنة الحاكم.

سببت هذه الفكرة اليأس لهذه الفتاة التي كانت ذات نفس سامية. وأضافت: هذا ما يجعل تصرفي شائناً: في الماضي، عندما التقينا للمرة الأولى برفقة دركيين أيضاً. كما يقول، كنت أنا السجينة وكان هو يؤدي لي الخدمات، وأخرجني من مأزق كبير. معاملتي مبالغة فظاظة ونكراناً للجميل. المسكين! الآن، وهو في المصيبة، سيكون جميع الناس ناكرين للجميل تجاهه. يومها قال لي: هل ستتذكرين اسمي في بارما؟ كم يكون يحتقرني في هذه الساعة! من السهل قول كلمة مهذبة! كان سلوكي معه بغيضاً. لولا العرض الكريم، في الماضي، لعربة والدته لكان عليّ أن أتبع الدركيين راجلة في الغبراء أو ما هو أسوأ: الصعود على ظهر جواد وراء واحد من هؤلاء الناس. كان أبي يومئذ موقوفاً وأنا دون نصير! بلى: معاملتي مبالغة. وكم يكون تأثر بعمق.! أيُّ تباين بين وجهه النبيل ومعاملتي! أية نبالة! أي هدوء! كم بدا كبطل محاط بأعدائه الأخساء! الآن أدرك تماماً عاطفة الدوقة: بما أنه في هذه الحالة، يتعرَّض لحادث معاكس، ويمكن أن تكون له نتائج مريعة، كيف سينظر إليه عندما تكون نفسه سعيدة!

بقيت عربة حاكم القلعة أكثر من ساعة ونصف في باحة القصر. وعندما نزل الجنرال من لدن الأمير، لم تجد كليليا أنه اطال المكوث عنده، فسألت:

ـ ما إرادة صاحب السمو؟

ـ كلمته كانت: السجن ونظراته: الموت!

صاحت كليليا: الموت! يا إلهي!

ـ هيا! اصمتي، اردف الجنرال بغضب. كم أنا أحمق بأن أجيب عن اسئلة طفلة.

في هذه الاثناء، كان فابريس يصعد الثلاثمائة والثمانين درجة تقود إلى برج فارنيز، وهو سجن جديد، مبني على مسطحة البرج الكبير، وعلى علو شاهق. لم يخطر بباله ولو مرة بوضوح، التبّدل الّذي طرأ على مصيره. كان يقول في نفسه: أيّة نظرة! كم من عواطف كانت تعبّر عنها! أيّة رحمة! كأنّها تقولّ: الحياة سلسلة من المصائب! لاتحزن كثيراً لما يحصل لك! السنا في هذه الدنيا لنكون تعساء؟ كم بقيت عيناها الجميلتان معلقتين بي حتى بعدما تقدّمت الجياد بصخب تحت عقد القبة.

نسي فابريس تماماً أن يكون تعيساً.

تبعت كليليا والدها في عدة صالات، لم يكن أحد يعلم في بداية السهرة بتوقيف «المذنب الأكبر»، الأسم الذي اطلقه رجال البلاط، ساعتين بعد ذلك، على هذا الشاب المسكين، القليل الدراية.

لوحظ ذاك المساء، أن وجه كليليا كان أكثر حيويّة من العادة، مما كان ينقص هذه الحسناء الجميلة. عندما كانوا

يشبّهون جمالها بجمال الدوقة، كان ذلك خاصة، بسبب هذا المظهر اللامبالي، العديم التأثر بشيء. وهذا الاسلوب، كان يجعلها تبدو فوق جميع الأشياء؛ ويرجح كفّة منافستها. ولكانت انكلترا وفرنسا، بلادي الغرور من الرأي المعاكس، على الأرجح. كانت كليليا كونتي من الرشاقة التي يمكن تشبيهها برسوم الدليل الجميلة. وبحسب مسلمات الجمال الاغريقي. على الرأس بروز بعض التقاسيم بروزاً قليلاً، والشفتان تنضحان بأشد الحسن تأثيراً. على شيء من البروز.

غرابة هذا الوجه الرائع، تتفجّر فيه المحاسن الطبيعية وسمة النفس الأكثر نبلاً: بالرغم من ندرة جماله وغرابته لم يكن له بأيّ شكل، مثيل بين رؤوس التماثيل الاغريقية.

كانت الدوقة، على العكس، تتمتع بجمال المثال الأعلى المعروف. كان رأسها لومباردياً حقاً، يذكر ببسمة هيروديا ليونارد دي فنتشي الشهوانية وكآبتها اللطيفة. وبقدر ما الدوقة سريعة الخاطر ومتوقدة الذهن وناشطة الخبث، تتعلّق بكلّ المواضيع أثناء الحديث، كانت كليليا هادئة وبطيئة الانفعال، ازدراء بما يحيط بها أو أسفاً على حلم ضائع. اعتقد الناس طويلاً أنها سوف تنضم إلى سلك الرهبنة. كانت تبدي وهي في العشرين اشمئزازاً من الذهاب إلى حفلات الرقص، وإذا تبعت والدها، فمن قبيل الطاعة ولكي لا تلحق الضرر بمصالح طموحه.

كانت نفس الجنرال العادية غالباً ما تردد: سوف يستحيل علي، والسماء وهبتني ابنة من أجمل نساء كل البلاد. وأكثرهن فضيلة، أن أفيد منها في ناحية لازيد ثروتي بتحسين وضعي. حياتي شديدة العزلة، ليس لي سوى ابنتي في الدنيا، ومن الضروري ان تكون لي أسرة تعضدني في المجتمع وتفتح أمامي عدداً من الصالات، حيث استحقاقي وكفاءتي لتولي الوزارة أساس منيع لكل استدلال سياسي.

ما أن يباشر شاب مستقر تماماً في البلاط، محاولات التقرّب منها وجعلها تتقبّل عواطفه، حتى تتبدّل طباع ابنتي الفاتنة، العاقلة والتقيّة. وبعد أن ترفض طالب الزواج هذا، يصبح طبعها أقل سويداء. مرحة حتى يظهر طالب زواج جديد. تقدم أجمل رجل في البلاط، الكونت بالدي بطلب يدها فلم يرقها. وكذلك الرجل الأكثر ثراء في مقاطعاته: المركيز كريسنزي خلفه، وهي تدّعي انه سوف يجلب لها الشقاء.

كان الجنرال يقول مرات أخرى: حتما عينا ابنتي أجمل من عيني الدوقة. انهما، في بعض المناسبات، معبرتان بطريقة أكثر عمقاً، ولكن هذا التعبير الرائع. لا يمكن مشاهدته في مجلس تشرفني فيه، بل في نزهة وحدها معي، تدفعها للحنان مصيبة أحد القرويين القبيحين . قلت لها بعض المرات: احتفظي بذكرى هذه النظرة للمجالس التي سنظهر فيها هذا المساء. ولكن عبثاً:

هل تتكرّم وتتبعني في المجتمع، فيتخذ وجهها النبيل الرائع سمة الطاعة السلبية المتعجرفة وغير المشجّعة؟ لم يكن الجنرال، كي يبدو، يوفّر أيّة وسيلة كي يجد الزوج المناسب لابنته، ولكنه كان يقول الصدق.

رجال البلاط وليس لهم ما ينظرون إليه داخل انفسهم يتنبّهون إلى كلّ شيء: ولاحظوا، انه يستحيل على كليليا الخروج من احلامها المحببة والتظاهر بالاهتمام بأمر، كانت الدوقة تتوقف بالقرب منها، وتجرّب أن تدفعها للكلام. كان لكليليا شعر أشقر مائل إلى الرمادي، ينفصل بتأثير عذب جدّاً على وجنتين لهما الق في الألوان، على قليل من الشحوب عموماً. ينبىء شكل الجبهة، وحده، المراقب اليقظ، ان سيماءها على قدر كبير من النبل، والمشية ارفع من التظارف المبتذل باحتقارها كلّ ما هو عادي. كان ذلك لغياب الاهتمام بشأن لا لاستحالة الاهتمام به. كانت كليليا سعيدة منذ تسلم والدها منصب حاكم القلعة أو على الأقل خالية القلب من الهموم، في غرفتها الشاهقة. كان عدد الدرجات الكبيرة للوصول إلى قصر الحاكم، على شرفة البرج الكبير، يبعد الزيارات المضجرة.

وكانت كليليا تتمتع، لهذا السبب، بالحرية كما في دير. هنا يكمن المثال الأعلى للسعادة الذي فكرت في وقت ما ان تطالب به الحياة الرهبانية. كان استولى عليها الهلع لمجرد التفكير بوضع

وحدتها المحببة وأفكارها الحميمة بتصرف شاب يسمح له لقب زوج، بتعكير صفاء هذه الحياة الداخلية. واذا كانت لم تصل إلى السعادة عن طريق الوحدة، فهي تمكنت على الأقل من أن تتجنّب المشاعر المؤلمة.

اليوم الذي اقتيد فيه فابريس إلى القلعة، التقت الدوقة بكليليا في سهرة وزير الداخلية الكونت زورلا؛ ضرب الجميع نطاقاً حولهما: في هذا المساء فاق جمال كليليا جمال الدوقة. لعيني الفتاة تعبير فريد وعميق، إلى حد إفشاء سرية تُضمَر: كانت الشفقة تشع من نظراتها ويشع منها السخط والغضب. وبدا ان مرح الدوقة وافكارها المتألقة تسبب لها لحظات من الألم تصل حتى الرعب. كانت تقول في نفسها، ما أشد ما ستكون صرخات وتأوهات المرأة المسكينة عندما ستعرف ان عشيقها، الشاب، ذا القلب الكبير، والوجه النبيل، ألقي في السجن! ونظرات الملك تحكم عليه بالموت! أيها الحكم المطلق، متى ستتوقف عن الضغط على إيطاليا! أيتها النفوس المرتشية السافلة! وانا ابنة حارس السجن! لم أكذب هذا الطبع النبيل بعدم إجابتي فابريس! وكان قبلاً هو المحسن إلي! ماذا يفكر بي في هذه الساعة، وحيداً في غرفته وجهاً لوجه مع مصباحه الصغير؟ كانت كليليا تنظر برعب إلى انارة الرائعة في صالات وزير الداخلية.

في دائرة رجال البلاط حول المرأتين الجميلتين العصريتين،

تجرّبان أن تشتركا بالأحاديث، لم يحدث ابداً انهما تكلمتا بهذا القدر من الحيوية والالفة في الوقت نفسه. كانت الدوقة دائماً يقظة في تحاشي الكراهيات يثيرها رئيس الوزراء، فهل خطر ببالها مشروع زواج لصالح كليليا؟ هذا الوضع كان يستند إلى ظرف لم يعرض حتى الساعة لمراقبة البلاط: عينا الفتاة أكثر تألقاً وعاطفة من عيني الدوقة الجميلة. كانت هذه مدهوشة لمجدها، ومفتونة بمحاسن تكتشفها في الفتاة المنزوية؛ كانت تنظر إليها منذ ساعة بلذة قلما شعرت بمثلها لدى مرأى منافسة لها. وكانت الدوقة تتساءل: ولكن ما الذي جرى؟ لم تكن كليليا ابداً بهذا الجمال والتأثير: هل نبض قلبها بالحب؟. إنه الحبّ التعيس حتماً. ثمة ألم مرير في صميم هذه الحيوية الجديدة! ولكن الحبّ التعيس يصمت؟... هل الأمر يتعلق بإرجاع متقلّب في حبّه عن طريق نجاح في المجتمع؟ كانت الدوقة تنظر بانتباه إلى الذين يحيطون بها. لم تكن ترى، في أيّ مكان، وجهاً مميّزاً، بل الغرور الراضي بين بين عن نفسه. وكانت الدوقة تقول في نفسها، وهي مغتاظة لكونها لم تكتشفه: أين الكونت موسكا، هذا الكائن المرهف؟ اني لا أخطىء، كليليا تنظر إليّ بانتباه كما لو كنت لها موضوع اهتمام جديد. أهذه نتيجة امر اصدره إليها والدها، رجل البلاط السافل هذا؟ كنت اعتقد أن هذه النفس النبيلة، الفتية عاجزة عن الانحطاط للاهتمام بمصالح مالية. هل لدى الجنرال فابيو منال يقدمه للكونت؟

في نحو العاشرة اقترب أحد اصدقاء الدوقة منها، وقال لها كلمتين بصوت منخفض؛ امتقع لونها إلى أقصى حد؛ أخذت كليليا يدها وتجرأت أن تحضنها.

قالت الدوقة وهي تجهد نفسها: اشكرك وأفهمك الآن... تتمتعين بروح سامية! كانت لها بالكاد قدرة التلفظ بهذه الكلمات. ابتسمت كثيراً لربة البيت التي وقفت لترافقها حتى باب الصالة الأخيرة: لم يكن هذا الاكرام إلاّ لأميرات البلاط ذوات المحتد الملكي، وكان هذا في عيني الدوقة أمراً معاكساً بالنسبة لموقفها الحاضر. وابتسمت كثيراً للكونتيسة زورلا ولكن بالرغم من جهودها الخارقة، لم تتمكن من أن توجه اليها كلمة واحدة.

امتلأت عينا كليليا بالدموع وهي ترى الدوقة تمر وسط الصالات المأهولة بالمع من في المجتمع. قالت في نفسها: إلامَ سيؤول أمر هذه المرأة المسكينة عندما ستجد نفسها وحيدة في عربتها؟ سيكون تطفلاً مني إذا عرضت نفسي لمرافقتها! لا أجرؤ... كم السجين المسكين، وهو جالس في غرفة رهيبة وجهاً لوجه مع مصباحه الصغير! سيتعزى لو عرف انه محبوب إلى هذه الدرجة! ما هذه العزلة الفظيعة فرضت عليه، ونحن هنا في هذه الصالات المتألقة! يا للهول! هل من طريقة لأوصل إليه كلمة؟ يا الله! إن في هذا الأمر خيانة لأبي: موقفها دقيق

للغاية بين الفريقين! ماذا سيحل به اذا تعرض لكره الدوقة المتطرف وهي تتحكم بإرادة رئيس الوزراء وهو السيّد في ثلاثة أرباع الشؤون! الأمير من ناحية أخرى، يهتمّ بما يجري في القلعة ولا يسمح بالتساهل فيه. الخوف يجعل الانسان قاسياً فظاً... في مجمل الحالات، فابريس (لم تعد كليليا تقول السيد دل دونغو) يستحق الشفقة!... الأمر يتعلق بغير خطر فقدان مركزا... والدوقة!... كم مخيفة عاطفة الحب!... ومع ذلك، كل هؤلاء الكذبة في المجتمع يتكلمون عليه كينبوع للسعادة! يرثون للنساء المسنات لأنهن لا يتمكن من الشعور بالحب أو الايحاء به!... لن أنسى أبداً ما رأيت! أي تغير مفاجىء! كم عينا الدوقة الجميلتان، المشعتان، اصبحتا حزينتين ذابلتين، بعد الكلمة المشؤومة قالها لها المركيز ن!... يجب أن يكون فابريس أهلاً لأن يُحَبّ!...

وسط هذه الأفكار الرزينة تشغل نفس كليليا، بدت تزعجها أحاديث المديح تحيط بها. وكي تتخلص منها اقتربت من النافذة المشرعة نصف المحجوبة بستار من التفتا؛ كانت تأمل ألاّ يجرؤ أحد على اللحاق بها في عزلتها. فالنافذة تشرف على بستان برتقال وسط أرض مكشوفة كانوا يجبرون على تغطيتها بسقف. وكانت كليليا تتنفس، بلذة، رائحة هذه الأزهار. هذه اللذة كانت تعيد الاطمئنان إلى روحها... فكرّت: بدت لي امرأة نبيلة؛ ولكن الايحاء لامرأة على هذا القدر من الشهرة بمثل هذه

العاطفة!... كان لها شرف رفض عروض الامير، فلو تكرّمت وقبلتها لكانت ملكة دولة... يقول أبي أن شغف الملك كان يصل به حدود رغبة الزواج منها اذا صادف واصبح حرّاً!... وحبّ فابريس هذا، يدوم منذ زمن طويل! مرّت خمس سنوات منذ التقينا بالقرب من بحيرة كوم!... نعم... خمس سنوات، قالت في نفسها بعد لحظة من التفكير. ذهلت منذ ذلك الحين، حيث كانت تمرّ أشياء كثيرة أمام عيني الطفلة التي كنتُها، دون أن انتبه إليها! كم يبدو أن هاتين السيدتين كانتا معجبتين بفابريس!...

لاحظت كليليا بسرور أن أيّا من الشبان الّذين كانوا يتحدثون معها بقدر كبير من اللطف، لم يجرؤ ان يقترب من الشرفة. أحدهم، المركيز كريسنزي، كان خطا بضع خطوات في هذا الاتجاه ثم توقف بالقرب من طاولة لعب. كانت تقول في نفسها. لو كان بمقدوري، على الأقل، أن اتمتع بمنظر أشجار برتقال جميلة كهذه التي هنا في قصر القلعة تحت نافذتي الصغيرة الوحيدة التي لها ظل، لكانت أفكاري أقل كآبة. ولكن حجارة برج فارنيز الضخمة كانت المشهد الوحيد أمام عيني... آه! صاحت وهي تقوم بحركة، ربما وضعوه هنا! كم ابطىء بالتحدث إلى دون سيزاري! سيكون أقل قسوة من الجنرال. لن يقول لي أبي شيئاً لدى عودته إلى القلعة، ولكن سأعرف كل شيء من دون سيزاري... عظيم ... معي المال؛ وسأتمكن

من شراء بعض أشجار الليمون التي إن غرست تحت نافذتي ستحجب عني مشاهدة جدار برج فارنيز الضخم. كم سيكون كرهي له أشد، الآن إذ تعرفت إلى احد الأشخاص الّذين يمنع عنهم النورا... نعم، هذه هي المرة الثالثة اراه فيها: مرة في البلاط، في الحفلة الراقصة لمناسبة مولد الأميرة! واليوم محاطاً بثلاث دركيين، فيما باربون الكريه يطلب أن يضع الاغلال في يديه، واخيراً بالقرب من بحيرة كوم... جرى ذلك منذ خمس سنوات! كم كان يشبه يومذاك ولداً مشاغباً، سيء الاخلاق! باي عينين كان ينظر إلى رجال الدرك، واية نظرات فريدة كانت توجّهها إليه عمّته ووالدته. كان سر ما، شيىء خاص بينهما: فكرت، في ذلك الوقت، انه هو أيضاً كان خائفاً من رجال الدرك... ارتجفت كليليا... ولكن كم كنت جاهلة! دون شك، كان للدوقة اهتمام به، منذ ذلك الوقت. كم اضحكنا بعد لحظات، عندما اعتادت هاتان السيدتان، بالرغم من همومهما الواضحة، على وجود غريبة!... وهذا المساء امكنني ألا اجيب عن الكلمة التي وجهها إلي!... ايها الجهل والخجل! كم من المرات تشبهان اشد الأشياء سواداً! وها انا هكذا في العشرين! كنت على حق عندما فكرت بالدير؛ لست مخلوقة الا للعزلة! يكون قال في نفسه، ابنة سجّان حقاً! يحتقرني. وما أن تتاح له الفرصة حتى يكتب إلى الدوقة. سيتكلم على قلة مراعاتي له وستعتقد الدوقة أني فتاة كاذبة؛ إذ أخيراً، قد تكون

اعتقدت، هذا المساء، أني شديدة التأثر لمصيبته.

لمحت كليليا أن شخصاً كان يقترب لاتخاذ مكان حدّها عند حديد النافذة؛ اغتاظت وأنبت نفسها؛ الاحلام التي ينتزعونها منها لم تكن دون بعض العذوبة. فكّرت: هذا دخيل. ساستقبله كما يستحق! أدارت رأسها بنظر متكبر، فأبصرت وجه الاسقف الخجول يقترب من الشرف بحركات لا شعورية. هذا الرجل التقيّ لا يحسن التصرف. لماذا يأتي ويعكّر خلوة فتاة مسكينة مثلي؟ سكينتي كل ما املك. كانت تحيّيه باحترام، ولكن بتعال، عندما قال لها:

ـ يا انسة، اتعرفين النبأ الفظيع؟

كانت عينا الفتاة اتخذتا تعبيراً آخر؛ لكن بموجب تعليمات والدها المرددة مائة مرة، اجابت بغباوة كذّبتها لغة عينيها بوضوح:

ـ لم اعرف شيئاً، يا حضرة الاسقف.

ـ نائبي، فابريس دل دونغو، المسؤول مثلي عن موت هذا اللص جيليتي، اختطف من بولونيا حيث كان يعيش باسم جوزف بوسي، وسُجن في قلعتكم؛ وصلها موثوقاً بالعربة الّتي كانت تقلّه. ان سجاناً يدعى باربون، نال عفواً، في الماضي، بعدما قتل واحداً من اخوانه، أراد ان يمارس على فابريس عنفاً شخصياً، ولكنّ صديقي الشاب ليس من طينة من يتحملون

اهانة. رمى عدوّه السافل عند قدميه ولهذا اقتيد إلى زنزانة، عشرون قدماً تحت الأرض، بعد أن وضعوا الاغلال في يديه.

ـ الاغلال؟ لا.

ـ آه! انت تعرفين شيئاً! صاح الاسقف، وفقدت قسمات العجوز عميق تعبيرها عن وهن في العزيمة؛ ولكن قبل كل شيء، يمكن الاقتراب من هذه الشرفة ومقاطعتنا؛ أتريدين أن تحسني فتعطي إلى دون سيزار خاتمي الأسقفي أضعه بين يديك؟

كانت الفتاة اخذت الخاتم، ولكنها لا تعرف اين تضعه كي لا تتعرض لفقدانه.

قال الاسقف: ضعيه في الابهام؛ ووضعه هو بنفسه. ايمكن أن اعتمد عليك بتسليم هذا الخاتم؟

ـ نعم، يا سيدي الاسقف.

ـ تعدينني بحفظ سرية ما سأضيفة، حتى إذا وجدت من غير المناسب استجابة طلبي؟

ـ نعم، يا حضرة الحبر، أجابت وهي ترتجف عندما رأت الهيئة الكئيبة والرزينة اتخذها فجأة. وأضافت: يستطيع اسقفنا المحترم، ان يعطيني الأوامر التي تليق بي وبه.

ـ قولي لدون سيزار، اني أوصيه بولدي في التبنّي: أعرف أن رجال الشرطة الذين اختطفوه لم يتركوا له الوقت لاخذ

شحيمته. أرجو دون سيزار أن يعطيه كتابه، واذا شاء السيد عملك ارساله غداً إلى الأبرشية، سأتولى امر استبدال الكتاب الذي اعطاه لفابريس. وأرجو دون سيزار أيضاً أن يسلّم الخاتم الذي تحمله هذه اليد الجميلة إلى السيد دل دونغو. قاطعه الجنرال فابيو كونتي في حديثه الذي كان متوجهاً لأخذ ابنته ليقودها إلى العربة. تحدثا لحظةً حديثاً لم يكن خالياً من المهارة على فم الحبر. ودن أن يذكر، بأية كلمة، السجين الجديد، تدبّر الأمر واذا الحديث جرّ إلى بعض الأقوال المأثورة الأخلاقية والسياسية على شفتيه الملائمة للوضع. مثلاً: في حياة البلاط لحظات أزمات تقرر لأمد بعيد حياة اعظم الشخصيات؛ ستكون مخاطرة بارزة، إبدال حالة الابعاد السياسي الذي يكون نتيجة بسيطة لمواقف متعاكسة إلى كره شخصي. حمل الأسقف للغضب بسبب الغم العميق الذي سببه له توقيف فابريس المفاجىء وذهب إلى التأكيد بالمحافظة على المركز الذي يتمتّع به الانسان ولكن من عدم الحذر، ان يستجلب بعدها كراهيات ساخطة بالانجرار للقيام بأعمال لا يمكن نسيانها.

عندما أصبح الجنرال في العربة مع ابنته، قال لها:

ـ هذا ما يمكن تسميته تهديدات، تهديدات لشخص مثلي؟ لم يجر تبادل أية كلمات أخرى بين الأب وابنته خلال عشرين دقيقة.

لدى تلقيها الخاتم الاسقفي من الحبر، اخذت كليليا عهداً على نفسها بأن تحدث والدها عندما تصبح في العربة عن الخدمة الصغيرة التي كان الحبر يطلبها منها. ولكن بعد كلمة «تهديدات» تلفظ بها بغضب، تأكدت أن والدها سيقف في وجه إتمام المهمة الموكولة إليها؛ فكانت تغطي هذا الخاتم بيدها اليسرى وتشدّ عليه بشغف. وتساءلت، طيلة الوقت الذي استغرقته للذهاب من وزارة الداخلية إلى القلعة، إذا كانت لا تقوم بعمل اجرامي، في حال امتناعها عن مصارحة والدها بالأمر. كانت تقية جداً وهيّابة، وكان قلبها الهادىء يضطرب بعنف غير عادي. ولكن، أخيراً، صيحة الخفير الواقف على السور، فوق الباب: من القادم؟ دوّت لدى اقتراب العربة، قبل أن تجد كليليا التعابير الملائمة لتحضير والدها بعدم الرفض، وكانت تخشى هذا الأمر لم تجد ما تقوله وهي تصعد الثلاثمائة والستين درجة إلى قصر الحاكم.

أسرعت وكلمت عمّها، فوبّخها، ورفض أن يقوم بأي مسعى على الإطلاق، من أجل فابريس.

١٦

صاح الجنرال لدى مشاهدة شقيقه دون سيزاري: هكذا إذن، ستصرف الدوقة مائة ألف ريال لتسخر مني وتخلّص السجين!.

ولكن، في الوقت الحاضر، نحن مجبرون على ابقاء فابريس في سجنه، عند قمة قلعة بارما؛ في حراسة جيّدة، ومتبدلاً بعض التبدّل. وفي البلاط، حيث الدسائس معقدة جداً، وعواطف امرأة تعيسة، ستقرر مصيره. لدى صعوده الثلاثمائة والستين درجة من سجنه في برج فارنيز، تحت عيني الحاكم، إذا بفابريس الذي كان خشي كثيراً تلك اللحظة، يجد أن لا وقت لديه للتفكير بالمصيبة.

صرفت الدوقة وصيفاتها بإشارة؛ بعد عودتها إلى بيتها من سهرة الكونت زورلا، ثم ارتمت على سريرها مرتدية ثيابها: فابريس، صاحت بصوت مرتفع في قبضة أعدائه وربما سيقتلونه بالسم، بسببي! لحظة يأس تبعت هذه الحالة، عند امرأة على هذا القدر من قلة الادراك، وعبدة لشعورها الحاضر، دون أن تعترف لنفسها بأنها عاشقة متيمة بالسجين الشاب. كانت صيحات غير مفهومة، وفورات غضب، وحركات تشنجية، ولكن دون دمعة واحدة. كانت غالباً تصرف وصيفاتها كي تخفي دموعها، إذ كانت تعتقد انها، ما إن تجد نفسها وحيدة، حتى تنفجر بالبكاء. ولكنها افتقدت الدموع تماماً، هذا المسكن الأول للآلام الكبرى. كان الغضب والنقمة والشعور بدونية، تجاه الأمير يتحكم بهذه النفس المتكبرة.

كانت تصيح في كل لحظة: أنا مهانة! يحقرونني، وأكثر:

يعرضون حياة فابريس للخطر، ولن أنتقم! مهلاً يا أميري! أنت تقتلني، فليكن، أنك تملك السلطة، ولكن سأنال منك! يا فابريس المسكين، ماذا سيفيدك هذا؟ ما الفرق بين هذا اليوم وذلك الذي أردت فيه مغادرة بارما! ومع هذا كنت اعتقدني تعيسة... أية عماوة! كنت سأحطم كل عادات حياة عذبة ولم أدرك، أني كنت أواجه حدثاً على وشك أن يقرر مصيري. لو أن الكونت، بعادات مماالقته الخسيسة، لم يحذف كلمتي «اجراءات ظالمة» من هذه الرسالة المشؤومة منحني إياها غرور الأمير، لكنا نجونا. توفرت لي السعادة أكثر من المهارة بأن أعرّض حسه بالكرامة حول مدينته العزيزة بارما. هددت بالرحيل. عندئذ كنت حرة. يا إلهي! أنا عبدة! والآن، ها أنا مستمرة في هذا الماخور الكريه، وفابريس مصفّد في القلعة، في هذه القلعة التي كانت غرفة انتظار الموت، لكثيرين من النافذين! اني عاجزة عن ايقاف هذا النمر عند حده، بإثارة خوفه من أن أرحل عن عرينه.

له من النباهة الكثير كي يعرف أنني لن ابتعد عن البرج الكريه يتعلق به قلبي. والآن، غرور هذا الرجل المجروح قد يوحي إليه بأشد الأفكار غرابة؛ لن يكون غير الاصرار على غروره. إذا عاد إلى غزله التافه: تفضلي واقبلي احترامات عبدك أو يقضي على فابريس: انها قصة يهوديت القديمة.. انه انتحار لي، واغتيال لفابريس، الخلف الغبي أميرنا الملكي والجلّاد

السافل راسي، يأمران بشنق فابريس لأنه شريكي.

أطلقت الدوقة عدّة صيحات: كان هذا الخيار وحيداً للخروج من المأزق يعذّب قلبها البائس. لم يكن فكرها المضطرب يجد أيّ احتمال في المستقبل. هاجت كالمجنونة عشر دقائق. وأخيراً قام النوم مقام هذه الحالة الفظيعة لبعض اللحظات تسبّب عن الارهاق. نفدت منها الحياة. نهضت مذعورة، بضع دقائق بعد ذلك، ووجدت نفسها جالسة على سريرها! كان يخيّل إليها أن الأمير يريد أن يقطع رأس فابريس بحضورها! أيّة أنظار تائهة رمت الدوقة حولها! عندما اقتنعت أخيراً أن ليس أمامها الأمير ولا فابريس، عادت فاستلقت على سريرها وكاد يغمى عليها. كان وهنها الجسدي قوياً فلم تكن تشعر بالقوة لتبديل وضعها. يا إلهي! لو كان في استطاعتي أن أموت!.. قالت في نفسها. ولكن أية جبانة هذه؟ أنا أهمل فابريس في المصيبة! إني آتية! لنعُد إلى الواقع؛ لنتبصّر في الموقف البغيض زججت نفسي فيه، كما برضاي. أي طيش مشؤوم السكن في قصر ملكٍ، سلطته مطلقة! طاغ يعرف كل ضحاياه! تبدو له كل نظرة من نظراتهم كأنها تحدّ لسلطته. للأسف! هذا ما لم نشاهده، لا الكونت ولا أنا عند رحيلنا إلى ميلانو! كنت أفكر بظرف بلاط محبوب؛ أو دون ذلك ولكن من نمط كان يجري أيام الأمير أوجين الهانئة.

من بعيد، لا نكوّن فكرة عن سلطة مستبدّ يعرف جميع

رعاياه، الشكل الخارجي للاستبداد، هو نفسه الذي للحكومات الأخرى؟ ثمة قضاة، ولكن كلهم راسي؛ المسخ، لا يجد ضيراً في أن يحكم بشنق أبيه، إذا أمره الأمير. ويسمّي ذلك القيام بالواجب، لا أملك أية طريقة. ماذا يمكنني أن أقدم له؟ مائة ألف فرنك ربما! ويدعون أنه عند طعنة الخنجر الأخيرة، أنقذه منها غضب السماء، على هذه البلاد التعيسة، أرسل له الأمير عشرة آلاف سكي ذهباً، في صندوق. أي مبلغ من المال يمكن أن يغريه! هذه النفس المجبولة بالوحل، لم ترَ غير الاحتقار في نظرات الناس، تجد لذة الآن بأن ترى فيها الخوف وحتى الاحترام؛ قد يصبح وزيراً للشرطة: ولم لا؟ عندئذ يغدو ثلاثة أرباع سكان البلاد ممالقين سفلة، ويرتجفون أمامه بإذلال كما هو أمام الملك.

بما أنني لا أستطيع أن أهرب من هذا المكان المكروه، يجب أن أكون مفيدة فيه لفابريس: العيش وحيدة، معزولة، يائسة! بم أستطيع عندئذ خدمة فابريس؟ هنا، سيري أيتها المرأة التعيسة؛ قومي بواجبك، خوضي غمار العالم، تظاهري بأنك لم تعودي تفكرين بفابريس.. التظاهر بنسيانك، يا ملاكي الحبيب!.

عند هذه الكلمة، أجهشت الدوقة بالبكاء، كان بإمكانها أن تبكي. بعد ساعة منحتها للضعف البشري، رأت أن أفكارها

بدأت تتوضّح. قالت في نفسها، الحصول على بساط الريح وخطف فابريس من القلعة واللجوء معه إلى بلاد سعيدة، لا يلاحقنا فيها أحد، باريس مثلاً. سنحيا في بادىء الأمر بالألف ومايتي فرنك التي يسلمني إياها مدير أعمال والده بدقة مستحبّة. أتمكن أن أجمع مائة ألف فرنك من بقايا ثروتي، مرّت في مخيلة الدوقة كل لحظات الهناء التي لا يمكن التعبير عنها، وكل تفاصيل الحياة التي ستحياها على ثلاثماية فرسخ عن بارما. هنا، كانت تقول، يمكن أن يدخل في الخدمة باسم غير حقيقي.. سيشتهر فالسيرا الشاب بسرعة بعد دخوله إحدى فِرَق هؤلاء الفرنسيين الطيبين، وسيكون سعيداً.

هذه الصور السعيدة أعادت الدموع ثانية إلى عيني الدوقة ولكن هذه، كانت دموعاً عذبة. السعادة موجودة إذن في مكان ما! دامت هذه الحالة طويلاً؛ انفت المرأة المسكينة من العودة للتأمل في الحقيقة الرهيبة. أخيراً أكرهت نفسها، بينما كان الفجر يشير بخطٍّ أبيض إلى رؤوس أشجار بستانه. قالت في نفسها: سأكون في ساحة المعركة بعد بضع ساعات. وعندئذ سيتعلق الأمر بالعمل. وإذا حدث لي أمر يغضب، إذا رأى الأمير من المناسب أن يوجه إليّ كلمة بصدد فابريس، يجب اتخاذ قرارات دون تأجيل، فقد لا احتمل أعصابي.

إذا أُعلنت مجرمة دولة، سيأمر راسي بحجر كلّ ما في هذا

القصر؛ في الأول من هذا الشهر، الكونت وأنا أحرقنا كالعادة، جميع الأوراق التي تسيء الشرطة استعمالها، فيما هو وزير للشرطة. معي ثلاث ماسات، ذات ثمن غالٍ: سيذهب غداً فوجلنس، بحاري القديم في غريبيانتا، إلى جنيف وسيضعها في مأمن. إذا تمكّن فابريس أن ينجو (يا إلهي! كن بعوني! ورسمت اشارة الصليب) جبانة المركيز دل دونغو، ستجد انه يخطىء بإرسال خبز إلى رجل ملاحق من أمير شرعي، وسيجد فابريس عندئذ، ماساتي على الأقل، وسيحصل على الخبز.

صرفُ الكونت.. وانفرادي به، بعد الذي حدث، هذا مستحيل. المسكين! ليس شريراً، بل بالعكس، رجل ضعيف. هذه النفس العادية ليست في سمو أنفسنا: يا فابريس المسكين! لو أمكنك أن تكون لحظة معي، لنعقد مجلساً استشارياً حول المخاطر التي تحيق بنا!.

إن حكمة الكونت الدقيقة ستعيق كل مشاريعي، ومن ناحية أخرى لا يجب جرّه معي إلى الهلاك.. إذ لماذا يرقيني هذا الطاغية في السجن؟ سيقولون أني تآمرت.. وما أسهل إثبات ذلك بالبرهان؟ لو أنهم يرسلونني إلى القلعة حيث هو فاستطيع بما أبذل من ذهب أن أكلم فابريس ولو للحظة واحدة. بأية شجاعة كنا نسير سويّة إلى الموت! ولكن لنترك هذه الحماقات.. ان راسي، رجل الأمير، سينصحه بأن يجهز عليّ بالسم؛

وجودي في الشوارع، على عربة، قد يهز مشاعر سُكّان بارما الاعزاء. ولكن ماذا! ـ دائماً الرواية نفسها! يجب الصفح عن حماقات امرأة مسكينة مصيرها بهذه التعاسة! فالثابت أن الأمير لن يحكم عليّ بالموت؛ ولكن ليس هناك ما هو أسهل من رميي في السجن وإبقائي فيه؛ سيجعلهم يخفون في إحدى زوايا قصري جميع أنواع الأوراق المشبوهة كما فعلوا مع المسكين ل. . . عندئذ، ثلاثة قضاة، على شيء من النذالة، وأمام أدلة قاطعة، ودزينة شهادات زور، تكفي لإدانتي. قد أحكم بالموت كمتآمرة؛ وسيبدّل الأمير الحكم برحمته اللامتناهية، بعشر سنوات سجن، في القلعة، آخذاً في الاعتبار اني تشرفت، في الماضي وقبلت في البلاط. ولكن أنا، كي لا أضعف من هذا الطبع العنيف جعل المركيزة رافرسي وباقي اعدائي يقولون السخافات، سأسمم نفسي بشجاعة. سيتلطف، على الأقل عموم الناس بتصديق هذا الأمر؛ وأراهن أن راسي سيزورني في زنزانتي، ويجلب لي بطلف، من الأمير، قارورة ستريكنين صغيرة أو أفيون بيروز.

نعم، يجب أن أختلف ظاهراً مع الكونت، إذ لا أريد جرّه معي إلى الهلاك. فهذا الأمر سيكون مني سفالة؛ أحبني، المسكين، بقدر كبير من سلامة القلب! بحماقتي آمنت بأنّه سيبقى عند رجل البلاط الحقيقي قدر كاف من الخلق ليكون كفؤاً للحب. قد يجد الأمير سبباً ليرميني في السجن؛ سيخشى أن

أفسد الرأي العام بالنسبة لفابريس. الكونت كلّه شرف؛ في اللحظة ذاتها سيقوم بما يسمّيه جنوناً المدّعون الحمقى في هذا البلاط، وهم مذهولون. سيرحل عن البلاط. تحدّيت سلطة الأمير ليلة الرسالة. قد انتظر كل شيء من غروره المهان: رجل ولد أميراً، هل ينسى الشعور الذي وفرته له ذلك المساء؟ والكونت على خلاف معي، وسيكون في موقع أفضل لخدمة فابريس. ولكن إذا انتقم الكونت، بعدما سيدفعه قراري إلى اليأس.

هذه، مثلاً فكرة لن تخطر له أبداً؛ ليس له في الأساس روح الأمير السافلة: يقدر الكونت توقيع قرار شائن، وهو يئنّ، ولكنه شريف. ثم، مِمَّ ينتقم؟ من أني، بعد أن أحببته خمس سنوات دون أن أخونه مرة واحدة، أقول له: يا كونتي العزيز! سعدت بحبك خمس سنوات؛ وهذه الشعلة تنطفىء، ولم أعد أحبك؛ ولكنني أعرف أعماق قلبك، وأحفظ لك تقديراً عميقاً، وستبقى أفضل أصدقائي؟.

ما باستطاعة رجل ودود أن يجيب عن تصريح بهذا القدر من الصدق.

سأتّخذ عشيقاً جديداً، أو على الأقل هذا ما سيعتقده الناس. سأقول لهذا العشيق: يحق للأمير أصلاً معاقبة طيش فابريس؛ ولكن أميرنا اللطيف سيطلق سراحه دون شك، يوم عيده.

هكـذا سأربـح ستة أشهـر. سيكون العشيق الجـديد المختـار بحكمة، هو القاضي المرتشي، هذا الجلاد السافل راسي.. سيجد نفسه مدفوعاً إلى مصاف النبلاء، وفي الواقع، سأوفر له مرافقة النبلاء. أغفر لي، يا فابريس العزيز! إن جهداً كهذا من ناحيتي يفوق استطاعتي. ماذا! هذا المسخ، الذي لا يزال غارقاً بدماء الكونت ب... ودماء د...! سيغمى علي من الهلع وهو يقترب مني، أو سأتناول خنجراً وأغرسه في هذا القلب السافل. لا تطلب مني أشياء مستحيلة!.

نعم، وخاصة نسيان فابريس! ولا ظل غضب ضد الأمير، واستعادة مرحي العـادي، مما سيبدو أكثر تحبباً لهذه الأنفس السافلة أولاً وسأخضع عن طيبة خاطر إلى ملكهم، ثانياً، لأنني سأهتم بإبـراز أفضالهم الصغيـرة بدل أن أسخـر منهم؛ مثلاً سأمدح الكونت زورلا على جمال الريشة البيضاء في قبعته التي تسعده وسيجلبها من ليون بواسطة البريد.

اختيار عشيق في تيّار رافرسي.. إذا ذهب الكونت، سيستلم الحزب الوزاري، وهنا ستكون السلطة، سيتولى أحد أصدقاء رافرسي القلعة، وفـابيو كـونتي سيصل الـوزارة. كيف يمكن الأمير، رجل الرفقة الطيبة، رجل الفكر، المعتاد على العمـل الرائع مع الكونت، أن يعالج الشؤون مع هذا العجل، مع ملك البلهاء الذي اهتمّ طيلة حياته بهذا المشكل الأساسي: هل

جنود سموّه يجب أن يحملوا على صدورهم، سبعة أزرار أم تسعة؟ هذه الحيوانات الوحشية الشديدة الحسد مني.. هو ذا ما يكون الخطر عليك، يا فابريس العزيز! هذه الحيوانات الوحشية ستقرر مصيرك ومصيري! إذن، عدم السماح للكونت بتقديم استقالته! ليبق، مهما أجبر أن يتحمل من اهانات! يتخيّل دائماً أن تقديم الاستقالة أكبر تضحية يتمكن أن يقوم بها رئيس وزراء؛ وفي كل مرة تقول له مرآته انه يطعن بالسن، ويقوم من أجلي بهذه التضحية: اذن. خلاف كامل. نعم، اتفاق فقط في هذه الوسيلة لمنعه من الاستقالة. بكل تأكيد سأضيع في استئذانه بالانصراف كلّ صداقة ممكنة؛ ولكن، بعد إهمال البلاط لكلمات اجراءات غير عادلة، في رسالة الأمير، أشعر كي لا أكرهه، اني بحاجة ألاّ أراه لبضعة أشهر. في هذه السهرة الفاصلة، لم أكن بحاجة إلى عقله: كان يجب فقط أن يكتب بإشرافي، لم يكن عليه إلا أن يكتب هذه الكلمة التي حصلت عليها بعزمي، وتغلبت عليه عادات رجل البلاط الخسيسة. قال لي في اليوم التالي، انه لم يتمكن من نيل توقيع الأمير على سخافة، وأنه كان يجب الحصول على رسائل عفو: آه! يا إلهي! مع أمثال هؤلاء الناس، مع مسوخ غرور وكراهية يدعون فارنيز، يؤخذ ما يمكن الحصول عليه.

عند هذه الكلمة، بعث كل غضب الدوقة، كانت تقول في نفسها، غشّني الأمير، وبأيّة جبانة! هذا الرجل لا يمكن غدره؛

يتمتع بالعقل والنعومة والاستدلال. ليس من خسيس فيه غير أهوائه. لاحظت أنا والكونت عشرين مرة أنه لا يصبح عقله فظا إلا عندما يتخيّل أحداً أراد إهانته. إن جريمة فابريس إذن بعيدة عن السياسة، انه اغتيال بسيط، كما نرى مائة كل سنة في مقاطعاته السعيدة، وأقسم لي الكونت انه استحصل على أشدّ المعلومات دقة، وأن فابريس بريء. جيليتي كان على شجاعة: لدى شعوره أنه على خطوتين من الحدود تعرّض لإغراء التخلص من منافس يحلو في عيني عشيقته.

توقّفت الدوقة طويلاً عند الاعتقاد بجرم فابريس: ليس لأن التخلص من وقاحة مشعوذ، عند نبيل من طبقة ابن أخيها، ذنب كبير، ولكن في حالة اليأس تتخبط فيها بدأت تشعر بأنها ستجبر على المناضلة كي تبرهن عن براءة فابريس. كلا، قالت في نفسها، هذا هو برهان قاطع: هو كبيترانيرا المسكين، يحمل أسلحة في كلّ جيوبه. لم يكن يحمل ذلك اليوم، سوى بندقية رديئة، ذات طلقة واحدة، لأحد العمال.

أنا أكره الأمير لأنه غشني بطريقة جبانة، بعد رسالة اعتذاره أرسل من خطف فابريس في بولونيا الخ.. ولكن هذا الحساب سيُسدّد. في نحو الخامسة صباحاً، ودقت الدوقة الجرس للنساء خاصتها، وهي منهوكة باليأس. فصحن لما رأينها على سريرها مرتدية ثيابها، مزيّنة بماساتها، ممتقعة كغطاء سريرها، عيناها

مغمضتان، وبدا لهن كأنها على سرير الموت. اعتقدنها مغشياً عليها، وتذكرن أنها دقت الجرس. كانت تسيل الدموع متقطعة على خديها الفاقدي الحسّ. أدركت نساؤها من إشارة أنها تريد توضع في السرير.

أتى الكونت لزيارة الدوقة، مرتين بعد سهرة الوزير زورلا. رفضت استقباله، فكتب إليها يقول أن لديه نصيحة شخصية يطلبها منها: «يجب أن يحتفظ بمركـزه بعد الإهـانةالتي تجـرّأوا واقترفوها بحقه؟» كان الكونت يضيف: «الشاب بريء، ولكن حتى في كونه مذنباً، هل كان عليهم توقيفه دون إعلامي، أنا حاميه المعلن؟» لم ترَ الدوقة هذه الرسالة إلا في اليوم التالي.

لم يكن للكونت فضيلة. وما يفهمه الليبراليون بكلمة فضيلة (التفتيش عن سعادة العدو الأكبر) كانت تبـدو خدعـة. كان يعتقد نفسه مجبراً أن يفتش قبل كل شيء، عن سعادة الكونت موسكا دلا روفير؛ ولكنه كان في غاية النبل والصـدق، وهو يتكلم على استقالته. لم يكذب في حيـاته كـذبة واحـدة على الدوقة؛ وفضلاً عن هذا، لم تعـر أيّ انتباه لهـذه الرسـالة. واتخذت قرارها : التظاهر بنسيان فابريس؛ بعد هذا الجهد بات كل شأن لا يهمّها.

كـان الكونت في اليـوم التـالي، مـرّ عشـر مـرات بقصـر سنسفرينا، وأخيراً، قرابة الظهر قبلت زيارته. ذهل عندما رأى

الدوقة.. قال في نفسه: عمرها أربعون سنة! كانت البارحة متألّقة وفتيّة إلى حد بعيد! الجميع يقولون انها خلال حديثها الطويل مع كليليا كونتي، كانت تبدو شابة وفاتنة بخلاف ما هي الان.

كان صوت الدوقة ولهجتها غريبين بقدر ما كان مظهرها غريباً. هذه اللهجة الخالية من كلّ عاطفة، من كلّ اهتمام بشري، من كلّ غضب، امتقع لها لون الكونت. ذكّرها بمسلك أحد أصدقائها الذي منذ أشهر وبعدما تلقى الأسرار المقدسة، أراد أن يحدّثها وهو على فراش الموت.

بعد دقائق معدودة، تمكنت الدوقة أن تكلمه ولكن عينيها بقيتا ذابلتين.

ـ قالت له بصوت ضعيف: انما واضح جهدت في جعله لطيفاً محبّباً: لنفترق، أيّها الكونت العزيز! لنفترق! يجب أن نفترق! استشهد السماء، منذ خمس سنوات، كان سلوكي نحوك، نقياً. وفرت لي حياة لامعة، عوضاً عن الضجر الذي لولاك كان قسمتي في قصر غريانتا! لولاك لكنت هرمت سنوات قبل اليوم.. من ناحيتي، كان عملي الوحيد هو التفتيش عن سبيل يجعلك تجد السعادة. أعرض عليك هذا الانفصال بالتراضي، كما يقال في فرنسا، لأني أحبك.

لم يكن الكونت يفهم فاضطرت أن تعيد الحديث مرّات.

امتقع الكونت امتقاعاً بالغاً، وارتمى على ركبتيه عند سريرها، وقـال الدهشـة العميقة واليـأس الأشـد عنفـاً يلهمـان رجـل فكر يعشق. كان يعرض عليها في كل لحظة تقديم استقالته، واللحاق بصديقته إلى خلوة على ألف فرسخ من بارما.

ـ أتجرؤ أن تكلّمني على الرحيل وفابريس هنا؟ صاحت وهي تنتصب فوق سريرها. وأدركت أن اسم فابريس يسبّب تأثيراً مكـدّراً، فأضـافت وهي تشدّ عـلى يد الكـونت: ـ لا، يـا صديقي، لن أقول لك انني أحببتك بهذا الوله، وهذه النشوة لا تشعر بها المرأة، بعد الثلاثين. وأنا بعيدة جدًّا عن هذا العمر. قيل لك إنني أحب فابريس، إذ أعرف أن الشائعة انتشرت في هذا البلاط الفاسد. (التمعت عيناها للمـرة الأولى، في هذا الحديث وهي تتلفظ بكلمة «فاسد»). أقسم لك أمام الله وبحياة فابريس. لم يحدث بيني وبينه ما لا تتحمله عين شخص ثالث. لن أقول لك اني أحبه كما أخت؛ بل بالغريزة كما يقال. أحبّ فيه شجاعته البسيطة والكاملة وهونفسه يجهل هذه الصفة فيه، أذكر أنّ هذا النوع من الاعجاب، بدأ لدى عودته من واترلو. كان يومئذٍ لا يزال طفلاً بالرغم من سنيّه السبع عشرة، قلقه الكـبير كان في معرفته إذا كان فعلاً حضر المعركة، أو أنه اشترك فيها هو الذي لم يسر في هجوم على أية بطارية ولا على أي واحد من ارتال العدو. أثناء هذه المناقشات الخطيرة كانت تجري بيننا حول هذا الموضوع الهام، بدأت أرى فيه ظرفاً كاملاً. انكشفت

لي روحه الكبيرة. كم من الكـذبات المـدروسة كـان رصفها مكانه، شابّ مهذّب! وأخيراً، إذا كان غير سعيد فلا أستطيع أن أكون سعيدة. هذه كلمة تصف بوضوح حالة قلبي، إذا لم تكن هذه هي الحقيقة، فهي على الأقل كل ما أرى فيه، هذه اللهجة الصادقة والحميمة شجّعت الكونت فأراد يقبّل يدها: وسَحبتها بشيء من الهلع. قالت له: مرّ الزمن، أنا امرأة عمرها سبعة وثلاثون عاماً، على أبواب الشيخوخة، وأشعر منذ الآن بكل ما تسبّبه من وهن، وربما أكون قريبة من القبر. هـذه اللحظة مخيفة، أشعر بأسوأ ظاهرة للشيخوخة: قلبي ميت بسبب هذه المصيبة المريعة، ولا أستطيع أن أتحبك، بعد الآن، بت لا أرى فيك، يا عزيزي الكونت، سوى ظل واحدٍ كان عزيزاً على قلبي. بل أكثر: عرفان الجميـل وحده يجعلني أكلّمـك بهذه اللغة.

ـ ماذا سيصير بحالي؟ كان يردد الكونت على مسامعها، وأنا كنت مرتبطاً بك بعاطفة أقوى مما في الأيام الأولى، عندما رأيتك في السكالا.

ـ سأبوح لـك بشيء، يا عـزيـزي: الكـلام عـلى الحب يضجرني، ويبدو لي غير لائق. وقالت، وهي تجرب أن تبتسم: هيا ولكن عبثاً، احتفظ بشجاعتك! كن رجـل فكر، رجـل نباهة، رجل وسائل، والأكثر مهارة سياسية ولدته ايطاليا منذ أجيال.

وقف الكونت، وتنزّه صامتاً لحظات.

- مستحيل يا صديقتي العزيزة، اني عرضة لتمزّقات أشدّ العواطف عنفاً، وتقولين لي أن أسأل عقلي!! لا عقل لي.

- لنترك الكلام على العواطف جانباً، أرجوك، قالت بلهجة جافّة؛ وكانت تلك، المرة الأولى، بعد ساعتي محادثة أصبح صوتها مبتذلاً. يئس الكونت وجرّب أن يعزّيها.

كانت تصيح: خدعني، دون أن تستجيب لأسباب الأمل كما كان الكونت يعرضها، خدعني بالطريقة الأكثر جبانة! وهذا الشحوب المميت زال برهة، ولكن الكونت لاحظ، حتى في لحظة الانفعال الشديد، أن ليس لها قوة تساعدها على رفع ذراعيها.

فكّر: يا إلهي! قد تكون مريضة؛ ولكن في هذه الحالة، ستكون بداية مرض خطير. عندئذ، قلق إلى أقصى حدّ، وعرض عليها أن يستدعي روزاري الشهير، الطبيب الأول في المقاطعة وفي ايطاليا.

- أتريد أن تتيح لغريب معرفة مدى يأسي؟.. هل هذه نصيحة خائن أو صديق؟ ونظرت إليه بعينين غريبتين.

انتهى كل شيء، قال في نفسه، انها لم تعد تحبني! وأكثر من ذلك، انها لا تضعني في صف الشرفاء العاديين.

ـ سأقول لك، أضاف الكونت وهو يتكلم بحماس، أردت قبل كل شيء الحصول على تفاصيل القاء القبض عليه، مما يغمرنا باليأس لا أعرف حتى الآن شيئاً ايجابياً؛ أرسلت من سأل رجال الشرطة، في المحطة المجاورة، فرأوا السجين يصل عن طريق كاستلنووفو، وتلقوا أمر اللحاق بالعربة التي تقلّه. أرسلت ثانية في الحال، برونو الذي لا تقل حميته عن تفانيه؛ تلقى الأمر، بأن ينتقل من محطة إلى أخرى حتى يعرف كيف وأين ألقي القبض على فابريس.

لدى سماعها هذا الاسم، فابريس، سيطر تشنج بسيط على الدوقة.

وما أن تمكنت على الكلام حتى قالت للكونت: أغفر لي، يا صديقي، هذه التفاصيل تهمني جداً، أعطني إياها بكاملها، واجعلني أفهم حتى الظروف البسيطة.

ـ إذن، يا سيدتي، أردف الكونت وهو يجرب أن يتكلّم بخفة ليرفّه عنها قليلاً. أرغب في ايفاد رسول ثقة إلى برونو كي يشدّ المسير إلى بولونيا؛ هناك يكونون اختطفوا صديقنا الشاب. ما تاريخ رسالته الأخيرة؟.

ـ الثلاثاء، منذ خمسة أيام.

ـ هل فتحت في البريد؟.

ـ لا أثر لذلك. كتبت على ورق رديء؟ وكتب العنوان بيد

امـرأة، ويحمل اسم غسّـالة عجـوز نسيبة لـوصيفتي. تعتقـد الغسّالة، أن الأمر يتعلق بقصة حبّ، وتؤدّي لها شكينا بدل نقل الرسائل، دون أن تضيف شيئاً. جرّب الكونت بلهجة رجل أعمال أن يكتشف، وهو يحاور الدوقة، ما يمكن أن يكون يوم الاختطاف، في بولونيا. وتبيّن ـ هو الذي يتمتع عادة بمنتهى الرقة والحصافة ـ أن هذه اللهجة تهم المرأة البائسة وتسليها. لو أن الكونت لم يكن مغرمـاً، لكانت خـطرت له هـذه الفكرة البسيطة. ما أن دخل الغرفة حتى صرفته الدوقة ليرسل، فوراً أوامر جديدة إلى برونو. وبما أنهم يهتمّون بإذا كان الحكم صدر قبل توقيع الأمير على الرسالة الموجهة إلى الدوقة، انتهزت هذه الأخيرة المناسبة بسرعة لتقول للكونت: لن ألومك لأنك أغفلت كلمة «اجراء جائر» في الرسالة التي كتبتها ووقّعها. انها غريزة رجل البلاط تسيطر عليك؛ تفضل مصلحة سيدك على مصلحة صديقتك. وضعت كل أعمالك بتصرفي، منذ زمن بعيد، يا عزيزي الكونت، ولكن ليس بمقدوري أن أبدّل من طبيعتك، تملك مواهب عظيمة لتكون وزيراً، ولكنك تملك أيضاً غريزة هذه المهنة. اهمال كلمة «جائر» تهلكني، ولكن لن ألومك على هذا بأية طريقة. ذلك كان خطأ الغريزة لا خطأ الارادة.

تذكّر، أضافت وهي تبدّل رنّة صوتها، وبلهجة حاسمة جدًّا، لست متأسفة على خطف فابريس، ولم أشعر بأي ضعف في الابتعاد عن هذه البلاد، وإني أحترم الأمير احتراماً شديداً. هذا

ما لديك قوله لي وما أريد قوله لك. وبما أني أريد توجيه سلوكي في المستقبل، أود أن أتفضل عندك حبيًّا. كصديقة طيّبة وقديمة. أحسب أن عمري ستون سنة؛ ماتت المرأة الشابة فيّ، لن أبالغ بشيء في العالم، لن أتمكن أن أحب. ولكن سأكون أشد تعاسة مما أنا، إذا عرضت مصيرك للخطر. قد يدخل في مشاريعي التظاهر بأن لي عشيقاً شاباً، فلا أريد أن أراك حزيناً. أقسم على سعادة فابريس، وتوقفت عن الكلام نصف دقيقة بعد هذه الكلمة، انني لم أخنك أبداً خلال خمس سنوات. انه زمن طويل قالت، وجربت أن تبتسم وارتجفت وجنتاها الشاحبتان ولكن شفتيها لم تتمكنا من الانفصال. أقسم لك أني ما صممت على حبه ولا كانت لي رغبة في هذا الأمر. هذا كل ما في الأمر دعني وشأني.

خرج الكونت يائساً، من قصر سنسفرينا، ورأى راسخة لدى الدوقة نية الانفصال عنه. ولم يسبق له أبداً أن كان متيماً إلى هذا الحد. علي أن أعود إليها غالباً لأنها بعيدة الاحتمال خارج ايطاليا. لدى عودته إلى البيت أرسل ستة أشخاص مختلفين على طريق كستلنووفو وبولونيا وكلّفهم بالرسائل. وقال: قد تأخذ الأمير نزوة تنفيذ حكم الاعدام بهذا الطفل المسكين، كي ينتقم من اللهجة التي استعملتها الدوقة معه يوم الرسالة المشؤومة. كنت أشعر أن الدوقة تخطت حدّاً لا يجب تخطيه أبداً. ولكي أصلح الأمور ارتكبت بلاهة كبرى بأغفالي كتابة كلمة «اجراء

جائر»، الوحيدة التي تربط الملك.. ولكن، عجباً! هل يرتبط هؤلاء الناس بشيء؟ هذا هو الخطأ الكبير في حياتي. عرضت للصدفة كل ما كان يجعل لها قيمة عندي، وسأعوّض بما سأبذله من نشاط ومهارة، ولكن إذا كنت لن أتمكن من الحصول على شيء، حتى ولو ضحيت ببعض من كرامتي، سأترك هذا الرجل، مع كل أحلامه بالسياسة العليا، وأفكاره في أن يجعل من نفسه ملكاً دستورياً على لومبارديا، وسأرى كيف يستبدلني.. فابيو كونتي أحمق، وتقتصر كل مهارة راسي الحكم بالشنق على رجل لا ترضى عنه السلطة، وجعل هذا الحكم يبدو قانونياً.

ما أن رسخ هذا القرار بالتخلي عن الوزارة، إذا عومل فابريس بقسوة تفوق حدود التوقيف البسيط، حتى قال الكونت في نفسه: إذا كانت نزوة هذا الرجل تكلفني السعادة، سيبقى لي الشرف على الأقل.. وبما أني أسخر من وزارتي، أسمح لنفسي بمائة عمل كانت تبدو لي مستحيلة حتى هذا الصباح، سأجرب، مثلاً، القيام بكل مستطاع انسانياً لكي أهرّب فابريس.. صاح الكونت، يا إلهي، وهو يقاطع نفسه محملقاً بعينيه كما تجاه سعادة غير منتظرة. لم تكلّمني الدوقة على الهرب. هل تكون كذبت مرّة في حياتها، وليس خلافها معي سوى الرغبة في أن أخون الأمير؟.

استعادت عين الكونت كلّ رهافتها الساحرة. هذا القاضي

اللطيف راسي يقبض من الأمير ثمن الأحكام التي تنتقص من شرفنا في أوروبا ولكنه لن يرفض أن أدفع له لكي يخون أسرار سيده. لدى هذا الحيوان عشيقه ومعرّف. العشيقة في منتهى السفالة كي أحدثها، ستخبر ذلك في اليوم التالي إلى جميع بائعات الخضار في الجوار. انتعش الكونت بهذا البصيص من الأمل، ومشى فوراً في طريق الكاتدرائية. دهش من خفة مشيته؛ وابتسم رغم كآبته: قال، ما يضيرني التخلي عن الوزارة! هذه الكاتدرائية كما كنائس كثيرة في إيطاليا، تستعمل من شارع إلى شارع. رأى من بعيد واحداً من نواب الأسقف يجتاز أحد أجنحة الكنيسة.

قال له: بما أني التقيت بك، أرجو أن تكون طيّباً معي، وتوفر على مرضي بالنقرس، تعباً مرهقاً بالصعود حتى سيادة الحبر. سأكون شديد الامتنان إذا أراد ونزل حتى السكرستيا. سرّ رئيس الأساقفة بهذا الطلب. كان لديه ألف شيء يقوله عن فابريس. ولكن الوزير أدرك أن كل هذه جمل فارغة، ورفض أن يصغي إليها.

ـ أي نوع من الرجال هو دونياني، نائب أسقف سان بول؟

أجاب رئيس الأساقفة: عقل صغير، وطموح كبير، قليل الذمة مع فقر مدقع، إذ كلنا عيوب!.

ـ سحقاً، أيها الحبر، صاح الوزير، انك تصف كما تاسيت

واستأذنه ضاحكاً. ما أن عاد إلى الوزارة، حتى أرسل في طلب الأب دونياني.

ـ أنت مرشد صديقي القاضي راسي، أليس لديه ما يقوله لي؟ ودون أية كلمة أخرى أو بعض الرسميات، صرف دونياني من عنده.

١٧

اعتبر الكونت نفسه كما خارج الوزارة. قال في نفسه: كم جواداً يمكن أن أنال بعد فقداني الحظوة، إذ سيدعون اعتزالي. قيّم الكونت وضع ثروته: كان دخل إلى الوزارة بثمانين ألف فرنك: قال في نفسه، تعود علي بريع قدره عشرون ألف فرنك على الأكثر، اني رجل طائش. ليس من بورجوازي في بارما إلا ويعتقد أن إيرادي ماية وخمسون ألف فرنك! والأمير في هذا، بورجوازي أكثر من سواه. عندما سيرونني في الوحل، سيقولون إني أحسن إخفاء ثروتي. صاح: طبعاً! إذا بقيت وزيراً ثلاثة أشهر أخرى، سنرى ثروتي تتضاعف. وجد في هذه الفكرة مناسبة للكتابة إلى الدوقة، فانتهزها بتوق شديد؛ ولكن كي يجعلها تغفر الرسالة، في الحالة التي وصلا إليها، ملأها بالأرقام والحسابات. قال لها: لن يبقى لنا سوى إيراد عشرين ألف فرنك، لنعيش نحن الثلاثة في نابولي، فابريس وأنت وأنا. سيكون لفابريس ولي جواد واحد. ما أرسل الوزير هذه الرسالة

حتى أعلن عن وصول القاضي راسي؛ فاستقبله بغطرسة تقارب الوقاحة.

ـ قال له: كيف ترسل، يا سيّدي، من يخطف متآمراً أحميه، وتريد كذلك أن تقطع عنقه، دون أن تقول لي شيئاً! أتعرف على الأقل اسم وريثي؟ أهو الجنرال كونتي أو أنت؟.

ارتعب راسي؛ لم يكن معتاداً على العشرةالطيبة، ليكشف إذا كان الكونت يتكلم بجديّة: احمرت وجنتاه كثيراً، وخرجت الكلمات من فمه متعثرة غير واضحة؛ كان الكونت يرى ارتباكه ويتلذّذ به. فجأة. انتفض راسي وصاح بارتياح تام، وبدا كفيغارو حين ضبطته المافيغا بالجرم المشهود:

ـ الواقع، حضرة الكونت، سأصارح سموّك: ماذا تعطيني لأجيب عن كل اسئلتك كما أفعل مع معرّفي؟.

ـ وسام سان بول (وسام بارما). أو مالاً، إذا وفرت لي سبباً لارضائك.

ـ أفضل وسام سان بول لأنه يمنحني لقب «نبيل».

ـ كيف، يا سيدي القاضي، أتقيم وزناً بعد، لطبقة النبلاء المسكينة؟.

لو كنت نبيلاً، أجاب راسي بكل صفاقة مهنته، لكان أهل الناس الذين أمرت بشنقهم يكرهونني دون أن يحتقروني.

قال الكونت، إذاً سأخلّصك من الاحتقار، إشفني أنت من قلقي. ما الذي تنوي فعله بفابريس؟.

ـ في الواقع، الأمير مرتبك جداً: يخشى أن تفتتن بجمال عيني آرميد، اعذر أسلوب الكلام هذا، انها تعابير الملك كما وردت. يخشى أن تتأثر بعينين أثّرتا فيه هو نفسه، فهو يخاف أن تتركه فجأة، إذ لا سواك لإدارة شؤون لومبارديا. وأضاف راسي وهو يخفض صوته بل سأقول لك عن مناسبة ملائمة تساوي وسام سان بول الذي تمنحنيه. الأمير سيهبك كمكافأة وطنية، قطعة أرض تساوي ستمائة ألف فرنك، يفرزها من ممتلكاته أو منحة ثلاثمائة ألف فرنك، إذا لم تتدخل بمصير فابريس دل دونغو، أو على الأقل، بالامتناع عن التحدث إليه إلا علناً.

قال الكونت، كنت أنتظر شيئاً أفضل من هذا. عدم التدخل بقضية فابريس معناه الاختلاف مع الدوقة.

ـ إذن، هذا ما يقوله الأمير أيضاً. هو غاضب جداً على الدوقة، وليبق هذا الأمر بيننا؛ ويخشى أن تطلب منه، إذ ترملت، يد ابنة عمه، الأميرة العجوز ايزوتا التي لا يبلغ عمرها سوى خمسين عاماً، تعويضاً عن خلافك مع هذه السيدة الجميلة.

صاح الكونت، اكتشف الحقيقة، الأمير هو الرجل الأكثر حذقاً في كل المقاطعات التي يحكمها.

لم تخطر أبداً ببال الكونت، الفكرة الغريبة بالاقتران بالأميرة العجوز ايزوتا؛ لم يكن اسوأ من هذا الأمر، لرجل يكره احتفالات البلاط التي تضجره.

أخذ يلهو بمعطسه على بلاط طاولة صغيرة مجاورة لمقعده. رأى راسي في حركة الاضطراب هذه امكانية كسب وفير؛ لمعت عيناه، وصاح:

لطفاً، يا حضرة الكونت، إذا سموّك يقبل الأرض بستمائة ألف فرنك أو هبة مالية، أرجوه ألا يختار مفاوضاً سواي. وأضاف وهو يخفض صوته، سأسعى جهدي لأزيد الهبة المالية أو أضيف إلى الأرض الحكومية غابة على شيء من الأهمية. إذا تنازل سموّك وتكلم مع الأمير بشيء من اللطف والتحرّز في الحديث عن هذا اليافع الغر الذي سجن، يمكن ربما تحويل الأرض التي سيقدمها عرفان الجميل الوطني، إلى دوقيّة. وأكرر على مسامع سموّك؛ يكره الأمير الدوقة وهو مرتبك حتى اعتقدت أحياناً بوجود ظرف سري، لم يكن يجرؤ أن يبوح لي به. الحقيقة قد نجد هنا منجم ذهب، أبيعك أسراره الحميمة وبكل حرية، إذ يعتقدون أني عدوك اللدود. إذا كان غاضباً على الدوقة، يعتقد، كما نحن، أنك الوحيد في الدنيا يصرّف بنجاح كل الشؤون المختصة بالميلاني. قال راسي وهو يمتلىء حماساً؛ هل سموّك يسمح لي بأن أردد حرفياً كلمات الملك؟ ثمة دائماً وضع

للكلمات حتى أن أية ترجمة لا يمكنها أن تعبّر عما تعنيه، ويمكنك أنت أن ترى أكثر مما أرى.

قال الكونت، وهو يتابع النقر على طاولة الرخام بمعطسه الذهبي، شارد الذهن: اسمح بكل شيء وسأكون شاكراً.

- اعطني براءة نبالة، قابلة التحويل، مستقلة عن الوسام؛ عندما أتكلم مع الأمير في موضوع التشريف يجيبني: نذل مثلك، نبيل! يجب التوقف عن الاتجار منذ صباح الغد! لا أحد في بارما سيرضى بعد الآن، أن يصبح شريفاً، ولكي نعود إلى مسألة الميلاني، كان الأمير يقول لي، منذ ثلاثة أيام: ما سوى هذا المحتال لكي نتابع خيوط دسائسنا؛ إذا طردته أو تبع الدوقة، فلن أرى نفسي يوماً رئيس الحزب الليبيرالي ومعبوداً من كل ايطاليا.

عند هذه الكلمة. تنفس الكونت الصعداء وقال في نفسه: لن يموت فابريس.

خلال حياته كلها، لم يتوصل راسي إلى حديث حميم مع رئيس الوزراء. كان سعيداً إلى أقصى حد، ويرى نفسه، على وشك ترك اسم راسي الذي أصبح في البلاد مرادف كل خسيس وسافل. كانت الطبقة الدنيا من الشعب تطلق اسم راسي على الكلاب المسعورة؛ منذ قليل تبارز بعض الجنود في ما بينهم لأن واحداً من رفاقهم دعاهم راسي. أخيراً لم يكن

ينقضي أسبوع دون أن ينتظم اسمه في سونيته شنيعة. يطرد ابنه من جميع المقاهي بسبب اسمه. وهو تلميذ فتيّ وبريء، عمره ستة عشر عاماً.

دفعه الذكر الحيّ لكل متع، إلى القيام بعمل طائش.

قال الكونت وهو يقرّب مقعده من مقعد الوزير: أملك أرضاً تدعى ريفا، أود أن أصبح البارون دي ريفا.

قال الوزير: لِمَ لا؟ وسرّ راسي سروراً بالغاً.

ـ إذا يا سيدي الكونت، سأسمح لنفسي بأن أكـون غير متحفظ معك، وسأجرؤ وأكشف عن كلّ تمنياتك، انك تطمح بنيل يد الأميرة أزوتا، وطموحك هذا غاية في النبل. ما أن تصبح نسيباً للأمير، حتى تغدو بمنجاة من فقدان الثقة. ستسيطر على رجلنا. انه يأنف من هذا الزواج مع الأميرة آزوتا؛ ولكن إذا أوكلت شؤونك إلى رجل ماهر وأديت له أجراً طيباً، يمكنك التأكد من النجاح.

ـ أنا يا حضرة البارون العزيز، كنت أيأس من هذا الأمر؛ وأستنكر مسبقاً كل الكلمات التي يمكن أن تنقلها باسمي؛ ولكن سيأتي اليوم الذي سيحقق هذا الزواج كل أمالي. ويوفر لي المركز السامي في الدولة، وسأقدّم لك ثلاثمائة ألف فرنك من مالي، أو سأنصح الأمير بإعطائك إشارة الرضى التي تفضلها أنت على هذا المبلغ.

يجد القارىء هذا الحديث طويلاً: ومع اننا سامحناه بنصفه، دام حتى الساعتين. خرج راسي من عند الكونت سعيداً جداً. غدت آمال الكونت بإنقاذ فابريس واسعة، وأصبح أكثر تصميماً من أي وقت آخر على تقديم استقالته. كان يجد نفوذه بحاجة إلى تجديد، عن طريق وجود أشخاص مثل راسي والجنرال كونتي. كان يتمتع ببهجة الامكانية التي استشفّها منذ قليل للأخذ بثأره من الأمير. كان يصيح: يمكنه أن يبعد الدوقة، ولكن طبعاً سيفقد الأمل بأن يصبح ملكاً دستورياً على لومبارديا (كان هذا الوهم مثيراً للسخرية، ولكن لفرط ما حلم به أصبح يحبه حباً جنونياً).

كان الكونت شديد السرور، وهو يسرع إلى بيت الدوقة لينقل إليها حديثه مع القاضي. وجد بابها موصداً في وجهه؛ لم يكن البواب يجرؤ على البوح له بأن هذا الأمر صادر عن عشيقته بالذات. عاد الكونت مغموماً إلى قصر الوزارة، وحجبت هذه المصيبة كامل السرور الذي وفّره له حديثه مع المؤتمن على أسرار الأمير. لم يعد عنده الشجاعة ليهتم بشيء. كان يتيه مهموماً في غرفته عندما تلقى رسالة بعد ربع ساعة هذا نصها:

«بما اننا، يا صديقي الطيب لم نعد سوى صديقين يجب ألا تأتي إلى زيارتي سوى ثلاث مرات في الأسبوع. بعد خمسة عشر يوماً يجب أن تخفض هذه الزيارات إلى زيارتين في الشهر. إذا

كنت تريد أن ترضيني، أعلن هذا النوع من المقاطعة، وإذا شئت أن تستعيد كل الحب الذي كنت أكنه لك في الماضي، ستختار لك صديقة جديدة. أما أنا فلديّ مشاريع لهو عديدة. أنوي الاختلاط كثيراً بالمجتمع، سأجد ربما رجل فكر ينسيني مصائبي. سيبقى دون شك المركز الأول محفوظاً لك في قلبي كصديق، ولكن لا أريد أن يقال أن مساعي أمليت علي من حكمتك، وأريد أن يعرف الجميع أني فقدت كل نفوذ على قراراتك. بكلمة، يا عزيزي الكونت، أعتقد انك ستبقى دائما صديقي الأعز، ولكن لا شيء آخر. لا تحتفظ، أرجوك، بأية فكرة عن العودة. كل شيء انتهى. اعتمد دائماً على صداقتي».

كان هذا المقطع الأخير في الرسالة أقوى مما تستطيع أن تتحمله شجاعته فكتب رسالة لطيفة إلى الأمير يقدّم له فيها استقالته من كلّ وظائفه، وأرسلها إلى الدوقة مع رجاء ايصالها إلى القصر. بعد فترة قصيرة، تلقّى استقالته ممزّقة إلى أربع، وكانت الدوقة تكرّمت وكتبت على واحدة من القطع الأربع البيضاء: «كلا. ألف مرّة كلا».

كان قوياً يأس الوزير المسكين. كان في كل لحظة يقول في نفسه: «إنها محقّة. إهمالي كلمة: «إجراء جائر» مصيبة مريعة، قد تسبّب موت فابريس وهذا ما سيؤدي إلى موتي. كان الكونت لا يريد الذّهاب إلى القصر قبل أن يُستدعى. كتب بيده البراءة

التي ترفع راسي تلقائياً إلى درجة فارس في جمعية سان بسول وتمنحه النبالة الوراثية، وهو مكتئب أشد الاكتئاب؛ وربط بها تقريراً من نصف صفحة، يعرض فيه للأمير أسباب المصلحة العليا التي تستدعي اتخاذ مثل هذا التدبير. ووجد نـوعاً من السرور الكئيب في نسخ هذه المستندات على نسختين متقنتين وجههما إلى الدوقة.

احتار في فرضياته، كان يجرّب أن يتنبـأ بسلوك المرأة التي يحبّ. ويقول في نفسه: هي ذاتها لا تعرف؛ شيء واحد أكيد: لن تتراجع عن القرارات التي أعلنتها لي. وما كان يزيد تعاسته، انه لم يكن يستطيع التوصل إلى أمر واحد يؤاخذ عليه الدوقة. كان حبها نعمة لي. وتوقفت بسبب خطأ لا إرادي، صحيح، ولكنه يجرّ إلى نتيجة فظيعة؛ ليس لي أيّ حق بالشكوى. عـرف الكونت، صباح اليـوم التالي، أن الـدوقة عـادت للاختـلاط بالمجتمع؛ وظهرت مساء، في البيوت التي كانت تفتح أبوابها للاستقبال. ماذا كان حدث له لو التقى بها في صالة واحدة؟ كيف التحدث إليها؟ بأية لهجة توجيه الكلام إليها؟ وهل من الممكن ألا أوجه الكلام إليها؟.

كـان اليوم التـالي حزينـاً. أذيع أن حكم الاعـدام سينفذ بفابريس. تأثرت المدينة بكاملها. وبالنظر لنبالة أصله، تكرّم الأمير وقرّر أن يتمّ الإعدام بقطع الرأس.

قال الكونت في نفسه: أنا الذي يقتله؛ لن أتمكن من لقاء الدوقة بعد الآن، بالرغم من هذا الاستدلال البسيط لم يمتنع من قضاء ثلاثة أيام عند بابها؛ ماشياً ذهب إليها، كي لا يلاحظه أحد. تشجع في يأسه وكتب إليها. كان أرسل مرتين في طلب راسي، لكن القاضي لم يأت؛ قال الكونت في نفسه: النذل اللئيم يخونني.

هزّت، في اليوم التالي، ثلاثة أحداث طبقة الأشراف والطبقة البورجوازية في بارما. تنفيذ حكم الاعدام بحق فابريس كان مؤكداً أكثر منه في أي وقت آخر. لم تبد الدوقة شديدة اليأس لهذا الحدث. لم تكن تبدي سوى أسف يسير على عشيقها الشاب. غير أنها كانت تغيّر بفن لامتناهٍ، من الامتقاع الذي حلّ بها، بسبب انحراف صحي على شيء من الخطورة، ألمّ الامتقاع الذي حلّ بها، حين ألقي القبض على فابريس. كان البورجوازيون يتعرفون من خلال هذه التفاصيل على قساوة قلب سيدة بلاط عظيمة. مع ذلك، من قبيل الأدب والتضحية لروح فابريس الشاب، قطعت الدوقة علاقتها بالكونت موسكا. ـ أي فجور! كان يصيح: جنسينيو بارما. ولكن الدوقة كانت تبدو جاهزة لتقبّل مغازلات أجمل شبان البلاط. وبين الغرائب الأخرى أنها كانت شديدة المرح مع الكونت بالدي، عشيق السيدة رافرسي الحالي. داعبته كثيراً بخصوص جولاته المتكررة إلى قصر فيليجا. كان الشعب والطبقة البورجوازية الدنيا

غاضبين من موت فابريس وكانا ينسبانه إلى غيرة الكونت موسكا. كان مجتمع البلاط يهتم أيضاً كثير بالكونت، ولكن من أجل الهزء به. الأخير من الأحداث الثلاثة الكبيرة التي ذكرناها، لم يكن سوى استقاله الكونت؛ كان الجميع يسخرون من عاشق مثير للهزء، يضحي في السادسة والخمسين بمركز رفيع في سبيل كآبة سببتها له امرأة قاسية الفؤاد، تركته، وتفضّل عليه شاباً، كان لرئيس الأساقفة وحده النباهة بأن الشرف يمنع الكونت من البقاء رئيساً للوزراء في بلاد سيعمدون فيها بدون استشارته إلى اعدام شاب بقطع الرأس يتولى هو حمايته. نتج عن استقالة الكونت شفاء الجنرال فابيو كونتي من داء النقرس، كما سنقص ذلك في محله، عندما سنتحدث عن الطريقة التي كان فابريس المسكين يقضي وقته في القلعة، بينما المدينة بكاملها كانت تستعلم عن ساعة تنفيذ حكم الاعدام به.

في اليوم التالي، رأى ثانية الكونت برونو هذا العميل المخلص الذي كان أرسله إلى بولونيا. رق قلب الكونت لحظة دخل الرجل غرفته. ذكره منظره بالحالة السعيدة التي كان يتمتع بها عندما أرسله إلى بولونيا بالاتفاق مع الدوقة. وصل برونو من بولونيا حيث لم يتمكن من مقابلة لدوفيك الذي حجزه ضابط كستلنووفو في سجن قريته.

قال الكونت لبرونو، سأرسلك إلى بولونيا، وستتمسك

الدوقة، برغبة كئيبة لمعرفة كل تفاصيل مصيبة فابريس. إذهب إلى العريف الدركي، آمر مخفر كستلنووفر.

ولكن لا. صاح الكونت، متوقفاً عن الكلام، اذهب في الحال إلى لومبارديا ووزّع مالاً بكميات وافرة على كل مراسلينا. أريد الحصول من كلّ هؤلاء الناس على تقارير من النوع الأكثر تشجيعاً. فهم برونو تماماً هدف بعثته، فباشر بكتابة أوراق اعتماده. وبينما كان الكونت يعطيه توصياته الأخيرة، تلقّى رسالة مزورة بدقة ولكن مكتوبة بخط واضح حتى يمكن القول أن صديقاً يكتب إلى صديق آخر، ليطلب منه خدمة. الصديق الذي كان يكتب لم يكن سوى الأمير نفسه. سمع عن بعض مشاريع الاعتزال. كان يرجو صديقه الكونت موسكا أن يحتفظ بالوزارة، باسم الصداقة والمخاطر التي تحيط بالوطن ويأمره كسيّده بالبقاء في الوزارة. كان يضيف أن ملك * * * وضع وسامين بتصرفه، في جمعيته، وأنه يحتفظ بواحد لنفسه ويرسل الآخر إلى عزيزه الكونتَ موسكا.

ـ إن هذا الحيوان يسبب لي الشقاء! صاح الكونت غاضباً، أمام برونو المشدوه، ويعتقد أنه يغريني بالتعابير الخبيثة التي طالما دبجناها مرات لنصطاد أبلهاً. رفض الوسام الذي كانوا يقدمونه له وتكلّم في جوابه على حالته الصحية، وكأنها لا تترك له سوى القليل من الأمل بالتمكن من القيام طويلاً بأعمال الوزارة

المرهقة. أعلن بعد ذلك بلحظة وصول القاضي راسي الذي عامله الكونت معاملة عبد أسود.

ـ حسناً! تتواقح عليّ لأني جعلتك شريفاً! لماذا لم تأتِ لتشكرني كما كان الواجب يحتّم عليك أن تفعل، أيها المدّعي الأحمق.

كان راسي معتاداً على السباب، فهكذا كان يستقبله الأمير يومياً، ولكنه كان يريد أن يصبح باروناً، فبرّأ نفسه بنباهة. لم يكن أسهل من هذا.

ـ سمّرني الأمير البارحة أمام طاولة طيلة النهار، لم أتمكن الخروج من القصر. جعلني أكتب بخطي العاطل عدداً من المستندات الدبلوماسية البلهاء والثرثارة حتى بت أعتقد أن غايته الوحيدة كانت الاحتفاظ بي سجيناً. ولما تمكنت أخيراً من أن أنال فرصة في نحو الخامسة، وأنا على أشد ما يكون من الجوع، أعطاني أمراً بالتوجه إلى بيتي، وعدم الخروج منه طيلة السهرة. رأيت جاسوسين من جواسيسه المعروفين يتنزهان حتى منتصف الليل. وما سوى هذا الصباح، حتى أوصيت على عربة قادتني حتى باب الكاتدرائية. نزلتُ من العربة بكل بطء، ثم بدأت أركض. اجتزت باحة الكنيسة، وها أنذا. سموك، في هذه اللحظة، من أرغب أن أرضيه، بكل ما أملك من قدرة.

ـ وأنا، يا أيها الوغد، لست مغشوشاً، بكل قصصك المؤلفة

بين بين! رفضت، أول البارحة، أن تعلمني شيئاً عن فابريس، احترمت وساوسك وعهودك المتعلقة بالسر، مع أن هذه العهود، لكائن مثلك، سبل للفشل. أريد الحقيقة اليوم: ما هذه الشائعات المضحكة التي تتصوّر حكماً بالأعدام على هذا الشاب، قاتل الممثل جيليتي؟.

- لا يتمكن أحد من عرض هذه الشائعات لسموك، أفضل مني، إذ أنا الذي أطلقها بأمر من الملك؛ أفكر بهذا الشأن! ربما يقوم بذلك، لمنعي من إطلاعك على هذا الحادث. سجنني البارحة طيلة النهار. يعتقد الأمير أنني على شيء من الجنون. لم يكن يستطيع عدم الشك بأني سأجلب لك وسامي راجياً منك أن تعلقه في عروة ثوبي.

صاح الوزير: اختصر. قل الأهمّ.

الأمير يرغب، دون شك في نيل حكم بالإعدام، على السيد دل دونغو، ولكن كما تعرف ليس أمامه سوى حكم بعشرين سنة في الأغلال، خففه في اليوم التالي إلى اثني عشر عاماً في القلعة مع صيام على الخبز والماء كل يوم جمعة وتقشفات دينية أخرى.

كنت أعرف أن هذه العقوبة هي بالسجن فقط، لكني كنت أخشى شائعات تنتشر فيالمدينة عن إعدامات أخرى قريبة التنفيذ. أتذكر موت الكونت بالنزا حين تمكنت من اخفاء الخبر تماماً.

ـ منذ ذلك الحين، كان يجب أن أحصل على الوسام، صاح راسي، دون أن يضطرب، كان علي أن أعامله بقسوة بينما أمسك به. وكان الرجل يرغب بهذه الميتة. كنت أحمق يومذاك. واني مسلح بهذه الخبرة، أجرؤ بإسداء النصح إليك ألا تتشبه بي اليوم. (بدت هذه المقارنة صادرة عن ذوق غير سليم تجاه المخاطب الذي أجبر أن يضبط أعصابه كي لا يرفس راسي.).

ـ في بادىء الأمر، أردف هذا بمنطق المتشرع وثقة كاملة لرجل لا يمكن لإهانة أن تسيء إليه، لا يمكن أن يتعلق الموضوع بتنفيذ حكم الإعدام بدل دونغو المذكور؛ لن يجرؤ الأمر على تحقيق هذا. تبدّل الزمن. وأنا نبيل آمل أن أصبح باروناً بمساعدتك. والحال هذه، الأمر لا يتعلق إلا بي، كما يعرف سموك، الجلاد لا يتلقى أوامره، إلا مني. الفارس راسي، لن يقوم أبداً بعمل ضد السيد دل دونغو.

ـ ستتصرف بحكمة، قال الكونت، وهو ينظر إليه بازدراء وقساوة.

ـ لندرك الفرق! أردف راسي بابتسامة. أنا لست إلاّ للميتات الرسمية، وإذا مات السيد دل دونغو من مغص، فلا تعز موته إليّ: لا أدري لماذا الأمير غاضب على سنسفرينا (قبل ثلاثة أيام لكان قال راسي «الدوقة» ولكنه كان على علم بخلافها مع رئيس الوزراء كالمدينة كلها ؛ دهش الكونت من إهمال

اللقب، ورمق راسي بنظرة تملأها البغضاء. يا ملاكي العزيز! قال في نفسه بعدئذ. لن أتمكن أن أظهر لك حبي إلا بإطاعتي العمياء لأوامرك.

- سأصرح لك، قال للقاضي، لا أهتم بنزوات الدوقة المختلفة؛ انما سبق وقدمت لي فابريس هذا الشخص الرديء الذي كان يجب أن يبقى في نابولي، فلا يأتي إلى هنا ليعرقل أعمالنا، أرغب ألا ينفذ فيه حكم الاعدام على عهدي، ووعداً: ستصبح باروناً خلال الأيام الثمانية التي تتبع خروجه من السجن.

- في هذه الحالة، يا سيدي الكونت، لن أصبح باروناً إلا بعد الاثني عشر عاماً، إذ الأمير شديد الغضب، وكراهيته للدوقة يجرب اخفاءها رغم عنفها.

- سموه رجل طيب للغاية! لماذا يحتاج إلى اخفاء كرهه ورئيس وزرائه لم يعد يحمي الدوقة؟ لا أريد أن يتهمني بالحقارة، ولا بالغيرة. أنا أتيت بالدوقة إلى هذه البلاد، فإذا مات فابريس في السجن. لن تصبح باروناً، وربما تغتال بطعنات خنجر. ولكن ما لنا ولهذه التفاهة: أحصيت ثروتي. انها تساوي عشرين ألف ليرة ولديّ مشروع تقديم استقالتي إلى الملك. عندي بعض الأمل، بأن أوظف لدى ملك نابولي: هذه المدينة الكبرى ستوفر لي السلوى التي أنا بحاجة إليها في الوقت الحاضر

ولا أجدها في حجر كبارما؛ لن أبقى إلا لأنال يد الأميرة آزونا الخ. الخ. طال الحديث كثيراً بهذا المعنى. وبينما كان راسي ينهض، قال الكونت بلا مبالاة.

ـ أنت تعرف اشاعات أن فابريس كان يخونني لكونه أحد عشاق الدوقة؛ لا أرضى أبداً بهذه الشائعة، ولكي أكذبها أريدك تعطي كيس الدراهم إلى فابريس.

ـ ولكن، يا سيدي الكونت، قال راسي هلعاً، وهو ينظر إلى كيس الدراهم، فيه مبلغ ضخم، والقوانين.

ـ عندك أنت، يا عزيزي، يبدو ضخماً، أردف الكونت، بازدراء تام. يعتقد بورجوازي من أمثالك، أنه يخرب نفسه بإرساله دراهم لصديق له في السجن: أريد أن يتلقى فابريس هذه الستة آلاف فرنك. وألا يعرف القصر بهذه الارسالية.

ولما كان راسي هلعاً يريد أن يجيب، أغلق الكونت عليه الباب بنفاذ صبر. وقال في نفسه: لا يرى هؤلاء الناس السلطة إلا وراء الوقاحة.

بعد هذا، قام الوزير بعمل مضحك ننقله بشيء من الصعوبة: ركض إلى مكتبه وأخذ منه رسماً مصغراً للدوقة، وغطاه بالقبلات الولهى. كان يصيح: عذراً، يا ملاكي العزيز، إذا كنت لم أرمِ من النافذة هذا المدّعي الأحمق يجرؤ أن يتكلم

عليك بهذه الدالة ـ وإذا تصرفت بهذا الصبر المفرط، فلكي أطيعك! لن يخسر شيئاً بالانتظار!.

بعد حديث طويل مع الرسم، وكان يشعر أنّ قلبه ميت في صدره خطر للكونت القيام بعمل مضحك، واستسلم له بمسارعة الأطفال. طلب إعطاءه ثوباً مموهاً وقام بزيارة للأميرة العجوز آزوتا؛ وهو لم يزرها طيلة حياته، إلا يوم عيد رأس السنة. وجدها محاطة بعدد كبير من الكلاب، ولابسة كل حلاها وحتى ماساتها كما لو أنها كانت ذاهبة إلى البلاط، أبدى الكونت بعض التخوف من أن يفسد مشاريعها إذ كانت مزمعة على الأرجح أن تخرج، فأجابت الوزير: على أميرة بارما أن تبقى دوماً هكذا. لأول مرة منذ مصيبته، عرف الكونت قليلاً من المرح، قال في نفسه: أحسنت بالظهور هنا. ومنذ اليوم يجب أن أبوح لها بحبّي. سرّت الأميرة جداً لزيارة رجل بهذه الشهرة. لم تكن العجوز المسكينة معتادة على مثل هذه الزيارات. بدأ الكونت بمقدّمة ماهرة متعلّقة بالفارق الشاسع الذي سيفرّق طويلاً بين نبيل وأفراد العائلة المالكة.

ـ ثمة تمييز يجب أخذه في الاعتبار فابنة ملك فرنسا، ليس لها أمل بالوصول إلى التاج؛ ولكن الأمور لا تجري هكذا في أسرة بارما ـ ولهذا السبب نحن آل فارنيز يجب أن نحافظ على بعض من كرامتنا في مظهرنا الخارجي، وأنا الأميرة المسكينة أمامك،

يستحيل أن تصبح يوماً رئيس وزرائي.

هذه الفكرة، بغرابتها غير المتوقعة وفّرت للكونت لحظة أخرى من البهجة التامة.

لدى خروجه من عند الأميرة آزوتا التي احمرت وجنتاها كثيراً من الخجل لما سمعت اعتراف حب رئيس الوزراء، التقى بواحد من محاسبي تجهيزات القصر: كان الأمير يطلبه على جناح السرعة.

- أنا مريض، أجاب الوزير مبتهجاً لأن يقوم بعمل لا أخلاقي مع أميره. آه! أنت تفقدني صبري، صاح بغضب، وتريد أن أخدمك! ولكن أعلم، يا أميري، لم يعد استمداد السلطة من الله كافياً في هذا العصر، بل يجب التمتع بكثير من النباهة وبخلق رفيع لينجح الملك في أن يكون طاغية.

بعد أن صرف محاسب تجهيزات القصر الذي أثارت استنكاره الصحة التامة يتمتع بها هذا المريض، وجد الكونت ممتعاً، أن يذهب ويرى رجلي البلاط اللذين كان لهما النفوذ الأقوى على الجنرال فابيو كونتي. وما كان يخيف الوزير خاصة ويحرمه من كل شجاعة أنّ حاكم القلعة كان متهماً بأنه تخلّص في السابق، من نقيب، هو عدوه الشخصي، بواسطة ماء بيروز.

كان الكونت يعرف أن الدوقة نثرت منذ ثمانية أيام، مبالغ

طائلة لكي تجد لها أعواناً في القلعة؛ ولكن كان حظها بالنجاح ضئيلاً. جميع الأعين لا تزال يقظة تماماً. لن نخبر القارىء جميع محاولات الرشوة جربتها هذه المرأة البائسة. كادت تيأس. وكان أعوان من كل الأنواع، مخلصون كل الاخلاص، يساعدونها. ولم يكن سوى نوع واحد يؤدونه على أفضل ما يمكن، في بلاطات الملوك الطغاة، حراسة السجناء السياسيين. لم ينتج عن ذهب الدوقة سوى صرف ثمانية أو عشرة رجال من القلعة ومن كل الرتب الباقية.

١٨

لم تستطع الدوقة ورئيس الوزراء ان يقدما للسجين سوى خدمات طفيفة، بالرغم من اخلاصهما له. كان الأمير شديد الغضب والبلاط والعموم حانقين على فابريس، ومبتهجين بأن يحصل له مكروه... فهو سعد كثيراً في حياته.

لم تتمكن الدوقة ان تتقدم خطوة في خصار القلعة رغم الذهب نثرته بكرم؛ فلم يكن يمر يوم دون أن يكون لدى الدوقة رافرسي أو الفارس رسكادا تنبيه جديد يوجهانه إلى الجنرال فابيو كونتي. كانا يساندانه في ضعفه.

اقتيد فابريس، يوم سجنه، إلى قصر الحاكم: كان بناءً جميلاً شيّد في الجيل الماضي بموجب تصاميم فانفيتلّي، جعله على مائة

وثمانين قدماً، على شرفة البرج المستدير الفسيح. كان فابريس يكتشف الريف والألب في البُعد من نوافذ هذا القصر المنعزل على ظهر البرج الضخم كحدبة الجمل؛ كان يشاهد، عند أسفل القلعة، مجرى البارما، وهو مجموع من الجداول الشتوية ينعطف إلى اليمين، على أربعة فراسخ من المدينة، ويصبّ في نهر البو. من الجانب الآخر لضفة النهر الشمالية، وهي كسلسلة من البقع البيضاء الضخمة وسط الحقول المخضوضرة، كانت عينه المفتونة تلمح بوضوح قمم الجدار الضخم الذي يتألف من جبال الألب في شمالي إيطاليا. هذه القمم المغطاة بالثلوج، حتى في اب، شهرئذٍ، تعطي بعض النداوة بالذكرى وسط هذه الحقول المحرقة؟ والعين تتبع أقلّ تفاصيلها نحو ثلاثين فرسخاً من قلعة بارما.

يحجب برج فارنيز، عند زاوية إلى الجنوب، منظر قصر الحاكم، الجميل الرحب، كانوا يجهزون فيه بسرعة غرفة فابريس، هذا البرج الثاني، كما يتذكر القارىء ربما، شُيِّد عند مصطبة البرج الكبير على شرف ولي العهد الذي يختلف تمام الاختلاف عن هيبوليت بن تيزي، إذ انه لم يرفض ألطاف زوجة ابيه الشابة. ماتت الأميرة بعد بضع ساعات على ولادته ولم يستعد ابن الأمير حريته الاسبعة عشر عاماً بعد ذلك، عندما اعتلى العرش لدى وفاة والده. برج فارنيز هذا، حيث أصعد فابريس بعد ثلاثة أرباع الساعة، قبيح المنظر جداً من الخارج، يرتفع خمسين قدماً فوق مصطبة البرج الكبير المزوّد بعدد كبير من

واقيات الصواعق. كان الأمير مستاءً من زوجته شادت هذا السجن يُرى من كل الجهات، فطْمح بإقناع رعاياه إنه كان موجوداً منذ سنوات طويلة: ولهذا السبب فرض عليه اسم برج فارنيز. كان يمنع الكلام على هذا البناء وكل أقسام بارما والسهول المجاورة. وكان الاهلون يرون البنائين يركزون الحجارة في هذا البناء الخماسي الاضلاع. ولكي يثبت أنه كان قديماً، وُضع فوق باب، عرضه قدمان وطوله أربعة أقدام، نقش ممتاز يمثل الكسندر فارنيز، الجنرال المشهور. وهو يجبر هنري الرابع على الابتعاد عن باريس. برج فارنيز هذا، في موقع بهذه الروعة، يتألف من طابق سفلي طوله أربعون خطوة على الأقل وعريض ومملوء بأعمدة ربعة، اذ هذا البناء المفرط في الطول لا يبلغ علوه أكثر من خمسة عشر قدماً. يشغله مركز الحراسة، ويرتفع من الوسط درج يدور حول أحد الاعمدة، سلم حديدي صغير، خفيف جداً، عرضه قدمان بالكاد، مصنوع من الفتائل المعدنية. وصل فابريس عن طريق هذا الدرج الّذي يهتز تحت ثقل الحراس يواكبونه إلى غرف فسيحة علوها أكثر من عشرين قدماً. كانت قديماً مؤثثة ببذخ ومعدة لسكن الأمير الفتي قضى فيها سبع عشرة سنة من أجمل سني حياته. في أحد اطراف هذه الغرفة دلوا السّجين الجديد على مصلى من الجلال والروعة. ويغطي الرخام الأسود الجدران والقبة، اعمدة سوداء من أضخم الاحجام مرصوفة صفوفاً على طول الجدران السوداء دون أن

تمسها؛ وهذه الجدران مزيّنة بعدد من التماثيل الرخامية البيضاء ذات أحجام ضخمة محفورة حفراً أنيقاً، ومركّزة على عظمين متصالبين. هذا هو اكتشاف الكراهية التي لا يمكن أن تقتل، قال فابريس في نفسه، وأية فكرة شيطانية وراء عرض هذا عليّ! يوصل سلم مصنوع من فتائل معدنية؛ خفيف جداً، ومركز حول عمود، إلى الطابق الثاني من هذا السجن. وفي غرف هذا الطابق، تعلو خمسة عشر قدماً تقريباً، كان الجنرال كونتي منذ سنة تقريباً يثبت عبقريته. في بادىء الأمر، احيطت نوافذ الغرف بحواجز مشبكة ومتينة. أكثر من ثلاثين قدماً عن البلاط الحجري الّذي يؤلّف مصطبة البرج الكبير المستدير. الوصول إلى هذه الغرفة من ممر مظلم وسط البناء، ولكلّ من الغرف نافذتان. لاحظ فابريس في هذا الممر الضيق جدّاً، ثلاثة أبواب حديدية متلاصقة، مصنوعة من قضبان ضخمة ترتفع حتى ألقبة. إنّ التصاميم والتقاطيع والتنفيذ لكل هذه الاكتشافات، اكسبت الجنرال مواجهة مع سيّده كلّ أسبوع، لمدة سنتين. ولن يستطيع متآمر مسجون في إحدى هذه الغرف، رفع شكواه إلى الرأي العام، كونه يعامل بطريقة لا انسانية، ومع ذلك لن يستطيع الاتصال بأي انسان في العالم، أو القيام بأية حركة دون أن يسمع. كان الجنرال وضع في كل غرفة رافدة من السنديان، كأنها مقعد علوه ثلاثة أقدام. وكان هذا، اكتشافه الأهم الذي منحه حقوقاً في تولي وزارة الشرطة. أقام على هذه المقاعد

الخشبية كوخاً من ألواح خشبية، رنانة، على علو عشرة أقدام، لا تلامس الجدار إلا من ناحية النوافذ. وكان من الجهات الثلاث الأخرى ممرّ صغير عرضه أربعة أقدام، بين جدار السجن الأساسي، المكوّن من حجارة بناء ضخمة، والجدران الداخلية من ألواح الكوخ. هذه الجدران في أربعة صفوف مزدوجة من ألواح الجوز والسنديان والتنبوب، مشدودة إلى بعضها البعض بواسطة محاذف حديد كبيرة ومسامير كثيرة.

أُدخل فابريس واحدة من هذه الغرف المشادة قبل عام. حملت اسم غرفة «الطاعة السلبية». ركض إلى النوافذ؛ كان المنظر رائعاً: زاوية واحدة صغيرة من الأفق محجوبة من الشمال الغربي بسقف قصر الحاكم المقبب من طابقين؛ في السفلي مكاتب القيادة، جذبت انظار فابريس في بداية الأمر واحدة من نوافذ الطابق الثاني، حيث عدد كبير من العصافير المتنوعة في اقفاص جميلة. كان فابريس يتسلّى بسماعها تزقزق، وبمرآها تحيي أواخر غسق المساء، بينما كان الحراس حوله. لم تكن نافذة المطيرة هذه، على اكثر من خمسة وعشرين قدماً من إحدى نافذتيه، على انخفاض خمسة أو ستة أقدام إلى أسفل ويشرف منها على العصافير.

كانت الليلة قمراء يومئذ، ولحظة دخل فابريس السجن، كان القمر يشرق بجلال عند الافق إلى اليمين، فوق سلسلة جبال

الألب، باتّجاه تريفيز. الساعة الثامنة والنصف مساء، ومن الناحية الأخرى للأفق، عند المغرب، غسق متلألىء، أحمر ليموني، يرسم على حدود جبل فيزو وباقي شعاف الألب المتجهة صعداً من نيس نحو جبل سنيس وتورينو؛ دون أن يفكر فابريس بمصيبته اطلاقاً، تأثر بهذا المشهد الرائع. إذن كليليا كونتي تحيا في هذا العالم الرائع! يجب أن تتمتع بهذا المنظر أكثر من أي شخص آخر بفضل روحها الرزينة؛ الناس هنا كما في جبال معزولة على مائة فرسخ من بارما. وصاح فابريس فجأة: هذا سجن؟ هذا ما خشيته كثيراً؟ بعد انقضاء ساعتين عليه واقفاً أمام النافذة يتأمّل هذا الأفق مستقراً ببصره على قصر الحاكم. وعوضاً من أن يرى مضايقات عند كلّ خطوة، وسبب مرارة، استسلم لسحر عذوبة السجن.

جذبت انتباهه إلى الواقع ضجة مخيفة. ارتجت غرفته الخشبية التي كالقفص. كان نباح الكلب وأصوات حادة تكلّل هذه الضجة الغريبة. فكر فابريس: هل سأتمكن من الهرب عما قريب! بعد لحظة، كان يضحك كما لا أحد في أي سجن آخر. بأمر من الجنرال أُصعِد كلب انكليزي مع الحراس، شرس، مولج بحراسة السجناء الهامين. كان عليه أن يقضي الليل في الفسحة المعدّة بمهارة بين حجارة الأرض الأساسية، وأرضية البيت الخشبية، بحيث لا يتمكن السجين أن يخطو خطوة دون أن يُسمع.

كان يشغل غرفة «الطاعة السلبية» مائة من الجرذان الضخمة عند وصول فابريس اليها، فهربت إلى كل الاتجاهات. لم يكن الكلب، جميلاً قط، ولكنه خفيف الحركة. كان ربط إلى الحضيض المصنوع من الحجارة تحت الأرضية الخشبية، ولكنه لما شعر بمرور الجرذان حدّه، بذل جهوداً خارقة حتى توصّل أن يخرج رأسه من طوقه؛ عندئذ حدثت هذه المعركة الرائعة أيقظت ضوضاؤها فابريس السابح وراء أحلام فرحة. التجأ الجرذان إلى الغرفة الخشبية. تسلق الكلب وراءها الدرجات الست من الأرضية الحجرية إلى كوخ فابريس. عندئذ بدأت جلبة أكثر ارهاباً من الأولى. كان الكوخ يهتزّ حتى اساساته، وفابريس يضحك كالمجنون، حتى بكى لفرط ما ضحك: لم يقلّ السجان غريو بشاشة عن فابريس. فأوصد الباب. لم يكن يضايق الكلب، وهو راكض وراء الجرذان أية قطعة أثاث أذ الغرفة كانت عارية تماماً؛ إلا من مدفأة في إحدى الزوايا. لما انتصر الكلب على كل اعدائه، ناداه فابريس ودغدغه ونجح في أن يحببه به. وقال في نفسه: إذا رآني مرّة أقفز فوق الجدران فلن ينبح. ولكن هذه السياسة الرفيعة كانت ادعاء من ناحيته: كان يجد سعادته، بحالته النفسية هذه، في ملاعبة الكلب. كان مرح خفي يسيطر عليه، بغرابة لم يفكر بها، بعد أن ضاق نفسه من الركض وراء الكلب.

قال فابريس للسجان: ما اسمك؟

ـ غريو، في خدمة سموك، بكلّ ما ليس ضد القوانين.

ـ شاء واحد اسمه جيليتي اغتيالي على طريق هامة، دافعت عن نفسي وقتلته، وسأقتله مرة أخرى لو كان عليّ أن افعل. ولكن أريد أن أكون سعيداً طالما أنا ضيفك. أطلب الأذن من رؤسائك واذهب إلى قصر سنسفرينا واطلب ألبسة داخلية واشتر لي كثيراً من نبيذ آستي.

هو نبيذ فوّار، على شيء من الجودة يصنع في البيمونت، وطن الغييري، ويقدّره الهواة والسجانون. كان سبعة أو ثمانية من هؤلاء منهمكين بنقل بعض الأثاث القديم المذهّب يأخذونه من شقة الأمير في الطابق الأوّل، إلى غرفة فابريس فدهشوا لنبيذ آستي. كانت اقامة فابريس تلك اللّيلة الأولى، بالرغم من كلّ ما امكنهم عمله، تدعو للرثاء. بدا لم يغتظ إلا من فقدان زجاجة النبيذ الجيّد. يبدو طيب القلب. ـ قال السجانون وهم ينصرفون... وليس سوى أمر واحد نتمناه: أن يدعه سادتنا يتلقى المال.

عندما أصبح وحيداً، وارتاح من الجلبة: قال في نفسه هل يكون هذا سجناً وهو يطلّ على هذا الأفق الشاسع من تريفيز حتى جبل فيزو، السلسلة الممتدّة من جبال الألب، القمم المغطاة بالثلج، النجوم الخ... وبالاضافة إلى هذا كله، ليلة أولى في السجن! أدرك أن كليليا كونتي تعجب بهذه الوحدة في

الهواء الطلق؛ الانسان هنا على ألف فرسخ فوق الصغارات والرداءات في هذا العالم. إذن، هذه الطيور هنا تحت نافذتي تخصّها. سأراها... هل ستحمرّ خجلاً وهي تراني؟ غفا السجين في ساعة متأخرة من الليل وهو يفكّر في هذه المسألة.

منذ اليوم التالي اضطر فابريس أن يتحدث مع فوكس، الكلب الانكليزي. كان غريو السجان يظهر له كلّ لطف، إلاّ أمراً جديداً صدر، يخرسه: فلم يعد يجلب لا بياضاً ولا نبيذاً.

هل سأرى كليليا؟ قال فابريس وهو يستيقظ. هل هذه العصافير لها؟ بدأت العصافير تصدر صيحات قصيرة وتزقزق، وفي مثل هذا العلو كانت الجلبة الوحيدة في الفضاء، فإذا بهذا الصمت الفسيح يخيم على هذا العلو: شعور من فابريس بالجدة واللذة. كان يصغي، بغبطة، إلى هذه الزقزقة المتواصلة والحادة، تحيّي بها العصافيرُ جيرانُه، طلوعَ النهار. إذا كانت تخصها، ستظهر لحظة، في هذه الغرفة، هنا تحت نافذتي؛ قالها وهو يتفحص سلاسل الألب الضخمة، تجاهَ الطابق الأول تبدو منها قلعة بارما ترتفع كبناء متقدم. كانت أنظاره تعود في كل لحظة إلى الأقفاص من خشب اشجار الحامض والأكاجو المزينة بخيوط مذهبة ترتفع وسط الغرفة المنورة. وما لم يعرفه فابريس إلا لاحقاً، أن هذه الغرفة كانت الوحيدة في الطابق الثاني من القصر يغمرها الظل من الحادية عشرة إلى الرابعة؛ كان برج فارنيز يحجبها عن الأنظار.

قال فابريس في نفسه: كم ستكون كآبتي شديدة إذا طالعني وجه وصيفة عادية جداً، مكلفة بالعصافير، عوضاً عن هذا الوجه الملائكي الحالم الذي انتظر وسيحمرّ خجلاً ربما إذا ما رأتني.

ولكن إذا رأيت كليليا، هل تتكرم وتراني؟ عليّ التّطفل لكي تلاحظني. يجب أن يكون لوضعي بعض الامتيازات؛ نحن الاثنان وحيدان هنا، بعيداً جداً عن العالم! انني سجين، وهذا ما يدعوه الجنرال كونتي والاشقياء الأخرون من نوعه واحداً من مرؤوسيهم... ولكنها تتمتع بقدر كبير من العقل والخلق، حتى تحتقر مهنة والدها. من هنا تنبع كآبتها! ما أنبل سبب الغم! ولكن، مع هذا كله، لست غريباً في عينيها. بأي لطف مليء بالتواضع، حيتني البارحة مساء! اتذكر اثناء لقائنا بالقرب من كوم، قلت لها: ذات يوم سآتي لأرى لوحاتك في بارما: استتذكرين هذا الاسم: فابريس دل دونغو؟ تراها نسيته؟ كانت على قدر كبير من الصبا آنذاك! ولكن ، قال فابريس في نفسه مدهوشاً، وهو يقطع فجأة مجرى تفكيره، إنسى ان أكون غاضباً! هل أكون واحداً من هؤلاء الأبطال العظام أعطت العصور القديمة بعض النماذج عنهم للعالم؟ هل أنا بطل ولا أعرف نفسي؟ كيف! كنت أخشى السجن إلى حد كبير، وأنا موجود داخل السجن، ولا أتذكر أني حزين! هذا أوان القول: الخوف كان مائة مرة أسوأ من السجن. ماذا! هل أنا بحاجة

لإقناع نفسي بالحجّة والمنطق لكي أكون حزيناً بسبب هذا السجن، الذي كما يقول بلانيس قد يدوم عشر سنوات كعشرة أشهر؟ أتكون الدهشة من كل إقامة جديدة هي التي تسلّيني عن الهمّ الذي يتوجب أن أشعر به؟ ربما، انشراح صدري الخارج عن إرادتي وغير المناسب، سيختفي فجأة، وفي لحظة، سأسقط في المصيبة السوداء التي يجب أن أشعر بها.

على أية حال، غريب جداً أن يكون الانسان في السجن ويكون عليه أن يقنع نفسه ليكون حزيناً! أعود إلى افتراضي الأول: ربما أتمتع بمتانة في الخلق.

قطع أحلام فابريس وصول نجار القلعة جاء لأخذ قياسات مصاريع النوافذ التي نسوا إكمالها في هذا القسم الأساسي.

هكذا، قال فابريس في نفسه، سأحرم من هذا المشهد الرائع. وكان يجرب أن يحزن بسبب هذا الحرمان.

صاح فابريس، محدثاً النجار: إيه! ماذا! لن أرى بعد اليوم هذه العصافير الجميلة؟

ـ آه! عصافير الآنسة التي تحبها كثيراً! قال هذا الرجل بطيبة قلب! مخبأة، محجوبة، مبادة ككل شيء.

كان التحدث مع النجار ممنوعاً، كما مع حراس السجن، ولكن هذا الرجل أشفق على شباب فابريس: فأخبره أن هذه

المصاريع ستوضع على متكآب النافذتين وبعيدة عن الجدار ارتفاعاً، كي لا تترك للمساجين سوى رؤية السماء. يفعلون هذا من أجل المحافظة على الأخلاق، قال له أخيراً، لكي تزداد في نفوسهم الكآبة الشافية والرغبة في إصلاح الذات؛ وأضاف النجار: اخترع الجنرال أيضاً نزع زجاج النوافذ واستبداله بورق مزيت.

أحب فابريس كثيراً هذا الحديث التهكمي النادر في إيطاليا.

ـ أود كثيراً، أن أحصل على عصفور، يساعدني على تخفيف ضجري. أحب العصافير حتى الجنون؛ اشتر لي واحداً من وصيفة الآنسة كليليا كونتي.

صاح النجار، ماذا! اتعرفها، حتى تحسن حفظ اسمها؟

ـ ومن لم يسمع بالتحدث عن هذا الجمال المشهور؟ كان لي شرف الالتقاء بها مرات في البلاط.

ـ هذه الآنسة المسكينة تتضجّر كثيراً هنا، أضاف النجار! تقضي حياتها مع العصافير. اشترت هذا الصباح، برتقالاً جميلاً، وضع بأمر منها عند باب البرج، تحت نافذتك؛ ولولا الإفريز لأمكنك مشاهدته. كان لفابريس، في هذا الجواب كلمات ذات مغزى. فوجد طريقة لطيفة لإعطاء النجار بعض المال.

ـ ارتكبت خطأين دفعة واحدة، قال لـه هذا الـرجل، أن حـدث سموك وأتلقّى المال. بعد غد، عندما سأعود من أجل لمصـراع، سيكـون في جيبي عصفـور، وإذا لم أكن وحـدي سأتظاهر بإطلاقه: بل إذا تمكنت سأجلب لك كتاب صلوات: يجـب أن تتألم كثيراً لعدم استطاعتك تلاوة فروضك الدينية.

هكـذا، قال فـابريس في نفسـه إذا أصبحَ وحيـداً، هـذه لعصافير لها ولكني لن أراها قط بعد يومين! عند هذه الفكرة تخـذت عيناه لـون الأسى. نحو الـظهر، بعـد انتظار طـويل نظرات لا حصر لها، أتت كليليا للاهتمام بعصافيرها. بقي ابريس جامداً، دون تنفس. كان واقفاً قريباً من قضبان نافذته لضـخمة. لاحظ أنها لا ترفع أنظارها إليه، ولكن حركاتها كانت بدو مضطربة جداً، كمن يشعر انه يُنظر إليه. ولو ارادت الفتاة لمسكينة، لما كان باستطاعتها أن تنسى البسمة اللطيفة تتيه على ـفتي السجين، عشية البارحة، لحظة كان يصطحبه رجال درك ركز الحراسة.

ومع أن كليليا كما يبدو تسهر على تصرفاتها، باهتمام بالغ، حمرّت وجنتاها بشكل ملحوظ، لحظة اقتربت من نافذة المطيرة. ولى أفكار فابريس، الملتصق بقضبان النافذة، كان القيام بعمل صبياني: يضرب بيده على هـذه القضبان، فـاسيحدث صـوتاً ضعيفاً؛ ثم، فكرة عدم رهافة الذوق، أرعبتـه. استحق ان

ترسل وصيفتها خلال ثمانية أيام للاعتناء بالعصافير. ولما كانت خطرت بباله هذه الفكرة اللطيفة في نابولي أو نوفار.

بشوق كان يتبعها بعينيه ويقول في نفسه: أكيداً ستذهب دون أن تتكرّم بإلقاء نظرة على هذه النافذة المسكينة. مع انها قبالتي تماماً. ولدى عودتها داخل الغرفة، كان فابريس من موقعه الأكثر علواً، يراها بوضوح، فلم تتمكن كليليا الامتناع من النظر إليه، بطرف عينيها، وهي تمشي. وكان هذا كافياً ليعتقد أن تحيّتها مسموحة. قال مشجعاً نفسه: ألسنا وحدنا هنا في العالم؟ لدى تلك التحية، بقيت الفتاة جامدة، وخفضت عينيها؛ ثم رآها فابريس ترفعهما إليه ببطء، وهي تبذل جهداً على نفسها، بحركة من أرض الحركات وأشدها تحفظاً، ولكنها لم تتمكّن أن ترغم عينيها على الصمت؛ فعبَّرا عن شفقة في منتهى العمق، دون أن تدرك هذا الأمر: لاحظ فابريس احمرار وجنتيها بقدر كبير، وكانت المسحة الوردية تمتدّ بسرعة حتى أعلى الكتفين الّتين أبعدت الحرارة عنهما، شال الدنتيلا الأسود. لدى دخولها المطيرة.

النظرة العفوية ردّ بها فابريس التحية، ضاعفت من اضطراب الفتاة. كم ستكون هذه المرأة التعيسة، كانت تقول وهي تفكر بالدوقة، سعيدة لو كانت تتمكن أن تراه كما أراه، لحظة واحدة فقط! تأمل فابريس أملاً ضعيفاً بان يحييها مرة ثانية عند ذهابها؟

ولكن، كي تتحاشى بادرة التهذيب الجديدة هذه، تراجعت تدريجياً بفن، من قفص إلى قفص كما لو كان عليها في النهاية ان تهتم بالعصافير الموضوعة أقرب ما يكون من الباب. وخرجت أخيراً؛ فبقي فابريس جامداً ينظر إلى الباب: كان رجلاً آخر.

منذ تلك اللحظة، غدا الموضوع الوحيد لتفكيره: كيف التوصل إلى متابعة رؤيتها بعد أن يوضع المصراع أمام النافذة التي تشرف على مقر الحاكم.

البارحة مساء قبل النوم، فرض على نفسه السأم الطويل باخفاء معظم القسم من الذهب، في عدة ثقوب للجرذان في غرفته الخشبية. يجب، أن اخبىء ساعتي هذا المساء. ألم أسمع ما قيل، أنه مع الصبر وزنبرك مثلوم، يمكن قطع الخشب وحتى الحديد؟ أتمكن إذن أن أنشر هذا المصراع. إخفاء الساعة دام ساعتين، ولم يبد له طويلاً؛ كان يفكر بالطرائق المختلفة للوصول إلى هدفه، وإلى ما كان يعرفه من أعمال النجارة. إذا عرفتُ كيف أتصرف، كان يقول في نفسه، سأقطع قسماً من لوح السنديان في القسم الذي يرتكز على مسند النافذة. سأنزع هذا القسم وأعيده حسب الظروف؛ وسأعطي كل ما أملك إلى غريو حتى يتجاهل هذه اللعبة الصغيرة. باتت سعادة فابريس معلقة على إمكان تنفيذ هذا العمل. ولم يكن يفكّر بأيّ شيء آخر: إذا توصلت فقط أن أراها أكون سعيداً كلا، قال في

نفسه؛ يجب أن ترى أني أراها. امتلأ رأسه، طيلة اللّيل باختراعات النجارة، ولم يفكر مرة واحدة ببلاط بارما، ولا بغضب الأمير الخ. . ولا بالعذاب الذي قد يغمر الدوقة. كان ينتظر اليوم التالي، ولكن النجار لم يعد. اعتبر ليبيراليا في السجن؟ فأرسل آخر، متجهم الخلقة، لم يجب إلا بدمدمة، نذير شؤم، عن الاسئلة اللطيفة التي كان يسعى فابريس أن يوجهها إليه. اكتشف عملاء المركيزة رافرسي العديدون محاولات الدوقة للاتصال بفابريس عن طريق المراسلة. وبواسطة رافرسي كان الجنرال فابيو كونتي مطلعاً، مروّعاً ومغاظاً في اعتزازه بنفسه يومياً: يتناوب الحراسة ستة حراس كل ثماني ساعات، في الغرفة ذات المائة عمود من الطابق الأول، اضافة إلى أن الحاكم وضع حارساً أمام كل باب من الأبواب الحديدية الثلاثة المتتابعة في الممر، وغريو المسكين، الوحيد الذي رأى السجين، حكم عليه ألّا يخرج من برج فارنيز سوى مرّة كل ثمانية أيام، اغتاظ جداً من هذا الأمر، ولم يخف تبرمه عن فابريس الذي كانت له الفطنة، فلم يجب إلا بهذه الكلمة: كثير من خمرة آستي، يا صديقي. واعطاه بعض المال.

ـ حسناً! صاح غريو غاضباً، وبصوت منخفض تمكن السجين أن يسمعه بصعوبة، حتى هذا الذي يعزينا عن كل الشرور يمنعوننا من الحصول عليه. كان يجب أن أرفض هذا المال. ولكنه آخذه! مال ضائع! لا أملك أقول لك شيئاً عن أي

شيء. يجب أن تكـون مذنبـاً كبيـراً. القلعـة انقلبت كلهـا بسببك؛ مكائد الدوقة تسببت حتى الآن بصرف ثلاثة منا.

هل سيكون المصراع جاهزاً قبل الظهر؟ هـذا هو السؤال الذي جعل قلب فابريس يضطرب خلال هذه الصبحية! كان يحسب كلّ أرباع الساعة تدق في ساعة جدار السجن. أخيراً لم يكن المصراع وصل، بينما الثلاثة أرباع تدق بعد الحادية عشرة. ظهرت كليليا ثانية تهتم بعصافيرها. جعلت الحاجة الملحة جرأة فابريس تخطو خطوات واسعة، وكان الخطر بعدم مرآها يبدو فوق كل شيء، حتى أنه تجرأ، وهو ينظر إلى كليليا على القيام باشارة من أصبعه تعني انه يريد أن يقطع المصراع؛ حيّت نصف تحيـة وانصرفت فـوراً بعد أن لمحت إشـارة التمـرد هـذه في السجن.

إيه! ماذا؟ قال فابريس في نفسه مدهوشاً أتكون قليلة الفطنة حتى ترى في دالة مثيرة للسخرية إشارة املتهـا علي ضـرورة ملحة؟ كنت أريد أرجوها أن تتكرم دائماً، وهي تهتم بالعصافير، أن تنظر بعض المرات إلى نافذة السجن حتى عندما تراها محجوبة بمصراع خشبي كبير؛ كنت أريد أقول لها أنني سأقوم بكل ما هو ممكن للتوصل إلى مرآها. يا إلهي! ألن تأتي غداً بسبب هذه الاشارة غير المتحفظة وغير الرصينة. هذه الخشية أقلقت نوم فابريس وتحققت. في اليوم التالي، لم تظهر كليليا حتى الساعة

الثالثة، بعدما انتهوا من وضع المصراعين الضخمين أمام النافذتين؛ وركزت أقسامها المختلفة، بدءاً من شرفة البرج بواسطة حبال وبكر مربوطة من الخارج، إلى قضبان حديد النافذتين. صحيح أنها محتجبة وراء مغلق نافذة غرفتها. تابعت بحزن كل تحركات العمال؟ رأت قلق فابريس، ولكن خانتها الشجاعة في الحفاظ على الوعد الذي أخذته على نفسها.

كانت كليليا متعصبة لليبيرالية. وكانت في شبابها الأول أخذت، جديةً، كلّ الأحاديث عن الليبيرالية التي كانت تسمعها في مجتمع والدها، الذي لم يكن يفكر إلا بالحصول على مركزا بدأت تحتقر حتى الكره ميزة رجال البلاط. من هنا كان كرهها للزواج. منذ وصول فابريس، كان الندم يعذبها. تقول في نفسها: هكذا يميل السافل مع الذين يريدون خيانة أبي! يجرؤ بأن يشير إلي أنه يريد أن ينشر باباً! . . . ولكن، قالت في نفسها متأسفة، تتكلم المدينة بكاملها على موته القريب! قد يكون غداً اليوم المشؤوم! أي شيء ليس ممكناً مع المسوخ الذين يحكموننا! أيّ لطف، أيّ صفاء شجاع في عينيه اللتين ستغمضان! يا لله! كم يجب أن تكون أحزان الدوقة! يقال أنها في حالة يأس مريرا سأذهب بنفسي وأقضي على الأمير بطعنة خنجر كشارلوت كورداي الشجاعة.

غضب فابريس غضباً يتجاوز الحد، خلال اليوم الثالث

لسجنه: لم ير كليليا تظهر ثانية. غضب في مواجهة غضب: كان يجب أن أبوح أني أحبها، قال بعدما يتوصل إلى اكتشاف هذا الأمر. كلا. ما عن سمو نفس لا أفكر بالسجن؟ إني أكذب نبؤة الأب بلانيس. لا أتمتع بهذا القدر من الشرف. أفكر بنظرة الشفقة غمرتني بها كليليا عندما كان يقودني رجال الدرك من مركز الحراسة. هذه النظرة محت كل حياتي الماضية. من كان يقول لي أني سأصادف عينين بهذا اللطف في مكان كهذا! وفي الوقت الذي كانت نظراتي متسخة بوجه باربون ووجه الحاكم العام، ظهرت السماء بين هذه الكائنات الحقيرة. وكيف العمل كي لا أحب الجمال والسعي لأرى كليليا؟ كلا ليس من سموّ النفس في شيء أن أكون لا مبالياً بكل المضايقات التي يثقلني بها السجن. استعرض فابريس كل الاحتمالات حتى وصل إلى احتمال منحه الحرية. ستقوم صداقة الدوقة بالمعجزات من أجلي. لن أشكرها على منحي الحرية إلا من طرف شفتي. ليست هذه الأماكن من التي يعودون إليها؛ وحين أصبح خارج السجن بعيداً عن المجتمعات لن أعود أرى ابداً كليليا! أي أذى ينالني من السجن؟ لو أن كليليا تتكرّم ولا ترهقني بنير غضبها. ماذا يبقى لي أن أطلب من السماء؟.

مساء هذا النهار، ولم ير جارته الجميلة، خطرت له فكرة عظيمة: بواسطة صليب المسبحة الحديدي يوزعونها إلى جميع المساجين لدى دخولهم السجن، بدأ، وبنجاح، بثقب المصراع.

قال قبل أن يبدأ: قد يكون هذا العمل غير حذر. ألم يقل النجارون أمامي، أنه منذ غد سيبدلون بعمال دهانين؟ ماذا سيقول هؤلاء إذا وجدوا مصراع النافذة مثقوباً. إذا قمت بهذا العمل الطائش لن أتمكن من مرآها غداً. ماذا! بسبب خطأي سأبقى يوماً دون أن أراها وخاصة بعد أن تركتني ساخطة! تهوّر فابريس كوفيء، بعد خمسة عشرة ساعة من العمل، بأن رأى كليليا بسعادة مفرطة. كانت تعتقد أنه لا يراها، بقيت طويلاً جامدة، ونظرها مثبت على هذا المصراع الضخم؟ كان لديه الوقت الكافي ليقرأ في عينيها علامات الشفقة الأكثر حناناً. عند نهاية زيارتها، اهملت الاهتمام بالعصافير، لكي تبقى دقائق كاملة جامدة تتأمل النافذة. كانت نفسها مضطربة. تفكر بالدوقة التي أوحت لها مصيبتها العظيمة قدراً كبيراً من الشفقة، لكنها بدأت تكرهها. لم تكن تفهم شيئاً عن سبب الكآبة الحقيقية تستولي على نفسها. مرتين أو ثلاثة أثناء هذه الزيارة، نفذ صبر فابريس بسبب عدم قدرته على زعزعة المصراع؟ كان يحسّ بأنه ليس سعيداً طالما لا يستطيع أن يظهرُ لكليليا أنه يراها. مع هذا، كان يقول في نفسه، لو عَرَفت أني أراها بهذه السهولة، لكانت تتوارى. وسعد في اليوم التالي (يبني الحبُّ سعادته على أمور تافهة أحياناً!) بينها كانت تنظر بحزن إلى المصراع الضخم، فتوصل أن يدخل سلك حديد في الثقب الذي استحدثه بواسطة الصليب الحديدي، وقام بإشارات فهمتها، وتعني: أنا هنا وأراك.

لازم سوء الحظ فابريس، في الأيام التالية. كان يريد أن ينزع من المصراع قطعة خشب كبيرة بحجم اليد، يمكن إعادتها إلى مكانها حسب الارادة، وتسمح له أن يَرى وأن يُـرى، فيعبر بالاشارات، على الأقل، عما يخالج نفسه. ولكن اتفق أن صوت المنشار الصغير. غير الصالح، الذي كان كان صنع من زنبرك ساعته المثلوم بالصليب، يشغل بال غريـو الذي كـان يأتي ويصرف ساعات طويلة في غرفته. اعتقد أن جفوة كليليا بدت تخفّ فيها تزداد الصعوبات المادية التي تعترض كل اتصال بينهما. لاحظ فابريس أنها لم تعد تتظاهر بخفض عينيها أو بالنظر إلى العصافير عندما كان يسعى لاعطائها إشارة عن وجوده بواسطة قطعة السـلك الحديدي الصغير. رأى بحبور أنها لا تغيب عن الظهور في المطيرة. في الوقت المعين عندما تدق الحادية عشرة وثلاثة أرباع. افترض أنه هو سبب هذه المحافظة على المواعيد بقدر كبير من الدقة. لماذا؟ لا تبدو لي هذه الفكرة حكيمة؛ ولكن الحب يلاحظ الفوارق الدقيقة التي لا تراها العين العاديّة ويستمدّ منها خلاصات طويلة. مثلاً، منذ الوقت الذي لم تعد ترى فيه كليليا السجين، لدى دخولها إلى المطيرة، كانت ترفع، تقريباً فوراً، نظرها نحو نافذته. كان ذلك إبان تلك الأيام المفجعة، حين لم يعد أحد، في بارما، يشك أن حكم الاعدام سينفذ بفابريس: وحده كان يجهل الأمر، ولكن هذه الفكرة الفظيعة لم تكن تبارح مخيلة كليليا. كيف لا توجه لنفسها الملامة على شدة

اهتمامها توليه لفابريس؟ سيموت وشيكاً ومن أجل الحرية! إذ من غير المعقول أن يموت واحد من آل دونغو، بسبب ضربة سيف وجهت إلى ممثل فاشل. صحيح أنّ هذا الشاب كان عالقاً بامرأة أخرى، كانت كليليا شديدة التعاسة. ودون أن تعترف بنوع الاهتمام الذي تضمره لمصيره: كانت تقول في نفسها: إذا اقتيد إلى الموت، سأهرب حتماً إلى أحد الاديرة، ولن أظهر في مجتمع البلاط هذا طيلة حياتي. أنه يرهبني. قتلة مهذبون!

في اليوم الثامن لسجن فابريس حدث لها ما جعلها تخجل. كانت تحدق مليّاً في المصراع الذي يحجب نافذة السجين، مستغرقة في أفكارها السوداء؟ لم يكن ذلك اليوم، أعطى، بعد، أية إشارة لوجوده، نزع فابريس فجأة قطعة من المصراع، أكبر من اليد؛ ونظر إليها بحبور، ورأت عينيه تحيّيانها. لم تتمكن من احتمال هذه التجربة غير المنتظرة، فأدارت ظهرها بسرعة نحو عصافيرها وأخذت تهتمّ بها! ولكنها كانت ترتجف حتى أنها سكبت الماء الذي توزعه للعصافير، على الأرض. كان فابريس يرى تأثرها بوضوح؟ لم تتمكن من تحمل هذا الوضع فقررت الهرب ركضاً.

كانت هذه اللحظة أجمل اللحظات على الاطلاق في حياة فابريس. بأيّ فورة فرح كان رفض الحرية لو عرضت عليه في هذه اللحظة!

كان اليوم التالي يوم اليأس الكبير عند الدوقة. وكان جميع الناس متأكدين في المدينة، أنه قضي على فابـريس؛ لم تكن لكليليا الشجاعة كي تعامله بقسوة لم تكن في قلبها، فقضت ساعة ونصف في المطيرة. نظرت إلى كل الاشارات، وأجابته على الاقل بالتعبير عن الاهتمام البالغ والأكثر صدقاً؛ كانت تتركه لحظات لكي تخبىء عنه دموعها. كان يشتمّ من دلالها الأنثوي نقصاً في التعبير، لو حدث وتكلما بطريقة مختلفة لجربت أن تحزر ما هي بالضبط طبيعة عواطف فابريس تجاه الدوقـة! لم يعد باستطاعة كليليا أن تخدع نفسها: كانت تضمر الكره للسيدة سنسفرينا.

ذات ليلة فكّر فابريس جديّاً بعمته: أخذه العجب: تعرف في صعوبة على صورتها، وتبدّل الذكر الذي كان يحتفظ به عنها تماماً؟ عمرها بنظره في هذه الساعة، خمسون عاماً.

صاح بحماس: يا إلهي! كم كان الهـامي في محله، بعدم البوح لها أنني أحبها! كان وصل إلى عدم إمكانية الادراك كيف وجدها جميلة بهذا القدر. تترك ماريبيتا من هذه الناحية انطباع تبـدل أقـل بـروزاً: لم يكن تصـور بـأن لقلبـه عـلاقـة في حب ماريبيتا، بينما روحه ملك للدوقة. دوقة أر... وماريبيتا تؤثران عليه الآن. تبدوان له كحمامتين، جمـالهما في الضعف والبراءة، بينما صورة كليليا كونتي الرائعة، وهي تستولي على كل

جوانب نفسه، تصل به إلى حدود الهلع. كان يشعر تماماً بأن سعادة حياته الدائمة ستضطره أن يحسب حساباً لابنة الحاكم التي قد تجعل منه أتعس الناس. كان يخشى كل يوم، أن يشاهد نهاية هذا النوع من الحياة الفريدة والخلابة بقربها، بسبب نزوة منه لا رجوع عنها. وملأت بالسعادة مع ذلك، سجنه، منذ ذلك الحين، في شهريه الأولين.

كان ذلك عهد يقول الجنرال فابيو كونتي للأمير مرتين في الأسبوع: اتمكن أن أعطي سموك، كلمة الشرف، أن دل دونغو لا يتكلم مع أي كان، ويقضي حياته في النوم أو مرهقاً باليأس. كانت كليليا تأتي كل يوم مرتين أو ثلاثاً لترى عصافيرها وبعض المرات للحظات قليلة. لو كان فابريس لم يحبها بهذا القدر لكان شعر أنه محبوب أيضاً؛ ولكن كان عنده شكوك مميته من هذا القبيل. كانت كليليا وضعت بيانو في المطيرة، تضرب ملامسه كي تشعره انغام الآلة بحضورها. وتشغل الخفراء الذين يتنزهون. تحت النوافذ، وتجيب بعينيها عن اسئلة فابريس. لم تكن تجيب عن موضوع واحد، وحتى في المناسبات الكبرى كانت تهرب ليوم كامل، عندما كانت اشارات فابريس تدل على عواطف واضح ما فيها من بوح. كانت عديمة الرحمة من هذه الناحية.

مع انه محصور في قفص، كان فابريس منهمكاً في حل

المشكلة الهامة: هل تحبني؟ الاشارات الارادية تقول: لا، ولكن ما هو غير إرادي كحركة عينيها يدل على كونها باشرت تميل إلي.

كانت كليليا تأمل ألاّ تصل أبداً إلى اعتراف. لإبعاد هذا الخطر. رفضت بغضب رجاء فابريس عدة مرات. فقر الوسائل المستعملة من السجين أوحى لكليليا بشفقة أقوى. كان يريد أن يراسلها بأحرف يرسمها على يده بقطعة فحم اكتشفها في المدفأة؛ لكان كوّن الكلمات حرفاً حرفاً على التوالي. ولكان هذا الاختراع ضاعف طرائق المحادثة بما كان أتاح قول أشياء ذات قيمة. كانت نافذته تبعد خمسة وعشرين قدماً عن نافذة كليليا. ويتمكن من التحدث فوق رؤوس الخفر الذين يتنزهون أمام قصر الحاكم. كان فابريس يشك بأنه محبوب. لو كان عنده بعض الخبرة في شؤون الحب لما بقي في نفسه شكوك: لم تحتل قلبه امرأة أبداً. لم يكن عنده علم بخبر لكان أيأسه لو عرفه زواج كليليا كونتي من المركيز كريسنزي الرجل الأكثر غنى في البلاط.

١٩

طموح الجنرال فابيو كونتي الثائر حتى الجنون بسبب المضايقات التي تعترض رئيس الوزراء موسكا وتعلن عن سقوطه، أوصله إلى مشاحنات عنيفة مع ابنته. كان يردد لها بغضب انها تقف في وجه حظها إذا لم تقرّر اختيار نصيبها. بعمر

العشرين آن أوان هذا الاختيار. ويجب أن تتوقف حالة العزلة القاسية.

كانت كليليا لجأت إلى المطيرة، بادىء الأمـر كي تنجو من نوبات الغضب المتوالية. لم يكن يمكن الوصول إليها إلا عن طريق درج خشبي غير مريح كـان عائقاً هامـاً أمام حـاكم السجن.

منذ أسابيع، كانت نفس كليليا مضطربة، حتى لم تعرف بما كان يجب أن تشتهيه، ودون أن تعطي كلمة الحق لوالدها غدت مرتبطة من تلقاء ذاتها. كان الجنرال صاح في إحدى نـوبات غضبه، أنه سيعرف تماماً كيف يرسلها إلى أشد أديرة بارما كآبة تعاني من السأم حتى تتكرم وتقدم على الاختيار.

ـ انت تعرفين أن أسرتنا العريقة، لا تجمع ستة آلاف ليرة إيراداً بينما ثروة المركيز كريسنزي تبلغ أكثر من مائة ألف ريال في السنة. ويتفق جميع النـاس في البلاط أنـه يتمتع بـالطف الطباع. لم يشتك منه أحد أبداً؟ وسيم وشاب، يتمتع برضى الأمير، وتكون الفتاة مجنونة لكي ترفض يـده. لو كـان هذا الرفض هو الأوّل لتحمّلته؛ ولكن هذا خامس أو سادس طالب زواج، ومن رجال البلاط الأول، ترفضينه كحمقاء. وما سيحلّ بك، متى أُحلتُ إلى التقاعـد؟ أيّ نصر لأعـدائي إذا رأوني أسكن في الطابق الثاني من بناية وكان اسمي غالباً موضـوع

تداول للوزارة! لا! تبا لك! مرّ وقت كاف وطيبتي تجعلني أمثل دور كاسندر. ستقدّمين لي اعتراضاً مقبولاً ضد المركيز كريسنزي المسكين الذي يتكرم ويحبك، ويقبل الاقتران بـك، ويخصك بإيراد قيمته ثلاثون ألف ليرة، اتمكن به أن أجد مسكناً... ستتكلمين بلغة العقل أو تبا لك! ستتزوجينه بعد شهرين!...

كلمة واحدة من كل هذا الخطاب الطويـل لفت كليليا: التهديد بالدير، وبالتالي بعيدة عن القلعة، في الوقت الذي بدت حياة فابريس معلقة بخيط: لم ينقض شهر إلا وشائعة موتـه القريب تنتقل من البلاط إلى المدينة. أي منطق استعملته مع نفسها! لم تتمكن أن تقرر تجربة الانفصال عن فابريس وهي ترتجف خشية على حياتـه! كان هـذا أعظم الشـرور والأكثر مباشرة. وإن لم تكن بعيدة عن فابريس، قلبها وجد السعادة؛ كانت تعتقد أنه محبوب من الدوقة، روحها ممزقة بغيرة مميتة. كانت تفكر باستمرار بحسنات هذه المـرأة التي كانت عمـوماً موضع إعجاب. التحفظ المتناهي تلزم به نفسها تجاه فابريس، لغة الإشارات حصرته فيها، خوفاً من أن تفشي سراً، كل شيء بدا يتآزر ليحرمها من وسائل التوصل إلى توضح طريقة تصرفه مع الدوقة. هكذا كانت تحس كل يوم، بمرارة أشد، مصيبة أن يكون لها منافسة في قلب فابريس، وكل يوم تتجـرأ أقلّ أن تتعرّض لخطر إعطائه فرصة قول الحقيقة كاملة عما كان يمر في هذا القلب. ولكن أية نشوة، مع ذلك، أن يبوح بمكنونات قلبه

الحقيقية! أية سعادة لكليليا من إمكانية إزالة الشكوك الفظيعة تسمم حياتها.

كان فابريس طائشاً؛ اشتهر في نابولي بأنه يبدّل عشيقاته بسهولة. رغم التحفظ المفروض على دور الفتاة، منذ كانت راهبة وتذهب إلى البلاط، تعرفت كليليا دون أن تطرح اسئلة، على الشهرة التي كوّنها الشبان الذين طلبوا يدها على التوالي! اشتهر فابريس بين جميع هؤلاء الشبان، بأنه أكثرهم تقلباً في علاقاته العاطفية. كان ضجراً في السجن، يغازل المرأة الوحيدة التي يمكن أن يتحدث إليها. هل أبسط من هذا؟ وهل ما هو أشدّ ابتذالاً؟ هذا الأمر كان يحزن قلب كليليا. حتى ولو علمت عن طريق اعتراف كامل أنه لم يعد يحب الدوقة، هل تثق بأقواله؟ لو آمنت بصدقه، هل تثق بديمومة حبه. وأخيراً، ألم يكن فابريس متقدماً في سلك الكهنوت وهذا كاف للفراغ من إدخال اليأس إلى قلبها؟ ألم يكن عشية الارتباط بنذور أبدية؟ ألم تكن أعلى الرتب تنتظره في هذا النوع من الحياة؟ لو بقي لي أقل بارقة من الرشاد، كانت كليليا البائسة تقول أما علي أن أهرب، أن أتوسل إلى أبي كي يسجنني في أحد الاديرة البعيدة؟ وزيادة في التعاسة، الخشية من أن أُبعد عن القلعة ويحجز علي في أحد الاديرة تملي عليّ سلوكي. يجبرني هذا الخوف على إخفاء الكذبة البشعة والمعيبة في التظاهر العلني بقبول اهتمامات الكونت كريسنزي وملاطفاته.

كان تصرّف كليليا راشداً حقاً! لم تقم طيلة حياتها، بمسعى غير مدروس، تؤاخذ نفسها عليه، لكن سلوكها هذه المرة، كان في منتهى التهوّر. ويمكن، من هنا، تخيّل آلامها!... كانت أشدّ قساوة إذ لم تكن مخدوعة. فهي تتعلق برجل كان محبوباً من أجمل امرأة في البلاط ومتفوقة على كليليا! وهذا الرجل حتى لو كان حرّاً، لما كان قادراً على علاقة رصينة، بينما هي، كما كانت تشعر، لن تكون لها سوى علاقة واحدة طيلة حياتها.

كانت كليليا تأتي إلى المطيرة وقلبها مفعم بالندم: مدفوعة إلى هذا المكان كما بالرغم منها. كان اضطرابها يبدل من غرضها ويصبح أقل قسوة. كان الندم يختفي للحظات؛ وكانت وقلبها يخفق خفقات لا توصف، ترقب اللحظات التي يتمكن فابريس خلالها أن يفتح الكوة في المصراع الضخم الذي كان يحجب نافذته. وغالباً ما كان يمنعه وجود الحارس غريو، في غرفته، من محادثة صديقته بالاشارات.

ذات مساء، عند الحادية عشرة، سمع فابريس ضجّة غريبة في القلعة: أثناء الليل، وهو ينام على النافذة مدلياً برأسه من الكوة، كان يتوق إلى أن يتعرف على جلبة الدرج الكبير ذي الثلاثمائة درجة، والذي يقود إلى الباحة الداخلية الأولى للبرج المستدير، إلى الشرفة الحجرية، التي بني عليها قصر الحاكم وسجن فارنيز.

كان هذا الدرج، في نحو نصف امتداده، يعلو مائة وثمانين درجة، ويمرّ من الجهة الجنوبية لباحة فسيحة، تقع في الناحية الشمالية. هنا، كان جسرٌ حديـديٌّ خفيف جداً وضيق، في وسطه حاجب يستبـدل كل ست ساعات، ويقف وينـحرف بجسمه كي يمكن المرور على الجسر الذي يحرسه، والذي منه فقط كان يمكن الوصول إلى قصر الحاكم وبرج فارنيز. كان يكفي أن يدار زنبرك مرتين، لكي يقذف هذا الجسر الحديدي إلى الباحة، على عمق أكثر من مائة قدم، وكان الحاكم يحمل مفتاحه معه. بعد اتخاذ هذا التدبير الاحترازي البسيط، وإذ لم يكن درج آخر في القلعة كلها، كلّ مساء كان مساعد أول يجلب حبال كل الآبار إلى الحاكم، عند منتصف الليل، وفي غرفة يدخلون إليها من غرفته، كان بعيداً عن المتنـاول في قصره، فيستحيل لأيٍّ كان بلوغ برج فارنيز. هذا ما لاحظه فابريس تماماً يوم دخوله القلعة وهذا ما شرحه له، عدة مرات، غريبو الـذي ككل حراس السجون يفخر بسجنه. هكذا، لم يكن لفابريس أي أمل بالهرب. ومع هذا، كان يتذكّر حكمة للأب بلانيس: «المحبّ يفكّر بالوصول إلى عشيقته، أكثر مما الزوج في الاحتفاظ بزوجته؛ والسجين يفكـر بالهـرب أكثر ممـا الحارس بإغلاق باب سجنه؛ إذ مهما كانت الحـواجز يجب أن ينجـح العشيق والسجين في مسعاهما.

كان، ذلك المساء، عدد كبير من الرجال يمرون على جسر

الحديد، المدعو جسر العبد، لأن في الماضي إذ نجح عبد مرة في الهرب بقذف الحارس من فوق الجسر إلى الباحة.

جرت هنا، منذ قليل عملية خطف. سأقاد ربما إلى المشنقة؛ ولكن يمكن أن تحدث فوضى الانتفاع منها. اخذ اسلحته، وبدأ يخرج الذهب من بعض مخابئه، عندما توقف فجأة.

صاح... صحيح أنّ الإنسَان حيوان طريف! ماذا سيقول متخفّ يرى استعداداتي؟ هل صدفة أريد أن أهرب؟ ماذا سيحل بي في اليوم التالي لعودتي إلى بارما؟ ألن أقوم بكل ما في الدنيا للعودة إلى كليليا؟ إذا كان من فوضى، لأفد منها وأدخل خلسة قصر الحاكم؛ ربما أتمكّن من التحدّث إلى كليليا، وقد تفسح لي الفوضى فرحة فأتجرأ وأقبل يدها. الجنرال كـونتي، بطبيعته شديد الاحتراس وليس أقل حباً بالظهور: يضع خمسة خفراء لحراسة قصره، واحداً على كل زاوية من البناء وخامساً على باب المدخل، ولكن لحسن الحظ كان الليل داكناً جداً. ذهب فابريس بلا ضجة، للتحقق مما يفعله حارس السجن غريو وكلبه: كان يغط في نوم عميق داخل جلد بقرة معلق بالسقيفة ثم وقف وتقدّم بهدوء نحو فابريس كي يداعبه.

تسلق سجيننا الدرجات الست إلى كوخه الخشبي، أصبحت الجلبة قوية عند اقدام برج فارنيز وبالضبط أمام الباب، حتى فكر أن غريو يستيقظ. كان فابريس، شاك السلاح، جـاهزاً

للعمل، يعتقد أنه معدّ هذه الليلة لخوض مغامرات كبرى، عندما سمع فجأة بدء عزف أجمل سمفونية في العالم: سرينادا يعزفونها إكراماً للحاكم وابنته. أصابته نوبة من القهقهة كنت أحلم الآن بطعنات الخناجر! كما لو أن السرينادا لم تكن في منتهى الاعتيادية كخطف يستلزم وجود ثمانين شخصاً في سجن أو ثورة! كانت الموسيقى ممتازة وبدت رائعة لفابريس بعدما لم تحصل روحه على أيّة تسلية منذ أسابيع كثيرة، حتى جعلته يذرف دموعاً عذبة. كان يرسل، في نشوته، إلى كليليا الجميلة الخطابات الساحرة. ولكن، في اليوم التالي، عند الظهر، وجدها على أشد ما يكون من الكآبة ممتقعة الوجه. كانت توجّه إليه نظرات يقرأ فيها، بعض المرات، قدراً كبيراً من السخط لم يجد معها نفسه مخوّلاً أن يطرح عليها سؤالاً عن السرينادا؛ خشي أن يبدو قليل التهذيب.

كان لكليليا كلّ الحق أن تكون حزينة إذ أن السرينادا تكرّس المركيز كريسنزي زوجاً لها؛ كان مسعى علني كهذا، بمثابة اعلان رسمي عن الزواج. قاومت كليليا إلى يوم السرينادا، حتى التاسعة مساء، مقاومة عنيفة، ولكنها ضعفت وتراجعت امام تهديد والدها بإرسالها فوراً إلى الدير.

ماذا! لن أراه بعد الآن! قالت في نفسها وهي تبكي. وعبثاً أضاف عقلها: لن أراه بعد الآن الكائن الذي سيسبب تعاستي

على أية حال، لن أراه بعد الآن عشيق الدوقة هذا، لن أراه بعد الآن، الطائش الذي عنده عشر عشيقات معروفة في نابولي، خانهن جميعاً، لن أرى هذا الشاب الطموح، سيدخل سلك الكهنوت إذا بقي حيّاً بعد الحكم الذي يتهدده. سأرتكب جريمة ان أنا نظرت إليه بعد أن يخرج من هذه القلعة، تقلّبه الطبيعيّ في الحبّ سيوفّر عليّ هذه التجربة؛ إذ ما أنا له؟ سببٌ ليمضي سأم أقلّ، بعض ساعات من أيامه في السجن وسط كل هذه الشتائم، تذكرت كليليا البسمة التي كان ينظر بها إلى رجال الدرك وهم يحيطون به عندما كان يخرج من غرفة التوقيف إلى برج فارنيز. اغرورقت عيناها بالدموع: يا صديقي العزيز، ما الذي لا أقوم به من أجلك؟ ستفقدني، أعرف هذا الأمر، هذا قدري؛ أنا أضيع نفسي بطريقة شنيعة في حضوري هذا المساء السرينادا المريعة؛ ولكن غداً ظهراً سأرى عينيك ثانية!

في اليوم التالي لتقديم كليليا تضحيات كبرى في سبيل السجين الشاب الذي كانت تحبه بوله شديد، ومع معرفتها بنقائصه، ضحت من اجله بحياتها، في ذلك اليوم غمر اليأس فابريس بسبب برودتها فلو استعمل أقل شدة مع كليليا، ومع عدم لجوئه إلى لغة الاشارات، لما كان باستطاعتها، على الأرجح امساك دموعها، ولكان فابريس حصل على اعتراف بكل ما كانت تشعر به نحوه. ولكن كانت تنقصه الشجاعة. كان يخاف خوفاً مميتاً من أن يلحق الاهانة بكليليا، إذ كان باستطاعتها أن

تعاقبه عقاباً شديداً لم يكن لفابريس خبرة عن نوع التأثر الذي توفره له أمرأة محبوبة؛ كان شعوراً لم يحس بمثله ابداً حتى في أضعف اشكاله. لزم له ثمانية أيام، بعد يوم السرينادا، كي يعود وكليليا صديقين كالمعتاد. كانت الفتاة المسكينة تتسلح بالقساوة كي لا تخون نفسها، وكان يبدو لفابريس أن علاقته بها تسوء يوماً بعد يوم.

ذات صباح، بعد ثلاثة أشهر على وجود فابريس في السجن دون أن يتلقى أي اتصال من الخارج، ودون أن يتسبب ذلك في تعاسته، كان غريو أطال المكوث في غرفته؛ فلم يكن فابريس يعلم كيف يصرفه حتى بلغت به الحال إلى اليأس. وأخيراً دقت الثانية عشرة والنصف فاستطاع أن يفتح النافذتين الصغيرتين احدثهما في المصراع المشؤوم.

كانت كليليا واقفة في نافذة المطيرة، عيناها مثبتتان بعيني فابريس؛ قسماتها مشدودة تعبر عن أعنف اليأس. ما أن رأت فابريس حتى أشارت إليه أن كل شي ضاع: وركضت إلى البيانو وتظاهرت أنها تغني مقطعاً ملحناً من المغناة. قالت له بجمل متقطعة مليئة باليأس، والخوف أن يدرك معناها رجال الخفر الذين كانوا يتنزهون تحت نافذتها:

«يا إلهي، هل أنت لا تزال حيّاً؟

«كم عظيم امتناني للسماء! باربون، هذا السجّان الذي

عاقبت وقاحته يوم دخولك هنا، كان اختفى، لم يكن في القلعة، وعاد أوّل البارحة مساء ومنذ البارحة ثمة ما يجعلني أعتقد أنه يجرّب أن يسمّم لك. يطوف في مطبخ القصر الخاص الّذي فيه تحضرّ وجبات طعامك. لا أعرف شيئاً أكيداً ولكن وصيفتي تعتقد أنّ هذا الوجه الشرس لا يأتي إلى مطابخ القصر إلاّ لحرمانك من الحياة. سأموت من القلق لعدم مشاهدتك تظهر. كنت أعتقدك ميتاً. امتنع عن كلّ طعام حتى إشعار آخر. سأعمل المستحيل كي أوصل إليك قليلاً من الشوكولا. على أيّة حال، هذا المساء، عند التاسعة، إذا شاءت طيبة السماء أن يكون معك خيط، أو إذا تمكنت صنع شريط من بياضك، اتركه يتدلّى من نافذتك، على أشجار البرتقال. سأربط به حبلاً ترفعه إليك وسأرسل لك بواسطة هذا الحبل خبزاً وشوكولا».

كان فابريس إحتفظ بقطعة فحم ككنز ثمين، وجدها في مدفأة غرفته: فأسرع، مستفيداً من انفعال كليليا وكتب على يده سلسلة أحرف يكوّن ظهورها المتتابع هذه الكلمات:

«أحبك، والحياة ليست ثمينة إلاّ لأني أراك؛ أرسلي لي خاصة ورقاً وقلماً.»

كما توقّع فابريس، منع الخوف الشديد على قسمات كليليا، أن تنهي الحديث بعد هذه الكلمة الجريئة: «أحبك». اكتفت

بإظهار كثير من الغضب. خطر ببال فابريس أن يضيف: بسبب العاصفة اليوم، لا أسمع التنبيهات الّتي تتكرمين بإعطائها لي وأنت تغنين، رنين البيانو يغطي الصوت. ما هو مثلاً هذا السم الّذي تتكلمين عليه؟

عند هذه الكلمة، عاد ذعر الفتاة. بدأت ترسم بسرعة حروفاً كبرى بالحبر على صفحات كتاب، ومزقتها. طار فابريس من الفرح عندما رأى أخيراً. بعد ثلاثة أشهر من الاهتمام، توطيد طريقة التراسُل هذه وكان يسعى إليها. احترس أن يترك الحيلة التي نجحت معه. وكان ينهد أن يكتب حروفاً. ويتظاهر في كلّ لحظة أنه لا يدرك الكلمات التي تعرض كليليا حروفها أمام عينيه على التوالي.

أجبرت أن تترك المطيرة لتركض إلى والدها؛ كانت تخشى أن يأتي بنفسه لأخذها؛ نبوغه الكثير الشكوك لم يكن ليسر بجوار نافذة هذه المطيرة والمصراع يحجب نافذة السجين. خطرت فكرة لكليليا نفسها، لحظات قبل ذلك، عندما غمرها عدم ظهور فابريس في اضطراب مميت، كان بالإمكان رمي حجير صغير ملفوف بقصاصة ورق صوب القسم الأعلى من هذا المصراع، إذا شاءت الصدفة، في هذه اللحظة بالذات، يكون الخفير المولج بحراسة فابريس غير موجود في غرفته، طريقة أكيدة للمراسلة.

أسرع سجيننا وصنع من قطع بياض، نوعاً من الشريط. وبعد التاسعة بقليل، سمع بوضوح ضربات خفيفة على صناديق البرتقال تحت نافذتـه؛ ترك الشـريط يتزلق فـأعاد إليـه حبلاً صغيراً، طويلاً جداً، انتشل بواسطته بادىء الأمر مؤونة من الشوكولا ثم تلقى بارتياح متعذر التعبير عنه، لفافة ورق وقلماً. وعبثاً أنزل الحبل بعدئذ فلم يتلقَّ شيئاً، الخفـراء في الظاهـر اقتربوا من أشجار البرتقال. ولكنه كان سكران من الفـرح. فكتب بسرعة رسالة طويلة جداً لكليليا ربطها بالحبل وأنزلها. انتظر أكثر من ثلاث ساعات عبثاً لتأخذها ورفع الحبل عدة مرات ليجري عليها بعض التعديلات: إذا لم ترَ كليليا رسالتي هذا المساء، كان يقول في نفسه، تكون تحت تأثير أفكارها عن السم وربما غداً صباحاً سترفض فكرة استلام الرسالة.

الواقع أن كليليا لم تتمكن من الذهاب إلى المدينة مع والدها: مرت هذه الفكرة في خاطر فابريس لما سمع عند الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عودة عربة الجنرال. كان يعرف وقع الجياد. كم كان فرحه بالغاً، لما سمع الجنرال بعد دقائق يجتاز الفناء والخفراء يقدّمون له السلاح. شعر بالحبل الذي لم ينقطع عن الامساك به حول ذراعه يهتز. كان يعلق وزناً ثقيلاً بهذا الحبل. هزتان خفيفتان اعطتاه الاشـارة لسحبه. بـذل بعض الجهد لكي يجعل هذا الجسم الثقيل يخلّص من افريز شديد البروز تحت نافذته.

كان هذا الشيء الذي بذل جهداً كبيراً كي يصعده، دورق مملوءاً بالماء وملفوفاً بخمار صوف. وإذ كان يعيش في انفراد شبه تام منذ أمد بعيدة غطى الخمار بقبلاته. وأخيراً، بعد أيام كثيرة من خيبة الأمل، اكتشف قصاصة ورق صغيرة مشبوكة بدبوس على الخمار:

«لا تشرب إلا من هذا الماء عش على الشوكولا غداً سأقوم بكل ما في استطاعتي، لكي أوصل خبزاً إليك. سأضع صلبان صغيرة، مرسومة بالحبر، على كل جهاته. يجب أن تعلم: باربون مكلّف ربما بتسميمك. كيف لم تشعر أنّ الموضوع الذي تعالجه في رسالتك، يزعجني ويغيظني! لولا الخطر البالغ الذي يتهددك، لما كنت كتبت لك. رأيت الدوقة منذ قليل، ولكنها هزيلة جداً. لا تكتب لي بعد الآن في هذا الموضوع: أتريد أن تكدرني؟»

بذلت كليليا جهداً كبيراً لكتابة ما قبل السطر الأخير! الجميع في مجتمع القصر يدعون أن السيدة سنسفرينا تشعر بكثير من الصداقة للكونت بالدي، الوسيم صديق المركيزة رافرسي القديم. اختلف بطريقة شائنة مع هذه المركيزة التي خلال ست سنوات كانت عاملته كأمّ وجعلت له مركزاً في المجتمع.

أجبرت كليليا أن تعيد هذه الكلمة التي كتبتها بسرعة، إذ عند صياغتها في المرة الأولى، كان ينفذ منها شيء عن غراميات

الدوقة الجديدة التي كانت العامة تفترضها لها.

ـ أية دناءة من قبلي، صاحت، أن اتحدث بالسوء لفابريس، عن المرأة التي يحبّها.

في اليوم التالي، قبل طلوع النهار دخل غريو غرفة فابريس، ووضع رزمةثقيلة واختفى دون كلام. كانت هذه الرزمة تحوي قطعة خبز مغطاة بالصلبان المرسومة بالريشة على كلّ جهاتها: غمرها فابريس بالقبل. بالقرب من الخبز كان ستة الآف فرنك بشك سكي؛ أخيراً وجد كتاب صلاة جديداً كتبت على الهامش يد بدأ يتعرف عليها هذه الكلمات:

«السم! وجوب الاحتراس من الماء والنبيذ وعن كل شيء، العيش على الشوكولا، والسعي لإطعام الكلب الوجبة التي لا يمسّها، سيجرب العدو استعمال وسيلة أخرى. عدم ارتكاب أيّ عمل طائش. بحق الله! اياك والخفة!».

أسرع فابريس لمحو هذه الأحرف العزيزة التي قد تعرض كليليا للخطر، ثم مزّق عدداً كبيراً من أوراق كتاب الصلاة وبواسطتها كوّن عدة كلمات؛ رسم كل حرف بدقة بـواسطة الفحم المسحوق المذوب بالنبيذ. ما جفت هذه الحروف حتى ظهرت كليليا على خطوتين وراء نافذة في الحادية عشرة وثلاثة أرباع. قال فابريس في نفسه، المشكلة الكبرى الآن أن تقبل بها. ولكن لحسن الحظ، كان لديها أشياء كثيرة تقولها للسجين

الشاب عن محاولة التسميم: نفق كلب يخص فتيات الخدمة لأنه أكل وجبة كانت معدّة لفابريس. لم تعترض كليليا على استعمال الحروف بل جهّزت حروفاً رائعة بالحبر. الحديث المتّبع بهذه الوسيلة غير مريح، في المرحلة الأولى، لم يدم أقل من ساعة ونصف، يعني كل الوقت الذي بقيت كليليا خلاله في المطيرة. سمح فابريس لنفسه مرتين أو ثلاثاً القيام بأمور ممنوعة، فلم تجبه وانصرفت لحظة لتولي عصافيرها ما تحتاجه من اهتمام ضروري.

حصل فابريس، في المساء، عند إرسال الماء إليه، على حروف رسمتها بالحبر كان يمكن أن ترى بطريقة أفضل. لم يتأخر عن كتابة رسالة طويلة جداً لم يضمنها أشياء رقيقة تزعجها. نجحت معه هذه الطريقة، ورسالته قُبِلت.

في اليوم التالي، وبمحادثتها إياه عن طريق الحروف لم توبخه كليليا، وأخبرته أن خطر السم كان يخفّ. هوجم باربون وكاد يقتل على يد أناس كانوا يغازلون فتيات مطبخ قصر الحاكم؛ ولن يجرؤ بعد الآن، على الظهور في المطبخ. اعترفت له كليليا، انها تجرأت من أجله وسرقت مضادّ السم من أبيها، وها هي ترسله له: المهم كان أن يرفض كلّ طعام يجد له طعماً غريباً.

ألقت كليليا اسئلة كثيرة على دون سيزاري، كي تكتشف من أين تأتي الستمائة سكي تلقّاها فابريس على أيّة حال كانت هذه بادرة طيبة؛ وراح التشدّد مع فابريس يخف.

حادث السُّم، حسّن كثيراً شؤون سجيننا؛ ومع هذا لم يتمكن أن يحصل على ما يشبه الاعتراف بالحب، ولكنه كان سعيداً أن يعيش بصورة حميمة مع كليليا. كلّ صباح، وغالباً كلّ مساء، كان يجري معها حديثاً طويلاً بالحروف، كانت كليليا، كل مساء، في التاسعة، تتلقىّ، بفرح، رسالة طويلة، تجيب عنها بعض المرات، بكلمات مقتضبة؛ كانت ترسل إليه الصحيفة وبعض الكتب؛ وأخيراً، استميل غريو، فبات يجلب لفابريس الخبز والنبيذ تسلمه إياهما وصيفة كليليا. استنتج السّجان غريو أن الحاكم لم يكن متفقاً مع الناس الذين كلفوا باربون بتسميم الأسقف الشاب، وكان مرتاحاً جدّاً مع رفاقه إلى المثل الّذي شاع في السجن: يكفي أن تنظر إلى السيد دل دونغو كي يعطيك مالاً.

كان فابريس امتقع إذ نقص التمارين الرياضية يسيء إلى صحّته. عدا هذا، لم يكن في حياته سعيداً كما اليوم. كانت لهجة الحديث حميمة وبعض المرات مرحة بين كليليا وبينه. اللحظات الوحيدة التي في حياة كليليا لا تحاصرها الظنون المتشائمة والندم كانت تقضيها متحدّثة معه. ذات يوم، قالت له بتسّرع:

أنا معجبة بلطفك، بما أني ابنة الحاكم، لا تكلمني على رغبتك في استعادة الحرية!

ـ أنا احترس تماماً أن تكون لي هذه الرغبة الخرقاء، أجاب فابريس؛ إذ بعد عودتي إلى بارما كيف سأراك؟ وستصبح الحياة لا تطاق إذا لم أتمكن أن أقول كلّ ما أفكر به... لا ليس هذا بالضبط كلّ ما أفكّر به، إذ انك تعتنين بتدبير هذا الأمر. وأخيراً بالرغم من قسوتك، ستكون الحياة دون أن أراك كلّ يوم عذاباً أقسى من هذا السجن! كلّ حياتي لم أكن هانئاً مثلي اليوم!... أليس من المضحك أن أجد السعادة تنتظرني في السجن؟

ـ ثمة أشياء كثيرة للقول حول هذا الموضوع، أجابت كليليا، بشكل أصبح فجأة رزيناً إلى أقصى درجة ومتشائماً تقريباً.

ـ كيف، صاح فابريس قلقاً، هل أنا معرّض لفقدان هذا المكان الذي في منتهى الصغر تمكنت أن اكسبه في قلبك، ويسبّب سروري الوحيد في هذا العالم؟

ـ نعم، لديّ ما يدعو للاعتقاد أنك غير مستقيم معي، مع أنك، من ناحية أخرى، أفضل من يحسن مغازلة النساء، ولكني لا أريد أن أعالج هذا الموضوع اليوم.

هذه البداية الغريبة اربكت حديثهما كثيراً، وغالباً ما دمعت عينا كليهما.

كان القاضي راسي ما زال ينهد لتبديل اسمه؛ كان سئماً جداً

من الذي اصطنعه لنفسه، ويرغب في أن يصبح البارون ريغا. كان يعمل بكلّ طاقته ليتقوى، عند هذا القاضي المرتشي، هوى البارونية، كما كان يسعى أن يضاعف لدى الأمير الأمل المجنون بأن يصبح ملكاً دستورياً على لومبارديا. كانت هذه السبل الوحيدة بإمكانه اكتشافها كي يؤخر موت فابريس.

كان الأمير يقول لراسي:

ـ خمسة عشرة يوماً من اليأس، وخمسة عشر يوماً من الأمل، بهذا النظام سنتوصل إلى الانتصار على مزاج هذه المرأة المتعجرفة؛ بواحدة من هذه الخيارات من اللطف والقسوة يتوصل الإنسان إلى ترويض الجياد الأكثر جموحاً. استعمل هذا الدواء الكاوي بثبات.

في الواقع، كلّ خمسة عشر يوماً كانت في بارما شائعة جديدة عن وفاة فابريس القريبة. كانت هذه الأحاديث تغمر المرأة البائسة بأسوأ حالات اليأس. ومخلصة لتصميمها بعدم جر الكونت في انهيارها، لم تكن تراه سوى مرتين في الشهر، ولكنها كانت معاقبة عن قسوتها نحو هذا الرجل المسكين، بتعاقب مستديم من اليأس المرير تقضي فيه حياتها. عبثاً تغلب الكونت موسكا على حسده القاسي، توجيه إليه مثابرة الكونت الوسيم بالدي، كان يكتب للدوقة عندما لا يتمكن أن يراها ويوفّر لها المعلومات المدين بها إلى هماس البارون ريغا العتيد. وكانت

الـدوقة، كي تتمكن من مقـاومة الشـائعـات بـاستمـرار عن فابريس، أن تقضي حياتها مع رجل فكر وشجاعة كموسكا. عدم أهلية بالدي وتركه إياها لأفكارها، توفّر لها طريقة عيش مريعة، ولم يتمكّن الكونت من التوصّل إلى أن يشيع في نفسها الأسباب الّتي تحدوه للأمل.

توصّل هذا الوزيـر، بذرائـع مختلفة وعـلى قدر كـاف من الحذاقة، أن يدفع الأمير إلى القبول بأن يودع في قصر صديق وسط لومبارديا، في جوار سارونو، وثائق جميع الدسائس المعقدة الّتي كان بواسطتها رافوس ارنست الرابـع يغذّي الأمـل بأن يصبح ملكاً دستورياً على هذه البلاد الجميلة.

كان أكثر من عشرين مستنداً مثيراً للشبهة موضوعة بيد الأمير أو موقعة منه. وفي حال ستكون حياة فابريس مهدّدة، كان لدى الكونت مشروع الإعلان لسموة بأنّه سيضـع هذه المستنـدات بتصرف دولة كبرى قادرة على تحطيمه.

كان الكونت موسكا متأكداً من أنّه سيصبح البارون ريغا في المستقبل، لم يكن يخشى غير السّم. اقلقته محاولة باربون قلقاً شديداً، حتى قرّر أن يجازف بمسعى متهوّر ظاهـراً. مرّ ذات صباح بباب القلعة وأرسل في طلب الجنرال فابيو كونتي، الذي نزل حتى الحصن فوق الباب؛ لم يتردد أن يقول له، وهو يتنزّه معه، بعد مقدمة معسولة ومناسبة:

ـ إذا مات فابريس بطريقة مريبة، قد تنسب هذه الميتة إليّ وسأعتبر محسوداً، وسيكون ذلك مثيراً للسخرية، وإني مصمّم ألاّ أقبل هذا الأمر. ولكي أغسل يدي، في حال هلاكه بسبب مرض، سأقتلك بيدي. اجاب الجنرال بطريقة ممتازة وتكلّم على شجاعته، ولكن نظرة الكونت بقيت حاضرة في ذهنه.

بضعة أيام بعد ذلك وكما لو أنه تباحث مع الكونت، سمح القاضي راسي القيام بعمل طائش وغريب عند مثل هذا الرجل. الأحتقار العام العالق باسمه، كان السوقة يستعملونه كقول مأثور، ويسبّب مرضه، منذ كان لديه الأمل بالتمكن من التخلص منه. أرسل إلى الجنرال فابيو كونتي نسخة رسمية عن الحكم الذي يعاقب فابريس باثني عشر عاماً من السجن في القلعة. وهو ما كان يتوجب أن يتم، بموجب القانون، منذ اليوم التالي لدخول فابريس السجن؛ ولكنّ ما كان غريباً في بارما، في هذه البلاد ذات الوسائل السريّة، أنّ العدل يسمح لنفسه بهذا المسعى دون أمر جازم من الملك. وكيف يمكن تغذية أمل مضاعفة هلع الدوقة، كلّ خمسة عشر يوماً، وقهر هذا الطبع المتعجرف، حسب كلمة الأمير، لمجرد أن نسخه رسمية عن الحكم خرجت من وزارة العدل؟ عشية اليوم الّذي تلقى فيه الجنرال فابيو كونتي الرسالة الرسمية من القاضي راسي، علم أن الموظف باربون أوسعَ ضرباً وهو يدخل متأخراً إلى القلعة؟ فاستنتج من ذلك انه لم يعد من موضوع، في مكان، التخلص

من فابريس. ببارقة حكمة انقذت راسي من عواقب تهوره المباشرة. لم يتكلم مع الأمير، في المقابلة الأولى الّتي سمح له بها على النسخة الرسمية بحكم السجين كما تبلغها. كان الكونت اكتشف، لحسن الحظ، ولاطمئنان الدوقة المسكينة، أن مسعى باربون لم يكن سوى ذبذبة انتقام شخصي، وأعطي هذا الموظف التنبيه.

دهش فابريس بعد مائة وخمسة وثلاثين يوماً من السجن في قفص ضيق، حين أتى المرشد دون سيزاري ذات خميس كي يصطحبة في نزهة على البرج الرئيسي من برج فارنيز. لم تنقضِ عشر دقائق على وجوده، فاجأه الهواء الطلق وشعر بانزعاج صحي.

اتخذ دون سيزاري هذا الحادث حجة كي يمنحه نزهة نصف ساعة كل يوم. حماقة. هذه النزهات المتعدّدة أعادت إلى بطلنا قواه التي افرط في استعمالها.

جرت عدة نزهات لم يكن الحاكم الدقيق يتحملها إلا لأنها كانت تربط المركيز كريسنزي بابنته كليليا التي كان يخيفه طبعها: كان يشعر أن لا نقطة اتصال بينها وبينه، ويخشى دائماً من ناحيتها أن تقوم بعمل طائش. كان بإمكانها أن تهرب إلى الدير وعندئذ سيصبح أعزل. وفضلاً عن ذلك كان الجنرال يخاف من إشارات في هذه الموسيقى الّتي رناتها تدخل حتى أعمق الزنزانات

المختصة بالليبيراليين. الموسيقيون أنفسهم كانوا أيضاً موضوع غيرة. فما انتهت النزهة حتى سجنوا داخل الصالات الكبرى من الطابق الأوّل في قصر الحاكم وكانت تستعمل كمكاتب. لم يفتحوا لهم الأبواب إلاّ في اليوم التالي، ضحى النهار. كان الحاكم نفسه الذي اتخذ له مكاناً على جسر العبد، يشرف على تفتيشهم، ويطلقهم بعدما يردد على مسامعهم مرّات أنه سيشنق فوراً من يجرؤ بينهم ويتكلّف بأقلّ خدمة لأيّ سجين. كانوا يعرفون أن في خوفه من أن يغيظ، رجلاً يقوم بوعده. كان المركيز كريسنزي مجبراً على أن يدفع ثلاث مرات أكثر للموسيقيين المستائين من هذه الليلة التي عليها قضاؤها في السجن.

كلّ ما أمكن الدوقة الحصول عليه، بجهد كبير، من جبانة أحد هؤلاء الرجال، أن يتولى نقل رسالة ليسلّمها إلى الحاكم. كانت مرسلة إلى فابريس، وفيها الحسرة، بعد خمسة أشهر قضاها في السجن، من عدم تمكن أصدقائه في الخارج من إجراء أقل اتصال به.

لدى دخوله القلعة ارتمى الموسيقار المرتشي على قدمي الجنرال فابيو كونتي واعترف له، أن كاهناً مجهولاً ألح عليه كثيراً كي يكلفه بكتاب مرسل إلى السيد دل دونغو، فلم يجرؤ على الرفض ولكن، أميناً على واجبه، أسرع بوضعه بين يدي سموه. ففتن

سموه جداً وكان يعرف الوسائل التي تمتلكها الـدوقة. وكـان يخشى أن يخدع. ومن فرحه، ذهب الجنرال وقدّم الرّسالة إلى الأمير ففتن بها.

ـ هكذا تمكّن حزم إدارتي من أن ينتقم لي! تتألم هذه المرأة المتكبـرة منذ خمسـة أشهر ولكن ذات يـوم ستنصب مشنقة، وستعتقد مخيلتها الجامحة أنها معدّة لدل دونغو الصغير.

٢٠

ذات ليلة، في نحو الواحدة بعد منتصف الليل، كان فابريس نائماً عند نافذته، رأسه خارج الكوة التي في المصراع، متأملاً النجوم والأفق الشاسع من أعلى برج فارنيز. عيناه، سابحتان على الحقول من ناحية البو السفلى وفيراري. لاحظ صدفة ضوءاً صغيراً وثاقباً كأنه ينبعث من أعلى برج. قال في نفسه: هذا النور لا يُرى من السهل. سماكة البرج تمنـع مشاهـدته من أسفل؛ انها اشارة إلى مكان بعيد. لاحظ النور فجأة يـظهر ويختفي في أوقات متقاربة. انها فتاة تحادث عاشقها في قريـة مجاورة. عدَّ مرات متوالية ظهور النور في حروف جمعهـا إلى بعضها البعض.

وكم كان سروره عظيماً، لما أتت الظهورات المتعددة تؤلف الكلمات التالية: «طبعاً جينا تفكر بك».

أجاب في اللحظة ذاتها بظهورات متوالية من مصباحه خلال الكوة التي أحدثها: «فابريس يحبك».

دام الاتصال حتى طلوع النهار. كانت تلك الليلة المائة والثالثة والسبعين لسجنه. ثم راحا كلّ ليلة يصدران هذه الاشارات، ولكن كان باستطاعة الجميع مشاهدتها وفهم معناها. بدآ منذ الليلة الأولى، وضع موجزات اصطلاحية. ثلاثة ظهورات متوالية بسرعة تدلّ على الدوقة، أربعة: الأمير، اثنان: الكونت موسكا؛ ظهوران سريعان متبوعان باثنين بطيئين معناهما: فرار. واتفق على اتّباع حروفية قديمة في المستقبل كي لا يكشف الفضوليون تبدّل الرقم العادي الذي يمثله الرقم واعطاء الحروف ارقاماً كيفيّة. وتكون لحظة ظلمة. الفاصل بين الكلمات. واتفق على موعد في اليوم التالي، الواحدة بعد منتصف الليل، وأتت الدوقة على الموعد المحدد، إلى هذا البرج الذي كان يبعد ربع فرسخ عن المدينة. أغرورقت عيناها بالدموع لما رأت الاشارات الصادرة عن فابريس وهي اعتقدته ميتاً مرّات. كلمته بواسطة ظهورات المصباح: «أحبك أتمنى لك الصحة والأمل الطيّب! مرّن قواك في غرفتك. ستحتاج إلى قوّة ذراعيك». كانت الدوقة تقول في نفسها: لم أشاهده منذ حفلة فوستا الموسيقية، عندما ظهر في باب صالتي مرتدياً ثياب صيّاد. من كان بإمكانه أن ينبئني يومئذ عن المصير الذي ينتظرنا! أرسلت الدوقة إلى فابريس اشارات تعني أنه قريباً سينجو بفضل

حلم الأمير (كان بالامكان ادراك معنى هـذه الاشارات). ثم عادت تعبّر له عن المحبة؛ لم يكن بإمكانها انتزاع نفسها من قربه! تنبيهات لدوفيك وحدها وكان وحده نافعاً لفابريس، وقيّماً على منزلها، دفعتها عندما أوشك النهار على الانبلاج، إلى أن توقف اشارات تلفت أنظار أحد الأشرار. هذه البشارة، مرات عن نجاة قريبة سببت حزن فابريس العميق، لاحظت كليليا ذلك، فجازفت بسؤاله عن السبب.

ـ أراني على أهبة اعطاء الدوقة سبباً هاماً للاستياء.

ـ وماذا بإمكانها أن تطلب منك وترفض تلبيتـه؟ صاحت كليليا، إذ استخف بها فضول بالغ.

ـ أن أخرج من هنا، أجابها، وهذا ما لن أوافق عليه أبداً.

لم تتمكن كليليا من الإجابة. نظرت إليه وأجهشت بالبكاء. لو أمكنه أن يوجّه إليها الكلام عن قرب، ربما، كانت فازت باعتراف عمّا يكنه لها من عواطف. كان الارتياب بصدقه، غالباً ما يغمرها في وهن العزيمة.

كان يشعر بشدّة، أنّ الحياة، بدون حبٍّ كليليا، سلسلة من الهموم المريرة والضجر. كان لم يعد من داع للعيش كي يجد ثانية، المسرات ذاتها التي كانت تبدو له ممتعة قبل أن يعرف الحب، ومع أن الانتحار لم يكن درج في ايطاليا، فكّر به كوسيلة، إذا فصله القدر عن كليليا.

في اليوم التالي تلقى رسالة طويلة جداً من كليليا.

«يجب، يا صديقي، أن تعرف الحقيقة: منذ وصلت هنا، غالباً ما ساد الاعتقاد في بارما، أن يومك الأخير أطـل. في الحقيقة لست محكوماً إلا باثنتي عشرة سنة سجن، في القلعة، ولٰكنّ كرها كليّ القدرة يلاحقك، وعشرين مرة. ارتجفت من أن ينهي السم أيامك: تمسّك بكل الوسائل الممكنة للخروج من هنا. أنت ترى، اني أخون مرّات أقدس واجباتي من أجلك؛ فكر بالخطر المحدق بك، من الأشياء التي أخاطر بقولها لك، وهي غير لائقة على لساني.

ان لم تكن طريقة للخلاص، فاهرب. لحظة اضافية تقضيها في هذه القلعة تعرض حياتك لخطر كبير، فكر أنّ في البلاط فئة، لم توقفها أبداً فكرة الجريمة في تنفيذ مخططاتها. ألا ترى مهارة الكونت موسكا تحبط كل مشاريع هذه الفئة؛ والحالـة هذه، وُجِدت طريقة لنفيه من بارما، مما يسبب يأس الدوقة؛ أو ليس أكيداً التسبُّب بهذا اليأس عن طريق موت سجين شاب؟ هذه الكلمة وحدها، بدون جواب، يجب أن تدفعك للتفكير بحالتك تقول انك تكنّ لي صداقة متينة: تبصّر في بادىء الأمر بالعقبات يصعب التغلب عليهـا تعترض امكـانية تثبيت هـذه العاطفة بيننا. لو اننا كنا التقينا في شبابنا لكنا تبادلنا يد المساعدة في فترة تعيسة، ولكان القدر وضعني في هذا المكان القـاسي لألطّف من همومك ومتاعبك، ولكن سأوجه لنفسي لوائم أبدية،

إذا كانت أوهام لا يبررها شيء، تحملك على عدم انتهاز كل الظروف الممكّنة لانقاذ حياتك من خطر مريع. فقدت اطمئنان النفس بالطياشة القاسية التي ارتكبتها بتبادل بعض اشارات الصداقة معك: إذا كانت ألعابنا الصبيانية هذه بالحروف تقودك إلى أوهام غير مرتكزة على أسس، ويمكن أن تكون شؤماً عليك، سيكون من العبث أن أبرّىء موقفي بتذكّري محاولة باربون، سأكون عرضتك إلى خطر أشدّ هولاً باعتقادي انني أنقذك من خطر اللحظة الحاضرة؛ وستكون تصرفاتي الطائشة غير قابلة للمغفرة إذا ولّدت فيك عواطف تحملك على مقاومة نصائح الدوقة، تبصر بما تجبرني أن أردد على مسمع منك: أهرب، آمرك..».

كانت هذه الرسالة طويلة جداً، بعض المقاطع، مثل: «أنا آمرك» وفّرت لحظات أمل منعشة لحبّ فابريس. كان يبدو له أن كنه العواطف على قدر كاف من الحنان لو أن العبارات كانت حكيمة على نحو بارز.

في لحظات أخرى، كان يدفع ثمن جهله الكامل في هذا النوع من الصراع لم يكن يرى سوى الصداقة البسيطة أو الإنسانية العادية في رسالة كليليا.

ومع ذلك، كل ما كانت تعلمه به لم يبدل من عزمه لحظة: افتراضاً أن المخاطر التي كانت تصفها حقيقية، هل يكون من

المبالغ به شراء سعادة مشاهدتها كل يوم ببعض أخطار الساعة؟ أية حياة سيقضي عندما يصبح من جديد لاجئاً في بولونيا أو فلورنسا؟. بهربه من القلعة لن يحصل على إذن للعيش في بارما. وفي حال تبدّل الأمير، وأعيدت إليه حريته (هذا ما كان قليل الاحتمال، بما أنه هو، أصبح لفئة نافذة، واسطة اسقاط الكونت موسكا)، أية حياة سيقضي في بارما، مبعداً عن كليليا بكل الكره الذي يفصل بين حزبين؟.

مرة أو مرتين في الشهر، ستجمعهما الصدفة ربما، في صالة واحدة، ولكن أي نوع من المحادثة يمكن أن يكون له معها حتى في مثل هذه الحال؟ كيف استعادة تلك الإلفة الكاملة يتمتع بها الآن خلال ساعات كل يوم؟ ما قيمة محادثة الصالة بالنسبة لتلك التي كانا يجريانها بالحروف؟ وفيما لو توجب علي شراء حياة المتع هذه وهذا الحظ الوحيد بالسعادة، ببعض المخاطر، فأين الضرر؟ أو لا تكون أيضاً سعادة، أن أجد مناسبة ضعيفة. لاعطائها برهاناً عن حبّي؟.

لم ير فابريس في رسالة كليليا سوى مناسبة لطلب مقابلة معها: الغرض الوحيد والدائم لكل تمنياته، انه لم يتكلم معها سوى مرةواحدة وللحظة عند دخوله السجن. ومرّ على ذلك مائتا يوم.

وتوفرت له طريقة سهلة لمقابلته كليليا:

كان الكاهن الطيب دون سيزاري يمنح فابريس نصف ساعة نزهة على شرفة برج فارنيز، كلّ خميس؛ ولكن هذه النزهة لم تكن، في باقي أيام الأسبوع، إلا عند هبوط الليل إذ قد تلفت كل سكان بارما وجوارها وتعرّض الحاكم للخطر. للصعود إلى شرفة برج فارنيز، لم يكن إلاّ درج القبة الصغيرة تلي المصلّى الحزين بالرخام الأسود والأبيض. كان غريو يقود فابريس إلى هذا المصلى، ويفتح له درج القبة الصغير: واجبه يحتّم أن يتبعه، ولكن بما أن السهرات بدأت تكون باردة، كان الحارس يتركه يصعد وحده، ويغلق عليه بالمفتاح، في هذه القبة، ثم يعود ليتدفأ في غرفته. ألا تستطيع كليليا أن تتواجد ذات مساء برفقة وصيفتها، في مصلى الرخام الأسود؟.

كانت الرسالة الطويلة كلها، يجيب بها فابريس، عن رسالة كليليا، معدة بحيث تؤدي إلى الموافقة على هذه المقابلة. ان يبوح لها بصدق كامل، كما لو أن الأمر كان يتعلق بشخص آخر، بكل الأسباب التي تدفعه ليقرّر عدم مغادرة القلعة.

«سأتعرض كلّ يوم إلى مائة ميتة كي أتوصل إلى سعادة التحدث معك بطريقة حروفنا، التي لا تعرقلنا الآن لحظة، وتريدين أن أضلل نفسي، وأحكم عليهابالنفي في بارما، أو ربما في بولونيا أو حتى فلورنسا! أتريدين أن أرضى بالابتعاد عنك؟ اعلمي أن كل جهد في هذا السبيل مستحيل علي؛ وعبثاً أعطيك

كلمةالشرف، فلن أتمكن من الحفاظ عليها».

كانت نتيجة طلب هذا الموعد، تغيب كليليا خمسة أيام؛ ولم تأتِ إلى المطيرة إلا في أوقات كانت تعرف أن فابريس لا يستطيع استعمال الفتحة الصغيرة المحدثة في المصراع. يئس فابريس، واستنتج من هذا الغياب، رغم النظرات التي جعلته يتصور تلك الآمال المجنونة، انه لم يوح لكليليا بسوى عواطف صداقة بريئة. في هذه الحالة، كان يقول في نفسه، ما تهمني الحياة؟ ليعدمني إياها الأمير. سيأتي على الرحب والسعة، بسبب آخر كي لا أترك القلعة. وبات يجيب كل ليلة عن اشارات المصباح الصغير بمزيد من الاشمئزاز. اعتقدته الدوقة مجنوناً إذ قرأت على بيان الاشارات الذي كان لدوفيك يجلبه لها كل صباح، هذه الكلمات الغريبة: لا أريد أن أهرب؛ أريد أن أموت هنا!.

خلال الخمسة أيام من القساوة على قلب فابريس، كانت كليليا أكثر تعاسة منه، مرت بخاطرها الفكرة، المؤلمة على نفس نبيلة: يدفعني واجبي أن أهرب إلى أحد الأديرة، بعيداً عن القلعة، سأرسل غريو وكل الحراس لإبلاغه هذا الأمر، وسيصمم عندئذ على القيام بمحاولة الهرب. ولكن الذهاب، إلى الدير، هو التنازل عن مشاهدة فابريس نهائياً، التخلّي عن مشاهدته فيما هو يقدّم البرهان القاطع على أن العواطف التي

تربطه بالدوقة لم يعد لها وجود الآن! أي برهان عن الحب يهز المشاعر كان بإمكان شاب أن يقـدّم؟ كان يـرفض أن يستردّ حريته، بعد سبعة أشهر طويلة، أثرت بالغاً على صحته. انسان طائش كما وصفته أقوال رجال البلاط لكليليا. ولكان ضحّى بعشرين عشيقة ليخـرج من السجن حيث السم يضع حـداً لحياته، يوماً واحداً قبل نهاية مدته!.

فقدت كليليا شجاعتها وارتكبت الخطأ الجسيم بألّا تلجأ إلى أحد الأديرة، كان وفّر لها طريقة طبيعية للتخلص من علاقتها بكرسينزي. بعدما ارتكبت هذا الخطأ الجسيم، كيف مقاومة شاب بهذه اللطافة، والطبيعيـة والحنان، كـان يعرّض حيـاته لمخاطر فظيعة حصـولاً على سعـادة مشاهـدتها من نـافذة إلى أخرى، بعد خمسة أيام من النضال الممزوج بلحظات احتقار لنفسها، حزمت كليليا أمرها: أن تجيب عن الرسالة التي بها يرجو فابريس سعادة التحدث إليها في مصلى الرخام الأسود. كانت ترفض بعبارات قاسية، ولكن منذ تلك اللحظة فقدت كل طمأنينة، لحظة كان خيالها يصوّر لها فابريس يسقط تحت وطأة السم؛ كانت تأتي ثماني مرات يومياً إلى المطيرة، لتتأكّد بنفسها أن فابريس ما زال حيّاً.

إذا كان لا يزال في القلعة، كانت تقول في نفسها، ومعرضاً لكلّ الفظاعات التي قد يحـوكها حـزب رافرسي ضـدّه لطرد

الكونت موسكا، فلأنني كنت جبانة بعدم الفرار إلى أحد الأديرة! أيّ حجة للبقاء، هنا، حالما يتأكد أنني ابتعدت نهائياً؟.

هذه الفتاة الخجولة والمتكبرة لأن تتعرض إلى رفض السجان غريو، وأكثر من هذا، عرّضت نفسها لكلّ التعقيبات التي يمكن لهذا الرجل أن يسمح بها لنفسه، بسبب غرابة سلوكها. انحدرت إلى هذه الدرجة من الاذلال حتى استدعته وقالت له بصوت مرتجف يفضح سرها، انه بعد أيام قليلة، سينال فابريس حرّيته، وأن الدوقة سنسفرينا، على هذا الأمل، تقوم بكل المساعي الناشطة التي تقضي بالحصول على جواب السجين عن بعض العروض المقدمة، وأنها تطلب منه، هو غريو، بأن يفتح فرجة في المصراع الذي يحجب نافذته، حتى تتمكن أن تطلعه عن طريق الاشارات على التعليمات التي تتلقاها عدة مرات كل يوم من السيدة سنسفرينا.

ابتسم غريو وأكّد لها احترامه وطاعته. شكرته كليليا لأنه لم يكن يضيف أية كلمة: كان يعرف تماماً كلّ ما يجري منذ عدة أشهر.

ما أن خرج السّجان، حتى قامت كليليا بإشارة متفق عليها لاستدعاء فابريس، في المناسبات الكبرى. واعترفت بكلّ ما قامت به. وأضافت: تريد أن تموت بالسّم: آمل أن تكون لي الشجاعة في أحد الأيام لترك والدي والهرب إلى دير بعيد؛ هذا

هو الالتزام المدينة به تجاهك. أتمنى أنك لن تقاوم التصاميم التي يمكن أن تُعرّض عليك لإنقاذك من هنا. ما دمت في هذا المكان، أمر بلحظات مريعة وغير معقولة. لم أساهم طيلة حياتي في بؤس أحد، ويبدو لي أنك ستلقى حتفك بسببي. لو خطرت هذه الفكرة ببالي عن مجهول مني تماماً، فستقودني إلى اليأس. فكّر بما أشعر، عندما أتصور أن صديقاً أراه كل يوم منذ أمد بعيد هو عرضة في هذا الوقت، للموت. أشعر بعض المرات أني بحاجة لأعرف منك شخصياً أنك تحيا.

لإنقاذ روحي من العذاب المريع، أذللتُ نفسي حتى طلب خدمة من مرؤوس كان بامكانه رفض تأديتها وأن يخونني. سأكون سعيدة بأن يشكوني إلى والدي. سأذهب في اللحظة ذاتها إلى الدير، ولن أكون بعد ذلك شريكة لا إرادية في أعمالك الطائشة القاسية. صدّقني، هذه الحال لا يمكن أن تدوم طويلاً، ستطيع أوامر الدوقة. هل أنت راضٍ، أيها الصديق العزيز القاسي؟ أرجوك أن تخون أبي! ناد غريو وقدّم له هدية.

كان فابريس كلفاً حتى أن أبسط تعبير عن إرادة كليليا يغمره في خوف لا مثيل له، وهذا الاتصال لم يكن تأكيداً له بأنه محبوب. نادى غريو ودفع له ثمن مسايرته بسخاء ومستقبلاً، يعطيه درهماً واحداً مقابل كلّ يوم سيسمح له باستعمال الفتحة المحدثة في المصراع.

ـ أريد أن أكلمك بصراحة، يا حضرة الأسقف، أتريد أن تلزم نفسك بتناول فطورك بارداً كلّ يوم؟ طريقة أبسط لتحاشي السم. ولكن إحذر، فعلى السجّان أن يرى كلّ شيء لا أن يحذر شيئاً الخ.. عوضاً عن كلب واحد سيكون عندي عدّة كلاب، وأنت ستجعلها بنفسك تذوق من كلّ لون طعام تتناول منه؛ بما يختص بالنبيذ، سأقدم لك من نبيذي، ولن تلمس سوى القناني التي أكون شربت منها. ولكن إذا سموك يريد أن يخسرني نهائياً يكفي أن يبوح بهذه التفاصيل إلى الآنسة كليليا؛ النساء دائماً نساء؛ وإذا اختلفت غداً معك، ستنقل خبر هذا بعد غد إلى والدها، وسيتوفّر له أعذب السرور بشنق سجان، هو، بعد باربون، الكائن الأكثر ضرراً في القلعة. وهنا يكمن الخطر الحقيقي على موقفك. انه يتقن استعمال السم، ولن يغفر لي أن يكون عندي ثلاثة أو أربعة كلاب صغيرة.

وكانت نزهة جديدة. وها غريو يجيب عن أسئلة فابريس!. علّل نفسه أن يكون حذراً وألا يخون الآنسة كليليا التي ـ رغم أنها على وشك الاقتران بالمركيز كريسنزي، الرجل الأكثر ثراء في دول بارما ـ لم تكن تتوانى عن تبادل الحب مع سيادة دل دونغو اللطيف، بقدر ما تسمح جدران السجن. كان يجيب عن أسئلة هذه الأخيرة حول النزهة، عندما أضاف بطيش: يقولون أنها ستقترن به قريباً. وكم كان تأثير هذه الكلمة على فابريس. أثناء الليل لم يجب على اشارات المصباح إلا للاعلان بأنه مريض.

ومنذ العاشرة من صباح اليوم التالي، لما ظهرت كليليا في المطيرة، طلب منها بلهجة تهذيب متصنّع، جديدة تماوا بينهما، لماذا لم تقل له بكل بساطة أنها تحب المركيز كريسنزي، وأنها على وشك الاقتران به؟.

ـ لا شيء من هذا صحيح، أجابت كليليا بنفاد صبر. وبقية جوابها كانت أقل وضوحاً. لفت فابريس نظرها إلى هذا الأمر، وانتهز الفرصة كي يجدّد طلب المقابلة. وافقت كليليا على الفور إذ كانت ترى الشكّ يتناول صدقها، وهي تنبّهه إلى أنّها تتسربل بالعار لبقيّة أيامها في عيني غريو. ومع اللّيل ظهرت برفقة وصيفتها، في مصلى الرخام الأسود؛ وقفت في الوسط عند قنديل السهرة. عاد غريو والوصيفة ثلاثين خطوة ووقفا حدّ الباب. كانت كليليا حضرت كلاماً رائعاً، الهدف منه عدم القيام باعتراف يعرضها للخطر، ولكن منطق الشهوة ملحّ. والاهتمام العميق الذي تبذله لمعرفة الحقيقة، لا يسمح لها بأن يكون لديها تحفظات لا فائدة منها، ويقضي الاخلاص لكل ما تحب على خشية الإساءة إلى أحد.

كان فابريس، بادىء الأمر، مشدوهاً بجمال كليليا، منذ الثمانية أشهر لم يرَ عن مثل هذا القرب سوى السجانين. ولكن اسم المركيز كريسنزي، أعاد إليه غضبه، وازداد لما رأى كليليا لم تكن تجيب إلا بتحفظ حكيم. أدركت كليليا أنها تزيد شكوكه عوضاً أن تزيلها.

قالت له ببعض الغضب والدموع ملء عينيها: أتكون سعيداً وأنت جعلتني أهمل كلّ ما كان يتوجب نحو ذاتي؟ حتى الثالث من آب، السنة الماضية، لم أكن شعرت إلا برغبة الابتعاد عن جميع الرجال الذين جرّبوا أن يروقوا في عيني. كنت أضمر احتقاراً لا حدود له نحو رجال البلاط. كان كل ما يجده هذا البلاط سعيداً لا يعجبني. وأجد مزايا فريدة في سجين جيء به في الثالث من آب إلى القلعة. وما كنت أدرك الآلام التي يسببها الحسد. كانت مفاتن امرأة جميلة ومعروفة مني، طعنات خنجر في قلبي، لأني كنت أعتقد، وما زلت، قليلاً، أن هذا السجين كان كلفاً بي. وسريعاً ما تضاعفت مضايقات المركيز كريسنزي، الذي سبق وطلب يدي. ثري جدًّا ونحن معدمون. رفضتها عندما تلفظ أبي بكلمة «دير» المشؤومة؛ أدركت أني إذا تركت القلعة لن أتمكن من السهر على حياة السجين الذي يهمني مصيره. أهم احتياطاتي أنه لم يشكّ بعد، بالمخاطر المريعة التي كانت تهدّد حياته. كنتُ وعدتُ نفسي ألا أخون أبي ولا سرّي؛ ولكن هذه المرأة ذات النشاط الرائع، والعقل الراجح، والإرادة المخيفة التي تحمي السجين، قدّمت له، على ما افترض، طرائق هرب رفضها وأراد يقنعني أنه يرفض مبارحة القلعة لكي لا يبتعد عني. عندئذٍ ارتكبت خطأً جسيماً، وناضلت له خلال خمسة أيام؛ كان عليّ في هذا الوقت أن ألجأ إلى الدير وأترك القلعة: بهذا المسعى أقطع علاقاتي بالمركيز كريسنزي. لم تتوفر

لي جرأة مبارحة القلعة. وأنا فتاة فاقدة العقل، تعلّقت برجل متبدّل، أعرف ما كان سلوكه في نابولي؛ وأية حجة أملك لأعتقد أنّ مزاجه تغيّر؟ محتجز في سجن قاس غازل المرأة الوحيدة التي تمكّن أن يراها، فكانت سلوى لسأمه وإذ كان يحدثها ببعض الصعوبة اتخذت هذه السلوى مظهر عاطفة زائفة. كان هذا السجين الذي اكتسب شهرة عالمية، بفضل شجاعته، يتخيّل إمكان إثباته أن حبه أكثر من نزوة عابرة، بتعرّضه إلى مخاطر على غاية من الجسَامة، كي يتابع مشاهدة الشخص الذي يعتقد أنه يحبّه. ولكن ما إن يصبح في مدينة كبرى، محاطاً من جديد بإغراءات المجتمع، حتى يعود من جديد إلى ما كانه دائماً: رجلاً اجتماعياً مستسلماً للملذات والمغازلة وستنهي رفيقة سجنه المسكينة أيامها في أحد الأديرة، منسية عن هذا الكائن الطائش، يرافقها ندم مفرط كونها باحت له بحبها.

هذا الخطاب التاريخي قوطع عشرين مرة من فابريس. كان يحبّ بشغف، ومقتنعاً تمام الاقتناع بأنه لم يحبّ قبل كليليا، وأن مصير حياته ألا يعيش إلا من أجلها.

وسط الأشياء الجميلة يقولها، نبهت الوصيفة سيدتها أنّ الحادية عشرة والنصف دقت، وأن الجنرال قد يعود في أية لحظة. وكان الفراق قاسياً.

قالت كليليا للسجين: ربما أراك للمرة الأخيرة، أي تدبير

لصالح جماعة رافرسي قد يوفر لك طريقة قاسية لتثبت انك لست متقلباً في حبك. تركت كليليا فابريس والدموع تخنقها، وتكاد تموت من الخجل لأنها لم تتمكن من اخفاء ذلـك عن وصيفتها ولا عن السّجان غريو، خاصة أن محادثة ثانية لم تكن ممكنـة إلاّ عندمـا سيعلن الجنـرال وجـوب قضـاء السهـرة في المجتمع؛ وبما أنه منذ سجن فابريس والاهتمام الذي يوحي به لفضول رجل البلاط، وجد من الحكمة، الادعاء بأنه عرضة لنوبات نقرس مستمرة، فجولاته في المدينة خاضعة لمتـطلبات سياسية واعية، ولم تكن تقرّر غـالباً إلا لحـظة الصعود إلى العـربة.

منذ هذه السهرة في مصلى الـرخام الأسـود، غدت حيـاة فابريس سلسلة فورات نشوة. كانت حواجز كبرى عقبـة في طريق سعادته؛ ولكن أخيراً حصل على منتهى السرور الذي يرجوه: أن يكون حبيب المرأة التي تشغل كل أفكاره.

اليوم الثالث، بعد هذه المقـابلة، انتهت اشارات المصبـاح باكراً جداً، عند منتصف الليل تقريباً؛ وفي اللحظة التي انتهت، كاد رأس فابريس يكسر ببندقة كبيرة ألقيت في القسم الأعلى من مصراع نافذته، كسرت زجاجها المصنوع من الورق، وسقطت داخل الغرفة.

لم تكن هذه البنـدقة الكبيرة جداً وازنة بقدر حجمها، فتحها

فابريس بسهولة ووجد رسالة من الدوقة. تمكنت هذه أن ترشي جندياً من حامية القلعة بواسطة رئيس الأساقفة الذي كانت تتملقه باهتمام. كان هذا الجندي الماهر يخدع الخفراء عند الزوايا وأمام باب قصر الحاكم أو يتدبر الأمر معهم.

«يجب أن تهرب بواسطة حبال: ارتجف هلعاً وأنا أعطيك هذه التوصية الغريبة. أتردد منذ أكثر من شهرين كاملين لأقول لك هذه الكلمة؛ المستقبل يتكدر كل يوم، ويمكن توقع ما هو أسوأ؛ بالمناسبة استأنف اشارات مصباحك لتثبت أنك تلقيت رسالتي الخطرة، لن أتنفس حتى أرى هذه الاشارة؛ أنا في البرج. عندما تتلقى الجواب امتنع عن أية إشارة، واهتم فقط بفهم ما جاء في رسالتي».

أسرع فابريس بإصدار الإشارات المتفق عليها فأتبعت بالأجوبة المعلن عنها، ثم أكمل قراءة الرسالة.

«يمكن أن نتوقع الأسوأ كما صرّح لي ثلاثة رجال أثق بهم، بعدما جعلتهم يقسمون على الإنجيل بقول الحقيقة مهما كانت قاسية من ناحيتي. الأول هدّد الطبيب الواشي في فيراري بمهاجمته بسكين مفتوح باليد؛ الثاني يقول لك، لدى عودتك من بلجيرات، انه أشد حكمة أن تطلق طلقة من مسدسك على الفرّاش الذي كان يقبل من الغابة مغنياً وهو يقود جواداً جميلاً على شيء من الهزال؛ لا تعرف الثالث فهو قاطع طرق كبير،

من أصدقائي، رجل تنفيذ فيما لو كان تنفيذ. شجاع مثلك. طلبت منه أن يصرّح لي عما يجب أن تفعله: قال لي الثلاثة، دون أن يعرف كل منهم أنني استشرت الآخرَيْن، إنه يفضّل أن تدق عنقك من أن تقضي بعد إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر في السجن، في خوف مستمر من سم محتمل».

«يجب أن تمارس خلال شهر، في غرفتك، التسلق والانحدار، على حبل معقود، ثم في أحد الأعياد عندما تكون حامية القلعة تلقت اكرامية، خمرة، ستجرب تنفيذ مشروعك الكبير. وسيكون بين يديك ثلاثة حبال من خيوط القنب بحجم ريشة أوزّة، الأول بثمانين قدماً لكي تنحدر الخمسة والثلاثين قدماً تفصل نافذتك عن غابة البرتقال، الثاني ثلاثمائة قدم، وهنا تكمن الصعوبة بسبب الوزن لانحدار المائة والثمانين قدماً، علو جدار البرج الكبير؛ الثالث طوله ثلاثون قدماً ستستخدمها لنزول السور. أقضي حياتي في دراسة الجدار الكبير من الشرق: أي من ناحية فيراري: كان زلزال أرضي أحدث شقاً مليء بدعامة تؤلف سطحاً منحنياً. يؤكد قاطع الطريق خاصتي أنه يمكن النزول من هذه الناحية دون صعوبة، مع بعض الكشوط، على أن تترك نفسك تنزلق على السطح المنحني المؤلف من الدعامة. ولا يبلغ طول هذه سوى ثمانية وعشرين قدماً تماماً حتى أسفلها. هذه الجهة هي الأقل حراسة».

«قاطع الطريق، كان هرب من السجن ثلاث مرات ويكره

الذين هم من طبقتك؛ وهو ماهر ورشيق مثلك، ويفضل أن ينزل من ناحية الغرب، بالضبط تجاه القصر الصغير الذي كانت تأهله سابقاً فوستا التي تعرفها جيّداً. ما يجعله يقرر هذه الجهة، أن السور مع قليل الانحناء مغطى تقريباً بالأشواك، ثمة قطع خشبية، بحجم الأصبع الصّغير يمكن أن تسبّب جلوفاً إذا لم تنتبه لها، هي ممتازة للتمسك. وكنت هذا الصباح اتميّز هذه الجهة الغربية بمنظار ممتاز؛ المكان الذي يجب اختياره هو بالضبط تحت حجر جديد ركز على الحاجز الأعلى. ستجد تحت هذا الحجر عمودياً، فسحة عارية، من عشرين قدماً، يجب الانحدار ببطء كلّي (هل تشعر كم يرتجف قلبي وأنا أعطيك هذه التعليمات الفظيعة؟ ولكن الشجاعة في معرفة اختيار الأقل سوءاً مهما كان مريعاً) ستجد بعد الفسحة العادية، ثمانين أو تسعين قدماً من العليق النامي، حيث ترى العصافير تطير، ثمّ فسحة من ثلاثين قدماً ليس فيها غير أعشاب المنثور الشتوي وحشيشة الزجاج. وأخيراً لدى الاقتراب من الأرض، عشرون قدماً من العليق، وفي النهاية خمسة وعشرون قدماً أصلحت حديثاً».

ما يجعلني أقرّر هذا: عمودياً تحت حجر الحاجز الأعلى، كوخ خشبي شاده جندي في بستانه، ويريد قائد فرقة الهندسة، الموظف في القلعة، إجباره على هدمه؛ علوه سبعة عشر قدماً ومغطى بقش السقوف، والسقف يلامس سور القلعة الكبير. هذا السقف يغويني: يخفّف من حدة السقطة في حالة حصول

حادث مريع متى وصلت إلى هذا المكان، تصبح في نطاق السور المهملة حراسته من هذه الناحية؛ وإذا قبض عليك هنا، أطلق طلقات من مسدسك ودافع عن نفسك بضع دقائق. صديقك فيراري وشجاع آخر قاطع طريق، سيكون لديهما سلالم ولن يترددا من تسلق هذا السور الواطىء كفاية، للإسراع إلى نجدتك.

«السور لا يبلغ علوه سوى ثلاثة وعشرين قدماً وبعده جدار كبير من الأرض. سأكون عند أسفل هذا الجدار مع عدد كبير من المسلحين».

«آمل، أن أوصل إليك ست رسائل. بهذه الطريقة نفسها. سأردد الأمور بصيغ مختلفة، حتى نكون متفقين تماماً. أنت تعرف بأي قلب أقول لك انك قد لن تعاني إلا من كسر ذراعك. قاطع الطريق، الذي يتمتع أكثر منك بالخبرة في مثل هذه الأنواع من العمليات، يفكر انك، إذا أردت أن تنزل ببطء شديد دون أن تسرع، لن تكلفك حريتك سوى بعض الجلوف. الصعوبة الكبرى، أن تمتلك حبالاً؛ هذا ما أفكر به منذ خمسة عشر يوماً ويشغل كلّ أفكاري.

«لن أجيب عن الجنون الوحيد الذي قلته في حياتك دون «تفكير: «لا أريد أن أهرب!» الضجر جعلك مخبولاً. تخشى خطراً بارزاً جداً، ربما سيعجل يوم هربك. لكي أعلمك بهذا

الخطر، سيقول لك المصباح عدة مرات تباعاً: النار اشتعلت بالقصر».

«ستجيب:

«هل احترقت كتبي؟».

كانت هذه الرسالة تحوي ست صفحات من التفاصيل الأخرى؛ كانت مكتوبة بحروف مجهرية على ورق رقيق جداً.

كل هذا جميل وجيد الحبك، قال فابريس في نفسه؛ أنا مدين بعرفان جميل أبدي للكونت والدوقة؛ سيعتقدان ربما أنني خفت، ولكني لن أهرب قط. هل هرب أحد من مكان يجعله في منتهى السعادة، لكي يرتمي في منفى رهيب محروماً من كل شيء حتى من الهواء الذي يتنشقه؟ ما الذي سأفعله بعد شهر من وصولي إلى فلورنسا. سأتنكر لآتي وأطوف بالقرب من باب هذه القلعة، وأجرب أن أترصد نظرة!

خاف فابريس في اليوم التالي؛ كان على نافذته في نحو الحادية عشرة، ينظر إلى المشهد الرائع وينتظر اللحظة السعيدة التي يتمكن خلالها أن يرى كليليا عندما، دخل غريو ضيق النفس إلى غرفته:

ـ أسرع! أسرع! يا سيدي، ارتم على سريرك وتظاهر بأنك مريض؛ يصعد إلى هنا ثلاث قضاة! سيستجوبونك: فكّر جيداً قبل أن تجيب؛ يأتون لتضليلك بالكلام. كان غريو يسرع

بإغلاق الفتحة الصغيرة في المصراع، وهو يقول هذه الكلمات، ثم دفع فابريس على سريره، ورمى فوقه معطفين أو ثلاثة.

ـ قل، انك تتألم كثيراً وتكلم قليلاً، اجعلهم يرددون السؤال كي تتاح لك فرصة للتفكير. دخل القضاة الثلاثة. ثلاثة هاربين من الأشغال الشاقة، قال فابريس في نفسه، عندما رأى هذه الوجوه القذرة، لا ثلاثة قضاة؛ كانوا يرتدون أثواباً طويلة سوداء. سلموا بوقار، وجلسوا على المقاعد الثلاثة في الغرفة.

ـ أيها السيّد فابريس دل دونغو، قال الأكبر سناً، يؤسفنا أن نكون لمهمة كئيبة جئنا نتمها: نحن هنا لنعلمك بوفاة سمو المركيز دل دونغو والدك ثاني رئيس خدام المملكة اللومبردية ـ البندقية حامل وسام الصليب الأكبر للجمعيات من درجة فارس.

أجهش فابريس بالبكاء؛ وأكمل القاضي.

ـ تعلمك السيدة المركيزة والدتك، بهذا الخبر بواسطة رسالة مستعجلة، وانما أوردت في الخبر ملاحظات غير لائقة، فأصدرت محكمة العدل بتاريخ البارحة قراراً، بتسليمك خلاصة عن الرسالة المذكورة. وهذا الموجز هو الذي سيقرأه عليك الكاتب.

وما أن انتهت القراءة، حتى اقترب القاضي من فابريس الذي كان لا يزال مستلقياً، وجعله يتبع في رسالة والدته المقاطع التي قرأوا له نسخة عنها. رأى فابريس في الرسالة كلمات:

سجن جائر، عقاب قاس لجريمة ليست جريمة، وأدرك ما علّل زيارة القضاة. وبسبب احتقاره لقضاة عديمي النزاهة، لم يقل لهم سوى هذه الكلمات:

ـ أنا مريض، يا سادة، وأموت من الخمول، وستعذرونني ان لم أتمكن من النهوض.

بكى فابريس كثيراً، بعد خروج القضاة، ثم قال في نفسه هل أنا خبيث؟ كأنني لم أحبه قط.

كانت كليليا كئيبة هذا اليوم والأيام التي تلت؛ نادته عدة مرات، ولكن بالكاد كانت تقول له بضع كلمات. صباح اليوم الخامس بعد المقابلة الأولى أعلمته أنها ستأتي في السهرة، إلى مصلى الرخام.

قالت له وهي تدخل: لا أوجّه اليك سوى كلمات قليلة. كانت ترتجف حتى شعرت بحاجة لتستند إلى وصيفتها. وبعد أن صرفتها إلى مدخل المصلى:

ـ ستقطع لي وعد شرف بأن تطيع الدوقة وتجرّب أن تهرب في اليوم الذي ستعيّنه لك وبالطريقة التي ستأمرك بها أو سألتجىء غداً صباحاً، إلى أحد الأديرة، وأقسم لك هنا أنني لن أكلّمك بعد الآن طيلة حياتي.

بقي فابريس صامتاً.

ـ أقطع وعداً، قالت كليليا، بعدما اغرورقت عيناها بالدموع وكأنها غاضبة، أو اننا نتكلم هنا للمرة الأخيرة. جعلت حياتي مقيتة: أنت هنا بسببي، وكل يوم، هو ربما الأخير من حياتك. كانت كليليا على قدر كبير من الضعف حتى أجبرت أن تفتش عن متكأ في مقعد ضخم وسط المصلّى. كانت على وشك أن يغمى عليها.

ـ ما الذي يجب أن أعد به؟ قال فابريس مرهقاً.

ـ أنت تعرف.

ـ أقسم بأني سأرمي نفسي عن قصد بين أحضان مكروه رهيب وأن ألتزم العيش بعيداً عن كلّ ما أحب في الدنيا.

ـ عد بأشياء محددة.

ـ أقسم بأن أطيع الدوقة، وأن أهرب من السجن في اليوم الذي تريده وكما تريد. ما سيحل بي متى ابتعدت عنك؟.

ـ أقسم أن تهرب مهما يحصل.

ـ ماذا؟ هل أنت مصممة على الاقتران بالمركيزة كريسنزي بعد ابتعادي عن هذا السجن؟.

ـ يا إلهي! أي انسانة تحسبني؟.. ولكن، أقسم أو لن يبقى لروحي لحظة اطمئنان.

ـ حسناً! أقسم أن أهرب من هنا في اليوم الذي تحدده السيدة سنسفرينا مهما أمكن أن يحصل خلال هذه المدة.

ما أن حصلت كليليا على هذا القسم حتى أكرهت على الانصراف، بسبب ضعفها بعد أن شكرت فابريس.

في اليوم التالي، وجدها ممتقعة اللون، فسبّبت له غماً كبيراً. قالت له من نافذة المطيرة:

ـ علينا ألا نستسلم للأوهام، يا صديقي العزيز، بما أن علاقتنا قائمة على خطأ، سيحصل لنا مكروه. ستكتشف ذلك وأنت تسعى للهرب، إذا لم يحصل لك ما هوأسوأ؛ انما يجب الاستجابة،الحكمة البشرية، تأمرنا أن نحاول كل شيء. يلزم لك للنزول، عدا البرج الكبير، حبل متين طوله مائتا قدم. بالرغم من كل الاهتمام الذي أوليته لهذا الأمر منذ معرفتي بمشروع الدوقة لم أتمكن أن استحصل إلا على حبال تجمع خمسين قدماً. تحرق كل الحبال التي في القلعة، وترفع من الآبار، كل مساء، بأمر يومي من الحاكم. وهذه الحبال، من ناحية أخرى، ضعيفة وتنقطع وهم يصعدونها. ولكن أصلي إلى الله حتى يغفر لي، انني أخون أبي، وأعمل لأسبب له غماً قاتلاً. صلّ إلى الله من أجلي، وإذا نجوت من الموت، أنذر أن تخصص كل لحظات حياتك لمجد الله.

فكرة خطرت لي: سأخرج من القلعة، بعد ثمانية أيام، لأحضر حفلة قران إحدى شقيقات المركيز كريسنزي، سأعود في المساء، كما اللائق، ولكن سأقوم بأي عمل كي أعود متأخرة

جداً. لن يجرؤ باربون، أن يتفحصني عن قرب. سوف تحضر، حفلة القران أعظم سيدات البلاط ودون شك السيدة سنسفرينا. باسم الله! اسع كي تسلمني واحدة من هؤلاء السيدات، رزمة حبال مشدودة تماماً غير ضخمة ومصغرة الحجم قدر الإمكان. لو اضطررت حتى أن أتعرض إلى ماية ميتة، سأستعمل أشدّ الطرائق خطراً، لأدخل رزمة الحبال هذه إلى القلعة، دون مراعاة واجباتي، إذا علم أبي بالأمر فلن أراك أبداً؛ ولكن مهما كان المصير الذي ينتظرني، سأكون سعيدة ضمن حدود صداقة أخوية، إذا تمكنت أن أساعد في انقاذك.

أعلم فابريس الدوقة، في المساء نفسه، خلال الاتصال الليلي، بواسطة المصباح، عن المناسبة الفريدة التي ستتوفر لادخال كمية كافية من الحبال إلى القلعة. ولكنه كان يرجوها أن تحفظ السر حتى تجاه الكونت. مما بدا لها غريباً. فكرت الدوقة أنه جن. بدّله السجن. ينظر إلى الأمور من ناحيتها المأسوية. في اليوم التالي، أوصل رامي المقلاع، كرة رصاص، حملت له إعلاماً بأعظم خطر يتهدده: إن الشخص الذي سيتولى إدخال الحبال إلى القلعة ينقذ حياته بشكل أكيد. أسرع فابريس وأخبر كليليا الحدث. كانت كرة الرصاص تحمل أيضاً لفابريس منظراً مطابقاً عن الجدار الغربي، الذي يتوجب أن ينحدر عليه من أعلى البرج الكبير في الفسحة الكائنة بين المعاقل؛ من هذا المكان، كان من السهل الهرب. لم يكن علو الأسوار يزيد عن

الثمانين قدماً، وهي محروسة بتراخٍ، وعلى المقلب بخط رفيع ودقيق سوناتة ممتازة: نفس كريمة تستحث فابريس للهرب وعدم ترك نفسه تنحط وجسده ينهار بإحدى عشرة سنة من الأسر الباقي عليه أن يكابدها.

هنا تفصيل ضروري يفرض نفسه، يفسر بعض شجاعة الدوقة بنصحها لفابريس هرباً خطيراً ويجبرنا أن نتوقف لوقت قصير عن متابعة قصة هذه العملية الجريئة. ككل الأحزاب التي ليست في الحكم، لم يكن حزب رافرسي موحداً. الفارس راسكاري يكره القاضي راسي ويتهمه بأنه خسّره دعوة هامة، وكان راسكاري مخطئاً فيها. تلقى الأمير، بواسطة راسكاري، إعلاماً مغفلاً ينبهه إلى أن الحكم على فابريس كان أرسل رسمياً إلى حاكم السجن. اغتاظت المركيزة رافرسي من هذا الاجراء الخاطىء، وأعلمت فوراً صديقها القاضي بالأمر، كانت تجد في منتهى البساطة، أن يفيد شيئاً من الكونت موسكا ما دام هذا في الحكم. أتى راسي، بكل جرأة، إلى القصر وهو يفكر أنه يتخلّص من الورطة ببعض اللبطات؛ لم يكن يمكن الكونت أن يستغني عن متشرع ماهر، وراسي كان نفى قاضياً ومحامياً بصفتيها ليبيراليين، الرجلين الوحيدين في البلاد كان بامكانهما أن يحلاّ محلّه.

استشاط الأمير غضباً وأوسعه شتماً، وكان يتقدّم منه ليضربه.

أجاب راسي بكل شجاعة، انه سهو كاتب راسي. الأمر منصوص عنه في القانون، كان يجب تنفيذه في اليوم التالي لسجن دل دونغو في القلعة. اعتقد الكاتب المتحمس أنه ارتكب سهواً، وجعلني أوقع كتاب الإرسال كأمر شكلي.

ـ وتدعي أنك تجعلني أؤمن بكذبات ضعيفة كهذه، صاح الأمير غاضباً؛ قل بالأحرى، انك بعت نفسك لهذا الماكر موسكا، ولهذا السبب منحك الوسام. ولكن تبا لك، لن تنجو ببعض الضربات، سأحاكمك وأطردك من الوظيفة بخزي.

ـ أتحدّاك أن تباشر محاكمتي! أجاب راسي بثقة؛ كان يعرف أنّ هذه هي طريقة أكيدة كتهدئة غضب الأمير: القانون بجانبي، وليس عندك راسي آخر يعرف أن يتملص منه. لن تعفيني من وظيفتي، لأنك تمرّ ببعض اللحظات يكون فيها طبعك قاسياً. أنت عطش للدماء؛ وفي الوقت نفسه تريد أن تحتفظ بتقدير الايطاليين العقلاء، وهذا التقدير شرط لإرضاء طموحك. وأخيراً، ستطلب مني العودة عند أول اجراء قاس سيحتاجه مزاجك، وكالعادة سأوفر لك حكماً قانونياً يصدره قضاة جبناء وعلى قدر من الاستقامة، وسيرضي أهواءك. جد في مقاطعاتك رجلاً له نفعي.

بعدما أنهى راسي كلامه، هرب. نجا بضربة عصا وخمس أو ست رفسات. ذهب إلى ممتلكاته في ريفا، بعد خروجه من

القصر. كان يخشى طعنة خنجر في سورة غضب الأمير الأولى. ولكنه لم يشك بأن رسولاً سيأتي ويستدعيه إلى العاصمة قبل مضي خمسة عشر يوماً. قضى وقته في الريف، في ترتيب طريقة اتصال بالكونت موسكا. كان شغوف بلقب بارون، ويفكّر أن الأمير يقدّر هذا الذي كان في الماضي جليلاً كي يجعله راسي من طبقة الأشراف. بينما كان الكونت شديد الافتخار بنسبه لم يكن يعتبر إلا النبالة المثبتة ببراءات قبل العام ١٤٠٠.

لم يخطىء القاضي بتخميناته. بعد ثمانية أيام على وجوده في ممتلكاته، وصل صدفة أحد أصدقاء الأمير ونصحه بالعودة إلى بارما دون تأخير؛ استقبله الأمير ضاحكاً، وبكل رصانة جعله يقسم على الانجيل انه يحتفظ بسرّ سيبوح له به. اقسم راسي برزانة. صاح الأمير، والكره يتّقد في عينيه، أنه لن يكون سيّداً في مملكته ما دام دل دونغو على قيد الحياة.

أضاف: لا أستطيع أن أطرد الدوقة ولا احتمال وجودها؛ نظراتها تتحداني وتمنعني من الحياة.

بعدما أفسح أمام الأمير ليشرح بإسهاب ما يريد، تظاهـر راسي بأقصى الارتباك وصاح أخيراً:

ـ سيطاع سموك، دون شك ولكن الأمر في غاية الصعوبة ليس من أثر لإمكان الحكم بالموت على أحد آل دونغو من أجل اغتيال جيليتي. انتصار حقيقي مدهش إذ هذا وفّر لنا فرصة

للحكم بإثني عشر سنة سجن في القلعة. وأشك أن الدوقة اكتشفت ثلاثة فلّاحين كانوا في حفريات سنسفينيا خارج الحفرة، لحظة هاجم اللص جيليتي دل دونغو.

قال الأمير غاضباً: أين الشهود؟.

ـ مختبئون في البيمونت كما أظنّ. قد تكون مؤامرة على حياتك.

قال الأمير: هذه الطريقة لها مخاطرها، تدفع إلى التفكير بهذا الأمر.

ـ ولكن مع هذا، قال راسي، ببراءة مصطنعة، هذا كل ما أملكه من وسائل رسمية.

ـ يبقى السم..

ـ من يعطيه؟ كونتي هذا الأبله؟.

ـ لن تكون تلك تجربته الأولى.

قال راسي: يجب اغضابه من ناحية أخرى عندما أرسل النقيب لم يكن بلغ الثلاثين وكان مغرماً وأقل خوفاً بكثير منه في أيامنا. كل شيء، يجب حتماً أن يخضع لمصلحة الدولة العليا. ولكن، على غفلة، لا أرى لتنفيذ أوامر الملك سوى شخص يدعى باربون، كاتب محكمة في السجن، كان السيد دل دونغو رماه أرضاً بلطمة، يوم دخوله السجن.

ما أن وجد الأمير راحته حتى غدا الحديث لا نهاية له. انهاه

بمنح القاضي مهلة شهر؛ وكان راسي يريد شهرين. تلقّى، في اليوم التالي، علاوة سرية قدرها ألف سكي. فكر بالأمر ثلاثة أيام، وفي الرابع عاد إلى تصوره الذي واضحاً: يمكن للكونت موسكا وحده المحافظة على وعده، لأنه عندما يرفعني إلى رتبة بارون لا يمنحني ما يعتبره؛ ثانياً بتحذيري إياه، أتخلص من جريمة دفع لي لتنفيذها المال المستحق. ثالثاً أنتقم للإهانات الأولى التي تلقاها الفارس راسي. في الليل التالي نقل إلى الكونت موسكا حديثه كاملاً مع الأمير.

كان الكونت يغازل الدوقة سراً؛ لا يراها في بيتها سوى مرة أو اثنتين في الشهر، ولكن كل اسبوع عندما يجيد خلق الظروف الملائمة للتحدث عن فابريس، كانت الدوقة تأتي برفقة شكينا، متأخرة في السهرة لقضاء بعض الوقت في بستان الكونت. كانت تتقن إلى تضليل حتى حوذيها، المخلص وكان يعتقد أنها تزور بيتاً مجاوراً.

بعد أن تلقى الكونت النبأ سراً من القاضي، قام بالإشارة المتفق عليها. ومع أن الليل كان انتصف، رجته بواسطة شكينا أن يأتي فوراً إلى بيتها. كان الكونت مغرماً حتى الجنون ويتردد أن يبوح، بكل شيء عرفه، للدوقة خوفاً عليها من أن تصاب بالجنون.

بعد أن فتش عن انصاف الكلمات ليخفف من وقع الاعلان

المشؤوم، انتهى بقول كل شيء؛ لم يكن في مقدوره أن يخفي شراً كانت تطلب منه البوح به. كان لهذه المصيبة الكبرى، منذ تسعة أشهر، أثر كبير على هذه النفس المتوقدة، وسبق أن شجعتها. لم تنفجر الدوقة بالنحيب أو بالتشكي.

في اليوم التالي، مساء، طلبت أن ترسل إلى فابريس إشارة الخطر الأكبر.

النار اشتعلت في القصر.

أجاب بالضبط:

هل احترقت كتبي؟.

في الليلة نفسها أوصلت رسالة بواسطة كرة رصاص. ثمانية أيام بعد ذلك، عقد قران شقيقةالمركيز كريسنزي وارتكبت الدوقة عملاً في منتهى الطياشة. سننقله في مكانه.

٢١

بين مختلف مصائبها، انقضى قرابة السنة على اللقاء مع الدوقة: ذات يوم، كانت غارقة في موجة من السوداوية، كما يقال في البلاد ذهبت دون موعد، عند المساء إلى قصرها في ساكا عند التلة التي تشرف على البو. كانت تجد لذة خاصة بتجميل هذه الأرض تحبّ الغابة الواسعة التي تتوّج التلة الملاصقة للقصر؛ وتهتم بتخطيط سبل في اتجاهات رائعة.

ـ ستجعلين قطّاع الطرق يخطفونك، أيتها الدوقة الجميلة، قال لها الأمير ذات يوم. من المستحيل على غابة يعرفون أنك تتنزهين فيها، أن تبقى صحراء. وألقى الأمير نظرة على الكونت لينعش غيرته.

ـ ليس عندي مخاوف، يا صاحب السمو، أجابت الدوقة ببراءة، عندما أتنزه في الغابة؛ اطمئن نفسي بهذه الفكرة: لم أسيء إلى أحد يمكنه أن يكرهني؛ وجد الأمير هذا الحديث جريئاً، يذكّر بالشتائم الكان يتلفظ بها الليبيراليون في البلاد. ثمة أناس في منتهى الوقاحة.

خلال النزهة عاد حديث الأمير إلى ذهن الدوقة، عندما لاحظت رجلاً يرتدي ثياباً رثة يتبعها عن بعيد في الغابة. عند عطفة مفاجئة، قامت بها الدوقة، وجدت هذا الغريب قريباً حتى اعتراها الخوف. ردّة فعلها الأولى أن نادت، خفير الصيد خاصتها كانت تركته على ألف خطوة، في روضة الأزهار، قريباً من القصر. وجد المجهول الوقت للاقتراب منها فارتمى على قدميها. كان شاباً، ويتمتّع بخلقة جميلة للغاية ولكن هندامه مرعب؛ يرتدي ثياباً ممزقة طول كلّ مزق قدم، وعيناه تشفان عن نفس متقدة.

ـ محكوم بالإعدام، أنا الطبيب فيرانت بيلا، أموت جوعاً وأولادي الخمسة.

لاحظت الدوقة أنه شديد الهزال؛ ولكن عينيه على قدر كبير من الجمال ومملؤتان بحماسة حنون. حتى أزالت من ذهنها فكرة الجريمة. فكرت: كان على بالاجي أن يعطي مثال هاتين العينين إلى مار يوحنا في الصحراء الذي وضعه في الكاتدرائية. أوحى هزال فيرانت الذي لا يصدق فكرة مار يوحنا. أعطته الدوقة ثلاثة ريالات كانت في حافظتها، معتذرة عن تقديم هذا المبلغ القليل لأنها دفعت حساب البستاني. شكرها فيرانت برفق ـ قال لها: في الماضي كنت أسكن المدن، وأرى النساء المتأنقات؛ منذ بدأت بملء واجباتي كمواطن، وتسببت في الحكم عليّ بالموت، أعيش في الغابات، وكنت أتبعك، لا لأطلب منك الحسنة، أو لسرقتك، ولكن كمتوحش مبهور بجمال ملائكي. مـرّ وقت طويل لم أرَ فيه يدين جميلتين بيضاويتين!.

ـ قف إذن، قالت له الدوقة؛ إذ كان لا يزال ساجداً أمامها على ركبتيه.

قال فيرانت: اسمحي لي أن أبقى هكذا، هذا الوضع يثبت أنني لا أشغـل نفسي في الوقت الحـاضر بـالسرقـة، ويجعلني مطمئناً؛ إني أسرق لأعيش منذ أن مُنِعْتُ من ممارسة مهنتي. ولكن في هذه اللحظة لست سوى إنسان يعبد الجمال الرائع. أدركت الدوقة أنه على شيء من الجنون، ولكن لم تخف قط؛ كانت ترى في عيني هذا الرجل نفساً متوقدة وطيبة، ومن ناحية أخرى لم تكن تكره الوجوه الغريبة.

أنا طبيب، وكنت أغازل زوجة سرازين صيدلي بارما. فاجأنا فطردها مع أولادها الثلاثة الذين كان يشك، وعن حق، أنهم مني وليسوا منه. ولد لي اثنان بعد ذلك. الأم والأولاد يعيشون في الفقر المدقع، في كوخ بنيته بيدي، في الغابة على فرسخ من هنا. يجب أن أحمي نفسي من رجال الدرك والمرأة المسكينة لا تريد أن تنفصل عني. حكم علي بالإعدام، وعن حق: كنت أتآمر. أكره الأمير، لأنه طاغية. لم أهرب لأنه لم يكن لديّ دراهم..مصائبي أكبر بكثير، كدتُ أنتحر ألف مرة؛ لم أعد أحب المرأة التعيسة التي أعطتني خمسة أولاد. ولكن إذا قتلت نفسي يموت الأولاد الخمسة والأم من الجوع. كانت لهجة هذا الرجل صادقة.

ولكن كيف تعيشون؟ قالت الدوقة.

ـ أم الأولاد تغزل؛ الابنة البكر تعيش في إحدى مزارع الليبيراليين ترعى الأغنام؛ أنا أسرق على الطريق من بليزانس إلى جنوى.

ـ كيف توافق بين السرقة ومبادئك الليبيرالية؟.

ـ أسجّل الناس الذين أسرقهم وإذا أصبح معي يوماً بعض المال، سأعيد إلى كلّ منهم المبالغ المسروقة. محام عن الشعب مثلي ينفذ عملاً، يستحق بالنسبة لخطورته مائة فرنك شهرياً وهكذا أحترس تماماً أن آخذ أكثر من ألف ومائتي فرنك في السنة.

أنا أخدع نفسي. أسرق بعض القيم القليلة إلى هذا المبلغ، لكي أجابه تكاليف طبع كتبي بهذه الطريقة.

- أي كتب؟.

- ال... هل سيكون لها غرفة وموازنة؟.

قالت الدوقة بدهشة: ماذا، هل تكون أنت أكبر شعراء العصر: فيرانتي بالا المشهور!

- مشهور، ربما، ولكن تعيس جداً!.

- رجل بموهبتك، أيها السيد، يضطر أن يسرق ليعيش! الآن جميع مؤلفينا اشتهروا أناساً يتلقون أموالاً من الدولة أو من الطقس الذي كانوا يريدون زعزعته. أنا، أولاً أعرّض حياتي للخطر، ثانياً، تأمّلي سيدتي، بما يعتلج في داخلي من أفكار، عندما أذهب لأسرق! هل أنا في الحق، قلت لنفسي؟ مركز الخطيب الشعبي يؤدي خدمات تستحق فعلاً مائة فرنك في الشهر! عندي قميصان والثوب الذي ترين وبعض الأسلحة الرديئة. وأنا متأكد: سأنتهي على حبل المشنقة: وأجرؤ على الاعتقاد أني نزيه. سأكون سعيداً لولا هذا الحب المحتوم الذي أصادف معه المكروه بالقرب من أم أولادي. يثقل الفقر كاهلي كأمر شنيع: أحبّ الثياب الفاخرة والأيدي البيضاء.

كان يحدق بيدي الدوقة حتى أن الخوف استولى عليها.

- قالت له، وداعاً، يا سيدي، هل أتمكن أن أخدمك بشيء في بارما؟.

ـ فكّري، أحياناً بهذا الأمر: وظيفته ايقاظ القلوب ومنعها من الاستسلام إلى هذه السعادة المادية الخاطئة توفرها الأنظمة الملكية. أتستحق الخدمة التي يؤديها إلى مواطنيه مائة فرنك في الشهر؟.. وقال بمنتهى اللطف، مصيبتي اني أحب، ومنذ ما يقارب السنتين، روحي غير مشغولة إلا بك، ولكن حتى الآن كنت أراك دون أن أخيفك. وهرب بسرعة فائقة أدهشت الدوقة، وأضفت عليها الاطمئنان. وفكّرت: من الصعب على رجال الدرك الوصول إليه. في الحقيقة، مجنون.

ـ مجنون، قال لها الناس؛ نحن نعرف منذ أمد بعيد أن هذا الرجل المسكين مغرم بالسيدة؛ عندما تكون هنا نراه يتجوّل في المناطق الأكثر ارتفاعاً من الغابة، وما تذهب السيدة حتى يأتي ويجلس في الأماكن ذاتها التي توقفت فيها يجمع، بغرابة، الأزهار التي تكون سقطت من باقتها ويعلّقها طويلاً بقبعته الممزقة.

قالت الدوقة بلهجة قريبة من التوبيخ: لم تحدثوني أبداً عن هذه الحماقات.

ـ كنا نخشى، أن تنقل السيدة هذا الأمر إلى الوزير موسكا. فيرانتي المسكين طيب الخلق. لم يسىء أبداً إلى أيّ إنسان، ولأنه يحب نابوليوننا حكم عليه بالإعدام.

لم تقل للوزير كلمة واحدة عن هذا اللقاء، وبما أنه منذ أربع سنوات كان السر الأول الذي تخفيه، عشر مرات، أجبرت أن

تصمت قبل أن تنهي جملة. عادت إلى ساكا مع ذهب. لم يظهر فيرانتي قط. عادت خمسة عشر يوماً بعد ذلك: وبعد أن تبعها فيرانتي وهو يقفز في الغابة، على مائة خطوة، انقض عليها بسرعة الصفر وارتمى على ركبتيها كالمرة الأولى.

ـ أين كنت منذ خمسة عشر يوماً!.

ـ في الجبل وراء نوفي، لأسرق الأكارين العائدين من ميلانو حيث كانوا باعوا زيتاً.

ـ أقبل مني هذه الصرة.

ـ فتح فيرانتي الصرة وأخذ منها ريالاً واحداً، فقبله ووضعه على صدره، ثم أعاده.

ـ أنت تعيد إليّ صرة الدراهم ثم تسرق.

ـ دون شك؛ لا يجب أن يكون معي أبداً أكثر من مائة فرنك؛ والحال هذه مع أم أولادي الآن ثمانون فرنكاً ومعي أنا خمسة وعشرون، لدى إذاً خمس فرنكات أكثر مما يجب أن يكون معي، فإذا شنقت في هذه اللحظة سيعضني الندم. أخذت هذا الريال لأنه يأتي منك ولأني أحبك.

كانت نبرة هذه الكلمة البسيطة كاملة. قالت الدوقة في نفسها أنه يحب فعلاً.

في ذلك اليوم. كان يبدو ضائعاً تماماً. قال إن في بارما ناساً يدينون له بستمائة فرنك وأنه بهذا المبلغ سيجري إصلاحات في

كوخه حيث يصاب الآن أولاده المساكين الصغار بالزكام.

ـ سأسلّفك الستمائة فرنك هذه، قالت الدوقة متأثرة كل التأثر.

ـ ولكن، أنا موظف عام، ألا يمكن للحزب المناوىء عندئذ أن يشي بي بحجة أني أرتشي.

حنَّ قلب الدوقة فقدّمت له مكاناً للاختباء في بارما إذا أقسم أنه لن يمارس مهنته في الوقت الحاضر وفي هذه المدينة، وانه لن ينفذ أياً من أحكام الاعدام التي يعرفها سرّاً. وإذا شنقت، بسبب عملي الطائش هذا، قال فيرانتي برصانة، كل هؤلاء اللؤماء، الذين يلحقون أضراراً فادحة بالشعب، سيعيشون طويلاً. وعلى من يقع الخطأ؟ ماذا سيقول لي أبي وهو يستقبلني في السماء؟.

تكلمت الدوقة طويلاً على أولاده الصغار وكيف يمكن أن تسبب الرطوبة لهم أمراضاً مميتة؛ وانتهى به الأمر، بقبول المخبأ في بارما.

الدوق سنسفرينا، في نصف النهار الوحيد الذي قضاه في بارما منذ زواجه، كان دلّ الدوقة على مخبأ غريب في الزاوية الجنوبية من القصر. جدار الشرفة الذي يعود إلى القرون الوسطى تبلغ سماكته ثمانية أقدام. جوّف من الداخل، مخبأ علوه عشرون قدماً، ولكن عرضه قدمان فقط. بجانبه تماماً ينظر

إلى خزان ماء المدينة، تذكره كل الرحلات، بناء مشهور يعود إلى القرن الثاني عشر، أحدث أثناء حصار الامبراطور سجسموند لبارما وضم لاحقاً إلى سور قصر الدوق، سنسفرينا.

يُدخَل إلى المخبأ بتحريك حجر ضخم على محور حديد وسط الكتلة الحجرية. وكانت الدوقة متأثرة إلى حدٍّ بعيد بسبب جنون فيرانتي ومصير أولاده.

كان يرفض بعناد كل هدية ذات قيمة، حتى أنها سمحت له باستعمال هذا المخبأ مدة طويلة، رأته مرة ثانية شهراً بعد ذلك في غابة ساكا. كان، يومها، أكثر هدوءاً، فقرأ لها واحدة من قصائده التي بدت لها، مساوية أو أفضل من كل ما قيل من شعر في ايطاليا منذ قرنين. حصل فيرانتي على عدة مقابلات؛ ولكن حبه اهتاج وبات ملحفاً. ولاحظت الدوقة أنّ هذه العاطفة تراعي سنن أنواع الحب ذات بصيص أمل ضعيف لتحقيقها. صرفته إلى غابته ومنعته من أن يوجه إليها الكلام: أطاع فوراً وبهدوء. كانت الأمور وصلت إلى هنا عندما ألقي القبض على فابريس. تقدّم كاهن كبوشي من باب قصر سنسفرينا، عند هبوط الليل، ثلاثة أيام بعد ذلك، وكان لديه سر هام يودّ أن يبلّغه لسيدة القصر. كانت يومئذٍ في منتهى البؤس، فسمحت له بالدخول: فإذا هو فيرانتي. عمل جائر جديد، يجب أن يطّلع عليه خطيب الشعب، قال لها هذا الرجل

المشغوف بها. وأضاف: أتصرّف من ناحية أخرى، باعتباري فرداً عادياً لا أتمكن أن أقدّم إلى السيدة الدوقة سنسفرينا سوى حياتي، وها أنا أحملها إليها.

أثَّر هذا الاخلاص المتناهي من سارق ومجنون أشدّ التأثير في الدوقة. تحدثت طويلاً مع هذا الذي يعتبر أعظم شاعر في شمالي ايطاليا. فبكى كثيراً. هذا رجل يفهم قلبي، كانت تقول في نفسها. ظهر في اليوم التالي عند تلاوة صلاة «البشارة» متنكراً بثياب أحد الخدم.

ـ لم أبارح بارما، سمعتُ من يقول أمراً فظيعاً لن يردده فمي؛ ولكن ها أنذا. فكّري، يا سيدتي، بما ترفضين! الكائن الذي ترينه أمامك ليس دمية بلاط، انه رجل! كان راكعاً على ركبتيه عندما تلفظ بهذه الكلمات، بلهجة تعطيها كلّ قيمتها. وأضاف: البارحة، قلت في نفسي، بكت بوجودي. أنها أقل تعاسة، من قبل!.

ـ ولكن، سيّدي، فكّر بالمخاطر التي تحيق بك، سيلقون القبض عليك، في هذه المدينة!.

ـ يقول لك محامي الشعب: أيتها السيدة، ما الحياة عندما يتكلم الواجب؛ الرجل التعيس الذي يتألّم لعدم الشعور بالميل إلى الفضيلة. منذ أن أحرقه الحب، يضيف: أيتها السيدة، فابريس رجل مروءة سوف يموت بعد قليل، لا ترفضي رجل

مروءة آخر يقدم لك نفسه! هذا جسد حديدي، وقلب لا يخشى شيئاً في العالم سوى إغضابك.

- إذا كلّمتِني بعد الآن على مشاعرك، سأغلق بابي نهائياً بوجهك.

خطر ببال الدوقة أن تخبر فيرانتي، ذاك المساء، أنها ستخصص نفقة صغيرة لأولاده، ولكنها خافت أن يذهب من بيتها ويقتل نفسه.

ما خرج من عندها مملوءاً بالهواجس الشريرة، حتى قالت في نفسها: أنا أيضاً قد أموت. لو أمكنني أن أجد رجلاً أهلاً لأوصيه بفابريس المسكين.

استولت فكرة على الدوقة: أخذت قصاصة ورق واعترفت كتابة، بعد أن أدخلت بعض الكلمات الحقوقية التي تعرفها، أنه وصلها من السيد فيرانتي بالا مبلغ ٢٥٠٠٠ فرنك بشرط أن تدفع كل سنة ايراداً مدى الحياة قدره ١٥٠٠ فرنك إلى السيدة سيرازين وأولادها الخمسة إضافة إلى ايراد مدى الحياة قيمته ٣٠٠ فرنك لكل من أولادها الخمسة، شرط أن يعالج فيرانتي بالا كطبيب ابن أخي فابريس دل دونغو ويكون له أخاً. أرجوه أن يتمم هذا الشرط. ثم وقعت وسبقت التاريخ سنة وطوت الورقة.

ظهر فيرانتي بعد ذلك بيومين. حدث هذا الأمر وقت كانت

المدينة بكاملها مضطربة بسبب شائعة عن قرب تنفيذ حكم الإعدام بفابريس. سوف يجري هذا الاحتفال الكئيب في القلعة أو تحت أشجار الجنينة العامة. ذهب عدة رجال من الشعب ذلك المساء، للتنزه أمام باب القلعة لمعرفة ما إذا كانوا ينصبون المقصلة: هذا المشهد أثر في فيرانتي. وجد الدوقة غارقة في الدموع، وعاجزة عن الكلام. حيّته بيدها وأشارت إلى أحد المقاعد. كان فيرانتي رائعاً يومها وهو متنكر بثوب كاهن ـ كبوشي. وعوضاً عن الجلوس، سجد وصلى بورع وصوت منخفض. بدت الدوقة أكثر هدوءاً. ودون أن يبدل من وضعه، انقطع عن صلاته ليقول هذه الكلمات:

ـ من جديد يقدّم حياته.

ـ فكّر بما تقول صاحت الدوقة، بهذه العين الزائفة التي تنبىء أنّ الغضب يتغلّب على الحنان، بعد الانتخاب.

ـ إنه يهب حياته ليضع عقبة في طريق فابريس أو لينتقم له.

أجابت الدوقة: ثمة حالة أتمكن أن أقبل فيها هبة حياتك.

كانت تنظر إليه بانتباه صارم. التمعت ومضة من الفرح في نظرتها؛ وقف بسرعة، ورفع ذراعيه نحو السماء. ذهبت الدوقة وتذرّعت بورقة في مكان سري من خزانة جوز كبرى.

ـ اقرأ، قالت لفيرانتي. كانت الهبة تلك لصالح أولاده.

الدموع والانتخاب منعا فيرانتي من قراءة النهاية؛ فارتمى ساجداً.

ـ أعد إلي هذه الورقة، قالت الدوقة، وأشعلتها من الشمعة أمامه.

أضافت: لا يجب أن يظهر اسمي، إذا ألقي القبض عليك، ونفذ فيك الاعدام.

ـ فرحي في أن أموت وأنا ألحق الضرر بالطاغية، وسيكون فرحي أعظم بكثير إذا متّ من أجلك: وما دمنا متفقين ومتفاهمين حول هذا الأمر، تكرمي بعدم ذكر هذا التفصيل عن الدراهم. أرى فيه شكاً مهيناً.

ـ إذا تعرّضت للشبهة، قد أتعرض أنا أيضاً. أردفت الدوقة، وفابريس بعدي: لهذا السبب لا لأني أشك بشجاعتك، أطلب أن يسمم الرجل الذي يمزق قلبي، ولا يقتل بغير هذه الطريقة. لهذا السبب نفسه، وهذا الهام من ناحيتين، آمرك أن تفعل كل ما باستطاعتك كي تنجو بنفسك ولا يلقى القبض عليك.

ـ سأنفذ بكل أمانة، ودقة وحكمة. أتوقع، سيدتي الدوقة، أن يمتزج انتقامي بانتقامك: وان اختلف الأمر، سأطيعك أيضاً بأمانة ودقّة وحكمة. قد لا أنجح في مهمتي ولكنني سأستعمل كل قوتي.

ـ الأمر يتعلق بتسميم قاتل فابريس.

ـ كنت تنبأت عن الأمر. منذ سبعة وعشرين شهراً، وأنا أعيش هذه الحياة التافهة والممقوتة، فكرت منذ أمد طويل بعمل مماثل لحسابي.

ـ إذا اكتشفت وحكم عليّ كشريكة، أكملت الدوقة بشيء من الفخر، لا أريد أن ينسب إليّ أني ضللتك. آمرك بألا تجرب أن تراني قبل عهد انتقامنا: الأمر يتعلق في ألا تميته قبل أن أكون أعطيتك الاشارة. موته في هذا الوقت، سيكون شؤماً عليّ عوضاً من أن يكون نافعاً. لا يجب أن تحدث وفاته قبل أشهر، ولكنها ستحدث. أطلب أن يموت بالسم وأفضّل أن أراه يحيا من أن أراه مصاباً بطلق ناري. وأطلب، من أجل مصالح لا أريد أن أكشف عنها الآن، أن تبقى حياتك مصانة.

كان فيرانتي مبتهجاً بهذه اللهجة المتسلطة اعتمدتها الدوقة معه؛ كانت عيناه تلمعان بسرور عميق. وكان شديد الهزال؛ ولكن كان يبدو جميلاً جداً في شبابه الأول؛ ويعتقد أنه باقٍ ما كانه في الماضي. هل أنا مجنون، قال في نفسه، أو أن الدوقة تريد يوماً أن تجعل مني الرجل الأكثر سعادة بعدما أعطيها برهاناً عن اخلاصي؟.

في الواقع لم لا؟ ألا أساوي الكونت موسكا، الدمية، الذي ليس لديه عند الحاجة ما يقدمه لها، ولا حتى تهريب المونسينيور فابريس؟.

ـ ربما أردت موته منذ الغد، أكملت الدوقة، باللهجة السلطوية نفسها. أنت تعرف خزان الماء الضخم في زاوية القصر بالقرب من المخبأ الذي شغلته بعض المرات. ثمة طريقة سرية

لإراقة كل هذه الماء في الشارع: سيكون ذلك اشارة انتقامي وسترى إذا كنت في بارما، أو ستسمع إذا كنت تسكن الغابات، أن خزان سنسفرينا انفجر. تصرف فوراً، ولكن بالسمّ، وخاصة لا تعرّض حياتك. أتمنى ألا يعرف أحد قط أنّ لي دخلاً في هذه المسألة.

ـ لا فائدة من الكلام، أجاب فيرانتي بحماس لم يتمكن أن يخفيه. أنا منذ اليوم أعرف الطرائق التي سأستعملها. حياة هذا الرجل أكرهها ولن أراك طالما هو باق حياً. انتظر إشارة انفجار الخزان في الشارع. ألقى التحية فجأة وذهب. كانت الدوقة تنظر إليه يمشي.

عندما أصبح في الغرفة الثانية دعته.

ـ فيرانتي! صاحت؛ رجل عظيم!.

عاد، وكأنه متبرم كونه لا يزال محجوزاً؛ كان وجهه رائعاً في هذه اللحظة.

ـ وأولادك؟.

ـ يا سيدتي، سيكونون أشد ثراء مني؛ ستعطينهم ربما نفقة صغيرة.

ـ خذ، قالت الدوقة، وهي تعطيه علباً من خشب الزيتون، هذه جميع الماسات المتبقية لي؛ تساوي خمسين ألف فرنك.

ـ آه، يا سيدتي! تخجلينني! قال فيرانتي، بحركة هلعة؛ وتبدل وجهه.

ـ لن أراك قط قبل التنفيذ: خذ ـ آمرك، أضافت الدوقة بكبرياء أخافت فيرانتي. وضع العلبة في جيبه، وخرج.

كان الباب أُغلق عليه. استدعته الدوقة من جديد؛ فعاد مضطرب البال: كانت الدوقة تقف وسط الصالة؛ فارتمت بين ذراعيه. بعد لحظة، كاد يغشى على فيرانتي من السعادة؛ تخلّصت الدوقة من معانقته، ودلته على الباب بعينيها.

ـ قالت في نفسها، هذا هو الرجل الوحيد الذي فهمني، هكذا كان فابريس تصرّف لو كان يسمعني.

عنصران في طبع الدوقة: ما أرادته مرة تريده أبداً، لا تعيد مناقشته. وكانت تستشهد، بكلمة لزوجها الأول، الجنرال بيترانيرا اللطيف: أية وقاحة تجاه نفسي! لماذا الاعتقاد بأن لي عقل اليوم أكثر مما كان لي وقت اتخذت هذا القرار.

منذ هذه اللحظة، استعاد طبعها نوعاً من المرح. قبل القرار المحتم، كانت تشعر بدونيتها تجاه الأمير، بضعفها وانخداعها، في كل خطوة كان يخطو عقلها، في كل شيء جديد كانت تراه. الأمير، برأيها، خانها بنذالة، والكونت موسكا بسبب نبوغه البلاطي، ساعد الأمير، وإن ببراءة. بعدما قررت الانتقام، شعرت بقوتها. كل خطوة من خطوات عقلها توفّر لها السعادة. اعتقد أن السعادة اللاأخلاقية التي في الثأر، تقوم في ايطاليا على

مخيّلة هذا الشعب. شعوب البلدان الأخرى لا تغفر، بحصر المعنى، بل تنسى.

لم تر الدوقة بالا إلاّ في أواخر أيام سجن فابريس. هو الذي أعطى فكرة الهرب: كان في الغابة، على فرسخين من ساكا، برج يعود إلى القرون الوسطى، نصف متهدم يبلغ علوه أكثر من مائة قدم؛ قبل أن يتكلم فيرانتي للدوقة على الهرب، ثانية، رجاها أن ترسل لدوفيك مع رجال أمناء لتركيـز سلسلة من السلالم بالقرب من هذا البرج. وبحضور الدوقة، صعد على السلالم ونزل بواسطة حبل بسيط معقد؟ أعاد الاختبار ثلاث مرات، ثم شرح فكرته من جديد. ثمانية أيام بعد ذلك أراد لدوفيك أيضاً أن ينزل من هذا البرج القـديم بواسـطة حبل معقد: ووقتئذ نقلت الدوقة الفكرة إلى فابريس.

في الأيام الأخيرة التي سبقت هذه المحاولة، التي كان يمكن أن تسبّب وفاة فابريس، بأكثر من طريقة، لم تكن الدوقة تجد لحظة راحة إلا إذا كان فيرانتي بجانبها؛ شجاعة هذا الرجل كانت تلهب شجاعتها؛ ولكن كان يتوجب عليها أن تخفي هذا الوجود الغريب عن الكونت. ما كانت تخشى أن يثور، ولكن لكانت اعتراضاته أحزنتها وضاعفت قلقها. ماذا! اتخاذ مجنون معروف كمستشار خـاص، ومحكوم بـالاعدام! كـانت الدوقـة تضيف، وهي تحدث نفسها، رجل كان بـاستطاعـة أن يقوم

بأعمال غريبة! كان فيرانتي موجوداً في صالة الدوقة، لحظة وصل فيها الكونت ليخبرها عن الحديث الذي جرى بين الأمير وراسي. ولما خرج الأمير من القصر، بذلت جهوداً كبرى لمنع فيرانتي أن يذهب فوراً لتنفيذ مخططه الرهيب!.

ـ أنا قوي الآن! كان المجنون يصيح؛ لم يعد عندي شك بشرعية عملي!.

ـ ولكن، في لحظة الغضب التي تلي، ولا مناص منها، سوف يقتل فابريس!.

ـ بهذه الطريقة نجنبه خطر هذا النزول: وكان يضيف، انه ممكن وسهل، انما الخبرة تعوذ هذا الشاب.

احتفل بقران شقيقة المركيز كريسنزي، وفي الاحتفال الذي أقيم لهذه المناسبة التقت الدوقة كليليا وأمكنها أن تكلمها دون أن تثير شكوك المراقبين. أعطت الدوقة بذاتها رزمة الحبال إلى كليليا، في الجنينة، حيث خرجتا تتنزهان برهة. الحبال من القنب والحرير نصفاً بنصف. معقدة، ومرنة ورفيعة جداً. اختبر لدوفيك متانتها في كلّ أجزائها. تحتمل ثماني كنتلات دون أن تنقطع. وضغطت بطريقة جعلت معها عدة رزم بشكل كتاب أخذتها كليليا ووعدت الدوقة، أن كل ما هو ممكن سيتمم لإيصال هذه الحبال إلى برج فارنيز.

ـ ولكني أخشى طبعك الخجول؛ ومع هذا؛ أضافت الدوقة بتهذيب، والمصلحة التي يمكن أن يوحيها لك هذا الغريب؟.

ـ السيد دل دونغو بائس. أعدك، أنني وحدي سأنجّيه. ولكنّ الدوقة التي لم تكن تعتمد كثيراً على بديهة فتاة عمرها عشرون عاماً، اتخذت احتياطات احترست أن تخبرها لابنة الحاكم. وهو كان موجوداً في الاحتفال قالت الدوقة في نفسها، انها إذا أعطته مخدراً قوياً، يقال أنها سكتة دماغية، وعندئذ بدلاً من وضعه في عربته لنقله إلى القلعة يمكن بقليل من المهارة، تغليب الرأي باستعمال المحفة التي سيجدونها صدفة في البيت. هنا سيلتقي أيضاً رجال أذكياء، يرتدون ثياب العمال سيقدّمون أنفسهم لنقل المريض مجاناً إلى قصره العالي. هؤلاء الرجال هم بتصرف لدوفيك ويحملون عدداً كبيراً من الحبال، مخبأة بمهارة تحت ثيابهم. كانت الدوقة مسلوبة منذ أخذت تفكر بهرب فابريس. كان الخطر الذي يحيق بهذا الكائن الحبيب يضغط بشدة على روحها وخاصة وأن أمده كان طال. نفّذ كل شيء كما خطّط له، مع الفرق البسيط بأنّ المخدر أعطى نتيجة قوية؛ اعتقد الجميع وحتى الفنيون أن الجنرال أصيب بسكتة دماغية.

لحسن الحظ، استبد اليأس بكليليا، فلم تشك بأية طريقة من محاولة الدوقة المجرمة. كانت الفوضى شديدة ساعة دخول المحفّة إلى القلعة حيث يستلقي الجنرال نصف ميت، بحيث مرّ

لدوفيك ورجاله دون شبهة. لم يُفَتّشوا إلا شكلاً عند جسر «العبد». بعدما نقلوا الجنرال إلى سريره، اقتيدوا إلى غرفة الخدمة، حيث عاملهم الخدم معاملة طيبة؛ ولكن بعد الطعام، الذي لم ينته إلاّ قرب الصباح، قيل أن العادة في السجن تقتضي وجوب سجنهم لبقية الليل، في غرف القصر التحتية وسيطلقهم ملازم الحاكم، في اليوم التالي عند طلوع النهار.

وجد هؤلاء الرجال طريقة ليعيدوا إلى لدوفيك الحبال التي كان يحملها، ولكن هذا الأخير بذل كثيراً من الجهد كي يحصل على لحظة التفات من كليليا. وأخيراً لحظة كانت تمرّ من غرفة إلى أخرى، أطلعها أنه يضع رزم الحبال في زاوية إحدى صالات الطابق الأول المظلمة. دهشت بهذا الظرف الغريب: وساورتها فوراً شكوك فظيعة.

ـ من أنت؟ قالت للدوفيك.

وعند جوابه المبهم، أضافت:

ـ يجب أن أدفعهم لإلقاء القبض عليك؛ أنت ورجالك سمّمتم والدي!... اعترفْ فوراً بنوع السم الذي استعملته حتى يستطيع طبيب القلعة أن يصف الأدوية المناسبة؛ اعترف أو لن تخرج أنت وشركاؤك أبداً من هذه القلعة.

ـ لا يحق للآنسة أن تقلق أجاب لدوفيك بلطف وتهذيب. لا يتعلق الأمر بسمّ؛ أعطي الجنرال خطأً جرعة لودانيوم، ويبدو أن

الخـادم المولـج بتنفيذ هـذه العملية وضـع في الكـوب بعض القطرات الإضافيـة؛ ستندم لهـذا السبب مدة طـويلة؛ ولكن فتطمئنّ الآنسة أن لا خطر على الاطلاق. يجب أن يعالج الحاكم على أنه ابتلع خطأً جرعة لودانيوم قويّة؛ ولكن لي الشرف أن أردد على مسامع الآنسة، ان الخادم المولـج بتنفيذ الجـريمة لم يستعمل سموماً حقيقية مثـل باربـون، عندمـا أراد أن يسمم مونسينيور فابريس! لم يدع أحد انـه ينتقم من الخطر الـذي تعرّض له المنسينيور؛ لم يسلّم لهذا الخادم الأخرق سوى قارورة كان فيها لودانيوم، وأقسم على هذا للآنسة! ولكن من المتّفق عليه، انني إذا استجوبت رسمياً سأنكر كل شيء.

من نـاحية أخـرى، إذا تحدثت الآنسـة إلى أيّ مخلوق عن اللودانيوم والسمّ حتى ولو كـان مع دون سيـزاري الـطيب، ستتسبَّب الآنسـة بقتل فـابريس وتجعـل جميع مسـاعي هربـه مستحيلة نهائياً؛ والآنسة تعرف أحسن مني أنه ليس باللودانيوم يراد تسميم مونسينيور فابريس؛ وتعرف أيضاً أن أحدهم لم يمنح سوى فترة شهر لتنفيذ هذه الجريمة، وها مرّ أكثر من أسبوع لصدور الأمر المشؤوم. هكذا، إذا ما سعت للقبض عليّ، أو إذا قالت كلمة فقط إلى دون سيزاري أو إلى أي آخر، تؤخر كلّ مساعينا أكثر من شهر بكثير، ويحق عندئذ لي القول أن الآنسة كليليا تقتل بيدها مونسينيور فابريس.

هلعت كليليا بهدوء لدوفيك الغريب.

كانت تقول في نفسها: هكذا أنا في حديث منتظم مع من سمّم والدي ويستعمل عبارات مهذّبة للتحدث معي! الحب هو الذي قادني إلى هذه الجرائم!..

كان الندم يترك لها بالكاد قوة النطق؛ قالت للدوفيك.

ـ سأحجزك في هذه الصالة وأوصد الباب بالمفتاح. وسأسرع لأخبر الطبيب بأن الأمر لا يتعلق إلاّ باللودانيوم. ولكن يا إلهي! كيف أقول له انني عرفت هذا الأمر؛ سأعود من ثم لكي أطلق سراحك.

ولكن، قالت كليلياوهي تعود مسرعة من عند الباب، هل كان فابريس يعرف شيئاً عن اللودانيوم.

ـ يا إلهي، لو علم، يا آنسة، لما كان وافق قط. وثمّ لماذا المسارة التي لا فائدة منها؛ نحن نتصرف بحكمة دقيقة. الأمر يتعلق بإنقاذ حياة صاحب السيادة الذي سيسمم من الآن إلى ثلاثة أسابيع؛ أعطي الأمر بهذا الخصوص إلى من لا تقف حواجز بوجه أوامره؛ وكي لا أخفي عن الآنسة، يزعمون أن القاضي راسي الرهيب هو الذي تلقى هذا التفويض.

هربت كليليا هلعة: كانت تعتمد كثيراً، على نزاهة دون سيزاري، وباتخاذها الحيطة المناسبة تجرأت وقالت له، أن الجنرال أعطى اللودانيوم وليس شيئاً آخر. دون أن يجيب، ودون أن يلقي أسئلة، أسرع دون سيزاري إلى الطبيب.

عادت كليليا إلى الصالة، حيث كانت سجنت لدوفيك، للّحاجة عليه في الأسئلة عن اللودانيوم: لم تجده. وفّق بالهرب. رأت على طاولة صرة مليئة بالسكيّات، وعلبة صغيرة تحوي أنواعاً متعددة من السموم. مرأى السموم أرجفها. فكرت: من يقول لي، انه لم يعط لأبي سوى اللودانيوم وأن الدوقة لم ترد أن تنتقم من محاولة باربون؟.

صاحت، يا إلهي! ها أنا على اتصال بالذين سمّموا والدي! وأتركهم يهربون! لو استجوب هذا الرجل، ربما كان اعترف بشيء آخر غير اللودانيوم!.

وفوراً ركعت كليليا، وهي تجهش بالبكاء وصلّت إلى العذراء بحرارة.

في هـذا الوقت، دهش طبيب القلعـة، من خبر دون سيزاري، أن المسألة تتعلق باللودانيوم، وأعطي المريض الأدوية المناسبة وسريعاً ما زالت الأعراض الخطيرة. عاد الجنرال قليلاً إلى وعيه عند طلوع النهار. كان عمله الأول الدالّ على المعرفة أثقل بالشتائم العقيد، معاون آمر القلعة الذي كان خطر بباله إصدار بعض الأوامر البسيطة بينما كان الجنرال فاقداً وعيه.

غضب الحاكم غضباً شديداً على طباخته إذ خطر ببالها أن تتلفّظ بكلمة سكتة دماغية، وهي تجلب له الحساء.

صاح: هل بلغت عمر من يصاب بسكتة دماغية؛ لا يوجد

سوى اعدائي الألداء يمكنهم أن يفرحوا بترويج هذه الشائعات. ومن ناحية أخرى هل فُصِدْتُ حتى تتجرأ الفرية ذاتها التكلم على سكتة دماغية.

لم يتمكن فابريس، وكان مهتماً جداً باستعدادات هربه، أن يدرك الاشاعات الغريبة التي تملأ القلعة في وقت كانوا يعودون بالحاكم نصف ميت إلى قصره. في بادىء الأمر، خطر بباله أن الحكم عليه أُبدل، وأنهم يأتون تنفيذ حكم الإعدام. ولما رأى يأتِ أحد إلى غرفته، فكّر بأنهم خانوا كليليا وانتزعت منها الحبال تجلبها معها عند دخولها القلعة، ومشاريع الهرب أصبحت مستحيلة. في اليوم التالي، عند الفجر، رأى رجلاً مجهولاً، يدخل غرفته، ويضع فيها صامتاً سلة ثمار: كانت الرسالة التالية مخبأة تحت الأثمار:

«إني نادمة أشد الندم على ما جرى وهو ليس بموافقتي ولكن فكرة خطرت لي: نذرت إلى العذراء أنه إذا بتأثير شفاعتها القدوسة، انقذ والدي، فلن أعترض بعد الآن على أوامره أبداً؛ سأقترن فوراً بالمركيز عندما يطلبني ولن أراك أبداً بعد الآن. من واجبي أن أنهي ما كان بدىء به. الأحد المقبل، لدى العودة بعد حضور الذبيحة الإلهية، سيقودونك إليها على طلب مني (فكّر أن تحضّر نفسك، فقد تقتل في المسعى الخطر)أخّر قدر استطاعتك دخولك إلى غرفتك؛ ستجد كل ما هو ضروري للمشروع المنوي تنفيذه. إذا هلكت ستحزن نفسي! أيمكنك بعد

أن تتهمني بأنني شاركت في التسبب بموتك؟ ألم تردد الدوقة نفسها عدة مرات بأنّ حزب رافرسي متسلط؟ يريدون تقييد الأمير بقساوة تبعده نهائياً عن الكونت موسكا. أجهشت الدوقة بالبكاء وأقسمت أنه لا يبقى سوى هذه الطريقة: ستهلك ان لم تحاول شيئاً. لا أتمكن بعد الآن أن أنظر إليك، نذرت بألاّ أراك. ولكن إذا رأيتني، يوم الأحد، عند الماء، في النافذة المعتادة مرتدية بكليتي الثياب السوداء، اشارة أن الليل التالي سيكون كل شيء جاهزاً ضمن وسائلي الضعيفة. بعد الحادية عشرة أو ربما عند منتصف الليل أو الساعة الواحدة، سيظهر مصباح صغير على نافذة غرفتي، ستكون تلك هي اللحظة الحاسمة. توكل على شفيعك، ارتد بسرعة ثياب الكاهن المزود بها وسر».

«الوداع، يا فابريس، سأكون في الصلاة أذرف الدموع السخية، بينما تتعرض أنت إلى مخاطر في منتهى الجسامة. إذا هلكت فلن أبقى بعدك حيّة. يا إلهي! ماذا أقول؟ ولكن إذا نجحت فلن أراك مدى الحياة. يوم الأحد، بعد الذبيحة الإلهية، ستجد في سجنك المال والسموم المرسلة من هذه المرأة الفظيعة التي تحبك بشغف، والتي رددت في مسامعي ثلاث مرات أنه يتوجب اعتماد هذا السبيل ليخلصك الله والعذراء».

كان فابيو كونتي حاكماً دائم الاضطراب والبؤس، يرى دائماً

في الحلم أحد سجنائه يهرب منه: كان مكروهاً من كلّ من في القلعة؛ ولكن المصيبة توحي دائماً بنفس بالحلول نفسها إلى جميع الناس، السجناء المساكين، حتى الذين كانوا مقيّدين في زنزانات علو الواحدة ثلاثة أقدام وعرضها ثلاثة وطولها ثمانية ولا يتمكنون من الوقوف أو الجلوس. جميع السجناء، حتى هؤلاء خطر لهم أن ينشدوا من تلقاء أنفسهم صلاة شكر لمّا علموا أن الحاكم نجا من الخطر. اثنان أو ثلاثة من هؤلاء التعساء نظموا قصائد على شرف فابيو كونتيّ. يا لتأثير المصيبة على هؤلاء الرجال! ليقده مصيره، كل من يلومهم، إلى قضاء سنة في زنزانة علوها ثلاثة أقدام، مع ثماني أواق من الخبز كلّ يوم وصيام يوم الجمعة.

لم تكن كليليا تبارح غرفة والدها إلا إلى المصلى لتصلي. قالت ان الحاكم قرّر ألا تجرى الأفراح ألا يوم الأحد. حضر فابريس قداس الشكر، في المساء ألعاب نارية؛ وزّع على الجنود في غرف الطابق الأول من القصر أربعة أضعاف كمية النبيذ التي سمح بها الحاكم؛ وأرسلت يد مجهولة عدة براميل من ماء الحياة أزال الجنود أسافلها. سخاء الجنود الذين كانوا يسكرون، لم يشأ أن يحرم الجنود الخمسة الذين كانوا يحرسون كخفراء حول القصر، بسبب وضعهم. كان خادم مؤتمن، كلما وصلوا إلى مظلة حراستهم، يقدّم لهم النبيذ. ولا يعرف من أية يد تلقى الخفراء الذين وضعوا عند منتصف الليل ولما تبقى منه، هم

أيضاً كوب عرق، وكان في كلّ مرة تنسى الزجاجة بالقرب من مظلة الحراسة (كما تثبت في الدعوى التي تبعث).

دامت الفوضى أكثر مما فكرت كليليا. لم يبدأ فابريس بتفكيك المصراع إلا في الواحدة بعد منتصف الليل. وكان نشر قضبان نافذته قبل ثمانية أيام، تلك التي تشرف على المطيرة، يعمل فوق رؤوس الخفراء يحرسون القصر، فلم يسمعوا شيئاً. كان صنع بعض العقد الاضافية على الحبل الطويل، ضرورية للنزول من هذا العلو الشاهق البالغ عن مائة وثمانين قدماً. توشح بالحبل حول جسده: ضايقه كثيراً إذ كان حجمه ضخماً؛ كانت العقد تمنعه أن يؤلف كتلة تبتعد عن جسمه أكثر من ثماني عشرة بوصة. قال فابريس في نفسه، هذا عائق كبير.

بعد أن سوّى فابريس الحبل قدر الامكان، أخذ الذي كان عازماً أن ينزل بواسطته الخمسة والثلاثين قدماً تفصل نافذته عن الشرفة حيث كان قصر الحاكم.

لكنه لم يكن باستطاعته أن ينزل على رؤوس الخفراء تماماً، مهما بلغت درجة سكرهم. خرج من نافذة غرفته الثانية المشرفة على سقف غرفة لمركز الحراسة الواسعة. ما أن تمكن الجنرال فابيو كونتي من الكلام، حتى أمر، بشذوذ مريض، بوضع مائتي جندي في مركز الحراسة هذا، المهمل منذ قرن. كان يقول، بعد أن سمّموه، انهم يريدون اغتياله في سريره، وهؤلاء الجنود كانوا

موجلين بحراسته. وأيّ تأثير أحدثه هذا التدبير المفاجىء على قلب كليليا: كانت هذه الفتاة الورعة تشعر إلى أية درجة تبلغ خيانتها لوالدها، المسمّم منذ قليل في سبيل السجين الذي كانت تحبه. رأت في وصول المائتي رجل حكماً من الله تعالى يمنعها أن تكمل مسعاها في اعادة الحرية لفابريس.

ولكن الجميع في بارما يتكلمون على موت السجين قريباً. عولج هذا الموضوع الحزين في الاحتفال إذ انه من أجل ترهة كهذه، طعنة سيف هوجاء، وجهت إلى ممثل، لم يفرج عن رجل من أصل رفيع كفابريس، بعد تسعة أشهر من السجن وبالرغم من حماية رئيس الوزراء. معناه السياسة تدخلت في الأمر. إذن من غير المفيد الاهتمام به أكثر من هذا. قيل: إذا لم يكن يناسب السلطة أن تميته في الساحة العامة، فسيموت بعد قليل من المرض. وكان صانع أقفال استدعي إلى قصر الجنرال فابيو كونتي تحدّث عن فابريس وكأنه قضي عليه منذ زمن بعيد. كانوا يسكتون عن موته سياسياً. كلمة هذا الرجل دفعت كليليا لاتخاذ قرار.

٢٢

هاجمت فابريس، نهاراً، بعض الأفكار المزعجة ولكن كلما كان يسمع دقات الساعة تقرّبه من اللحظة الحاسمة، يشعر بنفسه مرحاً ومعافى. كانت الدوقة كتبت له أنه سيُدهش بالهواء

الطلق وما أن يخرج من السجن حتى يجد نفسه عاجزاً عن المشي؛ في هذه الحالة، الأفضل أن يتعرض لأن يلقى القبض عليه من أن يقذف بنفسه فوق جدار علوهماية وثمانون قدماً. كان فابريس يقول: إذا حصل لي هذا المكروه، سأستلقي على الحاجز، وأنام ساعة، ثم أعيد الكرة، إذ أني أقسمت لكليليا أني أفضل السقوط عن السور مهما بلغ علوه، على أن أبقى مفكّراً بمذاق الخبز الذي آكل. أية الآم مريرة يقاسي الإنسان قبل النهاية، عندما يموت متسمماً! لن يفتش فابيو كونتي عن الأساليب. سيعطيني الزرنيخ الذي يبيد به جرذان قلعته.

عند منتصف الليل انتشر الضباب الكثيف الأبيض الّذي يرسله البو عن ضفتيه. امتد فوق المدينة، ثم وصل الشرفة والحصون الّتي في وسطها يرتفع برج القلعة. اعتقد فابريس انه، من الحاجز، لم يكن بالإمكان مشاهدة الأشجار التي تحيط البساتين المنظمةمن الجنود عند اسفل جدار يبلغ ارتفاعه مئة وثمانين قدماً. وفكّر: هوذا أمر جيد. بعد أن دقت الثانية عشرة والنصف، ظهرت إشارة المصباح الصغير في نافذة المطيرة. كان فابريس جاهزاً. رسم اشارة الصليب وربط بسريره الحبل الصغير المعدّ لإنزاله الخمسة والثلاثين قدماً. وصل بلا عائق إلى سقف مركز الحراسة الذي يشغله منذ العشية مائتا رجل. لم يكن الجنود ناموا، في الثانية عشرة وثلاثة أرباع. بينما كان فابريس يمشي بخفة على سقف حجارة الآجر الكبيرة الفارغة،

كان يسمعهم يقولون أن ابليس على السقف ويجب السعي لقتله بطلقة بندقية. بعض الأصوات كانت تدعي أن هذه الرغبة كانت الحادأ كبيراً. قال آخرون أن طلقة بندقية. لا تقتل أحداً، سيضعهم الحاكم في السجن لأنهم آثاروا ذعر الحامية سدى. كل هذا الجدل جعل فابريس يسرع، فيحدث ضجة أقوى وهو يمشي. في هذه اللحظة، كان معلقاً بالحبل ومرّ أمام النوافذ، على أربعة أو خمسة أقدام بسبب تقدم السقف. كانت النوافذ مشكوكه بالحراب. إدعى البعض أن فابريس لا يزال مجنوناً خطرت له فكرة تمثيل دور إبليس، وإنه رمى إلى هؤلاء الجنود قبضة سكي. وهو نثر السكي على أرضية غرفته، كما على المصطبة وهو في طريقه من برج فارنيز إلى الحاجز. كي يعطي نفسه حظ إلهاء الجنود الذين يكونون تمكنوا مباشرة اللحاق به.

لدى وصوله المصطبة، محاطاً بالخفراء الذين يصيحون عادة، كل ربع ساعة جملة كاملة: كل شيء حسن حول مركزي، اتجه نحو الحاجز الغربي وفتش عن الحجر الجديد. الغريب أن الخفراء على طول الحاجز لم يروا فابريس ولم يلقوا القبض عليه؛ الضباب بدأ يتصاعد، وقال فابريس إذ كان على المصطبة، أن الضباب وصل منتصف برج فارنيز. ولكن هذا الضباب لم يكن كثيفاً ـ وكان يرى الخفراء يتنزهون. ذهب مدفوعاً كما بقوة فائقة الطبيعة، واتخذ مركزاً بين خفيرين متجاورين. فك بهدوء الحبل الكبير حول جسمه وتعقّد مرتين؛ لزم له وقت طويل لفكه ومدّه

على الحاجز. كان يسمع الجنود يتكلمون من كل الجهات وهو مصمم كل التصميم أن يطعن بخنجر أول من يتقدم منه: لم يساورني اضطراب قط كأنني أتمم مراسم حفلة.

ربط الحبل الذي فكه أخيراً بفتحة محدثة في الحاجز لتصريف المياه، وصعد على الحاجز نفسه وصلى الله بحرارة، ثم كبطل من عهد الفروسية، فكر لحظة بكليليا. لمَ انا مختلف، قال في نفسه، عن فابرس الطائش والغاسق الذي دخل هذا السجن منذ تسعة أشهر! أخذ ينحدر من هذا العلو المذهل. كان يعمل آلياً كما لو أنه يقوم بهذا العمل نهاراً أمام أصدقاء له ليربح شرطاً.

نحو منتصف العلو، شعر فجأة أن ذراعيه تفقدان قوتهما. أفلت الحبل لحظة؛ ولكن فوراً عاد وامسك به. تمسك بالأشواك التي كان ينزلق عليها وكانت تجرحه. كان يشعر من وقت إلى آخر بألم مبرح بين كتفيه، يكاد يمنعه من التنفس. حركة تارجح مزعجة تماماً. من الحبل إلى الأشواك. لمسته عدة طيور كبيرة كان يوقظها وترتمي عليه وهي تطير. في المرات الأولى اعتقد أن أناساً أدركوه من القلعة لملاحقته، وكان يستعد للدفاع عن نفسه. وأخيراً وصل إلى أسفل البرج الكبير دون أي عائق سوى أن يديه تضرجتا بالدماء. منذ منتصف البرج أفاده انحدار هذا الأخير كثيراً واحتكاكه بالجدار اثناء نزوله والنباتات التي بين

الحجارة حفظته كثيراً. بوصوله إلى أسفل، في بساتين الجنود، هبط على شجرة كانت تبدو من أعلى بطول أربعة أو خمسة أقدام، وهي تبلغ، في الواقع خمسة عشر أو عشرين قدماً. اعتقد سكران نائم انه لص. لما سقط فابريس من الشجرة خلع ذراعه اليسري تقريباً. اخذ يهرب نحو السور، ولكن بدت له ساقاه كالقطن؛ لم يعد لديه أي قدر من القوة. بالرغم من الخطر، جلس وشرب قليلاً من العرق المتبقي لديه غفا بضع دقائق حتى لم يعد يعرف اين كان موجوداً؛ عندما استيقظ لم يتمكن أن يدرك كيف يرى أشجاراً وهو في غرفته. أخيراً عادت الحقيقة المرعبة إلى ذاكرته: مشى فوراًباتجاه الحاجز؛ تسلقه بواسطة سلم طويل. كان الخفير القريب منه يشخر في المرقب. وجد مدفعاً مهملاً في العشب، ربط به حبله الثالث، فإذا به قصير بعض الشيء، فسقط في خندق موحل يبلغ ارتفاع الماء فيه. قدماً. بينما هو ينهض ويسعى أن يتعرف على الجوار شعر أن رجلين يمسكان به: خاف لحظة. ولكن سريعاً ما سمع صوتاً منخفضاً يقول قريباً من أذنه: آه! سيادتك! أدرك أن هذين الرجلين هما من رجال الدوقة، وأغمي عليه. بعد قليل، أحسّ أن رجالاً يحملونه ويسيرون به بسرعة وصمت؛ ثم توقفوا. وهذا ما أقلقه. لم تكن لديه القوة للتكلم ولا لفتح عينيه؛ وكان يشعر أن أحداً يضمه؛ فجأة تعرّف إلى رائحة ثياب الدوقة. الرائحة العطرة انعشته. فتح عينيه؛ تمكن من أن يتلفظ

الكلمات: آه! يا صديقتي العزيزة! ثم غشي عليه من جديد.

كان برونو المخلص، مع فرقة من رجال الشرطة مخلصين للكونت، احتياطيين على مائتي خطوة؛ كان الكونت مختبئاً في بيت صغير قريباً من المكان حيث الدوقة تنتظر. ولما تردد، لو لزم الأمر، أن يمسك السيف بيده مع بعض الضباط، أصدقائه الحميمين، إذ يعتبر نفسه مجبراً على إنقاذ حياة فابريس التي كانت تبدو مهددة بجدية ولكان نال عفواً موقعاً من الأمير، إذ أن موسكا لم يكن ارتكب طياشة بإرادته ليتجنب طياشة مكتوبة بيد الملك.

كانت الدوقة تطوف حول الأسوار منذ منتصف الليل، محاطة برجال مسلحين كاملاً؛ لم يكن بإمكانها الإستقرار في مكانها. كانت تعتقد أنها ستحارب لانقاذ فابريس من أناس يلاحقونه. اتخذت هذه المخيلة الملتهبة مائة احتياط، وهي متعقلة. كان ثمانون عميلاً على استعداد هذه الليلة، ينتظرون كي يقاتلوا من أجل أمر غريب. كان فيرانتي ولدوفيك يشرفان على كل ما يجري. لم يكن الوزير معادياً لهذا الأمر. ولكن الكونت نفسه لاحظ أن أحداً لم يخن الدوقة وانه كالوزير لم يطلع على شيء.

فقدت الدوقة صوابها لما رأت فابريس؛ كانت تضمّه باضطراب بين ذراعيها ثم يئست لما رأت نفسها مغطاة بالدم؛ من يدي فابريس. اعتقدت أنه مصاب بجراح خطرة؛ بمساعدة

خدمها خلصته من ثوبه كي تضمد جراحة، فيما وضع لدوفيك الدوقة وفابريس بالقوة في إحدى العربات الصغيرة عند بستان بالقرب من باب المدينة. وذهبوا زحفاً وبصمت لاجتياز البو قريباً من ساكا. شكل فيرانتي برفقة عشرين رجلاً مسلحاً، المؤخرة ووعد أن يوقف الملاحقة. الكونت وحده راجل، لم يبارح جوار القلعة إلا بعد ساعتين، لما تأكد أن لا شيء يتحرك. ها أنا ارتكبت الخيانة العظمى، كان يقول في نفسه، وفؤاده يطير من الفرح.

خطرت للدوفيك فكرة ممتازة. فوضع في عربة، طبيباً شاباً، تابعاً بيت الدوقة يشبه فابريس شبهاً كبيراً.

قال له: اهرب باتجاه بولونيا، واسع ليُقبض عليك. توقف في اجوبتك وأخيراً اعترف أنك فابريس دل دونغو؛ المهم أن تكسب وقتاً. كن ماهراً كي تبدو أخرق. فلن ينالك سوى شهر سجن والسيدة ستعطيك خمسين ريالاً.

ـ وهل يفكر أحد بالمال عندما يخدم السيدة؟

ذهب الطبيب وألقي القبض عليه ساعات بعد ذلك مما سبب فرحاً ممتعاً للجنرال فابيو كونتي وراسي الذي مع خطر فابريس، كان يرى فقدان بارونيته.

لم يشع هرب فابريس من القلعة إلا عند السادسة صباحاً. لم

يتجرأ أحد اطلاع الأمير على الأمر إلا في العاشرة. إلجميع خدموا الدوقة بمزيد من الاخلاص. وبالرغم من نوم فابريس التي كانت تحسبه اغماء مميتاً جعلها تأمر بإيقاف العربة ثلاث مرات، امكنها أن تجتاز نهر البو بينما الساعة تدق الرابعة. كان خيل محطات على ضفة النهر اليسري. اجتازوا أيضاً فرسخين بسرعة، وأخيراً أوقفوا أكثر من ساعة للتدقيق في جوازات السفر. كان مع الدوقة كلّ أنواع الجوازات لها ولفابريس ولكنّها كانت مجنونة في ذلك اليّوم فارتأت أن تعطي عشر نابوليونات للشرطي النمسوي وأن تمسكه من يده وتجهش بالبكاء. خاف هذا الشرطي كثيراً وأعاد التدقيق، أخيراً أخذوا العربة. كانت الدوقة تدفع بطريقة مفرطة حتى أثارت الشكوك في كل مكان من هذا البلد حيث كلّ غريب مشتبه به. جاء لدوفيك نفسه لمساعدتها أيضاً. كانت الدوقة تتألم آلاماً مبرّحة بسبب حمّى مستمرة أصابت الكونت موسكا، ابن رئيس الوزراء، وكانت ترافقه لاستشارة أطباء بافي.

لم يستفق السجين تماماً إلا عشرة فراسخ بعد البو، كانت إحدى كتفيه مفكوكة العظم ويحمل جسمه جلفات كثيرة. وكان للأميرة نوع تصرف على قدر كبير من الغرابة، حتى أن صاحب فندق القرية، حيث تناولوا طعام الغداء، اعتقد أنه أمام أميرة من الأسرة المالكة. كان مزمعاً أن يقوم بالتشريفات التي اعتقد من واجباته القيام بها نحوها. وقال لدوفيك لهذا الرجل إنّ

الأميرة ستأمر بسجنه إذا سمح لنفسه المباشرة بمراسم التعظيم.

واخيراً وصلوا عند السادسة مساء إلى البيمونت، حيث أصبح فابريس في مأمن تام؛ واقتيد إلى قرية نائية تبعد عن الشارع العام، فضمدت يداه ونام عدة ساعات أخرى.

قامت الدوقة، في هذه القرية، بعمل ليس مريعاً أخلاقياً فقط، بل وخيم العاقبة على سكينتها لكل حياتها الباقية. بضعة أسابيع قبل هرب فابريس، كانت بارما كلها ذهبت في أحد الأيام إلى باب القلعة لترى المشنقة ينصبونها في الباحة، على شرفها؛ باحت الدوقة إلى لدوفيك إذ أصبح قيم بيتها، بالسر الذي بواسطته كان ينزّعُ أحد الحجارة المخبأ في قعر خزان الماء المشهور، في قصر سنسفرينا، منذ القرن الثالث عشر. بينما كان ينام فابريس في تريتوريا، هذه القرية الصغيرة، استدعت الدوقة لدوفيك؛ ظنّها جنت لما كانت النظرات التي كانت ترمقه بها، غريبة.

قالت له: كنت تنتظر، أن أعطيك بضعة آلاف من الفرنكات لا، أنا أعرفك، أنت شاعر، لو فعلت لكنت صرفت سريعاً هذا المال. أهبك أرض ريكارديا الصغيرة، التي تبعد فرسخاً عن كازال مدجيوري. ارتمى لدوفيك على قدميها، وطار من الفرح، مؤكداً من كل قلبه، انه لم يساعد على إنقاذ سيادة فابريس من أجل المال، وإنه أحبه دائماً بحنو أبوي خاص، منذ أن تشرف

بمرافقته مرّة، بصفته الحوذي الثالث، عند السيدة. هذا الرجل، وكان حقاً باسلاً، اعتقد أنه شغل كفاية بشؤونه الخاصة سيدة عظيمة استأذن بالانصراف؟ ولكنها قالت له بعينين متألقتين:

ـ ابق.

كانت تتنزه دون أن تفوه بكلمة واحدة، في الغرفة وهي تنظر، من وقت لآخر، إلى لدوفيك بعينين غريبتين. رأى هذا الرجل أخيراً، أن النزهة لا تنتهي فاعتقد من واجبه توجيه الكلام إلى سيدته.

ـ قدّمت لي هبة مبالغاً فيها كثيراً، هي فوق كلّ ما يمكن لرجل مسكين مثلي أن يتخيله. وهي أسمى بكثير من الخدمات البسيطة التي كان لي شرف تأديتها، حتى أني اعتقد ضميريا بعدم التمكن من الاحتفاظ بأرضها في ركسياردا. لي الشرف أن أعيد هذه الأرض إلى السيدة، راجياً منها أن تمنحني نفقة أربعماية فرنك.

ـ كم مرة في حياتك، قالت له بعجرفة كئيبة، سمعت أنني تخلّيت عن مشروع اعلنت عنه بنفسي؟

بعد هذه الجملة تنزهت الدوقة عدة دقائق، ثمّ توقفت فجأة وصاحت:

ـ أنقذت حياة فابريس صدفة لأنه عرف كيف يحلو في عيني

هذه الفتاة الصغيرة؛ لو لم يكن لطيفاً لكان فقد الحياة. اتستطيع أن تنكر عليّ هذا؟ قالت بعينين ينفجر فيهما أشد الغضب. تراجع لدوفيك بضع خطوات معتقداً أنها مجنونة، وهذا ما سبّب له أشد القلق بخصوص ملكية أرض ركسرديا.

ـ إذن! أردفت الدوقة، بلهجة أشد من اللطف والمرح، ومتبدلة كلياً، أريد أن يحصل سكان ساكا على يوم مجنون يتذكرونه طويلاً. ستعود إلى ساكا. هل لديك اعتراض؟ تعتقد أنك ستتعرض لأي خطر؟

ـ سأتعرض إلى أخطار طفيفة جداً، يا سيدتي: لن يقول أحد من سكان ساكا أنني كنت في حاشية سيادة المونسينيور فابريس. من ناحية أخرى، أنا بشوق لمشاهدة أرضي في ركسرديا: يبدو لي طريفاً أن يكون الإنسان مالكاً!

ـ مرحك يعجبني. المزارع في ركسرديا! مدين لي، بثلاث أو أربع سنوات من أكارتة؛ أهبه نصف ما هو مدين لي به. وأعطيك النصف الآخر من كلّ متأخراته ولكن بهذا الشرط: ستذهب إلى ساكا، وتقول أن بعد غد عيد إحدى شفيعاتي، ستزّين قصري بالأنوار ليلة وصولك، بأروع طريقة ممكنة.

لا توفّر مالاً ولا جهداً: تخيل أن الأمر يتعلق بأسعد يوم في حياتي. جهزت هذا التنوير منذ أمد بعيد؛ جمعت منذ أكثر من ثلاثة أشهر في أقبية القصر كلّ ما يمكن أن يفيد في هذا العيد

الكريم؛ سلّمت للبستاني جميع الاسهم النارية لتنوير رائع: ستجعلهم يطلقونها من الشرفة المطلّة على البو. عندي تسعة وثمانون برميل نبيذ كبير في أقبيتي، ستقيم تسعاً وثمانين عين نبيذ في منتزهي. إذا بقي، في اليوم التالي، زجاجة خمر واحدة لم تُشرب سأقول إنك لا تحبّ فابريس. عندما عيون النبيذ والألعاب النارية تأخذ مجراها، ستنسحب بحكمة، إذ من الممكن وهذا هو أملي، أن كل هذه الأمور الرائعة تبدو وقاحة في بارما.

ـ وهذا ما هو أكيد؛ والقاضي راسي، الّذي وقع الحكم على سيادة المونسينيور، سينفجر غضباً. وحتى... أضاف لدوقيك باستحياء، إذا شاءت السيدة أن تسد قلب خادمها المسكين أكثر من أن تعطيه نصف متأخرات الركسيردا، ستسمح لي القيام بمزحة مع راسي هذا...

صاحت الدوقة بحماس: انت رجل طيب! امنعك من أن تتعرض بأيّ شأن لراسي هذا؛ لدي مشروع لشنقه أمام العموم، لاحقاً. أما انت، فجرّب ألا يلقى القبض عليك في ساكا. كل شيء سيفسد إذا فقدتك.

ـ أنا، سيدتي، عندما أقول أنني أعيّد إحدى شفيعات السيدة، إذا أرسلت الشرطة ثلاثين دركياً، لإفساد أي شيء، كوني متأكدة: قبل وصولهم إلى جانب الصليب الأحمر وسط

القرية، لن يبقى واحد منهم على ظهر جواده. سكان ساكا ليسوا أغبياء. جميعهم مهربون مهرة؛ ويعبدون السيدة.

ـ أخيراً، أردفت الدوقة وهي طلقة المحيا بشكل غريب، إذا قدمت الخمرة إلى رجالي الطيبين في ساكا، أريد أن أغرق سكان بارما؛ في المساء نفسه الذي تنور فيه قصري، خذ أفضل جواد في اسطبلي، واسرع إلى قصري، في بارما، وافتح الخزان.

صاح لدوفيك ضاحكاً كالمجنون: نعمَ الفكرة التي خطرت للسيدة! النبيذ لأهالي ساكا الطيبين والماء للبورجوازيين في بارما، التعساء، الذين كانوا متأكدّين أن المونسينيور فابريس سيقضي بالسم مثل ل... المسكين.

لم يكن لسرور لدوفيك نهاية؛ كانت الدوقة تنظر برضى إلى ضحكاته المجنونة؛ وكان يردد باستمرار: النبيذ لأهل ساكا والماء لسكان بارما! السيدة تعرف أفضل مني، عندما أفرغ الخزان بدون روية منذ عشرين سنة ارتفعت الماء أكثر من قدم في عدة شوارع من بارما.

ـ والماء إلى أهل بارما، أجابت الدوقة ضاحكة. كان مكان التنزه أمام القلعة، امتلأ بالناس لو كانوا قطعوا عنق فابريس ـ جميع الناس يسمونه المجرم الكبير.

ولكن، خاصة، أدّ عملك هذا بمهارة، حتى لا يدرك أحد أنك تسببت بهذا الفيضان بأمر مني. يجب أن يجهل فابريس،

والكونت نفسه، هذه المزحة المجنونة. نسيت فقراء ساكا؛ إذهب واكتب رسالة إلى وكيل أعمالي، وسأوقعها؛ قل له أن عليه لمناسبة عيد شفيعتي توزيع ماية سكي على فقراء والامتثال لأمرك في كلّ شيء بتنوير القصر والألعاب النارية والخمرة؛ أطلب أن ألّا يبقى غداً في أقبيتي زجاجة خمرة مملؤة.

ـ لن يؤخر رجل أعمال السيدة إلا أمرٌ واحد: السيدة تملك القصر منذ خمس سنوات ولم تترك عشرة فقراء في ساكا.

ـ والماء لسكان بارما! اردفت الدوقة وهي تغني؟ كيف ستنفذ هذه المزحة؟

ـ تصميمي جاهز: سأذهب إلى ساكا عند التاسعة وسيكون جوادي في مقهى الكناشات الثلاث، على طريق كازال مدجيوري وركسيردا أرضي في العاشرة والنصف؛ وفي الحادية عشرة سأكون في غرفة القصر، وفي الحادية عشرة والربع، ستتوفر المياه لكل أهالي بارما، وأكثر مما يريدون، ليشربوا على صحة المجرم الأكبر. وأخرج بعد عشر دقائق من المدينة عن طريق بولونيا. سألقي، وأنا مارّ، تحية عميقة على القلعة، التي الحق العار بها ذكاء السيدة وشجاعة المونسينيور؛ وسأتبع سبيلاً في الريف، أعرفه جيداً، وسأرحل إلى ركسيردا.

رفع لدوفيك عينيه على الدوقة وهلع فؤاده، كانت تنظر بجمود إلى السور العاري، على ست خطوات منها بنظرة مريعة!

فكّر لدوفيك! آه! يا أرضي المسكينة! مجنونة! نظرت الدوقة إليه وأدركت ما يريد أن يعبر عنه.

ـ آه! يا سيد لدوفيك أيها الشاعر العظيم، تريد هبة مع إثبات خطيّ: أسرع واجلب لي ورقة. أطاع لدوفيك الأمر فوراً وكتبت الدوقة بيدها إقراراً طويلاً سبقت تاريخه سنة، تصرح أنها قبضت من لدوفيك سان ـ ميشلي ثمانين ألف فرنك وأنها رهنت له لقاء هذه القيمة أرض ركسيردا. وفي حال انقضاء اثني عشر شهراً ولم يُعد المبلغ المذكور تبقى أرض ركسيردا ملكاً له.

كانت الدوقة تقول في نفسها، جميل أن أهب إلى خادم أمين، ثلث ما يتبقى لي تقريباً.

ـ آه! قالت الدوقة موجهة كلامها إلى لدوفيك، بعد فرحة الخزان، لا أعطيك سوى يومين لتطرب في كازال مدجيوري. ولكي يكون البيع مقبولاً شرعاً، قل إنّ هذه القضية تعود إلى أكثر من سنة. ثم ارجع والحق بي إلى بلجيرات، دون إبطاء؛ سيذهب فابريس ربما إلى إنكلترا وستتبعه.

كانت الدوقة وفابريس، في اليوم التالي. في بلجيرات.

أقاما في هذه القرية الخلابة ولكن حزناً كان ينتظر الدوقة على ضفاف هذه البحيرة. كان فابريس متبدّلاً تماماً. لاحظت الدوقة، منذ البرهة الأولى استيقظ من سباته العميق، بعد

هربه، أن في نفسه أمراً خارقاً. كانت العاطفـة الّتي يخفيها، بحرص كلّي على قدر من الغرابة: كان في حالة من اليأس المرير بسبب خروجه من السجن. وكان يحرص ألّا يعترف عن سبب غمّه هذا. ولو فعل لكـان جرّ إلى أسئلة لم يكن يـرغب في الإجابة عنها.

ـ كانت الدوقة تقول مدهوشة: عندما كان يدفعك الجوع إلى تناول واحد من تلك الأطعمة الكريهة يوفّرها لك مطبخ سجن القلعة كي لا تنهار، هل لهذه المآكل طعم غريب، هل يسري السم في جسدي، في هذه اللحظة، هذا الشعور الا يثير فيك الرعب؟

ـ كنت افكّر بالموت، أجاب فابريس، كما افترض أن الجنود يفكّرون: كان أمراً ممكن الحدوث. كنت أتصوّر إمكان تحاشيه بمهارتي.

أيّ قلق، وأيّ ألم يساوران الدوقة! فابريس، هذا الكائن المعبود، الفريد، اليقظ والغريب الأطوار، بات عرضة لهواجس عميقة. كان يفضل الوحدة على لذة التحدث بصراحة عن كلّ الأشياء، إلى أعز صديقة في العالم. كان طيب القلب، كثـير الملاطفة، عارفاً للجميل نحو الدوقة، ولكان قدّم حياته، كما في السابق مائة مرّة من أجلها؛ ولكن روحه كانت في مكان آخر غالباً ما كانا يقطعان أربعة أو خمسة فراسخ على ضفاف هذه

البحيرة الرائعة دون التفوّه بكلمة واحدة. غداً بينهما الحديث وتبادل الأفكار التافهة. ولكان هذا الأمر بدا مرغوباً فيه لدى آخرين سواهما؛ ولكن هما كانا يتذكران، والدوقة خاصة، ما كان حديثهما قبل هذه المعركة المشؤومة مع جيليتي فصلت بينهما. كان فابريس مديناً للدوقة بسرد تسعة أشهر قضاها في سجن مرعب، واتفق انه لم يكن لديه حول هذه الاقامة سوى كلمات مقتضبة ومجزوءة.

هذا ما كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً، كانت الدوقة تتساءل بحزن عميق. الكآبة جعلتني أبدو عجوزاً، أو انه يحب حقيقة، وبت لا أحتل سوى المركز الثاني في قلبه. إذا كانت السماء تريد أن يجن فيرانتي أو إن خانته شجاعته، يبدو انني سأكون أقلّ تعاسة. التوبة غير المكتملة سممت التقدير الّذي كانت الدوقة تكنه لطبعها. وكانت تردد: أنا نادمة على قراري. لم أعد واحدة من آل دونغوا.

هذا ما أرادته السماء. وتردف: فابريس مغرم وأريد أن أمنعه؟؟ هل تبادلنا مرّة واحدة كلمة حب حقيقية؟

هذه الفكرة العاقلة أبعدت عن عينيها النعاس وأخيراً أصابتها الخيبة مع إمكان انتقام مريع وإنها كانت مائة مرّة أتعس في بلجيرات منها في بارما. والحضور الّذي يسبب أحلام فابريس: كليليا كونتي، الفتاة الورعة، خانت والدها، ووافقت أن تسكر

الحامية، ولم يكن فابريس يتحدث أبداً عن كليليا.

ولكنّ الدوقة كانت تضيف، وهي تضرب صدرها بيأس، لو لم تسكر الحامية، لأصبحت اختراعاتي واهتماماتي عديمة الفائدة؛ هكذا: هي التي أنقذته!

كانت الدوقة تحصل من فابريس على تفاصيل أحداث تلك الليلة.

كان يجب أن تتوقّع كلّ شيء، فجعلت فابريس يقيم في مرفأ لوكارنو، مدينة سويسرية عند طرف بحيرة ماجور. كانت تذهب كلّ يوم وتصطحبه في نزهات طويلة، على البحيرة. ذات مرّة صمّمت أن تصعد إلى منزله، فوجدت غرفته مكسوة بكمية كبرى من صور بارما جلبها من ميلانو أو حتى من بارما، البلاد التي كان عليه أن يكرهها. كانت صالته الصغيرة المحوّلة إلى مشغل، مزدحمة بكلّ الأدوات التي يحتاجها رسّام مائي يصوّر، وجدته منتهياً من رسم مشهد ثالث يمثل برج فارنيز وقصر الحاكم.

قالت له مغتاظة: لم يعد ينقصك إلا أن ترسم، إستناداً إلى ذاكرتك، سوى صورة الحاكم اللطيف الّذي كان يريد أن يسمّمك. واردفت الدوقة: ولكنني أفكر بالأمر: عليك أن تكتب له رسالة اعتذار كونك سمحت لنفسك بأن تهرب من السّجن وأن تجعل قلعته موضوع سخرية.

لم تعتقد المسكينة انها تقول الحقيقة: ما وصل فابريس إلى مكان أمين حتى كان أوّل اهتماماته أن يكتب رسالة كاملة التهذيب للجنرال فابيو كونتي، ساخرة بمعنى ما كان يطلب الصفح عن هربه ذاكراً كمعذرة، إنه اعتقد مرؤوساً في السجن كُلّف أن يغتاله بالسم. لم يكن فابريس يهتمّ بما يكتب. انحصر كلّ أمله بأن كليليا سوف تشاهد هذه الرسالة، وكان وجهه مغطى بالدموع وهو يكتبها. ختمها بجملة غاية في الفكاهة: كان يتجرأ على القول، انه بوجوده ممتعاً بالحرية، كان يتحسر على غرفته الصغيرة في برج فارنيز.

كانت تلك فكرة رسالته الاساسية، وكان يأمل أن تدرك كليليا معناها. مدفوعاً بميله إلى الكتابة ودائماً على أمل أن يقرأه أحد، وجه فابريس تشكراته إلى دون سيزاري الطيب، الذي كان أعاره كتباً لاهوتية. بضعة أيام بعد ذلك، حثّ مكتبي لوكارنو الصغير للقيام برحلة إلى ميلانو حيث له صديق اسمه رينا مولع شديداً بالكتب فاشترى افخر الطبعات التي أمكنه أن يجدها عن الكتب التي أعاره إياها دون سيزاري. تلقى المرشد الطيب هذه الكتب مع رسالة لطيفة تقول له أنه في لحظات نفاذ الصبر، ربما يسامح بها لسجين مسكين، ملئت هوامش كتبه بملاحظات تافهة. وسُئل بالحاح، تبعاً لذلك، أن يستعيض عنها بمجلدات يسمح عرفان الجميل بتقديمها له.

كان فابريس متسامحاً جداً بتسميتها ملاحظات، تلك

الخربشات الطويلة التي أثقل بها هوامش نسخة كتاب من مؤلفات القديس جيروم. على أمل أن يتمكن من إرسال هذا الكتاب إلى المرشد الطيب، والمبادلة بسواه؛ كان كتب يوماً فيوماً، على الهوامش، يوميات عن كل ما كان يحصل له في السجن؛ لم تكن الأحداث الكبرى سوى نشوة حب إلهي (هذه الكلمة «الهي» كانت تحل محل كلمة أخرى لم يكن يجرؤ على كتابتها). كان هذا الحب «الالهي» يقود السجين تارة إلى يأس عميق وأخرى كان صوت مسموع خلال الفضاء يعيد بعض الأمل ويسبب فورات من السعادة: كان كلّ هذا، لحسن الحظ، مكتوباً بحبر من النبيذ والشوكولا والسناج. لم يلق دون سيزاري، على مجلّد القديس جيروم، سوى نظرة عابرة وأعاده إلى مكانه في المكتبة. ولو انه نظر في هوامش الكتاب، لكان تبيّن أن السجين ظنّ نفسه ذات يوم مسمماً؛ وكان يهنّىء نفسه كونه يموت. على أقلّ من أربعين خطوة ممن كان أحبها أكثر ما يكون في هذا العالم. ولكن عيناً أخرى غير عين المرشد الطيب كانت قرأت هذه الصفحة، منذ الهرب. هذه الفكرة الرائعة «الموت بالقرب ممن نحب» المعبّر عنها بمائة أسلوب مختلف، كانت متبوعة بسوناته حول النفس المنفصلة، بعد الأم مبرحة عن هذا الجسد السريع العطب، بعدما سكنته ثلاثة وعشرين عاماً مرفوعة بغريزة السعادة الطبيعة هذه ، نحو كلّ ما وجد مرّة واحدة، لا تصعد فوراً إلى الجنة للاختلاط بأجواق الملائكة بعد

أن تصبح حرّة. وكان يقول آخر بيت من السوناتا: وجدت جنتي على الأرض.

مع أنهم لم يتكلموا في قلعة بارما على فابريس إلا كما عن خائن سافل خالف أقدس الواجبات، ذُهِل الكاهن الطيّب دون سيزاري لدى مرأى الكتب الجميلة أرسلها إليه مجهول، إذ خطر ببال فابريس ألا يكتب إلاّ بضعة أيام بعد الإرسالية خوفاً من أن يتسبّب اسمه بإعادة الرزمة بسخط. لم يتكلم دون سيزاري على هذه الالتفاتة لأخيه الّذي كان اسم فابريس وحده يثيره. ولكن، منذ هرب هذا الأخير، عاد إلى صداقته الحميمة مع ابنة أخية المحبّبة. كان علّمها بعض الكلمات اللاتينية وأراها الكتب الرائعة تلقاها. هذا كان أمل المسافر. فجأة احمرت وجنتا كليليا: تعرّفت إلى خط فابريس. كانت قطع ورق كبيرة، شديدة الضيق صفراء، موضوعة إشارات في أماكن عدة من الكتاب. ووسط المصالح العديمة الأهمية وبرودة الافكار العادية التافهة تملأ حياتنا، المساعي التي من عاطفة حقيقية، نادراً ما لا تعطي النتيجة المتوخاة. وكما لو أن إلهة مؤاتية تهتم بأن تقودها بيدها، طلبت كليليا أن يقابل بين نسخة سان جيروم القديمة والنسخة التي تلقاها. ووسط الحزن القاتم غمرها به غياب فابريس، وجدت على هوامش مجلّد سان جيروم القديم السوناتات التي والعبارات الغرامية عن الحب الّذي شعر به نحوها.

حفظت السوناتات غيباً منذ اليوم الأوّل، وكانت تغنيها، مستندة إلى نافذتها، أمام الشباك الوحيد رأت غالباً فرجه صغيرة منه تنفتح. كانت هذه النافده فككت كي توضع على مكتب المحكمة كوثيقة إثبات في الدعوى المضحكة الّتي رفعها راسي ضدّ فابريس المتهم بجريمة الهرب أو كما كان يقول القاضي، وهو يضحك: «كونه تهرّب من رحمة أمير رؤوف».

كان كلٌّ من مساعي كليليا، موضوع ندم لديها. ومنذ كانت تعيسة. غداً الندم أشد. كانت تفتش إن تهدىء قليلاً، تأنيب نفسها وهي نذرت ألّا ترى فابريس أبداً، قطعته أمام العذراء عندما تعرض الجنرال لنصف تسمّم، مجدّدة إياه كل يوم منذ ذلك الحين.

كان والدها مريضاً بسبب هرب فابريس، وأوشك أن يفقد مركزه، عندما أقال الأمير، في سورة غضب جميع سجاني برج فارنيز، وأرسلهم أسرىإلى سجن المدينة ونجا الجنرال جزئياً بوساطة الكونت موسكا، الذي كان يفضّل أن يراه مسجوناً في قمة القلعة، من أن يراه خصماً ناشطاً ودسيساً في دوائر البلاط.

أثناء الخمسة عشر يوماً دام خلالها الارتياب بفقدان الجنرال فابيو كونتي، المريض فعلاً، حظوته، تجرأت كليليا على تنفيذ التضحية التي كانت أخبرت فابريس بها. خطر لها أن تمرض يوم الابتهاج العام الذي كان أيضاً يوم هرب السجين، وفي اليوم

التالي أيضاً، وعرفت ألاّ يشك أحد باشتراكها في إنقاذ فابريس، عدا غريو الموكل به حراسة فابريس خاصة، وغريو حافظ على صمته.

لم تعد كليليا قلقة من هذه الناحية، واضطربت شديداً بسبب ندمها الذي له ما يبرره. أي سبب في العالم، كانت تقول في نفسها، يمكن أن يخفف من جريمة ابنة تخون والدها؟

ذات مساء بعد يوم قضته في المصلى وفي البكاء، رجت عمها دون سيزاري أن يرافقها عند الجنرال تخيفها نوبات غضبه، وهو يقرن كلّ مناسبة باللعنات ضدّ هذا الخائن المقيت.

لما حضرت أمام والدها، تجرأت وقالت له، إنها رفضت دائماً أن تقبل بالمركيز كريسنزي زوجاً لها، لأنها لا تشعر بأيّ ميل نحوه، وإنها لن تجد السعادة في هذا الزواج. عند هذه الكلمات غضب شديداً، حتى وجدت كليليا صعوبة كبرى في استئناف الكلام. وأضافت أنّ والدها، إذا اغترّ بثروة المركيز الضخمة، عليه أن يعطيها أوامر صريحة للاقتران به. وهي جاهزة لاطاعته. تعجب الجنرال من هذه النتيجة، الّتي لم يكن ينتظرها؛ وسرّ في النهاية. قال لأخيه: هكذا لن أكون مضطراً لأسكن في الطابق الثاني، إذا كان فابريس هذا السوقي افقدني مركزي بتصرّفه الطائش.

كان الكونت موسكا يظهر أشد الاستنكار من هرب فابريس،

المواطن الفاسد، كما كان يردد الجملة الّتي استنبطها راسي، على الاسلوب التافه والمبتذل لهذا الشـاب الّذي تهـرّب من صفح الأمير. لم تؤثر هذه الطرفة قط في الشعب، الذي كان متروكاً لرشاده، ومع اعتقاده بأنّ فابـريس مذنب، إلى أقصى حـد، يعجب للأقدام الذي احتاجه ليقذف بنفسـه من جدار بهـذا العلو. عندما وجدت الشرطة نفسها مسربلة بالعار أمام هذا الفشل، اكتشفت رسميّاً أن مجموعة من عشرين جندياً، بسبب توزيعات المال، انحازت إلى الدوقة، المرأة الناكرة التي لم يكن أحد يتلفّظ باسمها إلا مرفوقاً بتنهيدة. كانوا مدّوا إلى فابريس أربعة سلالم مربوطة معاً وطول كلّ واحد خمسة وأربعون قدماً: بمدّ فابريس حبلاً سبق وربط بالسلالم، لم يكن له إلاّ أن يسحب هذه السلالم إليه. كان بعض الليبيراليين المعروفين بقلة فطنتهم، بينهم الطبيب س * *، وهو عميل يقبض مباشرة من الأمير، يضيفون معرضين أنفسهم للخطر، أن هذه الشرطة نفذت حكم الإعدام رمياً بالرصاص بثمانية جنود سهلوا هرب فابريس، الرجل الناكر للجميل. عندئذ لامه الليبيراليون أنفسهم، لأنه سبّب، بقلة فطنته، موت ثمانية جنود مساكين. وبهذه الطريقة، يحوّل الطغاة الصغار الرأي العام إلى السقوط.

٢٣

وحده الأسقف لاندرياني أبدى إخلاصه لقضيّـة صديقـه

الشاب، وسط هذا الهيجان العام: كان، حتى في بلاط الأميرة، يجرؤ على ترديد، أن مبدأ الحق، يوجب في كلّ دعوى، حفظ أُذن منزهة عن كلّ حكم مسبق، حتى سماع تبريرات المدعى عليه، لدى حضوره، إذا كان غائباً.

منذ اليوم الثاني لهرب فابريس، تلقى عدّة أشخاص سوناتات على قدر من الرداءة تحتفل بهذا الهرب كإحدى بطولات الجيل، وتشبه فابريس بملاك وصل إلى الأرض بأجنحة مشرعّة. كانت كل بارما، غداة اليوم الثاني تردّد سوناتات رائعة. كان مونولوج فابريس تاركاً نفسه تنزلق على طول الحبل، وهو يفكر بمختلف أحداث حياته. جَعَلت له هذه السوناتات، منزلة رفيعة لدى الرأي العام وذلك بشعرين رائعين، عرف فيهما جميع الذوّاقين الخبراء شعر فيرانتي بالا.

ولكن عليّ هنا، أن افتش عن شعر ملحمي: اين إيجاد الألوان لوصف جداول الغضب غمرت جميع المستقيمي الرأي عندما علموا بوقاحة إنارة قصر ساكا. فصاح الجميع بصوت واحد مستنكرين صنيع الدوقة هذا. ووجد الليبيراليون الحقيقيون في هذا الأمر تعريضاً خطيراً بالمتّهمين المسّاكين المتواجدين في السّجون المختلفة وإسخاطاً، لقلب الملك، لا مبرر له وصرح الكونت موسكا أنه لم تبق إلاّ وسيلة واحدة إمام أصدقاء الدوقة القدماء: نسيانها. كانت موجة المقت جماعية؛

وأيّ غريب مار في المدينة كان يندهش من موقف الرأي العام. ولكن، في هذه البلاد حيث يعرفون تقدير الثأر، تنوير ساكا والعيد الرائع الذي أقيم في البستان لأكثر من ستة آلاف مزارع، حازا نجاحاً باهراً. كان الجميع يردّدون في بارما أن الدوقة وزعت ألف سكي لمزارعيها؛ وكانوا يشرحون، هكذا، استقبال رجال الدرك الثلاثين أرسلتهم بلاهة الشرطة إلى هذه القرية الصغيرة، ستة وثلاثين ساعة بعد الشهرة الرائعة، والسكر العام الذي تلاها. استقبل الدركيون برشق الحجارة، فهربوا، وسقط اثنان منهم، عن ظهر جواديهما ورميا في نهر البو.

انفجار خذان قصر سنسفرينا، مرّ تقريباً بدون ضجة: بعض الشوارع اغرقت أثناء الليل، وفي اليوم التالي قيل إنها أمطرت ليلاً. واهتم لدوفيك بكسر ألواح الزجاج في أحدى نوافذ القصر، بطريقة يمكن معها شرح دخول اللصوص.

وجد سلّم صغير وأدرك الكونت موسكا وحده عبقرية صديقته.

كان فابريس مصمماً على العودة إلى بارما عندما يستطيع؛ أرسل لودفيك حاملاً رسالة إلى الأسقف، فعاد ليضع في بريد أول قرية في البيمونت، (سنازارو، إلى الغرب من يافي) رسالة باللاتينية وجهها الاسقف إلى محميه الشاب. لم يكن اسم فابريس دل دونغو يكتب أبداً. كانت جميع الرسائل الموجهة إليه،

باسم لدوفيك سان ميشلي، في لوكارنو، سويسرا أو في بلجيرات البيمونت. كان الظرف من ورق رديء، الختم عليه بدون احكام، ويكاد العنوان لا يقرأ، ومزين بعض المرات بتوصيات لا تليق بطاهية. كانت جميع الرسائل مؤرخة عن نابولي، ستة أيام قبل تاريخها الحقيقي.

عاد لدوفيك من قرية سنازارو بسرعة بالغة، مكلفاً بمهمة يعلق فابريس عليها أهمية كبرى: إيصال منديل حريري إلى كليليا كونتي، عليه سوناتات لبترارك، وكانت كلمة أبدلت في هذا السوناتات. وجدته كليليا على طاولتها يومين بعد أن تلقت شكر المركيز دي كريسنزي الذي اعتبر نفسه من أسعد الناس.

كان على لدوفيك أن يسعى للحصول على كل التفاصيل الممكنة عمّا يجري في القلعة. اعلم فابريس بالحدث المحزن: زواج المركيز كريسنزي بات أمراً مقرراً. لم يكن يمرّ يوم دون أن يقيم حفلة على شرف كليليا داخل القلعة. وهذا المركيز الفاحش الثراء، والبخيل جداً، كما عادة رجال شمالي إيطاليا الأغنياء كان يقوم باستعدادات ضخمة، مع أنه يقترن بفتاة لا ثروة معها، وهذا برهان جازم بان الزواج سيتمّ. غرور الجنرال فابيو كونتي جرح من هذه الملاحظة، الأولى التي خطرت ببال كلّ مواطنيه. كان اشترى أرضاً بأكثر من. . . . . . فرنك نقداً، هو الّذي لم يكن يملك شيئاً، وصرح أنه يعطي الأرض لزواج ابنته ولكن

تكاليف المعاملة والمصاريف الأخرى تبلغ أكثر من اثني عشر ألف فرنك، نفقة بدت مضحكة للمركيز كريسنزي، المنطقي. من ناحيته أوصى في ليون على جدرانيات رائعة الألوان منسقة ومرتبة لمتعة العين، من صنع بالاجي المشهور، رسام بولونيا. كانت كلّ واحدة من هذه الجدرانيات تمثل قسماً من سلاح آل كريسنزي الذين ينحدرون من كريسنسيوس المشهـور، قنصل روما عام ٩٨٥، معدة لتزين الصالات السبع عشرة هي الطبقة الأرضية من قصر المركيز. كلّفت الجدرانيات، وساعات الحائط والثريات المعادة إلى بارما. . . , ٣٥٠ فرنك؛ ارتفـع ثمـن المرايا الجديدة غير تلك الموجودة في البيت إلى ٢٠٠ ٠٠٠ فرنك. ومع صالونين، مصنوعات «البارمي»، رسام البلاد المشهور بعد كوريج، كانت جميع غرف الطابق الأول والثاني مشغولة برسامين من فلورنسا وروما وميلانو، المشهورين! كان فوكلبرغ النحات السويدي العظيم، وتينيراني من روما ومارشيـزي من ميلانـو يشتغلون منذ سنة على عشر منحوتات تمثل مآثر كريسنسيوس، الرجل العظيم. وكانت معظم السقوف، مزيّنة بالصور الزيتية، وتشير أيضاً إلى حياته، وفي السقف، كان هايز في ميلانو يمثل كريسنسيوس يستقبله فرنسيس سفورسيا في الشانزيليزيه، لوران الممتاز، الملك روبير، القنصل كولا دي ريانزي، مكيافيلي ودانتي وسائر رجال القرون الوسطى العظام. والاعجاب بهؤلاء الرجال المختارين كان كأنه انتقاد ساخر لرجال السلطة.

كانت كلّ هذه التفاصيل الرائعة تلفت طبقة النبلاء وبورجوازيي بارما. ومزقت قلب بطلنا عندما قرأها، بإعجاب ساذج، في رسالة طويلة من عشرين صفحة أملاها لدوفيك إلى خفير جمركي في كازال مدجيوري.

كان فابريس يقول في نفسه: وأنا الفقير إلى درجة متناهية! لا أملك سوى إيراد أربعة آلاف ليرة أولاً وأخيراً! إنها حقاً وقاحة مني أن أتجرأ على حب كليليا كونتي الّتي من أجلها تحدث كلّ هذه العجائب.

كان بند واحد في رسالة لدوفيك الطويلة مكتوباً بخط رديء يعلن فيه لسيده أنه التقى في العشية، غريو المسكين، سجانه القديم الذي كان سُجِنَ وافرج عنه. طلب منه سكي كحسنة، وأعطاه لدوفيك أربعة باسم الدوقة، كان السجانون القدماء، الذين أفرج عنهم، وعددهم إثنا عشر، يتأهبون للاحتفال بطعنات من سكاكينهم للسجانين الجدد، خلفائهم إذا التقوهم خارج القلعة. أخبره غريو عن نزهة كلّ يوم تقريباً في القلعة وأن الآنسة كليليا ممتقعة الوجه، ومريضة وأشياء أخرى مماثلة. هذه العبارة الأخيرة سببت أن يتلقى لدوفيك، رسالة أثر رسالة، الأمر بالعودة إلى لوكارنو. امتثل، والتفاصيل التي أعطاها مشافهة كانت أكثر شَجَنا لفابريس.

أنس فابريس مع الدوقة المسكينة، ولكان تحمل بالأحرى

ألف ميتة من أن يتلفظ أمامها باسم كليليا كونتي. كانت الدوقة تكره بارما؛ وهو، كلّ ما يذكره بهذه المدينة كان رائعاً ومثيراً للحنان.

لم تنس الدوقة انتقامها؛ كانت سعيدة جداً قبل موت جيليتي! والآن، ما مصيرها! تعيش بانتظار حادث مريع، وتحترس أن تقول كلمة عنه لفابـريس، هي التي كانت في الماضي لدى اتفاقها مع فيرانتي، تعتقد أن تفرح فابريس إنها ستنتقم له ذات يوم.

أحاديث فابريس والدوقة: صمت كئيب دائماً. ولـزيادة في روعة علاقتهما، استسلمت الدوقة لتجربة القيام بمقلب مع ابن أخيها الحبيب.

كان الكونت يكتب لها تقريباً كل يوم. ويبعث رسائله ظاهراً كما في عهد علاقتهما، إذ أن رسائله كان ملصقاً عليها طابع بريد من إحدى قرى سويسرا. كان يعذب نفسه كي لا يتكلم بكثير من الصراحة عن ميله وكي يعد رسائل مسلية بالكاد يلقي عليها نظرة ساهمة! للأسف! ماذا يمكن إخلاص محبّ معتبر، عندما يكون القلب معذباً مطعوناً بجفاء الذي يفضل عليه؟

لم تجب الدوقة عن رسائله سوى مرة واحدة خلال شهرين، لتطلب إليه جسّ النبض لدى الأمير، والبحث إذا كان، بالرغم من وقاحة الأسهم النارية. يقبل رسالة من الدوقة تطلب فيها

مركز فارس شرف لدى الأميرة، (وهو أصبح شاغراً منذ قليل) المركيز كريسنزي والذي كان يتمنى أن يمنح له تهنئة لزواجه.

كانت رسالة الدوقة طرفة: الاحترام المؤثر والمعبر عنه أفضل تعبير لم يقبل في هذا الأسلوب المستعمل في البلاط، أية كلمة يمكن أن لا تؤدي نتائجها حتي البعيدة منها، إلى ما لا يبهج الأميرة. وكانت رائحه اللطافة تفوح منها.

جاء في كلام الأميرة: «إبني وأنا، لم نمض سهرة مقبولة منذ ابتعادك المفاجىء؟ ألا تتذكر دوقتي العزيزة إنها هي التي جعلت صوتي استشارياً في تعيين ضباطي؟ تعتقد نفسها مجبرة أن تقدم لي أسباباً لمكان المركيز، كما لو أن الرغبة التي تعبر عنها ليست عندي أهم تلك الأسباب؟ سينال المركيز مكاناً، إذا تمكنت أن أقوم بعمل ما لمساعدته؛ وسيكون دائماً مكان واحد في قلبي، والأول، لدوقتي المحبوبة. ابني يأبى أن يستعمل إلاّ هذه العبارات نفسها، العنيفة في فم ولد عمره واحد وعشرون عاماً، ويطلب منك نماذج معادن وادي أورتا المجاورة لبلجيرات. يمكنك إرسال رسائلك التي أثمناها متلاحقة، إلى الكونت الّذي لا يزال يكرهك والّذي أحبه من أجل عواطفه. بقي رئيس الأساقفة مخلصاً لك إخلاصاً تاماً. نأمل أن نراك يوماً: تذكّري أن هذا الأمر واجب. المركيزة جسلري، رئيسة وصيفاتي، تهيىء نفسها لتهجر هذا العالم إلى أفضل سبّبت لي غماً كبيراً؛ تكدّرني

برحيلها في وقت غير مناسب. مرضها يذكّرني باسم كنت وضعته في السابق مكان اسمها، لو تمكنت من الحصول على هذه التضحية باستقلال هذه المرأة الفريدة والتي بهربها منا، حملت كلّ مرح بلاطي الصغير الخ.

بهذا الوعي التام. لتعجيل القران الذي يرفع فابريس إلى اليأس، كانت تبادره الدوقة كلّ يوم. كذلك كانا يقضيان أربع أو خمس ساعات معاً فوق مياه البحيرة دون أن يتبادلا كلمة واحدة. حسن التصرّف كان كاملاً وتاماً من ناحية فابريس. ولكنه كان يفكرّ بأشياء أخرى وروحه الساذجة البسيطة لم تكن توفرّ له شيئاً ليقوله. كانت الدوقة تراه هكذا يسبّب عذابها.

نسينا أن نسرد في مكانه، ان الدوقة اتخذت بيتاً لها في بلجيرات، وهي قرية جميلة تتّصف بكل ما يعد به اسمها (منعطف جميل من البحيرة). كان بإمكان الدوقة من فرجة باب صالونها أن تضع قدمها في المركب. اتخذت واحداً عادياً جداً. يكفي أربعة جذافين لتسييره استخدمت اثني عشر وتدبرت أمرها بطريقة أن يكون كل واحد من إحدى القرى الاثنتي عشرة الكائنة في جوار بلجيرات. في المرة الثالثة أو الرابعة وجدت فيها نفسها وسط البحيرة مع كل هؤلاء الرجال الذين أحسنت اختيارهم. أوقفت حركة المجاذيف.

ـ إني أعتبركم جميعاً كأصدقاء وأريد أن أبوح لكم بسر.

هرب ابن أخي فابريس من السجن، ربما بخيانة، وسيجربون إلقاء القبض عليه ثانية بالرغم من كونه في بحيرتكم وهي واحة صراحة. لتكن آذانكم في ترصّد، وأعلموني بكل ما سيتصل بكم. اسمح لكم بدخول غرفتي نهاراً وليلاً.

اجابها الجذافون بحماس؛ وكانت تعرف كيف تحّبب الآخرين بها. لم تكن تعتقد بأن الأمر يتعلق بإلقاء القبض ثانية على فابريس؛ بل جميع هذه الاهتمامات من أجل نفسها ولم تكن فكرت بهذا الشأن قبل الأمر المشؤوم بفتح خزان قصر سنسفرينا.

دفعتها حكمتها إلى أن تستأجر شقة لفابريس في مرفأ لوكارنو. كان يأتي كلّ يوم ليراها أو تذهب هي إلى سويسرا. ودامت بهجة هذه اللقاءات الثنائية وأتت المركيزة وابنتاها لزيارتها مرتين. وجود هؤلاء الغريبات أفرحها: إذ بالرغم من روابط الدّم، يمكن تسمية «غريب»، الشخص الذي لا يعرف شيئاً عن مصالحنا التي نكن لها أكبر قدر من المعزّة، ولا نراه سوى مرّة واحدة في السنة.

كانت الدوقة ذات مسَاء عند فابريس مع المركيزة وابنتيها. وكان رئيس الكهنة والكاهن أتيا لتقديم احترامتهما إلى النسوة: رئيس الكهنة كان مهتماً بإحدى المؤسسات التجارية ومطّلعاً على الأحداث، خطر بباله أن يقول:

ـ أمير بارما مات!

امتقع لون الدوقة: وبالكاد كان لها الشجاعة أن تقول:

ـ كلا، الخبر ينحصر بالتحدث عن الوفاة، وهي أكيدة.

نظرت الدّوقة إلى فابريس. فعلت وكلّ هذا من أجله، قالت في نفسها، ولكنتُ فعلتُ ألف مرة أكثر، وها هو أمامي لا مبالٍ ويفكّر بامرأة أخرى! كان فوق قوى الدوقة أن تتحمل هذه الفكرة المريعة، فسقطت مغشياً عليها؛ تراكض الجميع لمساعدتها؛ ولكن لدى عودتها إلى وعيها، لاحظت أنّ فابريس كان أقل حركة من رئيس الكهنة والكاهن. كان يحلم كعادته.

قالت الدوقة في نفسها: إنه يفكر بالعودة إلى بارما، وربما بفسخ زواج كليليا من المركيز؛ ولكني سأعرف كيف امنعه، ثمّ تذكرت وجود الكاهنين فأسرعت بالاضافة:

ـ كان أميراً عظيماً، افتري عليه كثيراً. وفاته خسارة جسيمة لنا.

استأذن الكاهنان بالانصراف وأعلنت الدوقة أنها ستلازم سريرها لكي تختلي بنفسها.

كانت تقول: عليّ الحذر، وأن انتظر شهراً أو اثنين قبل العودة إلى بارما؛ ولكنني لن أستطيع الصبر. أتألم كثيراً هنا. من كان قال إنني سأسأم وأنا أتنزه على هذه البحيرة الجميلة، أنا

وإياه بمفردنا وفي الوقت الذي قمت من أجل الانتقامّ له بأكثر مما أستطيع أن أبوح له! الموت ليس شيئاً بعد هذا أدفع الآن ثمن فورات الفرح والسرور البريء اللّذين كنت أجدهما في قصري، في بارما، عندما استقبلت فابريس العائد من نابولي. لو قلت كلمة واحدة لكان انتهى كلّ شيء، فلو كان مرتبطاً بي لما كان فكّر بكليليا؛ هذه الكلمة تثير فيّ اشمئزازاً مقيتاً. تتغلّب عليّ الآن. هل أبسط من هذا الأمر؟ عمرها عشرون سنة وعمري ضعف عمرها. وإني مريضة بدلتني الهموم. يجب أن أموت، يجب أن أنتهي! لا تمثّل امرأة في الأربعين شيئاً إلاّ للرجال الّذين أحبّوها أيام شبابها. لن أجد بعد الآن سوى مسرات تافهة، أَوَ يستحقّ هذا أن أبقى حيّة؟ سبب أولى للعودة إلى بارما. . . لكي الهو. وإذا سارت الأمور بطريقة غير مؤاتية سيحرمونني من الحياة. اين الضرر؟ سأموت ميتة عظيمة، وقبل أن أنتهي سأقول لفابريس. يا ناكر الجميل! من أجلك أموت! لن أستطيع أن أجد ما يشغلني إلا في بارما، خلال الأيام القليلة تبقى لي أعيشها.

سأمثل في بارما دور السيدة العظيمة. أية سعادة لو أمكنني الآن أن أشعر بكل هذه الفروق كانت قديماً مصيبة رافرسي! كي أشاهد سعادتي، كنت بحاجة إلى أن أنظر في عيني الغيرة. . . لغروري سَعَادة خاصة؛ لن يدري أحد بالحدث الذي وضع حداً لحياة قلبي، ما عدا الكونت ربما. . . سأحب

فابريس، سأكون مخلصة لمصيره، ولكن لا يجب أن يفسخ زواج كليليا وينتهي بالاقتران بها. . . كلا هذا لن يكون!

وصلت الدوقة إلى هنا في مساررة نفسها، عندما سمعت ضجة كبرى في البيت.

يأتون للقبض عليّ؛ قد يكون فيرانتي وقع اسيراً وتكلم! نعم الأمر! سيكون لدي عمل، وسأجرب أن أدافع عن رأسي. ولكن، أولاً، عليّ ألاّ أقع في قبضتهم.

هربت الدوقة، نصف عارية، إلى مؤخرة بستانها. كانت تفكر حينذاك أن تمر فوق جدار صغير، للهرب إلى الريف. ولكنها رأت أنهم يدخلون غرفتها. عرفت برونو، رجل ثقة الكونت: كان بمفرده مع وصيفتها. اقتربت من باب الشرفة. كان الرجل يتكلم على جروح أصابته. دخلت الدوقة بيتها، ارتمى برونو على قدميها وهو يستحلفها ألا تخبر الكونت عن الحالة المضحكة التي وصل فيها. وأضاف:

ـ عند مقتل الأمير، أصدر الكونت أوامره، إلى كل المحطات كي لا تسلّم جياداً إلى رعايا دول بارما. ذهبت حتى نهر ألبو مع جياد البيت، ولكن لدى خروجي من المركب، انقلبت عربتي وتهشمت وأتلفت، وأصابتني كدمات خطرة فلم أتمكن من امتطاء الجواد، كما يفرض عليّ واجبي.

ـ إذاً، قالت الدوقة، الساعة الآن الثالثة صباحاً، سأقول إنك وصلت ظهراً! لن تناقضني.

ـ أنا أعرف كم السيّدة طيبة القلب.

السياسة في عمل أدبي، طلقة مسدس في حفلة موسيقية، شيء فظ، ومع ذلك لا يمكن الإشاحة عنها.

نحن مزمعون أن نتكلم على أشياء سافلة جداً، وكنا نود أن نتجاوزها لغَير سبب؛ ولكننا نرى أنفسنا مجبرين أن نتكلم على أحداث تهمّنا لأن مسرحها قلب الأشخاص.

قالت الدوقة لبرونو: كيف مات هذا الأمير العظيم؟

ـ كان يصطاد الطيور الرحالة في المستنقعات، على طول البو، على فرسخين من ساكا. سقط في حفرة محجوبة بطاقة عشب: كان العرق يبلله، فأصابه برد؛ حملوه إلى بيت منفرد حيث مات بعد ساعات. وفهم من يدعي أن كاتينا وبوروني ماتا أيضاً، وأن مراجل نحاسية مليئة بالزنجار تخص المزارع الذي دخلوا بيته تسببت بالحدث كله: تناولوا طعام الفطور عند هذا الرجل. ويبدو أن الرؤوس المتحمسة، واليعقوبيين الذين يخبرون مايشاؤون، يتكلّمون على السمّ. صديقي توتو، محاسب تجهيزات القصر، كان قضى لولا اهتمام أحد القرويين له معارف واسعة في الطب، وصف له أدوية غريبة؛ ولكن لم يعد

أحد يتحدث عن موت الأمير: إنه رجل قاس. عندما ذهبت، كان الشعب يتجمع للقضاء على القاضي راسي: وكانوا يريدون الذهاب لإحراق أبواب القلعة سعياً لإطلاق السجناء. ولكن ادعوا أن فابيو كونتي سيطلق عليهم مدافعه. وآخرون يؤكدون أن مدفعيي القلعة سكبوا الماء على البارود ورفضوا قتل مواطنيهم. والأكثر أهمية: بينما طبيب سندولارو، يهتم بتضميد ذراعي، وصل رجل إلى بارما، وقال أن الشعب صادف في الشوارع، باربون، كاتب القلعة الشهير، فصرعه ثم ذهب ثم حملوه وشنقوه في شجرة النزهة الأقرب من القلعة. كان الشعب يسير كلّه ليحطّم هذا التمثال الجميل للأمير في جنائن الباحة. ولكن الكونت، قاد فيلقاً من الحرس، وضَعَه أمام التمثال، وأرسل يقول للشعب، أن ما من أحد سيخرج حياً ممن سيدخلون إلى الجنائن وخاف الشعب. ولكن الطريف، ان هذا الرجل بوصوله إلى بارما، وكان دركياً قديماً، ردد على مسامعي مرات، أن الكونت رفس عدة مرات الجنرال ب...، قائد حرس الأمير وقاده بندقيان خارج الجنائن على أمر منه بعد نزع كتافياته.

ـ أنا أعرف الكونت تماماً في هذه التصرفات، صاحت الدوقة بغمرة من الفرح لم تكن قادرة على توقعها قبل ذلك بدقيقة واحدة: لن يتحمل أبداً أن تهان أميرتنا؛ أما الجنرال ب... فلم يخدم إخلاصاً منه لأسياده الشرعيين، بينما الكونت أقل منه

رهافة حس، شارك بكل حملات إسبانيا، وهذا ما كان يؤاخذ عليه غالباً في البلاط الملكي.

كانت الدوقة فتحت رسالة الكونت، ولكنها كانت تتوقف عن مطالعتها لالقاء بعض الأسئلة على برونو.

كانت الرسالة ممتعة تماماً وكان الكونت يستعمل العبارات الأكثر إثارة للغم، مع أن الفرح كان يتفجر مع كل كلمة؛ كان يتجنب التفاصيل عن طريقة وفاة الأمير وينهي رسالته بهذه الكلمات:

«ستعودين دون شك، يا ملاكي الحبيب! ولكني أنصحك أن تنتظري يوماً أو يومين، العربة التي سترسلها إليك الأميرة، كما أتمنى أن يتمّ هذا الأمر اليوم أو غداً؛ يجب أن تكون عودتك عظيمة كما كان ذهابك جريئاً. وبما يختص بالمجرم الكبير عندك، أعتزم أن أكلف إثني عشر قاضياً من جميع أنحاء هذه الدولة. ولكن، لمعاقبة هذا المسخ كما يستحق، يجب، أولاً، أن أحوّل الحكم إلى ورق إذا كان له من وجود.»

كان الكونت فتح رسالته ثانية، وقرأها:

«هذه قضية أخرى: وزّعت خرطوشاً إلى كتيبَتَي الحرس، سأحارب واستحق لقب القاسي أنعم عليّ به الليبيراليون منذ أمد بعيد. هذه المومياء القديمة التي يدعونها الجنرال ب... تجرأ

وتحدّث في الثكنة عن دخوله في مفاوضات مع الشعب نصف الثائر. أكتب لك من وسط الشارع؛ إني متجه إلى القصر، حيث لن يدخل أحد إلا على جثتي. وداعاً! إذا مت، سأموت وأنا أعبدك كما كنت وأنا حي! لا تنسي أن تسحبي الثلاثمائة ألف فرنك المودعة باسمك عند د. . . ، في ليون.

«هذا رجلنا المسكين راسي، ممتقع اللون كالموت، وبدون شعر مستعار. لا يمكنك تخيّل هذا الوجه! الشعب يريد شنقه وهذا أكبر ضرر يلحق به، إذ يستحقّ أَنْ يُفَسخ. كان يلجأ إلى قصري، وركض ورائي في الشارع؛ ولا أدري ما سأفعل به. . . لا أريد أن أقوده إلى قصر الأمير، إذ سأتسبب في ثورة الشعب من هذه الناحية. سترى ف. . . إذا كنت أحبها؛ كلمتي الأولى لراسي: يلزمني الحكم على السيد دل دونغو، وجميع النسخ، التي يمكنك الحصول عليها، وقل لهؤلاء القضاه البغاة، سبب هذه الثورة إنني سأعلقهم جميعاً على أعواد المشانق، حتى أنت يا صديقي العزيز، إذا همسوا بكلمة واحدة بشأن هذا الحكم، الذي لم يكن له وجود. باسم فابريس سأرسل سرية من الرماة إلى رئيس الأساقفة. وداعاً! يا ملاكي العزيز! قصري سيحرق! وسأفقد جميع رسومك! أنا أسرع إلى القصر لأقتل هذا الجنرال النذل ب. . . الذي يرتكب حماقات أخرى إضافة إلى الحماقات التي أرتكبها؛ إنه يتملق الشعب بدناءة، كما كان يتملق الأمير المرحوم في الماضي؛ كلّ هؤلاء

القادة خائفون حتى الموت؛ وأعتقد أنني سأسعى لتعييني قائداً عاماً. »

لم ترسل الدوقة أحداً لإيقاظ فابريس مكراً منها. كانت تشعر نحو الكونت، بفورة من الإعجاب تشبه الحب. بعد التفكير العميق، يجب أن أتزوجه وفوراً كتبت له، وأرسلت واحداً من خدمها. تلك الليلة، لم يتسنّ للدوقة أن تكون تعيسة.

في اليوم التالي، نحو الظهر، رأت مركباً عليه عشر جذافين، يشق الماء بسرعة، تعرفت هي وفابريس إلى رجل يرتدي بذلة خدم أمير بارما: كان واحداً من الرسل، وقبل أن يَطَأ اليابسة، صاح مخاطباً الدوقة: هدأت الثورة! سلّمها الرسول عدة رسائل من الكونت، ورسالة رائعة من الأميرة، ومرسوماً من الأمير رانوس ـ أرنست الخامس، على رق، يجعلها دوقة سان جيوفاني، ووصيفة كبرى للأميرة الأم. خطر ببال الأمير الشاب العالم بالعدانة، والذي تعتقده أحمق، أن يكتب لها رسالة قصيرة؛ ولكنها كانت في نهايتها تعبر عن الحب.

«الكونت يقول، يا حضرة الدوقة، إنه مسرور مني؛ تلقيت بعض طلقات البنادق وأصيب جوادي: هذا الأمر أثار ضجة كبرى رغم كونه تافهاً، أتمنى من كل قلبي أن أخوض معركة حقيقية، ولكن ليس ضدّ رعاياي. أنا مدين بكلّ شيء للكونت؛ جميع قادتي، الذين لم يخوضوا حرباً، أقتيدوا

كالأرانب، وهربوا حتى بولونيا. منذ الحدث الكبير، والذي أوصلني إلى السلطة، لم أوقع مرسوماً ـ كتوقيعي على هذا الذي يعينك وصيفة أولى لدى أمي.

أمي وأنا تذكرنا اليوم الّذي كنت تعجبين فيه بالمنظر الرائع من قصر سان جيوفاني، وكان في الماضي ملك بتسرارك، كما يقال؛ أرادت أميّ أن تهبك هذه الأرض! وأنا لا أعرف ماذا أهبك ولا أجرؤ أن أقدم لك إلا ما هو ملكك، جعلتك دوقة في بلادي؛ لا أعرف إذا كنت على قدرٍ كافٍ من الثقافة، يجعلك تدركين أن سنسفرينا لقب روماني. منحتُ الوشاح الأكبر إلى رئيس الأساقفة الذي أظهر ثباتاً فريداً، نادراً ما نجده عند رجل في السادسة والستين. لن تحقدي عليّ لأني سمحت بالعودة إلى جميع النساء اللواتي كن منفيّات. يقولون: عليّ ألاّ أوقعّ من الآن فصاعداً إلا بعد أن أكتب هاتين الكلمتين: «المخلص لك»، وأنا مستاء لأنهم يجعلونني أجذل في تأكيدات ليست صحيحة كلياً إلاّ عندما أكتب لك.

المخلص لك
رانوس ـ ارنست

وباتت الدوقة تتمتع بأقصى الحظوة عند الأمير! غير أنها وجدت في رسائل أخرى من الكونت تلقتها ساعتين بعد ذلك أمراً في غاية الغرابة: لم يكن يعطيها توضيحات أخرى، بل

ينصحها بأن تؤخر عودتها إلى بارما لبضعة أيام وأن تكتب إلى الأميرة بأنها مريضة جدّاً. مما لم يمنع الدوقة وفابريس من التوجه فوراً إلى بارما بعد تناول الغداء. هدف الدوقة، ولم تكن تعترف به لنفسها: تعجيل زواج المركيز كريسنزي. اجتاز فابريس الطريق في فورة من السعادة المجنونة، بدت مضحكة في عيني عمته. كان يأمل أن يلتقي كليليا عاجلاً؛ كان ينوي أن يخطفها، بالرغم منها، إذا لم تكن طريقة أخرى لمنع هذا الزواج.

كانت رحلة الدوقة وابن أخيها مرحة جداً. توقف فابريس في محطة قبل بارما لارتداء ثيابه الكهنوتية؛ ففي العادة كان يرتدي ثياباً تشبه ثياب الحداد. عندما دخل غرفة الدوقة: أجد شيئاً غريباً وغير، قابل التفسير، في رسائل الكونت. إذا شئت، ستقضي هنا بضع ساعات؛ وسأرسل رسولاً حالما أكون تكلمت مع هذا الوزير الكبير.

أطاع فابريس بجهد. وامتاز استقبال الكونت للدوقة الّتي يدعوها امرأته، بمظاهر فرح حَريّة بولد عمره خمسة عشر عاماً، وبقي طويلاً لا يريد الخوض معها في أحاديث سياسية، وأخيراً تكلما على السبب المحزن:

ـ أحسنت بمنعك فابريس من الوصول رسمياً إلى هنا لأننا في فورة الانفعال. احزري من الزميل الذي أعطاني إياه الأمير

كوزير للعدل! إنه راسي يا عزيزتي! راسي الذي عاملته كنذل يوم احداثنا الكبرى. وانبّهك: جرى إلغاء كل ما جرى هنا. إذا طالعت صحيفتنا، سترين أن كاتباً من القلعة، يدعى باربون، توفي إثر سقطة من إحدى العربات. أما بما يختص بالستين نذلاً أمرت بإعدامهم مع آخرين، بإطلاق الرصاص عليهم، عندما كانوا يهاجمون تمثال الأمير في الجنائن، فهم في أحسن حال ويقومون الآن برحلة. ذهب الكونت زورلا، وزير الداخلية بنفسه إلى محل سكن كل من هؤلاء الأبطال التعساء واعطى إلى أسر أو إلى أصدقاء كل منهم خمسة عشر سكيّاً، مع القول أن فقيدهم يقوم برحلة، ومع تهديد واضح بالسجن إذ ارتأى أحد أن يقول أنه قتل. أرسل رجل من وزارتي، الشؤون الخارجية، بمهمة إلى صحفيي ميلانو وتورينو، حتى لا يعالجوا بعد الآت «الحادث المؤسف» وهذه هي الكلمة المكرّسة؛ يجب أن يذهب هذا الرجل إلى باريس ولندن حتى يصدر تكذيباً في كلّ الصحف، رسمياً، حول كل ما يمكن قوله عن اضطراباتنا واتجه عميل آخر إلى بولونيا وفلورنسا. هززت كتفي.

ولكن الممتع في سنّي، أني مررت بلحظة حماس وأنا أتحدّث إلى جنود الحرس وعن نزع كتافيات الجنرال ب... هذا الإنسان السافل العديم الكرامة. في هذه اللحظة كنت بذلت حياتي دون تردد، من أجل الأمير، واعترف الآن أنني لو فعلت لكانت هذه أسوأ طريقة لنهاية إنسان. سيعطي الأمير اليوم، مع

أنه شاب طيب للغاية، مائة ريال كي يقضي عليّ مرض لا يجرؤ حتى الآن أن يطلب مني استقالتي، ولكننا نادراً ما نتحدث. أرسل له كل يوم كمية من التقارير المكتوبة، كما كنت أفعل مع المرحوم الأمير السابق، بعد سجن فابريس. وبالمناسبة، لم أتمكن أن أصنع ورقاً لتجعيد الشعر بالحكم الموقع ضده، للسبب الهامّ، أن هذا النذل راسي، لم يسلمني إياه. أحسنت بمنعك فابريس من الوصول إلى هنا رسمياً. الحكم قابل للتنفيذ حتى اليوم. لا أعتقد، مع هذا كله، أن راسي يتجرأ ويلقي القبض على ابن عمنا اليوم، ولكن من الممكن أن يقدم بعد خمسة عشر يوماً؛ إذا أراد فابريس دخول المدينة، ليأت ويسكن في بيتي.

صاحت الدوقة دهشة: ولكن ما سبب كل هذا؟

ـ اقنعوا الأمير، أنني اتخذ مواقف دكتاتورية وأدعي أنني منقذ الوطن وأبغي أن أقوده كما يقاد الطفل الصغير؛ وأنا أتكلّم عليه، تلفظت بالكلمة المشؤومة: هذا الطفل. يمكن أن يكون الأمر صحيحاً، كنت منفعلاً ذلك اليوم. كان في نظري، رجلاً عظيماً، لأنه لم يكن خائفاً وسط الطلقات الأولى سمعها في حياته. لا ينقصه الفعل ولهجته أفضل من لهجة والده: أخيراً لن أردد أنه شريف وطيب في قلبه. ولكن هذا القلب الصادق والفتي ينقبض عندما يخبرونه حيلة نصاب، ويعتقد أنّ النفس تكون سوداء للمح هذه الأمور: تخيّلي التربية الّتي تلقاها!...

ـ كان على سعادتك، أن تفكر، بأنه سيصبح السيد ذات يوم، ويعين رجل فكر إلى جانبه.

ـ أولاً لدينا مثل الكاهن كوندياك الذي استدعاه المركيز دي فلينو، فلم يجعل من تلميذه سوى ملك البلهاء. كان يحضر التطواف ولكنه لم يعرف عام ١٧٩٦ أن يفاوض الجنرال بونابرت، ولو عرف لكانت مساحة دولتة تضاعفت ثلاث مرات عما هي عليه الآن. من ناحية ثانية، لم أعتقد أبداً أني سأبقى وزيراً عشر سنوات متوالية. الآن زالت الغشاوة عن عيني، ومنذ شهر، أريد أن أجمع مليونا، قبل أن أترك هذه الجماعة الفوضوية التي أنقذتها. لولاي لكانت بارما جمهورية خلال شهرين وعلى رأسها فيرانتي بالا ديكتاتوراً.

هذه الكلمة أخجلت الدوقة. كان الكونت يجهلّ كل شيء عن علاقتها به.

ونعود إلى ملكية القرن الثامن عشر العادية: المعرّف والعشيقة. إن الأمير بالحقيقة لا يحب التعديين، وربما أنت أيضاً، يا سيدتي.

منذ تولّي الملك، وفراشه الّذي جعلت أخاه نقيباً وليس له سوى خدمة تسعة أشهر، أقنعه أن يكون أكثر سعادة من سواه لأن رسمه سينقش على النقد. خَلّفَ الضجر هذه الفكرة الرائعة. إنه بحاجة الآن، إلى مساعد كدواء للسأم. إذا وهبني

هذا المليون الّذي نحن بحاجة إليه لنعيش في نابولي أو باريس، لن أقبل أن أكون دواءه للضجر، وقضاء أربع أو خمس ساعات كلّ يوم مع عظمته. من ناحية أخرى بما إني أرجح عقلاً منه سيحسبني مسخاً بعد مرور شهر من الزمن.

كان الأمير المرحوم شريراً وحسوداً، ولكنّه كان خاض غمار الحرب. وقاد الجيوش، وهذا ما أثبت أنه فارس قوي الشكيمة وجدير بان يكون أميراً. كان بإمكاني أن أكون وزيراً شريراً أو حاكماً. مع هذا الرجل النزية والطيّب أنا مجبر أن أكون متآمراً. وها أنا خصم امرأة حمقاء في القصر، وهو أدنى مني بكثير إذ أني أهمل مائة تفصيل ضروري. منذ ثلاثة أيام، مثلاً، خطر ببال إحدى النساء الّتي توزع، كلّ صباح، المناديل البيضاء في الغرف، أن تجعل الأمير يفقد مفتاح أحد مكاتبه الإنكليزية. وعلى هذا، رفض الأمير أن يهتمّ بكلّ الشؤون الموجودة أوراقها في هذا المكتب. يمكن بعشرين فرنك أو نزع الألواح التي تشكل العمق، أو استعمال مفاتيح مزوّرة؛ ولكن رانوس أرنست الخامس، قال لي أن ذلك من شأنه أن يسهّل لقفّال البلاط اكتساب عادات سيئة.

كان يستحيل عليه، حتى الآن، أن يحتفظ بالقرار نفسه ثلاثة أيام متوالية، لو كان ولد السيد المركيز الفلاني، مع ثروة، ولكان هذا الأمير الشاب أحد الرجال الموقرين في بلاطه، كما لويس

السادس عشر؛ ولكن كيف يتمكّن بسذاجته التقية أن يقاوم المكائد المحكمة حوله؟ حالة عدوتك رافرسي هي أيضاً أقوى مما كانت عليه في أيّ وقت آخر؛ اكتشفوا فيها أني أنا الّذي أمر بإطلاق النار على الشعب، مصمماً أن أقتل ثلاثة آلاف رجل إذا لزم الأمر، من أن أدعهم يهينون تمثال الأمير الّذي كان سيدي، وأنا ليبيرالي مهووس. كنت أريد التوقيع على الدستور، ومائة سخافة مماثلة. والمجانين قد يمنعوننا بمثل هذه الأحاديث، من التمتع بأفضل الملكيات... وأخيراً، يا سيدتي، أنت الوحيدة من الحزب الليبيرالي الحالي الذي جعلني أعدائي رئيسه، والذي لم يتحدث عنه الأمير بعبارات مجانية؛ فقد رئيس الأساقفة حظوته، وهو رجل شريف لأنّه تحدّث بتعابير معقوله عما فعلته ذاك اليّوم التعيس.

في اليوم التالي، عندما كان لا يزال حقيقياً أن الثورة حصلت، قال الأمير لرئيس الأساقفة: حتى لا تضطري أن تتّخذي لقباً أدنى بزواجك مني، فسيجعلني دوقاً. أعتقد اليوم، أن راسي الّذي رفعته إلى رتبة النبالة عندما كان يبيعني أسرار الأمير المرحوم، سيرفّع إلى منزلة كونت تجاه ترقية كهذه سأمثّل دور أبله. وسيتمرغ الأمير المسكين في الوحل.

ـ بدون شك، ولكنه السيّد، صفة ستزيل عنه المضحك، في أقل من خمسة عشر يوماً. هكذا، أيتها الدوقة العزيزة لنعمل كما

في لعبة النرد: «لنذهب من هنا».

ـ ولكننا لن نكون أغنياء البتة.

ـ في الواقع، لا أنت ولا أنا بحاجة إلى بذخ إذا أعطيتني في نابولي مكاناً داخل مقصورة في سان كارلو وجواداً، سأكون أكثر من راض. لن يكون البذخ هو الّذي سيجعل لنا مكانة، إنّما اللذة الّتي قد يجدها رجال الفكر في البلاد بزيارتنا وتناول كوب شاي برفقتنا.

ـ ولكن، أردفت الدوقة، ما الّذي كان حدث، في اليّوم التاعس لو اتخذت موقف الحياد كما أرجو أن تفعل في المستقبل؟

ـ كانت الجيوش تتآخى مع الشعب، حدثت ثلاثة أيام من المذابح والحرائق (إذ يلزمماية عام لهذه البلاد لكي لا تكون الجمهورية فيها سخافة) وخمسة عشر يوماً من النهب، حتى أرسل الأجانب الغرباء ثلاثة أفواج، أتت لتضع حداً لهذه الأمور. كان فيرانتي بالا في صفوف الشعب، ممتلئاً بالشجاعة وهائجاً كالعادة؛ كان بجانبه إثنا عشر صديقاً يؤازرونه، مما جعل منه راسي مؤامرة رائعة. الأكيد أنه كان يرتدي اسمالاً بالية ويجزل في توزيع الذهب.

اسرعت الدوقة إذ أذهلتها كل هذه الأحداث، لشكر اميرة.

سلمتها المزينة، لحظة دخولها إلى الغرفة، المفتاح الذهبي

الصغير الذي يحمل في الحزام، وهو رمز السلطة العليا في القسم من القصر الّذي يتبع الأميرة. أسرعت كلارا باولينا بـإخراج الجميـع؛ ولما أصبحت وحيـدة مع صـديقتها ثـابـرت خـلال لحظات، ألاّ تفهم رأيها بوضوح. لم تكن الدوقة تدرك تماماً ما يعني كل هذا ولم تكن تجيب إلا بكثير من التحفظ، وأخيراً اجهشت الأميرة بالبكاء وارتمت بين يدي الدوقة وصاحت: زمن تعاستي سيعود: سيعاملني ابني بأسوأ ما فعله والده!

أجابت الدوقة بحدة:

هذا ما سأمنعه. وتـابعت ولكن أنا في حـاجة، أولاً، أن تتكرمي وتقبلي مني عرفاني بالجميل الكامل واحترامي العميق.

ـ ما الذي تريدين قوله؟ صاحت الأميرة بعدما ساورها القلق خائفة من أن تستقيل مدبرتها.

ـ في كلّ مرة ستسمح لي سمو الأميرة بأن أديـر ذقن هذا التمثال الّذي على مدخنتك، إلى اليمين ستجيز سمو الأميرة أن اسمّي الاشياء بأسمائها.

ـ أهذا كلّ شيء، يا عزيزتي الدوقة؟ صاحت كلارا باولينا وهي تنتصب واقفة، وأسرعت بنفسها لإعادة التمثال إلى وضعه الصحيح: تكلمي بكـل حرية، أيتها السيدة المدبرة، قـالت بصوت فتان الرنة.

ـ أردفت هذه قائلة: أيتها السيدة، أصبح لدى سموك رؤيا

واضحة عن الوضع، أنت وأنا نتعرّض إلى مخاطر جسيمة؛ الحكم ضدّ فابريس لم ينقض، وبالتالي، في اليوم الّذي يريدون التخلّص مني وتحقيرك، سيعيدونه إلى السجن. موقفنا أسوأ ما يمكن أن يكون. أما أنا شخصياً، فسأقترن بالكونت، وسنذهب للسكن في نابولي أو باريس. نكران جميل الأمير الّذي سقط ضحيته الكونت، في هذا الوقت، جعله مشمئزاً من الأعمال. ومع الحفاظ على مصلحة سموّك، لن أنصحك بالبقاء في هذه الورطة إلا إذا أعطاك الأمير مبلغاً ضخماً من المال. إسمحي لي أن أشرح بأن الكونت الذي كان معه ١٣٠٠٠٠ فرنك عند استلامه العمل يملك حالياً بالكاد إيراد ٢٠٠٠٠ ليرة. وكنت أحثه عبثاً، منذ زمن، أن يفكر بثروته. أثناء غيابي اختلف مع مزارعي الأمير العامين الّذين كانوا محتالين؛ واستبدلهم الكونت بمحتالين آخرين أعطوه ٨٠٠٠٠٠ فرنك.

ـ كيف! صاحت الأميرة مدهوشة، يا إلهي، كم يسيئني من هذا الأمر!

ـ أيتها السيدة، أجابت الدوقة، بكل هدوء، أيجب أن أبدّل من وضع التمثال. وجعل أنفه إلى الشمال؟

ـ يا إلهي! لا. صاحت الأميرة ولكني مستاءة من أن يكون رجل من طينة الكونت فكّر بمثل هذا النوع من الكسب.

ـ يا إلهي! معقول؟

ـ أيتها السيّدة، أردفت الدوقة، جميع الناس هنا يسرقون، عدا صديقي المركيز كريسنزي الـذي يملك إيراداً ٤٠٠ ٠٠٠ ليرة؛ وكيف لا يسرقون في بلاد لا يدوم فيها الاعتراف بأجلّ الخدمات شهراً كاملاً؟ لم يعد بعد فقدان الحظوة، سوى المال. سأسمح لنفسي أن أطلعك على حقائق مخيفة.

قالت الأميرة: اسمح لك، مع أني أكره هذه الحقائق جدّاً، وأرفقت كلامها بنهدة عميقة.

ـ إذاً، يا سيّدتي، الأمير ابنك، مع أنه نزيه تماماً يمكنه أن يجعلك أتعس بكثير ممّا كنت في عهد والده. كان الأمير المرحوم يتمتّع بمزاج كمزاج جميع الناس على وجه التقريب. إن ملكنا الحالي ليس متأكداً أنه يريد الشيء نفسه ثلاثة أيام متواصلة، وبالتالي، كي نستطيع أن نأمن منه، يجب العيش معه باستمرار ومنعه من التحدث مع أيّ كان. وبما انه ليس من الصعب اكتشاف هذه الحقيقة، فإن الحزب المتطرف الجديد الذي يرأسه راسي والمركيزة رافرسي، يسعى أن يدبّر عشيقة للأمير وسيسمح لها بأن تجمع ثروة، وأن توزع بعض المناصب الصغيرة، ولكنها ستكون مسؤولة أمام الحزب عن اطـلاعه المستمـر على إرادة الملك.

أحتاج أنا، كي تكون إقامتي وطيدة في بلاطك، أن ينفى راسي وأن يهان علناً؛ وأن يحاكم فابريس من قبل أنزه القضاة

الّذين يمكن إيجادهم: إذ هؤلاء السادة اعترفوا ببراءته كما آمل، سيكون من الطبيعي أن يسمح سيادة رئيس الأساقفة بأنْ يكون فابريس مساعده وفي ما بعد خليفته. إذا فشلت، سأنسحب أنا والكونت من البلاط؛ وأنا ذاهبة سأترك لك هذه النصيحة إلى سموّك المعظم: عليها ألا تغفر أبداً لراسي، وعدم الخروج أبداً من مقاطعات ابنها. لن يسبب هذا الولد الطيّب لها أيّ أذى حقيقى، وهي قريبة منه.

أجابت الأميرة وهي تبتسم: تابعت أفكارك بكل اهتمام. أيجب أن أسعى في تدبير عشيقة لابني؟

ـ لا. يا سيدتي، بل أن تجعلي من صالونك المكان الوحيد الذي يتسلى فيه.

كان الحديث طويلاً جداً في هذا المعنى. وسقطت الغشاوة عن عيني الأميرة البريئة والمرحة.

ذهب رسول من قبل الدوقة ليقول لفابريس أن باستطاعته دخول المدينة، ولكن سراً: كان يمضي وقته متنكراً بزيّ فلاح في الكوخ الخشبي لبائع الكستناء، قبالة باب القلعة، تحت الأشجار التي تكوّن منتزه المدينة.

٢٤

نظمت الدوقة سهرات رائعة في القصر الّذي لم يرَ أبداً مثل هذا

المرح؛ لم تكن الدوقة إطلاقاً أكثر لطفاً كما في هذا الشتاء، ومع هذا عاشت وسط أعظم المخاطر، ولكن أيضاً لم يحصل لها في هذا الفصل الحرج، ان تعست من تبدّل فابريس الغريب. كان الأمير الشاب يأتي باكراً جدّاً إلى سهرات أمّه الحبيبة الّتي تقول دائماً:

ـ إنصرف إلى تدبير شؤون رعيتك؛ أراهن أن على مكتبك أكثر من عشرين تقريراً تنتظر موافقة أو رفضاً. ولا أريد أن تتهمني أوروبا بجعلي إياك ملكاً خاملاً كي أتولّى السلطة مكانك.

والسيىء في هذه النصائح، إنها كانت تُعطى دائماً في الأوقات غير الملائمة، عندما سموه متغلب على خجله، يشارك في حل لغز يسلّيه. كانت تجري مرتين في الأسبوع نزهات في الريف تستقبل خلالها الأميرة أجمل سيدات الطبقة البورجوازية، بحجة استمالة الشعب للأمير. كانت الدوقة روح هذا البلاط المرح، وتأمل من هؤلاء البورجوازيات الجميلات ينظرن كلّهن بحسد شديد ثروة البورجوازي راسي، أن يخبرن الأمير بعض ضروب احتيال هذا الوزير، إزاء الأفكار الصبيانية كان الأمير يدعيها في أخلاقيـة وزارته.

كان راسي يتّمتع بحس مرهف كي لا يشعر كم كانت خطيرة عليه هذه السهرات الزاهية في بلاط الأميرة، تنظمها وتديرها عدوته. لم يرد أن يسلم الكونت موسكا الحكم الشرعي الصادر بحق فايريس. يجب إذا أن يختفي هو أو الدوقة من البلاط.

يوم الحركة الشعبية، وُزِّعت أموال على الشعب. بدأ راسي من هنا: ذهب إلى أشد البيوت بؤساً وحقارة في المدينة، وهو يرتدي ثياباً رثة، وقضى ساعات طويلة في أحاديث منتظمة مع ساكنيها المساكين فكوفىء عن اهتمامه الكبير: بعد خمسة عشر يوماً تأكّد له أن فيرانتي بالا كان قائد الثورة السرّي، وأكثر: عُرف بفقره طيلة حياته كشاعر كبير، فباع ثماني أو عشر ماسات في جنوى، بينها خمس حجارة ثمينة تساوي أربعين ألف فرنك، بيعت عشرة أيام قبل وفاة الأمير، بـ ٣٥٠٠٠ فرنك إذ كانوا بحاجة إلى مال.

فرح وزير العدل عند هذا الاكتشاف كان يلحظ أنهم يسخرون منه كلّ يوم في بلاط الأميرة. والأمير نفسه سخر منه، عدة مرات، بسذاجة الشباب، وهو يتكلم على شؤون الرعيّة. فلراسي عادات شعبية غريبة: مثلاً ما أن يهتم بنقاش، حتى يجلس القرفصاء ويأخذ حذاءه بين يديه؛ وإذا تزايد الاهتمام يبسط منديلاً من القطن الأحمر على ساقه الخ... ضحك الأمير كثيراً من ملحة إحدى أجمل النساء البورجوازيات، وكانت تعرف أنها جميلة الساق، إذ راحت تقلّد حركة وزير العدل الرشيقه.

طلب راسي مقابلة استثنائية، وقال للأمير:

ـ أيريد سموكم دفع مائة ألف فرنك ليعرف حقيقة موت والده المعظم؟ بهذا المبلغ تتمكن العدالة أن تقبض على المجرمين إذا كان من مجرمين.

لا يمكن أن يكون جواب الأمير مريباً أمام هذا.

بعد ذلك ببعض الوقت، أطلعت شكينا الدوقة أنه قدّم لها مبلغاً كبيراً من المال كي تسمح بتفحّص ماسات سيّدتها من قبل أحد الطاغة؛ رفضت بغضب. فأنبتها الدوقة. ثمانية أيام بعد ذلك، اعطيت شكينا ماسات سيّدتها لتعرضها. وفي اليوم المحدد وضع الكونت رجلين حدّ من كلّ واحد من طاغة بارما، وقرابة منتصف اللّيل أتى وقال للدوقة أن الصائغ الفضولي لم يكن سوى شقيق راسي. كانت الدوقة شديدة المرح ذلك المساء (كانت تؤدّي في القصر ملهاة «دل آرتي» أي كلّ ممثل يبتكر الحوار لدى إلقائه. كان تصميم الهزلية وحده ملصقاً في الكوليس). كان للدوقة التي ستمثل دوراً في الملهاة، عشيق هو الكونت بالدي صديق المركيزة رافرسي القديم وكانت حاضرة هذه في القاعة. كان الأمير يدرس دور الكونت بالدي ويريد أن يمثله في العرض الثاني، هو الرجل الأكثر خجلاً في كلّ مقاطعاته، وأنعم الله عليه بقلب في منتهى الحنان.

قالت الدوقة للكونت: لدي وقت قصير إذا سأظهر في المشهد الأول من الفصل الثاني؛ لنذهب إلى غرفة الحرس.

ووسط عشرين حارساً، كلهم أعين ومتنبهون إلى خطاب رئيس الوزراء والوصيفة الأولى، قالت الدوقة لصديقها وهي تضحك:

ـ أنت تؤنبني دائماً عندما أفضح أسراراً، لا فائدة منها. بواسطتي توصل أرنسـت الخامس إلى العرش؛ كان الأمر يتعلق بانتقام

لفابريس الّذي كنت أحبه يومذاك، وببراءة كليّة أكثر بكثير مما أحبه الآن، وانا أعرف أنك لا تؤمن بهذه البراءة، ولكن لم يعد يهم، طالما تحبني بالرغم من جرائمي. حسناً! هذه جريمة حقيقية: أعطيت كلّ مأساتي إلى مجنون له أهمية كبرى، يدعى فيرانتي بالا، وقبلته لكي يقتل الرجل الّذي أراد أن يسمم لفابريس. اين الشر في هذا الأمر؟

ـ آه! هكذا، فيرانتي حصل منك على المال ليقوم بثورته! قال الكونت مدهوشاً، وتخبرينني كلّ هذا في غرفة الحرس!

ذلك انني على عجلة من أمري. صحيح أنني لم أتحدث أبداً عن ثورة، إذ أني أكره اليعقوبيين. فكّر بهذا الموضوع، وقلّ لي رأيك عند الانتهاء من التمثيل.

ـ سأقول لك فوراً: عليك أن تدفعي الأمير كي يحبك. وكل خير يستحق أجره.

نودي على الدوقة لتمثل دورها على المسرح ولكنها هربت.

بعد ذلك ببضعة أيام، تلقت الدوقة رسالة مضحكة، موقعة من وصيفة سابقة عندها، كانت تطلب أن تستخدم في البلاط، ولكن الدوقة عرفت منذ اللحظة الأولى أن الخط ليس خطها ولا الانشاء إنشاءها: وبينما هي تفتح الرسالة لتقرأ الصفحة الثانية رأت الدوقة سقوط صورة عجائبية للعذراء عند قدميها، مطويّة في ورقة كتاب قديم. ألقت نظرة على الصورة فقرأت بضعة أسطر من الورقة المطبوعة. التمعت عيناها إذ وجدت فيها هذه الكلمات.

«أن خطيب الشعب أخذ مائة فرنك شهرياً وليس أكثر. أريد بالباقي إحياء النار المقدسة في النفوس المتجمدة بحب الذات. الذئب في أثري، ولهذا لم أسعَ أن أرى فترة أخيرة الكائن الّذي أعبد. قلت في نفسي، إنها لا تحب الجمهورية هي التي تسمو عليّ بالعقل بقدر ما باللطف والجمال.

مع هذا كلّه، كيف العمل لانشاء جمهورية دون جمهوريين؟ هل سأخطىء؟ بعد ستة أشهر سأجوب ماشياً والمجهر في يدي، مدن أميركا وسأرى إذا أحب، بعد، الخصم الوحيد الذي لك في قلبي. إذا تلقيت هذه الرسالة يا سيدتي البارونة، وأيّة عين لم تقرأها قبلك، أرسلي من يكسر واحدة من نبتات الدردار الجديدة المزروعة على عشرين خطوة عن المكان الذي تجرأت وكلمتك فيه للمرّة الأولى. عندئذ سأطمر، تحت شجرة البقس التي لاحظتها خلال أيامي السعيدة، علبة فيها بعض من هذه الأشياء التي تساعد في التجني على الذين من رأيي. كنت احترست بكل تأكيد أن أكتب لك لو لم يكن الثعلب في أثري، ولم يكن يستطيع التوصل إلى هذا الكائن السماوي: أنظري شجرة الدردار بعد خمسة عشر يوماً.»

قالت الدوقة في نفسها: بما أن مطيعة تحت أوامره، سيكون لنا قريباً ديوان قصائد، والله وحده يعلم الاسم الّذي سيطلقه عليّ فيه!

أراد دلال الدوقة أن يقوم بتجربة؛ بقيت ثمانية أيام منحرفة المزاج، وحرم البلاط من السهرات الحلوة. ذهبت الأميرة، حانقة

جداً، لقضاء هذه الأيام الثمانية في دير مجاور للكنيسة دفن فيه الأمير. هذا التوقف عن إحياء السهرات أثقل الأمير بكتلة من أوقات الفراغ وحمل فشلاً ذريعاً لمكانة وزير العدل! أدرك أرنست الخامس كل السأم الذي يتهدده في ابتعاد الدوقة عن البلاط أو إذا توقفت فقط عن إشاعة المرح فيه. ثمّ عادت السهرات إلى سَابق عهدها، وأظهر الأمير اهتماماً أكبر بهزليات «دل آرتي». كان لدية مشروع تمثيل أحد الأدوار ولكنه لم يكن يجرؤ على البوح برغبته. ذات يوم، وبخجل مفرط. قال للدوقة: لماذا لا أمثل أنا أيضاً؟

ـ نحن هنا جميعاً بأمر سموكم؛ إذا تكرمت بأن تصدر إليّ الأمر سأطلب وضع ملهاة، وسنشترك معاً بالتمثيل في جميع المشاهد الهامة. في الأيام الأولى، الجميع يتردّدون قليلاً. فإذا شاء سموكم، أن ينظر إلي بشيء من الانتباه، سأتولى قول الأجوبة التي عليه أن يردّدها. جرى تنظيم كل أمر بمهارة. كان الأمير خجولاً جداً ويستحيي أن يكون خجولاً. والاهتمام الذي اضطلعت به الدوقة لكي لا يتأثّر بهذا الخجل الغريزي، أثّر عميقاً في الأمير الشاب.

يوم العرض، بدأ تمثيل الملهاة نصف ساعة قبل الوقت المحدد، ولم يكن في الصالة لحظة دخلا المسرح، سوى ثماني أو عشر نساء مسنّات. لم تكن هذه الوجوه لتؤثر على الأمير، ومع ذلك ربّين جميعهن في ميونيخ على احترام المبادىء الملكية، فكن يصفقن دائماً. أغلقت الدوقة الباب الّذي يدخل منه الاشراف العاديون إلى الصالة

مستعملة سلطتها كوصيفة أولى. ونجح الأمير تماماً، في المشاهد الأولى، وهو يتمتع بذوق أدبيّ ووجه جميل؛ كان يردّد، بذكاء، الجمل الّتي كان يقرأها في عيني الدوقة أو تهمس له بها.

أصدرت الدوقة إشارة، وقت كان المشاهدون القلائل يصفقون بكل قوتهم، وفتح على الأثر باب الشرف فامتلأت القاعة سريعاً بكلّ جميلات البلاط اللوّاتي وجدن للأمير وجهاً رائعاً ولاحظن سعادته، فأخذت بالتصفيق؛ احمرت وجنتاه سعادة. وكان يمثل دور هائم بالدوقة. وبدلاً من أن تقترح عليه العبارات، فرض عليها سريعاً أن تدعوه لاختصار المشاهد؛ كان يتكلّم على الحب بحماسة، غالباً ما كانت تربك الممثلة. وكثيراً ما كانت اجوبته، في الحوار، تدوم خمس دقائق. لم تعد الدوقة تتمتع بذلك الجمال المتألق كما في العام السابق؛ سِجنُ فابريس، الّذي أصبح كئيباً وصامتاً، أضاف عشر سنوات إلى عمر جينا الحلوة. كانت قسمات وجهها تغضنت فبدت أكثر ظرفاً وأقل نضارة.

لم تعد لقسماتها بشاشة الشباب إلا نادراً؛ ولكن كانت، على المسرح، أجمل امرأة في البلاط رغم أحمر الشفاه والعون الكلي الّذي يوفّره التبرج للممثلات. لفتت نظر الحاشية كلّها، المقاطع الملتهبة بالعاطفة ينشدها الأمير. قالوا كلهم ذلك المساء: هذه بالبي هذا العهد. ثار الكونت في داخله. ولما انتهت التمثيلية قالت الدوقة للأمير أمام بطانته:

ـ تحسن سموك التمثيل كل الإحسان؛ سيقولون أنك كلف بامرأة عمرها ثمانية وثلاثون عاماً، مما سيسبّب فشل زواجي من الكونت. لهذا، لن أمثّل معْ سموك، إلاّ إذا شاء الأمير أن يقسم بتوجيه الكلام إليّ، كما إلى امرأة مسنة، إلى السيدة المركيزة رافرسي مثلاً.

أعيد تمثيل الملهاة ثلاث مرات، وكان الأمير سعيداً للغاية؛ ولكن ذات مساء بدا مغتماً جداً.

قالت مدبرة البلاط الأولى إلى أميرتها: إما أني أخطىء خطأ جسيماً أو أن راسي يسعى أن يمكر بنا. سأنصح سموك أن تعيّن حفلة ليوم غد، فالأمير لن يجيد التمثيل، وفي يأسه سيطلعك على أمر. والأمير لم يحسن التمثيل حقاً: كان صوته يسمع بالكاد، ولم يكن يحسن انهاء جملة. كادت عيناه تدمعان في نهاية الفصل الأوّل. كانت الدوقة تقف حدّه، إنما عبوسة ومتصلبة. وجد الأمير نفسه لحظة ينفرد بها، في مقصورة الممثلين، فتقدّم وأغلق الباب.

قال لها: لن أتمكن من تمثيل الفصل الثاني والثالث؛ لا أريد أن يصفق لي محاباة. تصفيق هذه الليلة أدمى قلبي. اعطني نصيحة. ماذا علي أن أفعل.

ـ سأتقدم على المسرح كمديرة حقيقية للملهاة وأقوم بتحية احترام وإجلال إلى سموك وأخرى إلى المشاهدين وأقول أن ممثل دور ليليو لزم الفراش فجأة. والحفلة ستنتهي بعزف الموسيقى.

سيكون الكونت موسكا وجيزولفي الصغيرة سعيدين في اسماع صوتيهما الخشنين إلى مثل هذا الجمهور المتألق.

أخذ الأمير يد الدوقة وقبلها بسرور شديد.

قال لها: لماذا لستِ رجلًا، لكنت تمدينني بنصحك السديد: وضع راسي الآن على مكتبي مائة واثنتين وثمانين شَهادة ضد قتلة أبي المزعومين، ومعها دعوى اتهام بأكثر من مائتي صفحة؛ وعليّ أن أطالع كلّ هذا وتعهدت بـألا أطلع الكونت ما ورد فيها، مما يقود حتماً إلى تعذيب وعقابات شديدة؛ إنه يريد أن آمر بخطف فيرانتي بالا من فرنسا قرب انتيب هذا الشاعر الكبير الّذي يعجبني جداً. إنه هنا ويحمل اسم بونستي.

- في اليوم الذي تحكم فيه بشتق أحد الليبيراليين، سيرتبط راسي بسلاسل جديدة بالوزارة وهذا ما يريده. ولكن سموك لن يعود بإمكانه أن يعلن عن أيّة نزهة يقوم بها قبل ميعادها ساعتين. لن أتحدث مع الأمير ولا مع الكونت عن صيحة الألم التي أفلتت منه؛ ولكن، بحسب قسمي، لا يجب أن أخفي أيّ سر عن الأميرة. سأكون سعيدة إذا سموك يقول لوالدته الأشياء ذاتها الّتي أفلتت منه أمامي.

هذه الفكرة شغلت الأمير عن الخيبة التي أصابته بسبب فشله في التمثيل.

إذنا إذهبي واعلمي والدتي، انني أتوجه إلى قاعتها الكبرى.

ترك الأمير الكواليس واجتاز الصالة الّتي يصلون منها إلى المسرح، وصرف بقساوة كبير حجابه، ومساعده اللّذين كانا يتبعانه؛ وغادرت الأميرة المسرح على عجل؛ لما وصلت إلى القاعة الكبرى، حَيَّت المدبرة الأولى الأم والابن وتركتهما وحيدين معاً. الاضطراب ساد البلاط. بعد ساعة تقدم الأمير بنفسه من باب القاعة، ونادى الدوقة. كانت الأميرة مغرورقة العينين بالدموع ووجهُ ابنها متبدّلاً تماماً.

قالت مدبرة البلاط الأولى: هؤلاء أناس ضعفاء متبرمون، يفتشون عن سبب كي يسخطوا على أحد. في باديء الأمر، تنافست الأم والابن ليخبرا التفاصيل للدّوقة التي اهتمت في أجوبتها اهتماماً كبيراً بألا تفضل أية فكرة. خلال ساعتين مرهقتين ثلاثتهم لم يخرجوا في هذا المشهد المضجر من الأدوار التي ذكرناها الآن. ذهب الأمير بنفسه لجلب المحفظتين الضخمتين تركهما راسي على مكتبه. وجد، وهو خارج من قاعة أمه الكبرى، جميع رجال البلاط في انتظاره. إذهبوا من هنا، دعوني! صاح بنبرة ليس فيها شيء من التهذيب، لم يسبق أن استعملها أبداً. كان الأمير يريد ألا يشاهده أحد حاملاً المحفظتين، فالأمير يجب ألا يحمل شيئاً. اختفى رجال البلاط بلمحة. لدى عودته لم يجد الأمير سوى الخدم يطفئون الشموع؛ صرفهم بغضب مع فونتانا المسكين، مساعده الذي أوحت إليه بلاهته بالبقاء غيرة على سيده.

قال للدوقة بحنق، بينما يدخل القاعة: الجميع يبذلون ما باستطاعتهم لإخراجي عن طوري. كان عقله كبيراً، وغضب لأنها تشبثت بعدم إعطائه أي رأي. كانت مصممة ألّا تقول شيئاً، إلا إذا طلب منها رأيها بكل وضوح. مضت نصف ساعة طويلة قبل أن يقرر الأمير، وهو يغار على كرامته، أن يقول لها:

- ولكن، سيدتي، لا تقولين شيئاً.

- أنا هنا كي أخدم الأميرة وأنسى بسرعة كل ما يقال أمامي:

قال الأمير، إذ اشتد احمرار وجنتيه: حضرة السيدة، آمرك بأن تعطي رأيك.

- تعاقب الجرائم، لمنع تجددها. هل سمم للأمير المرحوم؟ هذا أمر مشكوك به جداً. هل سممه اليعقوبيون؟ هذا ما يرغب راسي أن يثبته، إذ يصبح لسموك أداة ضرورية إلى الأبد. في هذه الحالة، سموك الّذي يبدأ عهده، يمكن أن يعد نفسه بأمسيات كثيرة كهذه. رعايا يقولون عموما، ما هو حقيقي: سموك يتمتع بمزاج طيب؛ ما دام لم يشنق ليبيرالي، سيمتع بهذه السمعة ولن يفكر أحد بأن يحضّر له اسم.

صاحت الأميرة بغضب: استنتاجك جلي، أنت لا تريدين أن يعاقب مغتالي زوجي!

- ذلك، يا سيدتي، إني ظاهراً، مرتبطة بهم بصداقة حميمة.

كانت الدوقة ترى في عيني الأمير تصديقه أنها على اتفاق تام مع والدته، كي يرسما لها طريقة سلوك. حدث بين المرأتين تتابع سريع لاجوبة عنيفة، صرحت الدوقة على أثرها أنها لن تتلفظ بعد الآن بكلمة واحدة، وبقيت أمينة لقرارها؛ ولكن الأمير، بعد جدال طويل مع والدته أمرها مجدداً أن تبدي رأيها.

ـ هذا ما أقسم لسمويكما باني لن أنفذه!

ـ صاح الأمير: ولكن هذا الأمر صبياني حقاً!

قالت الاميرة بوقار: أرجوك، أن تتكلمي، يا حضرة الدوقة.

ـ هذا ما أرجو أعفائي منه، يا سيدتي، وأضافت الدوقة وهي توجّه كلامها إلى الأمير: إنك تحسن قراءة الفرنسية؛ أتريد أن تقرأ لنا مثلاً من لافونتين، كي تهدأ أفكارنا المضطربة؟

وجدت الأميرة هذا الضمير «نا» وقاحة لا حد لها، ولكنها بدت مندهشة ومتسلية عندما الوصيفة الأولى التي كانت ذهبت لفتح المكتبة، عادت منها بمجلد «الأمثال» للافونتين؛ تصفحته لبضع لحظات، ثم قالت للأمير وهي تقدّم له الكتاب:

ـ أرجو من سموك أن يقرأ هذه الأسطورة.

البستاني وسيّده

أحد هواة البستنة وهو نصف بورجوازي ونصف قروي كان يملك في قرية بستاناً على قدر كاف من النظافة ذا سور عال. وكان زرع كل مساحته

بأغراس حيّة فيها ينمو كما يشاء الخس والحميض مما يكفي لصنع باقة لمارغو في عيدها قليل من ياسمين اسبانيا والصعتر البرّي وعكر أرنب بريّ هذه السعادة مما دفع رجلنا لرفع شكواه إلى سيد الضاحية وقال: هذا الحيوان الملعون يأكل بشَره كل صباح ومساء ويهزأ بالفخ وفقدت معه كلّ الحجارة والعصي قيمتها أنه ساحر كما اعتقد... ساحر، أنا اتحداه بالرغم من حيله. سألقي القبض عليه أقسم على حياتي بأني سأخلصك منه، أيّها الرجل الطيب ومتى؟ منذ الغداة، ولن أؤخر ذلك إلى ما بعد. أتى مع رجاله، بعد أن تمّ هذا الاتفاق. قال: لنتناول طعام الطباع، هل دجاجاتك طرية اللحم؟ وبعد الطعام ارتباك الصيّادين. انتعش كلّ واحد وحضرّ نفسه المنبهات والأبواق أحدثت ضجة حتى أن رجلنا أخذته الدهشة وأسوأ ما في الأمر أنهم احدثوا في البستان ضرراً كبيراً بستان البقول المسكين... وداعاً يا مساكب ويا مربعات الخضار وداعاً أيها الكراث والهندباء وداعاً أيها الكراث والهندباء وداعاً يا ما باستطاعتي أن أضعه في الأحواض كان الرجل يقول: هذه ألعاب الأمراء ولكنهم تركوه يقول ما يشاء؟ والكلاب والناس أحدثوا أضراراً في ساعة من الوقت أكثر مما تحدثه في مائة سنة جميع أرانب المقاطعة أيها الأمراء الصغار، فضوا خلافاتكم في ما بينكم ستكونون مجانين كباراً إذا لجأتم إلى الملوك لا يجب أبداً إدخالهم في حروبكم ولا السماح مهم بدخول أراضيكم.

بعد هذه القراءة ساد صمت طويل. كان الأمير يتمشى في القاعة، بعدما ذهب بنفسه واعاد المجلد إلى مكانه في المكتبة.

إذن، يا سيدتي، قالت الأميرة، أتتكرمين بالكلام؟

ـ بكل تأكيد، لا، يا سيدتي! ما دام سموه لا يعينني وزيرة، إذا تكلمت هنا، سأتعرض لخطر فقدان مركزي كوصيفة المملكة الأولى.

ساد صمت من جديد، ربع ساعة طويلة؛ وأخيراً فكرت الأميرة بالدور الّذي مثلته ماري دي مدسيس، والدة لويس الثالث عشر: خلال جميع الأيام السابقة طلبت الوصيفة الأولى من القارئة، أن تقرأ لها تاريخ لويس الثالث عشر الممتاز كما وضعه بازان. فكرت الأميرة، مع أنها مغتاظة جداً أن باستطاعة الدوقة أن تهجر البلاد إذا شاءت، وعندئذ تتمكن السيدة راسي التي كانت تسبّب لها هلعاً شديداً، أن تتشبّه بريشيليو، وتنفيها بواسطة ابنها. في هذه اللحظة، كانت الأميرة أعطت كلّ ما تملك في العالم لتذل وصيفتها الأولى، ولكن ذلك كان يستحيل عليها: فوقفت، وابتسمت، لتأخذ يد الدوقة وتقول لها:

ـ هيا بنا، أيتها السيدة، أعطيني برهاناً عن صداقتك، بتحدثك.

ـ لدي كلمتان أقولها ليس غير: حرق جميع الأوراق الّتي جمعها هذا الثعبان راسي، في هذه المدخنة وعدم البوح له أبداً بمصيرها.

واضافت بصوت خفيض، كشخص مقرّب، في أذن الأميرة:

ـ يمكن لراسي أن يكون رشيليو.

ـ يا للشيطان! هذه الأوراق تكلفني أكثر من ثمانين ألف فرنك! صاح الأمير غاضباً:

ـ يا أميرتي، أجابت الدوقة بجرأة، هـذه نتيجة استعمال مجرمين من أصل وضيع. معاذ الله، أن تتمكني من فقد مليون، وألّا تصدقّي أبداً النّصّابين الصغار الذين منعوا والدك من النوم خلال السنوات الست الأخيرة من ملكه.

كلمة «أصل وضيع» أعجبت الأميرة، التي كانت تجد الكونت وصديقته يقدران العقل تقديراً قاصراً عليه بالرغم من كونـه أليعقوبية.

خلال لحظة الصمت القصيرة المملوءة بتأملات الأميرة، دقت ساعة القصر تمام الثالثة، وقفت الأميرة وانحنت باحترام أمام ابنها، وقالت له: صحتي لا تسمح لي أن أطيل الحوار أكثر. لا تتخذّ أبداً وزيراً وضيع الأصل؛ لن تقنعني أن راسي هذا سرق نصف المال الّذي جعلك تصرفه على التجسس. أخذت الأميرة شمعتين من الشمعدان ووضعتهما في المدخنة فلا تنطفئان؛ ثمّ اقتربت من ابنها وأضافت: مثل لافونتين، يتغلب عندي، على التمنيّ المحقّ للانتقام لزوجي، أتسمح لي سموك أن أحرق هذه الكتابات؟ بقي الأمير جامداً، لا يأتي بحركة.

كانت سيماؤه سيماء أبله بالحقيقة.

قالت الدوقة في نفسها: الكونت على حق؛ لم يكن الأمير المرحوم يتركنا نسهر حتى الثالثة صباحاً، قبل أن يتّخذ موقفاً.

أضافت الدوقة وهي ما تزال واقفة:

ـ هذا المدعي العام، سيكون فخوراً جداً لو عرف أن هذه الأوراق مليئة بالأكاذيب، ومرتبة كي توفر له ترقية، وجعلت اثنين من أكبر رجال الدولة يسهران طيلة الليل.

ارتمى الأمير على واحدة من الحافظتين كالمجنون وافرغ كل محتواها في المدخنة. كادت كتلة الورق تطفىء الشمعتين. امتلأت الغرفة بالدخان. رأت الأميرة في عيني ولدها أنه كان يريد أن يتناول كرافة ماء وينقذ هذه الأوراق، الّتي كانت كلفته ثمانين ألف فرنك.

ـ افتحي النافذة، صاحت للدوقة بغيظ. أطاعت الدوقة سريعاً، واشتعلت الأوراق فوراً معاً؛ حدثت جلبة صاخبة في المدخنة. كانت نفس الأمير حقيرة تتعلق بالأشياء الّتي لها علاقة بالمال؛ اعتقد أنه يرى قصره يشتعل؛ وجميع الثروات التي يحواها متلفة؛ أسرع إلى النافذة ونادى الحرس بصوت متبدل. ركض الجنود إلى الباحة صاخبين، ملبين نداء الأمير، وعاد عند المدخنة الّتي كانت تسحب الهواء من النافذة المشرّعة، بصخب مفزع؛ نفذ صبره، وشتم. قام بدورتين أو ثلاث في القاعة، كرجل فقد عقله ثم خرج مسرعاً.

بقيت الأميرة ورئيسة وصيفاتها واقفتين الواحدة قبالة الأخرى، صامتتين تماماً.

قالت الدوقة في نفسها: هل سيغضب من جديد؟ كسبت

دعواي. وأخذت تستعد لتكون وقحة تماماً في أجوبتها. وخطرت لها فكرة؛ رأت الحافظة الثانية سليمة. لم أربح سوى نصف دعواي! وقالت للأميرة ببرود.

ـ حضرة السيدة، أتسمحين لي بإحراق الباقي من هذه الأوراق؟

ـ قالت الأميرة بغيظ: وأين؟

ـ في مدخنة الصالة. سأرميها ورقة، ورقة، ليس في هذا أيّ خطر.

وضعت الدوقة الحافظة تحت أبطها مكتظة بالأوراق، وتناولت شمعة ومرّت إلى الصالة المجاورة. أخذت وقتها لترى إذا كانت هذه الحافظة تحوي الشهادات، ووضعت في شالها خمس أو ست كدسات من الأوراق، وأحرقت الباقي باهتمام كبير، ثم اختفت دون أن تستأذن الأميرة.

هذه وقاحة حقيقية، قالت في نفسها وهي تضحك: بتصنعها في تمثيل دور الأرملة الّتي لا تتعزى، كادت تفقدني رأسي على المقصلة.

لدى سماع جلبة من عربة الدوقة ثارت الدوقة على رئيسة وصيفاتها.

بالرغم من الساعة غير المناسبة استدعت الدوقة الكونت

الّذي كان يتدفأ في القصر. ولكنه ظهر سريعاً مع خبر يقول
كلّ شيء انتهى. هذا الأمير الشاب ابدى كثيراً من الشجا
وقد قدمت له تهانئي بدفق كلي.

ـ أنظر بسرعة هذه الشهادات ولنحرقها في أسرع وقت ممكن

قرأ الكونت الشهادات وشحب لونه.

ـ في الواقع، كادوا يصلون إلى الحقيقة؛ هذه الدعوى منذ
بطريقة رائعة؛ إنهم تماماً في أثر فيرانت بالا، وإذا تكلم سيك
دورنا صعباً للغاية.

صاحت الدوقة: ولكنه لن يتكلّم؛ هـذا رجل شـريف
لنحرق الأوراق. لنحرقها.

ـ بعد. اسمحي لي بأن آخذ أسماء الإثني أو خمسة ع
شهوداً الخطرين وسأسمح وسأختطفهم، إذا شاء راسي أن يبا
بإعادة الدعوّى.

ـ سأذكر عظمتك بأنّ الأمير تعهد بألّا يقول شيئاً إلى و
العدل عن رحلتنا الليلية.

ـ سيحافظ على عهده، عن جبانة وخوفـاً من ثورة غض
عائلية.

ـ الآن، يا صديقي، هذه ليلة تقدّم ميعاد زواجنا كثيراً.

أشأ أن أجلب لك كدوطة دعوى جريمة وأيضاً من أجل خطيئة جعلني أرتكبها اهتمامي بشخص آخر.

كان الكونت مغرماً، فأخذ يدها وهتف، وأغرورقت عيناه بالدموع.

ـ قبل أن تذهب اعطني نصائح عن السلوك الواجب اعتماده مع الأميرة؛ أنا متعبة جداً. مثلت ساعة في ملهاة وخمس ساعات في القاعة.

ـ انتقمتِ كفاية من أحاديث الأميرة القارسة. الّتي لم تكن سوى ضعف بسبب وقاحة خروجك. أعيدي غداً وصل الحديث معها باللهجة نفسها الّتي اعتمدتها هذا الصباح. لم لم يدخل راسي بعد إلى السجن ولم يمزق الحكم الصادر بحق فابريس.

كنت تطلبين من الأميرة اتخاذ قرار، وهذا ما يسبّب دائماً إغاظة الأمراء، وحتى رؤساء الوزارة، وأخيراً. أنتِ أولى وصيفاتها، أي خادمتها الصغيرة. وبعودة إلى الوراء حتمية عند الضعفاء، سيستعيد راسي بعد ثلاثة أيام حظوته لدى الأمير وأقوى منها في أي وقت آخر، سيجرب أن يشنق أحداً: فطالما لم يحرج موقف الأمير، يبقى غير أمين من شيء.

وحدث أنّ رجلاً جرح في حريق هذه الليلة، خياط أظهر بأساً غريباً. غداً سأدعو الأمير للاتكاء على ذراعي والمجيء

معي لزيارة الخياط؟ وسأكون مدججاً بالسلاح وسأرصد كل حركة؛ من ناحية أخرى، هذا الأمير الشاب لا يكرهه بعد أحد؟ أريد أن أعوّده على التنزّه في الشوارع. إنها لعبة على راسي الّذي سيخلفني بكل تأكيد، ولن يعود عندئذ باستطاعته أن يسمح لنفسه بمثل هذه الأعمال العديمة الفطنة. لدى العودة من زيارة الخياط سأجعل الأمير يمر أمام تمثال والده، وسيلاحظ رشقات الحجارة حطمت التنورة الرومانية ألبَسَهُ إياها المثّال الأبله، وأخيراً سيكون الأمير سخيفاً إن لم يفكر في نفسه: هذا ما يكسب شنق اليعقوبيين، وعلى هذا سَأجيبه: يجب أن يشنق عشرة الآف أو لا أحد. إن مذبحة السان برتلمي أبادت البروتستانت في فرنسا.

غداً، يا صديقتي العزيزة، قبل القيام بنزهتي، أعلني عن زيارتك للأمير وقولي له: البارحة مساء قمت معك بوظيفة وزيرة، وأسديتُ إليك النصائح، بموجب أوامرك، وتعرضت لتكدر الأميرة، يجب أن تدفع لي أجرتي. وسينتظران تطلبي منه مالاً ويقطب حاجبيه. تتركينه غارقاً في هذه الفكرة التعيسة أطول ما يمكنك؛ ثمّ تقولين: أرجو من سموّك أن تأمر بمحاكمة فابريس وجاهياً من قبل الاثني عشر قاضياً الأكثر احتراماً في مقاطعتك. وبدون إضاعة وقت، ستقدّمين له مرسوماً صغيراً كي يوقّعه، مكتوباً بيدك الجميلة، سأمليه عليك؟ وسأضع، طبعاً، كشرط أوّل أن الحكم السابق منقوض. لا يوجد سوى

اعتراض واحد، على هذا الأمر، ولكن إذا قدت الأمر جيّداً، فلن يمرّ أمر بخاطر الأمير. قد يقول لك: يجب أن يستسلم للعدالة في القلعة. ستجيبين: سيستسلم للعدالة في سجن المدينة (تعلمين أنني السيّد هناك، وسيأتي ابن أخيك كلّ مساء ليراك). إذا أجابك الأمير: كلاّ، هربه، ثلم شرف قلعتي، وأريد أن يعود، شكلاً، إلى الغرفة التي كان موجوداً فيها؛ ستجيبين كلا، إذ سيكون بتصرف عدوي راسي؛ وبتعبير نسوي من تلك التي تحسنين صياغتها جيّداً، ستجعلينه يدرك أنه لإثارة شفقة راسي ستخبرينه عن إعدامات هذه اللّيلة؛ وإذا أصرّ، ستعلنين أنك ذاهبة لقضاء خمسة عشر يوماً إلى قصرك، في ساكا.

ستستدعين فابريس وتستشيرانه على هذا المسعى إذ بينما هو في السجن، قد يفقد راسي صبره ويسمّمني. وقد يتعرّض فابريس للخطر. ولكنّ الأمر قليل الاحتمال؛ تعرفين أنني أتيت بطبّاخ فرنسي، هو أدبر الرجال مرحاً، ويجيد استعمال التورية وهي لا تتوافق مع الاغتيال. سبق وقلت لصديقنا فابريس، إنني وجدت عناصر عمله الرائع والشجاع؛ وكان جيليتي هو الّذي أراد أن يغتاله. لم أكلمك على هؤلاء الشهود. لأنني أحببت أن أجعل الأمر مفاجأة، ولكن هذا التصميم فشل؛ لم يقبل الأمير أن يوّقع. وأكّدتْ لصديقنا فابريس أنني سأدبّر له رتبة أكليريكية سامية. ولكن سأغتمّ جداً إذا تمكّن أعداؤه من الاعتراض في روما، مسلحين بتهمة الاغتيال.

ـ أتشعرين سيدتي، إنه إذا لم يحاكم بطريقة قانونية سيغدو اسم' جيليتي بغيضاً لديه طيلة حياته؟ سيرتكب جبانة كبرى، برفض محاكمته لاسيما عندما يكون متأكداً من براءته. من ناحية أخرى، حتى إذا كان مذنباً، سأبرّئه. عندما تحدثت مع هذا الشاب المندفع، لم يدعني أنهي حديثي، بل أخذ التقويم الرسمي واخترنا معاً القضاة الاثني عشر الأكثر نزاهة وعلماً؛ بعد أن أتممنا اللائحة، حذفنا ستة أسماء ووضعنا مكانها ستة متشرعين من أعدائي الشخصيين، وبما أننا لم نتمكن من أن نجد سوى اثنين، استبدلنا الباقين بأربعة أنذال من أتباع راسي.

إقتراح الكونت هذا أقلق الدوقة حتى الموت، ولكن لا بدون سبب؛ وأخيراً، قبلت بالواقع، وأملى الوزير عليها مرسوم تعيين القضاة.

لم يتركها الكونت إلاّ في السادسة صباحاً؛ جرّبت أن تنام ولكن عبثاً. في التاسعة، تناولت فطورها مع فابريس، الّذي وجدته في أشد الشوق لمحاكمته. في العاشرة، كانت عند الأميرة، التي لم تكن مستعدة للإستقبال؛ في الحادية عشرة رأت الأمير ينهض من سريره، ووقّع المرسوم بدون أيّ اعتراض. أرسلت الدوقة المرسوم إلى الكونت ولزمت سريرها.

غضب راسي، عندما أجبره الكونت أن يؤشر بحضور

الأمير، على المرسوم الموقع هذا الصباح، من قبل هذا الأخير؛ ناقش الكونت استحقاق كلّ قاض واقترح ابدال بعض الأسماء. ولكن القارىء ربما ضجر من كل تفاصيل الدعوى ومكائد البلاط. في كلّ هذا يمكن استخلاص هذه الامثولة الأخلاقية: الانسان الذي يتقرّب من البلاط، يعرّض سعادته لزوال إذا كان سعيداً وفي مطلق الأحوال، يربط مستقبله بدسائس وصيفة.

من ناحية أخرى، في أميركا، وفي الجمهورية، ضجرٌ طيلة النهار من تملق أصحاب الحوانيت في الشارع، حتى يصبح بليداً مثلهم، ولا يوجد فيها دور للأوبرا.

عند نهوض الدوقة مساء اضطربت شديداً: لم يعد أحد يجد فابريس؛ وأخيراً عند منتصف الليل، مع العرض المسرحي في البلاط تلقت رسالة منه. عوضاً من الاستسلام إلى السجن في المدينة ذهب إلى غرفته القديمة في القلعة، كان سعيداً جداً أن يسكن على خطوات من كليليا.

كان هذا حدثاً ذا نتيجة مذهلة: في هذا المكان كان معرض للسم أكثر من أيّ وقت آخر. هذا العمل الجنوني أيأس الدوقة؛ غفرت السبب وهو حبّه المجنون لكليليا، لأنها، ستتزوج بعد بضعة أيام بالمركيز الثري كريسنزي. وأعاد عمل فابريس إليه كلّ النفوذ الّذي كان له على الدوقة.

هذه الورقة الملعونة الّتي ذهبت وطلبت توقيعها من الأمير هي

الّتي ستسبب موته! كم هؤلاء الرجال مجـانين بـأفكارهم عن الشرف! كما لو أنه يجب التفكير بالشرف في الحكومات المطلقة، في بلاد حيث راسي هو وزير العدل! كان يجب قبول عفو الملك وقعه بالسهـولة الّتي وقـع بها دعـوى المحكمة لاجتمـاع فوق العادة. ما الأهمية، من ناحية أخرى، أن يكون رجل شريف الأصل كفابريس متهماً بقتل ممثل فاشل كجيليتي!.

ما أن تلقت رسالة فابريس حتى أسرعت الدوقة إلى الكونت الذي وجدته ممتقع اللون.

ـ يا الله! يا صديقتي العزيزة حظي تعيس مع هذا الولد، ستستائين مني. استدعيت البارحة حارس سجن المدينة؛ كان بإمكان ابـن أخيك أن يأتي ويتناول الشاي معك. المريع إنه يستحيل عليك وعلي قولنا للأمير إننا نخشى السم وخاصة الّذي يعطيه راسي؛ سيبدو له هذا الظن منتهى الفجور. أمـا إذا كنت تصرّين فإنا جاهز للذهاب إلى القصر؛ ولكني متأكد مسبقاً من الجواب. سأقول لك أكثر: أقدم لك طريقة لن استعملها لنفسي. منذ تولّيت السلطة في هذه البلاد، لم أحكم بإعدام رجل واحد، وتعرفين كم يبلغ حمقي من هذه الناحية: بعض المرات، عند هبوط الليل، أفكر بهذين الجاسوسين أمرت برميهما بالرصاص في إسبانيا. أتريدين أن أريحك من راسي؟ الخطر الذي يتعرّض له على يدي هذا الرجل هو بدون حدود؛ ويمتلك طريقة أكيدة لإبعادي.

أعجب هذا العرض الدوقة ولكنها لم تعتمده.

قالت للكونت لا أريد في خلوتنا، تحت سماء نابولي الجميلة، أن تفسد حياتك كلّ مساء، التخيلات السوداوية.

ـ يا صديقتي العزيزة، ليس أمامنا سوى خيار التخيلات السوداوية! ماذا يصير بحالتك وحالتي إذا قضى فابريس بمرض؟

عاد الحوار من جديد حول هذه الفكرة وأنهت الدوقة حديثها بهذه الجملة:

ـ راسي مدين بالحياة لأني أحبك أكثر من فابريس، لا أريد أن أفسد جميع سهرات الشيخوخة الّتي سنقضيها معاً.

أسرعت الدوقة إلى القلعة؛ ابتهج الجنرال فابيو كونتي أن يواجهها بالنص العسكري الجازم: لا يدخل إلى سجن الدولة بدون أمر موقع من الأمير.

ـ ولكن المركيز كريسنزي وموسيقييه يأتون كلّ يوم إلى القلعة؟
ـ حصلت لهم على أمر من الملك.

لم تكن الدوقة المسكينة على اطلاع بكلّ هذه المصائب. اعتبر الجنرال فابيو كونتي نفسه مسربلاً بالعار بسبب هرب فابريس: عندما رآه مقبلاً إلى القلعة، كان عليه ألا يستقبله إذ لم يكن لديه أي أمر. ولكنه قال في نفسه: السماء أرسلته إليّ. لأستعيد شرفي، وأتخلّص من السخرية التي تؤثر على مستقبلي العسكري.

لا يجب إضاعة الفرحة: سيُبَرّأ بدون شك، وليس أمامي سوى بضعة أيام للإنتقام.

٢٥

وصول فابريس أغرق كليليا في اليأس. لم يكن باستطاعة الفتاة اخفاء تعاستها المسكينة التقية والصادقة بعيداً عن فابريس. ولكنها كانت نذرت إلى العذراء عند تسمم والدها نصف تسمم على تضحية الاقتران بالمركيز كريسنزي. كما نذرت أيضاً ألا ترى فابريس أبداً، وها هي الآن عرضة لأشدّ الندم رهبة، بسبب الاعتراف الذي انجرّت إليه، في الرسالة التي كتبتها إلى فابريس ليلة هربه. وبينما هي منشغلة بالنظر إلى عصافيرها ترفرف، وترفع عينيها بحنان كالعادة، نحو النافذة التي كان يراها فابريس منها في ما سبق، رأته من جديد يلقي عليها التحية باحترام حنون. اعتقدت انها رؤيا تسمح بها السماءلمعاقبتها، ثمَّ بدت لها الحقيقة المريعة. قالت في نفسها: ألقوا القبض ثانية على فابريس. قضى عليه! كانت تتذكر الأحاديث المتبادلة في القلعة بعد هربه: أسوأ السجّانين كانوا يعتبرون أنفسهم مذلولين حتى الموت. نظرت كليليا إلى فابريس وبالرغم منها نضحت هذه النظرة عن كل الوجد الذي تكنه له مما كان يدفعها إلى اليأس.

بدت وكأنّها تقول لفابريس: أتعتقد أنني سأجد السعادة في

هـذا القصر الفخم يعدونه لي؟ أبي يـردّد على مسمعي، حتى الارهاق انك فقير مثلنا؛ ولكن، يا إلهي! بأيّة سعادة سأقاسمه هذا الفقر! لا يجب أن نتقابل بعد الآن أبداً.

لم يكن لكليليا القوة لاستعمال الحروف. لـدى مشاهـدتها فابريس ألفت نفسها ضعيفة، فارتمت على مقعد حدّ الشباك. كانت تلقي بوجهها على متكأ النافذة؛ وبما أنها أرادت أن تراه حتى اللحظة الأخيرة، كان محيّاها صوب فابريس، الذي كان بإمكانه أن يراه بكامله. لما فتحت عينيها، بعد لحظات، وجهت أول نظرة نحو فابريس: الدموع في عينيه صدى منتهى السعادة. كان يرى أن البعاد لم ينسها إياه. بقيا بعض الوقت مبتهجين بالنظر كل منهما إلى الآخر. تجرّأ فابريس، ورفع الصوت بغناء بعض الكلمات المرتجلة، كما لو كان يصاحب قيثارة. كانت تلك الكلمـات تقـول: عـدت إلى السجن كي أراك ثـانيـة: وسيحاكمونني.

بدت هذه الكلمات توقظ فضيلة كليليا بكاملهـا. وقفت مسرعة. خبّأت عينيها، وبإشارات سريعة سعت أن تفهمه ألا تراه ثانية؛ هذا ما وعدت به العذراء وهي نظرت إليه من قبيل النسيان. تجرّأ فابريس أيضاً وعبّر عن حبّـه، فهربت كليليـا غاضبة، وهي تقسم بأنها لن تراه أبداً، إذ عبارات نذرها الرقيقة للعذراء هي: لن تنظر عيناي إليه بعد الآن أبداً. كانت دوّنتها

على قصاصة ورق صغيرة سمح لها عمها دون سيزاري بإحراقها على المذبح، أبان التقدمة بينما كان يحتفل بالقداس.

ولكن بالرغم من هذا القسم، أعاد وجود فابريس في برج فارنيز، لكليليا جميع أساليب تصرفها القديمة. كانت تقضي كل نهاراتها وحيدة في غرفتها. فاستعادت قواها من الاضطراب الفجائي الذي سبّبه لها مرأى فابريس، وأخذت تجول في القصر لتجديد معرفتها بكل أصدقائها المرؤوسين. قالت لها عجوز ثرثارة تعمل في المطبخ ما بدا كأنه سر: لن يخرج السيد فابريس هذه المرة من القلعة.

ـ لن يخطىء بعد الآن بالقفز فوق الجدران؛ بل سيخرج من الباب إذا تمت تبرئته.

ـ أقول لسموك انه لن يخرج من القلعة إلا وقدماه إلى الأمام.

امتقعت كليليا شديداً، لاحظت العجوز ذلك، فتوقفت على الفور عن أقوالها البليغة، وقالت في نفسها: ارتكبتُ هفوة أمام ابنة الحاكم. سيلزمها واجبها أن تقول أمام الجميع أن فابريس مات. صادفت كليليا وهي صاعدة إلى غرفتها طبيب السجن، وهو رجل خجول، قال لها مذعوراً أن فابريس مريض جداً. وكانت كليليا تستطيع بالكاد أن تقف؛ فتشت في كلّ مكان عن عمها الكاهن دون سيزاري، فوجدته في المصلى، يصلي بحرارة. وجدته مضطرباً. دقَّ جرس تناول الغداء. لم يتبادل الأخوان

كلمة على المائدة. وجّه الجنرال عند نهاية الطعام لأخيه بعض الكلمات اللاذعة. تطلّع الأمير إلى الخدم فخرجوا من قاعة الطعام.

قال دون سيزاري للحاكم: يا حضرة الجنرال، أتشرف بإعلامك أنني سأترك القلعة. أقدم استقالتي.

ـ عافاك! عافاك! أقدم على هذه الخطوة لتجعلني مشبوهاً! أتسمح أن تقول لي سبب هذه الاستقالة؟.

ـ ضميري.

ـ لست سوى رجل دين متشيع! لا تعرف شيئاً عن الشرف!.

قالت كليليا في نفسها: مات فابريس. سمّموا له، أو أن الأمر أرجىء إلى غد. أسرعت إلى المطيرة، فالغناء بمصاحبة البيانو. قالت في نفسها: سأعترف، وسيغفرون لي لأنني نقضت نذري لإنقاذ حياة رجل. كم كان ذعرها عندما وصلت إلى المطيرة ورأت المصاريع استبدلت بألواح خشب ربطت بقضبان الحديد! سعت وهي مضطربة أن تنبّه السجين ببعض الكلمات التي لم تغنّها بل صاحت بها صياحاً. لم تتلقَ جواباً. كان صمت شامل يخيّم على البرج. قالت في نفسها: قضي الأمر، كلّ شيء تمّ. نزلت وهي غاضبة شديداً ثمّ صعدت كي تتزوّد بالمال القليل وبالقرطين والشنفين من الماس؛ وحملت معها وهي مارة، الخبز الّذي بقي من الفطور، وكان وضع في صوان المائدة.

واجبي أن أنقذه إذا كان، بعد، حيّاً. تقدّمت نحو باب البرج الصغير فوجدته مشرعاً. وكـان ثمانيـة جنود في الغـرفة ذات الأعمدة، من الطبقة السفلى. وكانت كليليا تنـظر بجرأة إلى هؤلاء الجنود، وتنوي أيضاً أن تكلِّم الرقيب الذي يأمرهم: كان هذا الرجل غائباً. اندفعت كليليا على السلم الحديدي الذي يلتفّ حول أحد الأعمدة؛ نظر إليها الجنود ذاهلين. لم يجرؤوا أن يقولوا لها شيئاً، بسبب شالها الدنتيلا وقبعتها، ولما وصلت إلى الطابق الثاني عند مدخل الرواق الذي، إذا كان القارىء يتذكره يغلق بثلاثة أبواب من قضبان الحديد، ويقود إلى غرفة فابريس وجدت حارساً لا تعرفه، قال لها مذعوراً:

ـ لم يتناول طعام الغداء بعد.

قالت كليليا باستعلاء: أعرف. لم يجرؤ الرجل على ايقافها. وجدت على عشرين خطوة، حارساً آخر جالساً على الـدرجة الأولى من الست درجات الخشبية إلى غرفة فابريس. كان معمّراً وشديد الاحمرار، قال لها بحزم:

ـ لديك أمر من الحاكم؟.

ـ ألا تعرفني؟.

كانت كليليا في هذه اللحظة مدفوعة بقوة فائقة، وهي في غاية الاضطراب والقلق. أنا ذاهبة لأنقذ زوجي.

وبينا كان الحارس العجـوز يصيح:

ـ واجبي لا يسمح لي...

كانت كليليا تصعد مسرعة الدرجات الست. اندفعت إلى الباب. وجدت مفتاحاً ضخماً في القفل؛ احتاجت كل قواها لكي تديره. في هذه اللحظة، أمسك الحارس المعمّر، وهو نصف سكران، بطرف ثوبها، دخلت الغرفة وأغلقت الباب وتمزق ثوبها، وبما أن الحارس كان يدفعها للدخول بعدها، أغلقت الباب بالمزلاج الذي كان يتناولها. نظرت في الغرفة. رأت فابريس جالساً. اندفعت نحو المائدة، وقلبتها أرضاً وأمسكت بذراع فابريس، وقالت له:

ـ هل أكلت من هذا الطعام؟.

سلب قلبه رفع الكلفة هذا، بتوجيهها الكلام إليه. نسيت كليليا للمرة الأولى التحفظ النسوي وتركت حبها يظهر سافراً.

كان فابريس على وشك أن يبدأ هذه الوجبة المشؤومة فأخذ كليليا بين ذراعيه وغطاها بالقبل. دسّ السم في طعام العشاء وفكر: إذا قلت لها انني لم ألمسه يتغلب عليها تديّنها وتهرب. أما إذا اعتبرتني بالعكس، مشرفاً على الموت، فلن تتركني، وترغب بإيجاد طريقة لتفسخ زواجها المقيت، وها أن الصدفة توفر لنا هذا الظرف: سيجتمع السجانون، وسيكسرون الباب، وهذه فضيحة كبرى من صالح كريسنزي وقد تدفعه إلى فسخ الزواج.

خلال برهة الصمت بهذا التفكير شعر فابريس أن كليليا كانت تسعى لأن تتخلّص من معانقته وقبلاته.

قال لها: لا أشعر حتى الآن بالألم ولكن عن قريب سترميني الأوجاع على قدميك، ساعديني حتى أموت.

قالت له: آه! يا صديقي الوحيد! سأموت معك. كانت تشده بين ذراعيها، بحركة مرتعشة.

كانت على قدر كبير من الجمال وهي نصف عارية وفي حالة من الوله المتناهي، حتى أن فابريس لم يستطع أن يقاوم حركة لا إرادية. لم تبد أية مقاومة.

في حمية العاطفة والكرم التي تتبع السعادة المتناهية، قال لها بطيش:

ـ لا يجب أن تلطخ كذبة، اللحظات الأولى لسعادتنا: «لولا شجاعتك لكنت الآن جثةهامدة أو لكنت أتخبط في آلام مبرحة؛ كنت على وشك البدء بتناول الطعام عندما دخلت، ولم ألمس قط هذه الأطباق.

كان فابريس يتبسط في الحديث عن هذه الصور المريعة لكي يبعد الغضب في عيني كليليا. نظرت إليه لحظات تتجاذب نفسها عاطفتان عنيفتان وقويتان. سمعت جلبة قوية في الممشى. كان أحدهم يفتح ويغلق الأبواب الحديدية الثلاثة ويتكلّم بصوت مرتفع.

ـ آه! لو كان معي سلاح! صاح فابريس؛ أخذوه مني قبل

السماح لي بالدخول إلى السجن. انهم يأتون للاجهاز علي دون شك، وداعاً يا كليليا! أنا أبارك موتي لأنه كان سبب سعادتي. قبلته كليليا وأعطته خنجراً صغيراً، ذا مقبض عاجي، لم تكن شفرته أطول من شفرة السكين.

قالت له: لا تدعهم يقتلونك، دافع عن نفسك حتى النفس الأخير؛ إذا سمع عمّي الكاهن هذه الضجة، فهو ذو شجاعة وفضيلة، وسينقذك، أنا خارجة، لأكلمهم. ولدى تلفظها بهذه الكلمات اندفعت نحو الباب.

قالت بحماسة، وهي تمسك بقفل الباب ووجهها إليه: دع نفسك تموت جوعاً ولا تمس أي شيء يقدمونه لك. أحمل قطعة الخبز هذه دائماً. كانت الجلبة تقترب، أمسك بها فابريس من وسط جسدها واتخذ له مكاناً عند الباب، وفاتحاً إياه بقوة، ارتمى على السلم الخشبي ذي الست درجات. كان يمسك بيده الخنجر الصغير ذي المقبض العاجي، وعلى وشك أن يخرق به صدرة الجنرال فونتانا مساعد الأمير، الذي تراجع وهو يصيح هلعاً:

ـ أنا آتٍ لانقاذك، يا سيد دل دونغو.

عاد فابريس وتسلق الدرجات الست، وقال في الغرفة.

ـ فونتانا يأتي لإنقاذي.

ثمَّ عاد إلى قرب الجنرال على درجات السلم الخشبي وتفاهم معه بكل هدوء ورجاه أن يغفر له فورة غضبه الأولى.

ـ كانوا يريدون تسميمي؛ هذا الفطور أمامي، يحوي سمّاً؛ خطر لي ألا ألمسه، ولكن سأعترف لك أن هذه الطريقة أزعجتني. لما سمعتك تصعد اعتقدت أنهم يقبلون للإجهاز علي بطعنات الخناجر. . يا حضرة الجنرال، أطلب منك أن تأمر بألا يدخل أحد إلى غرفتي: سيرفعون السمّ من أمامي، ويجب أن يعرف أميرنا الطيّب كل شيء. أصدر الجنرال، وهو مذهول وممتقع الوجه بشدة، الأوامر التي طلبها فابريس، إلى نخبة السجانين الذين يتبعونه، خجل هؤلاء، أن يروا السم اكتُشف، فأسرعوا بالنزول. كانوا يتقدمونه ظاهراً، كي لا يعيقوا مرور مساعد الأمير، في السلم الضيق، وكي يهربوا ويختفوا. دهش الجنرال فونتانا لتوقّف فابريس ربع ساعة طويلة عند سلم الحديد حول عمود الطابق الأرضي؛ كان يريد أن يتيح الفرصة لكليليا حتى تختبىء في الطبقة الأولى.

كانت الدوقة بعد عدة مساع مجنونة، توصلت إلى إرسال الجنرال فونتانا إلى القلعة، وتوفقت صدفة. لدى مغادرتها الكونت موسكا الذي كان قلقاً بقدر ما كانت قلقة، أسرعت إلى القصر. كانت الأميرة تكنّ نفوراً ظاهراً تجاه النشاط الذي بدا لها سوقيّاً، واعتقدت أنها مجنونة ولم تظهر أنها مستعدة للقيام بأي مسعى خارق لصالحها. كانت الدوقة، خارجة عن طورها وتبكي بدموع ثخينة، ولم تكن تعرف سوى الترديد في كل لحظة:

- يا سيدتي، سيقضى على فابريس، في السجن، بعد ربع ساعة.

لما رأت الدوقة شجاعة الأميرة حزنت كثيراً. أنا استعملت السم في البداية وبالسم أهلك.

خاطرت الدوقة، يائسة، بالذهاب إلى الصالة حيث المركيز كريسنزي وكان في الخدمة ذلك اليوم. لدى عودة الدوقة إلى بارما، شكرها بدفق عن مركز فارس الشرف، الذي لولاها لما كان باستطاعته أن يطمح أبداً إليه. ومظاهر الاخلاص لم تكن تنقص من ناحيته. اقتربت منه قائلة:
- راسي يريد أن يسمم لفابريس الموجود في القلعة، خذ من جيبك بعض الشوكولا وقنينة الماء التي سأعطيك إياها. اصعد إلى القلعة وامنحني الحياة، بقولك للجنرال فابيو كونتي انـك ستقطع علاقتك بابنته إن لم يسمح لك أن تسلّم بنفسك هذا الماء والشوكولا إلى فابريس.

امتقع لون المركيز، وعوضاً من أن تبدو الحيوية على محيّاه، بدا الارتباك الشديد؛ لم يكن باستطاعته الاعتقاد بجريمة رهيبة إلى هذه الدرجة، في مدينة ذات شرف كبارما، حيث كان يملك أمير عظيم الخ. ووجدت الـدوقة فيـه رجلاً شـريفاً. ولكن ضعيفاً، ولا يقوى أن يحزم أمره على العمل. بعد عشرين جملة مماثلة التي كانت تقاطعها الدوقة سنسفرينا بصيحات نفاذ صبر،

خطرت له فكرة ممتازة: القسم الذي قطعه كفارس شرف يمنعه من التدخل في شؤون ضدّ الدولة.

يأس الدوقة ازداد إذ كانت تشعر بأن الوقت يمرّ بسرعة.

ـ قابل الحاكم على الأقل وقل له اني سألاحق قتلة فابريس حتى الجحيم.

أعطى اليأس دفعاً جديداً لبلاغة الدوقة الطبيعية، ولكن تأثير كل هذا الحماس زاد في هلع المركيز وضاعف من تردده؛ وأصبح بعد ساعة أقل استعداداً للعمل منه في اللحظة الأولى.

وصلت الحال بهذه المرأة التعيسة إلى منتهى درجات اليأس، مدركة أن الحاكم لن يرفض أي طلب لصهر بهذا الثراء. فارتمت على قدميه راجية؛ بدت جبانة المركيز كريسنزي تزداد، عند هذا المشهد الغريب، وخشي أن يتورط بدون ادراك فهو رجل طيب في أعماقه. تأثّر بدموع امرأة بهذا الجمال وبهذا النفوذ، عند قدميه.

قال في نفسه: أنا النبيل والثري قد أكون أيضاً ذات يوم على قدمي في جمهوريّ. أخذ المركيز يبكي، وأخيراً جرى الاتفاق بينهما أن الدوقة، وصيفة الأميرة الأولى، ستقدمه للأميرة لتعطيه إذناً كي يسلم فابريس سلة صغيرة، وسيصرح أنه يجهل محتواها.

في العشيـة، قبل أن تعلم الـدوقة بـالحماقـة التي ارتكبها فابريس بذهابه إلى القلعة، كانوا مثلوا ملهاة من «دل آرتي»؛ والأمير الذي كان يحتفظ دائماً لنفسه بأدوار العاشق ليمثلها مع الدوقة، كان مغرماً وهو يكلمها فكان مثيراً للسخرية في ايطاليا.

الأمير شديد الخجل، ولكنه يعالج دائماً شؤون الحب بجدية، التقى الـدوقة في أحـد مماشي القصـر، وكانت تقـود المركيـز كريسنزي، مضطرباً، لزيارة الأميرة. بهر بالجمال المليء بالانفعال يضفيه اليأس على الوصيفة الأولى، ولأوّل مرة في حياته تحلى بالجرأة. وبإشارة حاسمة صرف المركيـز، وباشـر ببوح الحبّ حسب الأصول للدوقة. لا شك أن الأمير كان حضّره زمنـاً طويلاً قبل ذلك إذ انه حوى أموراً مركّزة.

ـ بما أن لياقة مركزي تمنعني أن أنال منتهى السعادة ألاّ أتّخذ لي زوجة بدون أذنك الخطي. أشعر تماماً، انني أفقدك يد رئيس وزراء، وهو رجل فكر غاية في اللطف؛ ولكن له ستة وخمسين عاماً وأنا لا أبلغ الثانية والعشرين. أهينك واستحق رفضك إذا كلمتك عن المغانم التي لا علاقة لها بالحب، ولكن كل ما له علاقة بالمال في بلاطي يتحدث بإعجاب عن الحب الذي يكنّه لك الكونت بجعلك مؤتمنه على كل ما يملك. سأكون سعيداً أن أتشبّه به بما يختص بهذا الموضوع. ستحسنين التصرف بثروتي أفضل مني، وستكون تحت تصرّفك كامل القيمة التي سيسلمها

وزرائي إلى أمين الخزنة العام في مملكتي، وأنت تقررين المبالغ التي أتمكن أن أتصرف بها كل شهر. كانت الدوقة تجد كل هذه التفاصيل مملة وطويلة. المخاطر التي يتعرّض لها فابريس تحزن قلبها.

صاحت: لكنك، لا تعرف، يا أميري انهم في هذه اللحظة يسمّمون لفابريس في قلعتك! أنقذه!.

كانت صياغة هذه الجملة خرقاء للغاية، فلدى التلفظ بكلمة «يسمّمون» وحدها اختفى كل الاستسلام وحسن النية يضعهما الأمير المسكين، في هذا الحديث، ولم تنتبه الدوقة إلى عدم حذقها إلاّ عندما فات وقت اصلاحها وازداد يأسها، الأمر الذي كانت تعتقده مستحيلاً؛ قالت في نفسها: لو لم أتكلّم على السم، لكان منحني حرية فابريس: وأضافت: آه! يا فابريسي العزيز، مكتوب عليّ أن أطعنك في صميم قلبك بسبب حماقاتي! احتاجت الدوقة كثيراً من الوقت والتدلل لإعادة الأمير إلى أحاديثه الغرامية الوالهة. كان عقله وحده يتكلم. أما روحه فكانت مرتعبة، في بادىء الأمر بفكرة السم ثمّ بالفكرة الأخرى التي هي مكدرة بقدر ما الأولى فظيعة: يجرعون الناس السم دون استشارتي! يريد راسي فضحي في نظر أوروبا! والله يعلم ما سأطالعه الشهر المقبل في صحف باريس!.

فجأة صمتت روح هذا الشاب الخجول وتوصّل إلى فكرة!.

ـ أيتها الدوقة العزيزة! أنت تعرفين كم أحبّك. أفكارك الشنيعة عن السّم ليست مرتكزة على أساس، أحب ان أؤمن بهذا الأمر؛ ولكنها ستنسيني الحب الذي أكنّه لك، وهو ما شعرت به وحده في حياتي. أشعر أني لست أنيساً، بل أنا مجرد طفل كلف بك؛ ولكن امتحنيني.

تنشط الأمير وهو يتفوه بهذه الكلمات.

ـ أنقذ فابريس! وأنا أؤمن بكل شيء؛ ولكن انني منجرفة بمخاوف مجنونة يشعر بها قلب كل أمّ؛ ولكن أرسل في الحال من يأتي بفابريس من القلعة حتى أراه. إذا كان لا يزال حيًّا أرسله من القلعة إلى سجن المدينة، أشهراً بكاملها، إذا شاءت عظمتك، حتى محاكمته.

رأت الدّوقة بيأس، أنّ الأمير، عوضاً من أن يوافق بكلمة على أمر بهذه البساطة، أصبح حزيناً. كان شديد الاحمرار وينظر إلى الدوقة ثم يخفض بصره، وكان خداه ممتقعين. فكرة السّم التي أوردتها في وقت غير ملائم أوحت إليه بفكرة جديرة بوالده أو بفيليب الثاني، ولكنه لم يجرؤ على التعبير عنها.

قال لها أخيراً، كما لو أنه كان يكره نفسه وبلهجة قليلة اللطف: انك تحقّرينني كالطفل وكإنسان فاقد الظرافة: إذاً، سأقول لك شيئاً رهيباً، أوحى به إليّ، في هذه اللحظة، الحب العميق والحقيقي الذي أكنه لك.

لو كنت أعتقد بالسم لتحركت فوراً، لأن واجبي كان جعل هذا الأمر شريعة، ولكني لا أرى في طلبك سوى نزوة متقدة، لا أدرك كل مرماها. تريدين أن أتصرّف دون أن أستشير وزرائي، وأنا أملك منذ ثلاثة أشهر بالكاد تطلبين مني شذوذاً عن أسلوب تصرفي العادي وهو معقول جداً، اعترف بذلك. أنت، أيتها السيدة، الآن الملك المطلق، تفسحين أمامي آمالاً لتحقيق الغرض الذي هو كل شيء في عيني؛ ولكن بعد ساعة، عندما خيال السم، هذا الكابوس، يكون زال، سيغدو حضوري مزعجاً لك، وستحرمينني الحظوة في عينيك، يا سيدتي. إذاً! يلزمني قسم: اقسمي يا سيدتي، انه إذا أعيد فابريس سالماً، سأنال منك خلال ثلاثة أشهر كلّ ما يشتهي حبنا من السعادة؛ وستؤمنين سعادة حياتي كلّها بوضعك ساعة من حياتك تحت تصرفي، وستكونين بأكملك لي.

في هذه اللحظة، دقت ساعة القصر الثانية. آه فكّرت الدوقة، لم يبق وقت.

وصاحت بعينين زائغتين: أقسم.

أصبح الأمير على الفور رجلاً آخر: ركض إلى طرف الرواق حيث صالة المرافقين.

ـ جنرال فونتانا، أركض إلى القلعة بسرعة قصوى، أصعد بقدر ما يمكنك من السرعة إلى الغرفة التي يحتجزون السيد دل

دونغو، ورافقه إليّ، يجب أن أكلمه بعد عشرين دقيقة وفي خمس عشرة، إذ كان ممكناً.

ـ آه! جنرال، صاحت الدوقة التي تابعت كلام الأمير، دقيقة واحدة تؤثّر على مجرى حياتي. إنّ تقريراً مزوراً يجعلني أخشى السّم لفابريس: ناده عندما تصبح على مدى الصوت بألّا يأكل. وإذا كان تناول شيئاً من طعامه، إجعله يتقيأه، وقل له اني أريد ذلك. استعمل القوة إذا لزم الأمر. قل له إنني أتابعه عن قريب جداً، وصدقني، انني مدينة لفضلك مدى الحياة.

ـ سيدتي الدوقة، جوادي مشدود السرج؛ وأنا ماهر بقيادة الخيل. سأعدو بسرعة، وسأكون في القلعة، ثمانية دقائق قبلك.

صاح الأمير: وأنا يا سيدتي الدوقة، أطلب منك أربعاً من هذه الدقائق الثماني.

كان المساعد اختفى، وتنحصر كلّ كفاءة هذا الرجل بإجادة ركوب الخيل. وما أغلق الباب حتى أمسك الأمير الذي كان يبدو ذا خلق، يد الدوقة.

ـ تكرمي، يا سيدتي، بالمجيء معي إلى المصلى. تبعته الدوقة صامتة، مذهولة، واجتازا مسرعين كل ممشى القصر، إذ المصلى في الطرف الآخر. ما دخلاه حتى سجد الأمير على ركبتيه أمام الدوقة بقدر ما كان ساجداً أمام المذبح.

قال باندفاع كلّي: أعيدي القسم إذا كنت عادلة معي، إذا كانت صفة الامارة التعيسة لم تلحق بي أذى، لكنت منحتني من قبيل الشفقة على حبي ما أنت مدينة لي به الآن لأنك أقسمت على منحي إياه.

- إذا رأيت فابريس ثانية غير مسمم، إذا بقي حياً ثمانية أيام، وإذا كان سموك يعينه نائب رئيس الأساقفة بخلافة رئيس الأساقفة لاندرياني لاحقاً، شرفي وكرامتي كامرأة لك، وسأدوس كلّ شيء تحت قدمي وسأكون بتصرف سموك.

قال الأمير ولكن يا صديقتي العزيزة، اني أخشى مكيدة أدركها، قد تحطم سعادتي؛ إذا حصلت تتسبب بموتي. إذا عارض رئيس الأساقفة لسبب من الأسباب الكنيسة التي بإمكانها أن تجعل تحقيق القضية يدوم سنوات كاملة، ما الذي يصير بحالي؟ أتصرف بسلامة نية كاملة؛ فهل ستتصرفين معي بخبث؟.

- لا: بسلامة نية، إذا أنقذ فابريس، إذا استعملت كلّ سلطتك وجعلته مساعد رئيس أساقفة، فرئيس أساقفة، فأنا لك بكليتي. تتعهد سموك بأن تضع كلمة «موافق» على هامش طلب سيتقدم به رئيس الأساقفة من الآن وحتى ثمانية أيام.

- سأوقع ورقة بيضاء أملكي عليّ، وعلى مقاطعاتي. صاح الأمير وهو يحمّر من السعادة. وطلب قسماً ثانياً. كان متأثراً حتى

نسي خجله الذي كان طبيعياً فيه، وفي مصلى القصر حيث كانا وحيدين، قال للدوقة بصوت منخفض أموراً لو قالها ثلاثة أيام قبل ذلك لكانت بدّلت رأيها فيه. ولكن حلّ عندها اليأس الذي كان يسببه الخطر على حياة فابريس، مكان فظاعة الوعد الذي انتزع منها.

كانت الدوقة قلقة مما فعلته. إذا كانت لا تشعر بعد بكل بشاعة الكلمة التي تلفظت بها، فلأن انتباهها كان مأخوذاً بمعرفة إذا كان يمكن الجنرال فونتانا أن يصل إلى القلعة في الوقت المناسب.

وكي تتخلص من أحاديث هذا الطفل حتى الجنون وتبدل مجرى الحديث، امتدحت لوحة للفنان البارمي كانت على مذبح المصلى.

ـ كوني طيبة واسمحي لي أن أرسله لك، قال الأمير.

ـ أقبل، أجابت الدوقة، ولكن إسمح لي أن أسرع لملاقاة فابريس.

وقالت، كالضائعة، لحوذيها أن يسرع بالجياد. وجدت على جسر خندق القصر الجنرال فونتانا وفابريس خارجين من القلعة راجلين.

ـ أكلت؟.

ـ لا، بأعجوبة. ارتمت الدوقة على عنق فابريس وسقطت

مغمياً عليها، ودام غشيانها ساعة، مما أثار في بادىء الأمر خوفاً على حياتها ثم على عقلها.

كان الحاكم فابيو كونتي امتقع لونه غضباً لدى مشاهدته الجنرال فونتانا: أبطأ جداً في تنفيذ أوامر الأمير، حتى أن المرافق الذي كان يفترض أن الدوقة ستحتل مركز الوصيفة الأولى، غضب في النهاية. كان الحاكم يبغي أن يجعل مرض فابريس يدوم يومين أو ثلاثة، وكان يقول في نفسه: ها هو الجنرال، رجل من البلاط، سيجد هذا الوقح يتخبط في الآلام التي تثأر لي من هربه.

توقف فابيو كونتي، مستغرقاً في تفكيره، داخل غرفة حراسة الطابق الأرضي التابعة لبرج فارنيز وأسرع في طرد الجنود؛ لم يرد شهوداً على ما سيجري. انذهل خمس دقائق بعد ذلك، لما سمع فابريس يتكلم وهو حي نشيط ويصف السجن للجنرال فونتانا، ثم اختفى.

أظهر فابريس أنه شاب رفيع التهذيب في مقابلته مع الأمير. لم يقبل أن يبدو ولداً يخاف من أمور لا قيمة لها. وسأله الأمير بكل طيبة كيف كانت حاله: كرجل يموت جوعاً، إذ اني لم أتناول طعام الصباح ولا طعام الغداء. وبعد أن تشرف بتقديم الشكر للأمير، رجا منحه السماح برؤية رئيس الأساقفة. امتقع لون الأمير امتقاعاً غريباً، لما خطر في رأسه الذي هو رأس

طفل، أن السم ليس وهماً من تخيّل الدوقـة. مستغرقـاً بهذه الفكرة القاسية، لم يجب في بادىء الأمر، إلى طلب رؤية رئيس الأساقفة ثم رأى أن يعوّض عن عدم انتباهه بكثير من اللطف.

ـ أخرج وحدك، أيها السيد، جل في الشوارع بـدون أية حراسة. في نحو العاشرة أو الحادية عشرة ستذهب إلى سجن المدينة حيث آمل ألا تبقى طويلاً.

في اليوم التالي لهذا اليوم العظيم، الفريد في حياته كان الأمير يعتقد أن في نفسه بذور نابوليون صغير. كان قرأ أن هذا الرجل العظيم، عومل معاملة حسنة من عدة نساء جميلات في بلاطه. وما أقبل الدهر على نابوليون حتى تذكر أن طالعه كان حسناً أيضاً في مواجهة الرصاص. كان قلبه لا يزال متهلّلاً من رصانة مسلكه مع الدوقة. شعوره بأنه قام بعمل صعب، جعل منه رجلاً آخر خلال خمسة عشر يوماً، فغدا حساساً للاستدلالات الكريمة واكتسب بعض الحزم.

باشر ذلـك اليوم بـإحراق بـراءة الكونت المحـررة لصالـح راسي. وكانت على مكتبه منذ شهر، وأقال الجنرال فابيو كونتي، وطلب من الكولونيل لانج خلفه، كل الحقيقـة بشأن السم، وهذا الرجل عسكري بولوني شجاع، أخاف السجانين وقـال للأمير أنهم أرادوا تسميم طعام فطور السيد دل دونغو، ولكن وجب أن يعرف هذا السر عدد كبير من الأشخاص واتخذت

احتياطات أفضل لطعام العشاء؛ ولولا وصول الجنرال فونتانا، لكان قضي على السيد دل دونغو. هلع قلب الأمير؛ ولكنه كان يجد عزاءه في القول لنفسه: أنقذت حقاً حياة السيد دل دونغو، ولن تجرؤ الدوقة أن تخلف بالوعد الذي قطعته على نفسها. ثم توصّل إلى فكرة أخرى، إن مهنتي أكثر مشقة مما كنت أفكر؛ الجميع يتّفقون أن للدوقة كثيراً من النباهة؛ وهنا تتوافق السياسة والقلب. من الرائع أن تقبل الدوقة مركز رئيسة وزرائي.

كان الأمير غاضباً في المساء، من الفظاعات التي اكتشفها، حتى رفض أن يشترك في تمثيل دور في الملهاة.

قال للدوقة: سأكون سعيداً جداً إذا شئت أن تملكي على مقاطعاتي كما على قلبي. سأخبرك في البدء كيف قضيت يومي. وعندئذ أطلعها بكل دقة على كل شاردة وواردة وخاصة إحراق براءة الكونت راسي، وتعيين دي لانج، والتقرير عن حادثة التسميم الخ.. أجد نفسي قليل الخبرة كي أحكم. الكونت يذلّني بدعاباته، ويمزح حتى في مجلس الوزراء وفي المجتمع، يتحدث بكل هذه الأمور، ستعترضين على كونها الحقيقة؛ يقول انني ولد يقودني حيث يشاء، كي يكون الإنسان أميراً، أيتها السيدة، فليس ما يمنع أن يكون رجلاً في الوقت، نفسه. وهذه شؤون تغيظ. لكي يبرهن عن عدم صحة هذه القصص، ماذا يستطيع الكونت موسكا أن يفعل؟ استدعوا إلى الوزارة هذا

النذل الخطر راسي، وها هو ذا الجنرال كونتي الذي على قدر كبير من النفوذ؛ لا يجرؤ أن يعترف أنه هو، أو السيدة رافرسي دفعه كي يقضي على ابن أخيك؛ أنا أرغب بكل بساطة أن أرسل الجنرال فابيو كونتي أمام المحاكم. سيرى القضاة إن لم يكن مذنباً بمحاولة التسميم.

ـ ولكن، يا أميري، هل عندك قضاة؟.

ـ كيف؟ قال الأمير مدهوشاً.

ـ لديك متشرعون يمشون في الطرقات برزانة ووقار؛ وفضلاً عن ذلك سيحكمون كما يشاء الحزب المسيطر في بلاطك.

بينما كان الأمير الفتي يتلفظ بهذه الكلمات مستنكراً، نافراً، غاضباً، حانقاً، مما يدلّ على براءته وسلامة نيته أكثر مما على فطنته، كانت الدوقة تقول:

ـ هل توافقني أن أترك كونتي ينفضح؟ كلا. بكل تأكيد، إذ يصبح عند ذاك زواج ابنته مع هذا الرجل التافه المركيز كريسنزي مستحيلاً.

جرى حوار طويل، حول هذا الموضوع، بين الدوقة والأمير. فتن الأمير اعجاباً، وغفر للجنرال محاولته تسميم فابريس في سبيل زواج كليليا بالمركيز كريسنزي، بهذا الشرط الواضح الذي أعلنه الأمير بنفسه للحاكم السابق وهو غاضب؛ ولكن، على نصيحة الدوقة، نفاه حتى موعد زواج ابنته. كانت الدوقة تعتقد

أنها لم تعد تحب فابريس غراماً، ولكنها كانت لا تزال تشتهي بشغف هذا الزواج بين كلبليا كونتي والمركيز. كان لديها أمل ضعيف بأن ترى زوال اهتمامها بفابريس شيئاً فشيئاً.

استخفت السعادة بالأمير، فكان يريد ذلك المساء أن يقيل راسي ويفضحه. قالت له الدوقة ضاحكة:

ـ أتعرف كلمة قالها نابوليون؟ لا يجوز لرجل يحتل مركزاً خطيراً وجميع الناس ينظرون إليه، أن يسمح لنفسه القيام بأعمال عنيفة. تقدّم الوقت كثيراً هذا المساء لتؤجل كل شؤون الحكم إلى الغد.

كانت تريد أن تعطي نفسها وقتاً لتسأل الكونت الذي نقلت إليه الحوار كاملاً حاذفة منه التلميحات المتعددة لوعد كان يسمّم حياتها. كانت الدوقة معجبة بنفسها كونها أصبحت ضرورة له وتتمكن من الحصول على ارجاء تنفيذ الوعد إلى أمد لا نهاية له. بقولها:

ـ إذا كانت لديك بربرية اخضاعي لهذا الذل الذي لن أغفره لك أبداً سأرحل عن مقاطعاتك غداً.

بدا الكونت حكيماً جداً لما استشارته عن مصير راسي. وذهب مع الجنرال فابيو كونتي في رحلة إلى البييمونت.

واجهت دعوى فابريس صعوبة غريبة: شاء القضاء تبرئته بالاجماع، ومنذ الجلسة الأولى. أجبر الكونت أن يستعمل

التهديد مع القضاة كي تدوم المحاكمة ثمانية أيام وأن يتمهلوا لسماع جميع الشهود. هؤلاء الناس لا يتبدلون أبداً.

في اليوم التالي لتبرئة فابريس دل دونغو، احتل مركز نائب رئيس الأساقفة لاندرياني مع امكان خلافة مستقبلية، وفي أقل من شهرين ولي هذا المركز.

هنّأ الجميع الدوقة على وقار ابن أخيها؛ والحقيقة أنه كان في أشدّ حالات اليأس.

منذ اليوم التالي لإطلاقه، الذي تبعته اقالة الجنرال فابيو كونتي ونفيه وحظوة الدوقة الكبرى، لجأت كليليا إلى بيت الكونتيسة كونتاريني عمتها، امرأة ثرية جداً، ومعمرة، ولا تهتم إلا بصحتها فقط، حيث كان بإمكان كليليا أن ترى فابريس. لم يكن فابريس يكتفي بالمرور غالباً أمام قصر كونتاريني بكل حشمة، ولكنه نجح بعد متاعب في استئجار شقة قبالة نوافذ الطبقة الأولى. ذات مرة، وقفت كليليا إلى النافذة بنزق لتشاهد مرور تطواف، فانسحبت في اللحظة ذاتها، كمن استولى عليها الهلع: لمحت فابريس، يرتدي ثياباً سوداء، كعامل فقير جداً، ينظر إليها من إحدى نوافذ هذا الكوخ القذر الذي كان لنوافذه ورق مزيت عوضاً عن ألواح الزجاج كما غرفة سجنه في برج فارنيز. أراد فابريس من كل قلبه أن يقنع نفسه بأنّ كليليا كانت تهرب منه نتيجة فقدان والدها حظوته، والتي كان ينسبها الرأي

العام للدوقة؛ ولكنه كان يعرف تماماً سبباً لهذا الابعاد ولم يكن أمر يستطيع أن يلهيه عن كآبته.

لم يتأثر ببراءته، ولا بتوليه سلطاته الأولى التي كان سيتممها في حياته، ولا بمركزه الاجتماعي الرفيع ولا بتملق جميع رجال الدين المستمر، وجميع الأتقياء في الرعية. الشقة الرائعة الذي كان يستعملها في قصر سنسفرينا لم تعد كافية. ولمنتهى سروره أجبرت الدوقة على أن تترك له الطبقة الثانية من قصرها وصالتين جميلتين في الطبقة الأولى كانتا تغصان طيلة الوقت بالشخصيات تنتظر لحظة القيام بواجباتها تجاه المساعد الفتي. بند الخلافة المستقبلية ترك أثراً مدهشاً في البلاد، وصارت تُنسب فضائل لفابريس من كل هذه الصفات الثابتة في مزاجه، وهي نفسها كانت في السابق تثير استنكار رجال البلاط الفقراء والبلهاء.

كانت حكمة لفابريس إذ وجد نفسه عديم الشعور لكل هذا التكريم وأكثر شقاء في هذه الشقة الفخمة مع عشرة خدم يرتدون الكسوة الرسمية الموحدة الخاصة به، منه داخل غرفته الخشبية في برج فارنيز، محاطاً بالسجّانين القبيحين وخائفاً باستمرار على حياته. أتت أمه وشقيقته الدوقة ف *** إلى بارما لرؤيته في مجده، فذهلتا من غمه الشديد. ذعرت المركيزة دل دونغو، وهي أقل النساء استسلاماً للخيال. حتى اعتقدت أنّه جُرّع سمّاً بطيء المفعول في برج فارنيز. رأت من المتوجّب

عليها، رغم رصانتهـا الشديـدة، أن تحدثـه عن هذه الكـآبة المستحكمة في نفسه غير أن فابريس لم يجب إلاّ بالدموع.

لم يكن لطائفة الفوائد التي يوفرها له مركزه السامي، من نتائج، سوى التسبب بإثارة غضبه. كتب إليه شقيقه الشخص المدعي الذي تتأكله الإنانية المنحطّة رسالة تهنئة رسمية، وأرفقها بحوالة قيمتها ٥٠٠٠٠ فرنك حتى يتمكن المركيز الجديد، كما كان يقول، أن يشتري جياداً وعربة جديرين باسمه. أرسل فابريس هذه القيمة إلى أخته الصغرى التي كانت غير موفقة بزواجها.

كان الكونت موسكا، كلف أن يضع ترجمة جميلة بالإيطالية عن سلسلة نسب فالسيرا دل دونغـو، المنشورة قـديماً بـاللغة اللاتينية من قبل رئيس أساقفة بارما فابريس، وطبعها طباعة أنيقة مع الأصل اللاتيني مقابل النص الفرنسي، وطبعت الصور طباعة حجرية في باريس. تمنّت الدوقة أن يوضع رسم رائع لفابريس قبالة رسم رئيس الأساقفة القديم. نشر هذه الترجمة وكأنها من وضع فابريس، وكتبها خلال فترة اعتقاله الأولى ولكن كل شيء كان محطماً عند بطلنا، حتى الغرور الطبيعي جداً عند البشر. ولم يتكرّم بمطالعة صفحة واحدة من هذا الكتاب الذي نسب إليه. مركزه الاجتماعي أوجب عليه تقديم نسخة مجلّدة تجليداً فخماً إلى الأمير، الذي اعتقد بدوره أنه مدين له بتعويض

عن الموت القاسي الذي كان قريباً منه، فمنحه حقّ الدخول إلى غرفته ساعة يشاء، وهذه حظوة تخوّل صاحبها حق التقدّم على كلّ من حوله.

٢٦

اللحظات الوحيدة التي سمح فيها الحظ لفابريس أن يتخلّص من كآبته العميقة، كان يقضيها مختبئاً وراء لوح زجاجي سبق واستبدله بورق مزيت في نافذة شقته قبالة قصر كونتاريني، حيث، كما نعرف، كانت كليليا لجأت. المرات القليلة التي شاهدها فيها، منذ خروجه من القلعة. كان محزوناً بسبب هذا التبدل الواضح الذي يبدو له نذير شؤم.

تبدّل مظهر كليليا، منذ ارتكابها غلطتها، وبدا أكثر نبلاً ورصانة. وبدت ذات ثلاثين سنة. ولمح فابريس في هذا التبدل العجيب انعكاس قرار جازم. كان يقول في نفسه: انها تقسم لذاتها في كلّ لحظة من لحظات النّهار، أن تكون أمينة للنذر الذي قطعته للعذراء بألاّ تراني أبداً.

لم يكن فابريس يدرك سوى قسم ضئيل من مصائب كليليا؛ كانت تعرف أنّ والدها نُكِبَ بزوال حظوته لدى الأمير، ولم يعد قادراً على الرجوع إلى بارما والظهور في البلاط (أمر تستحيل معه الحياة بدونه) إلاّ يوم زواج ابنته بالمركيز كريسنزي، ، فكتبت

إلى والدها تقول انها ترغب في هذا الزواج. كان الجنرال عندئذٍ ملتجئاً إلى مدينة تورينو، ومريضاً من الغم. ردّة الفعل على هذا القرار الهامّ، أضافت عشر سنوات إلى عمرها.

اكتشفت أنّ لفابريس نافذة قبالة قصر كونتاريني ولكنها لسوء الحظ لم تشاهده سوى مرة واحدة؛ كانت تلمح أيّ شكل قليل الشبه به فتغمض عينيها. تقواها العميقة وثقتها بمساعدة العذراء باتتا وسائلها الوحيدة. كانت تتألم لأنها لم تكن تقدّر والدها؛ مزاج زوجها المستقبلي بدا لها تافهاً تماماً وعديم الأهمية وفي مستوى الشعور عند طبقة الأثرياء. وأخيراً، هي تعتبر رجلاً لا تراه وله عليها بعض الحقوق. كانت هذه المجموعة من المصائر تبدو لها مصيبة كاملة ومعها حق. كان عليها الذهاب بعد زواجها، للعيش على مائتي فرسخ من بارما.

كان فابريس على علم بتواضع كليليا العميق، ويعرف كم يكدّرها مشروع قد يتحوّل إلى أحدوثة طريفة في حال اكتشافه. ومع هذا فقد فابريس صبره، لكآبة كليليا التي تتحول عنه باستمرار، فتجرأ على رشوة خادمين من خدم للسيدة كونتاريني عمّتها، وعند هبوط الليل، طرق فابريس باب القصر متنكراً بثوب بورجوازي ريفي. وكان ينتظره بقرب الباب أحدُ الخادمين، وأعلن عن نفسه، أنه مقبل من تورينو ويحمل معه رسائل إلى كليليا من والدها. ذهب الخادم يبلغ كلام الرجل،

وأصعده إلى صالة فسيحة جدّاً. قضى فيها ربع قلقاً بشدة من أن تبعده كليليا، فلن يبقى لـه انئذ أمل بـالـراحـة، لمنـع الاهتمامات المزعجة التي تثقل كاهلي رتبتي الجديدة. سأريح الكنيسة من كاهن فاسد، وسأذهب باسم مستعار وألجأ إلى صومعة ما. وأخيراً، عاد الخادم: كليليا جاهزة لاستقباله. فَقَد بطلنا الجرأة تماماً؛ وكاد ينهار من الخوف وهو يتسلق درج الطبقة الثانية.

كانت كليليا جالسة إلى طاولة صغيرة عليها شمعة واحدة. ما كادت تتعرف إلى فابريس بثيابه التنكرية، حتى هربت واختبأت في طرف الصالة.

صاحت بوجهه، وهي تخبىء وجهها بيـديها: أهكـذا تهتم بخلاص نفسي؟ أنت تعرف أن أبي كاد يهلك من السم، وأنا نذرت إلى العذراء بألاّ أراك أبداً. لم أنقض هذا النذر إلا في اليوم. كان أتعس أيام حياتي يوم اعتقدت أن الضمير يفرض عليّ إنقاذك من الموت. وإنه لأمر عظيم، بتأويل جبري ومجرم، أن أسمعك.

أدهشت هذه الجملة الأخيرة فابريس واستغرق بعض الثواني لكي يفرح. كان ينتظر سورة غضب أشد من كليليا وأن يراها تهرب. استعاد شجاعته، وأطفأ الشمعة الوحيدة. اعتقـد أنه أدرك جيّداً أوامر كليليا، فكان يرتجف ويتقدم منها نحو طرف

الصالة حيث لجأت وراء إحدى الكنبات. لم يكن يعرف إذا كان يهينها بتقبيل يدها. كانت ترتجف هي أيضاً حباً، وارتمت بين ذراعيه.

قالت له: فابريس، كم تأخرت للمجيء! لا أستطيع أن أحدثك سوى لحظة قصيرة، هذا الأمر خطيئة جسيمة؛ عندما وعدت بألا أراك أبداً، كنت أعني أيضاً بألاّ أكلّمك. ولكن كيف تمكّنت من ملاحقة فكرة الثأر خطرت لوالدي، وبهذه البربرية؟ إذ كاد يقضي مسمماً لتسهيل فرارك. ألم يكن عليك أن تقوم بعمل ما من أجلي، وأنا عرضت سمعتي الطيبة من أجل إنقاذك.

ومن ناحية أخرى، أنت مرتبط بالرتب المقدسة، لن تتمكن بعد الآن من الاقتران بي حتى لو ابتعدت عن هذا المركيز الكريه. ثمَّ، كيف تجرأت مساءَ التطواف، على السعي لمشاهدتي في وضح النهار، وخرقت بهذه الطريقة الوعد المقدس الذي قطعته للعذراء؟.

كان فابريس يغمرها بذراعيه، خارجاً عن طوره من الدهشة والسعادة.

مرّ وقت طويل. أخبرها فابريس حقيقة نفي والدها. لم يكن للدوقة يد في الأمر لأنها لم تؤمن بأن فكرة السّم، مصدرها الجنرال كونتي؛ فكّرت بأنها طرفة من حزب رافرسي، الذي كان

يريد طرد الجنرال موسكا. هذه الحقيقة التاريخية التي وسّعها جداً، جعلت كليليا سعيدة؛ كانت تعيسة لوجوب كره أحدٍ يرتبط بفابريس. ولم تعد تنظر إلى الدوقة بعين الغيرة.

السعادة التي وطدتها الأمسية لم تدم سوى أيام قليلة.

وصل دون سيزاري الطيب من تورينو؛ استقى الجرأة في نزاهة قلبه، وتجرأ على طلب مقابلة الدوقة. بعد وعد بألا تبوح لأحد بالمسارة التي سيطلعها عليها. اعترف لها أنّ أخاه اعتقد الرأي العام يتحداه بسبب هرب فابريس وعليه بالتالي أن يثأر لنفسه.

لم يتحدث دون سيزاري دقيقتين حتى استمال الدوقة إليه. فضيلته الكاملة أثّرت في الدوقة التي لم تكن معتادة على أن ترى مثل هذا المشهد. بدا لها كأمرٍ جديد.

- أسرع في زواج ابنة الجنرال بالمركيز كريسنزي، وأعدك بأني سأفعل كل ما باستطاعتي لكي يستقبل الجنرال كما لو كان عائداً من رحلة. سأدعوه إلى حفل عشاء؛ هل أنت مسرور؛ العلاقات ستكون باردة في البداية، وعلى الجنرال ألّا يستعجل في طلب استعادة مركزه كحاكم القلعة. ولكن أنت تعرف أني صديقة المركيز، ولن أحتفظ بأيّ حقد ضد حميه.

أتى دون سيزاري مسلّحاً بهذه الكلمات يقول لابنة أخيه أن حياة والدها في يديها، هو المريض بسبب اليأس، ولم يظهر منذ

عدة أشهر في أيّ بلاط.

أرادت كليليا أن تذهب لترى والدها اللاجيء، تحت اسم مستعار في قرية قرب تورينو؛ تخيّل أنّ بلاط بارما سيطلب تسليمه إلى بلاط تورينو، ليحاكم. وجدته مريضاً وتقريباً مجنوناً. في المساء نفسه كتبت إلى فابريس رسالة قطيعة أبدية. لدى وصول الرسالة إلى فابريس، ذهب واعتكف داخل دير فيليجا، في الجبال، على عشرة فراسخ من بارما. كتبت كليليا له رسالة ن عشر صفحات: كانت أقسمت في السابق بأنها لن تتزوج المركيز بدون موافقته؛ والآن تطلب هذه الموافقة. منحها فابريس إياها من مكان اعتكافه في فيليجا، برسالة مليئة طهراً.

لدى تسلمها الرسالة، اسخطتها لهجة الصداقة فيها، فعيّنت يوم أكليلها بنفسها وزادت الأعياد التي أقيمت لهذه المناسبة أبهة ورونقاً بلاط بارما، ذاك الشتاء.

رانوس ـ أرنست الخامس، بخيل؛ ولكنه كان يحب بشغف ويأمل أن يثبت الدوقة في البلاط، رجا والدته أن تقبل قيمة كبيرة من المال، وأن تشرف على إقامة الحفلات. عرفت الوصيفة الأولى أن تفيد من هذه الزيادة في الغنى؛ وذكّرت أعياد بارما، ذاك الشتاء بالأيام الحلوة في بلاط ميلانو كان يقيمها الأمير أوجين المحبوب، نائب رئيس ملك ايطاليا.

استدعته واجباته، كمساعد رئيس الأساقفة، إلى بارما؛ ولكنه

صرّح أنه لأسباب تقويّة سيكمل اعتكافه في غرفة أجبره المونسينيور لاندرياني أن يتخذها في الأبرشية، فذهب واعتكف فيها برفقة خادم واحد. وهكذا لم يحضر أيًّا من الأعياد المتألقة التي أقيمت في البلاط مما جعل له في بارما وفي أبرشيته المقبلة شهرة واسعة نتيجة غير منتظرة لهذا الاعتكاف الذي كانت كآبة فابريس وحدها العميقة واليائسة توحي به إليه. رئيس الأساقفة الطيب لاندرياني كان أحبّه دائماً وفكّر بأن يجعله مساعده. أضمر له قليلاً من الحسد. كان رئيس الأساقفة يعتقد عن حق بوجوب حضور جميع أعياد البلاط كما العادة في ايطاليا. كان يرتدي في هذه المناسبات ثوب التشريفات وهو لا يختلف إلاّ قليلاً عن الذي يلبسه في الكنيسة. كان مئات الخدم يجتمعون في ممر غرفة العواميد في القصر ولا يتخلفون عن الوقوف لطلب بركة سيادته، وهو يتوقف لمنحهم إياها. في إحدى لحظات هذا الصمت الرسمية سمع سيادة الأسقف لاندرياني صوتاً يقول: رئيس أساقفتنا يذهب إلى الرقص وفابريس دل دونغو يعتكف في غرفته.

منذ تلك اللحظة انتهت في الأبرشية الحظوة الكبرى التي كان يتمتع بها فابريس. ولكنه كان يتدبَّر شؤونه بنفسه. كلّ هذا المسلك الموحى به بدافع اليأس يغمره به زواج كليليا، حسبه الآخرون نتيجة تقوى رائعة. وكانت المتعبدات يقرأن ترجمة سلسلة أنساب أسرته، حيث الغرور المبالغ فيه كما يقرأن كتاب الصلاة. طبع

أصحاب المطابع طبعة حجرية عن رسمة، نفدت في أيام، وأقبل أبناء الشعب على شرائها، والحفّار، عن جهل، وضع بعض الزخارف حول رسم فابريس لا توجد إلّا حول رسم الأساقفة ولا يحقّ لمساعد الأسقف أن يدّعيها. رأى رئيس الأساقفة واحداً من هذه الرسوم. ولم يعد غضبه يعرف حدوداً. استدعى فابريس ووجه إليه كلمات قارسة فظة. لم يبذل فابريس أي جهد، كي يتصرّف كما فنلون في مثل هذه الحالة؛ استمع إلى رئيس الأساقفة بكل التواضع والاحترام؛ ولما انتهى الأسقف من الكلام أخبره كل قصة ترجمة سلسلة الأنساب، التي وضعت بأمر من الكونت موسكا، خلال مدّة سجنه الأولى. وكانت طبعت لأهداف اجتماعية تبدو له غير لائقة برجل في مثل مركزه. أما الصورة فلم يتدخّل في الطبعة الثانية ولا في الطبعة الأولى؛ المكتبي أرسل له أربعاً وعشرين نسخة أثناء رياضته، فأرسل خادمه واشترى له النسخة الخامسة والعشرين، وعرف بهذه الطريقة أن المكتبي يبيع النسخة بثلاثين نحاسة، أرسل مائة فرنك لدفع ثمن الأربع والعشرين نسخة. كل هذه الأسباب، مع أنها عرضت بلهجة متعقلة من رجل كانت تتفاعل في نفسه هموم أخرى حملت على اغضاب رئيس الأساقفة حتى الضيعان. وأدّت به الحال إلى اتهام فابريس بالمراوغة.

ـ هؤلاء هم عامة الشعب حتى ولو كانوا يتمتعون بالذكاء.

كان يحمل هماً أكثر أهمية، رسائل عمته تفرض عليه أن يأتي

ويستعيد شقته في قصر سنسفرينا ويراها بعض المرات، هنا، كان فابريس متأكداً بأنه سيسمع الأحاديث عن الأعياد الرائعة التي أقامها المركيز كريسنزي لمناسبة زواجه: وهذا لم يكن يتحمّله بدون أن يجعل من نفسه مدعاة للسخرية.

عندما جرت حفلة الزواج، كان انقضى ثمانية أيام، وقف فابريس خلالها نفسه للصمت الكامل بعدما أمر خادمه وجماعة الأبرشية الذين كان على صلة بهم. بألاّ يوجّهوا إليه الكلام.

لما علم الأسقف لاندرياني بهذا التصنع الجديد، استدعى فابريس أكثر مما اعتاد، وكان له معه حديث طويل جداً وأجبره على إجراء مقابلات مع بعض كهنة الريف الذين كانوا يدّعون بأن الأسقفية عملت ضدّ امتيازاتهم. أخذ فابريس كل هذه الشؤون بلا مبالاة تامة كرجل لديه أفكار أخرى. كان يفكر: سيكون من الأفضل لي أن أصبح شارترياً. سأتقرّب أقل بكثير في صخور فيليجا.

ذهب لمشاهدة عمته ولم يتمكن من أن يمسك دمعه وهو يقبّلها. وجد أنها متبدّلة: عيناها جاحظتان بسبب هزالها الشديد. وكان منظره هو هزيلاً وبائساً، بثوبه الأسود الرث ككاهن بسيط، حتى أن الدوقة نفسها لم تتمكن من أن تمسك دمعها؛ ولكن لحظة بعد ذلك، عندما قالت في نفسها أن كلّ هذا التبدّل في مظهر هذا الشاب الجميل تسبّب عن زواج

كليليا، شعرت بعواطف مماثلة لعواطف رئيس الأساقفة انما مكظومة بطريقة أكثر مهارة. أطالت الكلام ببربرية فائقة على بعض التفاصيل الرائعة في أعياد المركيز كريسنزي. لم يكن فابريس ليجيب ولكن عينيه أغمضتا بحركة عصبية وغدا أشد امتقاعاً. في لحظات الألم المبرحة. كان اصفرار وجهه يميل إلى اللون الأخضر.

وصل الكونت موسكا فجأة. وما كان يراه مستحيلاً شفاه تماماً من الغيرة لم يتوقف فابريس عن اثارتها في نفسه. استعمل هذا الرجل الماهر صيغ الجمل الأكثر رقة ولياقة كي يعيد لفابريس بعض الاهتمام بشؤون هذا العالم. كان له مكانة كبرى لدى الكونت ويتمتع بقدر وافر من صداقته. ولم تعد هذه الصداقة متوازية مع الغيرة بل أصبحت في هذا الوقت مخلصة تقريباً. كان يقول وهو يستعيد ذكرى مصائبه: اكتسب بالفعل ثروته الوفيرة. وبحجة أن يريه لوحة من البارمي كان الأمير أرسلها إلى الدوقة، أخذ الكونت فابريس جانباً وقال له:

ـ يا صديقي بمَ أستطيع أن أساعدك؟ عليك ألا تخشى الأسئلة من ناحيتي، ولكن هل المال يفيدك بشيء؛ تكلّم. أنا تحت تصرفك، وإذا كنت تفضل أن تكتب فاكتب لي.

قبّله فابريس بحنان وكلّمه على اللوحة.

قال الكونت وهو يعود إلى لهجة الحديث الخفيفة:

ـ انك تحضر مستقبلاً رغيداً فالأمير يحترمك والشعب يكرمك، وثوبك الأسود الرث يقلق سيادة لاندرياني، لديّ بعض المعرفة في الأمور، وأقسم لك. اني لا أعرف أيّة نصيحة أنصحك من أجل تحسين ما أرى. خطوتك الأولى في العالم، وأنت بعمر الخامسة والعشرين تصل بك إلى درجة الكمال، يتحدثون عنك كثيراً في البلاط. أتعرف إلى أيّ شيء أنت مدين بهذا التمييز الفريد في مثل سنك؟ ثوب أسود رث. الدوقة وأنا، كما تعرف، نملك بيت بترارك على هذه الربوة الجميلة وسط الغابة، في جوار البو: إذا ضجرت من أساليب الغيرة الخسيسة، قد تصبح خليفة بترارك، وهكذا شهرته تدعم شهرتك. كان الكونت يجهد فكره لكي يولد بسمة صغيرة على وجه هذا الزاهد ولكن عبثاً! هذا التبدل انه قبل هذه المدة الأخيرة، إذا كان لوجه فابريس من نقيصة فكونه يعبّر، في غير محله، عن مظاهر الشهوة والبهجة.

لم يدعه الكونت يتصرف. بالرغم من اعتكافه كان من التكلف عدم الظهور في البلاط يوم السبت، عيد ميلاد الأميرة. نزلت هذه الكلمة على فابريس كطعنة خنجر في قلبه. وفكر: يا إلهي ماذا جئت أفعل في هذا القصر؟ لم يكن يفكّر باللقاء دون أن يرتجف مما قد يواجهه في البلاط. امتصت هذه الفكرة جميع الأفكار الباقية، فكر بأن الوسيلة الوحيدة الباقية لديه كانت أن يصل إلى القصر في اللحظة التي تفتح بها أبواب الصالات.

كان اسم المونسينيور دل دونغو أوّل من أعلن عن وصوله لحضور الحفلة الساهرة الكبرى، فاستقبلته الأميرة بكل التمييز الممكن لرتبته. كانت عينا فابريس مثبتتين في ساعة الجدار. وفي الدقيقة التاسعة والعشرين لوصوله، نهض ليستأذن بالانصراف عندما دخل الأمير إلى صالة والدته. بعد أن مدحه فابريس لحظات قليلة أخذ يقترب من الباب بحركة ماهرة فأسرع إليه حاجب الملك ليقول له، انه تعيّن عليه مشاركة الأمير في لعبة الهويست. وهذا شرف رفيع، في بارما، وأرفع بكثير من رتبة مساعد أسقف يشغلها في المجتمع. لعب الهويست مع الملك كان شرفاً حتى لرئيس الأساقفة. حزن فابريس للكلمة التي وجهها إليه حاجب الملك، ومع كونه عدواً لدوداً لكلّ مظهر عام، كاد يذهب ويقول له أنه أصيب بدوار مفاجىء؛ ولكنه فكر بأنه سيتعرض لأسئلة وكلمات ثناء ومؤاساة غير محتملة، أكثر من اللعب ذاته. كان يكره التحدث ذلك اليوم.

لحسن الحظ، رئيس الأخوة الفرنسيين كان في عداد الشخصيات التي أقبلت لتأدية الواجبات إلى الأميرة. وكان عالماً كبيراً وهو مزاحم جديد لأمثال فونتانا وديفوازان. اتخذ له مكاناً في زاوية خلفية من الصالة ووقف فابريس أمامه بطريقة لا يرى معها باب المدخل، وتحدث معه عن اللاهوت، ولكنه عجز عن جعل اذنه لا تسمع الاعلان عن وصول المركيز والمركيزة كريسنزي. شعر فابريس، على غير ما يتوقع. بغضب شديد.

ـ لو كنت بورسو فالسيرا (أحد جنرالات سفورسا الأول) لاتجهت إلى هذا المركيز الثقيل، اطعنه بهذا الخنجر الصغير ذي المقبض العاجي أعطتني إياه كليليا في ذلك اليوم السعيد. وسأعلمه كيف يكون وقحاً ويتواجد مع هذه المركيزة في مكان أنا موجود فيه.

تبدلت سيماته إلى درجة أن رئيس الرهبان الفرنسيين قال له:

ـ هل سعادتك، منحرف المزاج؟.

ـ رأسي يؤلمني بشدة.. الأنوار تزعجني.. ولا أبقى إلا لألعب الهويست مع الأمير.

عند هذه الكلمة انذهل رئيس الرهبان الفرنسيين الذي كان بورجوازياً إلى درجة لم يعد يعرف ما الذي يتوجب عمله. وأخذ يحيّي فابريس الذي أخذ يتكلم بزلاقةٍ لسانٍ غريبة، وهو مضطرب كالرئيس. كان يلاحظ أن صمتاً عميقاً يسود وراءه، انما لم يرد أن ينظر. فجأة ضرب نبّال قمطراً وردّد لازمة موسيقية وغنت السيدة بـ... المشهورة أحد ألحان سيما روزا الذي كان معروفاً في الماضي.

تحمل فابريس الايقاعات الأولى وما فتىء أن زال غضبه وشعر بحاجة ملحة لذرف الدموع الغزيرة! يا إلهي! قال في نفسه، أيّ مشهد مضحك! وبثوبي هذا أيضاً! واعتقد أن الحكمة تفرض عليه أن يتكلّم على نفسه.

قال لرئيس الفرنسيين: آلام رأسي المفرطة هـذه، عندمـا أعاكسها كما هذا المساء، تنتهي بنوبة بكاء قد تجعلني سخرية الناس كأيّ آخر في حالتنا؛ وهكذا أرجو من حضرتك يا كلي الرفعة والاحترام، أن تسمح لي بالبكاء وأنا أنظر إليها، بدون أن تعير هذا الأمر أي اهتمام.

قال رئيس الرهبـان الفرنسيـين: رئيسنا العـام، في كتنزارا مصاب بانحراف المزاج هذا. وبدأ يسرد على مسامع فابريس، بصوت خفيض، قصة طويلة حوت تفصيلاً عن وجبات طعام الرئيس المسائية، مما جعل فابريس يبتسم، كما لم يحدث له منذ وقت طويل، ولكنه توقف عن الاستماع إلى رئيس الرهبان. كانت السيدة بـ. . . تغني بأهليّة فائقة لحناً من برغوليز. كانت تحب الموسيقى القديمة. حدثت ضجة خفيفة على ثلاث خطوات من فابريس. للمرة لأولى في السهرة أشاح بعينيه. المقعد الذي تسبّب بهذه الجلبة كانت تجلس فيه المركيزة كريسنزي التي التقت عيناها الدامعتان عيني فابريس اللتين لم تكونا بحالة أفضل.

خفضت المركيزة رأسها، فتابع فابـريـس النظر إليهـا بضع ثوان: كان يتعرف إلى هذا الرأس المثقل بالماس؛ ولكن نظراتها كانت تعبر عن الغضب والاحتقار. ثم قال في نفسه: وعيناي لن تنظرا إليه أبداً، فالتفت إلى رئيس الفرنسيين وقال له:

ـ انحراف مزاجي الآن وميلي إلى البكاء يسيطران عليّ أكثر من أي وقت آخر.

ذرف فابريس دموعاً، خلال أكثر من نصف ساعة، ولحسن الحظ عزفت بطريقة مشوهة كما العادة في ايطاليا، سمفونية لموزار مما ساعد على تخفيف دموعه.

ثَبُتَ ولم يوجّه أنظاره إلى المركيزة كريسنزي. ولكن السيدة بـ. . . غنّت من جديد فوجدت روح فابريس بعض العـزاء بالدموع التي ذرفها وشعر بالراحة التامة. عندئذ بدت له الحياة من منظار آخر. قال في نفسه: هل أدعي التمكن من نسيانها كلياً منذ اللحظات الأولى؟ معقول؟ وانتهى إلى هذه الفكرة: هل أكون أكثر تعاسة مما أنا منذ شهـرين؟ وإذا لا، فلماذا مقاومة رغبة مشاهدتها؟ نسيت قسمهـا؛ انها خفيفة الـرأس: أليست كلّ النساء هكذا؟ ولكن تتمتع بجمال خارق! نظرتها تسليني وأنا مضطر أن أنظر إلى النساء اللواتي يقال أنهن أكثر جمالاً منها. فلماذا لا أدع نفسي تفتتن؟ ستتوفر لي، على الأقل فرحة للاستراحة.

كان لفابريس بعض المعرفة بالناس، ولكن دون أية خبرة بالأهواء. والا لكان قال: هذه اللذة العابرة، التي كان مزمعاً أن يستسلم لها، ستفسد جميع الجهود التي بذلها منذ شهرين نسيان كليليا.

لم تأت هذه المرأة المسكينة إلى هذا العيد إلا مرغمة، من زوجها. كانت تريد على الأقل، أن تنسحب بعد وصولها بنصف

ساعة، لسبب صحي، ولكن المركيز صرح لها أن تقديم عربتها للعودة عندما لا تزال عربات كثيرة تصل، مخالف تماماً للعرف، ويمكن أن يُؤَوّل كانتقاد غير مباشر للحفلة التي تقيمها الأميرة.

- بصفتي فارس شرف، أخاف المركيز، يجب أن أبقى في الصالة حتى يخرج جميع من فيها. ثمة أوامر يجب اصدارها إلى الخدم. انهم مهملون. أو تريدين أن يغتصب هذا الحق مني فارس بسيط؟.

رضيت كليليا بهذا التدبير؛ لم تكن رأت فابريس؛ وكانت لا تزال تأمل ألاّ يأتي إلى هذا العيد. ولكن عند بدء الحفلة الموسيقية سمحت الأميرة للنساء بالجلوس.

لم تكن كليليا خفيفة الحركة في مثل هذه الشؤون مما جعل الأخيرات يحتللن أفضل الأماكن بجانب الأميرة ويحرمنها منها فاجبرت أن تأتي وتفتش عن مقعد في زاوية الغرفة، حيث كان فابريس التجأ. لدى وصولها إلى مقعدها لفتها الثوب الغريب يرتديه رئيس عام الأخوة الصغار في مكان كهذا، لم تلاحظ في بادىء الأمر الرجل الرقيق، المرتدي ثوباً بسيطاً أسود، كان يحدثه، غير أن دافعاً سرياً كان يجعلها تثبت عينيها على هذا الرجل. الجميع هنا يرتدون البذلة الرسمية أو الثوب الموشى: من يكون هذا الشاب يرتدي ثوباً أسود بسيطاً. كانت تنظر إليه بانتباه كلّي، عندما أتت سيّدة وسبّبت بعض الجلبة، وهي تجلس

في مقعدها. أدار فابريس رأسه: لم تعرفه، بقدر ما كان متغيراً. قالت في نفسها: هذا رجل يشبهه، شقيقه البكر ربما، ولكن لا يكبره إلّا بسنوات قليلة، وهذا رجل عمره أربعون عاماً. وفجأة عرفته من حركة قام بها بفمه.

قالت في نفسها: كم تعذّب، المسكين! وخفضت رأسها مثقلة بالألم. كان قلبها مضطرباً بالشفقة لهذا المظهر بعد تسعة أشهر من السجن! لم تعد تنظر إليه! ولكنها كانت ترى جميع حركاته بدون أن توجّه ناظريها ناحيته.

بعد الحفلة الموسيقية، رأته يقترب من طاولة لعب الأمير الموضوعة على خطوات قليلة من العرش. واستعادت أنفاسها لما رأت فابريس بعيداً جدًّا عنها.

ولكن المركيز كريسنزي اغتاظ لما رأى زوجته مبعدة عن العرش؛ اهتمّ طيلة السّهرة أن يقنع سيدة على ثلاثة مقاعد من الأميرة وكان زوجها مديناً له ببعض المال، لو تستبدل مقعدها مع المركيزة. قاومت المرأة المسكينة كما من الطبيعي أن تفعل، فذهب وجلب زوجها المدين الذي أسمع زوجته صوت العقل الحزين، وأخيراً سرّ المركيز إذ يتمّ التبديل فذهب وأتى بزوجته:

- ستكونين دائماً في منتهى التواضع؟ لماذا تسيرين هكذا وعيناك منخفضتان؟ سيفكرون أنك واحدة من تلك البورجوازيات المذهولات بأنفسهن في هذا المكان وجميع الموجودين يندهشون

لمشاهدتهن. هذه الوصيفة المجنونة، لا تقوم أبداً بأعمال أخرى. ويتحدثون عن محاربة اليعقوبية وتأخير مسارها. زوجك يحتل المرتبة الأولى للذكور في بلاط الأميرة؛ إذا توصل الجمهوريون أن يزيلوا البلاط وحتى طبقة الأشراف، سيبقى زوجك أغنى رجل في هذه الدولة. هذه فكرة لا تدركينها كفاية.

المقعد الذي سرّ المركيز بأن يجلس زوجته عليه، لم يكن يبعد سوى ست خطوات عن طاولة لعب الأمير، لم تكن ترى فابريس إلا جانبياً، وجدته في منتهى الهزال؛ وكان يبدو أسمى من كل ما في هذا العالم، هو الذي كان لا يترك أيّ حدث يمرّ دون أن يقول كلمته. انتهت إلى هذه النتيجة المريعة: فابريس تبدّل تماماً نسيها؛ وإذا كان بهذا الهزال، فمن تأثير الصيامات الصارمة تخضعه لها تقواه. تشبثت كليليا بهذه الفكرة المؤلمة من حديث كل جيرانها: كان اسم مساعد الأسقف في كل الأفواه؛ كانوا يسعون لمعرفة سبب الانعام العظيم الذي هو موضوعه: بالرغم من شبابه النضر، سمح له أن يمثل أمام طاولة لعب الأمير! كانوا يعجبون باللامبالاة المهذبة، ومظاهر الرفعة يوزع بها أوراقه، وحتى عندما يقطع الورق لسموه.

- ولكن هذا لا يصدق. كان يصرخ رجال البلاط القدماء؛ حظوة عمته سلبت عقله تماماً.. ولكن، شكراً للسماء، لن يدوم هذا الأمر طويلاً؛ ملكنا لا يحب أن تتخذ أمامه مظاهر التعالي

هذه! اقتربت الدوقة من الأمير؛ ورجال البلاط الذين كانوا يقفون على بعد محترم من طاولة اللعب لاحظوا أن فابريس كان يشتد احمراره. قالوا في أنفسهم: ربما عمته انبته على مظاهر لامبلاته. سمع فابريس صوت كليليا. كانت تجيب الأميرة، وهي تقوم بدورتها في المرقص. وجهت كلامها إلى زوجة فارس الشرف خاصتها، وحان الوقت ليبدل فابريس مكانه في لعبة الهويست، فوجد نفسه قبالة كليليا تماماً. استسلم مرات إلى سعادة تأملها. المركيزة المسكينة شعرت أنه ينظر إليها. ففقدت توازنها تماماً. وارتبكت، نسيت مرات ما يوجب عليها نذرها؛ ومن شوقها لمعرفة ما يجري في قلب فابريس، أثبتت عينيها فيه.

لما انتهى الأمير من اللعب وقفت السيدات لكي يتوجهن إلى غرفة الطعام. حصلت بعض الفوضى. وجد فابريس نفسه قرب كليليا. كان لا يزال مصمماً بشدة، وتعرّف إلى الرائحة الخفيفة التي تضعها على ثوبها. هذا الشعور، قلب كل ما كان وعد نفسه به. اقترب منها وردّد بصوت خفيض، بيتي شعر من سوناتات لبترارك، كان وجّهها إليها من بحيرة ماجور، مطبوعة على منديل حرير: «كم كانت سعادتي لما كان الكل يعتقدني تعيساً، والآن كم تبدل قدري!».

قالت كليليا بسرور: كلا انه لم ينسني، هذه النفس الشريفة ليست متقلبة في حبّها!.

كلا، لن تريني متقلِّباً أبداً يا عينين علمتاني الحبّ. وتجرأت كليليا أن تردد بيتي بترارك هذين.

انصرفت الأميرة، فوراً بعد تناول طعام العشاء، تبعها الأمير إلى مقصورتها ولم يعد يظهر في صالات الاستقبال. ما أن عرف المدعوون هذا الخبر حتى أرادوا الانصراف دفعة واحدة؛ حصلت فوضى تامة في الممرات. وجدت كليليا نفسها ثانية حد فابريس؛ دفعتها المأساة العميقة المرتسمة على قسمات وجهه، إلى الشفقة عليه. قالت في نفسها: لننسى الماضي واحتفظ بذكر هذه الصداقة. لدى قولها هذه الكلمات، كانت تضع مروحتها بطريقة يتمكن معها أن يأخذها.

تبدل كل شيء، في عيني فابريس: أصبح بلحظة خاطفة رجلاً آخر، منذ اليوم التالي صرح بأن فترة اعتكافه انتهت، وعاد إلى شقته الفخمة في قصر سنسفرينا. رئيس الأساقفة اعتقد أن أنعام الملك بقبوله على طاولة اللعب، أفقد صواب هذا القديس الجديدة أدركت الدوقة أنه اتفق مع كليليا. هذه الفكرة جعلتها تقرر التغيب فترة عن القصر. أعجبوا بعملها الجنوني هذا! ماذا! هجرُ البلاط في الوقت الذي كانت تبدو حظوتها بدون حدود! كان الكونت سعيداً منذ علم بفك روابط الحب بين فابريس والدوقة. كان يقول لصديقته: هذا الأمير الجديد هو الفضيلة كلها، ولكن سبق ودعوته «هذا الولد». هل تغفرين

لي؟ لا أرى سوى طريقة واحدة لتحسين علاقتي به: التغيب. سأظهر كل الطافي واحتراماتي، ومع هذا كله فأنا مريض، وأطلب فرصتي. أتسمحين لي بهذا الأمر إذ تقرر مستقبل فابريس؛ أتضحين من أجلي تضحية عظيمة، أضاف وهو يضحك، بأن تبدل اسم الدوقة الرائع بلقب آخر أقل قيمة منه بكثير! لكي أتسلى، أترك جميع القضايا هنا، في فوضى معقدة؛ كان لدي أربعة أو خمسة عمال في مختلف الوزارات، أحلتهم إلى التقاعد منذ شهرين، لأنهم يقرأون الصحف الفرنسية، واستبدلتهم ببلهاء لا يمكن تصديق درجة بلاهتهم.

بعد ذهابنا سيجد الأمير نفسه في حيرة، حتى أنه رغم كرهه لمزاج راسي، سيضطر حتماً إلى استدعائه. وأنا لا أنتظر سوى أمر من الطاغية يتحكم بمصيري، لأكتب رسالة صداقة رقيقة إلى صديقي راسي، بأنني أجد وجهاً للأمل بأن يعترف، عن قريب، بحقه في الأهلية.

٢٧

جرى هذا الحديث الرصين في اليوم التالي لعودة فابريس إلى قصر سنسفرينا. كانت الدوقة لا تزال تحت تأثير البهجة في كل أعمال فابريس. هكذا، قالت في نفسها، الفتاة التقية الصغيرة خدعتني. لم تتمكن أن تقاوم محبها ثلاثة أشهر فقط.

التأكيد بنهاية سعيدة، أعطى هذا الكائن الشديد الجبانة، الأمير الشاب، جرأة الحب. علم ببعض استعدادات الرحيل في قصر سنسفرينا؛ وفرّاشه الفرنسي الذي لا يؤمن بفضائل السيدات النافذات، جرأه على الدوقة. سمح أرنست الخامس لنفسه بمسعى استحق من أجله لوم الأميرة القاسي ولوم جميع عقلاء البلاط؛ ورأى فيه الشعب سمة الحظوة المدهشة التي تتمتع بها الدوقة، إذ أتى الأمير لزيارتها في قصرها.

قال بلهجة رزينة بدت لها بغيضة: أترحلين؟ ستخونينني وتنقضين قسمك! لو تأخرت عشر دقائق ولم أمنحك العفو عن فابريس، لكان قضي عليه! وتتركينني تعيساً! لولا قسمك، لما كانت لي الجرأة أبداً على حبك كما أفعل! أليس عندك شرف؟.

- تبصّر في الأمر على مهل، يا أميري. هل مرّت في حياتك كلها حقبة مساوية في سعادتها للأشهر الأربعة الماضية؟ مجدك كملك، وأجرؤ فأعتقد: سعادتك كرجل أنيس ومحبوب لم يبلغا هذه الدرجة من السمو. إذا تكرمت أن توافق على هذا الأمر: لن أكون محظيتك أبداً للحظة عابرة، بمقتضى القسم المغتصب مني عن خوف. سأكرس كل هنيهات حياتي في بناء سعادتك. سأكون دائماً ما كنته منذ أربعة أشهر، وربما سيكلّل الحب الصداقة التي تربطنا ولن أؤكد أن العكس سيحدث.

قال الأمير مفتوناً: إذن مثّلي دوراً آخر، كوني أكثر مما أنت،

ـكي ـلي وعلى مقاطعاتي معاً، كوني رئيسة وزرائي، أطلب ـك كما قواعد اللياقة المحزنة للذين من رتبتي. لنا مثل قريب منا على ذلك: ملك نابولي اقترن بدوقة بارتانا. أهبك كلّ ما أقوم به زواجاً من هذا الطراز. سأضيف فكرة عن السياسة لأبرهن لك انني لم أعد ولداً، واني تبصرت بأن أكون آخر ملك من سلالتي ولا سيما أنني أرى الدول الكبرى تتحكم بخلافتي على العرش، وأنا ما زلت حيّاً! أبارك هذه المضايقات الحقيقية لأنها توفر لي سبيلاً إضافياً لأقيم لك الدليل على تقديري وحبي لك.

لم تتردّد الدوقة لحظة. كان الأمير يضجرها، وبدت للكونت أنيسة. لم يكن في العالم سوى رجل واحد بالامكـان تفضيله عليه. من ناحية أخرى، كانت تملك قلب الكونت. وكان الأمير محكوماً بمتطلبات مرتبته ومكانته، ويتحكم نـوعاً بقلبهـا. فقد يصبح متقلباً في حبه، ويعطيه فارق العمـر الحق بأن يتخـذ عشيقات له.

احتمال سأم العيش مع الأمير، قرّر كل شيء، منذ اللحظة الأولى. كانت الدوقة بالمقابل تريد أن تبقى لطيفة معه فطلبت إذناً للتفكير.

سيكون طويلاً جدًّا هنا ترديد صيغ الجمل الحنونة والتعابير الأنيقة التي عزمت أن تغلف بها رفضها: غضب الأمير. كان

يرى كلّ سعادته تهرب منه. ما سيحلُّ به إذا ابتعدت الدوقة عن البلاط؟ من ناحية أخرى، أيّة اهانة في أن يرفض؟ وأخيراً ماذا سيقول لي فرّاشي الفرنسي عندما أطلعه على فشلي؟.

ملكت الدوقة فنّ تهدئة الأمير وإعادة المباحثات تدريجاً إلى إطارها الحقيقي.

ـ إذا كان سموك يتكرّم بألّا يستعجل نتيجة وعد مشؤوم، وفظيع في عيني، كما لو يعرضني إلى احتقار نفسي، سأقضي حياتي في بلاطه، الذي سيكون دائماً ما كانه في فصل الشتاء. وسأكرس كل أوقاتي للإسهام في إسعاده كرجل، وفي مجده كملك. إذا ألزمتني على اطاعة قسمي، تكون وصمت باقي حياتي بالعار، وفي هذه اللحظة سيراني سموك أرحل عن مقاطعاته ولا أعود إليها أبداً. في اليوم الذي أفقد شرفي، سيكون الأخير أراك فيه.

ولكن الأمير كان متشبثاً برأيه كالكائنات الوجلة، ومن ناحية أخرى، كانت كبرياؤه كرجل وملك غاضبة من رفض يده؛ كان يفكر بكل المصاعب التي عليه يجتازها، والتي كان مصمّماً أن يتغلب عليها كي يجعلها تقبل بهذا الزواج.

خلال ثلاث ساعات تبادلا الحجج نفسها التي غالباً ما تخللتها الكلمات الجارحة، وصاح الأمير:

ـ أتريدين أن أصدق، يا سيدتي، بأنك تفتقرين إلى الشرف؛ فلو ترددت كما يوم كان الجنرال فابيو كونتي يعطي السم إلى فابريس لكنت الآن مشغولة ببناء ضريح له في إحدى كنائس بارما.

ـ لا. ليس في بارما، بكل تأكيد، في بلاد المسمِّمين هذه.

ـ إذن! إذهبي، يا سيدتي الدوقة، أردف الأمير بغضب وستحملين معك احتقاري.

بينما كان ذاهباً، قالت له الدوقة بصوت خفيض.

ـ إذن، كن هنا في تمام العاشرة مساء، متنكِّراً بدقة، وستقوم بصفقة المغبون. ستكون رأيتني للمرة الأخيرة، ولكنت كرست حياتي لإسعادك قدر ما يستطيع أمير مطلق أن يسعد في هذا العهد اليعقوبي. وتخيّل ما سيكون عليه بلاطك عندما لن أكون فيه كي انتشله بالقوة من تفاهته ورداءته الطبيعيتان.

ـ من ناحيتك، ترفضين تاج بارما، وأفضل من التاج، لو قبلت لما كنت أميرة عادية، متزوجة سياسياً، امرأة لا تحب، قلبي كلّه لك ولكنت رأيت نفسك دوماً السيدة المطلقة على أعمالي كلها كما على حكومتي.

ـ نعم، ولكان للأميرة والدتك أن تحتقرني كمتآمرة خسيسة.

ـ لكنت نفيت الأميرة مع نفقة.

بقي الحوار هكذا ثلاثة أرباع الساعة تتخلّله قوارص الأجوبة. وكان الأمير يتمتع بروح رقيقة حساسة. لم يتمكن من استعمال حقه، ولا أن يدع الدوقة تذهب. قيل له أن بعد الحصول على اللحظة الأولى، لا يهم كيف تعود النساء من تلقاء ذواتهن.

تجرأ على العودة ثانية، مرتجفاً، وفي منتهى التعاسة عند العاشرة إلا ثلاث دقائق. ولكن الدوقة كانت في العاشرة والنصف تصعد إلى عربتها وتتجه إلى كولونيا. عندما أصبحت خارج مقاطعات الأمير كتبت إلى الكونت:

«التضحية تمت. لا تطلب مني أن أكون مرحة خلال شهر. لن أرى فابريس بعد الآن. أنتظرك في بولونيا، وعندما ترغب سأصبح الكونتيسة موسكا، لا أطلب منك سوى أمر واحد: لا تجبرني أبداً على أن أعود ثانية إلى البلاد التي رحلت عنها. وفكّر دائماً أنه بدلاً من ١٥٠٠٠٠ ليرة ايراداً، لن يكون لك سوى ٣٠ أو ٤٠ ألفاً على الأكثر. جميع البلهاء كانوا ينظرون إليك متعجبين ولن تعتبر بعد اليوم إلا بقدر ما تريد «أن تنحط لتدرك كل أفكارهم الحقيرة. أنت أردت ذلك يا جورج داندان».

ثمانية أيام بعد ذلك، كان يُحتفل بالزواج في بيروز، في الكنيسة حيث لأجداد الكونت أضرحتهم. كان الأمير في منتهى اليأس. تلقت الدوقة منه رسائل لم تتأخر عن إعادتها في ظروف، وأبقيت عليها مختومة، كان أرنست الخامس عامل

الكونت معاملة ممتازة ومنح فابريس وساماً رفيعاً:

ـ هذا ما أعجبني خاصة في وداعه، كان الكونت يقول للكونتيسة الحديثة موسكا دلاّ روفير. انفصلنا ونحن أفضل الأصدقاء في الدنيا؛ منحني وساماً إسبانياً رفيعاً وحجارة ماس تساوي الوسام. قال لي، انه سيجعل مني دوقاً، لو كان لا يريد أن يحتفظ لنفسه بهذه الطريقة لإعادتك إلى مقاطعاته؛ أنا مكلّف بأن أصرح لك، وهذه مهمة رائعة لزوج، انك إذا تكرمت وعدت إلى بارما، ولو لشهر واحد، سيجعلني دوقاً بالاسم الذي تختارينه، وسيمنحك أرضاً جميلة.

وهذا ما رفضته الدوقة بشيء من الهلع.

بعد المشهد خلال الحفلة الراقصة في البلاط، وكان نهائياً، بدا أن كليليا لم تعد تتذكر الحب الذي خيّل انها تقاسمته معه لفترة من الزمن؛ استولى أشد الندم على هذه النفس الفاضلة والمؤمنة. وهذا ما كان يدركه فابريس تماماً. وبالرغم من جميع الآمال التي كان يسعى أن يعلّل نفسه بها استولت عليه مصيبة كبرى، إنما هذه المرة لم تقده أبداً إلى العزلة ـ كما عهد زواج كليليا.

كان الكونت رجا ابن عمه أن يفيده بالضبط عما يجري في البلاط، وأخذ على نفسه أن يتم هذه المهمة كرجل شريف، خاصة وأنه بدأ يدرك تمام الإدراك كلّ ما كان مديناً له به.

لم يكن فابريس، كالمدينة والبلاط، يشك بأن لصديقه مشروعاً بالعودة إلى الوزارة وبسلطات أوسع مما كان له في السابق. تنبؤات الكونت تحققت بسرعة. في أقل من ستة أسابيع، بعد ذهابه، أصبح راسي رئيساً للوزارة، وفابيو كونتي وزيراً للحربية. والسجون التي كان الكونت أفرغها تقريباً، أخذت تمتلىء من جديد. اعتقد الأمير أنه، باستدعائه هؤلاء الرجال لتسلم السلطة، ينتقم من الدوقة كان متيماً ويكره الكونت موسكا كخصم له.

كان لدى فابريس مشاغل كثيرة: أصيب لاندرياني بضعف عام ولم يعد يبارح قصره، فأخذ المساعد يصرّف كل الأعمال تقريباً.

كانت المركيزة كريسنزي، مرهقة بالندم، وخائفة من مرشدها الروحي، ووجدت طريقة عظيمة للتخفي عن عيني فابريس بنهاية فترة حمل أول، وانعزلت في قصرها: ولكن هذا القصر كان محاطاً ببستان فسيح المساحة. عرف فابريس كيف يدخله، ووضع، في الممر الذي كانت كليليا تفضله، أزهاراً منسقة بشكل طاقات وموضوعة بترتيب يعطيها لغة كالتي كانت تراسله بها كلّ مساء خلال أيامه الأخيرة في سجن فارنيز.

غضبت المركيزة غضباً شديداً من هذه المحاولة ـ ميول نفسها كانت موجّهة مرّة نحو الندم وأخرى نحو الهوى وخلال أشهر لم

تنزل إلى البستان سوى مرة واحدة.

بدأ فابريس يعتقد أن انفصاله عنها نهائي، وأخذ اليأس يستولي على نفسه. كان العالم الذي يقضي فيه حياته يزعجه. ولو لم يكن مقتنعاً في نفسه بأنّ الكونت لا يستطيع العيش بسلام خارج الوزارة، لكان اعتزل العالم في شقة صغيرة من الأسقفية،. ولكان العيش هنيئاً مع أفكاره فلا يسمع صوتاً بشرياً إلا أثناء القيام الرسمي بوظيفته.

ولكن، كان يقول في نفسه، لا يمكن لأحد أن يقوم مقامي لمصلحة الكونت والكونتيسة موسكا. كان الأمير يتابع معاملته له بتمييز: يضعه في الصف الأول في البلاط، وهذه الحظوة مدين بقسم كبير منها لنفسه. التحفظ المتناهي الذي عند فابريس، ينبع من لامبالاة حتى القرف من أنواع التصنع والأهواء الصغيرة تملأ حياة الرجال. وكانت ازعجت غرور الأمير الشاب. كان يقول غالباً أن لفابريس عقلاً بقدر ما لعمته. نفس الأمير الطيبة كانت ترى الحقيقة غير كاملة: لم يكن أحد يقربه بالاستعدادات القلبية كفابريس. وهذا ما كان ليفوت، حتى للعادي من رجال البلاط، إذ التقدير الذي حصل عليه فابريس لم يكن احتراماً لمجرد مساعد أسقف، ولكنه يفوق المراعاة التي كان يبديها الأمير للأسقف. كان فابريس يكتب للكونت أنه إذا كان للأمير فطنة كافية لي يتبيّن الورطة التي أوصل بها الوزراء راسي، فابيو كونتي

وزورلا وآخرين الشؤون العامة، وسيقوم بمسعى يكون فابريس سبيله الطبيعي دون أن يعرض كرامته كثيراً.

«بدون ذكر الكلمة المشؤومة، «هذا الولد»، كان يقول، للكونتيسة موسكا، التي ألصقها رجل نبوغ بشخص معظّم، ولكان هذا الشخص صاح الآن: عودي سريعاً واطردي جميع هؤلاء الأخسّاء. منذ اليوم، إذا كانت زوجة رجل النبوغ، تتكرم وتقوم بمسعى، سيستدعى الكونت بفرح عظيم. ولكنه إذا شاء أن ينتظر حتى تنضج الثمرة فسيدخل من باب أرحب بكثير. ومع ذلك نسأم في صالات الأميرة، فليس لدينا سلوى سوى حماقات راسي الذي أصبح كونتاً فعدا مهووساً، وصدرت أوامر صارمة بأن كلّ شخص لا يتمكن من اثبات ثماني نسبيات شرف، لن يحضر سهرات الأميرة (هذه هي تعابير البراءة) جميع الذين يسمح لهم بالدخول إلى الردهة الكبرى صباحاً ليكونوا حاضرين لدى مرور الملك لسماع الذبيحة الإلهية، سيتابعون التمتع بهذا الامتياز. ولكن على الجدد أن يثبتوا ثماني نسبيات (درجات نسب شريف) وقيل بناء على هذا ليس لراسي نسباً.

مثل هذه الرسائل لم تكن تسلّم إلى البريد. كانت الكونتيسة موسكا ترسل رسائلها من نابولي: «نحيي حفلة موسيقية كلّ خميس وحواراً كل أحد. لا تتمكن أن تتحرك في صالاتنا.

الكونت مسرور جداً بحفرياته. يخصص لها ألف فرنك كل شهر. استدعى عمالاً من جبال الابروز لا يكلّفونه سوى ثلاث وعشرين نحاسة كل يوم. يجب أن تأتي لترانا. ها هي المرة العشرون، يا حضرة ناكر الجميل، أقوم بمثل هذه الدعوة الرسمية».

لم يكن فابريس يهتم بالاطاعة: الرسالة البسيطة التي كان يكتبها كلّ يوم إلى الكونت والكنيسة كانت تبدو له كعمل سخرة لا يحتمل. سنة كاملة مرت هكذا، ولم يتوفّر له أن يوجه كلمة واحدة إلى المركيزة. جميع المحاولات لإيجاد طريقة تراسل استبعدت بهلع. الصمت العادي كان يتمسك به فابريس بسبب سأمه من الحياة، عدا في ممارساته لوظائفه وفي البلاط بالإضافة إلى طهارة أخلاقه الكاملة، اكسبته اجلالاً فائقاً إلى درجة جعلته يقرر في النهاية اطاعة نصائح عمته.

«يجلك الأمير إلى حد بعيد، كتبت تقول له، ويجب أن تنتظر زوال حظوتك قريباً. سيغدق عليك عدم انتباه ويلي احتقار رجال البلاط الفظيع، احتقاره هو شخصياً. مهما كان هؤلاء المستبدون الطغاة الصغار، شرفاء، يتبدلون كالموضة والسبب: السأم. لا يمكنك أن تجد قوى ضدّ نزوة الملك إلا بالوعظ. إنك تحسن الارتجال شعراً! جرب أن يتكلّم نصف ساعة على الدين؛ ستقول في البدايات أشياء غير معقولة؟ ولكن أرشِ بالمال عالماً

باللاهوت على بينة من أمره وحافظاً للسر، وسيحضر عظاتك وينبهك عن الأخطاء التي سيرتكبها وستعمل على استدراكها في اليوم التالي».

نوع المصيبة الذي يحمله الحب المعاكس في ذاته يجعل كلّ أمر يتطلب انتباهاً وعمل سخرة شديد القساوة. ولكن، قال فابريس في نفسه، إذا ما اكتسب تأثيراً على الشعب يمكنه أن يكون نافعاً ذات يوم لعمته وللكونت الذي كان يزداد اجلاله له يوماً بعد يوم بقدر ما كانت الشؤون تتيح أمامه التعرف على خباثة الناس. قرّر أن يعظ، وتوفيقه الذي ارتبط بهزاله وثوبه الرث لم يكن له مثيل. كانوا يشتمّون من عظاته الكآبة العميقة التي، إلى وجهه الفتان وأخبار الحظوة السامية يتمتع بها في البلاط، فتنت قلوب النساء بأجمعهن. اخترعن أنه كان أشجع قواد نابوليون، وسريعاً ما أصبح هذا الحدث الأخرق مؤكداً. كانوا يحتفظون بالأمكنة في الكنائس التي يلقي العظة فيها. وكان الفقراء يقصدونها بالتسابق منذ الخامسة صباحاً.

نجح فابريس إلى درجة كبرى، فخطرت له فكرة بدلت كل شيء في نفسه. قد تأتي المركيزة كريسنزي لحضور إحدى عظاته ولو سن قبيل الفضول. أدرك جمهور الحضور فجأة بابتهاج كلي ان قريحته تتضاعف، فكان يسمح لنفسه، عندما ينفعل، باستعمال تشابيه يرتجف لجرأتها أعظم الخطباء تمرساً، ويستسلم

إلى فترات وحي ملتهبة. وكان كلّ المستمعين يجهشون بالبكاء، ولكن عينيه كانتا تفتشان بين هذا القدر الكبير من الوجوه الملتفتة إلى المنبر عن الوجه الذي كان وجوده حدثاً. قال في نفسه: إذا توفرت لي هذه السعادة سيغمى علي أو سأنسى ما أقول.

لتجنب هذه العقبة الأخيرة، كان ألف نوعاً من الصلاة عذبة ومشبوبة يحتفظ بها دائماً في منبره، على منضدة خفيضة، ويباشر بقراءة المقطع في حال حضور المركيزة، إذا أحرج ولم يجد الكلمة المناسبة.

علم ذات يوم من خدم المركيز، أنّ أوامر أعطيت حتى يجهزوا لليوم التالي مقصورة كريسنزي في المسرح الكبير. كان انقضى عام ولم تظهر المركيزة في أي مسرع. وكانت شخصية مرموقة ذاع خبرها تتسبّب في امتلاء القاعة مما دفع المركيزة إلى تبديل عاداتها. للوهلة الأولى سرّ فابريس سروراً عظيماً: سأتمكن أن أراها لسهرة. يقال أنها ممتقعة الوجه شديداً. وكان يجري أن يتخيل ما يمكن أن يكون هذا الرأس الفاتن، الباهت جزئياً بسبب النضال النفسي.

صديقه لدوفيك ولكن بعد جهد وخوف مما كان يدعوه جنون سيده، وجد مقصورة في الصف الرابع، قبالة مقصورة المركيزة. خطرت لفابريس فكرة: آمل أن أتوصل بالايحاء إليها المجيء إلى الوعظ وسأختار كنيسة صغيرة جداً حتى أراها بوضوح. كان

فابريس يلقي مواعظه عادة عند الثالثة. ويوم كان على المركيزة أن تذهب فيه إلى المسرح أعلن أنه بحكم واجبه عليه البقاء في الأسقفية طيلة النهار وسيلقي عظته، الثامنة والنصف مساء في كنيسة القديسة مريم الزيارة الصغيرة قبالة أحد أجنحة قصر كريسنزي. قدم لدوفيك إلى راهبات الزيارة من ناحيته كمية كبرى من الشموع مع رجاء إنارة الكنيسة إنارة كاملة. كان برفقته فصيلة كاملة من الرماة، فوضع حارساً الحربة في رأس البندقية أمام كلّ مصلى لمنع السرقات.

أعلن أن الموعظة ستلقى في الثامنة والنصف. وفي الثانية كانت الكنيسة امتلأت تماماً، ويمكن هنا تصوّر الجلبة التي حدثت في الشارع الموحش الذي تشرف عليه بناية قصر كريسنزي المهيبة. كان فابريس أعلن أنه على شرف «سيدة الرحمة» سيتّخذ موضوعاً لعظته الرحمة التي يجب أن تتحلّى بها نفس كريمة نحو أحد التعساء حتى إذا كان مذنباً.

اتجه فابريس متنكراً بكلّ العناية إلى مقصورته في المسرح عند افتتاح الأبواب. ولما لم تكن الصالة أضيئت بعد، بدأ العرض في نحو الثامنة. وبعد دقائق، سرّ سروراً لا يدركه عقل ولم يكن شعر به في حياته، فتحت باب مقصورة المركيزة كريسنزي وبعد قليل دخلت المركيزة، لم يكن رآها منذ أعطته مروحتها. شعر فابريس بأنه سيطير فرحاً. كان فريسة مشاعر على قدر كبير من

الغرابة حتى قال في نفسه: ربما سأموت! كم رائعٌ نمط الموت هذا! ربما سأنهار في هذه المقصورة! لن يراني المؤمنون المحتجبون في كنيسة سيدة الزيارة أصل كعادتي إلى الكنيسة وغداً سيعلمون أن أسقفهم العتيد نسي نفسه في إحدى مقصورات الأوبرا متنكراً بزي خادم! وداعاً يا سمعتي! وما الذي تفيدني سمعتي!.

مع هذا، في نحو الثامنة وثلاثة أرباع الساعة، بذل فابريس جهوداً، ترك مقصورته في الصف الرابع، وبلغ بجهد كبير إلى المكان الذي يبدل فيه ثوب الخدم وارتداء ثوب آخر أكثر ملاءمة؛ لم يصل كنيسة الزيارة إلا في التاسعة، بحالة اصفرار وضعف وكان شاع في الكنيسة بكاملها أن السيد مساعد الأسقف لن يتمكن من إلقاء عظته ذلك المساء. ويمكن تصور العناية الفائقة التي بذلتها الراهبات، عند الصالة الداخلية حيث كان لجأ. كانت تلك السيدات يثرثرن.

طلب فابريس أن ينفرد بنفسه لحظات؛ ثم أسرع إلى منبره. أخبره واحد من مساعديه، نحو الثالثة، بأن كنيسة الزيارة غصت بالمؤمنين ولم يعد فيها مكان لأحد، ولكن الناس الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا اجتذبوا كما يبدو بمشهد انارة الكنيسة. لدى دخوله المنبر، اندهش فابريس مستحسناً وجود المقاعد مشغولة بأناس عصريين وشخصيات من أرفع المستويات.

بدأ عظته ببعض عبارات الاعتذار، استقبلت بإعجاب

مكبوت ثم أخذ يصف وصفاً ملتهباً. المسكين الذي يتوجب الاشفاق عليه لتكريم «سيدة الرحمة» التي تألمت على الأرض. كان الواعظ شديد التأثير؛ مرت به لحظات كان بالكاد يلفظ الكلمات بطريقة تسمع بها في جميع أنحاء هذه الكنيسة الصغيرة. كان يبدو في نظر جميع النساء، وعدد من الرجال، وكأنه هوالبائس الذي يجب الشفقة عليه لشدة ما كان امتقاعه ظاهراً. أدرك الناس أنه في ضيقة، بضع دقائق بعد تعابير الاعتذار التي بدأ بها عظته: وجده الحاضرون، ذاك المساء، في منتهى الكآبة وأكثر تأثراً من العادة، رأوا مرة الدموع في عينيه: تصاعد في الوقت نفسه من المستمعين صوت نحيب عام، على قدر كبير من الصخب، حتى أنّه توقف عن إكمال العظة توقفاً تاماً. هذا التوقف الأول، أتبعه عشرة أخرى. كان الجميع يطلقون صياح الدهشة وانفجارات الدموع. وكان يُسمع في كل لحظة أصوات تصيح: أيتها العذراء! آه! يا الله العظيم! كان التأثر عاماً يستحيل منعه، في هذا الجمع المختار، ولم يكن أحد يستحي أن يطلق أصوات البكاء، والناس كانوا مدفوعين إلى هذا البكاء ولم يكونوا يخشون للسخرية في أعين جيرانهم.

في فترة الاستراحة التي تقضي بها العادة عند منتصف العظة، قيل لفابريس ان لم يبق أحد في المسرح سوى سيدة واحدة في مقصورتها: المركيزة كريسنزي. وأثناء الاستراحة سمع فجأة جلبة عظيمة في الردهة: المؤمنون كانوا يقررون بالتصويت إقامة تمثال للسيد

مساعد الأسقف. ونجاحه في القسم الثاني من عظته كان في منتهى الجنون والدنيوية. استبدلت توثبات الندامة المسيحية بقدر كبير من صيحات الاعجاب حتى اعتبر من واجبه أن يوجه إلى المستمعين وهو يترك المنبر بعض العبارات من التوبيخ. وعلى هذا خرجوا جميعاً، دفعة واحدة، بشيء من الغرابة. ولـدى وصولهم إلى الشارع أخذوا كلهم يصفقون ويصيحون: عاش دل دونغو.

نظر فابريس إلى ساعته وركض بسرعة إلى النافذة الصغيرة المشبكة التي تضيء الطريق الضيقة من الأرغن إلى داخل الدير. كان حارس قصر كريسنزي، تجاه الجمهور الغفير والغريب يملأ الشارع، وضع اثني عشر مشعلاً في الأيدي الحديدية الخارجة من الجدران الأمامية. كما للقصور المشادة في القصور الوسطى. بعد دقائق، وقبل أن يتوقف الصياح حصل الحدث الذي كان ينتظره فابريس بقلق زائد: ظهرت عربة المركيزة عائدة من الكنيسة في الشـارع؛ أجبر الحـوذي على التـوقف ولم تتمكن العربـة من الوصول إلى باب القصر إلا ببطء وبكثير من الصياح.

كانت المركيزة تأثرت بالموسيقى في المسرح، ككـل القلوب التعيسة. وتأثرت أكثر، بالوحشة التامة، لما أدركت السبب في منتصف الفصل الثاني من المسرح. ترك المشـاهدون أمـاكنهم ليجرّبوا حظهم ويسعوا بالدخول إلى كنيسة الزيارة. وجـدت

المركيزة نفسها متوقفة أمام البـاب بسبب ازدحام جمهـور كبير فأجهشت بالبكاء. وقالت في نفسها: لم يكن اختياري سيئاً.

ولكن في لحظة الحنان هذه، قاومت إلحاح المركيز وأصدقاء البيت الذين لا يدركون رفضها أن تذهب لترى واعظاً مدهشاً بهذا القدر. وأخيراً، كانوا يقولون، انه يفوز على أفضل مغنٍ في ايطاليا. كانت المركيزة تقول في نفسها: إذا رأيته، يقضى علي!.

راحت موهبة فابريس تزداد تألقاً يوماً بعد يوم. وعبثاً ألقى مواعظه في الكنيسة الصغيرة المجاورة لقصر كريسنزي، فلم ير كليليا التي بدأت تحقـد عليه في النهـاية بسبب هـذا التصنع بالمجيء إلى شـارعها الموحش لإشاعة الاضطراب فيه بعد أن طردته سابقاً من بستانها.

كان فابريس منذ مدة طويلة وهو يستعرض وجـوه النساء اللواتي يصغين إليه، يلاحظ وجهاً صغيراً اسمر جميـلاً جداً. وكان الدمـع يبلل العينين الـرائعتين، منـذ الجملة الثامنـة أو العاشرة من العظة. عندما كان فابريس يقول أشياء طويلة ومملة لنفسه كان يلتفت إلى هذا الرأس الذي تروق له فتوته، وعلم أن هذه الفتاة تسمّى انيتا ماريني، الابنة الوحيدة لأغنى تاجر أجواخ في بارما وورثته، وكان مات قبل أشهر. وأصبح اسم أنيتا ماريني، ابنة الجوّاخ، سـريعاً عـلى كل الشفـاه. أحبت فابريس بكلف. كان زواجها مقرراً بجياكومو راسي الابن البكر

لوزير العدل وكانت تحبه، عندما بدأت المواعظ المشهورة. ولكن ما سمعت المونسينيور فابريس مرتين حتى أعلنت عزوفها عن الزواج، ولما كانوا يسألونها عن سبب هذا التبدل الغريب، كانت تجيب بأنه غير خليق بفتاة شريفة أن تقترن برجل، وتشعر أنها مشغوفة بسواه. سعت أسرتها عبثاً أن تعرف من يمكن أن يكون هذا الآخر.

ولكن الدموع التي تذرفها لدى مجيئها إلى الوعظ، وضعتهم على طريق الحقيقة. سألها أعمامها وأمها إذا كانت تحب مونسينيور فابريس. أجابت بجرأة بما أنهم اكتشفوا الحقيقة فلن تحط من كرامتها بكذبة، وإذ لا أمل بالاقتران من الرجل الذي تعبد، فإنها تريد على الأقل ألاّ تجرح عينيها بمرأى وجه راسي المثير للسخرية. هذا الهزء وصم به ابن الرجل الذي يلاحقه حسد كل طبقة البورجوازية، أصبح في يومين حديث المدينة كلها. بدا جواب أنيتا رائعاً فردّده الناس. وجرى الحديث عنه في قصر كريسنزي كما في كل مكان.

احترست كليليا أن تتكلم على هذا الموضوع في صالتها: ولكنها سألت وصيفتها بعض الأسئلة. ويوم الأحد الثاني، بعد أن سمعت الذبيحة الإلهية في مصلى قصرها، استدعت وصيفتها وذهبت تفتش في رعية الآنسة ماريني لتحضر قداساً ثانياً. فوجدت كل ظرفاء المدينة يقفون بالقرب من الباب. وسريعاً ما

حدثت بينهم حركة. فأدركت المركيزة أن الآنسة ماريني تدخل الكنيسة. وجدت نفسها في المكان المناسب كي تتمكن من مشاهدتها جيداً. وبالرغم من تقواها، لم تنتبه للقداس. وجدت كليليا لهذا الجمال البورجوازي مسحة تدل على الحزم اللائق بامرأة متزوجة منذ سنوات. كانت رائعة بقامتها الصغيرة، وعيناها كأنهما تتحدثان مع الأشياء كما يقال في لومبارديا. وهربت المركيزة قبل نهاية الذبيحة الإلهية.

منذ اليوم التالي، أخبر أصدقاء آل كريسنزي الذي كانوا يأتون كل مساء لقضاء السهرة، طرفة جديدة عن ماريني مثيرة للهزء. كانت أمها تخشى منها حماقة فلم تكن تترك تحت تصرفها سوى القليل من المال. ذهبت آنيتا وقدّمت خاتماً ماسياً رائعاً، هدية لها من والدها، إلى هايز المشهور، الذي كان يومئذ في بارما للاهتمام بترتيب صالونات آل كريسنزي، كي تطلب منه رسم دل دونغو. ولكنها أرادت ألا يكون مرتدياً ثياباً سوداء أو بدلة كاهن. وكانت أم أنيتا الصغيرة، في العشية، مندهشة وذليلة إذ وجدت في غرفة ابنتها رسماً فخماً لفابريس دل دونغو، محاطاً بأروع اطار ذُهِّب في بارما خلال عشرين عاماً.

٢٨

اندفعنا بتلاحق الأحداث، ولم يتسنّ لنا، رسم السلالة المضحكة لرجال البلاط في بارما، ويطلقون التعليقات الفكهة

حول الاحداث التي سردناها. وما يجعل في هذه البلاد، شخصاً من الطبقة الدنيا، مجهزاً بإيراد ثلاث أو أربعة الآف ليرة، مؤهلاً لحضور نهوض الملك، بجرابات سوداء، ألا يكون، في بادىء الأمر، طالع في حياته فولتير أو روسو أبداً: وهذا شرط سهل التنفيذ. ويجب ثانياً أن تحسن التكلم بتحنن عن زكام الملك أو عن آخر صندوق معادن تلقاه من الساكس. وإذا بعد هذا، لم يتغيب يوماً واحداً عن حضور الذبيحة الإلهية، وإذا كان باستطاعة راهبين أو ثلاثة نافذين كأصدقاء حميمين، كان الأمير يتكرّم أن يحدثه مرّة واحدة كل سنة، خمسة عشر يوماً قبل أو بعد الأوّل من كانون الثاني، مما يجعله بارزا جدّاً في رعيته، وجابي الضرائب لم يكن يجرؤ على إغاظته إذا تأخر عن دفع المائة فرنك التي كانت مفروضة سنوياً على ممتلكاته الصغيرة.

كان السيد غونزو صعلوكاً مسكيناً من هذا النوع، رفيع المحتد ويملك بعض الممتلكات الصغيرة. حصل بفضل تأثير المركيز كريسنزي على مركز ممتاز يعود عليه بألف ومائة وخمسين فرنكاً خلال سنة. كان باستطاعة هذا الرجل أن يتناول طعام عشائه في بيته ولكن كان عنده هوى: لم يكن يعرف الراحة والسعادة إلا في صالة إحدى الشخصيات تقول له من وقت لآخر: أصمت يا غونزو لست سوى أحمق. كان هذا مزاجه، إذ أن غونزو كان في معظم الأحيان أكثر نباهة. يتحدث في كل المواضيع بمنتهى اللطافة والظرف: وكان متأهباً أن يبدّل رأيه عند

إشارة عدم رضى صادرة عن سيد البيت. ومع أن مناقبيته عميقة في خدمة مصالحه، لم يكن لديه فكرة واحدة، وعندما لا يكون الأمير مزكوماً، كان بعض المرات مرتبكاً لحظة دخوله إلى الصالة.

وهذا ما أكسب غونزو في بارما شهرة: قبعته رائعة ذات ثلاثة قرون، مزينة بريشة سوداء، تالفة قليلاً، يضعها حتى لدى ارتدائه البدلة الرسمية، ويضع الريشة أما على الرأس أو في اليد؛ وهنا الموهبة والأهمية. كان يستعلم بقلق حقيقي عن حالة كلب المركيزة الصحيّة. ولو كانت النار اشتعلت في قصر كريسنزي لكان عرّض حياته للخطر لإنقاذ وآحد من مقاعد الديباج يعلق وبرها ببنطلونه الحريري الأسود عندما يتجرأ ويجلس صدفة على واحد منها.

كان سبع أو ثماني شخصيات من هذا المستوى يصلون كلّ مساء عند السابعة إلى قصر كريسنزي. ما أن يجلسوا حتى يأتي خادم مرتدي البدلة الرسمية البيضاء المصفرة مغطاة بالشرائط الفضية، وتكمل هذه الروعة سترة حمراء، ليأخذ القبعات والعصي من هؤلاء. وكان يتبعه فوراً فراش آخر حاملاً فنجان قهوة صغير يرتكز على قاعدة من الفضة المفتولة، ويأتي كل نصف ساعة، مدير الخدم، يتقلّد سيفاً ويرتدي ثوباً فرنسياً رائعاً ليقدم المرطبات.

كان رجال البلاط هؤلاء، نصف ساعة بعد ذلك يرون دخول خمس أو ست ضباط يتكلّمون بصوت مرتفع وبلهجة عسكرية ويتناقشون حول عدد ونوع الأزرار التي يجب أن توضع على ثوب الجندي لكي يتمكن القائد الأعلى من الانتصار في المواقع التي يخوضها. ولما كان من الحكمة أن تذكر صحيفة فرنسية في هذه الصالة، حتى ولو كان الحدث من أشدها أثارة للسرور، مثلاً قتل الخمسين ليبيراليا رميا بالرصاص في إسبانيا، فإن القاص لا يبقى أقل اقتناعاً إنه قرأ صحيفة فرنسية. مهارة هؤلاء الناس كانت نيل زيادة النفقة إلى مائة وخمسين فرنكاً كل عشر سنوات. هكذا يتقاسم الأمير ونبلاؤه لذة الملك على المزارعين والبورجوازيين.

اهم شخصية، في صالة كريسنزي، الفارس فورسكانيني. رجل شريف ونزيه، دخل السجن في كل العهود. كان عضواً في مجلس النواب الذي، في ميلانو، رفض قانون قيد العقود الرسميّة التي تقدّم به نابوليون وهذا حدث نادر في التاريخ. والفارس فورسكانيني بعد أن كان، خلال عشرين سنة صديق والدة المركيز، بقي الرجل الاشد نفوذاً في البيت. كان دائماً لديه قصة مسلية يسردها ولم يكن يفوت نباهته أيّ أمر. وكانت المركيزة الشابة تعتقد في قرارة نفسها أنها مذنبة، وترتجف بحضوره.

وبما أن غونزو كان يميل ميلاً حقيقياً نحو هذا السيد النافذ

الذي كان يخاشنه القول، ويجعله يبكي مرة أو اثنتين في السنة، عادته المستهجنة كانت أن يؤدي له بعض الخدمات الصغيرة، ولو لم يكن عاجزاً بسبب عادات في غاية التفاهة، لأمكنه أن ينجح بعض المرات إذ أنه لم يكن محروماً من الدهاء والقحة.

كان السيد غونزو يكره المركيزة كريسنزي إذ لم توجه إليه كلمة قليلة التهذيب، ولكنها قرينة هذا المركيز الشهير كريسنزي، فارس الشرف لدى الأميرة. والذي كان يقول لغونزو مرة أو مرتين في الشهر:

ـ أصمت يا غونزو. إنك أحمق.

وكان لاحظ أن كل ما يقال عن الصغيرة آنيتا ماريني، كان يجعل المركيزة تخرج من حالة التفكير في الهواجس وعدم الاهتمام التي كانت تبقى عادة غارقة فيها، حتى الحادية عشرة، عندئذ كانت تحضر الشاي وتقدمه لكل رجل في الصالة، وهي تناديه باسمه. ثم لدى عودتها إلى غرفتها، تمر بفترة مرح، وكان ذلك الوقت الذي يختارونه لتبادل قصائد هجائية فريدة في إيطاليا. إنه النوع الأدبي الوحيد الذي لا يزال على شيء من الحيوية، إنه غير خاضع للرقابة، وكان المتملقون في بيت كريسنزي يقدمون دائماً قصائدهم بهذه الكلمات: أتسمح السيدة المركيزة أن نلقي أمامها سوناتات رديئة؟ وعندما تكون القصيدة أضحكت الموجودين وأعيدت مرة أو مرتين لا يفوت أحد القادة أن يصيح:

ـ كان على حضرة وزير الشرطة أن يهتم بشنق مؤلفي قباحات كهـذه. في المجتمعات البـورجوازيـة، على العكس يستقبلون القصائد هذه بإعجاب خالص، والمندوبون يبيعون نسخاً منها.

بحسب نوع الفضول الذي أبدته المركيزة، تصوّر غونزو، أنهم أفرطوا أمامها في الاشادة بجمال ماريني الصغيرة. فضلاً عن أنها تملك ثروة تبلغ المليون، كـانت تضمر لهـا الحسد. وببسمته المستمرة وقحته الكاملة تجاه كل ما هو غير شريف، كان غونزو يدخل كل مكان. ومنذ اليوم التالي، وصل إلى صالة المركيزة، حاملاً قبعته ذات الريشة، بهيئة الفائز بغلبة ولم يكن يعتمد هذا الموقف سوى مرة أو اثنتين في السنة عندما كان يقول له الأمير: وداعاً يا غونزو.

بعد تحية المركيزة كريسنزي لم يبتعـد قط كالعـادة ليذهب ويتخذ له مكاناً في المقعد المريح الّذي قدّم له. جلس وسط الدائرة وصـاح بفظاظـة: رأيت رسم المونسينيـور دل دونغو. فوجئت كليليا واتكأت على ساعدي مقعدها، جرّبت أن تقاوم العاصفة. ولكن سريعاً ما رأت نفسها مجبرة على الانسحاب من الصالة.

ـ يجب أن توافق معي يا غونزو المسكـين، إنك أرعن إلى درجة نادرة. صاح أحد القادة بعجرفة وكان ينهي كأس مرطباته الرابع. ألا تعرف أن مساعد الأسقف الذي كان أحد أشجع

القادة في جيش نابوليون، لعب في الماضي دوراً شنيعاً جدّاً مع والد المركيزة، إذ خرج من القلعة التي كان يحكمها الجنرال كونتي كما لو كان يخرج من الستيكاتا (الكنيسة الهامة في بارما).

ـ في الواقع، أنا أجهل، أموراً كثيرة، يا حضرة القائد، أنا غبي مسكين، أرتكب أخطاء طيلة النهار.

هذا الجواب الذي يجاري تماماً الذوق الايطالي أثار ضحك الحاضرين من القائد اللامع. عادت المركيزة سريعاً إلى الصالة؛ تسلمت بالشجاعة، ولم يكن ذلك بدون أمل، بأنها ستتمكن هي أيضاً أن تتأمل بإعجاب رسم دل دونغو الذي كانوا يقولن أنه في منتهى الجودة. اثنت على هايز الذي وضع هذا الرسم. كانت توجه بدون إدراك منها بسمات لطيفة إلى غونزو الذي كان ينظر إلى القائد نظرات ماكرة. كانوا يستسلمون إلى اللذة كباقي المالقين في البيت. هرب القائد ولكن ليس بدون أن يضمر حقداً عميقاً لغونزو. انتصر هذا الأخير، وهو يستأذن مساء للإنصراف، دعي لتناول الغداء في اليوم التالي.

ـ وهذه واحدة أخرى، صاح غونزو، في اليوم التالي، بعد تناول طعام الغداء لما خرج الخدم. ألا يمكن أن يكون مساعد الأسقف وقع في غرام ماريني الصغيرة!... هاج الاضطراب داخل قلب كليليا وهي تسمع كلمة خارقة بهذا القدر. والمركيز نفسه تأثر كالعادة.

ـ ولكن يا صديقي غونزو، إنك تهذي. عليك أن تتحدث بتحفظ أكبر عن شخص تشرّف ولعب مع سموه إحدى عشرة مرة الهويست.

أجاب غونزو بوقاحة الناس الذين على شاكلته: أقسم لك أنه يريد أن يلعب دوراً مع ماريني الصغيرة. ولكن هذه التفاصيل لا تعجبك. لم تعد موجودة لي شخصياً، فأنا أبغي قبل كلّ شيء ألا أزعج مركيزي المعبود.

كان المركيز ينسحب دائماً بعد تناول طعام الغداء كي يرتاح قليلاً، إنما حذر هذا اليوم من الانسحاب؛ ولكن غونزو كان يفضل أن يقطع لسانه من أن يضيف كلمة واحدة عن ماريني؛ وفي كلّ لحظة كان يباشر كلاماً محضراً بطريقة يأمل معها المركيز بالعودة إلى حب البورجوازية الصغيرة. كان غونزو يتمتع بالنباهة الإيطالية الفائقة ترتكز على تأخير لذة إطلاق الكلمة المشتهاة. وكان المركيز المسكين على أشد ما يكون من الفضول، فأجبر أن يمهّد السبيل لاكتساب صداقته قال لغونزو، إنه عندما تحصل له لذة تناول الطعام برفقته تتضاعف الكمية التي يأكلها. لم يدرك غونزو قصده وأخذ يصف معرض لوحات فخماً كانت تقيمه المركيزة بالبي، عشيقة الأمير المرحوم؛ تكلّم على هايز ثلاثاً أو أربع مرات ـ بلهجة مليئة بالبطء والإعجاب العميق. كان المركيز يقول في نفسه: حسناً! سيصل أخيراً إلى الرسم الموصى

عليه من ماريني الصغيرة! وهذا ما حرص غونزو أن يفعله! دقت الخامسة، فتبدّل مزاج الأمير الذي كان معتاداً أن يصعد إلى عربته في الخامسة والنصف، بعد القيلولة، ليذهب إلى ميدان سبق الخيل.

ـ ها أنت مع حماقاتك! قال لغونزو بخشونة. ستجعلني أصل إلى ميدان سبق الخيل بعد الأميرة وأنا فارس الشرف لديها. قد يكون عندها أوامر توجهها إليّ. هيا. أسرع! قل لي بإيجاز ما هو حب المنسينيور دل دونغو المزعوم هذا؟

ولكن غونزو كان يريد أن يحتفظ بهذه القصة للمركيزة التي كانت دعته إلى تناول طعام العشاء معها، فتعجل وقصّ الخبر بقليل من الكلمات وأسرع المركيز للاستمتاع بقيلولته وهو نصف غاف. بدّل غونزو أسلوبه مع المركيزة المسكينة. كانت ما زالت فتية وساذجة بالرغم من ثروتها، حتى اعتقدت أنها مجبرة أن تعوّض عليه من خشونة المركيز. فاستعاد كل بلاغته، مفتوناً بهذا النجاح ووجد لذة بمباحثتها وواجباً الدخول معها في تفاصيل طويلة ودقيقة.

كانت أنيتا ماريني تدفع ريالاً لكل من الأماكن التي يحفظونها لها لسماع العظة. كانت تصل دائماً مع اثنتين من عماتها وأمين صندوق والدها. كانت هذه الأماكن تحجز منذ العشية وعادة قبالة المنبر، ولكن على مسافة قليلة البعد من المذبح الكبير إذ

تنبهت إلى أن مساعد الأسقف كان يلتفت غالباً إلى هذه الناحية. ولاحظ الحضور، عيني الواعظ تتوقفان برضى على الوريثة الفتية ذات الجمال الصارخ؛ وظاهراً ببعض الانتباه، إذ ما أن يثبت عينيه فيها حتى تصبح عظته علمية وتتكاثر الاستشهادات وتفقد كلّ تلك العواطف الصادرة عن القلب؟ وكانت السيدات يفقدن الانتباه تقريباً على الفور، ويباشرن النظر إلى ماريني ويغتبنها.

جعلته كليليا يعيد سرد هذه التفاصيل الغريبة ثلاث مرات وفي المرة الثالثة استولت عليها الاحلام؛ كانت تحسب أنها منذ أربعة عشر شهراً لم ترَ فابريس؟ كانت تقول في نفسها: هل من سوء كبير، في قضاء ساعة، في كنيسة لا من أجل أن أرى فابريس ولكن من أجل الاستماع إلى هذا الواعظ العظيم؟ سأجلس بعيداً عن المنبر ولن أنظر إلى فابريس سوى مرة واحدة وأنا داخلة وأخرى عند نهاية الوعظ؟ كلا، كانت كليليا تقول، لا أقصد أن أرى فابريس بل أن أسمع هذا الواعظ المدهش.

وسط كل هذه البينات، ظلت المركيزة نادمة؛ كان سلوكه رائعاً منذ أربعة عشر شهراً. وأخيراً، قالت في نفسها، كي أجد السلام مع نفسي: إذا كانت المرأة الأولى التي ستأتي لزيارتي سبق لها واستمعت إلى عظة المونسينيور دل دونغو سأذهب أنا أيضاً؛ إذا لم تكن ذهبت سأمتنع أنا أيضاً. بعد اتخاذ هذ

القرار، أسعد المركيزة غونزو بقولها:

- إسع أن تعرف أي يوم سيلقي مساعد الأسقف عظته وفي أية كنيسة. هذا المساء، قبل خروجك، سيكون لـك عندي مهمة تقوم بها. ما أن ذهب غونزو حتى تـوجهت كليليا إلى البستان لتتنشق الهواء الطلق. لم تدس البستان منذ عشرة أشهر. كانت نضرة الوجه مليئة بالحيوية والحركة. في المساء، كان قلبها ينتفض لكل مضجر يدخل إلى الصالة، وأخيراً أعلن عن وصول غـونزو الـذي أدرك منذ النـظرة الأولى أنه سيكـون الـرجـل الضروري ثمانية أيام. المركيزة تحسد ماريني الصغيرة. قال في نفسه، ستكون هزلية مدبرة ستمثل فيها المركيزة الدور الأول وآنيتا الصغيرة دور الفتاة المغناج والمـونسينيور دل دونغـو دور الفـاسق! بطاقـة الدخـول لن يكون ثمنهـا مرتفعـاً إذا بيعت بفرنكين. كان فرحاً جداً وخلال السهرة بكاملها، كان يقاطع الكل ويخبر أشد النوادر سخافة (مثلاً الممثلة الشهيرة والمركيز دي بركيني التي حفظها البارحة عن سائح فرنسي) لم يكن بإمكان المركيزة أن تبقى مكانها؛ كانت تتمشى في الصالة وتنتقل إلى ممر مجاور للصالة حيث لم يقبل المركيز سوى لوحات ثمن كل منها عشرون ألف فرنك. هذه اللوحات كانت لها لغة واضحة هذا المساء حتى أنها كانت تتعب قلب المركيزة من شدة التأثر. وأخيراً سمعت مصراعي الباب تفتحان فأسرعت إلى الصالة: كانت المركيزة رافرسي! ولكن، وهي توجه إليها المجاملات المعتادة،

كانت كليليا تشعر أن صوتها يكاد يختنق، جعلتها المركيزة تعيد السؤال الذي لم تسمعه في بادىء الأمر، مرتين:

ـ ماذا تقولين عن الواعظ الجديد!

ـ كنت أنظر إليه كمتآمر حقير، جدير بان يكـون ابن أخ الكونتيسة موسكا الشهيرة. كان رائعاً، في كنيسة الزيارة تجاه بيتكم، حتى أنني أهملت كلّ كره نحوه، وأعتبره كابلغ رجل سمعته يتكلّم حتى اليوم.

قالت كليليا وهي ترتجف من السعادة: حضرت إذن! واحدة من عظاته.

ـ نعم، قالت المركيزة وهي تضحك، ألم تكوني تستمعين إلى ما أقوله لك؟ لن أتغيب مقابل كلّ ما في العـالم. يقال أنـه مصاب بداء السل، وإنه سينقطع عن الوعظ بعد مدة قصيرة.

ما خرجت المركيزة حتى نادت كليليا غونزو إلى الممشى.

قالت له: أنا مصممة، أن اسمع واعظاً ممدوحاً إلى هذه الدرجة. متى سيلقي موعظته المقبلة؟

ـ الاثنين المقبل، بعد ثلاثة أيام؛ وكأنه أدرك مسعى سموك، سيأتي لإلقاء موعظتـه في كنيسة الـزيارة. لم يكن كـلّ شيء واضحاً؛ ولكن كليليا فقدت صوتها ولم يعد بإمكانها التكلّم؛ دارت في الممر خمساً أو ست مرات، دون أن تضيف كلمة. كان

غونزو يقول في نفسه: الانتقام يشغلها. كيف يكون الانسان بهذه الوقاحة ليهرب من سجن، خاصة عندما يحرسه بطل مثل فابيو كونتي.

ـ فضلاً عن ذلك، يجب الاسراع، أضاف بتهكم مرير. أنه مسلول. سمعت الدكتور رومبو يقول أن ليس أمامه سوى سنة يعيشها. الله يعاقبه لأنه هرب غدراً من القلعة.

جلست المركيزة على مقعد الممر وأشارت إلى غونزو أن يفعل مثلها. بعد لحظات أعطته صرة صغيرة، كانت جهزت بعض قطع النقود: احجز لي أربعة مقاعد.

ـ هل سيسمح لغونزو المسكين أن يدخل وراء سموك؟

ـ دون شك... احجز خمسة أماكن... لا أتمسك بأن أكون قريبة من المنبر؛ ولكن أحب أن أرى الآنسة ماريني التي يقال أنها رائعة الجمال.

لم تعرف المركيزة كيف عاشت الأيام الثلاثة تفصلها عن الاثنين الشهير، يوم إلقاء العظة. كان غونزو يعتبر بأنه شرف عظيم أن يظهر في حاشية امرأة بهذا النفوذ فارتدى ثوبه الفرنسي مع السيف. انتهز جوار القصر فأوعز أن يُحَمَّل إلى الكنيسة مقعدٌ كبيرٌ مذهّبٌ للمركيزة. وهذا ما وجده البورجوازيون وقاحة كبرى. ويمكن تصور حالة المركيزة، عندما رأت المقعد مضطربة

إلى حدّ كبير، خفضت عينيها ولجأت إلى إحدى زوايا المقعد الضخم حتى خانتها جرأة النظر إلى ماريني الصغيرة التي كان غونزو يشير إليها باليد، بوقاحة أذهلتها. لم يكن جميع الأشخاص غير النبلاء شيئاً في نظر هذا المتملق.

ظهر فابريس على المنبر وكان هزيلاً ممتقعاً تلفاً إلى حدّ بعيد حتى أن عيني كليليا امتلأت بالدموع فوراً. قال فابريس بعض الكلمات ثم توقف؛ جرّب عبثاً أن يبدأ عظته ببعض الجمل؛ استدار وأخذ ورقة مكتوبة:

ـ يا أخواني، إن نفساً تعيسة، تستحق كل رحمتكم تحثكم بصوتي على أن تصلّوا من أجل نهاية ما تقاسيه من عذابات لن تنتهي إلا بانتهاء الحياة.

قرأ فابريس، من ثمَّ، كلمته ببطء كلي ولكن دلائل التأثير كانت من القوة بحيث أنه، قبل أن يصل إلى منتصف العظة، أجهش جميع الحاضرين بالبكاء حتى غونزو. لن يلاحظني أحد على الأقل، قالت المركيزة في نفسها، وهي تشرق بدمعها.

وفيما هو يقرأ الورقة المكتوبة وجد فكرتين أو ثلاثاً عن حالة الرجل التعيس الذي من أجله يطلب صلوات المؤمنين. سريعاً ما أتته الافكار أفواجاً، وبينما كان يبدو أنه يتوجه بحديثه للحاضرين لم يكن يتحدث إلاّ إلى المركيزة وحدها. أنهى خطابه قبل أوانه المعتاد، ومهما أمكنه أن يفعل، كانت عيناه تغرورقان

بالدموع حتى لم يعد قادراً على أن يتلفظ بكلمة واحدة بصورة جلية. وجد النقاد المقتدرين هذه العظة غريبة، ولكنها مأسوية نسبة للعظة المشهورة التي ألقاها سابقاً. ما أن سمعت كليليا العشرة الأسطر الأولى من الصلاة التي قرأها فابـريس، حتى كانت تجد نفسها كجريمة نكراء رهيبة كونها تمكنت من قضاء أربعة عشر شهراً بدون أن تراه. لدى عودتها إلى قصرها، ذهبت إلى السرير لتتمكن أن تفكر بفابريس بحرية تامة؛ وفي اليوم التالي، باكراً، وصلت فابريس بطاقة مصوغة بالشكل التالي: «الاعتماد كامل على شرفك؛ خذ أربعة رجال شجعان تـأمن حفظهم للسر، وكن غداً، عندما تدق الساعة منتصف الليل، في الستيكاتا، بالقرب من باب صغير يحمل الرقم ١٩، في شارع القديس بولس. تُهاجم، فلا تأتِ وحدك.»

لدى تعرفه على هذه الأحرف الرائعة، سجد فابريس على ركبتيه، وأجهش بالبكاء؛ وأخيراً صاح، بعد أربعة عشر شهراً وثمانية أيام! وداعاً أيتها المواعظ!

سيكون طويلاً ومملاً أن نصف الحماقات المجنونة التي تعرض لها في ذلك اليوم قلبا فابريس وكليليا. الباب الصغير المشار إليه في الرسالة لم يكن سوى بـاب بستان الليمـون التابـع لقصر كريسنزي. اهتدى فابريس إلى طريقه لمشاهدتها عشر مرات كل يوم. تسلّح وتوجه بخطوات سريعة، قبيل منتصف الليل، وإذ

كان يمر بالقرب من ذلك الباب سمع بسرور فائق صوتاً معروفاً منه يقول برنة منخفضة جدّاً.

ـ أدخل إلى هنا، يا نديم القلب...

دخل فابريس بانتباه ووجد نفسه في بستان الليمون، قبالة النافذة المحاطة بحاجز قوي ومرتفع عن الأرض أربعة أقدام. كان الظلام دامساً. وكان فابريس سمع بعض الجلبة في هذه النافذة. تلمّس الحاجز بيده التي كان يدخلها بين قضبان الحديد عندما شعر بيد تمسك يده وتقبلها.

ـ هذا أنا، يا حبيبي، قال له صوت عزيز أتيت إلى هنا كي أقول لك إني أحبك. لأسألك إذا كنت تريد أن تطيعني.

ولا يمكن تصوّر دهشة فابريس. بعد فورات الفرح الأولى، قالت له كليليا:

ـ نذرت إلى العذراء، كما تعرف، بألاّ أراك أبداً. ولهذا السبب استقبلك في هذا الظلام الدامس. إذا جبرتني أن أراك في وضح النهار، سينتهي كل شيء بيننا. ولكن في بادىء الأمر أريد ألا تلقي مواعظك بوجود آنيتا ماريني ولا تعتقد، أني أنا التي ارتكبت حماقة حمل المقعد الضخم إلى الكنيسة.

ـ يا ملاكي الحبيب، لن أعظ بعد الآن أمام كائن من يكون. لم أعظ إلا على أمل أن أراك يوماً.

ـ لا تتكلم هكذا، فكر أنه لا يسمح لي بأن أراك.

هنا، نعتذر من القارىء على اضطرارنا لزوم الصمت، حول السنوات الثلاث التي مرّت بعدئذٍ.

وفي الوقت الذي يعود سرد القصة، انقضى زمن على عودة الكونت موسكا إلى بارما.

بعد مرور هذه السنوات الثلاث من السعادة الفائقة، مر فابريس بنزوة حنان بدّلت كل شيء في حياته. كان للمركيزة صبي صغير رائع، عمره سنتان: سندرينو، هو كلّ سعادة أمه. وكان برفقتها دائماً أو على ركبتي المركيز كريسنزي، لم يكن فابريس يراه؛ ولم يرد أن يعتاد الطفل على حب والد آخر. فقرّر أن يخطف الولد قبل أن تصبح ذكرياته واضحة.

في ساعات النهار الطويلة التي لا تستطيع المركيزة أن ترى صديقها، كان سندرينو يعزيها؟ وبقيت أمينة لنذرها بالرغم من الأخطاء التي ارتكبتها؛ كانت وعدت العذراء وقد يتذكر القارىء ربما، بألّا ترى فابريس أبداً. هذه كلماتها بالضبط: لم تكن تستقبله إلا في الليل. ولم تكن الغرفة مضاءه أبداً.

ولكن كانت صديقته تستقبله كل مساء؛ وما هو مدهش في بلاط يفترسه الفضول والضجر، أن الاحتياطات المعتمدة من قبل فابريس كانت على قدر كبير من الاحتراس حتى أن هذه الصداقة الحميمة لم يُشَكّ بها أبداً، كان هذا الحب عنيفاً إلى

درجة كبرى، كي لا يكون بعض الشقاق بين الفريقين. كانت كليليا عرضة للغيرة الشديدة ولكن غالباً ما كان يحدث الخصام لسبب آخر. كان فابريس بالغ في بعض الاحتفالات العامة، بأن يتواجد في المكان نفسه الذي تتواجد فيه المركيزة، فينظر إليها. فكانت تتذرع بهذه الحجة لكي تخرج بسرعة وتعذل صديقها لمدة طويلة.

كانوا مدهوشين في بلاط بارما بألا يعرفوا أية دسيسة لامرأة بارزة بهذا القدر بجمالها وسمو نفسها، ولّدت أهواء أوحت بكثير من الحماقات.

كان رئيس الأساقفة الطيب مات منذ زمن بعيد، والأخلاق المثالية، وبلاغة فابريس وتقواه كانت وعادت إليه كلّ ممتلكات أسرته بالوراثة. ومنذ هذا العهد وزع، كل سنة، إلى كهنة أبرشيته المائة ألف فرنك وبعض الآلاف الأخرى من عائدات أسقفية بارما.

كان من الصعب أن يحلم الانسان بحياة أكثر تبجيلاً وجدارة بالاحترام، وأشد نفعاً من التي بناها فابريس لنفسه عندما اضطرب كل شيء بسبب هذه النزوة التعيسة.

ـ بحسب هذا النذر الذي أحترم، والذي يتسبّب بتعاسة حياتي، وبما أنك لا تريدين أن تريني نهاراً. قال ذات يوم لكليليا، أنا مجبر أن أعيش وحيداً باستمرار. ليس لي سلوى

سوى العمل؛ والعمل ينغصني. وسط هذا النمط القاسي والحزين لقضاء ساعات طويلة من كلّ يوم، خطرت لي فكرة تسبب غمي وأناضل عبثاً ضدّها منذ ستة أشهر؛ إبني لن يحبني. فإنه لا يسمع أحداً يناديني باسمي. يكاد لا يعرفني فهو معتاد على البذخ المحبب في قصر كريسنزي. فلا أراه سوى مرات قليلة، وفي كل مرة أفكر بأمه ويذكّرني بجمالها السماوي الّذي لا أتمكن أن أراه. وقد يجد لي وجهاً رزيناً والرزانة تعني الحزن للأولاد.

قالت المركيزة: إلى أين تريد أن تصل بكلامك هذا؟ إنه يخيفني.

ـ أن أحصل على ابني؛ أريد أن يسكن معي، أريد أن أراه كل يوم، أريد أن يعتاد على محبتي؛ أريد أن أحبه بدوري. بما أن قدراً فريداً في العالم يبغي أن أحرم من هذه السعادة التي يستمتع بها عدد كبير من الناس، وأنا أقضي حياتي مع كلّ ما أعبد، أريد على الأقل أن يكون بقربي كائن يذكرني بك ويحل محلك.

الشؤون والناس هم على كاهلي في عزلتي القسرية.

تعرفين أن طموحي كان دائماً كلمة لا معنى لها عندي منذ اللحظة حصلت لي سعادة سجني من باربون وكل ما ليس إحساساً في النفس يبدو لي مثيراً للهزء. في أوقات السويداء التي ترهقني بعيداً عنك.

غمّ صديق كليليا يملأ نفسها. أصبحت كآبتها أعمق بقدر ما كانت تشعر أن مع فابريس نوعاً من الحق. توصلت أن تشك إذ لم يكن عليها أن تنقض نذرها ولأمكنها أن تستقبل فابريس نهاراً كأيّ شخص آخر من الشخصيات، وكانت سمعة حكمتها موطّدة تماماً، بحيث لا يستطيع أحد أن يغتابها. كانت تقول في نفسها: يمكنني، ببذل كثير من الدراهم، أن أعفى من نذري؛ وشعرت أن هذا التدبير الاجتماعي لن يهدىء من اضطراب ضميرها. وربما تعاقبها السماء الغاضبة عن هذه الجريمة الجديدة.

من ناحية أخرى، إذ قرّرت بأن تستسلم لرغبة فابريس الطبيعية، وإذا كانت تسعى بألاّ تتسبّب في تعاسة هذه النفس الحنون وهي على معرفة تامة بها، كان نذرها الذي لا مثيل له يعرّض الطمأنينة على وجه غريب. أيّ أثر يترك اختطاف الابن الوحيد لأحد أكبر سادة إيطاليا دون أن تنكشف الخدعة؟

المركيز كريسنزي سيصرف أموالاً ضخمة وسيرئس التحريات، وسيكتشف الاختطاف. لم يكن سوى طريقة واحدة لدفع هذا الخطر: إرسال الطفل إلى ادمبورغ مثلاً أو إلى باريس؛ ولكن هذا الحل لم يكن باستطاعة حنان الأم الموافقة عليه. الوسيلة الأخرى المقترحة من فابريس هي في الواقع الأكثر حكمة إنما تحمل طابع الشؤم وهي أشد رهبة: التظاهر بالمرض؛ ستتطوّر حالة الولد من سيء إلى أسوأ ويموت في غياب المركيز كريسنزي.

كان نفور كليليا يصل إلى حدود الهلع بسبب قطيعة بينهما، لم تصمد طويلاً. كانت كليليا تدّعي أنه لا يجب تجربة الله؛ وإن هذا الابن الحبيب جريمته، وإذا أثارا الغضب السماوي ثانية، لن يتأخر الله عن أخذه إليه. وحينئذ يأخذ فابريس بالتحدّث عن المصير الذي خصّه به القدر، ويقول لكليليا: حبّي لك يضطرني إلى عزلة دائمة. لا أتمكن مثل كثير من زملائي التنعّم بعذوبة العيش في مجتمع حميم، إذ تصرّين على عدم استقبالي إلاّ في الظلام، وهذا ما يختصر حياتي بلحظات قصيرة هي القسم الذي أقضيه حدّك.

وكانت دموع غزيرة مرضت كليليا؛ ولكنها كانت تحبّ فابريس كثيراً، لكي ترفض التضحية المرعبة التي يطلبها منها: «مرض» سندرينو ظاهراً، كما المتفق. وأسرع المركيز باستدعاء أشهر الأطباء وصادفت كليليا منذ تلك اللحظة ارتباكاً مخيفاً لم تكن توقعته؛ كان المطلوب منع الولد، من تناول الأدوية التي وصفها له الأطباء؛ إنها لم تكن مسألة تافهة.

استُبقيَ الولد في سريره مدة أطول مما يجب لشفائه، فأصبح مريضاً بالواقع. كيف أخبار الأطباء عن سبب هذا المرض؟ ممزقة بين مصلحتين متضاربتين غاليتين وعزيزتين على قلبها، كادت كليليا تفقد صوابها. أكان يجب أن تقبل بشفاء وهميّ، والتضحية هكذا بثمرة خدعةٍ بهذا القدر من الطول والمشقة؟

من ناحية أخرى، لم يكن فابريس يغفر لنفسه هذا العنف يمارسه على قلب حبيبته، ولا كان يتخلّى عن مشروعه. وجد طريقة للدخول كلّ ليلة إلى جانب الطفل المريض، مما نتج عنه تعقيد جديد. كانت المركيزة تأتي لتعتني بولدها. وكان فابريس مجبراً على أن يراها بين أنوار الشموع. وهذا ما كان يبدو خطيئة عظيمة على قلب كليليا المسكينة، تنذر بموت سندرينو. كان من العبث استشارة أعظم الكازوستيين (حلالي مشاكل الضمير) عن وجوب إطاعة النذر، إذ في حال اتمامه يحصل للغير ضرر أكيد. كانوا أجابوا: ليس بالامكان اعتباره بحكم الملغى، بطريقة مجرمة، طالما الشخص المرتبط بوعد أمام الله يمتنع عن المحافظة على نذره لا للذّة حواسه بل لكي لا يلحق بأحد ضرراً أكيداً. وكانت المركيزة يائسة، وفابريس عاش، لحظة، الفكرة الغريبة التي ستنتج عنها وفاة كليليا وولدها.

لجأ إلى صديقه الحميم، الكونت موسكا، مع كونه وزيراً عجوزاً، فعطف على قصة الغرام هذه، التي كان يجهل معظم تفاصيلها.

ـ سأوفر لكما غياب المركيز خمسة أو ستة أيام: متى تريدان هذا التغيّب؟

بعد مدة، أتى فابريس وقال للكونت أن كلّ شيء جاهز للاستفادة من غياب المركيز.

يومين بعد ذلك، بينما كان المركيز عائداً على ظهر جواده من إحدى أراضيه، في جوار مانتو، اختطفه أشرار تدفعهم رغبة الانتقام، دون أن يسيئوا معاملته. استغرق نزول نهر البو والقيام بالرحلة التي قام بها فابريس. بعد قضية جيليتي المعروفة، ثلاثة أيام. في اليوم الرابع وضع الخاطفون المركيز في جزيرة مهجورة بعد أن سلبوه كلّ ما معه، ولم يتركوا له مالاً ولا أية حاجة ذات قيمة. واستغرق المركيز يومين للعودة إلى قصره؛ فوجده مجللاً بالسواد والجميع محزونون.

هذا الاختطاف المنفّذ بكلّ دقة، كانت نتيجته خطيرة توفي سندرينو بعد أشهر، في بيت جميل فسيح، حيث كانت المركيزة تأتي لمشاهدته كلّ يوم. تخيلت كليليا بأنها عوقبت لنقضها نذرها للعذراء، إذ كانت رأت غالباً فابريس في النور، وشاهدته مرتين في النهار بفورات في منتهى الحنان، أثناء مرض سندرينو. لم تعش بعد وفاة هذا الابن العزيز سوى أشهر، ولكن أنعم عليها أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعي صديقها. كان فابريس مفرطاً في حبّه وإيمانه كي يلجأ إلى الانتحار. وكان يأمل أن يجتمع بكليليا في عالم أفضل، ولكنه كان يتمتع بإدراك كاف كي يشعر من المتوجب عليه أن يعوض كثيراً عن أعماله السيئة.

وقّع فابريس، بعد موت كليليا بأيام، عدة قرارات كان يؤمن بها معاش ألف فرنك لكلّ من خدمه، ويحتفظ لنفسه بمعاش مماثل، ووهب أراضي يقدّر إيرادها بمائة ألف ليرة تقريباً،

للكونتيسة موسكا، وأرضاً مماثلة للمركيزة دل دونغو والدته، وما تبقّى من ثروة والده، إلى إحدى شقيقتيه، غير الموفقة في زواجها؛ وفي اليوم التالي، بعد أن أرسل استقالته إلى من يعنيه الأمر، في الأسقفية ومن كل المراكز التي غمرته بها، على التوالي، حظوته لدى أرنست الخامس وصداقة رئيس الوزراء، اعتزل في «صومعة بارما»، الكائنة في الغابات المجاورة لنهر ألبو، على فرسخين من ساكا.

وافقت الكونتيسة موسكا، على أن يعود زوجها إلى الوزارة، ولكنها لم ترغب أبداً في أن توافق على العودة إلى مقاطعات أرنست الخامس. كانت تقيم في فنيانو، على ربع فرسخ من كازال مدجيوري على ضفة البو الشمالية، وبالتالي، في دولة النمسا.

كان الكونت شاد لها قصر فنيانو الفخم تستقبل فيه كلّ خميس المجتمع الراقي في بارما، وكلّ يوم أصدقاءها الكثر. لم يكن فابريس ليتأخر عن المجيء إلى فنيانو. وكانت الكونتيسة، تتمتع بكل مظاهر السعادة، ولكنها توفيت بُعَيْد وفاة فابريس الذي كانت تعبده، والذي لم يقضِ سوى سنة واحدة في الصومعة.

كانت سجون بارما فارغة، والكونت ضخم الثروة، وأرنست الخامس معبوداً من رعيّته التي كانت تشبّه حكومته بحكومات غراندوقات توسكانا.

وإلى مزيد من السعادة!

الملف

تعليق بياتريس ديدييه

ثمة آثار أدبيّة تبعث سروراً ثابتاً: «صومعة بارما». توفّر للقارىء جذل المطالعة الذي يحاكي تماماً حبور الكتابة الذي عرفه ستندال. إذا كانت الظروف المذهلة التي وضع فيها الكتاب، لم تعرف، فسيدرك القارىء الحماسة الخارقة التي أشرفت على إبداعه. ليس من رواية تسبّب مطالعتها انذهالاً أشد؛ وليس من نص أدبي يمكنه أن يرقى إلى هذا الحد من التناقض الأدبي: مغلق مفحم كامل، يكتفي بذاته، ويبدو طيلة وقت المطالعة يخلّص القارىء من وطأة الزمن والقدر. يشعر منذ البداية حتى النهاية بلذّة سرد المؤلف وحدها كما في كتب المغامرات الساحرة أو الروايات التشرديّة[1].

---

١ ـ كل ما له علاقة بالروايات أو المسرحيات التي تصوّر حياة المغامرين المتشردين (المترجم).

وستندال الذي كان يكره أن يتّبع عند الكتابة تصميماً مسبقاً، استُسلم بكليته إلى لذة ابتداع طريق رحلته أوّلاً بأول دون أن تقوده بديهته في طرقات مسدودة. والمطالع الذي يتتبعه، يبقى مفتوناً بهذه الحريّة الخلاقة.

هذه السعادة الفومساريّة[1] لهذه الرحلة المغامرة المحرِّرة بكمال نادر، استولدها ستندال من حجب قاس. وبقدر ما كان هذا القسر عنيفاً وشديداً كان التدفق الكتابي عنده أكثر حرية: اعتزال ضروري كي لا يحدث أيّ بطء أو توقف في اندفاع المؤلف للكتابة. سجيناً في شارع كومارتان، اعتزل ستندال العالم وكتبت أوجيني دي مونتيجو إلى والدها، في ١١ تشرين الثاني ١٨٣٨: «اختفى السيد بيل (. . .)، أمر بوابه أن يقول لكلّ من يسأل عنه، انه يصطاد». صيد سعيد! إنّه يؤلّف ويملي ويصحّح، منذ الرابع من تشرين الثاني؛ في الخامس عشر منه كان وضع ٢٧٠ صفحة من مخطوطته؛ وفي الثاني من كانون الأول ٦٤٠ صفحة: وانتهت الرواية يوم عيد الميلاد، عام ١٨٣٨.

كان حصل على فرصةٍ عام ١٨٣٨، بعد تركه وظيفته كقنصل في تشيفيتا فيكيا، وكان سعيداً جداً بعودته إلى فرنسا والحصول أخيراً على وقت يتفرغ فيه بكليته للكتابة. أعماله باتت تحوي على تجسيد مسبق لا واعٍ لروايته «صومعة بارما» إذ أنه يهتم «بحياة نابوليون» وأن «مجلة العالمين» تنشر سلسلة من «حوليات ايطالية» و«فيتوريا اكورامبوني، آل السنسي، دوقة دي بالّيانو، رئيسة دير كاسترو». كتبت رواية

١ ـ التي لها علاقة بالمسارة. والمسارة هي الاحتفالات التي كانت تقام لإيقاف عنصر جديد على بعض أسرار الديانات القديمة أو الجمعيات السرية الحديثة (المترجم).

«الصومعة» تماماً بين وضع القسم الأول والقسم الثاني من هذه القصة الأخيرة. وللسعي إلى شرح هذا العمل الخارق يمكن القول: ولدت «الصومعة» من تزاوج الملحمة النابوليونية وحولية ايطالية.

كان ستندال منذ ١٨٣٣ يطالع بشغف كبير مجموعة حوليات إيطالية عائدة إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكلّف من ينسخها له: هذه النسخة اغنيت بملاحظات على الهامش وضعها ستندال، موجودة في المكتبة الوطنية. بين هذه النصوص واحد، لفت الستنداليين: «أصل عظمة أسرة فارنيز». الملاحظات تتسلسل بين ١٧ آذار ١٨٣٤ و١٦ آب ١٨٣٨. فيها تاريخ الكسندر فارنيز. وكان بين عشاق عمته فندوزا فارنيز، الكاردينال روديريك الذي احتضنها في جلال. وألكسندر بعد شباب من الاضطراب المعروف بمغامرات وحادثة خطف، نجح في مهنته الكنسية نجاحاً باهراً منذ أصبح روديريك بابا. وما أصبح الكسندر بابا، حتى اتخذ عشيقة امرأة نبيلة اسمها كليريا واستولدها ولدين. ثم اعتزل في نهاية حياته وعاش حياة مثالية بدون أن يقطع علاقته بكليريا.

هذه التفاصيل ضرورية: فيها قصة رجل، مهنته ميسرة كل التيسير عن طريق علاقة عمته؛ ظلّ كليليا هو الآن حاضر مع اسم كليريا. وفي النهاية، حب فابريس والاعلان عن اعتزاله. إذا كان كل هذا يبدو هزيلاً بالنسبة للرواية التي نعرفها، فإثارة الخيال الستندالي لها ما يبررها، الحولية كانت تقدّم له ما كان يلزمه من العناصر الأساسـ الضرورية لموضوعية روايته: الطموح والارتقاء والتنسـ ووجودالمرأتين، الواحدة شبه أم والثانية أكثر فتوة، انجب منها و

هذه بنية «الأحمر والأسود» كما هي بنية «الصومعة». وملاحظات ستندال مفيدة، وخاصة: «معظم أسر النبلاء العظيمة أثرت عن طريق واحدة أو عدة عاهرات». ولكن في الاندفاع المطهّر «للصومعة» فقدت سنسفرينا بعضاً من صفة العهر المميّزة لطبعها، وهو ما كتبه المؤلف في ملاحظاته: «إن رسم ألكسندر المؤمثل، هذا الرجل السعيد، هو على ضريحه في كنيسة القديس بطرس. وضعه غيُّوم دي لا بورتا. أصبح الكسندر هو البابا بولس الثالث. حملت غفارة بولس الثالث زخارف طريفة جديرة به». كان العنصر الأول في شخصية فابريس، إذن السعادة وترك تأثيره في الرواية بكاملها. رواية موفقة لبطل موسوم بالسعادة (بينما تأثّر عدد كبير من الرومانسيين بسمة التعاسة) وضعها رجل يتذكّر هو نفسه سعادته السابقة، بعثتها فيه من جديد لذّة الكتابة ونرى أيضاً أهمية المصادر القابلة للتشكل استقى منها ستندال: ولدت «آل السنسي» من لقاء إحدى الحوليات وعدة رسوم لبياتريس وحماتها. وأخيراً يندهش ستندال من بساطة نموذجه الإيطالي: «حكاية مليئة بالحقيقة والسذاجة، كتبت باللهجة الإقليمية الرومانية». هذه الملاحظات متواترة على هوامش الحوليات الإيطالية. ولكن التأشيرة القيمة هي بالطبع: «لتحويل هذا السكتش إلى رواية ـ ١٦ آب ١٨٣٨». يعود تاريخها بالضبط إلى أصل مخطط «الصومعة» الذي مرّ من مرحلة الحولية إلى مرحلة الرواية الطويلة.

أعطت حولية أخرى لستندال بعض العناصر وهي: «عملية الانتقام التي ارتكبها الكاردينال الدوبرانديني على شخص جيرالومولونفو باردي»، وقد تكون أصل خطف فوستا. كان المؤلف

دوّن ملاحظة «للأخذ بها» ولكن يبدو أن ستندال روى أموراً وهمية ظنّها حقيقية على التصميم الذي كان بتصرفه وهو على قدر كبير من الجفاف. رومان كولومب نشر في «مراسلات» ستندال نبذة (يؤرخها كولومب عام ١٨٣٢ ولكن السيد مارتينو يجعلها تعود لعام ١٨٣٨ «حيث نجد عناصر جديدة سيجري استخدامها في «الصومعة». الأب بلانيس عقبه وقائع الشعوذة التي كان يحويها المخطوط الإيطالي؛ وستندال وجد فيه أمثولة سعادة وصدق وهو ذو قيمة، في عصر يسوده الرياء. وثمة بداية الرواية مع إقامات فندوزا عند شقيقته وحدث اللقاء في العربة حيث نتبين الاعلان الأول عن مقابلة مع كليليا. وفي نهاية الرواية، عاملان مهمان: السجن والهرب.

لا ندّعي أننا سنعطي القارىء لائحة كاملة عن مصادر «الصومعة» فهذا عمل لا نفع منه، ولكن بكل بساطة توضيح الدوافع الخلاقة. ولوحظ ان اسم «سنسفرينا» ورد في عدة حوليات، وأن ستندال كان طالع «مذكرات» بنيفينيتو تشيلّيني و«السجون» لسيلفيو بّليكو. مترنيخ وستندال نفسه استعملا شخصية موسكا. ولذكر واترلو وجب على ستندال أن يستند إلى حكايات كان سمعها، واختباراته الشخصية ومشاهداته لساحات المعركة في روسيا وبورودينو وبوتزن. أثبت فرانسوا ميشال بوضوح تام، كيف أن وفاة سندرينو، بدلاً من أن يكون مجرد تفصيل في خاتمة الرواية، مكنته من أن يوجهها بكاملها. كتب ستندال في إحدى مسودات رسالة إلى بلزاك يقول: «كتبت رواية» الصومعة، وأنا أتخيّل وفاة سندرينو. وهو حدث ترك في نفسي تأثيراً عميقاً». كانت كلمنتين كوريال، عشيقة ستندال، فقدت طفلاً في ظروف

مختلفة. وسيؤكد ستندال، مع هذا كله، على أحد هوامش مخطوطه «لامييل»: «كنت أفكر بموت سنديبنو، وهذا وحده جعلني أبدأ كتابة هذه الرواية». ولإدراك الأهمية التي يمكن أن تكون لهذا الطفل، يجب التذكر أن ستندال في نهاية «الأحمر والأسود» يشدّد على علاقة جوليان بالطفل الذي سيولد من صلبه.

إن مخطوطة «الصومعة» سلمت إلى رومان كولومب في ٢٦ كانون الأول ١٨٣٨. وتوجّه إلى امبرواز دوبون ناشر «مذكرات سائح». باع ملكية الكتاب لخمس سنوات بسعر قدره ألفان وخمسماية فرنك. بدأت الطباعة بسرعة وصحّح ستندال المسودات المطبعية بين ٦ شباط و٢٦ آذار ١٨٣٩. نشر «الدستوري» واقعة واترلو بتوقيع فريدريك ستندال في ١٧ آذار وجعل الناشر المؤلّف يوجز النهاية أو على الأقل لم يسمح له بأن يوسّعها كما كان يرغب. وظهر الكتاب في أوائل نيسان في مجلدين. وفي ٢٤ حزيران كان على ستندال أن يعود إلى تشيفيتا ـ فيكيا.

يجب افراز مكان على حدة، (بين مقالات الصحف المؤاتية) لمقالة بلزاك التي ظهرت في «المجلة الباريسية» في ٢٥ أيلول ١٨٤٠. كان بلزاك اعترف سابقاً في رسالة مؤرخة ٢٠ آذار ١٨٣٩. أن قصة واترلوا جعلته «يرتكب خطيئة الغيرة». وأنها موضوعة على نمط بورغونيون وفوفرمانس وسلفاتور روزا ووالتر سكوت». وفي رسالته المؤرخة ٥ نيسان ١٨٣٩ انه قرأ الرواية بكاملها. كتب بلزاك «ارسم جدرانية، وأنت نحت تماثيل ايطالية». وتلي، من ثم. بعض

الانتقادات: لم يكن من المتوجب تسمية بارما. ويقترح تطويل الذيل والحذف من الأذنين، أي اهمال المقاطع الطويلة، في الوسط، وتوسيع النهاية، ولكن الحماس شديد: «انها رائعة كـالإيطاليـة. ولو كـان مكيافيلي يكتب في أيامنا رواية، فستكون «الصومعة».

مقالة بلزاك طويلة، رغم احتوائها على أحداس مبتكرة ومعميات مزعجة. ولكن أليست هذه ميزة هؤلاء الجبابرة أمثال بلزاك وكلوديل، بأن تكون لهما أيضاً عبقرية عدم الفهم؟ بعدما ميّز بين تيارين: أدب الصور وأدب الأفكار، يصنّف بلزاك ستندال في هذه الفئة الأخيرة وهو تمييز عرضة للمناقشة، ولكنه يفسّر البساطة والايجاز في إنشاء ستندال. المقارنة بين السيدة سنسفرينا، والسيدة دي لينيول في «فاس فوبلاس» غريبة، ولكنها مفيدة؛ يدهش بلزاك الفن الفائق الـذي عرف ستندال أن يخلق، في بارماه الأسطورية، عملاً كافياً للسياسي موسكا. إن تفوق سنسفرينا على «فيدر» راسين أقلقه. ولكن حماسته لواقعة السجن معبّر عنها بصوة ممتازة ـ : «. . . كل ما أعرفه من خـارق في روايات الـرحلات والمسـاجين لا يمكن أن يشبـه سجن فابريس، في قلعة بارما». ولكن لم يفهم بلزاك معنى النهاية، كونه يعتبرها سـريعة جـدًّا. يقترح تغييـرات للبدايـة، تبدو لنـا انتهاك قدسيات: اهمال كلّ ما سبق واقعة واترلو! «ولن يفقد الكتاب شيئاً من اختفاء الأب بلانيس تماماً». بل يبدو لنا أنّ الخسارة ستكـون أساسية، باسم وحدة التأليف. ولانعدام إرادة التوسيع يفضل انهاء الرواية حين «يدخل الكونت والكونتيسة موسكا إلى بارما ويصبـح فابريس، رئيس أساقفة» متذرعاً بأن ملهاة البلاط انتهت. ولكن هذا

معناه رؤية ناحية واحدة للرواية، وعدم الإدراك أن هذه النهاية السعيدة ستلغي التأثير الجمالي لزهد فابريس النهائي بالعالم. بلزاك متضايق من تعددية المواضيع التي تسبّب عظمة «الصومعة» ومن تعدّدية أشخاص الصف الأول: فابريس وموسكا وسنسفرينا. وأخيراً للومه، وجّه إليه أفضل مديح للنهاية: «هذه النهاية التي تبدأ كتاباً». لا يمكن للقارىء أن يكظم غيظه عندما يرى بلزاك يجد المشاهد «على شيء من الجفاف» أو «أن الناحية الضعيفة، في هذا العمل الأدبي، هي الأسلوب». ومدائح النهاية لا تمنع بلزاك من اعتماد لهجة المربّي الفظ الذي يصدر حكماً: كان باستطاعة الطالب ستندال أن يعطي إنتاجاً أفضل «أتمنى على السيد بيل، أن يعيد مباشرة تنقيح «صومعة بارما وصقلها».

المدهش في الأمر، أن ستندال أخذ بالنصيحة؛ وأثارته المدائح، لدينا ثلاث مسودات عن جوابه. يرتجف القارىء عندما يقرأ في الأولى: «انتهيت من ايجاز ال ٥٤ صفحة من المجلد الأول في ٤ أو ٥ صفحات». ولكن ستندال يدافع عن نفسه من ناحية الأسلوب: أراد أن يكتب لقراء ١٨٨٠، لا في أسلوب «مهذب، سيّال، لا يخبر شيئاً عن ١٨٤٠». باشر ستندال، قبل أن يتلقى مقالة بلزاك، تنقيحات على نسخة «الصومعة» التي كانت معه في تشيفيتا - فيكيا. وصلته مقالة بلزاك إلى روما في ١٥ كانون الأول. وذكرنا في الملاحظات بعض المقاطع المختلفة. الأكثر تعبيراً في نسخة شابير: ولكن هنا، أكثر منه في أعماله الأدبيّة الأخرى، لم يكن موفّقاً في التنقيحات التي أجراها، ولا يعقل اعتبار هذه المآخذ لوضع طبعة جديدة. الحل

الوحيد الممكن: تقديم النص الأصلي كما كتبه المؤلّف دفعة واحدة.

حذف ستندال بداية الرواية بكاملها مدفوعاً برغبته في تنقيح كتابه، وانه من ناحية أخرى سيجدّدها. كتب بداية جديدة بوصول فابريس إلى باريس. النصوص الأخرى التي لها علاقة بالتغيير، لهـ .ية فضولية فلا يرى القارىء ما كان بإمكانها أن تحسّن النسخة الـ . وستندال شعر بعدم فاعلية العناء في ٩ شباط ١٨٤١، فـ عن مشروعه «احتراماً للوحة ميلانو الحنون عام ١٧٩٦ ولمزاج السيدة بيترانيرا». وهذا ما يشير إلى أحد مصادر شخصية سنسفرينا. ولكن سريعاً ما يفضل الإضافة على الحذف، وهذه التنقيحات ستدوم حتى وفاته: تاريخ آخر ملاحظة هو ٨ تشرين الثاني ١٨٤٢. أجرى ستندال تنقيحات، في الاتجاه المعاكس تماماً لما كان يطلبه بلزاك إذ لا شيء يمكنه السير عكس ميل الكاتب العميق. كتب جان بريفوست: «عوضاً أن يحذف ما كان بلزاك يشير بأنه غير نافع، أضاف ستندال المصحح بعض النوافل الجديدة، على النص الأول». وبما يختص بتصحيحات التفاصيل، تبقى مثيرة للاهتمام أحياناً. لكنها، مع ذلك، لم تأت بتحسين حقيقي. «عندما يرتجل ستندال نصه، يرى فيه الفكرة. وعندما ينقحه لا يعود يرى غير الحرف».

«الحظوظ الموفورة» التي لها علاقة بـ «صومعة بارما» لم تتوقف عن التكاثر: استدلالاً بالعودة إلى عدد الطبعات الحديثة، تضاف إليها الدراسات الرائعة. من ناحية أخرى يحتمل الأثر تنوعاً كبيراً في طرائق التعبير. كتب هنري سوغي «أوبرا» حول هذا الموضوع (١٩٣٩)، وقد استُخرج من الرواية فيلم (١٩٤٨) إضافة إلى التلفزيون يهتمّ

بها. إن مشكلة الأمانة لا تطرح كما اعتقد ما دام الأمر لا يتعلق بنقل الأثر الأدبي، انما بخلق آثار جديدة. أما بما يختص بالأثر الأدبي نفسه. فلا وجود له خارج نص ستندال الوحيد بكامله.

إن رواية «صومعة بارما» هي رواية التعددية. فيها عدة روايات تتعايش معاً وتتساعد للاغناء المتبادل. ربما هي نزعة من القرن التاسع عشر لاهمال البعد التاريخي والمعنى الثوري للرواية. مع أن ستندال اهتم بوضع روايته في إطار محدّد شديد الدقة. ويمكن القول انه أكثر بكثير من اطار محدّد.

عندما اتكلم على إطار، فلا يخطر ببالي اعتبار «بارما» مدينة حقيقية. فهذا الأمر ثانوي، ولكان فضل بلزاك أن لا يذكر اسم المدينة لكي تبقى فقط «المدينة». وأن يكون رانوس أميرها. يجيب ستندال عن هذا: «اقتُدت باليد نحو سلالة منقرضة، إلى أحد آل فارنيز الأقل خمول ذكر بين هؤلاء المنقرضين». ومن الواضح أن ستندال لم يكن يعني مدينة بارما، وهنا أيضاً توضح موضوع مسودات أجوبته إلى بلزاك: «شعرت تماماً، يا سيدي، بحاسة رجل أدرك أنه لم يكن بمقدور «الصومعة» أن تهاجم رجل دولة كبيرة كفرنسا واسبانيا وفيينا، بسبب التفاصيل الادارية، فلم يبق سوى الأمراء الصغار في ألمانيا وايطاليا». ولكن، في مثل هذه الحال لماذا «بارما» لا «مودين» مثلاً؟ ستندال لم يكن يعرف «بارما» جيّداً. مرّ بها سبع مرات بين ١٨١١ و١٨٢٤، بدون أن يتوقف فيها، وفي أيّة حال، يبدو أن المرة الأخيرة كانت في ٢٢ شباط ١٨٢٤، قبل عشرين سنة على تأليف

«الصومعة». ولكنني أعتقد أن جهل بارما هذا، كان سبباً حاسماً في خيار ستندال إذا يتمكن الخيال أن يتيه بكل حريّة حول عنوان تكمن قيمته في موسيقاه خاصة: فتنضم للاسم الايطالي وتردد صداه، في الوقت نفسه بفضل «الصومعة»، وربما إشارة بعيدة إلى الدوفينيه، مرتع صباه.

يكتسب المكان، لمجرد اختياره، خليطاً من واقعية ووهمية كل الأمكنة الستندالية. رسم الكاتب تصميماً لكتابه مدفوعاً باهتمامه بالدقة، كما وضع رسوماً في «حياة هنري برولار» أو على هامش «سيودا سكولاستيكا» (واحدة من حولياته الايطالية) ولكن هذه الطوبوغرافيا مختلفة تمام الاختلاف عن بارما الحقيقية. قيل إنّ فابريس لا يستطيع من أعلى قلعته تأمل هذا الأفق الفسيح من تريفيز إلى جبل فيزو سلسلة الألب التي على قدر من الامتداد، وشعاف الجبال المغطاة بالثلوج» (هذا ينطبق على شمالي شرقي بارما) ومن ناحية أخرى التأمل ببلنوراما غريبة إلى الغرب: غسق أحمر ليموني يرسم تماماً جوانب جبل فيزو وباقي جوانب شعاف الألب المتصاعدة من نيس. باتجاه جبل سنيس وتورينو». ولكن لا برج فارنيز في بارما، لأنه وهمي ويتمتع بهذا المنظر الفوطبيعي. أما «الصومعة» فثمة اثنتان في جوار بارما ولا في فيليجا حيث يجعل ستندال موقعها. الصومعة التي أمكنه أن يراها في بارما محوّلة إلى ثكنة، مع أنها خربة، وكان بإمكانها أن تكون نقطة انطلاق للمخيّلة؛ وكان لأبرا فانيل ملء الحق بأن يفكّر أن لمثل هذا المعزل شبيه بصومعة غرينوبل الكبيرة التي كانت لستندال، كما لسينانكور أو جورج صاند، صورة العزلة الكاملة. كان

ستندال، عام ١٨٣٥ لا يزال متأثراً جدًّا وهو يروي في «حياة هنري برولار» ذكر الهزة الانفعالية التي شعر بها لدى زيارته، قبل خمسة وثلاثين عاماً.

من ناحية أخرى الحياة السياسية لم تعرف أبداً التعقيد في بارما، ولا المدى الذي يفترضه لها ستندال كي تبلغ أقصى مداها. ولطموح فابريس ولهوى سنسفرينا. بعكس ما فعله للحوليات، حذف المدى الزمني أو على الأقل خفضه كثيراً. كما في رواية «الأحمر والأسود» تجري أحداث «الصومعة» في عهد معاصر وهكذا يمكن ستندال أن يفتتح روايته عن الملحمة النابوليونية؛ ويستبدل البعد الزمني بالبعد الفضائي مما يسمح له باغتراب كامل؛ ايطاليا التي حلم بها ستندال، مختلفة عن فرنسا ١٨٣٨ كاختلاف هذه الأخيرة في القرون الوسطى عنها في القرن التاسع عشر. ولا تزال بارما تعرف الأهواء والمؤامرات، من طبيعة « آل السنسي» أو «رئيسة دير كاسترو»، ولكن كما يوحي من جوانب ستندال إلى بلزاك: إذا كان يستحيل أن يجعل مسرح الأحداث ايطاليا أو النمسا، فإنه لم يقلع من أجل هذا عن أن يرفض نظام السلطة بنقد ذي طابع عام. لذا، أراد ستندال أن يضع روايته تحت راية التاريخ ولكنه تاريخ أسطوري وعائلي.

من المعروف أن ستندال بعودته إلى عام ١٧٩٦، يأخذ بطله من أصوله الجسمية والعقلية معاً. وبايحائه لنا أن الملازم روبير كان والد فابريس دل دونغو، كان الروائي يهدف أن يجعل من بطله واحداً من أولئك الادعياء المدهشين في الأدب يستمدون من شذوذ ولادتهم سمة ثابتة من الحرية والتصرف حسب هوى النفس: ظرف عقلي

وصوفي. إنه يقع في منتصف الطريق بين لانسلو والبطل الجيدي. هذا الإدعاء يربط فابريس بعصر «التنوير» وبالينابيع الروحية لستندال ذاته. فبينما يكن الأب الشرعي، المركيز دل دونغو كرهاً ناشطاً لعصر التنوير، كان يقول: هذه هي الأفكار التي أضاعت إيطاليا»، ينتمي الملازم روبير إلى هذه الجيوش التي ستنتشر في أوروبا، عبادة الفلاسفة وفولتير والانسيكلوبيديا. في ١٥ أيار ١٧٩٦، تنبه شعب بكامله إن كل ما احترمه حتئذٍ، كان مضحكاً إلى أقصى درجة وكريهاً بعض المرات.

يمكن تفسير جانب بكامله من طباع فابريس بهذه الاستحالة أن يعثر على أب. محبته لنابوليون وجه من وجوه هذا النقص. إذا ذهب إلى واترلو فلكي يحقق مواجهة رجولية مع الأب، مما سيتيح له أن يصبح رجلاً إلّا أنه فشل مضاعفاً. يشك إذا كان حقاً شارك في المعركة ومرّ بجانب أبيه الحقيقي، بدون أن يشعر: الجنرال الذي كان يتبعه «لم يكن غير الكونت أ. . . الملازم روبير في ١٥ أيار ١٧٩٦ أية سعادة كان وجد في لقاء فابريس دل دونغو!» ذهب الجنرال مسرعاً على الجواد الّذي سرقه رجاله من فابريس ليس لأن الأب لم يعرف ابنه، ولكن هذا الأخير حرم من القوة الّتي يرمز إليها الجواد: الخصي. لم يبق أمامه عندئذ سوى العودة إلى حضن الأم: الملجأ والسجن في الوقت نفسه، ويرمز إليه هنا عربة البائعة: «ما أصبح بطلنا في العربة حتى غفا غفوة عميقة مرهقاً بالتعب» هذه العودة إلى الاصول تسبّب استرخاء وراحة ما قبل الولادة. بعد قليل سيكون هذا الملجأ الأموم ، في شخص صاحبة النزل، ذات القلب الحنون الذي

ستقدمه له بإنقاذه مرتين من الموت: «انقذت حياتي مرّة في السابق عندما استقبلتني لحظة كدت أسقط ميتاً في الشارع، انقذيها مرة ثانية بتوفيرك لي سبل العودة إلى والدتي». هذا الفندق واحد من أشكال السجن السعيد، في هذه الرواية، حيث يعود هذا الموضوع بطريقة شبه مستمرة. «كان يقول، أن لديه شبه رغبة في البقاء: أيّ مكان سأجد فيه راحتي أفضل من هذا المكان؟» جميع السجون الستندالية تقدّم تقريباً للبطل هذه السعادة الامومّية لذا يترددون دائماً في تركها بقدر ما هو شاق تمزق ونفي الولادة. سيكون فابريس، من الولادة حتى الموت عاش تحت حماية المرأة الرمزية دون أن يتمكن من التوصّل إلى نسيان رائحة المرأة التي أسعدت أيام مراهقته عندما كان يعيش قرب إحدى البحيرات محاطاً بأمه وعمته وأختيه.

يمتاز فابريس بهذه السذاجة الأخّاذة لدى لانسلو وجيل بلاس وكانديد، تسمح لهم بأن يحيوا مغامرة الوجود كاملة. هذه البراءةحساسة خاصة لدى استعمال فابريس المال. بينما جوليان لا يملك شيئاً من المال، يعرف كيف يستعمله، بينما فابريس يبذره لأنه يملك الكثير منه: تارة لا يبدي أية مقاومة لأن يُسرق وأخرى يجرح المحسن إليه لفرط كرمه. أكثر ستندال في واقعة واترلو من أمثلة أخطائه هذه. هتفت البائعة: «إن مرآه يثير الشفقة! (...) الصغير المسكين لا يعرف قط كيف يصرف ماله!» وتنشأ معادلة بين حدث عدم معرفة استعمال المال والشباب المتناهي، وطبع الضعف، وعدم الانجاز وعدم الرجولية التي من صفات المراهقة. تبرّر البائعة، هكّذا، الحماية الّتي تفرضها على فابريس «ما يصبح بعيدا عنا، حتى

يتعرّض للسرقة من الجميع». وغالباً ما يساء الظن بتبذيره. عندما يطلب من الجنود خبزاً لقاء دراهم: «عجباً! هذا يعتقد أننا بائعو خبز!» وعند يصرّ على دفع ثمن وجبة الطعام التي صادرها من أحد المزارعين له ولرفاقه، «اغتاظوا بعنف، ومنذ ذلك الحين تهيأت مبارزة في عقولهم لنهاية النهار». لا يصلح: «كان يردّد غالباً وهو مريض، إنه سيدفع جيّداً، وهذا ما كان يجرح شعور صاحبة النزل وبناتها». في لحظة الرحيل سيلحف في الطلب إليهم لقبول نابوليوناته، عبثاً. مع أن الدراهم هي التي تسمح لفابريس بأن يدفع ثمن مشروب رفاقه وأن يكسب صداقتهم. «جميع الأعين نظرت إليه بعطف.» هذا الاتصال المفاجىء يستخف بفابريس الفرح: «وأخيراً حسنت صلاته برفاقه: نشأت صلة بينهم، تنهد فابريس، وبصوت حرّ قال للرقيب: (. . .)» اصطنع المال أعجوبة النظرة والكلمة هذه. حرّر المال فابريس أيضاً، بعد أن سجّله الضابط الألماني على لائحته. «إذا كان مال في ضولتي! صاح فابريس وهو ينهض من سريره؛ اشتروا لي ثياب بورجوازي، وهذه الليلة سأمتطي جوادي؟ ماسات والدته ساعدته للعودة إليها. تأثير هذا المال له ميزة مختلفة تماماً في «الصومعة» عنه في «الأحمر والأسود»: الإذلال الذي يسبّبه في «الصومعة» عرضي وبدون تأثير ضاغط، أما في «الأحمر والأسود» فإنه يضايق جدّاً بصفته عنصر استقرار اجتماعي؛ إنه المال البورجوازي والملكية العقارية: المال الجامد. يرتكز الفن، كل الفن، ضرورياً للسيد رينال وللجوليان لو كان معه أن يحتفظا به. النقد في «الصومعة» بالعكس، متداول من يد إلى يد بسرعة مدهشة، من الجندي إلى

البـائعة، ومن الـدوقـة إلى ابن أخيهـا: إن مـال البـروليتـاريـا أو الأرسطقراطيين الذين لا يتمسكون به البتة، هو عندهم سبيل تبادل واتصال: بنتا غرولية رابليه أو «فلس الحلم» لمارغريت يورسنار. وهنا واحد من أسرار هذا المرح في «الصومعة».

هذا الانكار لقيمة المال، دلالة على صعوبة استقـرار في النظام الاجتمـاعي، والوصـول إلى سن البلوغ، وتقمص نفسيـة والـده. التبديلات المختلفة التي طرأت على اسم فابريس وهويته ترتبط بعدم شرعية ولادته. طرأت هذه التحولات في سن المراهقة التي تتوافق مع بداية الرواية. رحل عن قصره الأبوي وهو يحمل مستندات مزوّرة، وبات يدعى فازي، عمله: بائع بارومتـرات ـ اختراع عجيب في 'ستبعاديته، خلق للنساء اللواتي سيتولين حمايته. ولكن في الطريق سلمته السجانة خط سير لرجل اسمه بولو لقي متاعب جمّة: «كان يقول في نفسه، يجب أن أتذكر جيّداً أنني أدعـى بولو أو الويل من السجن الّذي يهددني به القدر.» هذا التبديل في الهوية جعل فابريس يتعرّض لخطر بطلان مغامرة واترلـو بكاملهـا. هل شـارك حقّاً في الواقعة؟ «حضرتها، مع هذا، وأنا أحمل اسم سجين، كان معي خط سير سجين في جيبي، وأكثر من هذا، ارتدي بدلته!» سيتنكر في ما بعد، بثياب بورجوازي ليرحل عن الفندق. لدى عودته إلى إيطاليا، أعلمته الكونتيسة أن عليه الوصول إلى لوغانو «باسم كافي Cavi» من لوغانو إلى بحيرة كوم، يتنكر في بدلة صيّاد أو مهرّب، مع رفاقه. ولكي يجد البيت الأمومي، سيلاحظ طريقة دخول فابريس إلى القصر «من نافذة قبو المؤونة». إن وحدة الاسم الأبوي المرتبطة بالنظام،

تقابلها تعدّدية الهويات النزوية التي تمنحها له النساء.

سذاجة وهوية متبدلتان تسهمان في تكوين المزاج الّذي لفابريس المراهق. يعيش بالقرب من بحيرته كما لانسلو في غابة بروسيلياند. لم يكن لانسلو يرى الخنجر والكأس المقدسة عندما كانا يمرّان أمام عينيه، بالعماوة التي كانت تمنع فابريس أن يتعرف إلى والده أو إلى الأمبراطور. الانطباع العام في «الصومعة» مدين جدّاً لوجود الأب بلانيس: كيف أمكن لبلزاك أن يطلب إلغاء شخصيته؟ بينما فشل فابريس في إيجاد أب له، كان للكاهن بلانيس أن أحلّ نفسه محل هذا الأب، إذ توطدت بينهما بنوّة متولدة من بساطتهما المشتركة: «كان يحب هذا الولد لسذاجته»، ووعده بالوصول إلى عالم الرجولة، ولكن بطريقة وهمية واسطورية ليست طريقة العالم الواقعي. كان يقول له: «إذا لم تصبح خبيثاً فستصبح رجلاً» كلفه المركيز دل دونغو بأن يعلّم فابريس اللاتينية. وإن الاب نيس، والحالة هذه يرفض الاشارة اللغوية: فكان يقول لفابريس: «ماذا أضفت إلى معرفتي عن الجواد، منذ علمت اسمه باللغة اللاتينية»؟ ليفضّل عليها شبكة من الاشارات ذات الطابع الأكثر سريّة: التنبؤات. يضع نفسه دفعه واحدة في عالم قبمنطقي وقبلغوي، إذاً بدائي أصلاً حسب تعبير روسويّ يستعمله ستندال. إنه مرتبط أيضاً بموضوعية البرج والماء بينما تنبؤاته تعدل من تناسق الرواية. من الضروري لطفولة فابريس، هذا المجوسي، الغريب الأطوار لا يبارح ذكره أبداً مخيلة البطل.

إن «الصومعة» سرد مسارات متتالية لشخص يفترض في البداية

بكراً، كما في جميع القصص الوهمية أو السحرية. إنه يتعرف إلى الرحلة، إلى الحرب إلى الموت: من هنا أن البائعة تجيره بكل حنان وتلجأ إلى حسّ الكرامة عنده، إذ كاد يغمى عليه عندما شاهد جثة مشوهة. إن المسَّارة الغراميّة، تتمّ تحت شعار الثنائية العزيزة على قلب ستندال. والرسم البياني فابريس ـ لا سنسفرينا ـ كليليا تنسخ ما في «الأحمر والأسود»: جوليان ـ السيدة رينال ـ ماتيلد. ويبدو أيضاً، أن لدينا هنا معطى هاماً للخيال الستندالي، ولا يمكن أن يتعلّق الأمر برغبة في التحديث أو حتى في الريادة كما تدخل في روعنا ملاحظة لستندال. فالروايات التي فيها عدة أبطال من النساء، عديدة، ومع ذلك، قصص ستندال تنظم دائماً هذه الثنائية، بحسب منهج محدّد بدقّة: المرأة الأولى أمومية، ولكن الثانية، الأكثر شباباً، هي الّتي ستكون الأم. البطل يحلم في أعماق ذاته، والمرأتان تجدان نفسيهما مجتمعتين، عندما يكون هو في السجن وتقرران وجوب استخدام كلّ وسيلة ممكنة لإنقاذه. وفي هذه المواقف، فابريس أو جوليان سلبيان حتى أن المرأتين وحدهما تنظّمان العملية. تختفي المنافسة بينهما لأنه عاد واتخذ دور طفل ضعيف يحيط به الخطر: في مثل هذا التوازن المصطنع، يجد البطل نفسه سعيداً، ويقرّر حرمان نفسه من الحريّة. ليست المتماثلات في «صومعة بارما» و«الأحمر والأسود» مطلقة. فابريس لا يحب جينا كما يحب جوليان السيدة دة رينال. لا يرتاب بحبّ عمته ولا يشك بقسوته الشخصية نحوها. ويجد من الطبيعي تماماً أن يقوم موسكا بكل شيء من أجل مهنته: أعاد فابريس موسكا وجينا بمنهجية تامة إلى تمثيل دور الأب والأم، قدر ما يجد هذا

الشخص صعوبة للخروج من المراهقة.

وستكون أطول مسارة. لتكوين هذا الطفل سياسياً وهو يتقدّم بلا صعوبة وبدون فشل، مع فارق في المغامرة الغرامية. سيتساءلون طويلاً عن استمرارية هذا الحلم الاكليريكي عند ستندال. فابريس وجوليان يتّجهان إلى السلك الكهنوتي بدافع من طموحهما وحده؛ ولكن كان في عام ١٨٢٠، سبل أخرى للنجاح، حتى لبروليتاري مثل جوليان، وبالأحرى لفابريس، الّذي، بمزج ستندال للعصور، ينظر إلى الحالة كما لو كان عاش في القرون الوسطى. أيجب أن نرى في هذا الأمر انتقام المؤلف من الاكليروس؟ العالم الاكليريكي الّذي يعلن بدقة وقوة عن جميع عيوبه يفتنه، كما كان يكدره ويضايقه الأب رايان في فترة صباه. تشرف جدلية كاملة للسر والكشف عنه على حياة الكاهن، في غرامياته كما في طموحاته. فالاكليريكي الستندالي هو عدة كائنات معاً، وهذا ما يثير اهتمام الروائي المنجذب «بمشاكل الشخصية» وهنا نعير استعمال العبارة الّتي سبق واستعملها جورج بلن، إنه في سجن أكثر مرونة من سجون دير سيورا سكولاستيكا أو هيلين دي كاسترو ولكنها تشترك بنفس بالموضوعية نفسها: دائماً على وشك الخروج أو الهروب منها. من ناحية موقعه، هو سجين على طريق الهروب، وهذه هي اللحظة المفضلة عند البطل الستندالي. وتقدّم الكنيسة من ناحية أخرى، مكاناً ممتازاً لتمرين إرادة القوة، الطاقة الغالية على قلب فابريس وجوليان، والحميّة العفويّة تنتصر عند فابريس على احترام الارادة المتعقل أكثر منه عند جوليان. التنسيق يفتن ستندال: إنه يصل إلى جوهره، إذا تمكّن من أن يتمرّس في باحة

على أكليريكيين، وفي إيطاليا. جمع ستندال في «الصومعة» الشروط الثلاثة. حتى أن دسائس جوليان تبدو تافهة النطاق بجانب دسائس فابريس.

آخر مسارة هي مسارة التنسك التي جهّزها في السابق فقدان أوهامه تدريجياً. تضيف «الصومعة» إلى هذا الموضوع الرومنسي «الأوهام المفقودة» بدائل مختلفة تحددها تماماً. تربية فابريس السياسية هي مرحلة. أن الدوقة تعطيه أمثولة في الوصولية: «آمن أو لا تؤمن بما سيعلمونك، ولكن لا تعترض أبداً» تبدو الحالة الاكليريكية لفابريس كتنازل أول عن المثال الأعلى: «كان فابريس يقول وهو يتنهد بعمق: «انهارت جميع أوهامي»»، إنهار مجرى الحياة اللامع الذي سبق وكوّنه لنفسه، بعد وفاة سندرينو وكليليا «بعد أن قدّم استقالته إلى من يهمه الأمر من الأسقفية ومن جميع المناصب التي غمره بها فضل أرنست الخامس على التوالي وصداقة رئيس الوزراء ـ اعتزل في صومعة بارما». هذا الاعتزال شكل من أشكال الانتحار المسيحي. ولم يقضِ فابريس فيها سوى سنة واحدة... تجب الملاحظة هنا استمرارية نفس الموضوعية نفسها: في «الأحمر والأسود» جوليان أيضاً برفضه الهروب أو الاستئناف، يستسلم للموت بسهولة تذهل. لأن الأبطال الستنداليين عاشوا بشدة، يعرفون الاسقاطات في النشاط بحيث تبدو الحياة لا تستحق أن تعاش. لا يغرهم تفخيم أو حماسة الانتحارات الرومنسية: يستسلمون للموت بكل بساطة.

تنتظم مشاهد «الصومعة» على محورين: عمودية التبرج وافقية

البحيرة. أشير إلى هذين البعدين منذ البداية بفضل قبة الأب بلانيس وبحيرة كوم، بقد ما هو صحيح بأن الطفولة تعطي الأنطباع العام إلى الوجود يستطيع الأب بلانيس أن يراقب كل السماء والاشراق على كلّ الريف المجاور بفضل قبته: «بواسطة الخوف الذي ت حي به المراحل يقضيها في القبة، كان يمنع المزارعين من السرقة» كان أمر صعود فابريس إلى القبة خطوة حضّرته لفترة تقشف: «..ان يقضي أحياناً أمسيات بكاملها يقوم بعمليات جمع وضرب ضخمة. ثم كان يصعد إلى القبة: وكانت هذه خطوة كبرى لم يمنحها الأب بلانيس لأحد أبداً» عندما يجازف ويذهب إلى شاطىء البحيرة، فالقبة تحميه، وقبل الابحار يلجأ دائماً إلى النبوءات علمه إياها الأب بلانيس. وقبالة القبة التي ترمز إلى المبادرة الرجولية، تمثل البحيرة الحقل الأنثوي لأنّها مائية. ترتبط جينا جوهرياً بالبحيرة: تذكر النزهة التي كادت تنقلب إلى مأساة بالعاصفة التي عرفتها جولي وسان ـ برو على بحيرة جنيف؛ ولكنها هنا ليست مفجعة، إذ عواطف جينا تبقى مضمرة ولفابريس عذوبة ولا شعور الطفولة. بعد ذلك بكثير، في الرواية، العمة الشابة وابن الأخ يعاودان شرودهما «البحري»، إنما خاب أمل سنسفرينا خيبة كبرى: كانا يقضيان «بعض المرّات أربع أو خمس ساعات يتنزهان على البحيرة معاً، دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

برج فارنيز، كعودة قبة الأب بلانيس: لأنها تمثل العمودية ذاتها، فالأب بلانيس سبق وتنبأ بأن فابريس سيسجن؛ ولكن البرج محل الوحي أكثر مما كانت القبة. عموديتها ذكرت بطريقة بارزة. أقيم هذا البرج الثاني على سطح البرج الكبير. وقد وسم بالسريّة منذ تصوره:

«استئاء الأمير من زوجته، فطلب بناء هذا السجن الّذي يُرى من كلّ الجهات، وطمح أن يقنع رعاياه بأنه كان موجوداً منذ سنوات عديدة: ولهذا فرض عليه أن يحمل اسم برج فارنيز. وكان التحدث ممنوعاً على هذا البناء». كما لو أنه أريد التأكيد على علوه الداخلي، فدرجات السلم لا تقسم حقيقة الفضاء: سلم صغير من الحديد، خفيف جدّاً يبلّغ بالكاد القدمين عرضاً، مشاد من فتائل معدنية». يجب استعمال الخط ذاته للوصول إلى الطابق الثاني؛ والقارىء الّذي يعتمد وجهة نظر فابريس يكتشف طريقة البناء الداخلي أولاً بأول مع تسلّق البطل: هذا اللولب الخفيف حول العمود مرتكز البرج: جذر. كلّ موضوعية السجن العادية فيه: قضبان حديد، أبواب، ردهات ظلام وحتى جراذين. ولكن مأسوية الحالة، تزول فوراً. يلهو فابريس كثيراً في ملاحقة الجرذان وصيدها؛ والبرج مطل رائع: المشهد على قدر كبير من الجمال والامتداد الأفقي فسيح ومريح جدّاً. ويعادل بذلك عمودية السجن، حتى أن فابريس وجد نفسه مبتهجاً «ولكن هل هذا سجن؟ أهذا ما طالما خشيته»؟ كان فابريس يتساءل السؤال نفسه في واترلو: أهذه حقاً معركة؟ إن موهبة سذاجته واندهاشه باستمرار تقوده إلى التساؤل عن أسلوب الكلام ذاته: أيّ تطابق يمكن بين اختبار تجربته وهذه الكلمات الجاهزة، المرعبة والمثيرة الموروثة عن المجتمع: سجن. معركة؟ طرحت الاصطلاحات اللغوية ثانية للبحث.

وكما الأب بلانيس كان يعلم من أعلى قبته تأويل معاني التنبؤات، كذلك فابريس، من أعلى برج فارنيز سيكتسب فن الاشارات الغرامية. ركيزة هذه اللّغة، ليست الكلام، ولكن النظر. الثغرة الّتي

فتحها فابريس في تعاريج النافذة ستفسح أمامه لأن «يَرى ويُرى، أي أن يتكلم.» والحالة هذه، عدم خبرة فابريس لا تسمح له فوراً بأن يعطي للإشارة كامل قيمتها. إن الاهتمام المتحمس الّذي يحمله لهذه الاشارات، يقوده إلى الشك: «لو أن فابريس لم يحبها بهذا القدر، لكان أدرك أنه محبوب» ثمَّ بعد ذلك «كان فابريس يشك بأنه محبوب؟ لو كان له بعض الخبرة في الحب، لما كان بقي عنده شكوك».

هروب فابريس مفارقة، استوجبه الدفع الروائي ودينامية الموقف بحد ذاته. هذا ما كان يعبّر عنه الأب بلانيس، بمثل سائر مليء بالحكمة إذا لم يكن بالعبرة: «الحبيب يفكر بالوصول إلى عشيقته أكثر مما الزوج بالاحتفاظ بزوجته، والسجين يفكر بالهرب أكثر مما السجان بإغلاق باب سجنه، إذ مهما كانت الحواجز، يجب أن ينجح العاشق والسجين. الهروب هو في منطق السجن، ولكن فابريس يخشاه كونه انتهاء للإشارات. أن التهديد بالسم سيجعل مشروع الهرب والاتصال الغرامي يتقدمان معاً: منذ تلك اللحظة يعود التُعبير اللّغوي، ولكن أوّلاً بشكل غنائي على نمط الأوبرا الايطالية الذي يفضّله ستندال، ومن ناحية فابريس، مكتوبة بقطعة فحم. كلمة مستبدلة، محتفظة ببعد معيّن. يكتشف فابريس، ثانية، التعبير ويجد لذة كبرى بتأليف حروف من صفحات شحيمتة.

تنتظم شبكة غريبة من الإشارات، حول السجين، صادرة جميعها من أمكنة مرتفعة تتطابق مع ارتفاع السجين نفسه. يتلقى فابريس من قمة برج فارنيز، إشارات من كليليا في مطيرتها (وهي أكثر هوائية

أيضاً بإخفاء هذا القدر من الطيور)، ولكن أيضاً ـ إنه يلزم وقت أطول لإدراك هذا الأمر ـ من جينا الّتي ترسل إليه إشارات منيرة «من أعلى أحد الأبراج». هكذا يعمل اصطلاحان للرموز، الواحد نهاري مع كليليا والآخر ليلي مع جينا. يجب اجتماع إرادتي المرأتين كي يقرر فابريس تحمّل هربه. لم يوجد سجين خامل مثله، في الاستعدادات على الأقل، وما أن يأزف الموعد حتى ينفّذ دوره بأفضل طريقة. فهو أول المدهوشين من التقدم الّذي أحرزه أثناء أسره: «كم أنا متبدّل، قال في نفسه، عن فابريس الخفيف والفاجر الّذي دخل هذا المكان منذ تسعة أشهر!» زمن السجن في غرفة «الطاعة السلبية» كانت فترة حمل أساسية.

ثمة نوع آخر من السجن، في نهاية الرواية وغريب جداً عن كليليا (وبالتالي عن سجن فابريس) بنذرها ألّا ترى عشيقها أبداً: وهكذا حكم عليها بحياة ليلية صرفة، وفي الظلام. منذ اليوم الّذي أصبحت فيه كليليا امرأة وأمّاً، هجرت القطب المضيء لتدخل في إطار الليل. وهذا ما يتطابق مع الاحتجاب الكامل لعلاقتها عن أعين الجميع، وفي نهاية الرواية، كما في بدايتها نغولة جديدة: سندرينو. هذا الحب المتستر في الظلام ينتهي إلى هذا الاكتشاف الباهر عن وفاة سندرينو غير الصحيحة، تبعتها وفاته الحقيقية، مما سيعجّل النهاية بشلّال من الوفيات. حصرت الرواية بكاملها من بدء نور هذه البدايات العذب إلى اللّيل النهائي.

تتعلق تقنية «الصومعة» بعض المرات بتقنية الحولية، والتنبيه الذي

وضعه ستندال في بداية كتابه يسترعي الانتباه إلى هذه العلاقات، فيكشف المؤلف مراجعه: قصة الدوقة سنسفرينا المنشأة من جديد بفضل وثائق كاهن. بالرغم من تعاصرية الأحداث سيتمكن ستندال من أن ينجح، إلى المباعدة التي هي من خصائص الحولية: «سأعترف: كانت لي جرأة ترك الأشخاص على فظاظة طباعهم، ولكن بالمقابل أصرح عالياً، وأنحو باللائمة الأشد عنفاً على خلقية الكثير من أعمالهم: «الصورة التاريخية في بداية كل حولية، ولكنها هنا تحتلّ أهمية بقدر ما يشعر القارىء انه انتقل من الحولية إلى الرواية. هذا الانتقال يتم لأسباب أخرى: وجهة النظر الروائية تتبدّل بسرعة: لم تعد وجهة كاتب الحولية ـ إلاّ عَرَضاً ـ في معركة واترلو: تشاهد المعركة بكاملها بعيني فابريس. وإذا كنا مغمورين بغنى «الصومعة»، وكان من الصعب جدّاً القول ما الموضوع أو مَن البطل الأهم (في إحدى أجوبة ستندال إلى بلزاك يعترف إذا كان يتعلم عن فابريس كما عن «بطل»، فذلك بكل بساطة لكي لا يكون علي أن أردد اسمه، ولكن بدون أي نية بجعله يتمتع بأيّ امتياز أو تفضيل) فذلك أن ستندال يبرع بتبديل وجهات النظر: وما يختصّ بفابريس هو الأكثر ترديداً، وبعض الفصول معاشة من خلال نظرة جينا وكليليا، وحتى موسكا في («الأحمر والأسود» وجهات نظر ماتيلد أو السيدة ده رينال مجملة دون أن يتأثر بذلك حقاً تناسق الرواية. في النهاية نظرة جوليان ونظرة ستندال). تعديات الكاتب نادرة «لاحظ جان بريفو، أن المؤلف لا يتدخّل البتة إلاّ من أجل الدلالة على فكرة تنقص الشخص». ولملء الفراغ: فراغ زمني أيضاً، عندما يقفز ستندال، بفرح، فترات

زمنية. «هنا نعتذر بالمرور، على فترة ثلاث سنوات». إن نموذجاً آخر من التدخلات يمكن أن يفسَّر بالمرح الّذي يؤلّف به ستندال: يتنبّه فجأة إلى أنه نسي تفصيلاً أصبح ضرورياً: «نسينا أن نخبر في مكانه، إنها كانت أخذت بيتا في بلجيرات». يجد القارىء متعته وهو يشارك في النظرة الخلابة: غـضّ النظر عن حدث لم يكن يحتاج إلى معرفته، فالرواية لا تنسخ الحياة. وأخيراً ثمة تدخّلات تدلّ على ميل المؤلف نحو أحد اشخاص الرواية: أن فقر الوسائل المستعملة من السجين المسكين كان كما يبدو لي (. . .)».

تمتاز الحوارات بغنى وتعقيد لم تميّز به الحوليات التي لا تمثـل شيئاً، ولا حتى في «الأحمر والأسود»، تقام الاتصالات في «الصومعة» بين الكائنات عن أسهل الطرائق. اطلق ستندال ألسنة جميع الشخصيات لكي يدفعهم للتعبير عن عواطفهم أو ـ إنها واحدة من المسرات الستندالية ـ لكي يجعلهم يحبكون خيوط الدسائس. في ضرب في نشوة التركيبة. ونجد هنا أيضاً فيضـاً من التراكيب: فـإلى جانب الإنشاء المباشر وغير المباشر ونصف المباشر، رسائل عديدة وهامة: وخاصّة تلك التي تلقاها فابريس السجين والّتي تصله بطريقة سريّة مفرحة. وقد تكون بعض المرات اقتحامات مربكة في الحياة وفضلاً عن ذلك، حياة الاسر.

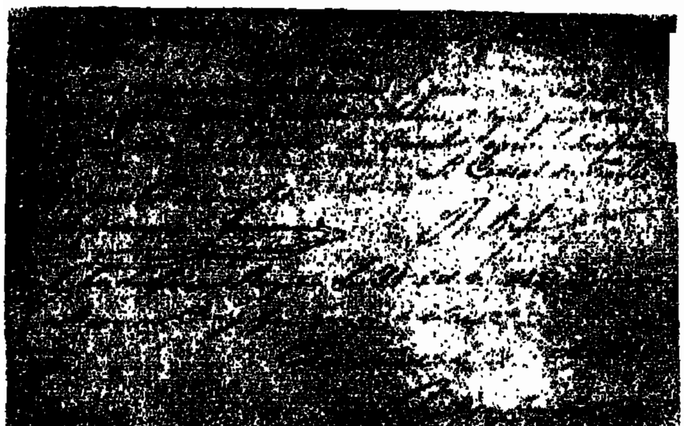
يكتشف القارىء في «الصومعة» تصاميم قصائد، تناسب البيئة الايطالية: يتحفظ ستندال بالواقع بإيراده كاملة، ويتوصّل على نحو مدهش إلى رسم الجو الشعري ونغمية هذا العمل الفني الوهميّ من

وجهين. يعطينا ستندال فكرة عن قصائد فيرانتي بالا. ويوسّع أكثر حتى التي ألفها فابريس الأسير ووجهها إلى كليليا، على هوامش أحد كتب القديس جيروم. وكتب ج، بريفو: تبرز هذه القصيدة النثرية من تلقاء ذاتها وبوضوح في قصيدة وزنها وتري»

إن زمان «الصومعة» يمتدّ على سنوات طويلة. وبما أن ستندال بدأ قصته سنة قبل ولادة بطله ويرافقه حتى الموت، الذي حصل قبل أوانه، فأبطال ستندال يموتون شباباً: عدم صبرهم لا يسمح لهم بأن يشيخوا، ولكن ضمن هذه الفترة يتبدّل الإيقاع بقدر ما يتمكّن البقاء في ذاكرة شخص أو في خلق عمل أدبي بالنسبة لأهمية الحدث التاريخية، وبشباب وقابلية البطل معاً، وبوجهة النظر المحددة إرادياً، ألزم الروائي نفسه بها، وتعرف فترة الطفولة هي أيضاً، بأنها امتداد طويل، بفضل الفن الذي يوحي به المؤلف كالترديد على البحيرة الخ. ثمّ لا يتوقف الزّمن عن الاسراع، مما ينمي الشعور بمطابقة بين زمن الرواية وزمن البطل. السرعة هي في النهاية بقدر كبير بحيث أن ستندال يقفز عدة سنوات ولا يعطي عن النهاية سوى موجز. أهو بسبب بخل ناشر الكتاب كما تردّد كثيراً؟ هذا المظهر المختزل، في نهاية الرواية، كان، كما أعتقد، نتيجة ضرورية لحصر الزمن. والكاتب كما في «رئيسة دير كاسترو» يدع لقارئه الخيار بين مصيرين: «الأوّل، بحسب الحلم والثاني بحسب القوى الخارجية» ولكن ستندال شعر تماماً أنه يستطيع أن يختار النهاية المثالية «أدخل إلى هنا، يا صديق قلبي». والخاتمة البارعة وخيبة الأمل كانتا ضروريتين لجمالية العمل الروائي. وهكذا، من ناحية أخرى، تتم نبوءة الأب بلانيس.

تتصل النهاية بالبداية، وتقفل الحلقة، بدون أن تتوقّف الرواية، عن الانفتاح، إذ أن القارىء، مع هذا، حرّ في أن يتوقّف عند اللحظة الّتي يدخل فيها فابريس باب بستان الليمون الصغير، في ظلام كامل، حيث يشعر بيد خلال الشبكة كما هو حر في أن يختار الشبكة، الجاهزة للانفتاح، وأن يرفض الحاجز الّذي هو نهاية الحياة. و«الصومعة» ليست لفابريس غاية، ولكنها توقّف قصير وترقب قلق: يذهب للاعتزال فيها، بانتظار اللحظة الأبدية، والعتبة الّتي ستقول له عندها كليليا من جديد وإلى الأبد: «أدخل إلى هنا، يا صديق قلبي».

بياتريس ديدييه



آخر توقيع له على سجل القنصلية

سيرة ستاندال

١٧٨٣ ـ ٢٣ كانون الثاني ـ ولادة هنري بيل (ستاندال لاحقاً).

١٧٩٦ ـ ٢١ تشرين الثاني ـ دخوله المدرسة المركزية في غرينوبل.

١٧٩٩ ـ الجائزة الأولى في الرياضيات بعد أن كان حصل في العام المنصرم على الجائزة الأولى في الأدب.

٣٠ تشرين الأول: انتقل من غرينوبل إلى باريس.

١٨٠٠ ـ أخذه بييردارو ابن عمه، في الأسبوعين الأولين من السنة إلى وزارة الحربية.

ـ في ٧ أيار أرسِل إلى ايطاليا.

ـ في حزيران انتقل إلى ميلانو، وعيّن في أيلول ملازماً أول في فوج الفرسان.

ـ في كانون الأول، ذهب إلى غرينوبل لقضاء فترة نقاهة.

١٨٠٢ ـ ١٨٠٣ ـ اقامة في باريس. جرّب نفسه في المسرح، عاد إلى غرينوبل، في حزيران لمدة تسعة أشهر.

١٨٠٤ ـ نيسان ـ عاد إلى باريس مغرماً بالممثلة الهزلية ميلاني غيلبير المعروفة باسم سانت آلبر وسيتبعها إلى مرسيليا في السنة المقبلة.

١٨٠٦ ـ عاد الى باريس واستأنف علاقته بـدارو وحصل منه على

مهمة في بروسيا، وفي تشرين الأول عُيِّن مساعداً مؤقتاً مع مفوضي الحربية وأرسل إلى برونشفيك ثم ثبت بهذه الوظيفة في الصيف الذي تلا.

١٨٠٩ ـ عاد إلى باريس منذ سنة وأرسل إلى ستراسبور ثم رافق دارو إلى فيينا. لم يحضر معركة واغرام بسبب مرضه (ربما يكون فابريس مجدداً شهد هذه المعركة). اشتدت أواصر صداقته بالكونتيسة دارو.

١٨١٠ ـ عاد مجدداً إلى باريس. بدأ الفترة الاجتماعية من حياته وهي لامعة ولبقة ولطيفة. وخالية من الهموم وسعيدة، ولن يعيشها ثانية. كان يحلم دائماً بالوصول إلى المجد عن طريق المسرح. وعيِّن على التوالي في مجلس استشارة الدولة ومفتش أساس ومبانٍ.

١٨١١ ـ ربطته علاقة بانجلين بيريتر. ستدوم أربع سنوات. ولكن هذه العلاقة لم تكن بالتأكيد مقتصرة عليها. فأنجيلا بييترا غروا كانت عشيقته في ميلانو. وكان ذهب إلى ايطاليا أواخر الصيف. وقام برحلة إلى بولونيا وفلورنسا وروما ونابولي.

١٨١٢ ـ باشر بكتاب «تاريخ الرسم في ايطاليا». في شهري آب وأيلول سافر إلى موسكو ثم كان الانسحاب من روسيا.

١٨١٣ ـ خيبة أمل. لم ينل أية جائزة عن مسلكه الرائع خلال الانسحاب. اقامة متعاقبة في ايطاليا وباريس وغرينوبل.

١٨١٤ - يفتش عن مركز. باشر بكتابة «حياة هايدن» وموزار وميتاستاز. بدء اقامة لمدة سبع سنوات في ميلانو سئمته انجيلا. وكان هو ضجراً من كل شيء. تفكير بالانتحار.

١٨١٧ - آب - نشر كتاب «تاريخ الرسم في ايطاليا».

أيلول: روما، نابولي، وفلورنسا عام ١٨١٧.

١٨١٨ - حبه لمتيلد دومبوفسكي.

١٨٢٠ - ١٨٢١ - نتائج هذا الحب التعيس. استخلص منه كتاب «عن الحب». فقد المخطوطة. عاد فوجدها وأعاد كتابتها.

١٨٢٢ - نشر كتابه «عن الحب».

١٨٢٣ - «راسين وشكسبير» وحياة روسيني.

١٨٢٤ - في روما. باقي السنة في باريس. علاقته بالكونتيسة كوريال.

١٨٢٦ - نهاية العلاقة: هي التي قطعت علاقتها به.

توفيت ماتيلد دمبوفسكي السنة السابقة، في ميلانو - رحلة إلى انكلترا اقامة ثالثة في لندن. باشر تأليف رواية ستكون آرمانس.

١٨٢٧ - شباط - طبعة جديدة لكتاب «روما، نابولي وفلورنسا».

آب: آرمانس.

ـ سافر إلى ايطاليا في تموز. ذهب إلى نابولي واسكيا وروما وفلورنسا (حيث التقى لامرتين) ثم انتقل إلى ميلانو.

١٨٢٨ ـ قضى السنة في باريس وفتّش فيها عن وظيفة.

١٨٢٩ ـ علاقة بألبرتين دي روبنبري (التي وجد إلى قربها خصماً مخيفاً بشخص أوجين دولاكروا).

ـ هوى وحسد: انطفأ بعد ثلاثة أشهر.

ـ أيلول: نزهات في روما.

كانون الأول: فانينا فانيني في مجلة باريس.

١٨٣٠ ـ هامت به امرأة لأول مرة في حياته ومع هذا تطلبت جيوليا رينيرا شهرين للاستسلام. في ٦ تشرين الثاني، يوم ذهابه الى ترييستا طلب يد جيوليا من الوصي عليها فرفض طلبه.

ـ ١٣ تشرين الثاني: «الأحمر والأسود».

ـ رفضت الحكومة النمسوية القبول به فعيّن قنصلاً في تشيفيتا ـ فيكيا.

١٨٣٢ ـ قام برحلات في ايطاليا وكتب ذكريات نرجسية.

١٨٣٣ ـ اكتشاف نسخة من المخطوطات التي ستوفر له موضوع الحوليات الايطالية.

ـ نيسان: زواج جيوليا.

- ١٥ كانون الأول: لقاء في ليون مع جورج صاند والفرد دي موسه وكانا في طريقهما إلى ايطاليا حيث كان هو نفسه بعد اقامة في باريس. نزلوا سويّة الرون.

١٨٣٤ - تشيفيتا فيكيا يعني روما. باشر بكتابة «لوسيان لوين».

١٨٣٥ - توقف عن كتابة روايته «حياة هنري برولار».

١٨٣٦ - اجازة ثلاث أشهر، في باريس، حيث سيبقى ثلاث سنوات.

١٨٣٧ - يجرب أن يستعيد حياته المتألقة التي عاشها عام ١٨٢٠. ولكن الزمن تبدّل. بدأ ينشر الحوليات الايطالية في المجلات.

١٨٣٨ - «مذكرات سائح».

- صادف جوليا.

- تابع نشر الحوليات الايطالية وفكران يضع حولية جديدة مستمدة من شباب الكسندر فارنيز. اتخذ المشروع هيكلاً ثمّ توسع وأصبحت القصة رواية. اعتزل ابتداء من ٤ تشرين الثاني، في ٨ شارع كومارتان، في ١٥ منه كان كتب ٢٧٠ صفحة من مخطوطته. وفي ٢ كانون الأول ٦٤٠ صفحة.

- عيد الميلاد: أنهى ستاندال تأليف «صومعة بارما أو دير الشارتريين».

في اليوم التالي ٢٦ كانون الأول سلّم المخطوطة إلى رومان كولومب الذي دفعها إلى الناشر ا. دوبون.

١٨٣٩ ـ أول شباط وأول آذار «نشرت» رئيسة دير كاسترو على دفعة في مجلة «العالمين».

ـ من ٢٦ شباط إلى ٢٦ آذار ستاندال يصحح مسودات المطبعة لرواية «صومعة بارما».

ـ في ٢٦ نشرت جريدة «الدستوري» حلقة واغرام.

ـ في ٦ نيسان نشر «صومعة بارما».

ـ حزيران: ذهب إلى تشيفيتا فيكيا، متّبعاً الطريق الطويل فلم يصل إليها إلا في آب. يقضي وقته خاصة في روما حيث التقاه ميريميه. باشر بتأليف «لاميه».

ـ ٢٨ كانون الأول: «رئيسة دير كاسترو» التي هي الحوليات الايطالية.

١٨٤٠ ـ كل الأسباب مقبولة لديه للهرب من تشيفيتا ـ فيكيا، لا يزال في روما. عرف حباً جديداً لايرلين الغامضة. وسيكون هذا حبه الأخير. أدرك ذلك وسمّاه: «آخر أغنية حب».

ـ ١٥ تشرين الأول وصله مقال بلزاك عن «صومعة بارما». وسينقح روايته طيلة ثلاثة أشهر.

١٨٤١ ـ ١٥ آذار ـ نوبة دماغية «فتنازع والعدم».

ـ أيلول: فرصة في باريس. أجبر نفسه على العمل بانتظام وربما كان عمله على لاميبه.

١٨٤٢ ـ ٢٢ آذار ـ نوبة دماغية جديدة في شارع نوف دي ـ كبوسان لم يستعد وعيه.

ـ ٢٣ آذار: وفاته في الثانية صباحاً.

فهرس

منشورات عويدات ١٩٨٣/٨٦٣

Stendhal
La Chartreuse de Parme

Préface de Paul Morand

Traduction arabe de Joseph ELIANE
Revue par Henri ZOGHAIB

MARIANNE/OUEIDAT
Beyrouth

Stendhal
La Chartreuse de Parme

